

كتاب
سجلور

مايكل أنشر



لورا انيس

ملك العرب غير المتوج

ترجمة: د. فاطمة نصر
تقديم: د. عاصم الدسوقي

0185036



Bibliotheca Alexandrina

لورانس ملك العرب غير المتوج

تأليف: مايكل آشر

ترجمة: فاطمة نصر

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Lawrence: The Uncrowned King
Of Arabia

بقلم: Michael Asher

الصادر عن دار نشر: Viking

في عام ١٩٩٨

طبعة أولى ٢٠٠٠

كتاب سطور

هيئة التحرير :

اعتدال عثمان

فاطمة نصر

– الكتاب . لورانس ملك العرب عبر المنوح

Lawrence "The Uncrowned King of Arabia"

– المؤلف . مايكل آشر Michael Asher

– ترجمة : د. فاطمة نصر

– المراجعة التاريخية : عاصم الدسوقي

– غلاف وإخراج : حوى

– الجمع والتفيد : عصام عيسوى

– المراجعة اللغوية : عمر الشاوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠

رقم الإبداع ١٤٦٤١ / ٢٠٠٠

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الترجمة والطبع محفوظة لـ سطور

٨ و ٢٣ تقسيم الشينينى بحوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت : ٥٢٤٠٠٢٠ / ٥٢٦٣٥٩٩

e mail address : sutour@misnet.com.eg

إصدارات سطور:

مجلة سطور

مجلة شهرية ثقافية عربية

كتاب سطور :

١ - محمد «سيرة الرسول»

٢ - صدام الحصادات

٣ - عصر الحساب والإلكترونيات

٤ - القدس مدينة واحدة عفائف ثلاث

٥ - العولمة والعولمة المضادة

٦ - الباربع السرى للموساد

٧ - حريم محمد على ناسا

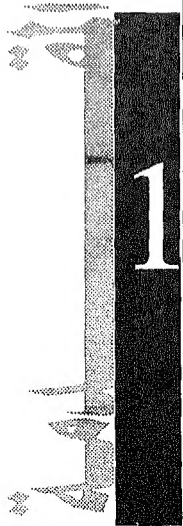
٨ - من بخاف استنساخ الإنسان

٩ - عولمة القمر

١٠ - صور حبه من إيران

إصدارات خاصة (

السحب عن العدل (السلطة والقانون والحرية)



لورانس

تفكيك الأسطورة

عاصم الدسوقي

اقترن اسم لورانس في كتب التاريخ

بثورة الشريف حسين أمير الحجاز

ضد الحكم التركي في يوليو ١٩١٦

المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى

لقد أصبح يعرف في الأدبيات

«بلورانس العرب».

وقد خلعت هذه الكسب على لورانس ألوانا من البطولة وصوفيا من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تحلب لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها . وربما ترجع «أسطوره» هذه الشخصية إلى الغموض الذي اكتشف صاحبها عبد الدين التتوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء ، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين ، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر في رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه ، ثم كاتب وفاته وهو على ظهر دراجته النى كان يعشق ركوبها ونسعره بأنه بدوس العالم لتحل منه بطلا نراجيديا بالمعنى المسرحى .

ولم ينسعل العرب الدين الصفوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأناء الصراع مع الأتراك بالعرف على حصفه ، ولماذا يصل بهم ويعرض حبرانه لمساعدتهم فى الإعداد للنزوة . كما لم ينوقفوا أمام ما لاحتظه عليه من سلوك ساذ ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما اصح لهم صدق نصورانه فى النطقى العسلى ، وطالما أنه ساعدهم «فعلا» لإعلان ملكه عربية مستقلة طمعا لمراسلات الشريف حسين مع

مقدمة

هنرى مكماهون المدوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ - ١٩١٦). كما لم يدرك العرب آنذاك - ولم يكونوا مفردين فى هذا - أن لورانس ينفذ خطة فى استراتيجية بريطانية تمت صباغتها سرا منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمابا والنمسا فى الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها. وقد استخدمت بريطانيا فى هذه الخطة وبمهارة ملحوظة التناقض بين عرب الحجاز (الشريف حسين) وحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على السلطة فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨، ولعبت على وتر العواطف القومية عند العرب تجاه الأتراك بحرص شديد حتى تحقق أغراضها.

والحاصل أنه فى ١٩١٢ أرسلت حكومة الاتحاد والترقى وهيب باشا ليكون واليا على الحجاز ولبس على باشوية جده كما كان الحال أيام السلطنة العثمانية الأمر الذى جعل الشريف حسين يتوجس خيفة من نيات الحكومة التركية الجديدة. فماذا يفعل...؟ بحث عن ظهير يستند إليه فى الصراع الذى قد يفسجر ضد الأتراك. وأنداك لم يجد سوى إنجلترا التى تحتل جيوشها مصر، ويخضع لها أمراء

الخليج العربى من مسقط جنوبا إلى الكويت شمالا ، وتحتل عدن فى مدخل البحر الأحمر ، فأرسل ابنه عبد الله (أول أمير لإمارة شرق الأردن) إلى القاهرة والتمى باللورد كتنسبر المعتمد البريطانى وعرض عليه الموقف ، وحاول أن يحصل على وعد بتأسد الإنجليز للشريف فى الصراع المرتقب مع الأتراك . غير أن كتنسبر أبقى لوزارة الخارجية فى لندن خلاصة المفاصلة وحذره المسئولون من الالتزام بأية وعود . وكل ما خرجت به السياسة البريطانية من هذا الموقف أنها عرفت بوجود تناقص فى المصالح العربية التركية ففتحت له ملفا قد تستخدمه فى الوفاء المناسب .

ثم جاء الوقت المناسب عندما انضمت تركيا فى نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب ألمانيا والسمسا (دول الوسط) ضد الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا) . وأنداك كان اللورد كتنسبر قد ترك منصبه فى مصر وأصبح وزيرا للحرب فى بلاده ، وتذكر مفاصلاته مع الأمير عبد الله بن الشريف حسين ، ففتح الملف العربى التركى ، وبدأ تسعيل التناقص لصالح الإنجليز وحلفائهم . كيف ؟ . يقوم الإنجليز بتشجيع الشريف حسين للقيام بالثورة ضد الحكم التركى لإعلان المملكة العربية طبقا للمراسلات ، وبهذا تفتح جبهة على الأتراك لمواجهة الثورة تضطربهم لسحب جزء من قواهم الحاربة فى أوروبا فيضعف بذلك مركز أعداء إنجلترا .

وعندما تمت اتصالات الإنجليز فى القاهرة بالشريف حسين فى مطلع عام ١٩١٦ للإعداد للثورة لم يتساءل الحسين عن أسباب صمت الإنجليز طوال أربع سنوات منذ مقابلة ابنه عبد الله مع كتنسبر (١٩١٢) عن الوفاء معه ضد الأتراك . . . ولماذا جاء الاتصال للقيام بالثورة فى هذا التوقيت بالذات ، وغير ذلك من الأسئلة التى بطرحها العقل المركب غير البسيط فى مثل هذه الحالات . وكل ما لفت نظر الشريف أن الإنجليز أخيرا بدعمنونه ليس فقط صد مركزية حكومه الاتحاد والترقى وإنما بالثورة ضدها وإعلان المملكة العربية من دمشق .

إن هذه البساطة فى التفكير عند العرب بشكل عام وعند عرب الحجاز بشكل خاص كما وصح من تبادل المراسلات هو ما شد لورانس إلى العرب حيث وجد فى حصانهم ما ألهب حباله المربض الذى كونه فرائته عن فلاح العصور الوسطى . وقد خرج من هذه الفرائات بأن العصور الوسطى هى العصر الذهبى لآراب

مقدمة

الإنسان به الذى توقف فى رأيه عند عام ١٥٠٠ حتى أنه لا يعترف بالتاريخ الحديث الذى يبدأ بالقرن السادس عشر . لقد كان العرب - دون أن يدروا - هم ضالة لورانس فى تحريب أفكاره وتصوراته عن المفكر البسيط غير المركب ، وعن العقل الحام الذى يمكن تشكبله بمعرفة فنان يحدد التعامل مع الأشياء على طبيعتها .

والحقيقة أن شخصية لورانس التى انجذبت للعرب لم تكن متوائمة مع المجتمع الإنجليزى الذى نشأت فيه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فبقدر بعده عن الإنجليز كان قربه من العرب ولبس العكس . ومن ناحية أخرى أن ننخلع إنسان عن محيط مجتمعه ويعوص بكل ثقله فى مجتمع حديد لأمر شاد وغبر سوى . وهذا هو المدخل الذى اعتمد عليه مؤلفنا لكشف الوجه الحقيقى لشخصية لورانس التى حاول صاحبها إخفاءها عن الناس لنبقى متوارية ، وفى هذا بقول لورانس : « إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة الإتيان بتعبيرات محببه ومنضاربة ومضللة » .

فما مصباح فهم شخصية لورانس ؟

كان لورانس نمرة لعلاقة غير شرعية بين والده سليل لوردات الإقطاع الإنجليزى ، وسارا مرساة الأسرة التى وقع فى غرامها . ويفهم من سياق سيرة حياته أن والده كان بحب حياه اللهو والنرف ، وزوجته امرأة شديدة النمساك بأهداب الفضائل الدينية ولم تكن تحاربه فى محونه . ومن هنا وقع فى عرام سارا فى زمس كانت العفة فيه علامة أساسية للشرف وعوانا له . وهنا اضطر العنسيقان لمعادرة أيرلندة إلى ويلر لبدأ حياة جديدة ولكن فى عزلة عن مجتمع ويلز ، لا يختلطان بأحد حتى لا يفنضح أمرهما . وبعد عدة تنقلات من مكان لآخر استقرت الأسرة الجديدة فى أكسفورد عام ١٨٩٦ .

وفى أكسفورد التى شهدت صبا لورانس سيطرت عليه أمه تماما بل كانت شديدة القسوة فى تربية أنانها تفربا إلى الله ليعفر لها خطئها ولعل هذه التربية القاسية وطروف مجبئه إلى الدنيا دون إحوته كانت وراء مازوكيته والبحث عن اللذة الأليمة فى التعذيب الحسى والفسى والجنسى . ولهذا حمل لورانس فى نفسه مجموعة من العادات المتنافضة غير المألوفة جعله موضع فضول الآخرين

فأصبحت عبون الآخرين بالنسبة له هي الحميم بعينه كما يقول سارتر . ومن ذلك أنه لم يحب المنافسة في مجتمع رأسمالي تقوم الحياة فيه على أساسها ربما لأن المنافسة تفرض عليه الاختلاط بالآخرين في الوقت الذي كانت أمه تريد إبعاده عن هذا المجتمع . وأيضا كانت سيطرة أمه والإحاطة به ليل نهار سببا في ابتعاده عن التعلق بالنساء ، وحولته إلى حننوى يحب اللواط مع من هم أكبر منه ويجد في ذلك لذة أليمة وألما لذيذا . وعاش مختفيا تحت جناحي أمه حتى لا يفلت منها إلى العالم الخارجى . وهكذا لم يعيش طفولة عادية أو مرهقة عادية شأن أقرانه . وعندما أراد الهرب من سيطرة أمه وجد في التاريخ المهرب والملاذ الآمن .

وهكذا وفي مدرسة سانت جون بأكسفورد قضى عشر سنوات لم يعنى من مواد الدراسة غير التاريخ وبصفة خاصة تاريخ الشرف ومصر القديم . وربما كان حبه للتاريخ من باب الاغتراب عن مجتمعه بالنسبة لآخرين . وفي عام ١٩٠٦ جاءته مسحة لدخول جامعة أكسفورد لدراسة الرياضات ولكنه رفضها لحيه للتاريخ . وفي تلك الأثناء وهروا من الواقع غير المواتى التحقق بسلام المدفعية الملكى مجندا وكانت تجربته قصيرة وفاشلة استغرقت أقل من سنة أشهر . ثم جاءه المسحة التى يريدونها لدراسة التاريخ (١٢ يولييه ١٩٠٧) وعمره إذ ذاك تسعة عشر عاما . ومع هذا لم يكن منتظما في حضور الدروس وانصرف إلى القراءة الحرة عن الزمن الذى يحبه قبل القرن السادس عشر .

وفي العام الأول بالجامعة وفي مطلع عام ١٩٠٨ كان قد فسد إيمانه بالمسححة واستبدل باليقين الإيمانى الحدى ، وفي مرحلة نالبة انحه تفكيره إلى العملاسة لعباس كيمية حدوث الأشياء وإلى أس تنجه . ومن ها حمل تفكيره بعض المفارقات ، فهو شديد العملاسة لدرجة أنه لم يكن يوسعه أن يؤمن بشيء . أى أنه عاقل إلى درجة الحنون . وفي الوقت نفسه كان يرى أن الإيمان هو كل شيء ، وربما جعله هذه المفارقات التى لم يكن بدرى بها طبيعته الحال عبر راض عن أعماله بشكل عام ، وفي هذا يقول : « لا شيء فعلته يبدو لى جيدا بالفدر الكافى » .

كانت تلك معالم شخصية لورانس الفلسفة والعلمية التى قابل بها العرب في أول رحلة له لسلاسل الشرف في سوريا في ١٨ نوبه ١٩٠٩ على ظهر السفينة

مقدمة

منعولنا إلى بورسبعده ومنها إلى بروت لينفى وحها لوحه بناربخ السرق الذى احبه . وكانت هذه الرحلة حاصه بالسفب عن آثار حصاره الحينين القديمه سمالى سوريا حبت عمل مساعدا لعالم الآثار هو حارث . وكانت فرصه فى التعرف على الناس وعلى الأماكن وهو بلفظ ما نجود به الحفريات من آثار لرمسى أساده هو حارث . ثم عادر السرق ليعود بعد ذلك فى مهمه أخرى اخلطت فيها مزاعم مساعده العرب ضد الأتراك بحقائق دعم فضبه الخلفاء فى الحرب ضد الأتراك . كما تقاطعت فيها خيوط حلم لورانس - كما قال نفسه - بتحرر العرب من قيد الأتراك بإنشاء مملكة عربية بواقع تحررهم من الأتراك ليقعوا صيدا سهلا فى شباك الإنجليز لصفه المسألة السرفبه كما كانت تمنلها الدوله العثمانبه التركيه .

ولبس من باب المعالاة القول إن المؤلف بنار من لورانس لسبب أو لآخر . . . ربه أن سزله من عرش مريف بوج عليه ملكا للعرب أو رعما لهم ، اد براه بعقبه فى رحلاته السى كنب عنها فى مدكراته وبفان ما ورد بها بما ورد بمفكرته الصعبره وبما ورد فى رسائله إلى الآحرين ، ثم نراه بفس المسافات بين كل الأماكن السى ذهب إليها لورانس والرمز الذى استعرقه التنقل عبر هذه الأماكن لسفول للفارى فى الشهابه كم كان لورانس كذوبا ومخادعا ، ثم براه بركر تركبرا شديدا على سذوذه الحنسى ويعبره مقناح فهم شخصه لورانس . ولبس من شك أن المركز على هذه المداخل الشخصيه بسهم فى نهشم الصوره المثاليه التى أراد لها لورانس أن تسفر فى مخللة الناس وخاصة فى مجله أهل الشرق حيث نحل الأخلاق مربه عليها فى نقوبهم حركة الناس وتصرفاتهم وساساتهم ، وحسا فعل .

فهل نصح المؤلف فى هذا؟ إنى أدعو الفارى العربى لبتعرف على العالم الحقى للورانس «العرب» فى الصفحات التالبه .

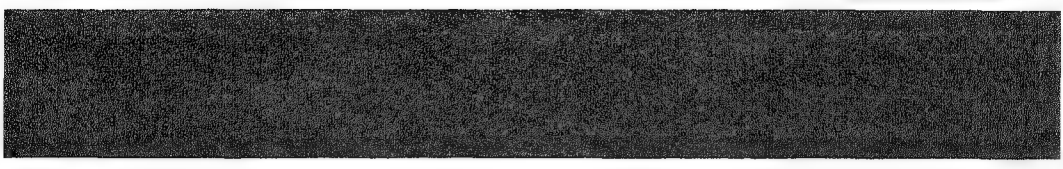
عاصم الدسوقى



وادی

القمر





إن القصة التي أوريها هي إحدى

أكثر قصص البشرية روعة من ت . إي .

لورانس إلى فيثيان ريتشاردز يتحتم

علينا أن نعاني كي نرضى من ت . إي .

لورانس إلى شارلوت شو

ذات صباح قانظ في أربيل ، نسلقت جانب تل بوادى رُم في الأردن متوقعا بين الحين والآخر أن أستشعر رياح الصحراء السى كانت تنفض على الأودية على مرمى بصرى ونعوى فى الضوء البرتفالى العتيق . قد سكون هذا الوادى بفايا مدينة مريخية قديمة أصبحت منبعجة مشوهة بفعل الزمن وبالفعل ، فالبدو يطفون عليه اسم « وادى القمر » ويعتقدون أنه قد هوى من النجوم . كنت أبحث عن البقعة التى تسمى « بيع لورانس » حيث كان « لورانس العرب » يستحم أثناء إقامته بالوادى عام ١٩١٧ . كانت حفية الظهر التى أحملها لا نحوى سوى وعاء الشرب المطلى بالمينا وسخة من كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » الذى كنت قد قرأته وأعدت قراءته على طوال سنوات عديدة . واليوم ، كنت أشعر أن هذا الكتاب فى ثقل حجر الطاحون . كنت قد عاذرت لتوى أحد خيام بدو الحويطات وهم أحفاد رجال القبائل الذين خرجوا للعزو مع لورانس وقد أدهشنى ما أحبرونى به : « لم يكن لورانس قائدا للثورة العربية ، كان محرد مهندس يعرف كبف يفجر خط السكك الحديدية - رجل ديناميت - هذا كل ما كانه » . لقد كان لورانس بطل طفولنى ، كما كان بالنسبة

مقدمة

لآلاف الآخرين ، ومن ثم ، كان لكلمات الأعراب تلك وقع شبيه بالكفر .

استغرق عشوري على ضالتي نحو عشرين دقيقة فقط . كان النبع يقع في صدع على شكل ٧ وكانت المياه تسدفع من قمة جبل «الرُم» من ارتفاع آلاف الأقدام وتندفق مفرقة في صهريج صخري لتنساب منه فضة سائلة عبر قنوات ضحلة ونساتات يابسة وفيرة من النعناع والزعر البري . ملأت الإناء بمياه الصهريج وتذوقنها كانت عذبة باردة شهية ، ثم جلست في ظل الحائط الصخري وفنحت «أعمدة الحكمة السبعة» على الصفحة التي كنت قد علمتها حيث كتب لورانس : «على معقل ناني من صخرة تزحف على سطحها القرمزى أوراق خضراء منسلقة ، وأبضا على تنوء أعلى الصخرة ، كانت هناك كتابات نبطية محفورة بوضوح . . وخرشات عرسة ، يشهد بعضها على هجرات منسبة ، إلا أن ما استحوذ على انتباهي كان فقط المياه المتساقطة في فتحة تحت ظل صخرة علوية» . ونظرت إلى أعلى لأجد الكتابات النبطية والعلامات العربية القبلية تماما كما وصفها لورانس منذ ما بقرب من الثمابين عاما . احتضنت اندفاع المياه والأعشاب البرية المتسلقة

العبيقة، وللحظة روعني وصف لورانس الحميم لها. بدا لي وكأنما لورانس، الذي توفي قبل ميلادي بثمانية عشر عاما، كان هناك بجواري، استشعرت حضوره كما لو كان ينظر من أعلى كتفي. ولدي عودتي إلى الصفحة انتابني إحساس قوى لا عقلاني أنه يخاطبني مباشرة كما لو كان يعرف بشكل ما أنني سأقتفي خطواته، وأنه كان قد كتب هذا خصيصا لي كي أقرأه في هذا اليوم وهذه اللحظة.

طالما خبرت مثل هذه الرؤى فوق الطبيعة أثناء سفرى في الصحراء حبت يولد الاتساع والسكون والفراغ شعورا باللازم يكاد يلمسه المرء: طالما التقطت فعوسا قبل تاريخية من على السطح وأنا أعلم أن يديّ هما أول ما لمسها بعد أن تركها صانعوها منذ مائة ألف عام. فبمقدور الروح الإنسانية، شكل ما في الصحراء، القفز عبر مثل هذه الفجوة. كنت واثقا أن لورانس قد شعر بهذا أبصا إذ بسود «أعمدة الحكمة» إحساس بالرهبة التي هي بالنسبة لي جوهر تجربة الإنسان في الصحراء. أثير «ت. إي لورانس» على حباتي بقوة منفردة؛ فبدون لورانس كان بالإمكان ألا أكون متحدثا بالعربية، وألا أمتلك القدرة على امتطاء الإبل وعلى قطع مسافة ١٦,٠٠٠ ميل على ظهر بعير، أو أن أحقق أول عبور للصحراء من الشرق إلى الغرب أى مسافة ٤,٥٠٠ ميلا، أو أن أعابش البدو التفلدبين سنوات ثلاث. وبدون لورانس كان من المحتمل ألا أخدم في الفرقة الحوية الحاصد، إذ إن بدوه لم تكن لتوجد هذه الفرقة (SAS) إن كلمات مضفى من الحويفات مازالت مشتتة في رأسي، وتساءلت وأنا أجلس هناك، كما تسأل عديدون آخرون، من لورانس الحقيقي؟ فالنسبة لمداهبيه، فإن كل كلمة قالها هي الحق، على حين ذهب ناقدوه بعيدا ليبرهنوا العكس. وفكرت أنه بالتأكيد، وبعد ثمانين عاما، بالإمكان الوصول إلى رؤية أكثر تعقلا وصدقا واعتدالا.

ولمدة عامين أخذت أقتفي أثر لورانس من مكتبة لأخرى، وعلى طول آلاف الأميال عبر صحراء الشرق الأوسط، على ظهور النوق أحبانا وعلى الأقدام أحيانا أخرى. وكان يحدث أن أشعر بحضوره، في أماكن غير متوقعة في ركن طليل بأشمولية، أو عند بوابة برج قلعة الأزرق، أو عند قمة جبل في المدورة. وأسمع صوته مرة أخرى. وأحيانا، وبينما كنت أعبر سناء على ظهر الناقة، أو أنسلف ممر الحفيرة، كنت أحس به هناك بنقدمات بخطوات وبضاحكني وأنسى لو أسرع للحقت به. لقد اكنسب سعبي وراء لورانس صفته الحج، وأخذت أنظر إلى هذه

مقدمة

المسيرة كطمس دسي، شكل من أشكال تفديس السلف، تأكيد الماضي، أو إعادة احمر اعد. حنن وقرات وسافرت، بيد أنه في اللحظة التي كنت أعتقد فيها أن لورانس في قبضتي، كان هو بفر مني ضاحكا ويظهر في بقعة أخرى. كنت أجد فقط صورتي في مرآة. لورانس وأنا يواجه أحدها الآخر في مرأتين متقابلتين نعكسان كلاهما إلى ما لا نهاية. وأخيرا، في هذه الصحراوات النائية، عرفت أن المناهد حرة من موضوع مشاهدته، واستوعبت أنه لا يمكن أن يكون هناك لورانس محدد، بل عدد لا متناه من صور لورانس، مثل بلورات الكريستال، في أعين ناظره. أما من اكتشفه فكان لورانس الخاص بي، والحقيقة الخاصة بي، فالحقيقة أنواعها عديدة، نوع بطل ساكرا كادا، وآخر بنشني وبتنقل ويتبدل تبعا للفرد والزمان.

الباب الأول

الجـوال

١٨٨٨-١٩١٦

الملكة الزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

الطفولة المبكرة

١٨٨٦-١٨٩٦

1

عام ١٨٧٩ هبطت في دبلن شابة

جميلة تدعى سارا لورانس من عبّارة ، كى

تبدأ مغامرة حياتها . أتت لتعمل مربية

لأطفال أسرة «جنتلمان» ثرى يدعى

توماس تشابمان الذى كان يمتلك قصراً

وضيعة شاسعة قرب دلفن فى إقليم

وستميث .

ورغم أن سارا كانت لم تتجاوز الثامنة عشرة، فقد كانت ذات مقدرة غير عادية ونزوع إلى السطرة، وكانت قد تخطت الحواجز الاجتماعية التي وحد العديدون أنه من المحال تخطبها. كانت قد ولدت ابنة غير شرعية لصانع سفن في تابنسايد بدعى جون لورانس الذي هجرها، ثم تينمت على يد أمها الكبيرة في سن التاسعة لبتولى تنشئتها راعى كيسة أسقفية وزوجته في مرفعات اسكتلندا ونلالها وفي آيل أوف سكاي. كانت سارا مصرة على أن تففز عبر الفجوة التي تفصل الفناء البتيمة التي تنتمي إلى طبقة العمال وبين ربة المنزل التي نتمى إلى الطبقة الوسطى في زمن كان طفل السفاح يحمل معه وصمة العار في المجتمع، وكان الطبقات شبه نائبة في مداراتها مثل الأجسام السماوية. وفكرت أنه إن لم نستطع أن تصبح ملكة أو سيدة البيت الإقطاعي، فبإمكانها على الأقل توظيف فوتها للإففاع بقلب السيد السبل، وهذا تحديدًا هو ما فعلته.

وكان نوماس نسايمان، الذي التحقت بخدمته، قد تلقى تعليم الصفوة في إيتون

الفصل الأول: الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

وسرنسستر . كان حفيدا لأحد البارونيات وسلسلة سبعة أجيال من ملاك الأراضي الإنجليز الكلويناليين الذين منحوا أراضي في إقليم كبرى برعاية السبر ولنر رالى . امتلك تشابمان مزابا أرباب الحسب من التعليم والنشأة وملكبة أراضى وضاع وخول وعربات وخدم وثروة إلى جانب وقت الفراغ اللازم للتمتع بكل هذا . إلا أنه لم يكن سعيدا إذ كانت زوجته إيديث سلطنة اللسان تعتبر المتعة خطئة وكانت ، كما قال أحد الجبران ، من نوع النساء المتزمتات دينيا بأسلوب رهيب واللاتى يذهبن إلى الكنيسة فى جميع ساعات النهار ، واللاتى لو حدث وسقطت إحدى خادومات المطبخ فى الخطيئة يقمن بطردها بعد نلويث سمعتها . وكان نروع إيديث الفتالى - والذى كان يجد تعبيره المفرط فى محاولاتها إدخال الفلاحين الكانوليك إلى البروتسنانتيبة قد أصبح مؤلما لدرجة أن توماس تحاشى صحبتها . وحسما ظهرت سارا فى الأفق لأول مرة ، كان توماس أبا لبنات أربع ، وقد وحد نفسه على شفا أواسط العمر وهو فى راتن زواج من امرأة قد توقف عن حبها مد أمد طويل . وكان ، وهو السوداوى المزاج ، عديم الجدوى ، السكير ، قد ألق

حتى عن المباحج الى كان النبلاء يقضون أوقاتهم في ممارستها مثل الصيد والفنص وصيد الأسماك . وانطلقت سارا الجميلة إلى عالمه المظلم كالشهاب وأسرته . وكانت مرحلة مليئة بالحياة بالقدر الذي كانت به إيديث لا دنوية تملؤها المرارة ، هذا بالإضافة إلى فدراتها التنظيمية الفدة . كانت قد قدمت إلى قصره - ساوث هيل - لرعاية بناته إلا أنها سرعان ما تولت رعاية شئون المنزل بأكمله وأصبح من الملاحظ أن تعود الحيوية إلى توماس لدى ولوج سارا الغرفة . وسرعان - وربما كان هذا حتميا - ما وقع السيد الإقطاعي في حب المربية .

وبالطبع ، فلم يكن من غير المألوف « لجنتلمان » فيكتورى ضجر أن يغازل خادمته . إلا أن فكرة هجر شخص من النبلاء طبقته من أجل علاقة مع خادمة كان أمرا لا يخطر على بال في زمن كانت فيه الأرستقراطية البريطانية مازالت تحتفظ بسمعة شبه إلهية . وكانت سارا تعلم أنها تخطو على حبل مشدود . فلم يكن لديها ما تقدمه سوى نفسها . وكان من السهل أن تنتهي أمر أبة فتاة أخرى أفل تصميمها وقوة حضور أن تصبح أما شابة عبر متروحة مصيرها الإصلاحية أو ما هو أسوأ . إلا أن سارا تمكنت من إحكام قبضتها ندرجبا حول توماس ، وترك مصيها كمربية في قصره ليعود للظهور عشيقته له في منزل في مدينة دبلن . وهاك ولد ابهما الأول موتاجيو روبرت - بوب - عام ١٨٨٥ . وعاش توماس لفترة من الوقت حياة مزدوجة متنفلا بين زوجته وسانه في ساوث هيل وبين عشيقته وانه . وسرعان ما لاكت الألسن سرتهما . فقد لمح بادل نسايمان سارا في أحد المناجر وسمعها تقدم نفسها على أنها « مدام تشايمان » ، ثم تبعها بدافع الفضول حتى مرلها حيث شاهد توماس نسايمان يخرج من هاك ، فاندفع إلى إيديث حاملا إليها الأخبار . وانفجرت الأخيرة بصراوة . وأجبر نوماس على الاختيار ما بين حياته الزوجية المنسره الفاحلة معها وبين علاقته عبر التقليدية وعبر المرحه ماديا بسارا . وباخساره لسارا انخذ نسايمان أكثر فراغات حياته سجاغه . ومن سم ، ودات يوم عام ١٨٨٧ ترك قصره بحدائقه السعاء ، ومروجه الحضراء وأسحاره الصوريه الأبرلدينه . وبد إرته وعافته إلى الأبد ولحق سارا في دنس سم طلب الطلاق من إيديث التي رفضت بعداد . ومن نم ، فررا النحدى والهرب إلى لندن حب يملكهما البدء من جديد . سم عادرا أبرلندا دات مساء قرب

الفصل الأول: الملكة المزيقة تكشف عن نورها الأخاذ

نهاية عام ١٨٨٧ بالعبارة، وحينما هبطا على الساحل في شمال ويلز في اليوم التالي كانا قد أصبحا السيد توماس لورانس وحرمه، لا توماس تشابمان اللورد الإقطاعي وسارا لورانس المربية، وقد لازمتهما هذه الصفة طوال ما تبقى من حياتهما.

وتكاد تكون اللحظة التي أخبرها لبتزوجا عرفيا أكثر الدحطات فمعا في تاريخ الأخلاقيات البريطانية بمرمتها. فمذ نهاية القرن الثامن عشر الذي تمز بلسرالة بسبية، أخذ المجتمع يتحول باتجاه النعصب البيورناني نبحة لحركة الإحياء البروتستانتى الإيجلى. ومن المفارقات، أن سارا كانت ضمن أنبا هذه الحركة. وكان عام ١٨٨٥ هو العام الذى بلغ فيه «حملة الطهارة» ذروتها، وكانت هذه حملة صليبية ضد التسببات الجنسيه حملت فى ركاها الرعب الفيكتورى من الفوصى الاجتماعيه ومن تحلل «الجنس الإمبريالى». ومن نم، أصبح الجنس التابو الأعظم، وكانت المجتمع بنظر نظرة متعصبة إلى كل ما يتعلق بالجدس أو العرى حنى وصل الأمر بالمجتمع المنحضر إلى تعطية أرجل آلات الببانو بالفماش حتى لا ترى عارية. غدا القانون الأخلاقى صارما وأصبحت العذرية هى المثال والأسرة مقدسة إلى أهد مدى، أما المرأة الساقطة التى تم التعرير بها فكاتب مدعاة لأشد أنواع الاحتفار. وقد أدى الخطر الشامل على كل ما نعلق بالجنس إلى جهل لا يمكن تصديقه فى جميع مسنويات المجتمع حتى أن طبيبا من أكسفورد أعلن أن تسعا من بين كل عشر نساء لا يبالين بالجنس أو يبغضنه بالفعل. أما الحزء السافى من النساء، واللاتى يتمتن به، فهن العاهرات». وقد عالج روبرت لوى ستيفنسون بخياله المتألق هذا الاحشام الفيكتورى فى روايته «الحالة الغربيه» للدكتور جىكل ومستر هايد» عام ١٨٨٦ إذ إنه فى ذروة حملة الطهارة تلك كاتب لدن بالفعل مركزاً دولبا للدعارة حيث فاف عدد ببوت الدعارة بها عدد المدارس. وكان الكنبرون من مرتادى هذه الأماكن من النبلاء الديس كانوا أعمدة المؤسسة الأخلاقية أثناء النهار. ورغم الخطر الصارم على ممارسة الجنس قبل الزواج فقد كان كثير من صبية الطبعة المتوسطة والعلبا يخبرون أول ممارسات لهم مع الحادما بالمازل.

لورانس ملك العرب غير المتوج

كانت تلك هي الأشباح القوطية التي تتحرك في خلفية الواجهة الشيكستورية المحترمة، والمحيط المظلم الذي أتى إليه إدوارد لورانس - أو نيد كما كانت تدعوه العائلة - باكيا في الساعات الأولى من صباح ١٦ أغسطس عام ١٨٨٨، ابناً لوالدين غير متزوجين كانا قد اختتما من حياتهما الأصلية لبعيدا خلق نفسيهما في حياة أخرى. ولد في منزل بدعى جو - فروبا آت تريما دوك - على شاطئ ويلز، فريبا من محطة عبارات دبلن بدرجة كافية توحى بأن عائلة لورانس استقرت في أول مكان مريح قابلها. وربما كان مما يتفق مع شخصية لورانس أن يزهو لاحقاً بأنه يشارك نابليون بونابرت - أحد عقليات القرن التاسع عشر الحربية العظيمة - تاريخ ميلاده رغم أن نابليون كان قد ولد في الخامس عشر من أغسطس. وبعد أن اكتسب لورانس شهرته العالمية كبطل حربي قام بإعادة تقويم نابليون ووصفه بأنه «عبقري جلف كان يفعل ما يرضى الغوغاء».

لم يتح الخوف من الافتضاح الذي لازم هرب والديه للعائلة فرصة للاستقرار. فقد عبرا مكان سكناهما بعد سنة من ميلاد لورانس وانتفلا إلى كيركودرايت على شواطئ اسكتلندا الفرية، ثم أقاما لفترة قصيرة في آيل أوف مان وسانت إيريه بجيرسى، ودينارد في بريتانى - وكانت كلها أماكن بعيدة عن مراكز المجتمع المتمددين حيث بالإمكان التعرف على توماس تشابمان. وفي تلك الأثناء ولد لهما ابنان آخران: ويليام وفرانك. وأخبرا حدثت نقطة تحول في ربيع ١٨٩٤ كان قد مضى على ارتباط توماس وسارا ما يقرب من عقد من الزمان لم تُكتشف خلاله هويتهما المزعومة وكان أولادهما الأربعة يكبرون سريعا وتتولى تعليمهم مريات. إلا أن الاسن الأكبر كان يحتاج إلى الالتحاق بمدرسة محترمة وأيضا إلى حياة أكثر استقرارا. ومن ثم، اقتحما في البداية الحياة في بعض الأقاليم الإنجليزية واستقرا لبعض الوقت في فولى على شواطئ ساونامبتون، ثم قاما في سبتمبر عام ١٨٩٦ بهجرة حاسمة إلى أكسفورد واستقرا في منزل متسع شبه منعزل حيث ولد ابنهما الخامس آرنولد عام ١٩٠٠.

وكان منزل لهما الجديد على شكل قلعة مصغرة من الطوب الأحمر ذا نوافذ نائنة وتخصيصات طبقا للأسلوب الفوطى الفسكتورى. ولو كان الشارع الذى قطاه جزءا

الفصل الأول: الملكة المزيقة تكشف عن نورها الاخاذ

من مجتمع أكثر عراقية لتمييزت العائلة، إلا أنه كان يرجع إلى عام ١٨٩٠ فقط وكان يسكنه معتربون مثلهما. لم ينسك أحد في حفيقة أمرهما، على الأقل حلال حياة نوماس كما لم ينأثر الأولاد. ومن الواضح أن عدم شرعية ميلاد لورانس لم تكن مصدرا للذنب أو الخجل إلى أن تكونت شخصيته. بيد أن هذا كان مدعاة إلى توتر كسر لتوماس وسارا وكان رغبهما من اكتشاف سرهما سبب امتناعهما عن الدخول إلى حياة اجتماعية نشطة حتى إنهما تحاشيا حفلات الشاي الأنيفة المتزمته التي كانت تقيمها أرامل هيئة ندرس جامعة أكسفورد. واستقرت الأسرة في حياة داخلية منعزلة. وقد قال عنهم أحد جيرانهم لاحقا إن الأسرة لم تكن نسجول كشرأ في أكسفورد وكان لديهم بعض الأصدقاء شديدي الإخلاص. وكانوا دائما سعداء بتبادلون الفكاهة والنكات التافهة. إلا أن مسز لورانس كانت تتولاهم جميعا بالطبع.

وكانت سارا لورانس تتولاهم جميعا داخل المنزل بسوط من حديد. وقد لاحظ أحد الأصدقاء أنها كانت آسرة إلا أنها كانت مصدر خشية الآخرين إلى حد ما حيث إنها كانت تمارس تحكما مفرطا في جميع التفاصيل المنزلية. أما من حيث المطهر، فكانت صغيرة الحجم، أنيقة لها رأس جميل ويدان وقدمان صغيران، وتشعر أشفر كث وعينان زرقاوان صافيتان ثاقبتان وفك يوحى بالإصرار. كانت حركتها دقيقة وكلامها واضحا مدروسا ومظهرها نبيل. وكانت تنظر مباشرة إلى من تخاطبه بأعين مفتوحة وتعبير ساحر، ولا يفوتها شيء، وكانت ملاحظاتها ذكية وذاكرتها هائلة، ولها قوام يشع سلطة. كانت أيضا حريصة تصنع خبرها وتطعم العائلة العصيدة التي كانت تعدها بعناية وتطهوها على نار خافتة طوال الليل. أما أسلوب العمل في المنزل فكان هو أسلوب سارا فقط ولم يسمح للخدم أو للأطفال بالنقاش. لم تكن تسمح بإهدار أى شيء من المأكولات أو الفضلات. ونظرا للمعلومات الموسوعية عن النباتات فقد كانت تزرع أنواعا غريبة من الخضروات ولا تكل من زراعة الحديقة وتقدم الحبوب للآخرين لرعايتها وتنتظر النتائج. أيضا، كانت سارا قارئة نهمة تتكلم الفرنسية وتكتب مراسلات صحبة بنفس الخط الذي كانت تكتب به حسابات بيتها الدقيقة. وإضافة إلى كونها ذكية، وعنبدة، ومترئسة، أو كما وصفتها إحدى جاراتها بأنها بدت وكأنها تعلم

كل شيء، كانت أبضا كريمة إلى حد الإفراط، قادرة على العطاء والتفانى، وبالنسبة لمن أحببتهم، كانت صدقة حقة مخلصه. ورغم عدم شعورها بالاسترخاء التام فى حضرة من هم أسمى منها اجتماعيا، إلا أنها كانت بالتأكيد أوتوقراطية منعمته مع الآخرين جميعا.

وكانت الدنيا بالنسبة لسارا إما سوداء أو بيضاء، صواب أو خطأ. لم تسمح بمساحة للمناقشة أو بهامش للحوار. أما المعيار الأخلاقى الوحيد فكان الوصايا العشر، والسلطة الوحيدة هى الإنجيل. لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تلقى منها مبادئ الحركة الإنجيلية الأصولية القبول. ورغم أن خطيئة الزنا مع توماس ظلت عبئا تحمّله طوال حياتها، إلا أن مقولة أن الرب يبخس الخطيئة ويحب الخاطئين كانت تذكرها بأنه مازال هناك أمل فى الخلاص. كانت تستبصر هذا الطريق من خلال أطفالها الذين أنجبتهم من علاقتها الخاطئة وجعلت مهمتها تربيتهم جوردا أنقبا للمسيح. وجدت حافرا مشجعا لها فى شخص أ. و. د. كريستوفر راعى كنيسة سانت آلديت بميدان بيمبروك فى أكسفورد. وقد عجز سبب انتقال عائلة لورانس إلى أكسفورد، إلى اللحاق برعايا هذا القسيس، حيث كانت العائلة قد استمعت إليه فى آيل أوف وايت أثناء سكناهم فولى وتركت فيهم رسالة الحب التى بشرها بها أعمق الأثر.

وكان ينظر لرجل الدين هذا كشخب ذى قدسية حيث كان يقارب الثمانين حينما عرفته أسرة لورانس لأول مرة وعرف عنه رفته وحماسه وحيويته التى كانت تدفعه للخروج فى جميع الأجواء وفى أى من ساعات الليل لعيادة المرضى والمسين. وكانت الأصولية التى اعنقها كريستوفر، قد تامت كرد فعل للآراء الناقدة للكنيسة الأنجليكانية الرسمية التى أحبطت الطبقات الفقيرة. كان كريستوفر يدعو إلى تأكيد واضح للمبادئ المسيحية وإلى التفسير الحرفى للإنجيل والعودة إلى الأرثوذكسية المتطرفة للبروتستانتية الإنجليزانية التقليدية ومن غير المحمل أن يكون لورانس وامراته قد اعرفا بسرهما له، إلا أنه من المؤكد أنه أصبح شخصا عزيزا شديد التأثير فى حياتهما. كانت الأسرة تذهب للصلاة فى الكنيسة بشكل منظم وأصبح توماس عضوا فى مجلس الكنيسة ربما نتيجة للمبالغ

الفصل الأول: الملكة المزيقة تكشف عن نورها الأخاذ

السخبة التي كان يتبرع بها ، وكان كريستوفر أيضا نائب رئيس جمعية الكنيسة للتبشير شديد الزهو بأن كنيسة سانت آلدريت قد أمدت المبشرين بكثير من رجالها . وفي الوقت المناسب تولى كل من تيد وبوب التدريس في مدراس الأحد التابعة لسانت آلدريت كما أصبحا عضوان في فرقة الصبية الخاصة بالكنيسة . وكانت غابة طموحات سارا أن يصبحا مبشرين ، ومن ثم بخلصان الأسرة من الظروف غير المقدسة لمولديهما .

وبحلول وقت التحاقهما بأكسفورد كانت سارا قد نجحت في أن يقلع لورانس عن الخمر ، وطبقا لتعليق سير باسيل بلاكويل لاحقا ، فقد اكتسبت عائلة لورانس سمعة الحرص الشديد على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام والامتناع عن المسكرات والاقتنار على شرب الماء بشكل صارم حتى بمعايير تلك الأيام القاسية . وأمدت هذه الفناعات الدينية توماس راحة روحانية ، وأصبح يتلو على أولاده صفحات من الإنجيل يوميا قبل ذهابهم إلى المدرسة ويؤم الصلاة المنزلية يوم الأحد . أما خارج نطاق العائلة فلم يكن له تأثير . كان طويلا ملنحيا متقاعدا . قالت عنه مسز بالارد التي اعتاد ابنها اللعب مع أثناء توماس ، أنه كان ودودا ساحرا إلا أن روح القيادة كان مصدرها مسز لورانس حتى إنها عندما سألت ابنها عن سبب تكرار ذكره لمسز لورانس وعدم ذكر زوجها أجاب بأنه مجرد زوج مسز لورانس . ونظراً لأنه كان خحولاً يشعر بالاغتراب في مجتمع أكسفورد شبه الأرستقراطي ، فنادراً ما كان يعبر عن مشاعره . رأى البعض أن مظهره كان متميزاً ، بينما تذكره آخرون شخصاً هزلياً تلتف حوله ملابسه كخيال المآة . ظنه البعض غريب الأطوار مثالياً أو حتى معنوها . أما لورانس ، فقد رسم لاحقاً صورة رومانسية لأبيه كرجل « ذى شخصية متسعة الأفق ، متسامح ، ذى خبرة ، مهيب ، مندفع ، له حس فكاهي ... » « لوردا » بطبيعته ، وأنه قبل أن تروضه سارا كان مسرفاً ، رياضياً ، كثير ركوب الخيل وشرب الخمر . كان توماس « جنتلمان » ينتمى لطبقة الملاك ، ورغم قلة موارده النسبية ، إلا أنه لم يحتاج إلى العمل أبداً ، وكان يقضى أيامه يمارس اهتماماته مثل التصوير وركوب الدراجة وممارسة النجارة ودراسة معمار الكنائس وأحياناً ركوب اليخت واقتناص الطيور في نيوفورست حيث كان قد استخرج تصريحا بالقص هناك . ونظراً لوجود وقت فراغ كبير لديه ، فقد تمكن من تعليم أبنائه هذه المهارات

مما جعل لورانس يجسد التصوير حتى قبل انتهائه من دراسته. كما أصبح مثل والده مغرماً بركوب الدراجة والمركبات المائية وأعمال النجارة وحبيراً في معمار العصر الوسيط وماهراً في استعمال البندقية. كان توماس يستمتع برفقة أبنائه ويمارس معهم ألعاب الكلمات ويطلع على المجالات التي يقرءونها ويصطحبهم في نزاهات للبحث في الحفريات أو آثار العصر الوسيط. إلا أن تأثيره كان أقل بكثير من سارا. كانت شخصياتهما متضادتين لدرجة أن لورانس أرجع أثر «الشياطين التي كانت تراوده» إلى طبيعتهما المتنافرتين. إلا أنه في الواقع لم يكن هناك سوى القليل من الشواهد على التنافر. فطبقاً لكل التقارير، كانت علاقتهما دافئة وكان الجو المنزلي متآلفاً. ويبدو أن طبيعة توماس المتحفظة كانت تكمل روح سارا النارية، كما أنه نظراً لحبه للسلام ورقته، فقد عمد إلى الاحتفاظ بمهاراته الفائقة لنفسه وعبر فقط عن ديبلوماسيته وتسامحه، إلا أن لورانس قدس الصورة التي رسمها بنفسه له كشاب مولع بركوب الخيل العنيف والشراب. كان توماس في جوهره رجلاً سهل القيادة تهيمن عليه سارا وكان لورانس دون وعي منه يحتقر افتقاده للسلطة. لذا، ظل يبحث عن شخصيات أبوية أكثر قوة طوال حياته، ومن ثم، كتب إلى اللورد ترنشارد، أحد هؤلاء، عام ١٩٢٨ قائلاً «لو كان أبى يمثل حجمك ما تملك الدنيا أذناً كافية (للاستماع) إلى نزواتي وأفعالي الغريبة». وظل توماس، إلى جانب سارا، شخصية هامشية: سكيراً أقلع عن الشراب يطوى أيامه في مفعده مدخناً، أو ربما ليقرأ كتاباً، هكذا تذكرته مسر بالارد.

إلا أن الأسرة كانت تعتمد على دخله. فبعد ميلاد ابنه الثاني بوقت قصير، أي عام ١٨٨٨، وقع اتفاقية تنازل بمقتضاها عن إدارة ضيعته في أيرلندا لأحبه الأصغر فرانسيس مقابل دخل سنوي له قدره مائتا جنيه، إلا أن لورانس ادعى فيما بعد أن والديه كانا يعيشان حياة شبه فقيرة وتبنى مؤرخ لورانس، بازيل هارت، هذه الأسطورة بافتناع. وفي الواقع، فإن دخل الأسرة من الأموال الأخرى والإرث ربما كان يصل إلى ستمائة جنيه اسرليني سنوياً، وكان هذا كافياً لجعلهم في وضع اجتماعي متميز. إذ إنه، فيما بين عام ١٩٠٣ و ١٩٠٤، كان عدد سكان بريطانيا ٤٣ مليوناً كان خمسة ملايين منهم فقط يعيشون على دخل يزيد على ١٦٠، جسها اسرالبسا سويوا. وكانت الملايين الثلاثة التي تتراوح دخولها ما بين ١٦٠،

الفصل الأول، الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

٤٠٠ جنيه سنويا توصف بأنها تحيا حياة مربحة بينما كان يقال عمن تجاوزت دخولهم الـ ٧٠٠ جنيه سنويا أنهم أثرياء . ورغم عدم انتماء العائلة للفئة الأخيرة أثناء طفولة لورانس . فقد كان بإمكانهم توظيف خادمات والاستمتاع بإجازات مكلفة كل عام . فقد تكلفت رحلة لورانس إلى سوريا عام ١٩٠٩ ، مثلا ، ما يربو على مائة جنيه اسرليي أى ما يعادل الدخل السنوى لمعظم البريطانيين فى تلك الفترة . أى أنه ، طبقا لكل المعايير ، سوى الأكثر ارتفاعاً ، كانت أحوال الأسرة المالية سعيدة إلى أبعد مدى .

قال لورانس ، فى وقت لاحق ، عن أبيه إنه كان صديقا أكثر منه مصدراً للسلطة ، موحبا بمساواة غير معهودة فى علاقات الأبناء بالآباء فى ذلك الوقت . وفى الواقع ، كان نوماس رقيقا ورومانسيا بدرجة لم يستطع معها ممارسة العقوبات الجسمانية على أبنائه ، تاركا هذه المهمة لـ سارا ذات العزيمة الفوية ؛ وكان هذا قلبا للروح الساندة فى العصر الفيكتوري . وكان لتربية والدى سارا بالتبنى البيوراتيين أثر فى استبطانها المنزل القائل «وَقَرَّ العَصَا ، تُفسد الطفل» فكانت تعتمد إلى جلددهم على مؤخراتهم العارية عقابا على العصيان والعناد والكذب معنقدة أنها بهذا تنفذ المشيئة الإلهية . فالأطفال ، طبقا لعقيدة المذهب الإنجيلي لا يولدون أبرياء ، بل ملوثين بخطايا أسلافهم ؛ فأطفال الزنا معرضون لأن يطوروا رغبات جنسية عارمة فى سن مبكر . ومن ثم ، كان كلما كبر الأبناء مارست سارا يقظة الصقور تحسبا لأى مظاهر شهوانية لنعمد إلى قتلها فى مهدها . وكانت تحرص على رعيتهما بشراهة وتملك من عرف الانغماس ، وتشك فى مكاند الساء وخداعهن . وفى هذا الصدد ، تعلق مسز بالارد قائلة إنها لم تكن تريد لأى من أبنائها أن يتزوج حتى إن إيرنى (شفيق لورانس) حينما خطب كتب خطاباً إلى مسز بالارد يطلب منها إبلاغ أمه بالنبا .

كانت حاجة سارا للهيمة على عالمها عمياء ، ويائسة ، ولا عقلانية . وكان مظهرها المسبطر ، العالم ببواطن الأمور يخفى غضباً وألماً وشكوكاً يتعذر سبر أغوارها . لقد أحست فيكتوريا أوكاميو ، التى عرفتھا فى شيخوختها ، أنها كانت امرأة تغلى بالعواطف الجياشة التى حبستها فى قميص حديدى من تصميمها الذى لا يلين . فقد ترك فيها حرمان طفولتها خوفاً مزمناً من النبذ ، وفراغا عاطفيا هائلا

كانت تملؤه فقط باستنزاف طاقة واهتمام وتوكيدات زوجها وأبنائها وأى شخص يقع تحت يدها. كان بوب، أكبر أولادها وهو العطوف الخجول الخشيم، أول من أذعن لطلبها النهم للحب والاهتمام، ولم يتمكن قط من الفرار؛ فتبنى فلسفتها الأصولية الدينية ولم يتزوج، وبفى ملتصقا بها بقية حياته. كما أنه كان الوحيد من بين أبنائها الذى حقق طموحاتها وأصبح طبيبا ومبشرا فى الصين، حيث لحقت به سارا بعد وفاة توماس عام ١٩١٩. وحينما زارتها فيكتوريا أو كامپو فى الحمسييات، وجدتتها فى سريرها تعاني من ساق مكسورة، بينما كان بوب، وقد أصبح كهلاً، يقطن الغرفة التى تحتها مباشرة حيث كان يسارع بالصعود إليها، كما لو كان خادماً، حينما كانت تدق الأرض بعصاها. وقد وصفت سارا هذا الترتيب بأنه مريح.

أما نيد (لورانس)، فقد نما لديه فى طفولته رعب من أن تكشف سارا عن مشاعره وقد كتب نيد لاحقاً يقول إنها لو تمكنت من كسبها لفسدت مشاعره وانتهكت وكف أن تكون ملكه. وحلafa لبوب، كان لورانس ذا مزاج انفعالى، وكانت الضغوط عليه تولد المقاومة حتى إن مدرسيه فى المدرسة كانوا يتراجعون تلقائياً بعد أن يحاولوا إجباره على ما لا يريده. وكان من الحتمى أن ينجم تصادم فى الشخصية بينه وبين سارا، وفى هذا الصدد، كتب لورانس قائلاً: «لم تكن هناك أبداً ثقة بينى وبين والدتى فقد كان كل منا يسعى إلى حماية ذاته كلما التقينا». كان وسارا صورتين متطابقتين تجذب إحداهما للأخرى وتنفران من تطابقهما. ورغم أنه كان حساساً لرغباتها يتوق لإرضائها إلا أنه كان يعلم يقيناً أنه إذا رفع درعه العاطفى فإنها ستتعلعل داخله وتلتهم استقلاله كما التهمت استقلال بوب. ورغم أنه لم يكن اسها المفضل، إلا أنها كانت تعقد عليه آمالاً كباراً، وكان عليه طبقاً لها أن يكون كاملاً، وشجاعاً، ونبيلاً، وقوياً، ويعمل جاهداً، وصدوقاً، ويحترم الآخرين، ومطيعاً ومحباً، أى «فارساً أبيض نقياً». وقد كشف آرنى النقاب عن أن نيد كان هو من يتلقى النصيب الأكبر من ضرب أمه سارا، وشعر أنها قد أصابته بالأذى بشكل دائم. ورغم أنه لم يحدث أن ضرب بوب أو ويل، وأن آرنى قد ضرب مرة واحدة فقط، إلا أن عناد نيد الدائم كان يؤدى إلى ضربه باستمرار. ولم يكن التبرير الإنجلي للضرب إلا فناعاً لهذا الصراع على القوة. فلم يحدث

الفصل الأول: الملكة المزيضة تكشف عن نورها الأخاذ

مثلاً أن تم جلد بوب لأنه لم يكن يبدي أية مقاومة فقد كان ووالدته على وفاق تام . أما نيد ، فكان يستنير عزمها على كسر إرادته إلا أنها لم تنجح في هذا بل إنها في الواقع أدت إلى تقوية إصراره حيث إنه كان بزداد تصميمًا على عدم الخضوع مع كل ضربة ينلقاها . أصبح منفصلاً عن الألم وعن الجسد الذي كان يتلقى العقوبة ، إلا أنه نغى إرادته لدرجة أصبحت معها وحشاً ذا حياة مستقلة - أفعى ستؤدى لاحقاً إلى خنق قوته الإبداعية . إلا أن شخصيته كانت في النهاية من صنع سارا بدرجة لا تقل عن أخيه الأكبر . فقد كان الولدان الأكبران يميلان إلى الاستجابة لمتطلباتها بأسلوبين متضادين تماماً - خضوع تام من جانب بوب ومقاومة كلية من جانب نيد - وقد تركت التجربة الجراح في كليهما . وقد قال أحد الأصدقاء أن نيد وأمه كانا صديقين وهما بعيدان ، أما إذا اجتمعا لمدة قصيرة ، فإنه كان يجد نفسه مجبراً على أن يعاود القنال من أجل حريته العقلية . أما آرنى ، الذي كان يصغر نيد باثني عشر عاماً ، فقد خاض معارك شاقة ليحرر نفسه من قبضة والدته سارا ، إلا أنه مع مرور الوقت نجح في اختيار طريق ثالث ، فقد تعود ببساطة ألا يلقي إليها بالاً وكان الوحيد من بين الإخوة الثلاثة الذين نجحوا من الحرب والذي تزوج وأنجب طفلاً وعاش حياة تقليدية .

وكان لورانس ، في وقت لاحق من حياته ، يستأجر رجلاً يدعى جون بروس ليجلده بين الحين والآخر على مدى ثلاثة عشر عاماً ، وقد لجأ إلى اختراع مزيج معقد من الأكاذيب كي يفسر ضرورة هذا الإجراء . وقد كشف بروس عن حقيقة أن لورانس كان يجد إرضاء جنسياً من هذه الممارسات . إلا أنه من المحتمل أيضاً أن مثل هذا السلوك كان يعزى إلى الخبرات المروعة أثناء الحرب . وعلى الجانب الآخر ، فهناك آثار واضحة لمازوكية لورانس (حبه المرضي لإهانة وتعذيب ذاته) في اهتمامه المبكر بعقاب الذات ونكرانها . فكمراهق ، تعود أن يصوم ، ويظل دون نوم ، ويحرم نفسه من اللذة ، ويجبر نفسه باستمرار على السير وركوب الدراجة الطويل المضني . وكان أيضاً يمارس الغطس في الثلوج في نهر تشيرويل المتجمد خلال ليالي الشتاء القارسة . ويبدو أن المحتمل هو أن الأزمات العنيفة التي خبرها لورانس أثناء الحرب عملت فقط على تكثيف المازوكية التي كانت جزءاً من تكوينه منذ أيامه المبكرة جداً - والتي انبثقت من خلال علاقته بسارا . فكان الصراع غير

المختل بين الانجذاب والنفور لا يحسمه سوى العقاب الجسماني، ولم يكن بمقدور الضرب القاسي أن يبعد شبح الشبق الجنسي، لكنه كان تعوبضا عن الرغبة المحظورة. ومع تقدمه في السن، نما لديه رعب من المشاعر المرتبطة بالفعل الجنسي وأصبح مجبرا على أن يقلل من قلقه بإيجاد الموقف الذي كان يخشاه: فبدلا من الهروب بعيداً عما يتهدهده أخذ يهرب باتجاهه. وقد نصح تشارلوت شو بعد ذلك بسنوات عديدة، قائلاً «اعمل على استثارة مالا مفر منه بأشد الأساليب اكتمالا وسرعة». وكان الألم مصدر رعب للورانس طوال حياته طبعاً لما كتبه لأخيه لاحقاً: «لقد كان أقل القليل من الألم هاجسياً ورعباً الخفى منذ أن كنت صبياً». وقد أكد أخوه آرنى أن خوفه من الألم كان غير طبيعي. ومن ثم، كان يتمكن من توقع ما كان يخشاه ويكتسب قدراً من التحكم فيه عن طريق إيقاع العقاب نفسه الغطس في المياه المتجمدة، والصوم، وحرمان نفسه من النوم كي يصل إلى أقصى حدود التحمل الجسدي. وقد يكون لورانس هو الذي كان يعتمد على استشارة التصادمات العنيفة مع أمه، لا شعورياً، كجزء من «هروبه القسري إلى الأمام».

لم يكن ما يشعر به من التهديد جسدياً فقط بل أيضاً نفسياً. فقد كانت أمه تحاول باسمرار سبر أغوار أحاسيسه الدفينة مما تسبب في كراهيته مدى الحياة لما كان يدعوه «الأسرومحاكم التفتيش». ونخبر أن بحمى نفسه من هذا التهديد النفسي بالانسحاب العاطفي - ماكنساب نوع من الحفاظ الذي تجاوز أمه ليشمل كل من تعامل معهم من الأفراد تقريباً. فقد كان يبدو، حتى أثناء طفولته، متباعدة عن مجاميع الأطفال الآخرين وبدا وكأن هناك حزناً دفيناً لا يمكن سبر غوره. وقد لاحظ مدرسه أنه كان صامتاً، رابط الجأش غامضاً، وكان نمة ملمح لقوة داخلية لا يمكن الإلمام بها. وكانت معرفته كشاب أمراً عسيراً، وتميز بكونه غير فضولي، مرح لدرجة الصخب أحياناً إلا أنه كان شديد كتمان ما بداخله. وفي هذا الصدد، كتب عنه أرنست ألنوبان أنه كان ببساطة «لا شخصي، فرد شق الحياة، تدفعه ماكينة شبه صامتة». وكثيراً ما كانت حاجته لحماية نفسه تظهر في صورة هاجسية ترافقها صور حصار حربي وهجوم ودفاع. وقد كتب في هذا الشأن عن والدته قائلاً: «أعنفد أنني أخشى أن أدعها داخل دائرة نفسي المغلقة ولو بقدر طفيف. فقد كنت أعنفد أنها ما فنتت محاصرني وأنها ستنصر لو تركت شفا دون

الفصل الأول: الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

حماية». وسنعاود هذه الصورة عن نفسه كدائرة أو قلعة مكتملة الظهور تكرارا. وحنى كصبي، فقد كان يقص على إخوانه قصة لا تنتهي عن الدفاع عن قلعة بواسطة عرائس حربية ضد حشود الأعداء الهمجيين. كما تظهر هذه الموتيقة مرة أخرى في دراسته عن قلاع الصليبيين في سريطانيا وفرنسا وسوريا التي كرس لها جل شبابه والتي قادته إلى بحثه الذي قدمه للحصول على درجته العلمية. وقد لاحظ سيريل «سكروجر» بيسون الذي رافقه في بعض رحلاته للقلاع في فرنسا أن اهتمامه لم يكن أساسا بالتاريخ الخرسى بل بعقول المصممين وقلوبهم والمدى الذي أخضع التاريخ نواياهم للاختبار. وفيما بعد، وضع أسس نظريته في الحروب غير النظامية على المعرفة التي اكتسبها من دراسته لتلك القلاع. وهكذا، فقد كان لهذا النموذج الذي تم تشكيله في الأعماق السحيقة لطفولته أن ينبثق يوماً إلى الضوء كاستراتيجية يستخدمها ببراعة وبدرجة من النجاح الفذ في «الثورة العربية».

قال نيتشه - الذي كان محل إعجاب لورانس الشديد - إن كل روح عميقة تتطلب قناعاً. وكان القناع الذي ارتداه لورانس هو قناع المفارقة. فكان تباعده بخفى شوقاً إلى انتباه الآخرين، وإلى الشهرة والتميز، أى تلك الأمور التي كان يحترقها ولم يسمح لنفسه بإظهارها. فكان التباعد حاجزاً خلقه في مواجهة العالم الخارجي، ووسيلة لمنع أى أحد من الاقتراب أكثر مما يجب. لم يكن بإمكانه أن يسترخى في حذره إلا في حضرة من هم أصغر منه سناً أو أقل منزلة، ورغم أنه في وقت متأخر من حياته كوّن علاقات مع العظماء والمشاهير، إلا أنه اعترف لجون بروس - وهو رجل قليل الحظ من التعليم ينتمى إلى الطبقة العاملة - أنه لا يمكن الوثوق بمعظم عليّة القوم هؤلاء. وكان شعوره بأنه غير جدير بالحب مظهراً من مظاهر طبيعته المازوكية، كما منعه رعبه من الفشل من الكشف عن دخليته. ومن ثم، وجد وسيلة أخرى لاجتذاب الناس موظفاً تباعده كأداة لجذب الانتباه، فكان يفصح عن لمحات ما يلبث أن يعمد إلى إخفائها ويغلف نفسه في عباءة من الغموض الخير. وباختصار، وكما قال السير هارولد نيكلسون عن حق، فقد اكتشف لورانس مبكراً أن الغموض أنباء تتداول. فكان زملاؤه في المدرسة والجامعة ينظرون إليه كمنخبة شاذة، وكان يثير حيرة الآخرين بخصائصه غير المألوفة، كأن يصعد

المرتفعات راكباً دراجة ثم يهبط على قدميه ، أو أن يجلس في قاعات الطعام بالجامعة ولا يأكل شيئاً ، أو أن يتبنى أنظمة غذائية غير مألوفة أو يرفض المساهمة في الألعاب المنظمة أو أن يصوم يوم عيد الميلاد بينما ينشغل الجميع في الولائم . وكان هذا البحث عن الاهتمام البالغ فيه ظلاً لتباعده ، والمظهر الاجتماعي لمازوكينه .

وسرعان ما تعلم لورانس أن يغلف كل ما يفعله بالطقوسية والرومانسية ، وقد وجد هذا الأسلوب ناجحاً بشكل ملفت ، ومن ثم عمد إلى شحذه ليجعل منه الشفرة ذات الفاعلية القصوى في أسلحته . وتعلم منابله الآخرين بواسطة هالة الغموض التي أحاط بها نفسه واختلاق آثار زائفة وتلفيق شباك لا نهائية من الألغاز والأحاجي ، كما أتقن إثارة حيرة من هم موضع اهتمامه بما أسماه المشاكسة غريبة الأطوار أو «الجدية في غير موضعها» بحيث يستحث فضولهم ، ثم يندفع هاربا بشكل فجائي على أمل أن يتعقبه من هو موضع اهتمامه لمعرفة من هو هذا الشخص غريب الأطوار . وكان القليلون فقط هم الذين استطاعوا مقاومة نزواته . كما مسحته نكاته وتهريجه والتوهجات المفاجئة لألمعيته ، أو ممارساته الخبيثة الشيطانية ، مقدرة لا تكاد تخفق على سحر الآخرين والإيقاع بهم حتى إن بازيل ليدل هارت شبهه بالمرأة التي ترتدى الحجاب وتكشف عن صدرها ، هذا ، بالرغم أن ليدل هارت قال عن ميول لورانس الاستعراضية إنها كانت «استعراضية مقلوبة» ، أى الرغبة ، لا فى استعراض جماله ومهارته ، بل لعرض قبحه ومعاناته وخزيه . وكأبعد ما يكون عن عشق الذات ، فقد كتب لورانس قائلاً إنه يحتقر هذه الذات التي يكاد يسمعها ويراه .

الكتاب
القديم
القديم
القديم

امنحنى النوريا إلهى

سنوات الدراسة

١٩٠٥-١٨٩٦



رغم أن أكسفورد كانت

على مدى نصف قرن ، وقبل

وصول عائلة لورانس إليها عام

١٨٩٦ ، آخذة في التغير البطيء ،

إلا أن حركتها كمدينة ظلت

بخطوة زمن

عربات الخيل .

كان الرجل الذى حولها فيما بعد إلى مركز صناعة سيارات، أى اللورد بافيلد، مازال يدعى مستر ويليام هنرى موريس مجرداً من أى لقب، وكان حينذاك صانع دراجات وصاحب حانوت. وظلت المدينة كما قال عنها جان موريس ورشة تحييطها هالة لا أرضية، مليئة بالحرفيين المحترمين الذين تنبعث أصوات مطارقهم من الحوارى الخلفية، تخالطها طقطقات أنوال النساجين المنبعثة من شارع مجدولين. وكاست القليل من الكليات الجامعية قد اقتنت بعض السيارات إلا أن وسيلة النقل الشائعة فى شوارع أكسفورد كانت كراجات مصانع جعة هول أو موريل. كما كان المفروض ألا تتجاوز سرعة الترامات التى تجرها الأحصنة - كان هناك تسعة منها عام ١٩١٠ - ثمانية أميال فى الساعة كما كان يتم التنبيه على سائقيها بالإبطاء لدى مرور قطعان الماشية والتوقف تماماً لدى مرور قطعان الأغنام. كانت أكسفورد مدينة محترمة ذات إيقاع بطيء، مكاناً تضاء مساكنه بالكىروسين، بها قوارب للكليات الجامعية، وفرق إطفاء خاصة، وعربات تجرها الخيول، وكان بائعو الحليب مازالوا

الفصل الثاني: المنحى النوريا إلى سنوات الدراسة

بحملون بضائعهم في مخمضات على عربات يد من مستودع ألبن سانت آلدين كما كان الكنبة الذين يعملون بالجامعة مازالوا يزنون الزبد في السوق المغطى أمام كلية يسوع، والصبة يرتدون السراويل القصيرة الواسعة المزمومة تحت الركبة والقمصان ذات الياقات الممجة، والفتيات تتركب الدراجات مرتدية فساتين شبيهة بتلك التى كانت ترتديها شخصيات «أليس فى بلاد العجائب»، وبعضهن يمارسن رياضة التنس فى ملاعب الجامعة بمظهر خجول وهن يرتدين التنورات التى تغطى السيقان وقبعات من القش.

سافرت إلى أكسفورد لعلى أستعيد شبتا من الجو الذى شأ فيه تى. إى. لورانس، وأتذوق رؤياه لبريطانيا التى حملها معه إلى الصحراء والشرق. ورغم أن الأباء قد ولت، وحل الترام ذو الطابقين محل ترام الأحصنة منذ زمن بعيد، فقد وجدت أن جزءا كبيرا من أكسفورد بداية القرن مازال ناقبا. وقفت أمام المنزل رقم ٢ فى شارع بولستيد، الذى قد أصبح الآن مبنى رثا محاطا بأوعية الفمامة التى تظفح بمحتوياتها، وتقف سيارات صدئة من ماركة موريس فى الفناء الأسمتى،

وأجهدت أذنى مخنرفا عفودا مضت على أسمع إلى أصوات أبناء أسره لورانس الكبار، بوب وبدا وفرانك وويل وهم يغادرون المنزل إلى المدرسة كل صباح في ذلك الصيف القاطن المسرق في إنجلترا القديمة قبل أن تعبر الحرب العظمى العالم إلى الأبد. سرت في شارع وود سوك باتجاه وسط المدينة ممسكا في مخبلي بصورة الأولاد وهم يركبون دراجاتهم صفا واحدا في نظام صارم طبعا لساع أعمارهم ويرتدون الملابس الصوفية من ماركة بورتون المقلمة بالأزرق والأسود والني كادت تكون زيا رسميا للعائلة. مررت تلك الفيلات الحجرية الضخمة ذات الدرجات الجرانيتية والأروقة ذات الأعمدة المصممة والني كانوا يصرون بها في طرفهم، نفس القصور من الحجر الجيري الأصفر ذات الفوانيم من خشب الصوبر، ومررت بقاعة الصلوات القوطية الفيكنورية، في شارع جي. إي. النابغة لكنبسي سانت فيليب، وسانت جيمس في مفاطعه أو صبعه والنون، ومنها إلى المتراش الأنجلوساكسوني لكنيسة سانت ماكيل في كوربر ماركت، ومررت بنفس المحلات القائمة على بواصي السوارع ونفس الأكواخ ذات الشرفات، ونفس الحانات ذات الإسمين مثل الحصان والجوكي، والسر والطفل، وأبصا نفس الواجهات التي ندل على التشفيف الإليزابيني لكلبات بالبول وسات جون. ملت يمينا فبيل روح ساكسون وسرت بطول شارع جورج في اتجاه مدرسه الصبية على ناصية شارع سو إن هول. كان المبنى مازال هناك، لكنه لم بعد مدرسة ولم يعد أيضا يقع في مقابل كنيسة سان جورج كما كان الأمر في زمس لورانس، فقد هدمت الكنيسة وحل محلها دار عرض إي. بي. سي. كان مبنى المدرسة فيكنوريا مهيبا صلدا، ذا أفواس وسرفة كسبية نقش على جابيهها الشعاران اللاتيبان: «امحى القوة يا إلهي» و«الحق هو القوة». قضى لورانس عشر سنوات في هذه المدرسة. وحلم أثناء وجوده هناك بتحرير العرب من قيد الأتراك العثمانيين تحت كتب فائلا. «كت أستدعي في مخبلي آسيا الجديدة التي كان الرمن المتسلط يأتي بها إلينا بطاء، استحوذت فروسية العرب على غريرتي الصبية بيما كت طالب ثانوي باكسفورد وفكرت حبذاك أن أجعل مهم أمة». وقد يكون هذا هاجسا غير معناد لطالب مدرسة لم يسبق أن ذهب إلى الشرف. إلا أن لورانس كان قد عرف الجغرافيا والتاريخ. فكانت دراسته اليومية للإنجل قد جعلت جبال مدين ومزاب Moab وإدوم Edom

الفصل الثاني: المنحى النوريا إلهى سنوات الدراسة

ويهودا والأماكن الأخرى شبه معروفه لديه كشوارع أكسفورد، كما أمده كتاب صغير يدعى «المساعد فى دراسه الإنجيل» نفاصل عصرية إذ وجد بين غلافه المنواضعين مسحا للأرض المقدسة وفهارس للنباتات والأزهار والندبيات والزواحف والطيور والأسماك التى وردت فى الإنجيل، وأسماءها بالإنجليزية واللاتينية والعبرية وأحيانا بالعربية. وكفتى، تخبر جائزتين مدرستين عبارة عن كتابين عن تاريخ مصر واقتنى بعد ذلك أعمال هيرى لبارد عن الحفريات فى بلاد الشام القديمة ولم تكن تلك الأعمال أكاديمية متحجرة بل مغامرات مثيرة تمثل النظرة الفيكنورية إلى الشرق كمكان للغموض والغرابة والمدائن الخرافية المدفونة تحت رمال الصحراء التى تجوبها قبائل البدو. واكتشف لورانس فى كتابات لا يارد كل العناصر التى لابد وأن الشرق كان يمتلكها: الغرائبية والحسية والفتنة. كان لا يمكن مقاومة هذه الصورة، وظل طيلة شبابه يعى الشرق كعالم مواز، أو كبعد قد يجد الفرصة فى الفرار إليه مستقبلا.

إلا أنه كانت ثمة مهمات مدرسية أقل إغراء يحب الالتفات إليها أولا. ولقد نذكر لورانس أنام دراسه كزمن نانس، ورغم ذلك فقد برهن على كونه سريع التعلم بدرجة عبر معهوده حبت تفوق على نوب الذى كان قد علمه القراءة والكتابة. كانت لديه مقدرة مبكره على تعلم اللغات، وكان يعرف الفرنسية الدارجة مد الأبنام النى قضاها فى بريتانى، وأيضا بعض اللاتينية التى كان يدرسها الأولاد على يد مدرسين متخصصين استعدادا للالتحاق بالمدرسة. وكان يمتلك ذاكره قوية وأصبح فارنا سريعا قادرا على استيعاب جوهر أى كتاب خلال نصف ساعة طبفا لقوله. فاز بجائزتين فى عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٣، ثم حصل على حائزة السنة الخامسة فى اللاهوت رغم زعمه عدم إكمال إجابته كى يعطى لبوب فرصة للفرور وكان مازال فى الفرقة الخامسة. وفى السنة نفسها جاء ترتيبه الثمانين فى امتحانات أكسفورد الخليه. ورغم نجاحه الواضح إلا أن المدرسة لم تستحوذ على اهتمامه لأنها لم تعلمه ما يريد أن يعرفه وكان أن كنب فيما بعد أنها «كانت مضبعة للوقت، بغيبضة، غير ذات جدوى، لقد كرهتها وازدريتها».

وربما كان شعوره بعدم الانتماء بين أقرانه أحد أسباب ذلك. فقد نما لديه منذ

أيام الدراسة شعور بالعراية لم يفارقه تماما . . وكتب لاحقا بقول «إن هذه الغرابة لا بد وأنها اخترقتني حتى النخاع. فقد شعرت بالغرابة في أكسفورد وكذلك في مطاعم الضباط (أناء خدمتي) . كنت أشعر بالاختناق كسمكة تم اصطيادها وتركت في قارب ملئ بالسواح» . وكشاب ، كان لورانس يرى نفسه دوما عملافا محبوسا في جسد قرم وكان لصغر حجمه ومظهره غير الملفت أن يؤثر في مفهومه عن نفسه طوال حياته . وفي زمن لاحق ، كان يستعمل لفظ «كبير» كلاحقة منفصلة ينعت بها من يعجب بهم بما في ذلك الأعمال الفنية والأدبية التي كانت تلقى إعجابه . ورغم ادعائه احتقاره للألعاب المنظمة لأنها تجرى طبق قواعد ونتائج ، إلا أن ما أدى به حقيقته إلى رفضها كان إحساسه بعدم اللياقة البدنية . أصبح شعاره الشخصي «لا تنافس أبدا على أي شيء» . وقد أثار هذا في أخيه الأصغر آرني لدرجة أنه اعترف بعد سنين أن الحرج اعتراه حينما سأله نيد ذات مره عن نتيجة سباق كان قد اشترك فيه . ورغم أن إخوته وافقوه ظاهريا على نزوته غير التنافسية احتراماً له ، إلا أن صفاتهم الحسامة غطت على صفاته . فقد كان ول - الذى كان يصغره بثمانية عشر شهرا فقط وكثيرا ما يفارن به - طويلا ، رياضيا ، ومنالا للتفوق الحسدى الكلاسيكى . وكانت المقدرة الرياضية التي فاز بمقتضاها ويل بجائزة في كلية سانت جون ، تفوقها مقدرة أخيه الأصغر فرانك الذى كسب كأس التحدى في الرياضة حينما كان في المدرسة الثانوية وكان بطلا لألعاب القوى لمرات ثلاث ، وقائد فريق كرة القدم ونائب قائد فريق الكريكت . وقد شعر لورانس بالإهانة بكسر نقاليد الأسرة اللاتنافسية . وفي الواقع ، فإن شعاره «لا تنافس أبدا» كان أحد المظاهر المتناقضة لقناع لورانس الذى حجب به طبيعته التنافسية القوية لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يسمع مديح أحد دون أن يشعر بالنضاؤل . إلا أن تقديره لنفسه كان من الضالة بحيث إنه كان إذا امتدح مباشرة أنكر ذلك المديح كأمر غير مستحق . كان رفضه لمعايير الطيقة الوسطى مظهرا لاستعراضته المقلوبة ، وكان رفضه المشاركة في أى رياضة منظمة أكثر تعبيراته المعلنة لهذا الرفض . وقد يكون من الصعب الآن معرفة كيف كانت البراعة الرياضية في الفترة الثيكتورية / الإدواردية تقترب من القدسية ، وكان من المنعروض أن الرياضة تولد «العزم الحق» ، و«الإبصار» و«الصحة الجيدة» و«روح الفريق»

الفصل الثانى: المنحى النورى إلهى سنوات الدراسة

و«التهذيب»، تلك الصفات التى كانت وثيقة الارتباط بأسطورة الإمبراطورية. وكان ثمة اعتقاد جدى فى أوساط كثيرة أن بريطانيا تدين بإمبراطوريتها للرياضة، وأن المعارك التى جعلتها إمبراطورية عظيمة قد كُسبت أولا «فى ملاعب مدرسة إيبون». وكانت «حملة الطهارة» فى أواخر القرن التاسع عشر قد أدت إلى تغيير مفهوم الرجولة وحلت القوة الجسدية محل القوة الأخلاقية، والعذرية الجنسية محل النزاهة الأخلاقية. وفى هذا الوقت عرّف أحدهم الذكورة بأنها «الواجب الوطنى، والجمال الأخلاقى الجسدى الرياضى، والتأثير الحبيب للعادات الإسبرطية والتحكم فى الذات، واكتساب كل ما هو ذكورى والتخلص من كل ما هو أنثوى، لا إنجليزى، وعقلانى مفرط».

ولمعظم سسى حياته، كان لورانس بقدس الصفات الذكورية لأنه عرف أنه ليس ذكوريا بالمعنى التقليدى رغم قوته الجسمانية العظيمة. ورغم أن الكثيرين شهدوا أنه كان أقوى من معظم من هم فى حجمه ووزنه، إلا أن مظهره وهو شاب لم يترك هذا الانطباع، كما أن حساسيته لهذا الأمر توحى بأنه كان يؤرقه. ففى خطاب لوالدته من فرنسا عام ١٩٠٦، ثمة تلميح دفاعى فى إصراره على أن الناس هناك يقولون إنه أنحف من بوب لكنه أكثر قوة رغم أنهم يفضلون ضخامة بوب على عضلاته هو باستثناء مدام شانيون التى صدمت حينما رأت عضلاته وهو يستحم واعتقدت أنه هرقل. كما أنه تفاخر أنه فى أثناء مسيرته فى سوريا عام ١٩٠٩ بأنه قطع ١٢٠ ميلا على الأقدام فى خمسة أيام، ثم أضاف قائلا إن بوب وويل قد يضحكان من ذلك لكنهما لن يفعلا ذلك إن كان عليهما السير متعثرين فى تلك الطرق البسعة. وهناك تقارير كثيرة عن معارك لورانس الجسدية حيث يبدو أنه كان بهزم باستمرار حتى إن ساقه كسرت فى إحدى تلك المعارك بالمدرسة. وفيما بعد، أحبر ليدل هارت أنه لا يوافق على التعارك بالأيدى، كما أنه كتب قائلا إنه إذا اقتضى الأمر العراك الجسدى فهو مقضى عليه. كما ترد على لسانه عبارات «صبيانى» و«باتى» كثيرا بدرجة تسترعى الانتباه فى وصفه لمن حوله حتى آخر أيام حياته مما يوحي بأنه كان ينظر لمظهره على أنه حشوى. وكان وهو فى الثانية عشرة من عمره ذا حساسية نادرة بين الصبية المراهقين، فكان يغمره السرور لرعاية أخيه الوليد آرنى، وكان يقوم أحيانا بغسله فى حوض حديدى وجره فى

عربيه إلى ملعب كرة القدم حيث كان يمارس رفاق دراسته الأقوياء هذه الرابطة الذكورية. وحدث حينما قللك الخوف آرنى وهو فى الثالثة من عمره من النمايل فى أحد المناحف، أن قام لورانس بنحت وحده حجرى وأعطاه إياه كى يحطمه بمطرقة ليطرد الخوف. وكانت تلك استراتيجيته مؤبده إذ أصبح آرنى أستاذًا للأثار فى كامبريدج وألف كتابه الشهير عن فن النحت الكلاسيكى، بالإضافة لما يوضحه تصرفه من مقدرة لورانس المدهشة على التوحد مع الأطفال. وكان آرنى يعتقد أن مقدرة لورانس الخاصة على معرفة ما يعبر عنه عيون الآخرين بنحت عن فقدان داخلى للثقة، كما وصف كيفية تلبسه صفات الشخصيات التى كان يراها. ومن المفارقات أن هذه المقدرة على الاستحسان بتعبير الصفات كانت أحد مصادر قوة لورانس الفانفة، وكانت أيضا هى ما ميّزه عن حركات الحرب المنحصرين السلطوبين وجعلت منه قائدا عظيما حقا وإن كان غير تفليدى.

وترجع صفات لورانس الحساسة إلى الأسر العميق لسخصية والدته. فوراؤه باعده، كان يملك مقدرة عظيمة على الصداقة مع الرجال والنساء. وكان معظم روابطه العميقة مع الرجال. وكانت تلك الصداقات، فى رأى آرنى، تماثل فى عمقها الحب الجسدى وقد جعل منها لورانس بدلا لهذا الحب. وحسما كان فى المدرسة أقام صداقة مع رجل أكبر سنا هو لنارد جرين وكان طالبا جامعيا فى كلية سان جون. وكان لورانس يزعم بأنه بكسر قواعد الكلية ويرور صديقه فى مسكنه هناك، وكان الاثنان يحلمان بإصدار كتيب جميلة والعيش معا فى طاحونة هواء على لسان بحر تتلاطم عليه الأمواج. وكان حرين، وهو شاعر طموح، بنمى لتنظيم للرجال الشواذ ولدانته من الشعراء والفنانين والروائيين عرفت فيما بعد «باليورانيين» (أورابوس هو إله إغريقى وأحد الكواكب السبارد) وكان مصدر وحيها «براءة وجنسانية الصبية الصغار». وكان أحد أعضاء تنظيم الشواذ البارزين لورانس هاوسمان الذى وحدث ستة من كنيه فى مكتبة لورانس الشخصية بعد وفاته مع ثلاثة من أعماله. و. رولف الأيروسية المنليه، وكان الأخير أحد أعضاء «السورانيين» ويحتمل أن يكون لورانس قد عرفه شخصيا أثناء سنوات الدراسة. وكان جرين شاعرا «يورابيا» أعجب لورانس بأعماله بدرجة كافية، لأنه بخبره عام ١٩١٠ أنه رغم صعوبة أن يجد ناشرا لأعماله فلا يجوز له أن يزعمها بأى شعور

الفصل الثاني: المنحى النوريا إلهى سنوات الدراسة

بالخطبة أو أى شىء مفرط . وفام لورانس بضم عمل شاعرين آخرين من «البورانين» إلى مجموعته التى صدرت فى العشرينيات وحوت اسم هرى سكوت بيوك الفنان «السوراني» كأحد ثلاثة من الرسامين المفضلين لديه . وقد يكون قد التفى بسوك وهو طالب فى المدرسة أكسفورد ، وأيضاً يحتمل أن يكون قد جلس إليه ليرسمه إذ إن بيوك كان صديفاً لشارلز بل أمين المتحف الأثمنى وكان رائداً مبكراً للورانس . ورغم أن نظرهم للحب المثلى ، خاصة بين الرجل الناضج والصبي الصعير ، كانت مثالية - وغالباً ما كان صغار الصبية ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى - فإنهم نادراً ما مارسوا الشذوذ . وكان الكثيرون منهم رجال دين محترمين . وعلى أية حال ، فقد كان العقد الأول من القرن العشرين زمناً غبر موات للشواذ . ففد كان شبح أوسكار وايلد الذى حكم عليه بالسجن لعلاقاته بصبية مكاتب التعرف عام ١٨٩٥ مازال يلقي بظلال كنيسية على الدوائر الأدبية فى العصر الإدياردى . وعالبا ، فمس المؤكد أن علاقة لورانس بليارد جرين كانت أفلاطونية . وقد أوحى آرى لاحفاً بأن يكون لورانس قد شارك فى بعض مشاعر الشباب «البوراني» بقوله إنه كان كثيراً ما يعجب بالجمال الجسماني والرشاقة الحيوانية خاصة لصغار الذكور فى المجتمعات غير المتمدينة .

ورغم أن لورانس كان يحتقر الدور الجنسي للنساء ، فقد تمكن من تكوين علاقات حميمة مع بعضهن أكثر من معظم الرجال الطبيعيين . وكان يشعر بالألفة مع من هن أكبر سناً «من نوع الزوجة وربة المنزل الطيبة والأم» وقد كتبت كلير سبدي ، وكانت من هذه الفئة ، قائلة إنه كان قادراً على الصداقة العميقة وثيقة الروابط والتعاطف والفهم رغم عدم احتواء العلاقة على أى عنصر مرتبط بالحب . كما أنه لم يبذل جهداً فى سبيل هذا ، فقد كان حضوره غير جسماني ولم يبد أنه كان يعي حضور المرأة الجسماني . إلا أن سيدنى ، زوج السيدة سمبث ، لابد وأنه وعى أن لورانس لم يكن يمثل تهديداً جنسياً لأنه حينما قال بعضهم بوجود علاقة بينه وبين زوجته كان رد فعل سمبث هو أن ألقى رأسه إلى الخلف وانفجر صاحكاً . كان جهد لورانس الأعظم فى طفولته هو محاولة تخليص نفسه من سرائر أمه الخائفة ، وظل بعد ذلك بارداً تجاه النساء خاصة من كانت منهن مملكة أو مندفعة . كان ذا مقدرة على رفقة النساء من أمثال كلير سيدنى سمبث اللاتى لا يرسلن

إشارات جنسية وبتصرفن كالرجال . فقد كاتب حواجزه الجسمانية تنغلق سريعا بمجرد استنعاره أية إشارات جنسية وكان يفر هاربا إذا أتت النساء النعامل كالرجال . وقد كتب يقول « ليست النساء بمصدر لذة لى ، ولم أفكر أبدا مرتين ، أو حتى مرة واحدة فى فوام امرأه ، بينما يجد أحساد الرجال الساكنة أو المنحركة ، خاصة فى الحالة الأولى ، صدى فى نفسى مباشرة وبصفة عامة » .

كان لورانس ثائرا صد التعاليد بالفطرة رغم عمق حسه التاريخى . كان معرما بقوله إن العالم توقف عام ١٥٠٠ بمقدم الطباعة والبارود ، كما أنه تظاهر باحتفار عصر النهضة بعقلانيته وتوجهه الإنسانى . وقد سحره كصبى عالم العصور الوسطى وأصبح اهتمامه بها غراما ألقى بطلاله على واجباته المدرسية . كان يركب دراجته فى أنحاء أكسفورد ويقوم بطبع نسخ ورقبة rubbings من التماثيل النحاسية للفساوسة وفرسان العصور الوسطى المدرعين . وحينما بلغ الخامسة عشرة كاتب لديه مجموعة من تلك النماثيل المسوخة من جميع أنحاء جنوب وشرق إنجلترا زين بها غرفة « الإخوه » التى كانوا يتفاسمونها فى رقم ٢ شارع بولستيد . وقد تذكر سيريل « سكروجر » بيسون أنه قد قام بعمل أول مستنسخ بح إنسراف لورانس فى ويدام فى أكتوبر عام ١٩٠٤ وقال « وسد هذا اليوم ، كنا نقوم برحلات على الدراجة إلى كل قرية تقريبا فى الأقاليم الثلاثة وفى أماكن أخرى أكثر بعدا » . وكان لورانس يتابع تنفيذ هوايته بدفة ويجرب طرقا مختلفة . وكان يحب المكاتب والمتاحف لجمع المعلومات عن الفرسان والفساوسة والسيدات الذين كان ينسخ تماثيلهم ومعلومات مفصلة عن أزياء ودروع العصور الوسطى . وأصبح هاجسه المسيطر هو أساليب أسباب النبلاء ، كما جمع التعبيرات المرتبطة بهذه الأساليب وأتقن بطمها وترديدها . وكان يقوم بجمع لفافات طوبلة مسجل بها شعارات الأسر النبيلة ورسومات هذه الشعارات ورموزها بالألوان الصريحة وبعناية فائقة . وكان لورانس يستغرق تماما فى الأدب الرومانسى مثل قصائد تنسون عن فرسان الملك آرثر ، وأيضا الملاحم الفلندية ، وأشعار شارلمان الفرنسية من القرن الثالث عشر . كان يحنه عن الآثار النحاسية يأخذ شكل مسعى مقدس فى حد ذاته . فعلى حين كان الشباب يخرجون للنظر إلى الفتيات فى سوق سانت جايلز ، أو فى احنفلالات الأعداد ، كان لورانس يتابع مسعاه فى السرايب الخلبة

الفصل الثانی، المنحنى النورى الى سنوات الدراسة

والكنائس . وكان لا يلقى بالا إلى قدسية الأماكن ، ووظف قدراته على الإقناع فى التعامل مع الحراس ، كما حدث عندما أمسك به هو ويسون يخرجان من أحد السرايب لكبسة سات كروس محملين بالعظام الآدمية ، وقد تذكر نيوتشوىدى ضحكته «الشريرة» وهو بخنق طريفه إلى قطعة نحاسية محطما بعض مفصولات الكنيسة النى اعترضت طريفه . وقد كان إى . إم . فورستر هو أول من أشار إلى التوازي بين مسعى لورانس وراء الآثار النحاسية وبين مغامراته الأثرية اللاحقة فى الشرق ، مشيرا إلى أن القطع النحاسية تم استبدالها ببقايا الآثار القديمة ، والحراس القساء بقبائل البدو المنوحشة .

وكان جوهر اهتمام لورانس بما هو عصر أوسطى محاولته الهروب من ظروف الحياة وإعلان ازدرائه لتقاليد المشهد الاجتماعى البرجوازي الذى كان يعزو إليها علاقته غير المستقرة سارا . وقد أسهمت مشاعر النقص والخزى التى ولدتها العلاقة فى الخجل المؤلم الذى لاحظته غالبية من التقوا به . وقد اعترف هو بأنه كان خجولا بدرجة غير طبيعية «خجولا من عدم لياقته ومن مظهره الجسدى وغراته الانعزالية التى معته أن يكون رفيقا لأحد بل مجرد شخص يتعرف به ، كاملا ، حاد الزاوية مثل قطعة من الكربستال» . بيد أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يشعر بالغرابة أو العزلة فى المدرسة . فرغم خجله ورفضه للألعاب كانت له شعبية حيث كانت عدم لياقته أمرا فى مخيلته هو . وفى الواقع ، فقد لعب الكريكييت ممثلا عن مدرسته واشترك فى سباقات للسباحة وركوب الدراجات ، وشارك بحماس فى ألعاب أخرى فى فناء المدرسة . ولم تكن تعوزه الصداقات الشخصية ، فكصبي صغير ، كان له صديق بدعى جون سنو ، ثم كوّن معه سكر وجز يسون صداقة لم تفصم عراها أصبحت ذائعة الصيت وعلى قدر من سوء السمعة نظرا لمغامراتهما المتعلقة بالآثار ونسخ النحاسيات . ورغم أن لورانس كان العنصر المهيمن وصاحب المبادرات لخططهما ، فقد استرجع يسون هذا «الرباط الوثيق» بحب . كما ذكر ثيو تشوندى أن لورانس قام بتعريف زملاء كثيرين له فى المدرسة بأسرار نسخ الآثار النحاسية ، وكان هو ضمن هؤلاء ، كما أنه نجح فى إقناعه . وقد أصبح ثيونشوىدى أستاذا للرياضيات فيما بعد . بأن يؤدى بعمل واجب الخبر بيانه عنه وهو فى السنة الخامسة ، مما يوضح أنه لم تكن تعوزه قوة التأثير . كما تذكر صديق طفولة آخر له

لورانس ملك العرب غير المتوج

أنه كان مترنسا بأمر الآخرين بأسلوب محبب . وندكر أيضا بوب لورانس . الذي كان أكبر منه سنا . أن لورانس كان من يعود الإخوة في ألعابهم بوجه عام . وقد وصفه آرسى بأنه أحد أكثر من عرفهم لطفًا وقد يكون أكثر الناس جسعا رفة ورحمة وأنه كان أحد أشد الناس إبهاجا في صحته . كما كتب مبدج هول الذي عرف لورانس في المدرسة قائلا إن أية فكرة مؤداها أنه كان طالبا معزلا منقلب المراح بتحاشي رفة الآخرين هي فكره بعبدة كل البعد عن الصواب . فهو ياباه المثيرة وعراة أطواره كان سسحيل معها أن يكون عبر دى شعبية . وقد شعر آرسى أن موهبة لورانس فى التوحد مع الآخرين وعلى أن يعكس احباجانهم ومساعرهم محسنة المقدرة الفائقة على إلهام الآخرين وتمكسهم من بحسب أفضل إمكانياتهم وطافانهم .

أما سارا ، فقد اعنفدت أنها أم مفقابه وعمدت . بعد وفاه لورانس ، إلى رسم صورة مثالية للحياة العائلية ردد صداها « مساعدها » بوب الذى كتب يقول « لقد كانت طفولتنا حد سعيده ولم تحدث وأن أفسدتها أبة مشاحرات بن أى من الأفراد . كان والداها برفقنا دوما . مما عاد عليهما بالإمتاع والفائدة ، حيث إبهما شاركنا فى تقدمنا وجعلنا من المنزل مكان سلام ، وحططا لمستقبلنا وتعلبنا وكان لهما أعظم الأثر على حباننا » . وبالسكبد ، فقد كانت طفولة لورانس سعيده من حيث إنه لم يعوزه شىء ماضى . وكان ناجحا فى المدرسة محاطا بأصدقاء وأخوه أوفياء كان هو قائدهم دون مازع . إلا أن طفولته لم يكن سيع أصواء زاهنة كما نوحى الصورة الما قبل رفانبله التى رسمها بوب . وبقدم وصف آرسى ثده أشد قتامة حبت يقول « كانت هناك ببورسائية قوية فى الأسرة ، وروح حطينة ، وأمور غير طسعبة . فقد كانت مواضع عدة بابوهات ننما لم تكن كذلك بالنسبة لعقل طفل مما أدى إلى حيرة الأطفال وإلى شككبات وفقدان بعه فى النهاية » . أما تأكيد بوب بأن سد تتمتع بأبام الدراسة فلا ينمق مع ذكربات لورانس الذى قال « مارال الخوف من المدرسة يطاردنى ، هذه العفوية المعلقة دوما والى جعلت من السنوات بن النامية والنامية عشرة بعباه محردة » . وكأبعد ما يكون عن « المنعة والفائدة » التى فد نكون سارا قد بمنهما ، فقد حطمت حباه لورانس وحملت من المؤكد عدم تمكنه من السعادة أو التحقق . فقد خضعت حاجته لأن يكون مفردا مفصلا عنها .

الفصل الثاني: المنحنى النوريا إلهى سنوات الدراسة

محبوبنا، سواء كان قويا أم ضعيفا، صادقا أم مخادعا، مصيبا أم مخطئا، لاحتياجات روحها الصارمة. لم تكن تلك من أمورها سوى هذا. فقد رُسخت في مخيلتها صورة تلك الفتاة المرتعدة التي لم تعرف أبدا سبب نبذها بذلك الأسلوب الشائن وتركها وحيدة لتقلبات الكون المظلم. لم يشف ذلك الحرح، ولم تكن لتسمح لأحد أحبه أن يتركها مرذ أخرى أبدا. كان لورانس يحاحه بانسة إلى حب أمه. إلا أنه كان يحتاج أيضا أن يظفر إليه كشخص مسنقل. فقد سعفت به أمه كامتداد لذاتها لدرجة أنها نظرت إلى أى تعبير عن النفر من حاسه كهديد. لقد كانت القوة التي فرصنها على أسانها مرعية. فحبسا قرر آرى فى النهاية أن يتزوج عمه إلى إخبار سارا من أنينا، من مسافة مأمونة. وفى اليوم المفترض لاستلامها خطابه، استبفظ من نومه فى غشية ولم يدر أين كان، ثم سار من رجا فى الحاديفه حيث تمكن من جمع شتات نفسه بعد جهد. فظفرا لأنه كان يعلم أن سارا تعارض رواجه بعنف فقد شعر أن تأثيرها قد «غمره برغم المسافة». فإن كان هذا «عبنة» للفوى الروحيه التى كانت تطلق فى مواحهه بيد، فمن غير المسعرب إذا أن يدافع عن «دائرة اسفلاله». كان كتبوا ما يبغص والدته ولا يتحمل أن يتواجد معها فى نفس العرفة، إلا أنه لم يطهر هذا أبدا. فقد ظل سلوكه إزاءها لا تشوبه شائبة لكونها والدته، وكان يشعر أن من واجبه أن يمثل دور الابن المطيع. أما كعب أخل فى صراعه معها فكان شعوره بالذنب. فكان يبالغ فى التطاهر بالبهجة وحلو البال فى حصرتها ويكتب مشاعره ويتحدث فقط عما يسره حتى يظهر بمظهر سعادة لا يشعر بها. وكان يعلم جيدا أنه لن يمكن من إطلاق البطل الذى بداخله حتى يتحرر من سارا. فغدت مهمة حياته الأساسية أن يفر من قبضتها.

وفى وقت ما من عام ١٩٠٥ وصلت الأمور إلى ذروتها. فقد لحق لورانس بأبيه فى صيف هذا العام فى رحلة بالدراجة حول إيست أنجيلبا حيث كان يقوم أيضا بسخ الأتربات الحاسبه وزارة المواقع الرسمية. ويرسل التقارير الواجبة الرسمية إلى سارا.

وبعد أن تمنع بهذه الرحلة، بدأ الفصل الدراسى بأكسفورد فى ظل غمامة من التهديد. فقد رشح لمنحه لدراسة الرياضيات بجامعة أكسفورد وكانت تلك المادة لا تلقى منه قبولا. فقد أراد أن يدرس التاريخ ولم توافق سارا التى أحسنت عبرتها

أنه يسعى للانتعاد عنها. وأصبح الأمر موضع منازعات ولم تفلح مناوراتها القديمة من وعيد وعنف ومناولة، فقد كان لورانس في السابعة عشرة ولم تتح له سارا فرصة للمرافقة. وكان مازال متعلقا بأربطة منمرتها وهذا ما كان له أن يؤثر في مجرى حياته. ومن ثم، قرر أن يتبنى موقعا قاطعا. لم يحاول أن ينصارع معها علنا، فقد حالت تشبته كجنتلمان إدواردى دون هذا. وتخير بدلا من هذا السبيل الوحيد المفتوح أمام مرافقته المختلفة وكان هو الهروب من المنزل.

عامه الأخير بالمدرسة

وأعوامه الأولى بالجامعة

١٩٠٦-١٩٠٨

3

كان بإمكان لورانس

أن يفر إلى البحر لو أن هذا حدث

من قرن مضى ، إلا أنه التحق بالجيش

بدلاً من هذا . وجد لورانس نفسه خلال

أيامه الأولى مدفعياً في سلاح المدفعية

الملكي يؤدي واجب الحراسة في سانت

جاست بكورنول ، هذا الموقع الذي

يطل على نهر الفال .

وفجأة وجد هذا الفتى الصغير «البنوتة» ذو الصوت الرفيع نفسه يحتك بالصلبة الأجلاف ممن نشأوا في شوارع أقل مستوى بكثير من مستوى صاحبة شمال أكسفورد المرفهة. وكثيرا ما راودت فكرة الخدمة بالجيش مخيلته، إلا أنه وجد في الواقع كثيرا مما أسي له. كان الرجال أفضاظا بشكل يبعث على الدهشة، وكان كل حوار ينتهي بالعراك بالأيدي أو ببلطحة جماعية صد الطرف المستضعف. وطوال ليالي الجمعة والسبت، كانوا ينشاجرون صاخبين مخمورين وكان الخوف بتملكه من خشوبتهم، وكان كل طابور عرض صباحي بشهد خمسة أو ستة منهم مصابين بإصابات جسيمة. شعر لورانس بالقلق وعدم الاستقرار حينما شاهد زميلا له يشج رأس آخر كان قد سرق أحد منعلفاته وكان هذا المشهد آخر قشة بالنسبة له، فقام بإطلاع والده على مكانه، وحضر الأب ودفع غرامة إعفاءه من الخدمة.

وفيما بعد، أخبر لورانس ليدل هارت أنه استمر بالخدمة لمدة ستة أشهر، إلا أن

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

هناك روايات أخرى تذكر أن المدة كانت ثمانية أشهر، أو ثلاثة أشهر ولا بد أن يكون أحد هذه الأرقام فقط صحيحاً. ففي يناير عام ١٩٠٦ حاول لورانس وصبي يدعى هـ. إي. ماثر التجديف في قارب على نهر تشيرويل أثناء فيضانه والوصول إلى بانبرى، إلا أن القارب انقلب. وقد أكدت (سارا) أن نيد وشقيقه ويل قاما بتكرار المحاولة في عطلة عيد القيامة. فإن كان هذا صحيحاً، فمن غير الممكن أن يكون لورانس قد بدأ خدمته العسكرية قبل فبراير بوقت طويل واستمر فيها بعد مارس عام ١٩٠٦. ولا يوجد سجل يوضح أن لورانس قد خدم في المدفعية عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦، رغم احتمال استعماله اسماً مستعاراً، كما لم يتذكر أحد من أصدقائه أو إخوانه غيبة طويلة له. وأيضاً فقد كان بالتأكيد موجوداً في أكسفورد لتأدية الامتحانات الخلية النهائية. وانتهى كثيرون من كتاب سيرته إلى أن هذه الحادثة لم تقع أبداً. وقد عثر على لوحة بعد وفاته رسمها له هنري سكوت تيوك، الفنان «اليوراني»، وهو بالزى العسكرى واعتبرت هذه اللوحة شاهداً على إقامته

في قاعدة فالماوث عام ١٩٠٦. وقد نعرف إريك كيجنون على أن شارة الكاب العسكري التي ترتديها - رغم عدم وضوحها - هي شارة سلاح المدفعية الملكي. وفيما بعد أحبر لورانس أحد معارفه أنه كثيرا ما جلس إلى نبوك لبرسمه. بيد أن تبوك، الذي احتفظ بسجل للوحاته، فبد هذه اللوحة بوضوح على أنها رسمت عام ١٩٢٢، وكان لورانس قد زار كورنوال في تلك السنة. أما عنوان اللوحة فكان «بورترية لجراي» واقنناها رجل بدعى أيضا جراي. ولم يعرف كيف استقلت اللوحة إلى حوزة لورانس إلا إذا كان هو نفسه «جراي». فهل فاسل لورانس تبوك في أكسفورد أثناء زيارته لصدفه نشارلز بل؟ وهل تم رحلته إلى كورنوال عام ١٩٢٢ بهدف خديده صداقة شأت أولا وهو مدفعي عمره سبعة عشر عاما؟ وكأشياء كثيرة في حياة لورانس، فبالإمكان القول إن قصه عن نطوعه المبكر في المدفعية ليست كل الحصة.

وقد اعترف لورانس أن إحساسه بعدم كفايته في صحبة الآخرين من الرجال دفعه للنعويض عما أسماه «المبالغة، أو خطبنة الهواة» وكانت مهاراته في المبالغة آلية دفاعية أضفت عليه هالة أكبر كشرا من مظهره في عالم فسة أكبر منه، وأقوى جسديا، وأكثر لافة رياضا. ورغم قدرته على تشييد بناء محكم دائم من الزيف، كما فعل فيما بعد مع جون بروس، فقد كان يميل، ليس إلى اختراع، بل إلى تضخيم ما هو عادي لحعل منه أمرا يسمى إلى المطومة البطولية. وكان نراجعته المخزى قد أفسد إيماءاته المهيبة للمرد بهروبه إلى الجيش إلا أن لورانس أنقذ هزيمته بأن حول المغامرة إلى أسطورة رومانسية غامضة، وكان من اللافت أن تدخل في الأسطورة عناصر العنف والمعاناة والهوان التي داعبت مخيلته. والفانازيا، والمبالغة، والتشويه هي آليات للمازوكية، وكانت الفانازيا المدفقة لتحفير الذات إحدى تعبيرات مازوكية لورانس، كان ننخيل نفسه وقد استعبد طوال حياته بعمل في صفوف الجيش كحيوان وسط القطيع، أو بين المبودين يعمل على أرضه بورسعيد: فقد كسب قائلا: «بدأ لي أن هناك نوعا من البقين في الهوان. أمان نهائي.. بإمكان الإنسان أن يرتفع إلى أى علو، إلا أن هناك مستوى حيوانيا لا يستطع السقوط أدنى منه». كان أحد اكنشافاته المبكرة عن البسنر أن كلهم نعرسا، بمن فيهم، واسعى المعرفة، يصدقون ما بودون تصدقه، ومعظمهم بودون

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

تصديق ما هو رومانسي ولبس ما هو واقعي كان هذا كشفاً عظيماً بالنسبة للورانس مكنه من شحذ مهاراته كخداع إلى أقصى درجة. وفي أحد خطاباته إلى أمه تباهى قائلاً: «من السهولة بمكان أن يكتسب المرء مكانة (زائفة) كباحث في الكلاسيكيات». كان هذا بعد أن تفوه بمقولة لثيوقريطس، كان قد تعلمها لتوه، في أحد الأحاديث أثناء زيارة له للكلية الأميركية ببغروت. وكان كضابط مخابرات شاب بقرر مبتهجاً أنه «من السهل خداع العاملين بمكتب الحرب فيحترمون شخصاً ما معتقدين أنه «ذو علم خاص إن هو تفوه عالياً بأمر من هذا القبيل». وكانت عملية الزخرفة بالنسبة للورانس هي تحديداً من أجل إحداث مثل هذا الأثر لأنه غالباً لم يكن لديه سبب للمبالغة. ولننظر مثلاً إلى خطابين كتب كليهما في عام ١٩١٢ عن عملية شراء «أجراس جمال» كان لورانس يعرضها بمنزله. أول هذين الخطابين كان بتاريخ ١٨ فبراير ومرسل إلى جيمس إلروي فيلكر، والثاني في ٢٠ مارس مرسل إلى والدته. يقول الخطاب الأول: «مرت اليوم في السوق قافلة طويلة من مائة بغل من بغداد.. وكانت تخطو على الرنين الهائل لجرسين عملاقين من الحديد يتأرجحان تحت بطن البغل الذي كان في المقدمة.. فذهبت واشتريت الجرسين، وسرت إلى المنزل منتصراً وأنا أحدث صوت قافلة بغداد...» أما الخطاب الثاني فيرد فيه «التقيت في سوق البهارات بحلب بقافلة جمال آتية تتراقص على رنين اسطواناتين عملاقتين من الحديد تتدليان من بطن الجمل الذي كان في المقدمة، فأوقفت الصف وانتعت الجرسين ومشيت راجعاً إلى الفندق وأنا أحدث صوتاً مثل الصوت الذي كان يصدر عن قافلة الجمال».

لقد كانت الحيوانات إما بغالاً أو جمالاً، وإلا فأحد التقريرين مزيف كما أنه من غير المحتمل أن يكون لورانس قد نسي في غضون شهر أي الحيوانات كانت. وللإنسان أن يسأل «ماذا يهم إن كانت بغالاً أو نياقاً؟»، وليس هناك سبب منطقي للكذب. ولنا أن نستخلص إما أن لورانس كان يستمتع بخداع الآخرين، أو أنه كانت له فكرته الخاصة عما هو حقيقي. وفي الحقيقة، فإن موقفه من الوقائع سيتضح بعد هذا بسنوات حين نصح روبرت جريفز قائلاً إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة هي الإتيان بتعبيرات محيرة متضاربة أو مضللة. كما أنه اعترف حين اشتغاله مع العرب أثناء الحرب أنه لم يكن يخبرهم، ولم يكن يخبر رؤسائه

البريطانيين بالحقيقة كاملة، بل إنه كان يفوم بتصميم رواية الحقة التي تناسبه. كما كتب قائلا إنه لا يستطيع القول أين كانت تبدأ الخادعة وأين تنتهى، ويعترف أنه كان يكذب حتى فى رسائله وتقاريره الرسمية ثم أضاف «لأبد وأنه كان لدى ميل وقدرة على الخداع، وإلا لما خادعت الناس بهذه المهارة». وقال عنه رونالد ستورز الذى كان يعمل معه عن قرب فى القاهرة إنه «غير مبال فى أحداثه، وغير مسئول، ومراوغ، ومتعب، ومثير للغضب وفاقد السيطرة. كان يقرر كوقائع أشياء كان يعلم أن أحدا لن يتقبلها - مثله، مثل أى شخص عربى من الشارع وأى عربى من الجزيرة».

وقد يكون انسحابه السريع من المدفعية عام ١٩٠٦ قد حطم وهمه عن نفسه بشأن كونه «الرجل الصلب» الذى تمنى أن بكوه، إلا أن المغامرة نجحت نجاحاً كبيراً فى اتجاه آخر. فلم تحاول سارا بعد ذلك فرض إرادتها عليه أو اللجوء إلى العصا. وبدأت أية حرية شعر بامتلاكها فى السنوات النالبة فى اللحظة التى أوضح فيها لأمه قدرته على الانفصال عنها. وقد كتب بعد هذا بسنوات طويلة ذاكرة أن السابعة عشر كانت السن التى وجد فيها نفسه. وكانت الحادثة قد عكرت صفو مسيرة الأسيرة الهادئة، وأصبح عليهم أن يحتفظوا بواجهة محترمة أمام المجتمع، ومن ثم، تم احتواؤه سريعاً لدى عودته وطمست الحادثة ومنح، فى مقابل صمته، رغبته فى التقدم بأوراقه للحصول على منحة لدراسة التاريخ، وأدى الامتحانات الخلية ذلك العام فى سلام.

كما سمح له أيضا أن يقوم برحلة بالدراجة حول الكوت دو نور فى فرنسا والتى كان قد أعد لها لوقت طويل مع صديقه سكروجرز بيسون. ومن أجل هذا، طلب دراجة جديدة من شركة موريس من طراز خفيف مصمم لهذا الغرض، ذات مقود سباق ولها سرعات ثلاث، وكان يحب أن يذكر عنها فيما بعد، أن اللورد نافيلد الذى كان حينذاك السيد وليام هنرى موريس مجرداً من أى لقب، قد صنعها بنفسه. كان ركوب الدراجات ظاهرة جديدة نسبياً فى بداية القرن. ورغم أن الدراجة التى تدفعها السلسلة الخلفية، ذات الإطارات الهوائية كانت قد اخترعت قبل عام ١٨٩٥، إلا أنها ظلت رفاهية مكلفة حتى عام ١٩٠٠ حيث تم

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

إنتاجها بالجملة . وكان توماس لورانس متحمساً للدراجة حتى في التسعينيات حينما كانت الأسرة تقطن دينارد في بريتانى . وكان قد حصل على أول دراجة له وهو طالب عام ١٩٠١ . ولبس معروفًا حتى الآن إن كانت الدراجة التي استاعها من أجل رحلته قد صنعت فعلاً بأيدي اللورد نافيلد ، إذ إن هذه قصة لورانسية نمطية أنكرها نافيلد . إلا أن القصة محتملة نظرياً بما أنه كان قد عُرف عن نافيلد أنه كان يقوم بصنع الدراجات في أكسفورد هاى ستريت حتى عام ١٩٠٨ . بيد أنه أياً كان الأثر ، فلا يوجد رمز أكثر إضفاءً للجمال على شباب لورانس من دراجة السبق هذه ، والتي تذكرها أصدقاؤه فيما بعد بوضوح ، كما لو كانت امتداداً للورانس نفسه . فتذكر إدوارد ليدز كيف كانت تختفى بسرعة وثقة أعلى الطريق قبل أن تتاح للمرء فرصة كي يستدير وينظر إليها ، بينما تذكرت فيفيان ريتشاردز ببهجة كيف كانت الدراجة تنزلق في صمت في إيفلى رود بعد منتصف الليل . وقد قام لورانس بشماني رحلات بالدراجة إلى فرنسا وقطع آلاف الأميال وهو يركبها .

في الثالث من شهر أغسطس عام ١٩٠٦ ، غادر لورانس إنجلترا على عبارة إلى سانت مالو وهو منشراح السريرة . فقد انتهت الامتحانات ، وكان بعيداً عن والدته . بدا العالم الجديد الشجاع مليئاً بالأضواء . كان غروب الشمس رائعاً ، ووقف لورانس يرقبه على سطح العبارة وترك أبياتاً طويلة من الشعر الرومانسي تتلاعب في رأسه . استوعب بهاء القمر منعكساً على الماء . وقد استعاد هذه الليلة كحلم بهيج وهو يغادر إنجلترا بعد ذلك بعشرين عاماً ، أى عند بداية أسفاره الاختيارية . أمضى شهراً في الكوت دو نور ، وقطع ما يقرب من ستمائة ميلاً مسافراً مع بيسون . كان يقيم في الفنادق ، ويتسكع بين أرجاء الكاتدرائيات العظيمة والكنائس وأطلال القلاع العتيقة . وقد انعكست البهجة التي خبرها في كتابات منطلقة في بعض الخطابات التي أرسلها إلى إنجلترا . فقرب نهاية عطلته وصف لوالدته بهاء شاطئ بريتانى في أشعار لكيتس وشيلي ، واختتم برسالة ضمنية إلى سارا بأن كل شيء رائع «لأن لا أحد غيره هناك» . ويعكس هذا الخطاب حالة قريبة من النشوة ، لأن لورانس كان عادة ما يجد سعادة في الإشادة بصناعة الإنسان أكثر من جمال الطبيعة . فخطاباته تحوى أوصافاً للمعمار ، والكنائس من الداخل ، وكان هذا يستغرق أحياناً صفحات . ورغم أنه كان يسجل هذه الأوصاف

للرجوع إليها شخصيا في المستقبل، إلا أنه استخدمها في خطابه، حاجزا بحجب به عواطفه الحفيظة التي نخلو منها تماما هذه الخطابات باستثناء بعض التعبيرات غير المهمة عن المشاعر الأسرية. وتعنسر خطابات عام ١٩٠٦ نموذجاً ممتازاً يوضح عزلته العميقة عن أسرته، وعن الأم التي اعتقدت بعدم وجود أسرار بينهما. فإن كان لابد وأن تعلم سارا كل ما يشعر به، فليخبرها إذا بكل شيء. غير أنه بدلا من التعبيرات الدافئة التي كانت تنوف إليها، كان يمنحها فقط حجارة جافة. فعلى حين أن العواطف الإنسانية قد تكون جامحة لا يمكن التنبؤ بها، فإن المعمار انصار للنظام والتنظيم البشري، مزج ناجح للوعي واللاوعي؛ رمز لمقدرة الإنسان على تغيير الجماد. وقد أكد فيما بعد - بشبه جدية - عدم إمكان وجود عمل إبداعي حق لا تتدخل فيه الأيدي، وأصبح مفتنعا أن الفعل الإنساني يتم التعبير عنه بشكل أكثر اكتمالا في تطويع المادة سواء كانت حجرا أو طفلا أو جلودا أو صلبا. ومقارنة بالחסد الإنساني الضعيف، نبدو النناجات الفنية لصنع الإنسان صلبة باقية. وكانت الرغبة القسرية في الوصف هي الدافع الآخر من الإسهاب الوصفي الذي لا ينتهي. بدا الأمر كما لو أن ما رآه لورانس وما سمعه لم يكن لصير له وجود موضوعي إلا إذا وصفه لشخص آخر. وقد اعترف في وقت لاحق أن ممارسته الكتابية كانت للتعبير عما رآه وما سمعه بشكل أكثر دقة. ومن ثم، أصبحت موهبته في الوصف مصدر قوته وضعفه ككاتب: قد كان حسه بالتفاصيل حسا تصويريا، إلا أن مهاراته كانت تصور الأحداث منفصلة بأسلوب يعوزه الاقتصاد والتتابع.

وفيما بعد، استنتج جورج برنارد شو أن لورانس كان «أحد أعظم كتاب الوصف في الأدب الإنجليزي». أما فرانسيس بيتس براون فقد أضاف أن «لهفته على الوصف.. قد تطورت وأصبحت جنونا».

كان همه الأول في رحلته إلى فرنسا هو قلاع العصور الوسطى، وكانت جوهرة هذه القلاع قلعة توقريدو، وهي قلعة من القرن الثالث عشر تقع على تل يطل على وادي الجووير المغطى بالغابات. وصل لورانس وبيسون إلى موقع الآثار بعد أن غادر لانيون عشية عيد ميلاد لورانس الثامن عشر وقضيا ساعات أربع تتجولان بين الآثار وسط شمس ساطعة رعوية. وجد لورانس أثناء تفحصه القلعة

الفصل الثالث، عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

برجا برجا وحجرا حجرا أنه يمارس لعبة هجوم ودفاع عقلية، ويضع نفسه موضع المحاصرين، ثم قرر وهو يشعر بالانصراف «أنه من المستحيل دخول المكان إذ إنه كان على العدو أن يصنع جسرين كي يصل إلى المدخل. وكان الهبوط إلى الأرض بسنلرم النرول من ارتفاع ٤٠ قدما...» وأعلن أن توقوبندو أفضل قلعة رآها وأن وصفه إنها لا يقبها حفها من العظمه. ولم يكن قد أحضر معه آلة تصوير ومن تم أوكل إلى بيسون مهمة عمل رسوم تخطيطية. وفتح الصديقان برفقة أحدهما الآخر، إلا أنهما وكما هو محتم، كانا كثير ما بتحادلان. واعتقد بيسون أن لورانس كان يقوم بمخاطرات لا داعي لها فكان يقفز على الخنادق بدلا من أن يستخدم الجسور وينسلق أسوارا كثر بها الأحجار المخلخلة وكان حدسه أن هذا لم يكن مرجعه الشجاعة بل حب الاسعراض. وقد تأكد له هذا وهو يرقب ساقى لورانس ترتعدان خوفا أثناء محاولته جاهدا تسليق بعض الصخور الخطرة، فقدم له يد المساعدة، إلا أن لورانس أزاها غاضبا. وعلى حين كان بيسون متحمسا للطبيعة لاحظ أن لورانس لم يكن لديه حتى اهتمام بلاميد المدارس العادى بالتاريخ الطبيعى. وقد يكون هذا قد نجم عن تصور لا إرادى من فكرة التكاثر، وهو أمر سيظهر بشكل أوضح فى حياته فيما بعد، حيث كان ينظر لكلمة «حيوان» على أنها لفظ للسباب يستدعى معه الغرائز البهيمية والعقل اللاواعى. وقد كتب فيما بعد يقول «إن أكثر ما كان يخشاه فى العالم هو «الحيوية الحيوانية». وقد كان لورانس يفتاظ من بيسون ويدعوه «جحشا» حينما كان يتسبب فى إبطاء سرعته سيرهم بالدراجات، إلا أن دراجة بيسون لم تكن ذات سرعات ثلاث مثل دراجة لورانس الذى كان يستعرض تفوقها مزهواً على المسطحات فى إيركوى حيث قطع نصف كيلو متر فى ثلاثين ثانية. بيد أنه لم تكن حتى هذه السرعة لترضيه ومن ثم ألح إلى فاعلية الدراجة البخارية فى أحد خطابانه إلى أسرته.

وبعد عودة بيسون إلى إنجلترا فى ١٩ أغسطس مكث لورانس هناك أسبوعين آخرين. وقبل سفره تلقى نتائج امتحاناته التى كان ينتظرها بشغف. كانت النتائج ممتازة إذ كان ترتيبه الثالث عشر من أربعة آلاف وخمسمائة متقدم، وجاء ترتيبه الأول فى مادة اللغة الإنجليزية والثالث فى المعلومات الدينية. بدا مكانه فى جامعة أكسفورد مضموبا، إلا أن هذه النتيجة لم ترضه فكتب يقول «بشكل عام،

فالننتجية ليست جيدة بالقدر الذى كنت آمله». وسيظل عدم الرضا هذا أحد سماته طوال حياته، فمهما بلغ قدر العلو الذى كان بحلق فيه، لم تكن روحه الدائمة السعى للكمال لترضى. فكان يكتب قائلا: «لا شىء فعلته يبدو لى جيدا بالقدر الكافى.. إنه لشعور موجه بعدم الرضى ينتهى بأن أتمنى أنى لم أفعل شيئا على الإطلاق». وقد ظهر هذا بوضوح فى رحلته بالدراجة. فقد قطع لورانس ٦٠٠ ميل، حتى إنه فى أحد الأيام الأشد قيظا فى تلك السنة قاد الدراجة ١١٤ ميلا إلى دينارد ذهاباً وعودة. إلا أن هذا لم يكن ليرضيه. فلدى عودته إلى أكسفورد أخبر سكروجر بيسون أنه واصل رحلته بمفرده «متشوقاً لأن يحقق السرعة التى يرغبها» وقدم «وصفاً متوهجاً لما تحويه نورماندى ووادى اللوار من مواقع يجب مشاهدتها» حتى إن بيسون تملكته الرغبة فى لقائه هناك فى العام التالى. بيد أن خطابات لورانس توضح أنه لم يذهب أبداً بالقرب من نورماندى أو وادى اللوار فى عام ١٩٠٦، وأنه ظل متمركزاً فى دينارد بعد رحيل بيسون حيث كان يذهب للسباق كل يوم تقريباً، باستثناء قيامه ببعض الرحلات الثانوية.

وفى هذا الخريف، وبينما كان لورانس وبيسون يستعدان لامتحان القبول فى أكسفورد، كانت هناك مشاريع إنشائية تنفذ فى أكسفورد خاصة فى شارع كورنماركيت، وفى كليات جامعية مختلفة، وأيضاً فى هاى ستريت. كان لورانس يترقب دوماً احتمال وجود كنوز أثرية. لذا، فقد كان يحب تلك المواقع كل يوم تقريباً. ويقوم برشوة العمال بقليل من النقود نظير احتفاظهم له بما يجده. وبعد شهر من المثابرة تمكن هو وبيسون من اقتناء مجموعة رائعة من الفخار، والأوانى المصقولة، والزجاجات، والأنابيب، والعملات، ورغم أن هذه المقتنيات كانت تنتمى لعصور أحدث مما يروق للورانس، أى للقربين السادس والسابع عشر، إلا أنها كانت مثيرة بدرجة يمكن معها إهداؤها إلى متحف أشموليان، حيث كان لورانس قد تعرف على وكيل مساعد قسم الخفوظات، لورنادر وولى. وكان وولى، الذى عرف لورانس أكثر من غالبية الآخرين فى فترة ما قبل الحرب، فى الخامسة والعشرين، وكان قد تخرج لتوه فى نيوكويلدج، وبدأ وظيفته التى جلبت له رتبة الفروسية اعترافاً بعمله الفذ كعالم آثار وحفريات. وكان وولى، وهو الإنسان العطوف النشيط الحساس أحد القلائل الذين لم يخضعوا أبداً لسحر شهرة لورانس

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

اللاحقة، كما اعترف أنه رغم أنه وجد الشاب لورانس ساحراً، وحتى موهوباً، فإنه لم يتعرف فيه على أية عبقرية فذة. وقد وصف معرفتهما المبكرة بأكسفورد بأنها سطحية. وبالمقابل، كان اهتمام أمين منحف الأشموليان به أعظم كثيراً، حتى إنه سرعان ما قبله معاوناً غير رسمي بالمنحف. فكان يوكل إليه مهاماً منعقدة مثل فرز مجموعات طبقات الآثار النحاسية، والفخار. وسرعان ما أصبح لورانس ذا معرفة بمجموعة العصر الوسيط أكثر من موظفي المتحف أنفسهم.

وفي تلك الأثناء، كان قد تقدم للحصول على منحة بكلية سانت جون، حيث كان أخوه الأكبر بوب يدرس الطب، بيد أن لورانس لم يوفق. إلا أنه في يناير التالي نجح في الحصول على منحة ممولة من إقليم ويلز للدراسة بكلية يسوع، وقد نال المنحة لأنه وُلد بويلز، وكان قدرها خمسين جنيهًا استرلينيًا لدراسة التاريخ الحديث. وكانت كلية يسوع ويلزية إلى حد كبير لدرجة شعر لورانس معها بضرورة الضم بمرحلة بالدراجة إلى ويلز في عطلة عيد القيامة عام ١٩٠٧. وكان لم يمرها أبداً - كى يتعرف على مسقط رأسه. وبظهر في خطاباتاته إلى عائلته التي كتبها من هناك نوع جديد من البلاغة، قد يكون مديناً بها لجون راسكين، وكان لورانس قد قرأ له كتاب «حجارة فينيسيا» في العام السابق. وكان راسكين الشاعر أحد مؤسسي حركة إحياء «القوطية الفيكتورية»، كما أنه كان معنياً بانعكاس الروح البشرية في المعمار وقد اعتقد أن دقة الأعمال الحجرية القوطية الحقيقية من العصر الوسيط كانت نتيجة تمتع صناع ذلك العصر بحرية التعبير أكثر من نظرائهم المحدثين الذين فرض عليهم أن يكونوا أصفاراً في خط الإنتاج. وقد حفز أسلوب راسكين (الذى اعتُبر نموذجاً للنشر المنمق لكتاب المجتمع الراقي الفيكتوري) لورانس على محاكاته حيث كتب لدى قراءاته راسكين لأول مرة قائلاً: «لدى الآن إدراك ما عن الأسلوب الصحيح لدراسة المعمار، وعن كيفية استخلاص أصدق الدروس منه». إلا أن إحدى أكثر اللحظات إحباطاً في رحلته كانت حينما استمع إلى الشاة صاحبة فندق البليكان بكندويللى وهى تناقش أمره مع عائلتها. إن قلة ما هم الذين يستطيعون الإحجام عن التنصب. أما لورانس، الذى تسبب اعدام صورة داخلية عن ذاته لديه فى أن يتلمس معرفة فكرة التحرير عنه، فقد بذل جهداً ليتنصت على كل كلمة وكتب فى تقريره يقول: «كان الأمر

طربفا هنا . . فقد انتهى مجلس العائلة إلى احتمال أن أصبح «سبنا ما» . . وأعتقد أن هذا استنتاج غير مجد .

ذهب لورانس إلى كلية بسوع في ١٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ . إلا أنه ظل بعين في رفم ١٢ شارع بولسند معظم الوقت أثناء دراسته الجامعة . وانخد سكتنا جامعا لمدة فصل دراسي واحد نزولا على نظام الجامعة . وقد اعرف نبو شوبدي الذي التحق بكلية كرايست نشيرش في نفس العام ، إنه وزملاءه أصابهم الدهشة لدى معرفتهم أن لورانس تقدم لمحة دراسية ، ليس لأنهم شكوا في دكانه ، لكن لاعتقادهم أنه ليس لديه الالتزام الكافي المتطلب للحياة الأكاديمية . وقد ادعى لورانس فيما بعد أنه لم يحضر أية محاضرات في كلية بسوع ، وأنه كان بفضي وقته في القراءات الخاصة التي لم تكن ذات علاقة في أغلب الأحيان بمواد دراسته . وكان أى شيء في التاريخ بعد عام ١٥٠٠ بصفة بالملل . وكان مفهومه عن العصور الوسطى هو عالم الملك آرثر الفروسي أكثر منه عالم العودنه والطاعون الواقعي . وقد لاحظ المدرس النابه الشاب إل . سى . جين ، الذي نولى إعداد لورانس لامتحانات الفبول بأكسفورد ، وكان ذا شخصية منوترة إلى حد ما ، أن لورانس لم يكن أكاديميا بطبعه . كما لاحظ أن الكتب التي كان يقرأها كانت هي فقط الكتب عبر المعتادة ، أو بمعنى آخر ، تلك التي كانت تتوافق مع حسه بغوض ذاته . كما لاحظ أنه كان متباعدة وكان يأتي بمقولات مستفردة كى بخبر شخصيته . كما اعتقد إرنست بيكر ، أن لورانس احنار أن يدرس التاريخ كسباح للقفز من فوقه ، وراه كفارس يتفلد سيفا استعدادا للمعركة . أما ميدج هول زميل لورانس في كلية يسوع ، والذي كان أكثر قدرة على الملاحظة ، فقد تحقق أنه «كان جوالا لا هدف له سوى التحوال» وكان هدفه الأوحد هو الهروب . واعتقد ريجينالد لن بول ، معلم لورانس في مادة تاريخ العصور الوسطى ، أنه شخص رومانسى رعم ملاحظته المغايرة بأنه كان يبدأ مقالاته بجملة متحدية ، وكان أسلوبا تعلمه من نصيحة سير تشالز أومان ، الذي سيقوم لورانس فيما بعد بدحص نظرياته عن فلاع العصر الوسيط . وحدث أن كتب لورانس مذكرة إلى معلمه بعندر فيها من عدم حصوره إحدى حصصه ، فأجابه معلمه ببديهية لاذعة قائلا إن هذا غير ذى أهمية إذ إنه سبتيح له ساعة من العمل المجدى .

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

لم يشارك لورانس كثيرا في حياة كليته، وجذب إليه الأنظار بانعزاله. وكان رفضه الاشتراك في النشاط الرياضي يشير دهشة البعض. لكنه كان من الحصافة بحيث إنه لم يشارك في الحدل بشأن المراهانات مع المتحمسين من الكلية، فضلا عن أن يسخر منهم بأن يتبعهم في الشوارع وهم في طريقهم إلى الملاعب أو نادى التحديف، وبهرا من صفاتهم الجسدية. وامتنع لورانس أيضا عن أشياء أخرى. فرفض أن يدخن أو يتعاطى المسكرات، ونادرا ما كان يحضر المآدب الرسمية في قاعة الجامعة. وقد أوضح الأمر لأحد زملائه في الجامعة، وبدعى إيه. جى بريس جونز، فقال إنه لا يحلس على الكراسى إن استطاع هذا، ولا تناول الإفطار أو العداء أو شأى الساعة الخامسة أو العشاء، كما أنه لا يقرب الدخان أو المسروبات المركزة وقال جونز «فى الواقع، لم يكن يفعل شيئا بؤهله لكون عضوا عاديا فى المجتمع». وحدث ذات مرة أن لورانس اندفع إلى غرفة ميدج هول وقد ارتسم على وجهه تعسر عريب مضحك مشوه وبدأ فى إطلاق الرصاص من النافذة فى اتجاه أسفل. وتحقق هول بعد ذلك أن الرصاصات كانت «فشنك» وأن لورانس أراد أن يكون مشهدا تمثيلا رغم ادعائه أنه كان يروح عن نفسه بعد خمس وأربعين ساعة عمل متواصلة دون راحة أو نوم. وقد شغل مسكنا جامعييا عام ١٩٠٨ أثناء أحد الفصول الدراسية وكان المسكن يطل على السوق المغطى ويعلو مطبخ الكلية حيث كانت روائح طهو الطعام العفنة تهب خانقة على الغرفة. وحين كان الجميع بسنعدون للسوم فى وقت متأخر، كان لورانس بنشط «مثل القطه» ويجوب الشوارع المظلمة على دراجته، أو يقطع المربعات السكنية بمفرده. وأثار تجواله الليلي فضول طالب بالفرقة الرابعة يدعى فيفيان ريتشاردز حيث ذهب لبحث حالة طالب الفرقة الأولى المعزل، وسرعان ما أولع به، وكان ريتشاردز، وهو شاب ذكى، حاد زوايا الجسد، حساس، ابنا لمخترع من ويلز تزوج من أمريكية وكان والده قد فصى حياته بجمع أو سمة النفوق وبسخر من الفن والتاريخ والأدب. وقد أدى افتتاح ريتشاردز بلورانس إلى منعطف آخر فجأة، أى إلى عالم الأشياء القديمة. «القلاع، والكسانس، والنحاسيات الدكارية والأوانى الفخارية والكنب نم الكنب ثم الكنب». ولم يكن بالإمكان تجمع شخصين بهذه الدرجة من الاختلاف فكان ريتشاردز رياضيا، منعاليا، لا يستهويه الفكر، منقادا لما حوله، وتقليديا. أما

لورانس فكان زنيقيا، ومتفليا، وغير تقليدي، ذا ميول عقلابية متطرفة، ومستعرقا في كل ما هو قدم ورومانسي، ورغم هذا، فلدى أول لقاء به كتب ريتشاردز قائلا «تملكنا ود عميق سريع مازالت حبيبته تحرك جوانحي بعد مرور ثلاثين عاما». سيطر هاجس حب لورانس على ريتشاردز فأفاض على محبوبه ودا غير محدود، وخضوعا، وتضحية. إلا أن عاطفته لم تحل لها مردودا. فلم ينجذب إليه رغم أنه كان يتمتع بصحبته التي كان فيها إرضاء لغوره حيث كان ريتشاردز يسيع عليه عظيم الاهتمام. إلا أنه لم يبد منه بادرة أبدا توحى بأنه فهم طبيعة اهتمام صاحبه به. وعرف أن ريتشاردز شخصية صعبة معقدة، يميل إلى ازدراء ما لا يفهمه، ويرتعد رعبا من الفجاجة التي كان يشير إليها بلاغيا «المهنية». أحب لورانس موهبة ريتشاردز الفنية الخبيثة، وكان يسعده أنه يساهم في تنقيتها، إلا أنه نجاهل الطافة الرهبة التي كانت تبعث من ريتشاردز فباله، محولا إياها إلى مصلحة متبادلة. أحب أسلوب ريتشاردز المباشر وخبر معه ألفة لم يعرفها من قبل. إلا أن العلاقة ظلت بريئة، الأمر الذي أصاب ريتشاردز بالإحباط. وبعد سنوات طويلة، ادعى ريتشاردز أن لورانس غير ذى نزوع جسي. ويعتبر اعتفاده بأنه لم يكن لدى لورانس أى «حس جسدى» من أى نوع صدى لرأى كليبر سيدنى القائل بأن «حضور لورانس كاد ألا يكون جسديا». إلا أن أيا منهما لم يستوعب حفيضة كون لورانس مازوكيا، ارتبطت أحاسيسه الجنسية ارتباطا وثيفا بخوفه من الألم. ورغم تفضيله الرجال على النساء، إذ توضح كتاباته المتأخرة انبهاره بفكرة الجنس الإيروسي المثلى، إلا أنه كان يملكه الرعب من حفيضة الألفة الجسدية التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بعلاقته المبكرة بوالدته حتى إنه كتب قائلا «يصيبني الاشتمزاز من التلامس بالعنيان والنفور». كما أنه أخبر إى. إم. فورستر لاحقا «أن تكوينه الجنسي» غريب. وكتب قائلا بخصوص الفعل الجنسي المثلى «أعتقد أنني لا يمكنني أبدا فعله.. فلم يولد فيّ بعد الحافر القوى بدرحة كافية لأن يجعلني ألس مخلوقا آخر».

وفيما بعد، أخبر ريتشاردز روبرت جريفز أنه بعد انتقاله إلى مسكن خارج الكلية، كان لورانس يزوره باستمرار هناك بعد منتصف الليل، وقال إنه طلب من ريتشاردز ذات مرة مرافقته في رحلة سباحة مجنونة للغطس في الحلب في نهر

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

تشير ويل المتجمد كى يكتشف ما إذا كانت طبقة الجليد رقيقة بحيث يتاح لهما العطف ثم الخروج من الماء مرة أخرى. وقد رفض ريتشاردز الفكرة على أساس أنها مغامرة سخيفة محفوفة بالمخاطر. إلا أن لورانس انطلق بمفرده وكرر هذا عدة مرات فيما بعد. وقد بين ريتشاردز اعتقاده أن منعه صديقه بهذه الرحلات الغربية كان مصدرها جزئياً الدهشة التى كان يراها مرسمة على وجوه التقليديين من الأفراد مثله. وهذه ملاحظة رئيسية فعلى حين كان صوم لورانس واتباعه أنظمة غذائية قاسية وحرمان نفسه من النوم تعبيرات عن طبيعته المازوكية، فقد كانت أيضاً أوجها لميول استعراضية مقبولة إذ إنه لو كان لا يتمرس فقط على قوة الاحتمال لمواجهة الخن المحتملة القادمة «بالمعنى البطولى الكلاسيكى»، لما كان هناك داع لتفريعين، إلا أن لورانس لم يكن يميل للمعاناة الصامتة، إذ كان لابد من وجود شهود على محنته. وكما يقول ريتشاردز، كانت هذه إحدى سماته طوال حياته، أى السعى وراء صالة عرض خاصة لعرض بطولاته.

وقام ريتشاردز ولورانس معا باستكشاف عالم ويليام موريس، ذلك الصرح التليد للفن والتصميم الثيكتورى والذى ترك أثره على لورانس بقية حياته. ومن غير الواضح متى تعرف لورانس لأول مرة على موريس الفنان، وليس سمييه ويليام هنرى موريس أو اللورد نافيلد رجل صناعة السيارات. لكن لورانس كان بسكن شمال أكسفورد خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، ومن ثم كان من المحال تخاشى السماع عن موريس حيث كانت تصميماته لورق الحائط المزخرف برسوم الرمان أحدث صيحة فى منازل أساتذة جامعة أكسفورد. وكان موريس تحديداً هو نوع الشخص المتعدد الثقافة الموسوعى الذى كان لورانس يتمنى أن يكونه، كان شاعراً متميزاً، وروائياً، وحرفياً من الطراز الأول، ومصمماً، وطباعاً، ورساماً، وكان رائداً لفن الطباعة من الأعمال الحاسوبية، كما أنه طاف بالكاتدرائيات الفرنسية فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وشق طريقه خلال صحراوات أيسلندا الباردة، وأعاد إحياء العمل الكلاسيكى «موت الملك آرثر» للكاتب مالورى، وكان مصدر إحياء لحركة الفنون والحرف التى تبنت الاشتراكية الراديكالية، وساعد فى تأسيس جماعة «إخوان ما قبل رفائيل» وأنشأ دار كيلمسكوت الشهيرة للنشر والطباعة. وكانت فترة العصور الوسطى هى مصدر

إلهام موريس مثلما كان الحال مع لورانس . وكان هدفه إعادة إحياء روح الحرفية الفردية التي اعتقد أن الزمن الفسكوري الصناعي قد فقدتها . وجعل منه هذا ماردا في نظر لورانس الذي كان كمن مشغولا دائما بممارسة حرفه ما كالطباعة من الأثرية الحاسبية أو بحث الحمر أو الأعمال المعدية أو تحت الخشب وحتى الحباكة . وعلى حين أعجب رينشاردز بمشاهدة لورانس في ممارسة هذه الحرف ، إلا أن النتائج لم تكن نحوز إعجابه إلا فيمما ندر . وذات مرة ، أراه لورانس مصباحا كهربائيا كان قد صنعه من النحاس المطروق وصممه طبقا لنموذج مصباح مغربي مأخوذ عن أحد نقوشات هولمان هانت وكانت تدعى « ضوء العالم » . واعتقد رينشاردز أن المصباح ردىء . بيد أنه أدى إعجابه بحفر لشكل كلب بلجى كان لورانس قد نعهه على قضيب لمائدة فى غرفه . أما بوب ، شفق لورانس ، فقد كتب قائلا إنه كانت لدى نيد ، حنى وهو طفل ، مفررة عظيمة على تحسن وإصلاح الأدوات المنزلية . وقد نفاخر لورانس فيما بعد نلك المفررة وأسمائها « الاستعداد لصنع وإصلاح الأشياء » . ورغم أن بيد دعا نفسه « حوالا يبحث عن الأحاسيس وفنانا من نوع ما » فقد اعنفد آرى أن أخاه حرفى أكثر منه فنانا ، واعتقد أن لأخيه حاسة لنفدير الصنعة الجيدة والحامة الجيدة بغض النظر عن القيمة الفنية . وأناء عمله بالكتابة فيما بعد ، كان لورانس يتصرف كما لو أن هاك تقية حرفية للتعبير الأدى التى لو تعلمها المرء لأمكنه الإتيان برائعته أدبية كما لو أن الأمر لا يخرج عن كونه « عملية حسابية » . وكان ماهرا فى استعمال التقنية إلا أنه اكتشف أن الأدب العظيم لا يكمن فى إتقان « الحبل » ، لكن فى قوة الرؤية الإبداعية ، الأمر الذى سبب له قدرا من المراءة . والحقيقة ، أن القوة التى كانت تهيم على روح لورانس (أى الإرادة العظمى التى شبدتها فى مجابهة الجحافل البربرية التى ما فئت تطرق تخوم وعبه فتسزفه) كانت مضادة للإبداع . وهى إن كانت تستبعد العواطف الساردة ، فإنها أيضا قد أوهنت خصوصية الرؤية المرتبطة نلك العواطف . فقد كان لورانس شخصا متحكما فى ذاته . عقلا بيا بدرجة لا يمكن معها أن يصبح شاعرا أو فنانا أبدا . وكانت مأساة حياته الكبيرة هى اكتشافه أن الإبداع هو فى واقع الأمر تدفقا للحاسب المعتم الذى فضى حياته محاولا كبه .

وقد استوحى لورانس من موريس فكرة إنشاء مطبعة بدوية إذ إبه بدا له وأن

الفصل الثالث، عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

الطباعة هي المهمة المثلى لهاوى العنون الذى توقع لنفسه أن يكونه فى المستقبل ، ولدى تفكيره فى عمل دائم له كان لا يقوى على احتمال فكرة أن يحدّد بمهنة ما أو أخرى . وعلاوة على هذا ، فقد بدا الأمر وأن الطباعة تحيطها هالة روحانية كان لها قبول فى نفسه ، حتى إنه قال لوالدته فيما بعد إن « الطباعة لبست تجارة بل حرفه » .

ومثله مثل موريس كانت الخاصية الحسبة للكتاب جبد الطباعة تجذبه ليس فقط من الناحية الجمالية لشكل الطباعة ، بل أيضا الإحساس بالورق ، ونية التغليف . وتمتلى خطاباته بإشارات نخبوية شبه روحانية لمزايا جلد التغليف الرقى ، ولتعقيدات عملية الحصول على اللون الأرجوانى الجيد من اللون الأحمر الأرجوانى الشامى . وعلى حين اكتفى موريس بمكان فى سوق هامر سميث التجارى ، لم يكن للورانس وربشاردز أن يكتفيا إلا « بهو عصر أوسطى » حقيقى . وقد تكون الفكرة قد راودتهما لدى قيامهما « بالبحر » إلى « صربج » لموريس فى نورديكامدن ، حيث كان زوجان بدعيان الكومرسواميس قد قاما بتحويل كنيسة صغيرة من القرن الرابع عشر إلى منزل حشدا فيه أشياء موريس التذكارية ، بما فيها نسخة من أعمال تشوسر « أمير الطباعة الحديثة » التى تم تغليفها تغليفا رائعا فى الاستوديو الخاص « كليمسكوت » . وهناك نوفرت لهما ميزة اطلاعهما على المطبعة الحقيضة التى استعملها موريس فى الاستديو الخاص به فى كليمسكوت والتى كانت مازالت تعمل . وقد تعمد رينشاردز أن يسجل أن رد فعليهما لم يكن فقط عاطفيا بل « كان حافزا غير عادى للحماس العملى الذى أخذ يتجذر فى عقليتنا . فسنبقوم نحن أيضا بالطباعة ، وسنحقق المكاسب من هذا كما نأمل بحيث يكون بإمكاننا العيش دون أن ننحنى لأى نوع من المهن » . وأيضا ، حفزت هذه الزيارة للورانس على قراءة رواية موريس « جذور الجبال » وهى رواية خيالية عن قبائل قوطية كانت تحيا جماعيا فى أبهاء وتنام فى أسرة يتم إعلاقها ، وتعقد مجالس شعبية على الطراز الإنجليزى القديم وتحارب بشجاعة فى المعارك . وقد قادته « الجذور » إلى روايات أخرى مثل « البئر التى تقع فى نهاية العالم » و « الغابة الواقعة خارج حدود الدنيا » . ونفلته كل منها إلى عالم أسطورى بطولى . وقد ظل للورانس معجبا بموريس طوال حياته على حين خبت أحاسيسه تجاه الكتاب الأكثر شهرة . وكتب لتشارلوت شو فيما بعد

قائلا: «أعتقد أن كل فرد يحب كتابا واحدا بدرجة غير عادية ودون تعقل... وأنا أفضل موريس على العالم أجمع» و«إن عقلي يخبرني أنه ليس كاتباً حشداً، إلا أنه كتب فقط المادة التي أهواها». وقد اعتمد لورانس أن فكرة بهو عصر أوسطى هي فكرة موريسية حفيضة، أكثر من «بيت موريس الأحمر» في آنتون. وذات مرة، سحب ريتشاردز معه كى يريه كنيسة صغيرة من الحجر غير مستعملة قرب ويماون كان يفكر في شرائها. كانت ذات ساطة عارية محببة إلى لورانس «وكانت الفاتازا الموريسية» قد مارست قوة هائلة على لورانس، رغم أن عصر أوسطية موريس لم تكن حقة بدرجة أكثر من تلك التي نبناها لورانس. وهناك أكثر من نلميح أن للأبهاء الجماعية في روايته «جذور الجبال» أثر في تعلفه اللاحق بحياة ثكنات الجيش، كما الملح ريتشاردز أيضاً أنه بالسيرة للورانس «كانت خيام الصحراء المصنوعة من شعر الماعز الأسود هي أيضاً أبهاء عديدة مظلمة ذات أعمدة».

غير أن شطحات لورانس أثناء وجوده في كلية يسوع لم تقنصر على كونها مغامرات في أجواء عقلانية وجمالية فقط. ففي صيف ١٩٠٨ طلب من ريتشاردز أن يلحق به في مغامرة مدينية للإبحار في قناة طاحونة تربل. وتمدنا هذه المغامرة بالصورة الأولى للورانس كمنظم ومنفذ، وهذه شخصية حاول إنكارها لاحقاً. كان لورانس دوماً مهتماً بالقوارب وتسبيرها. واكتشف في سنواته الأولى في كلية يسوع دلائل على وجود مجرى مائي عصر أوسطى أو قناة طاحونة تربل التي كانت تجري تحت المدينة. وبعد جهد استطلاعي مدروس توصل إلى أن القناة كانت تبدأ عند فوهة بالوعة مجرى قرب كوبرى هايث، وعزم على أن يتأكد من شكوكه بشأن تدفق تلك القناة في نهر إنزيس عند كوبرى فولى. وكان ريتشاردز قد أخذ مجموعة من الأصدقاء جمعهم معاً في قوارب ثلاثة للقيام بهذه المعامرة وكانوا. هيدج هول، وثيوشويدى، وإى. تى. بى ويليامز، وهى. إى مائر وكان من المتحمسين للرياضات المائية وكان لورانس قد شاركه في معامرة فاشلة عام ١٩٠٦. وفي اليوم الموعد، أنزلت القوارب إلى المجرى عند كوبرى هاست وهى مضاءة بالشموع ومصابيح العاز، وكان النفق شديد الضيق بحيث كان على الشباب أن يقسوا في القوارب منحنيين إلى الأمام وأذرعهم تلامس جوانبهم لعدم

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

وجود فضاء كاف . وقال لوراس إنه قد يكون من دواعي التسلية أن يروا أى مصدر للضوء سيخبروا أولا وكان الهواء قد أصبح فاسدا ، تم تعجب بصوت عال عن موقف الفئران التى تحتل المكان ، وأضاف ، وقد أخذت القوارب تنساب فى الظلام « ليس هناك فضاء يسمح لدوران القوارب والعودة بنا » وكان كيان لوراس وكأنما قد تكهرب بفعل روعة إثارة الخوف التى دفعته مرة أخرى للظواهر بالشجاعة . أما فى حقبة الأمر فكان الرعب قد تملكه من انسياب المياه من خلال تركيبات القضبان الأمر الذى كان سيؤدى إلى ارتفاع مسوب المياه وتعطيل القوارب ، أو أن يرتفع منسوب المياه نتيجة لهطول الأمطار المفاجئ فيعرقوا . ولحسن الحظ لم تكن ثمة عوائق أو توقف مفاجئ من أى نوع . وحاول لوراس أن يدارى شعوره بالارتباك بإطلاقه فدائف فارغة من مسدسه أسفل تركيبات قضبان الجارى كى بجذب انتباه المشاة فى الطريق الذى بعلوهم . ثم اندفعت القوارب إلى ضوء النهار بالقرب من كوبرى فولى بعد عشرين دقيقة فقط من الإفلاع .

وبما أن اهتمام لوراس بهذه النشاطات التى تخرج عن نطاق المقررات الدراسية أو بهروبه إلى عالم موريس كان أكبر كثيرا من اهتمامه بالمحاضرات ، فقد كان من حسن حظه أن أدخل الأساتذة الممتحنون فى مواد التاريخ فى عام ١٩٠٨ خيار التقدم ببحث عن أى موضوع ذى صلة واعتبار البحث مادة دراسية خاصة . وتحقق لوراس أنه إذا اختار « التاريخ والاستراتيجية العسكرية » مادة خاصة سيصبح بإمكانه التقدم ببحث عن قلاع الصليبيين بعكس فيه كل ما تعلمه بشق النفس عن الحروب الدفاعية فى العصر الوسيط . وكان قد قام برحلته الثانية إلى فرنسا مع ببسون عام ١٩٠٧ ، والآن ، وفى عام ١٩٠٨ قرر أن يقوم برحلته الثالثة كى يشاهد ما فاتته من قلاع صليبية ويرى بعض الكاتدرانيات التى استلهمها موريس فى خمسينيات القرن التاسع عشر . وقد كان لهذه الرحلة أن تكون أكثر من رحلاته السابقة طموحا إذ إنه كان سيسافر بدراجته عبر فرنسا بمفرده إلى أن يصل إلى البحر المتوسط

وفى منتصف يوليو وصل إلى الهافر ، وتصارع مع عواصف البرد عابرا جيسور إلى كومبين ، ومن هناك إلى بروفان قرب باريس حيث اكتشف أسوار صدد المدينة حربه تنتمى إلى القرن الثانى عشر كادت تتحدى لعبته الذهنية الخاصة بالهجوم

والدفاع. وظل يحوم حول الأسوار ساعات حتى نوصل إلى نسحة أن الأسوار ربما كانت قد أقيمت كتجربة وقرر «أن الصد كان يكاد لا يقوى على الدفاع، ورغم هذا، فالتجربة في جوهرها متقدمة على عصرها بنحو نصف قرن». ثم وصل بدراجته إلى شامبين، وكان يحس على الحيز والدين والمشمش إذ إن الجو كان قد أصبح حاراً بدرجة مخيفة. كان في هذه الآونة يتبع نظاماً صارماً بصحو في الفجر حيث يصل إلى الفلعة التي يريدتها في منتصف النهار تقريباً ويفحصها لمدة ساعتين. ثم يستمر في رحلته بالدراجة بعد الظهر حتى يعود إلى فندقه في الساعة أو الثامنة مساءً. وسرعان ما طغى الإلحاح الخوض للرحلة على فرحه بوصوله إلى الصلاح وأدى إلى حفرته، رغم أنه كان يشغل فكره بنظم صفحات كاملة من رسالته المفترحة وهو بفود دراجته. كانت بلاد الشمبانيا جميلة جداً مذهلة، وشعر بنفسه يمتلئ طاقة وهو يسير بدراجته في سياتين الكرز وعبر القنوات المتألفة؛ وهو يقطع حقول القمح والشعير الناضج الذهبي بينما يراقب المزارعين جماعات في طريقهم للحصاد، وماجلهم نبرق في أشعة الشمس كالسيف، وعربات النين الضخمة تجرها الثيران البيضاء المصفرة. ثم سق طريقه جنوباً بنبات. وفي أواخر شهر يوليو كان هناك في أوفرسي يحاول أن يجد طريقاً أسفل المرتفعات المتعرجة البركانية الصارمة الكالحة ماراً بحداثق نحوطها أسوار ضخمة من الصخور الخافدة، ومتسلقاً آلاف الأقدام بصعوبة وهو بواسى نفسه أن أحداً من الرمن الكلاسكى لم يكن يحلم بمثل هذا العناء - خلط من عدايات سبزييف الذى كان عليه أن يدحرج ححراً أعلى الجبل دون توقف، وتانسالوس الذى حكم عليه أن يمسك بنمرة لا يستطيع مطاوتها، ونبشوس الذى أجبر على أن يظل جالساً إلى الأبد، أما مكافاته، فكانت الاندفاع بالدراجة هبوطاً دون توقف من أعلى ارتفاع ٤٠٠٠ قدم إلى وادى الرون. كان هذا الاندفاع محموفاً بالخطاير ومتبيرا لدرجة شعر معها بالغنيان لدى وصوله إلى القاع. ثم واصل رحلته في إقليم البروفانس وأحراش كامارو الجميلة الموبوءة بالبعوض حيث أصيب بأول جرعه له من الملاريا التى سنطل بزعه طوال حياته. وأخيراً وصل إلى جبل لى بو المنعزل المغطى بالزيتون حيث نظر بعيداً من أعلى حافة خطيرة عسر السهل. وفحاة راقب الشمس وهى تفقر من خلف سحابة وترسل ضوءها ومبضا فضيا. كانت هذه إحدى أكثر لحظات حياته

الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة

إبارة، واحتفى بها بأسلوب لم يكن يملكه سوى شخص من جامعة أكسفورد في تلك الحفلة، حيث صاح بكلمات إكسنافون بصوت مرتفع أزعج بعض السواح الفريين وقال: «البحر .. البحر».

الفتح
للمطبعة
والنشر

السلطان يحتسى الشاي كمادته

ثورة تركيا الفتاة

4

بينما كان لورانس يقود دراجته

فى اتجاه الجنوب فى طريقه إلى

البحر المتوسط

فى شهر يوليو ذاك، قفزت إلى

وجهه عناوين الصحف

التي تحمل أنباء الانقلاب فى تركيا.

وكانت الصحف تؤكد أحياناً أن

ثمة ثورة قائمة،

ثم تعود فى اليوم التالى لتؤكد

لقرائها أن كل شىء هادئ،

وأن السلطان يحتسى شايه كعادته.

كتب لورانس لوالدته سانلا إياها بالراح أن توضح الأمر الذى قد يكون مهما . أما ما كان يحدث فى الواقع فكان بداية النهاية للإمبراطورية العثمانية ، هذا العملاق المترنح الذى هيمن على الشرق الأوسط وأوروبا الشرقية فرائة حمسمائة عام . وكانت حفنة من شباب الضباط الأتراك قد استولوا على مقاليد الأمور فى الجيش الثالث العثمانى فى أوروبا فى ٢٢ يوليو . ثم قاموا بتوجيه إندار إلى السلطان عبد الحميد الثانى (الباديشاه) بأن يمح البلاد دستورا أو يتنحى . وأيا كان الطريق الذى كان سختهاره ، فقد كانت هذه هى السهابة الفعلية لسطوه الطاغية .

كان عبد الحميد يُنعت بـ «عبد الحميد الملعون» ، و«السلطان الأحمر» و«عبد الحميد الدموى» . وكان قد ترأس لسنوات ممالك عديدة فاسدة مسنبدة امندت من رمال الصحراء إلى تلال فارس . وكان الـ «الباديشاه» (وهو لقبه بالتركية) بصرف أمور مملكته خلف أسوار قصر بلدز وهو محاط دائما بحافل الحصيان والأفزام والباوران شبه البكم والراقصات السر كسات ، يصرفها من خلال شبكة عريضة

الفصل الرابع: السلطان يحبس الشاي كعادته ثور تركيا الفتاة

من الحواسيس وجواسيس على الجواسيس، وكاست الشبكة تتصل به عن طريق أسلاك البرق البالى طولها آلاف الأميال. وكان القصر نفسه عبارة عن أيقونة لحوفه المرضى المنعرد حبت إبه نادرا ما كان يغامر بتخطى حدود القصر، وفى نطاق تلك الحدود، أنشأ عددا هائلا من الممرات الخفية التى لم يكن يعرف حريبتها سواه. كانت نورات عصب عبد الحميد غير متوقعة لدرجة أن حتى رجال البلاط المنمرسين كانوا برنعدون فى حضرة. كان يندوق طعامه جماعات من خبراء اكتشاف السموم، وكان أحد حصياته «بأخذ نفسا» من سجانره أولا. وكان يتم إحضار الحليب الذى ينسره فى زجاجات محكمة السدادات بعد أن بحلب من الأبقار التى عليها حراسه منسدة كان يحتفظ بآلاف المسدسات فى أماكن خفية فى أرجاء القصر ومنها عدد خبىء فى الحمام الإمبراطورى وحدث مرتين أن أطلق النار على شخصين برينين تصادف وفوفهما فروعه، ويقال إن أحدهما كانت ابنته. أما إدارنه فكانت قد أصبحت محاكاة ساخرة للإدارات لدرجة أنها ضمت مهرح مسبرك، وماسح أحديه، ورحلا بعمل فى الأراجوز وابنا لأحد طهاته، وعبدا اشتراه فى

السوق المفتوحة. وكان «عبد الحميد الملعون» قد ففد الصلة بالواقع كلية. وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استنصرى فيها الفساد حتى النخاع ولم يبق سوى دفعة واحدة كى تسقط متهالكة. وقد قام بهذه الدفعة شباب من «لجنة الاتحاد والترقى» النائرين المتحمسين الذين كانوا فى غالبيتهم ضباط جيش تم تدريبهم فى أكاديميات السلطان العسكرية. كان هدفهم محجيم الباديشاه (السلطان) إلى مجرد رمز. ووافق عبد الحميد على منح دستور على أمل الانتقام فيما بعد. فامتلات سوارع إسطنبول بالجموع التى خرجت لأول مرة يتذكرها الناس لتعبر عن بهجتها.

وكان بين هؤلاء الذين احتفوا بتقليص سلطات الـ (الباديشاه) الشريف حسين بن على أحد الأعضاء الأكبر سنا فى الأسرة الهاشمية التى تنتمى إلى الحجاز غرب الجزيرة العربية. وكان الشريف منفيًا فى إسطنبول تحت رقابة مشددة من قبل جواسيس الطاغية، ولم يكن قد غفر للسلطان أنه قد أمره باغتيال عمه الذى تم طعنه حتى الموت فى أحد شوارع جدة عام ١٨٨٠. ولم يتوقف حسين عن التدبير والتخطيط ضد الحكومة إلى أن أمره السلطان فى النهاية بالذهاب إلى إسطنبول مع جميع أفراد عائلته التى كان ضمنها أساؤه الثلاثة الصغار. ولابد أن الذعر قد تملكه لدى معادرتة سببته إذ إنه كان يعلم أن مستفدى السلطان كانوا عادة ما يجدون أنفسهم فى جوال مخيط يلقى به فى مضيق الوسفور فى اللبالي المظلمة غير القمرية. وكان السلطان قد احتجز شقيقه فى زنزانة لمدة عشرين عاما، إلا أنه ولدهشة حسين ففد سمح له أن يعيش فى هدوء شديد لمدة خمسة عشر عاما كان ينتظر خلالها فرصته بحصافة، ولم يغفل لحظة عن عزمه على الرجوع إلى بلاد العرب كأمبر لمكة. وكان قد اكتسب احترام من قابلهوه إذ إنه كان شديد التأدب رغم كونه عنيدا متسلطا وشديد التصميم. وكان فى عام ١٩٠٨ رجلا يبلغ من العمر ما يقرب من خمسة وخمسين عاما، صلبا، ضئيل الجسم، ذا لحة شعنة، وعينين واسعتين باردتين كعينى صفر. كانت يده مرهفتين وملامحه حسنة واضحة توحى بهالة بدبعة من النبل. وكان يرتدى عباءة السوداء، وعمامة أهل مكة المحكمة بوقار وساطة تلبق بمكانته الشريفة. وكان محافظا يتمى للمدرسة القديمة، بتحدث التركية بفصاحة أكثر من العربية، وعرف عه علمه الدينى ومعرفته فى الشؤون الدولية وحبه للشعر ومعرفته الموسوعة فى التاريخ الطبيعى.

الفصل الرابع، السلطان يحسن الشئ كعادته ثور تركيا الفتاة

وكان أهله الهاشميون أكثر العائلات المبحلة بين المسلمين حيث كان بإمكانهم تتبع نسبهم عر سبعة وثلاثين جبلا إلى الرسول وأنته فاطمة، وكانوا هم الرعاة النفلدبى لمكة والمدينة، تلك المواقع المقدسة فى الإسلام والتي كان لنملكها قيمة رمزية حاسمة للباب العالى. ورغم أنه، ولمدة مائتى عام، كان السلاطين العنمانيون يعسرون (حلفاء) الرسول، فقد كان عبد الحميد أول من استعمل هذا اللقب رسميا. وبظرا لأن إمبراطوريتهم كانت تنهار، فقد أرناى أن يلعب بالورقة الإسلامية فى محاولته الأخيرة البانسة لتجميع شتات الشعوب المنفرقة بين حدودها. كان السلطان يرتعد من النورات الداخلية لدرجة أن أثارت القلقة بين الأرمن عام ١٨٨٨ رد فعله المتوتر العورى. فنحركت جيوشه وأعملت بينهم القتل المظم: رجالا وساء وأطفالا قرية قرية، فى محاولة ونصميم لإبادتهم. وعلى حين كان الأرمن أقلية مسيحية، فلم يكن العرب فقط إحوه فى الإسلام، بل أيضا كانوا بكونيون نصف سكان الإمبراطورية. فنربيا أى عشرة ملايين ونصف من إجمالى ابنين وعشرين مليوناً، وكانوا أيضا بنفوقون عددا على الملايين السبعة والنصف الدين ينتمون للإنية التركية. ومن ثم، صمم السلطان على خطب ودهم. فاستدعى العواطف الإسلامية ومنح الوقفيات للمدارس الإسلامية ورقى العرب للماصب العليا. وفى عام ١٩٠١ بدأ إقامة خط سكك حديد الحجاز بزعم نسهل الحج. ولم يكن من قبل الصدف بالطبع أن يعمل خط السكة الحديد على نفوية فبضه على هذه المدن النى كانت جزءا حيوبا من الواجهة الإسلامية. وكاب الحجار تدار رسميا بواسطة عضو ذى منزلة رفيعة من الأسرة الهاشمية الذى كان بعين أمرا لمكة. وتمكن السلطان من الهيمنة على المنصب بجراح بالنلاعب بالننافسات بين أفرع الأسرة الثلاثة النى كان رجالها مؤهلين ليكوبوا أمراء. كانت اللعبة أشبه باللعبة البيرطمة ذات العجلات داخل العجلات، لدرجة كادت معها أن نسنعصى على فهم أى أحد خارجها. وقامت لجنة «الاتحاد والترقى» لدى اسبلائها على السلطة بتنحية الأمير الحاكم لفساده، وولت مكانه، بعد بعض المداولات، الأمر حسين. وكان الأتراك الشبان قد أرادوا للحجاز شخصا يحى لساده ويحافظ على الأمر الواقع. وقد أقنعت حكمة حسين العملية، واستحوذه على الاحترام على مدى عقد ونصف، الحكومة أنه الشخص المطلوب.

ولابد وأن الشريف حسين لم تفتته المفارقة من أنه، وهو الذى كان قد تم نفيه لمدة خمسة عشر عاما كشخص خطر مخرّب يتم اختباره الآن على أساس أنه إسان محافظ .

رست السفينة «طنطا» فى ٣ ديسمبر من عام ١٩٠٨ فى ميناء جدة وعلى منها حسين وجميع أفراد عائلته . كان هناك من بختلسون النظر من مساكن المناء البيضاء بباص الكريستال ونوافذها الشبكية وشرفها الختينة ذات الطراز الباروكى عبر البوابة البحرية شبه المهذمة ، حيث تجمع عدد من الشخصيات الرسمية والعرب المحليين لاستقباله . ووقف الشريف على سطح السفينة «طنطا» حث أكوام الخزانات البحرية والصناديق والسجاجيد الملقوفة ، أو تراكمات خمسة عشر عاما فى المنفى ، يراقب أشعة الشمس تومض على قلاع عشرات المراكب الشراعية (الدهو) وهى تشق طريقها فى اتجاه السفينة . كانت المراكب مزدحمة بأفراد تنردد هتافاتهم من أقصى السفينة إلى أقصاها : شيوخ قبائل البدو ، والنجار ، وأصحاب المراتب الرفيعة والثانوية ، والفضاء ، وأقرباء العائلة الهاشمية من بعيد كلهم أتوا كى ينأهوا الأمير الحديد ويقدموا فروض الولاء إن أمكن . لم يكن للحسين إلا أن بوارى ابتسامة ساحره ، فقد كان سلفه فى الواقع لعبة فى يد الوالى العثمانى الذى كان يسيطر على المدن والجيش والمحاكم ، وكان مسئولاً عن الميزانية والضرائب والأمن والدفاع . وعلى المستوى النظرى . اقتصرت مسئولية الأمير على قبائل البدو الجامحة التى لم تكن لتخضع لأحد . أما على مستوى الممارسة ، فكان الأمر مختلفاً إذ كان معظم الحجازيين المحليين الذين كان خمسة أسداسهم بدوا رحلاً أو شبه رحل ينظرون للإدارة التركية على أنها سلطة غريبة . كان حسين قد تعلم أساليب منازلة القبائل منذ أن كان طفلاً إذ إنه كان قد شأ فى بلاط عمه الأمير ، ومن ثم ، كان على اتصال بومى ، برؤساء البدو وقمرس حيدا فى التعامل مع القبائل والفصائل ، وعلى إدارة دفعة الأمور وسط متاهات الاتهامات والقدح والتدبذبات والمناقشات التى كانت تسغل يوم الأمير . كان الأتراك يسيطرون على المدن إلا أن المدن كانت تفصلها صحراوات يتحكم فيها البدو . وكان حط سكك حديد الحجاز هو فقط الذى يصل المواقع العسكرية العثمانية بالعالم الخارجى . وكنبرا ما فكر حسين وهو شاب فى العصيان وكان أيضا ضالعا فى مؤامرة عمه

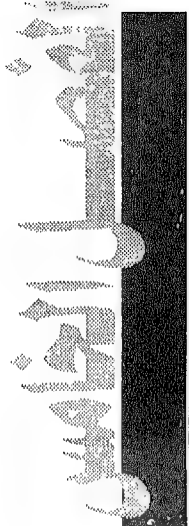
الفصل الرابع: السلطان يحنس الشاى كعادته ثور تركيا الفتاة

للقيام بثورة فى عسير الإقليم الذى يتاخم الحجاز جنوبا، وهو ما أدى مباشرة إلى اغتيال الأمير. كان حسين ماكرا بدرجة كافية ليعلم مزايا خطب ود بريطانيا، فقد كانت الحجاز تعتمد على الهند البريطانية لاستيراد الحبوب، كما كان الأسطول الملكى يسيطر على البحر الأحمر. كان معجبا بالبريطانيين لانسقامه تعاملاتهم وصلتهم وكان هذا يسبب مع لسان السلطان المشعب النعبانى. وكان ميله للبريطانيين معروفا لدى الباب العالى. ولدى قيام حسين بزيارة السفارة البريطانية فى إسطنبول بعد اعتيال عمه بوقت غير طويل، حذر السلطان بعنف ونبهه إلى أنه يجب أن بصطاد «فى مباه صحية أكثر». وفى نفس الوقت، كان أحد جواسيس الحكومة قد كتب نفيرا وصفه فيه بأنه «عبيد متمرد... ذو مقدرة خطيرة على التفكير المستقل». وكانت هذه هى المقدرة التى عزم على أن يمارسها الآن كى يعيد إلى مكانة الأمير مجددا السرعى. وحينما خطى على تراب بلده فى ذلك اليوم من ديسمبر عام ١٩٠٨، كانت أحلام الأمير تتجاوز حدود الحجاز بمسافة كبيرة.

حينما توفى الرسول عام ٦٣٢م لم يترك ورنه من الذكور، كما أنه لم يعين خليفه ينولى من بعده. ولبرهة، تارجحت كفتا الميزان بالنسبة لمستقبل الإسلام. فقد أوضح محمد ﷺ أثناء حياته أنه «خام الأنبياء»، وآخر سلالة رسل الله إلى الخلق التى بدأت بآدم أبى البشر وتضمنت يسوع المسيح. ولذا، فالنسبة لبعض أتباعه، كانت محرد فكرة «خليفة» له، أمرا مشكوكا فيه. وفى النهاية، أعلن المسلمون تفضيلهم لأبى بكر صحابة النبى سنا، وهو أبو بكر، وابتدأ بذلك حكم ما سمي بالخلفاء الراشدين، وكانوا جميعا من أوائل من اعتنق الإسلام. ولم يكن بينهم من يرتبط بصلة قرابة مباشرة بالرسول. وقد اعتاد الغربيون النظر إلى الخليفة على أنه «بابا» مسلم، واستمر سوء الفهم هذا حتى القرن العشرين. وفى الواقع، لم يكن الخليفة مسئولا عن التعاليم الدينية التى كان يقرر شأنها «العلماء» الذين كانوا يكونون إجماعا من أهل المعرفة وكبار السن. أما دور الخليفة فكان سدا دفاعيا أى دورا يوازى دور الإمبراطور الرومانى المقدس بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، فى العصور الوسطى، ثم عادت الخلافة عام ٦٦١ إلى سلالة الرسول، وانتقل مركز السلطة من الحجاز إلى دمشق فى سوريا فى ظل الأمويين، ثم اسفلت العاصمة مرة أخرى بعد فرون إلى بغداد فى ظل العباسيين، وبعسر

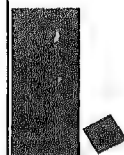
هارون الرشيد أكثر سلالتهم شهرة. وكان العباسيون متأثرين إلى حد كبير بالفرس، وكانوا منذ وقت طويل قد نبذوا جنود البدو مفضلين عليهم المماليك، وهم طبقة من العبيد العسكريين الذين جُلبوا بشكل أساسي من القوقاز. وبفعلهم هذا، يذر العباسيون بذور سقوط دولتهم، فقد كان من الحتمي أن يصبح العبيد أسيادا، وأن يتقلص دور الخليفة ويصبح مجرد لعبة وظيفته إضفاء الشرعية على نظام المماليك. وحسما كسر السلطان سليم الرهيب شوكة جيش المماليك في سوريا عام ١٥١٦، وجد بين المسجونين شخصا لا يوحى مظهره بأية أهمية يدعى المنوكل واتضح أنه آخر الخلفاء من سلالة بني العباس عم الرسول. ورغم أن سليم الرهيب لم يتخذ لنفسه أبدا لقب «خليفة» فقد اتخذ اللقب ابنه سليمان العظيم (القاسوي) الذي امتدت إمبراطوريته من بغداد إلى بودابست واستمرت الخلافة في أيدي الأتراك منذ ذلك الوقت.

وحتى لو أن الخلافة داعبت أفكار حسين، فقد كان يسودها أمر إعلاء شأن عائلته، خاصة أبناءه الأربعة على وعبد الله وفيصل وزيد، الصبي الذي ولد في إسطنبول من زوجة الشريف الثانية الشركسية الجميلة عادلة هانم. وكان الأبناء الآخرون في العشرينيات من عمرهم، وولدوا في الحجاز، لكنهم نشأوا في تركيا نشأة نبلاء الإمبراطورية وتلقوا تعليما جيدا. فكانوا يتحدثون التركية بطلاقة أكثر من العربية وعرفوا الإنجليزية والفرنسية. كانوا شبانا رفيعي الثقافة، (كوزموبوليتانيين) إلى حد كبير، يتحدثون عدة لغات مندنيين اكتسبوا مظهرًا تركيا. ورغم أنهم كانوا على علم وثيق بحيل البلاط، فلم يعرفوا سوى القليل عن الصحراء مما تنامي إلى سمعهم، أو عن البدو والخيام السوداء وغارات الجمال. ورعم الطموحات التي كانت تحرك الشريف، فمن غير المحتمل أن يكون أولاده الشباب قد تخيلوا وهم يهبطون إلى الشاطئ في شهر ديسمبر ذاك أن الأمر سينتهي بانئذ منهم أن يصبحوا ملكين، أو أن أداه رفعنيهما سيكون خريج أكسفورد الشاب الذي كان له أن يخطو على تراب بلاد العرب، والذي كان وقف منذ أسابيع على تل في لين بو وقد تملكته النشوة لدى رؤيته الأولى للصحراء المتوسطة.



شاب شبه مرموق

اگسford وسوريا ١٩٠٨-١٩٠٩





عاد لورانس من رحلته في فرنسا

وقد امتلأ رأسه بالشرق ، وريتشارد

قلب الأسد ، والحروب الصليبية .

وقد قام حتى بتصوير

نقش عربي على قلعة منترويل

بليان - التي يفترض أن ريتشارد قد

سناها - واعتقد أن

هذا النقش لم تسبق ترجمته أبدا .

كان قد قاد دراجنه مسافه ٢٤٠٠ ميل، وعاش على الدن والفاكهه، وعاد إلى وطنه وقد لوحته الشمس، وزادت بحافته، منتشيا بفكرة أطروحته عن المعيار العسكري: فائلا «لقد وجدناها»، هكذا كتب إلى سكروجر بيسون «لقد وجدت الأطروحة أخيرا الانتقال من شكل المربع الساجي... حقا، إنها لأعظم من أن تعبر عنها الكلمات».

كانت له أيضا رؤية عن العصور الوسطى الحقيقية معايره للصورة الموريسية الرومانسية لتلك العصور. فقد سحقه الإحساس بالفضاء والضوء في كاتدرائية شارتر - تماما كما كان قد حدث لوليام موريس منذ خمسين عاما. وفي هذا الصدد كتب فائلا: «لقد كان شعور لم أخبره من قبل أندا... كان كما لو أنى قد وجدت سبيلا... يمتد حتى بوابات السماء، ولتحت ما بالداخل حيث كان الباب مواربا». ومن هذه الكلمات، تشع النشوة الحقيقية التي احتاحتها، بعد أن نخلي عن الأسلوب الراسكبنى المتأنق الذي اسنعمله في خطابهات كي يحدث أنرا في فترة ما

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

قبل الحرب . كما أنه قد تحقق لأول مرة أن الإيمان المطلق ، لا الحرية كما اعتقد راسكين ، هو الذى مكن حرفى العصور الوسطى من خلق تحفة مثل كاتدرائية شارتر . فقد كان عالم البائين فى العصور الوسطى ضيفا جدا ، إلا أنهم امتلكوا البقين . صلة ما بالرب . . معرفة ما بمكانهم فى الكون . ولم تكن الحرية هى ما ففده الزمن الصناعى حيث كان التقىيون فى النهاية قوة محررة ، بل إنه كان البمن . فبينما أتى عصر النهضة ، الذى كان يحتقره لورانس ، بالتنوير العقلانى ، فإنه أتى أيضا بالشك الذى سيسميه فيما بعد «ناجنا الحديث من الأسواك» . واختتم لورانس فانلا . «إن كاتدرائية شارتر بالتأكيد هى مشهد العمر . . مكان بسطع المرء فيه عبادة الرب بحق . كانت العصور الوسطى أكثر صدفا فى هذا صا ، رغم صق أفهم وجمودهم وجهلهم بالحقيقة كما يقول الآن ونحن فى حالة رضى عن النفس . . إلا أن الحفيفة عبر ذات أهمية إن كان الناس يعنفدون فسيما يقولون . أو كانوا على استعداد أن يوضحوا أنهم يعنفدون فى شىء ما» . كانت هدد احدي

مفارقات حياة لورانس، أى أنه وهو رجل شديد العقلانية، كان يستطيع أن يرى أن الإيمان هو كل شيء، إلا أنه كان عقليا بدرجة لم يكن يوسعها معها الإيمان بشيء. وكان العسر الكامل عن هذه المفارقة هو حكمه على نفسه بأنه «عاقِل إلى درجة الجون». وفيما بعد، كان يحسد العرب الذين جعلوه يشعر بالتواضع بإيمانهم البسيط. فقد رأهم أساسا مازالوا يعيشون في البقن الروحاني للعصور الوسطى. «أناس مازالت ألوانهم أولية» كما كان يقول أو «أن هذه الألوان كانت فقط الأبيض والأسود وكانوا يرون الخط كفاف العالم فقط». وكان لورانس قد بدأ يفقد إيمانه بالمسيحية بحلول ١٩٠٨، وطبقا لإحدى الروايات، كان قد فقد وظيفته في مدارس الأحد لأنه قرأ على الصبية إحدى قصص أوسكار وايلد الموصوم. كانت أمه سارا هي من دمرت إيمانه، كما دمرت كل شيء آخر في حياته تقريبا. وقد كتب إلى تشارلوت شو قائلا: «إنها تستجدي حبا لها وتحيلنا إلى المسيح الذى تقول إن فيه السعادة والحق. ولا يعنى هذا أنها نجد السعادة.. فهى تسبب لى ولأخى ولأرنى التعاسة العميقة. إننا بلا حيلة وبشعر أسا لا نتسبب أبدا في إبلام إنسان كما تسبب هى في إيلاطنا بطلبها المسنحيلة.. فلا يمكن أن (يفرح) حبا لها.. كما لو كان صبور ماء. كما أن المسيح لبس رمزا بل شخصية أفسدها لاحم مؤمنين مثلها بها». وكانت أبه ذرة من الإيمان قد تكون قد ملكها يوما ما احنفت وهو في العشرين عندما كتب يقول: «لبس لدى أى يقين أو عدم يقين باستثناء يقينى بأنه لا يوجد يقين». وقد اعترف لاحقا أنه بالرغم من أنه «أحاط حبا به بأسبجة احنرا بذه بشكل ما أو آخر فبالإمكان القول إنه ليس بمقدرة الإنسان أن يعرف شيئا حقا». وهذا يتناقض مع لورانس الذى قال لروبرت جريفز: «إننى أسقط في العدمية حيث لا تستطيع أن تجد حتى ربا زائفا في الكون يمكن الإيمان به». واستبدل لورانس بالبقين الإيمانى الحدى أو القدرة العقلانية على حساب كبنية حدوث الأشياء وإلى أين تتجه. وقد منحته هذه الخاصية مطهرا من البصيرة الذى ستصفه كلب سبدي سميت بعد إضفاء الرومانسية عليه «بالقدرة على النبؤ». ولم يملك لورانس بالتأكيد مقدرة سحرية على التنبؤ بالخط كما نخلت سميت. فرغم أن حدسه كان أحبانا دقيقا بدرجة مذهلة، فقد كان أحبانا أخرى خاطئا بشكل شبع. وكان لورانس خبيرا في انتقاء سبل ممكنة والإنحار فيها، وكانت له، وفقا لتعبير لويدي

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

حورح « عبقرية التفكير المتقدم التي يسبق بها تسعة أفراد من عشرة ». فقد كان الحدس الصحيح . هو ما أخبره قبل رحلته إلى فرنسا بوقت طويل أن قلاع الصليبيين في سوريا سوف تكون التتويج الخنوم لرسالته المفترحة . بيد أن تشارلز بل من المنحف الأسمولى كان هو الذى أرشده فى اتجاه موضوع الأقواس والأسقف ذات الرؤوس الحادة والمدببة . وكان محال الجدل الدائم هو إذا ما كان الصليبيون قد سوا هذا الشكل من مصادره الشرقية، أم أنهم كانوا هم الذين استحدثوه فى الشرق . وقد أهداه معرفته بملاع العصور الوسطى فى بريطانيا وفرنسا تأهيلا تاما لمثل هذه الدراسة . واقترح عليه تشارلز بل وجوب زيارته لسوريا لبحسب هذه النقطة، حسما نهائيا .

وعاد لورانس إلى حجرته فى شارع بولسبيد محسرا على فقدان سكنه فى الجامعة، تواقا إلى الإحساس بالانفصال عن الأسرة . كان يحتاج إلى بعض الهدوء من أجل دراسته، ومن ثم أقنع والديه أن يبنيا له كوحا صغيرا فى طرف الحديقة مزودا بعرفة مكتب للدراسة وتصله المياه وموقد تدفئة وتليفون . ولكى يعزلها عرلا مزدوجا عن العالم الخارجى قام لورانس بتغطية جدرانها بطبقة مزدوجة من رفاق الولسون . وكان فيثيان ريتشاردز كثيرا ما يجده هناك راقدًا على السجادة بجوار المدفأة وسط طقطقة النيران ، يقرأ من كومة كتب أو منكبا على رسم قدمه بعانة . ودات مره فاجأه صديقه ريتشاردز وهو يخطو ذهابا وإيابا على لوحة خشبية ذاب مظهر عريب دقت فيها مسامير . وشرح لورانس له الأمر قائلا إنه كان ينمرس على تخطى المسافات خفية، الأمر الذى سيكون ضروريا لرحلته القادمة . إن رغب أن ينحاشى القبض عليه كحاسوس . كما أن نمرة مؤشرات أخرى على أنه كان بعد نفسه لرحلته إلى الشرق أثناء شتاء ١٩٠٨ . فقد بدأ فى أكتوبر قراءة كتاب تشارلز دواتى « الصحراء العربية Arabia Deserta » ، ذلك الكتاب الكلاسيكى عن بلاد العرب والبدو الذى كنبه أبرز رحالة الصحراء فى تلك الفترة ، والذى سيتمتدحه لورانس فيما بعد « كإنجيل بين نوعه » . وقد كان الكتاب ذا جاذبة وأثر محبب عظيم فى نفس لورانس نظرا لخليطه من النشر النسبوسرى والنسبى الإلزامتسة، خاصة وأنه قد علم أن دواتى قد عمد إلى محاولة تنفسه اللغة الإنجليزبه، كما فعل موريس . إذ إنه ، بالنسبة للورانس ، لم يكن للمعامرات المشبره

والتجارب الدرامية أبة جدوى إن لم تقدم بأسلوب أدبي مثالي، ومن ثم، فلم يعجب بريتشارد ببرتون الذى قد يعتبر أكثر مستشرقى القرن التاسع عشر ورحالته أهمية وإثارة. وأصدر حكمه عليه، وهو الشخص شديد التوتر سريع الغضب ذو الموهبة الهائلة، بأنه «جلف»، ومن ثم نبد كتبه على أساس أنها «صبغت بأسلوب بلى إنجليزى صعب لدرجة يتعذر معها فراءتها». أما «صحراء العرب» فقد ظل، مثل روايات موريس، محببا إلى نفسه بقبلة حياته.

وفى شتاء عام ١٩٠٨ التحق لورانس كمجند مبتدئ بالفيلق المنشأ حديثا كأكسفورد لتدريب الضباط. وقد تسبب هذا الفعل فى دهشة زملائه. فقد كان اللائحة المعلن الذى رفض الاشتراك فى الألعاب المنظمة لكونها «منظمة ولها قواعد» يرتدى الآن البزة العسكرية طوعا ويتلقى الأوامر بتواضع وينحنى للنظام العسكرى. وقد تكون الحقيقة أن فيلق التدريب قد استهوى فانتزبته المازوكية عن الحياة العسكرية - الأمر الذى قد لا يكون بدرجة الإرضاء الذى وجدته كجندى منواضع فى سلاح المدفعية الملكية - إلا أن البزة العسكرية كانت هناك فى الحالين. وكانت فرقته كلبة يسوع وحدة إشارة من راكبي الدراجات، الأمر الذى منحه فرصة ركوب الدراجة، بالإضافة إلى أنه اعتبر بعض التدريبات ذات قيمة خاصة. وقد كتب فيما بعد أنه قد تعلم هناك إطلاق مدفع فايزر الأمر الذى أفاده إبان ثورة العرب، بالرغم من أنه أخبر ليدل هارت أن خبرته فى الفيلق كانت غير ذات قيمة من ناحية تعلمه الاستراتيجية. بيد أنه لم يواظب على ممارسة إطلاق النار من المسدسات. ثم وجد فى ديسمبر فرصة لممارسة الاهتمام بالبوصله حينما سار هو وسكروجرز بيسون فى أحد الاتجاهات من قمة كومنر هيرست أثناء عاصفة نلحية ووجدا نفسيهما يخرسان فى القنوات المتجمدة ويواجهان زخات الثلج حتى كادا يسفطان فى نهر أبزيس عند كوبرى فولى.

كان هذا فى الواقع هو اليوم الأخير الذى قضاه لورانس وبيسون معا، فقد كانا قد تعديا مرحلة هذه الصداقة. وكان بيسون قد هجر علم الحفريات إلى علم الحيوان أى إلى اهتمامه الأول ناركا لورانس ليفهم وحده بالحفريات. وفى أواخر عام ١٩٠٨ ارتبط لورانس بدرجة أعمق بنشاط المنحف الأشمولى. فذات يوم،

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

وبينما كان يشاهد مجموعة العصور الوسطى، التقى مصادفة بإدوارد ليدز، وكان شابا خجولا يكبره ثمانى سوات، وكان إلى وقت قريب يؤدى الخدمة العسكرية الكولنيالية فى الملايو. وكان ليدز قد حل محل ليارد وولى كمساعد أدنى لأمين المتحف، ووجد لورانس وليدز أشياء كثيرة مشتركة بينهما لم يكن الخجل أقلها. وفى بنابر التالى قدم ليدز لورانس إلى أمين المتحف الجديد دافيد هوجارث الذى كان له أن يمارس أثرا كبيرا على حياته. كان هوجارث حينذاك فى الخامسة والأربعين من العمر، مستشرقاً وأثارباً من المدرسة الكلاسيكية، وكان قد سافر إلى سوريا وتركيا وفلسطين وحده سيرا على الأقدام وبصحته مسدس، إذ إنه كان لا يطبق صبرا على سفاسف الأمور التى تبدو من الأهالى هناك. ثم كتب كتابا مرموقا عنوانه «باحث منجول فى بلاد الشام». وكان أثارباً ذا منزلة، وعمل مرة مدرسا للمدرسة الآثار البريطانية فى أثينا، وقام بعمل حفريات فى قبرص ومصر تحت إرشاد فلندر بنرى الشهير. كان يتحدث الفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية والتركية واشترك فى لجنة الجمعية الجغرافية الملكية، كما أنه عمل مراسلا صحفيا للـ «تايمز» فى جزيرة كريت أثناء ثورة ١٨٩٧. وكان هوجارث «جنتلمان» إمبرالبا إدوارديا نمطيا. وكان شوفينيا، ومحافظا، وأتوقراطيا، معاديا للديموقراطية بشكل شبه فطرى، وكان أرسنقراطيا على المستوى الفكرى. كما كان أبوى الأسلوب ذا مزاج هادئ. ونظرا لما تلقاه من تعليم رفيع المستوى فى كلية ونشستر ومودلين فقد عاش هاويا للفن مدى الحياة. لخص لورانس صفاته فيما بعد فى كلمة واحدة بقوله إنه «متمدين». أما الآخرون الذين لم يعجبهم خليطه من المطهر المنفر والمعارف الواسعة فقد رأوا فيه «قردا ذا تعليم عال». ورغم قدراته، فلم يحز هوجارث أبدا على مركز عظيم فى أى مجال. فقد كانت مواهبه غير مركزة، وكان مثل لورانس ضجرا، لا يهدأ بدرجة لا يمكن معها وضعه فى إطار تعريف معين. كان يتأرجح بين الأكاديمية والمعامرة، حتى يمكن القول إن أكثر إرثه قيمة هو تعرفه على موهبة فذة فى شخص تى. إى. لورانس. أما بالنسبة للورانس، فقد كان لهو هوجارث أن يصبح رمزا أبويا وأبا بديلا. كان دائما «مثلا احتياطيا، دائما أبجده ورائى إذا ما اعترانى الارتباك أو الحيرة». وخلافا لثوماس لورانس الذى كان قد قطع صلته دون داع بكل شخص ذى تأثير، ولم يكن بمقدوره أن بلجأ إلى

«المدرسة القديمة» طلبا للمساعدة كان هو جارت يعرف الجميع نفرا . ولما لم يكن المجتمع الإلادوى مجتمعاً بقدر الجدارة ، فقد كان لورانس يعرف أنه ، رغم مواهبه ، بحاجة إلى راع ما ليصبح بإمكانه التقدم وقد اعترف فيما بعد أنه مدس لهو حارث بكل وطيفه حدة حصل عليها . ولخص لورانس رأيه فيه قائلا إنه «رجل مدهش . إنسان في المقام الأول ، ثم إنسان حبر ، ثم شخص حي . إنه الأب الذي أستطيع أن أنق فيه دون تحفظات إذ إنه سيفهم ما شغلني» وقد عرف لورانس منذ البداية ما يمكن أن يقدمه له شخص مثل هو جارت فسعى إلى كسب مودته .

لم يكن هو جارت يهتم كثيرا بفلاخ لورانس الصليبية . كان لا يهتم ، وبنعاضى عن أى شىء أركبولو حتى غير متعلق بالآثار الكلاسيكية والشرف الأدبي القديم . أما ما كان يحرك مساعر هو جارت ، فكان هم الحنين ، هذه الجماعة الإنجيلية الغامضة التي لم يكد يُعرف عنها شىء قبل عام ١٨٧٠ . كانت قصة الحنين غريبة . ففي عام ١٨١٢ اكتشف الملقب الرحالة السويبرى جوهان لانفنج سر كارت حجرا مينا فى جدار فى سوق مدينة حماة السورية والذي كان مفوشا عليه كتابات بدت هروغليفية . ولم يستطع فحصه تفصيلا نظرا لعداء السكان المحليين ، إلا أنه شعر منذ اللحظة الأولى أن الكتاب الهروغليفية كانت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة . ولم يكن لبحر حماة أن يدرس بدقة حتى عام ١٨٧٢ ، وحيداً ، تمت مقارنة النفوش التي على الحجر بأخرى على حجر مماثل فى حلب ، وبعدد آخر من النفوش المتناثرة فى أنحاء آسيا الصغرى . وبحلول عام ١٨٧٦ تم اكتشاف كتابة حضارة الحبشيين المفقودة . وكان هو جارت قد قام بالعديد من الرحلات بحثا وراء تلك الحضارة ثم عاد إلى أكسفورد ومعه مجموعة من أحنام الحبشيين الأسطوانية التي كانت فريدة من نوعها على مستوى العالم . فقد كانت هذه الأختام التي فى حجم عقلة الإصبع أو أطول قليلا فى حالات نادرة قد بنيت عليها صور معقدة التصميم ، وأحيانا كانت تلك الصور سبريالية . نباتات منمنمة . حيوانات شائكة . . بشر فى هيئة حشرات . ورغم أنه كان يشار إليها على أنها أختام ، إلا أنها كانت تستعمل أدوات للطاعة . وكانت حين عسيها فى أصاغ ملونة يمكن دحرجها بحيث تسجل تسجلات على جلد الإنسان أو أقمشة الرنة ، أو على الأنساء كعلامات على ملكيتها . بيد أن أحنام الحبشيين الأسطوانية لم يكن

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

لها مكان في فانتازيا لورانس عن العصور الوسطى، إلا أنه أبدى اهتماما بها ووجه إليه أسئلة عن المكان المحتمل لوجود آثار تلك الحضارة، تملقا منه لهو جارت. كما بين له اعتزازه بالصيام برحلة حول الفلاع الصليبية في سوريا في الصيف التالي وأنه بالأكيد سيتمكن من توفير بعض الوقت للبحث عن الحيتين. وحاول هو جارت، الذي لم نهنز مشاعره، إنشاءه عن الرحلة فائلا إن الجو سيكون قائظاً في الصيف لا يسمح بالقيام برحلة سبرا على الأقدام هناك. وإزاء إصرار لورانس، بصحه هو جارت بالانصال بداوتى خبير الرحلات في البلاد العربية. ومن ثم كتب لورانس إلى داوى الذى لم يكن موقفه أكثر تشجيعا من هو جارت إذ أوضح أنه لم يذهب في المقام الأول، أبعد من دمشق وأضاف «إن الحرارة شديدة طوال الليل والنهار في شهرى يوليو وأغسطس... إنها أرض قاذورات لن يجد فيها الأورى سوى المنعة الشربرة والرجل العاقل الذى يعرف البلد لن يفكر في القيام برحلات طويلة سبرا على الأقدام». وأصاف داوتى إنه في حالة إصرار لورانس على زيارة الشرق فعلبه، تعلم العربية.

أنارت توقعات داوى الفاتمة المخاوف في نفس لورانس. إلا أنه كان كلما زاد إصرار الأكسر منه علما على حماقة الرحلة، ازداد هو إصرارا عليها. وكانت رحلته بالدراجة في فرنسا عام ١٩٠٨ إعدادا له: فسيوفر الشرق الخلفية للمغامرات التى يتوق إليها الفارس المتحول. ومن ثم، بدأ في تعلم العربية على يد رجل دين سورى برونسانى هو المبجل بصار عودة، ومنه تعلم أساسيات القواعد وحوالى مائة كلمة اعقد أنها كافية لإرشادات الطريق والطعام والمسكن والمعاملات المالية. وأمده والداه بأربعين جنبها لشراء كاميرا وحامل، ومن أجل دعم الصور التى سلتقطها، تلمى دروسا في الرسم من إى. هـ. نيو، وهو رسام معمارى، وكان من دواعى سرور لورانس أن نيو كان قد رسم حديثا رسوماً توضيحية لكتاب عن سيرة ولبام موريس. وقبل رحيله، قابل لورانس هو جارت مرة أخرى وأوكل إليه معلمه مهمة إحصار أحتام أخرى للمتحف الأشمولى من منطقة جنوب تركيا التى كانت في برنامج رحلته والتى سبق لهو جارت زيارتها ووجد بها العديد من أختام الحيشين الأسطوابية، وخصوصا أن الأختام صغيرة ومن البسير نقلها. وبهذا حقق لورانس مسعاه. ولإعداد نفسه للظروف قام باستظهار مقتطفات طويلة من كتاب

«الصحراء العربية»، كما قرأ كتاب «إرشادات عمليه للمسافرين في الشرق الأدنى» للكاتب إى. إيه. رينولدز - بول. وعملا بصبحه بول، ابتاع لنفسه مسدسا أو توماتينيكاً لحمايته من قطاع الطرق وقام بتفصيل بذلة من قماش خفيف بها عدة جيوب لحمل أشيائه. كما أنه النقى، عن طريق هوجارث، بهارى بيرى جوردون الذى كان قد تحول فى أنحاء سوريا فى الموسم السابق، والذى انتاع منه خريطة ذات حواشى. وفى ذات الوقت، كان قد تقدم بطلب للحصول على خطاب «الرضا»، أو الخطاب الرسمى للسفر الآمن من الحكومة العثمانية، عن طريق السير جون رايس، مدير كلية يسوع بواسطة اللورد كيرزن رئيس جامعة أكسفورد. وفى ١٨ يوبه عام ١٩٠٩ صعد إلى السفينة «معلولا» المتجهة إلى بورسعيد ومنها إلى بيروت، وفى أحد حبيوه خريطة بيرى جوردون، وفى جيب آخر مسدسه البندقية.

كانت بيروت حبيداك من أكثر مدن الشرق الأوسط حيوية: وقد وصفها لورانس نفسه بأنها «بوابة سوريا» و (بارافانا) ساميا ملونا تتسلل منه.. التأسرات الأجنبية». وبعد ذلك بنسعين عاما، حبيما وصلت أنا هناك اقتفاء لأثره. كانت بيروت هيكلا للمكان، وكانت منطفة وسط المدينة الشهيرة قد أصبحت كسارة أحجار - متاهة أصابتها الفذائف بدون مداخل أو أسقف. ورغم أن الحرب بين المسيحيين والمسلمين كانت قد توقفت، منذ وقت طويل، وانسحبت القوات الإسرائيلية، فقد كان (الإسرائيليون) مازالوا يحاربون الفلسطينيين فى الجيوب اللبنانية، الأمر الذى جعل من المسنجل بالنسبة لى أن أقننى أثر رحله لورانس عام ١٩٠٨. وبدلا من ذلك، كان على أن أسلك طريقا غير مباشر، مستقلا حافلة من القاهرة إلى القدس، وعبر وادى الأردن إلى طبرية على بحر الجليل حيث وجدت غرفه فى نزل كنيسة اسكتلندية. وكانت غرفتى التى تشبه الزرانة، تطل على حديقة شاطئية ملبنة بأشجار صورية وأشجار السرو والبلوط القديمة. كانت هناك سحب منو هجة فوق البحيرة ومصدر إصاءة دوار مناسطى بلقى بأشعة على المياه المائجة. وكانت الوارس والطور البحرية الأخرى تعلو وتهبط فوق الأمواج كأنها قوارب من الورق. وكان لورانس قد وجد البحيرة «تديده الزرقة، فيها الحركة دائمة، لا نهداً تماماً أبدا». إلا أنها «جملة» ولست «مهيبة». أما طبرية

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

نفسها ففد وصفها بأنها «مدسة قذرة شديدة الحرارة». لا تعوزها المناظر التصويرية، وأحب ميناءها الصغير وقوارب الصبد فيها، كما اعتقد أن أسوارها المهدامة «جذابة». وعند زيارتي، كانت الأسوار مازالت هناك، إلا أن عددا من الفنادق الحديثة متعددة الطوابق التي ارتفعت غطت عليها وقد أفسدت الأثر الذي نحدثه.

وفي اليوم الثاني لزيارتي استأجرت دراجة جبال كي أتمكن من الذهاب إلى صدف، وهي أكثر مدن الجليل اتفعا، وكان لورانس قد قضى فيها أياما قلائل. كانت الأمطار قد تساقطت أثناء الليل. وكان الطريق على طول البحيرة الذي يخترق الجدل مستلا ومن تم استتارت العجلات الأوحال التي تناثرت على جاكنتي المصنوعة من المشمع. وبصعوبة، نسلقت أعلى قبر يعوم حول سلاسل المنعطفات الحادة التي لا تنتهي، وخلال مروح خضراء تكثر فيها الصخور الرمادية والأبقار السمينة التي كانت ترعى وطائر البلاشون الأبيض الأنيق. وعند روش ببناع Rosh Panna كان الهواء سمبكا نتيجة الضباب، والطريق قد أظلمته صفوف أشجار الصنوبر. توقفت لاحتماء القهوة في مكتبة ملحق بها مفهى، حيث جلس رجل شديد البدانة (صاحب المكان) على مائدة يقرأ صفحة الرياضة في صحيفة عبرية. بدا الرجل مهتما باقتفائي أثر لورانس وأخبرني «كان لورانس صديقا لليهود. وآمن بإسرائيل وطنا قوميا لنا. ولهذا، لن ننساه أبدا». كان هذا حقيقيا في جوهره، فمثله مثل بريطانيين عديدين في زمانه كانت فكرة إعادة اليهود إلى أرض آباءهم بعد ٢٠٠٠ سنة شديدة الإثارة. ونظر البريطانيون إلى أنفسهم على أنهم رعاة سريون للزمن، فادرون على توظيف ثرواتهم الضخمة لإعادة تشكيل التاريخ. وكان لورانس قد أصابه الإحباط خلال رحلته إلى الجليل عام ١٩٠٩ لأنه وجد البلدة مهجورة بالمقارنة بالصورة التي كان قد كونها في ذهنه من دراساته الإنجيلية. وكان قد تصور لها ذات «شوارع ممهدة، ومنازل ذات أعمدة، وحمامات على طراز الروكوكو»، إلا أنه بدلا من ذلك وجد مكانا «به خيام بدو مهترئة، وأناس بنادون على الأفراد كي يأتوا ويتحدثوا معهم، وكلاب هجين تعض قدمي المرء». ولا تخد في هذه التعليقات أنرا الشخصية لورانس اللاحقة كمحب للعرب. وكان يعتقد أن فلسطين بلدا لطيفا في عهد الرومان، وأنه «بالإمكان جعلها كذلك

مرة أخرى» وكتب قائلاً: «كلما أسرع اليهود بزراعة المكان كان هذا أفضل. إن مستعمراتهم تمل نقاط مضيئة في الصحراء».

سرت بالدراجة من روش ببناع صعودا وسط ضباب بارد برودة الثلج، وكان الضباب قد استقر على الجبال كالبطانية، وأصبح الصعق على دواصة الدراجة أمرا مؤلما. وكانت الأضواء الأمامية للسيارات تلوح في الأفق مخنقة الضباب على فترات منتظمة كأعين شبطاسة. كانت نفحات الريح تدفع الشاورة إلى الأمام بين الحين والحين. كانت أيضا نمة ومضات عابرة من البلدة أسفل التلال، بدت سحرية، بلدة من التلال والحقول تصنعها الشمس. لم أتخيل أبدا أن الطريق إلى صفد يصعد هكذا مسافة ٢,٧٠٠ قدما بلا هواة حتى بدا الأمر أحيانا وكأنى أفود الدراجة صعودا إلى السماء. وكنت قد واصلت قبادتتها في اتجاه علوى على السرعة الأولى لمدة ساعات خمس تقريبا. كان ألم ساقى صارحا. وفجأة، انزاحت الغيوم ووجدت نفسى فى صفد وهى مدينة كبيرة تمتد حول حواف خمس أو ست فمم جبلية. تم هطلت الأمطار على أشجار البلوط وأنا أتبع بدراجتى نحو وسط المدينة. بدا الأمر وكأنه لس نمة أثر لأنة قلاع صليبية. تم أوفقت رجلا مسنا كى أسأل عن الطريق. هز ذلك الرجل الودود رأسه وقال «لا إنجليزية، لا عبرية، لا عربية، فقط اليديش (لغة كان بتكلمها اليهود فى وسط وشرق أوربا)». إذ كانت صفد ملجأ للناجين من الهولوكوست ولسلالانهم. ومن نم عدم وجود أى سبب لاهتمامهم بنىء مثل القلاع الصليبية إذ إن هناك بالنسبة لهم تاريخ واحد فقط. لم أعتز على القلعة أبدا. إلا أن مشهد جبل حرمون Hermon المدهل والمطر يزيح آخر حيوط الضباب كان إرضاء كافيا لى.

وصل لورانس إلى صفد فى مساء ١٦ يوليو عام ١٩٠٩، كان منهكا بعد ما أسماه «تسلعا رهيبا من الوادى إلى أعلى البلدة المتعوجة». وكان قد غادر تبينين Tibnin ذلك الصباح وتوقف عند الطهيرة لبسرب من عين فادش الشهيرة بعد ما قطع هبوطا وصعودا فى يوم واحد مسافة تعادل ارتفاع قمة مونت بلانك وكتب قائلاً «إن فلسطين كلها هكذا.. فالطريق إما صاعدة أو هابطة.. لكنها لا تصل أبدا إلى أى مكان». ولما لم تكن هناك فنادق حينذاك، فقد وجد سكنا مع عائلة

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

طبيب . إنجليزي كان يعمل في مستشفى إرسالية يهودية . كان الطبيب عطوفاً على ضيفه الشاب ، واصطحبه بعد الظلام ليبري القلعة ، بيد أن مناعب الرحلة كانت قد بدأت تؤثر عليه ، تم مرض لورانس مصاباً بأول هجمة من هجمات الملاريا التي ظلت تتبعه طوال رحلته .

وكان بعد أن بدأ رحلته وحده من بيروت في بداية شهر يوليو ، قد استمر مرتحلاً على الأقدام لمدة ترو على الأسبوعين . سار في اليوم الأول بطول ساحل صيدا محترقا بساتين التوت والزيتون . كان الطريق يعج بالحركة : فلاحون يرتدون السراويل الواسعة والطرايش ، منتصبى القامة ، يحملون بناذقهم ومسدساتهم نمسطفون بأحزمة الطلقات النارية . كان بعضهم يمتطي الخيول ، وآخرون بسوقون أعدادا كبيرة من الجمال محملة بمحاصيلهم في اتجاه الأسواق الساحلية . نظر لورانس باهتمام إلى الجمال التي وجدها في كل مكان واعتقد أن وجوها « بشعة » ، إلا أنه أحب النغمات الخشنة لأجراسها ، تلك النغمات التي كانت تتوارى بهدوء مع توارى الفواغل في ضبابية غروب الشمس . كانت صيدا التي تقع على حافة لسان بحر مدينة عصور وسطى بدرجة أرضته . . مدينة مسورة ذات طرقات ضيقة لدرجة عدم استطاعة مرور شخصين فيها جنباً إلى جنب ، ولم يكن بمقدور عربية ذات عجلات الدخول إليها . ومن صيدا ، تسلق لورانس الجبال في اتجاه نطبة سائراً أعلى تخوم عميقة ومنمتعا بنسيم البحر المتوسط المنعش . مر خلال قرى صغيرة بيوتهها من الطين وسط رقع من الحقول الخضراء ومارس لغته العربية مع القرويين . ومكث لأول مرة مع العرب في منازلهم وأسهمه تعلمه الطقوس الاجتماعية المطلوبة . فكان بحبي مضيفه قائلاً « السلام عليكم » فيُدعى إلى الداخل حيث كانت النساء تسحب لحافاً ثقيلاً ليجلس عليه . وبينما يقوم مضيفه بإعداد القهوة ويهبل عليه الأسئلة المعهودة كان الأطفال يفحصون متاعه . وبعد الشاي والقهوة تُعد وجبة العشاء من البرغل المسلوق والخبز الرقيق وتقدم له . ولم يكن يسمح بالحديث أثناء الوجبات . وبعد ذلك ، وحوالي الساعة التاسعة ، كان ينسحب مع أخفنه إما إلى السطح أو إلى الشرفة . ثم اكتشف أن الأخفة سميكة حدا لا تناسب حرارة ليالي الصيف ، ولما كانت مليئة بالبراعيث ، فكان يفترشها بدلا من استعمالها غطاء . كان يصحو عند شروق الشمس ويلحق بمضيفه عند نار المدفأة

ويرش وجهه بالماء . ثم يذهب حال سبيله بعد الإفطار الذى كان يتكون من الخبز والذبن الرابع ، أو الحليب الطازج إن كان محظوظا . أعجبه بساطة أسلوب حياة الفلاحين الذى اسندعى مشاهد طبيعية من مالورى وموريس . شعر بالارتياح فى المنازل ذات الأثاث الإسبرطى . حصير ومقاعد صغيرة دون مساند ، وأخفة للوم تطوى وتستعمل للجلوس عليها ، أو تخزن فى فحوات فى الحائط ذات درجات فى حال عدم الاستعمال . أعجب بأسلوب ازدواح المنازل حيث حصص الطابق الأول لحيوانات المزرعة والأغنام والماعز والحمير والخيول ، والطابق العلوى للآدميين . كما وافقه الاقتصاد فى الأكل بالأيدي من طبق مشنرك ، وباستعمال قطع الخبز كملاعق . وأعجب أيضا بطريقة غسل العرب أبدبهم بصب المياه فوقها بدلا من حكها فى الحوض وبدت له أكثر نظافة بكثير من الأسلوب الإنجليزى . وقد اعترف بكرم الضيافة العربى وكتب إلى أبيه قائلا . «إنها لمدينة مجيدة بالنسبة للمسافر المتجول .. إذ إن كرم الضافة أكثر من مجرد اسم . فالأشخاص العاديون مستعدون لاستضافة فرد لمدة ليلة ، كما أنهم يسمحون لى أن أتفاسم معهم وجباتهم دون أدنى فكرة عن تفاضى بقود من مسافر متحول .» ورغم أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، لأن مضيفيه كانوا أحيانا بنقاضون نقودا ، فمن الواضح أنه قد جذبتهم إليه كبرياؤهم البسيطة . كان هذا التقدير جماليا ، فقد كانت بعض أساليب حياتهم طريفة وغير مألوفة . كانوا محبين وذوى كبرياء إلا أنهم «كانت لهم صفات شديدة الطفولية ، وكانوا بالطبع شديدي البساطة وعلى قدر مذهل من الجهل .» ومكث لورانس أيضا مع مبشرين أجانب ، وامتدح عملهم فى سبيل «تمدين» و«تعليم» السكان المحليين . وفى خطاطاته إلى أهله ، أظهر حاجته المعتادة إلى دعم تقديره لذاته باستعراض تفرد الواضح . فكان يقول إن نظامه الغذائى هو نفس نظام السكان المحليين ، الأمر الذى كان يعتبره الأجانب ضربا من الجنون بينما كان ينظر العرب المحليون إلى عادة شرب الحليب الطازج والسر بدلا من الركوب على أنه جنون . كما اعنفد الأجانب أنه معسوه لأنه كان بتحول فى فبظ ما بعد الظهيرة . كما أنه أخبر والدته أنه قد أصبح «عربيا فى عادانه» إلا أنه فى نفس الجملة أخبرها أيضا وهو مزهو كيف اعتقد أحد الفرنسيين أنه فرنسى ، دون أن يعى الناقض . وتوضح القراءة المتحصنة لخطابات لورانس من سوريا امتلاكه

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

لشخصية ذات قدرة على التكيف السريع مع المجتمع الجديد ، على حين أنه ظل في جوهره غير منتم لأى مجتمع .

ووجد نفسه فى شوارع نبطية الصبقة وسط مظاهر احتفالية . كانت الشوارع تعج بالجماهير التى تساوم على البضائع ، وبالسقائين ، وبائعى المرطبات ، والفلاحين ومعهم منتجات حدائقهم الطازجة ، والرجال وهم يندفعون حاملين على ظهورهم الدبائح التى يغطيها الدباب ، أو حاملين أجولة فحم . وهاك ، استأجر مرشدا مسيحيا اسمه باراك كى يقوده إلى قلعى بوفورت وبانياس اللتين اعتقد أنهما مهمتان لبحثه . وقال عنه بوفورت إنه يميزها المنظر الأخاذ ، فإلى الغرب كانت هاك زرقة البحر المتوسط المتألقة وإلى الشرق ، وعبر وادى الأردن كان جبل حرمون وتخومه التى يغطيها الجبلد المتألى . ومن نافذة القلعة قذف بحصاة فى بهر اللبطنى على مسافة ١٦٠٠ قدم إلى أسفل . ولكى يصل إلى بانياس أو قبسارية فيلبى الإنجليه ، اصطحبه باراك خلال مروج الأردن الخضراء المزدهرة والننى بدت له شبه مدارية مقارنة بقحل المرتفعات اللبنانية . كانت القرية التى تقع فيها غير جذابة ، إلا أن لورانس اكتشف نبع مياه باردة شهية فى كهف خبيء . كما أبهجه عشوره على نقوشات إغريقية قديمة فوق الكهف مكرسة للإله بان . وتقع قلعة بانياس التى بناها الفرسان الإسبتاريون فى القرن الثانى عشر على أنف جبل حرمون الذى تسلقه لورانس متحمسا ، حتى إنه تشجع وأوقد نارا فى الأجمة الموجودة بالفناء الداخلى كى يرى بوضوح . وكتب قائلاً . « لابد وأن تلك النار المشتعلة قد بدت بهبحة من بعد » . ومن ثم ، أسرع مالك القلعة مهرولاً ليرى ما يحدث ، رغم أن لورانس ذكر أن الرجل لم يبد اعتراضاً لأنه تمكن أخيراً من دخول المصاء بعد عشرين سنة ، ثم ارتحل بمفرده من حنين إلى تبين ووصل إلى صفد فى اليوم التالى . ونظراً لأنه كان قد شفى من هجمة الملاريا فقد قام برحلة جانبية إلى شاسنليه حيث تعرف لأول مرة على رياح الشيروكو الغملة بالأتربة والننى تهب من الصحراء العربية فى الصيف ، وجعلته يشعر بالفضاء الشاسع خلف تلك التلال الأليفة . ثم هبط إلى منطقة بحر الجليل وتوجه أماماً إلى البحر المتوسط عبر سهول أوردبلون التى تسبه رقعة شطرنج شاسعة من اللوين البنى والذهبى تتخللها ممرات كالجبال الربعبة وتتناثر فيها الخيام السوداء التى تشبه أعشاش الطيور بينما

كانت قوافل الجمال الهائلة دائمة الحركة فيما بينها . كانت النساء يغربلن الحبوب على أرضيات فرشت بالدريس ، وكان بين الحين والآخر يرى سحببات من العصافه والتبن والغبار تتصاعد فوق الحفول ، على حين كان الفلاحون يجمعون الحبوب أو يدرسونه بالمدراسات والمذارى . ثم انتقل من شاطئ حبها مسجها شمالا إلى ما يعرف الآن بجنوب لبنان ، مرتحلا على الأقدام ، ومخترقا صور وصيدا ، وبعد ذلك قفل عائدا إلى بيروت .

وبعد أن استراح أسبوعا في فندق فيكتوريا ببيروت ، بدأ الشق الثاني من الرحلة الذي أمل أن ينهى به إلى اللاذقية وأنطاكية وحلب . وصل في الأسبوع الأول إلى جبيل شمال بيروت ، حيث توقف في مدرسة الإرسالية الأمريكية التي كانت تديرها الأنسة هولمز . وتذكرته الأنسة فربدة العفل ، وكانت مدرسة بالمدرسة ، وقد وصل إلى هناك متريا ومتعبا « يحمل صرة ربطها على ظهره » . كما تذكرت الأنسة عفل ، والتي أصبحت فيما بعد مدرسة له تعلمه اللغة العرسية ، كيف اندفع إلى أعلى خلف الحادمة دون أن ينتظر الإذن له بالدخول ، وكيف أمتعها بعد ذلك بحكاياته عما احتمله « من معامرات ومناعب » أثناء الرحلة ، التي كثيرا ما نجا فيها من موت محقق على أيدي « الأكراد والأنراك الفساة » . وكان تفضيل لورانس المعلن « للمصاعب » ، وللنوم في العراء أحد أوجه استعراضيته المقلوبة التي كانت تتطلب مشاهدين . بيد أنه كان ، بينه وبين نفسه ، يحب الراحة حبا شديدا ، وكانت سعادته كبيرة بالأيام القليلة التي قضاها في إرسالية جبيل ، حيث كان يأكل جيدا ، ويستحم ، ويجلس باسترخاء في الحديقة تحت « أشجار خضراء خضرة حفيقية ويفرأ في مكتبة زاهرة بالكتب . وبعد أيام قليلة ، تم استقباله في الإرسالية الأمريكية بطرابلس ، غالبا مع خطاب تعريف من الأنسة هولمز . ومن هاك ، كانت تمة مسيره أيام ثلاثة إلى قلعة الحسن أو كرك الفرسان الشهيرة ، حيث استقبله الوالي العثماني ، أو القائمقام ، الذي برهن أنه أعد ما يكون عن الفسوة ، بل كان حانيا وعلى استعداد للمساعدة ، وكما عبر لورانس ، كان « مريحا جدا » . وقد كان لهذه القلعة ، أن تحتل مكانا مركزيا في بحثه قضى هاك ثلاثة أيام مسترخيا ، بنفحص المكاف ، ويلتقط الصور . ومثل باباس ، كانت هذه القلعة قلعة فرسان اسبنارين . كانت شاسعة ذات أسوار مزدوجة مهيبة ، تف

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

وحدها في أرض قاحلة بها شحبرات خفيفة وتسلق لورانس وهو حافى القدمين، إلى منتصف جانبها المنحدر الداخلى المعطى بالطحالب، وكان تفكيره يجول بين مبراتها ونقائصها. ورأى أن تسلفها لم يكن يصعب على الجيوش المحاصرة المزودة بسلاسل لتسلق الأسوار، إلا أن ميلها الخفيف كان يعنى أنهم لن يصلوا أبداً تحت وابل الحجارة المستندرة والقار المسنعل الذى كان يلقيه عليهم من أعلى المدافعون فى الداخل. كما لاحظ ببهجة الفتحات التى كانت فى الجدران والتى كان يلقى منها المدافعون قذائفهم، وأعتقد أن تلك الفتحات لم تكن معروفة فى أى مكان آخر فى سوريا رغم أنها كانت معروفة فى أوروبا الأمر الذى يوحى بأن الفرسان أنوا بها فكرة جديدة من الغرب. وقد أعجب لورانس أيما إعجاب بالكرك وكتب لاحقاً يقول: «إنها أفضل الفلاع فى العالم وأحسها صيانة». وأمده «الحاكم المريح» بمرافق كى يروور قلعة صفتة القريبة والذى أعجب بها لجدارها الدفاعية النورمادية ذات الفتحات المبنكرة، النى لم ير لها مثيلاً فى أوروبا. وكانت ذروة رحلته هى قلعة الكرك وصفتة، وصهبون، تلك القلعة النى كانت مسلتها الصخرية الرتيقة تدعم مركز جسر منحرك، والتى اعتقد لورانس أن هذا الجزء هو أكثر أجزاء نى الفلاع التى رآها إنارة، وبعد زيارته هذه القلاع الثلاث كتب إلى والدته قائلاً: «قد يسعدك الآن انتهائى من عملى المبدئى بنجاح: أى أننى قد ضمت (كتابة) بحنى».

بعد أيام قلائل، ترك حاكم الكرك ورحل فى اتجاه الشاطئ، وقضى الليلة الأولى نائماً على أرض مفروشة بالدريس مع مجموعة من الفلاحين. وكان الرجال يدرسون حبوبهم ويعملون فى مجموعات بالتناوب معظم الليل. وحينما حل عليهم جميعهم الإجهاد أيقظوا لورانس وطلبوا منه أن يقوم بالحراسة بمسدسه أثناء نومهم نظراً لوجود لصوص كثيرين، كما قالوا. ورغم اعتقاد لورانس بأن ما قالوه هراء إلا أنه نفذ ما طلبوه منه. وفى الصباح التالى، قيل له فى طرطوس إن هؤلاء الرجال كانوا يحاولون إخفاء حجم ما جمعه وأن من كانوا يخشونهم هم أصحاب الأرض لا اللصوص. إلا أنه تأكد من وجود اللصوص فيما بعد حينما كان قرب مسياف وحاول رجل يمتطى جواداً إطلاق النار عليه من على بعد ٢٠٠ ياردة. وكان مهاجمه، طبقاً لما ذكرته الأنسة عقل «تركيا ضخماً قاسى الملامح»، إلا أنه أخطأ

التصويب فسحب لورانس مسدسه الموتزر بهدوء وصوب إليه طلعة قاتلة تصوبيا دقيقاً فأصابت إصبعه الأصغر ونزعت عنه الجلد. وصعفت اللص دقة لورانس السحرية في التصويب، ووقف التركي وفد تحمد في مكانه بينما تقدم لورانس وضمد له إصبعه وربت على ظهره وأرسله في طريقه بعد أن منحه نصف نفوده. وكتبت الأنسة عقل قائلته: «إنها قصة داود وجوليات مع فارق أن داود هزم خصمه بسيفه على حين أن السلاح الذي كسب به لورانس يومه كان مودنه». وهذه أسطورة أخلاقية من المحال تقرير كم منها اختلاف من خيال الأنسة عقل وكم منها اختلاف خيال لورانس. وكتب لورانس عقب هذا مباشرة إلى والدته قائلاً: «إن التركي الضخم قاسى الملامح كان ببساطته جحشا ومعه بندقية عنيفة». وأنه أطلق عليه النيران ممتطيا جواده فرد عليه لورانس فوراً بإطلاق النار عليه فحرح الحصان الذى اندفع بضراوة. إلا أن فاطم الطريق تمكس من التحكم فى الحصان وأسرع يدور فى حلقة قطرها حوالى ٨٠٠ باردة ليحاول مرة أخرى إلا أن لورانس أطلق قذفته نانية فوق رأسه، الأمر الذى جعل الرجل «بعر كمتسابق يتخطى الحواجز». ومرة أخرى، لا بد وأن واحدا من هذين التقريرين كان حقيقيا، إذ إنه على حين أنه أشار للحادث «كفكاهة» فهناك من الشواهد ما يرجح أنه لم يكن على هذا القدر من التفاؤل فى واقع الأمر. فلم يسبق أن أطلقت عليه النيران أبدا. وإذا أخذنا فى الاعتبار خوفه المرضى من الألم، فإن فكرة الرصاصة، وهى تنغرس فى لحمه (مهما كانت قديمة) لا يمكن أن تكون فكرة لطيفة. وفى الواقع، فقد هزه الحادث بدرجة كافية لأن يبلغ الوالى التركى الخلى عنها. كما جعله قلقه من تكرارها بقبل رفقة دورية من الفرسان الأتراك رغم علمه أن هذا سيكون عائقا لحركته. وبدأت ثقة لورانس من تلك اللحظة، تضعف. وظهرت عليه آثار الخوف والحصى والحرارة والمتاعب والألم الشديد من ارتحاله راجلا. وبدأ اهتمامه بالفلاع بدوى وحل محله الإبهالك والقدمين الموجهتين والملايا. كان ينوى التوقف فى أنطاكية لعدة أيام، إلا أنه، ولأول مرة، يغفل أحد أهدافه الرئيسية. ورغم أنه زعم فيما بعد أنه رأى أسوار أنطاكية عن بعد، إلا أنه يبدو من غير المحتمل أنه قد اقرب منها. وأضاف مرافقوه الفرسان إلى متاعبه مخرد أنه رفض الركوب. ورغم أنه أخبر إدوارد ليدز لاحقاً، منظارها كعادته بالشجاعة، أنه «جعلهم يسبرون» فى البوم الأول على أقدامهم

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

حتى عجزوا عن الحركة، ثم أجبرهم على العودة لفظة البداية ليصبحوا خيولهم، فقد كانت الحقيقة هي أنهم بمجرد امتطائهم خيولهم، كان عليه هو أن يجاهد من أجل اللحاق بهم. ولابد أن مشهد الشاب الإنجليزى وهو يسير، نصف أعرج، ينقل مقتفيا أثر سربه حيالة كان من المفترض أن ترافقه، كان مشهدا عجيبا ومنيرا. ولم يكن لأحد أن يلومه إن هو امتطى الخيل. إلا أن إرادته الصلبة جعلت من المستحيل عليه الخضوع. ومن ثم، سار على قدميه المقروحتين الملينتين بالكدمات، ربما كان يلعن الخوف الذى نسب في أن يبلغ الحاكم عن الحادث «التافه» فى المقام الأول. وكادت مسيرة الأميال المائة والعشرين الأخيرة فى زمن قدره خمسة أيام أن تفضى عليه.

وحينما دخل حلب فى السادس من سبتمبر وهو يعرج، بعد مغادرته بيروت فى المرة الأولى بشهرين، كان لحمه قد نحل حتى العظم، وكان حذاؤه متهاككا، وقدماه كنلن من القروح السى لم تستطع إرادته «التشوية» احتمال آلامها. كان قد أقسم أن يسير على قدميه بينما يمنطى الآخرون الخيول.. إلا أنه لم يعد باستطاعته السير. كان قد اعتقد بعدم وجود حد للألم الذى يمكنه إجبار جسده على تحمله، إلا أنه وجد أنه قد بلغ هذا الحد. ولم يكن من الأمور الهامة التى تدخل على نفسه الرضا أنه قد قام بالفعل برحلة مرموقة على مسافة ١٠٠٠ ميل. إذ إنه قد فشل فى الوصول إلى أنطاكية، وفى الوصول إلى أورفه وبقا. كما فشل فى الحصول على أخنام الحبيين لبقدمها لهو جارت.

ومن الخنمل أنه قد خطر له وهو مسترخ فى حمامه فى فندق البارون بحلب أن خوفه كان سبب هزيمته. فقد كانت أورفه على بعد ١٠٠ ميل عبر الفرات - أى على مسافة مائى ميل ذهبا وعودة. كان هذا يعنى، فى أحسن الأحوال، رحلة بمائة أو عشرة أيام سبرا على الأقدام. بيد أنه شعر بعدم استطاعته فعل هذا. ونراخ شديد، قرر أن عليه، بعد كل شيء، أن يلعب دور السائح ذى الامتيازات، وأن سناحر عربة سائسين وبدفع أجره ماهظة بالنسبة لما فى جيبه قدرها سبعة جنيهات وكتب إلى والدته فى اليوم التالى مخبرا إياها بقراره إلا أنه لم يذكر شيئا عن شعوره بالإرهاك. ولابد أنه قد بدا لها فارسا أبيض لا يقهر. فقد أوحى أنه

فبط يعوزه الوقت إذ كتب . «لاند أن أسرع» . كان هذا الخطاب قد كتب في ٧ سبتمبر . أما ما حدث للورانس بين هذا التاريخ وبين يوم ١٩ سبتمبر حينما كتب مرة أخرى من حلب ، فقد ظل سرا .

وظهر لورانس في أكسفورد في منتصف أكتوبر وقد تأخر أسبوعا عن بداية الفصل الدراسي . وطبقا لإريست باركر فقد كان «الحرمان قد أسفده حتى العظام» ، كما فقدت آلة التصوير التي ابتيغت له بنكلفة باهظة . ورغم أن خريطة بيري جوردون القيمة كانت مازالت في حوزته ، إلا أنها كانت مغطاة ببقع الدم . ومن ثم بدا الأمر وأن هناك حكاية وراء هذا . وأسر لورانس زملاءه من غير المغامرين بالرغم من قوتهم العضلية وأجسادهم الرياضية بأقاصيص عن مهاجمة الأكراد المتعطشين للدماء له أثناء بحثه عن أخنام الحسينين ، وعن سرقتهم ممتلكاته وضربهم إياه حتى كاد يموت عندما أحبطهم عدم وجود كوز معه كما اعتقدوا . ثم قال إنه تمكن من الزحف حتى لنجا ، إلا أنهم تركوه دون نفوذ مما اضطره إلى العمل على سبينة شحن غير نظامية حتى يجد طريقه إلى مرسيليا وبهذه الطريقة وفر تكاليف رحلة العودة إلى أكسفورد . وحاز على إعجاب أصدقائه ، وكذا راعيه ومرشده المحتمل هوجارث ، وكان هذا أمرا أكثر أهمية بالنسبة له . وبالنسبة لهوجارث فقد أدى الشاب مهمته المقدسة وأحضر معه ثلاثين من أحتام الحبشيين لنضم إلى المجموعة الفريدة في المتحف الأشمولي . وقد لا يكون لورانس قد أخبره مباشرة أنه حازف بحبائه ليحصل عليها إلا أنه أوصل إليه المعلومة بأساليب غير مباشرة . فقد كان بالفعل قد أصبح حبيرا في «تدليك الحفيفة» كي يصل إلى أهدافه ، وكان هدفه في هذه الحالة هو جذب اهتمام هوجارث الذي لم يكن قد منحه اهتماما كافيا من مركزه المتعالي حتى هذه اللحظة . ولا يعلم أحد ما قيل أثناء لقاءهما الأول بعد عودته . فقط أخبر هوجارث ليدز فيما بعد أن «هذا الشاب مرموق . لقد ذهب إلى أماكن فلما زارها أجنب» .

فأين كان لورانس أثناء الأسبوعين الثاني والثالث من سبتمبر عام ١٩٠٩ . كان آخر ما كتب إليه والدته قبل ذلك هو عن اعتزامه زيارة أورفه في ٧ سبتمبر وذكر أنه «يجب أن يسرع» ويوضح كشف مصروفاته أنه تملكاً في حلب لمدة

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

أسبوع في هذه المناسبة ، الأمر الذي يجعل احتمال تاريخ رحيله هو ١٣ سبتمبر في أفضل الأحوال . فنحن نعلم أنه كان قد عاد إلى حلب في ١٩ سبتمبر لأنه كتب إلى إدوارد ليدر من فندق دو بارك في هذا التاريخ . وكانت الرحلة إلى أورفه بالعربة التي تجرها الخيول تستغرق من ثلاثة إلى أربعة أيام بأكثر الطرق مباشرة ، أى ذلك الطريق الذي كان يخترق قرية الشراكسة منبج ويعبر نهر العرات عند تل الأحمر ويخترق السروج قبل أن يصل إلى أورفه . فإن كان لورانس قد رحل يوم ١٣ سبتمبر ، لسمح له الوقت بصعوبة أن يصل إلى أورفه ويعود يوم ١٩ سبتمبر ، إذا افترضنا أنه قضى يومين أو ثلاثة متعقدا القلعة . وفي ٢٢ سبتمبر كتب إلى والدته من فندق البارون لحلب يخبرها أن رحلته إلى أورفه كانت بهيجة ، إلا أن سرقة آلة التصوير في السروج في طريق عودته حينما نام سائق العربة الذي أوكل إليه الحراسة قد أفسدتها . أما الحادثة الأخرى التي رواها فكانت أن حصاناً جامحاً نسب في انقلاب العربة رعم أنه هو لم يصب بإصابات خطيرة . ويظهر في هذا الخطاب حرصه على العودة إلى الوطن . فقد كانت بقوده قد نفدت تقريبا ، وكان متعبا نتيجة لهجمة ملاربا رابعة ، كما أحبطه هطول الأمطار المبكر الذي كان قد بدأ منذ أيام قليلة وكان كفيلا أن يجعل السير محالا . كما أنه ذكر تقريراً نشر في صحيفة حلب مفاده أن شخصا يدعى السيد ادقارد لوفانس «قد اغتبل قرب عينتاب» . وذكر ، على سبيل التفكه ، أن العاملين بالفندق استقبلوه كما لو كان شبعا ، وعلق على التقرير قائلاً إنه «إشاعة مضللة عثية» ، مؤكداً لوالدته أنه لا توجد في أى مكان قرب عبتاب مدينة تركية على بعد ستين ميلا من حلب ونمانين ميلا غرب أورفه .

أما خطاه إلى ليدر الذي كتبه قبل ذلك بأيام فكان يروى قصة مختلفة . فقد ذكر أنه أثناء بحثه عن أختام للحيثيين إلى الشمال من تل شار - وهي قرية في إقليم عيناب قفز عليه رجل كان يقتفى أثره وعض يده وضربه بحجر على رأسه وسرقه . وقال إنه استرد ما سرق منه بعد أن دفع بقشيشا وأضاف أن هذا كلفه مجهودا ضخما وأصابه بالقرص من الإقليم مما دفعه إلى العودة إلى حلب . وطلب من ليدر ألا يذكر الهجمة مراعاة لوالديه ، لكنه لم يذكر الرحلة إلى أورفه أو آلة التصوير المسروقة . ولم يذكر أيضا العربة أو سائسيها اللذين يفترض أنهما كانا

برففته . كما أنه لم بصرح للبدر بأية نوايا عن العودة مباشرة ، بل إنه أعلن أنه مازال يريد الذهاب إلى الكرك وبتراء اللتين تقعان في ولاية سوريا ، بعيدا جدا عن جو حلب . فلو أن لدينا فقط خطاب ليدز الذي كتب في ١٩ سبتمبر لاعتقدنا أنه كان في رحلة مختلفة تماما عن تلك التي وصفها لوالدته قبل ذلك بأيام ثلاثة .

غير أنه كتب خطانا نالنا أثناء وجوده في حلب . ففي يوم ٢٤ سبتمبر ، أى بعد يومين من الكناية إلى سارة ، وخمسة أيام بعد خطابه إلى ليدز ، كتب إلى السير جون رايس مدير كلية يسوع موضحا أنه لن يحضر الأسبوع الأول من الفصل الدراسي . وبعتبر هذا الخطاب نموذجاً رائعاً للكتابة الإنجليزية المكبوحة وعرضا للنعالي يجعله جذيرا بأن ينسب لشيخ مثل اللورد نيلسون داته . فقد أخبر لورانس رايس أنه أصيب بأربع هجمات من الملاريا في حين أنه كان قد «أعد نفسه لهجمنين فقط» وأنه «قد سرق وكسرت عظامه تقريبا» في الأسبوع السابق على كتابة الخطاب فقط . وحال هذا الخلبط من الظروف التي تسببت في المضايقة دون تنفيذ خطته لزيارة الكرك والشوبك نظرا لخلول الفصل المطير بمجرد استعادته القدرة على السير . وأخبر رايس أيضا أنه باستثناء هذا ، فقد كانت رحلته «مبهجة» إذ إنه قام بزيارة ست وثلاثين قلعة من مجموع خمسين في طريقه ، كما أنه جمع لهوجارث ثلاثين خنما حبنا . وقال إنه سافر «على قدميه بمفرده» طوال الوقت ، وعاش «كعربي وسط العرب» واكتسب بناء على هذا بصيرة في أسلوب معيشتهم ، الأمر الذي كان سيفشل فيه إن هو سافر مع قافلته

كانت زيارته لست وثلاثين قلعة حصة (أخبر ليدل هارت فيما بعد أنه رار ستين قلعة) ، وأيضا كان فيامه برحلة مرموقة سيرا على الأقدام لمسافة ألف ميل في سوريا أمرا لا يمكن إنكاره . إلا أن باقي خطابه إلى رايس كان مجرد نجمل غير ذي معنى . فلم يكن قد سافر بمفرده طوال الوقت ، إذ إنه استأجر مرشدا عند نقطة معينة ، كما أنه ، ولشق طويل من الرحلة ، كان في صحبة مرافقين مطمئن الحول . أما في الجزء الأخير من الرحلة ، ومدته أسبوعان ، فإنه طبقا لكشف نصماته ، استأجر عربية وسانسين لزيارة أورفه رغم الغياب الواضح للعربة من خطابه إلى رايس وليدز . لم يكن هذا الأسلوب بقرب من «العيش كعربي وسط العرب» كما

الفصل الخامس: شاب شبه مرموق أكسفورد وسوريا

فعل داوتى . بل إنه فى الواقع كان دوما يرتدى الزى الأوروبى بما فى هذا الخوذة التى كان العرب يظنون إليها كراهة لا عقلاسة كما قال هو لاحقاً . ثم إنه نزل ضيفاً على مستولن أتراك وإرساليات غربية ونام فى فنادق من بينها فنادق مريجة كلما أنيحت . وعلى حين أنه مكث على فترات مع العرب المحليين ، فقد كان هذا نظير مبالغ بقدية أحياناً . ربما أن كثيراً مما قاله كان اختراعاً ، أو على الأقل «مبالغة» كما فى خطابه لرئيس ، فلماذا لا تكون قصته عن تكسير عظامه كذلك أيضاً ؟ فهل أصعب لورانس فى حادث انقلاب العربية الذى ذكره لوالدته ، لكنه شعر بحرج لأن يخبر به رئيس ؟ ويقينا ، أن حادث ضربه بعنف لدرجة فقد معها قدرته على السير لم تكن حقبية كما أوحى خطابه بذلك ، فقبل الخطاب بأيام كان قد أخبر ليدز بعمره على زياره بترء . كما أن إصابته لم تكن شديدة بدرجة يلجأ معها إلى علاج طبي ، ولا يبدو أيضاً أنه قد رفع تقريراً بالحادث إلى القصلية البريطانية فى حلب . فقد أخبر رئيس أنه قد تم القبض على اللص خلال ثمان وأربعين ساعة ، كما أمتع روبرت جريفز فيما بعد بقصة طويلة مفادها أنه رافق مجموعة كبيرة من الشرطة التركية والمتطوعين إلى قرية قاطع الطريق الكردية كى يطلب تعويضاً . إلا أن الواضح هو أنه غاب عن حلب لمدة سبعة أيام ، وإذا نحن أخذنا فى الاعتبار عامل الوقت وحده فلا يحتمل أن يكون فى حلال تلك الفترة قد انحرف عن طريقه فى رحله على قدمية إلى تل بشار فى إقليم عينتاب التى لم تكن على الطريق المباشر المؤدى إلى أورفه ، مع الانتظار ليومين إضافيين لاسترداد ممتلكاته . وحينما قام بنفسه بافتاء أثر الرحلة نفسها مرة أخرى عام ١٩١١ استغرق منه هذا ما يربو على الشهر . وإن كان قد ذهب إلى تلك الرحلة الحابية فى عربة مستأجرة ، فأين كان سائق العربية الموثوق به حينما هوجم ؟ ولماذا يدعى فى كشف مصروفاته أنه استأجر العربية والسائسين لمدة أسبوعين ، الأمر الذى يعنى أنه قد غادر حلب قبل وصوله إلى هناك يوم ٦ سبتمبر ؟ وعلاوة على هذا ، فمن الواضح أنه ابتاع بعض أحنام الحيشين فى حلب ، إذ إنه كان قد أخبر ليدز يوم ١٩ سبتمبر أن لديه عشرين حنماً فقط ، على حين ارتفع هذا العدد إلى ثلاثين يوم ٢٤ سبتمبر . فإن كان من السهل الحصول على الأختام فى حلب ، فلماذا تكبد المشاق والنفقات للذهاب إلى تل بشار ؟ هل كانت القصة مخترعة رمتها من أجل الفوز بالخطوة لدى هوجارث

بأنه يدعى أنه «كاد أن يقتل» لتحقيق نغيته «لماذا احنار أن يكتب أولا لليدز بدلا من أن يكتب للمضربين من أصدقائه مثل فبقيان ريتشاردز وليسارد حريي إلا إن كان قد أراد لفت نظر هوجارث» ففد عرف لورانس أنه لم يحقق كل ما سعى إليه في الرحلة. ففد كانت الرحلة بالعة المناق، بالضبط كما حدره من هذا هوجارث وداوتى. وكان فد أصابه الإنهاك لدرجة عدم استطاعته إكمالها سرا على الأقدام. فهل كانت قصة السرقة تكفيرا منخبلا لخطيئة الفسل، أى أنها كانت المثل الأول لنموذج النجاح العام والفسل الخاص، ثم التكفر بالعنف الذى سببصبح معنادا فيما بعد؟ وعلى الجانب الآخر، فإن كان لورانس لم يقيم زيارة تل بشار فكيف نأتى له مفايلة «أحمد أفندى» وهو رجل كان يسكن قرية قرسة من تل بشار وأشار إليه لورانس في مذكراته كصديق من الزيارة الأولى؟ وأخبرا، كيف لم يكنشف هوجارث كذبه وهو الذى كان قد زار تل بشار مند عام فقط؟ ولابد أن لورانس كان سيشعر بالسعادة لو عرف أنه قد أورث كتاب سيرته هذا النوع من الألغاز. وفي النهاية، فهو تتركنا مع سلسلة من الأسئلة ومجموعات دائرية من القصص ورفع من الدم على الخريطة التى قد توحى بقصص ما.

هوجارت يذهب للتقيب

أكسفورد وكركميش

١٩٠٩-١٩١١

6

ذات يوم في عام ١٩١٠ ،

وبعد فترة من عودته من سوريا ،

دعا لورانس ميدج هول لمرافقته في

رحلة بالقوارب على نهر الأبيزيس .

واصطحب لورانس معه فتاة جذابة،

هي چانيت لاوري ، وطلب من هول أن

يصحبها في قاربه (البنط) بيما

يتبعهما هو في

زورقه الخفيف .

أدهش الطلب هول الذي طلبه منه فيما بعد إبطاحا لمقصده . وأخبره لورانس بأنه «يريد أن يفيق من إحباطه بحل رجل آحريتحدث بياة عنه إلى الفناة التي يعبدها» . واستنتج هول من هذه الجملة المشوشة أن لورانس كان يحب جانب وأنها قد رفضته . وكان قد رآهما معا من حين إلى آخر وتشكك في وجود علاقة حب بينهما . وفيما بعد ، سأل هول جاست ما إذا كانت على علم بمشاعر لورانس وكانت إجابتها أنها تعرف ، إلا أنها ، ببساطة ، لا يمكن التفكير بجدية فيه كخطيب . وبعد ذلك بسنوات طويلة ، وحينما كانت جانب في السادسة والثمانين ، ادعت أن لورانس كان قد طلب منها الزواج وأنها قد رفضته .

وكان لورانس قد عرف جانيت لاورى منذ الطفولة المبكرة . كانا رفيق لعب حينما كان يسكن فى فولى أون ساونا مبتون ووتر ، وكان والد جانب وهو باظر إحدى الضيعات المحلية ، كثيرا ما يذهب مع توماس لورانس فى رحلات باليخت . وكانت جانيت قد التحقت بمدرسة داخلية فى أكسفورد عام ١٨٩٩ ، واستمرت

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتفيش أكسفورد وكركميش

فريبة من عائلة لورانس دائمة الزيارة لهم حتى إنها كانت أحيانا تقيم معهم في منزلهم بشارع بولسند، وبذلك، كانت إحدى النساء القليلات التي سمحت لها سارا والددة لورانس بالدخول إلى المنزل، ومن ثم، أصبحت أختا بديلة لصبية عائلة لورانس، ورغم أنها عادت إلى هامبشاير بعد وفاة والدتها، إلا أن زياراتها لهم لم تنقطع. وكانت كنيره اللقاء بلورانس أثناء سنوات دراسته بالجامعة، وكانا أحيانا يلتصقان في منزله لتناول شاي الساعة الخامسة أبام الأحد. وفي عام ١٩٠٨، تخاهلت وشفيقها لوائح الجامعة وزارته في مسكنه بكلية بسوع حيث تخلت عن قناعها الأرستقراطي لوقت كاف جعلها تسمح لنفسها بقذف قوالب السكر من خلال نافده على أحد أسانذة الجامعة من الجيران. وكانت وهي الفتاة الملبسة بالحسوبة، الدافئة، الشفوية المشاغبة، ذات الروح المسيطرة والتي تكسر لورانس بسوات ثلاث، تنظر إليه كأخ أصغر شديد الدكاء. وكان لورانس يحب التفكه

معها ويتحداها أن تأتي بأفعال صيبانية، ويشاكسها إن هي عجزت عن الإتيان بها. وقالت جانبيت إنه في أحد أيام عام ١٩١٠، وكانت بمفردها في غرفة المائدة في شارع بولسند، قفز لورانس فحاة، وأغلق الباب ليمنع الخادمة من الدخول، ثم طلب منها، دون عناف أو قُبَل، أن تصبح زوجته له. وانفجرت جانبيت، التي لم تكن تُكن أية مشاعر رومانسية، ضاحكة. وهنا نظر إليها لورانس بإذعان وقال «حسا».

وهذا هو الشاهد الوحيد لدينا على أنه قد جدسه امرأة أبدا. كما أن هذا يبدو غير متوافق مع الكثير مما كنبه. إلا أنه ليس بالطبع من المحال أن يشعر فجأة بالمشاعر الذكورية الجنسية نعتمل داخله رغم كل شيء. بيد أنه يبدو من المستغرب، ومع الأخذ في الاعتبار الجدال الذي اشتعل حول جنسانية لورانس، أن يحتفظ جانبيت بالسر طوال هذه المدة. وقد أحبر أشخاص عديدون جبرمى وبسلون المؤرخ المعتمد للورانس، أن تقرير جانبيت «مبالغ فيه». كما أوضح ديزموند ستيوارت وهو مؤرخ آخر للورانس، أن للقصة شيئا «غير طبيعي» يحكا به رفض «بوو» للشاعر الجرنون سوبنبرن. وقد كشف لورانس القدر الكبير عن ذاته في خطابات، إلا أنه لم يوضح أية مشاعر دافئة تجاه جانبيت. كما أنه أخبر تشارلوت شو في عام ١٩٢٧ أن صلاته العاطفية بوالدته تمنعه أن يجعل من أبة امرأة أخرى أما أوسببا في إنجاب أطفال. وعلى حين أن الزواج وإنجاب الأطفال لبسا بالضرورة شيئا واحدا (كانت السيدة شو متزوجة لكنها لم تنجب أطفالا)، فقد أخبر لورانس روبرت جريفز أنه لم يستطع أبدا حب أى أحد، وأنه لم يكن له أى شأن مع النساء في صباه، ومن ثم تعود العيش دونهن. ورغم أنه كتب إلى روبرت جريفز لاحقا أن مقولته الأخيرة لم تكن صحيحة كلية، وأنه قد أحب مرة واحدة، فقد ظهر أن هذا الاستثناء كان شخصا يدعى (س. أ) الذى ألهمه بدوره فى الثورة العربيه، والذى أهدى إليه كتابه «أعمدة الحكمة السبعة». وبشكل عام، فمن المتوافق عليه أن «س. أ» هو سليم أحمد المكنى بدهوم، وهو فتى عربى تعلق به لورانس فى سوريا فى فترة ما قبل الحرب. وصلات لورانس «باليورانيين» وغيرهم معروفه، رغم أن طبيعته المثلية ما كانت لتحول كلية دون احتمال عرضه الزواج من جانبيت لاورى. وكان شقيق لورانس وبل الأكثر وسامة فد حاز إعجاب جانبيت. وقد يكون لورانس

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنقيش أكسفورد وكركميش

فد لاحظ ذلك مما أوحى إليه بدخول المنافسة. ويحتمل أن چانیت قد رفضته، إن كانت قصة عرض الزواج حقيقة، لأنها أحست بعدم مبالاته الأساسية بجنس النساء.

وسواء كانت چانیت لاورى قد جذبتة أم لا، فإن لورانس سخر معظم اهتمامه فى أوائل عام ١٩١٠ لبحثه. وكان يقضى وقتاً طويلاً يعمل به حتى إنه أهمل مواده الدراسية الأخرى، خاصة مقرر «الدراسة الخاصة» أو الحروب الصليبية. وأهمل مراجعتها حتى الأسابيع الأخيرة من الفصل الدراسى مركزاً فقط على الحقائق المجردة لمدة ثلاث لبال بينما كانت الامتحانات قائمة. أما البحث فكان نجاحاً هائلاً، وحصل لورانس فيه على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف، لدرجة أن المشرف عليه، ربحنالد لين بول، أقام حفل عشاء خاصاً احتفاءً به. وأكسفورد، كآية مؤسسة أخرى، معرضه للتأثر بالشخصية. فعلى حين كان لورانس ذا عقلية فذة، إلا أن مفدرته على أسر ومناولة من هم أعلى منه مرتبة كانت فاضحة بدرجة أكبر. ويمكن تلخيص موقفه من أساتذته فى النصيحة النى وجهها إلى أخيه ويل فيما بعد، والذى كان قد تتلمذ على بعض هؤلاء الأساتذة إذ كتب إليه قائلاً: «أحذرك من صعوبة قيادة المستر جين والمستر باركر معا (فى عربة واحدة)، وأن الطريقة الوحيدة للتحكم فيهما هى الإنفاء على خطك الخاص بينهما وأن تستغل من كل منهما ما ياسبك، وهذا أمر مرهق إلا أنه مريح للغاية». وكان فى الظاهر يبدو نانرا ناريا على المؤسسة بأسلوب أسماه «أسلوب الفارس الصعلوك الذى يطاعن كل فادم». كما لاحظ إدوارد لبدز «جسارته فى مهاجمة آراء ونظريات الكتاب الآخرين». إلا أن «نورات» لورانس كانت من أجل تبنى أسلوب ما، إذ إنه كان يملك موهبة حارفة على أن يخبر من هم فى مركز السلطة بما يريدون سماعه على وجه خاص. ففقد كان لنظريته القائلة بأن أوجه المعمار العسكرى الرئيسى قد وصلت العرب من الصليبيين لا العكس، أساس أيدبولوجى يروف للإمبرياليين فى العصر الإدواردى؛ وبالمثل كان اهتمام رجل مثل هوجارث بالحيشيين ينبع من اعتقاده أن الحثيين كانوا من أصل هدى أروبي، لا سامى، ومن ثم يمكن تقديم البرهان على أن للأروبيين دوراً فى خلق حضارة الشرق. فقد كانت ملكات لورانس قد اكملت تماماً فى سن العشرين. الذاكرة الفذة للوقائع؛ قوة الحدس الحادة كالموسى (حاددة

أحسانا لدرجة كافية أن يحرج بها نفسه ! والقدرة على تفصى الوضع المؤثر ، والقدرة على حلط الفانتازيا بالحقيقة ، وعلى أن يفنن ويعوى وبسلى ويقنع ويحفر الآخرين للعمل ؛ وتكريس نفسه للعمل بأنحاه تحقيق هدف بعيد المدى ؛ والقدرة على أن يكون مرنا فى مواجهة التطورات وعلى أن يدفع بنفسه قدما فى ظل خوف عبر عادى وعزم لا بكل . ورغم أن لورانس كان غير تقليدى ، فمن غير المحتمل أن يكون هوجارت والآخرين قد رأوا فيه شخصا صد المؤسسة ، ورغم أنه كان لوبليام موريس ، بطل لورانس ، شطحات فى الاستراكية الراديكالية ، فليس هناك أى شاهد على أن لورانس كان قد نحلى عن النوحه الخافط العنيد لوالديه . فكان بسخر من القوانين والمؤسسات اللبرالية مثل قانون المعاشات لكبار السن ، وحركات المساواة بين الرجل والمرأة . ورغم أنه كان يكره السلطه ، خاصة النوع الحامد عبر المنطقى منها ، إلا أنه كان أيضا يحدفها سحرا خاصا . وقد كتب فيما بعد يقول إن لبرالية الحسد والروح والنظافة والحيوة والمزاج المعتدل ، لا يمكن لها العيش فى ظل ظروف عبودية العمل الشاق الشائعة .

ورغم أنه كان يرغب فى العودة إلى الشرق بعد النخرج ، فإنه لم يحد فرصة فورية ساحه . وإزاء هذا قرر التقدم للحصول على محه زمالة من كلية « أول سولز » . ولما لم يمكن من الحصول على أحد المركزين المناحين ، فقد قام بالنسجل للحصول على درجة الـ B.Litt (نعال الماحستير) فى الآثار ، وتقدم بمسرحات لرسالة عن فخاريات العصور الوسطى . وبال من كلسه بسوع محه قدرها ٥٠ حنبا اسنرلينيا وتقدم بأطروحتة التى تمت الموافقه عليها يوم أول نوفمبر . ومن نم قام بالإبحار إلى فرنسا فى نفس اليوم للمرة الناسه فى ذلك العام لبشاهد مجموعة هائلة من فخاريات العصور الوسطى فى روان حيث وجد نفسه يعامل « كاله » من قبل العاملين بالمتحف نتبعه خطاب توصيه من الساحث المرموق سالومون دبناس . إلا أنه كان قد حمل معه على العبارة إلى الهافر حططا أكثر إناره من الفخاريات . فقد كان هوجارت قد أبحر إلى القسطنطينيه كى يبحث إعادة فنح الموقع الأركيولوجى فى كركميش بالقرب من جرابلس ، فى مسطفة الفرات العليا . فقد كانت ثمة مدبنة حيثبة جاء ذكرها فى الإنجيل وأعاد اكتشافها جورج سمست عام ١٨٧٦ ، وبناء على ذلك ، قام المتحف البريطانى بتنفيذ أعمال التنقيب . وفى عام

الفصل السادس، هوجارث يذهب للتنقيش أكسفورد وكركميش

١٨٨١ تم التخلي عن أعمال التنقيب. إلا أنه بعد مرور ثلاثين عاماً عاد الحثيون للأذهان مرة أخرى. كان هوجارث يأمل أن يجد مفتاح الهيروغليفية الحثية، الأمر الذي كان العالم ينتظره، في كركميش. وفي سبتمبر، أصدر الباب العالي فرماناً بإعادة التنقيب، إلا أنه حدد ثلاثة شهور لبدء العمل. وحيث إن هوجارث كان يريد البدء في فبراير التالي، فقد سافر إلى تركيا للبحث في أمر التأجيل.

وكزائر دائم التردد على المتحف الأشمولي، تمكن لورانس من كشف خطط هوجارث، ومن ثم، سأل ليدز بأسلوب بدا عشوائياً «عما إذا كانت لديه معلومات عن أية حفريات وشبكة الحدود في الشرق الأدنى». وأجابه ليدز بأنه كان عليه التحدث في الموضوع منذ وقت مبكر إذ إنه قد تم اختبار أخصائي في الكتابة المسمارية يدعى كاميل - طومسون مساعد لـ هوجارث في عمليات التنقيب في كركميش. واقترح لورانس أن يرافق البعثة بغير أجر إلا أن ليدز اعتقد أن المتحف البريطاني لن يقبله حتى بهذه الشروط. وكان هذا بمثابة صفة له. إلا أن لورانس كان قد تعلم المخابرة. فلدى عودة هوجارث في نهاية شهر أكتوبر حادثه شخصياً في أمر طلب الالتحاق بفريق كركميش. وكان يعلم أن مؤهلاته لا ترقى إلى مستوى مؤهلات كاميل - طومسون، إلا أنه كان واثقاً أن هوجارث لم ينس كيف أن عظامه كادت تهشم بواسطة رجال القبائل المعادية في محاولته جمع أختام الحثيين له قبل عام. وقد كسب موارثه كسباً حسناً إذ إن هوجارث قفز مرحباً بالفكرة وأخبر لورانس أنه لن يصطحبه معه فقط كمساعد إضافي بل إنه سيحصل له على منحة زمالة من الدرجة الأدنى من كلية مودلين بحيث يتقاضى مائة جنيه سنوياً أثناء عمله في الموقع. وكاد لورانس ألا يصدق ضربة الحظ هذه. فقد انشق السرق له فجأة فاتحاً أبوابه؛ وصارت الأرض النى طالما حلم بها كصبي مفتوحة أمامه. لم يحبر أحداً في بادئ الأمر عن هذه الترتيبات. إلا أنه، وبينما كان في روان لم يقدر على احتواء انفعاله وكتب إلى ليدز وهو منتش فائلاً: «سيد هوجارث للتنقيب، وسأذهب إلى سوريا خلال أسبوعين كي أمهد الأودية وأسوى الحبال نحت قدميه». وأضاف بلهجة تجمع بين البهجة والوقاحة أنه يحتضن أملاً أكبر من هذا وهو أن يتمتع بإبحار أكثر هدوءاً من إبحار اليوم الساق على العبارة العائدة إلى بسوهاض، إذ إن حركة الرياح قد أوقعته الليلة السابفة من سريره

العلوى على أحد المسافرين، ولدى محاولته شكر الرجل الغربى على أنه حال دون ارتطامه بالأرض انحصرت إجابة الرجل فى أن صاح «يا إلهى». وأصاف «لقد أخذت أصحك بعد هذا لمدة نصف ساعة بعد أن عدت إلى سربرى. إلا أننى لا أعتقد أن الرجل قد نحق من موطن الفكاهة فى الأمر».

وصل لورانس وهو جارث وكامبل - طومسون إلى قرية جرابلس فى عصر يوم ١١ مارس عام ١٩١١، وقد تحمدوا من البرد بعد أن خاضوا مياه نهر ساچور وصارعوا رياحا سيبرية البرودة، وكانت معهم فافلة فوامها عشرة جمال وأحد عشر حصان نحميل. كانوا قد غادروا حلب قبل ذلك بأيام وقد تأخروا أسبوعا عن البرنامج المقترح بسبب ظروف المناخ إذ إن الشتاء كان الأكثر برودة فى الشرق الأدنى منذ أربعين عاما. ولدى انخراق القافلة لطرق القرية، تراحم الأعراب لتحبتهم، وتطوع الكثيرون لمساعدتهم على تبريك الجمال وإزالة حمولات الخيل. وكان قد تم إحلاء منزل تمتلكه شركة محلة لخلوى السوس (العرقسوس) لسكنائهم، وأسرعوا للاحماء من قسوة الرياح الفارسة، بينما كانت الجموع من السكان الخلبين تنولى تفريغ الخازن ووضع متعلقاتهم بها قطع قطع.

كانت حفريات كركميش تقع على بعد حوالى ثلاثة أرباع ميل بعدا عن القرية، وتتكون من ثلاث كومات ضخمة من الركام، كان يعتقد أن الأكبر حجما بينها - الوسطى - تعطى المدينة الحيشة الرئيسية. وكان جورج سميث قد اكتشف الموقع ملهما بحاسته السادسة، لأنه رغم ذكر الإنجيل للمدينة فى سفر إرميا، فلم يوضح التقرير الإنجلي سوى أن المدينة كانت تقع فى مكان قرب نهر الفرات. كان سميث يعمل بالحفر على الخشب إلا أنه اكتسب شهرة عالمية بعد أن قام بترجمة بعض النصوص التى عثر عليها فى نيوى القديمة، والى أكدت قصة الطوفان الإنجيلية. وكانت تلك النصوص مكونة باللعة المسمارية البابلية - الأكادية، التى كانت نظاما مشتركا بين حضارات كنبرة فى العالم القديم، وسمى كذلك لأن رموزه الهيروغليفية (البنكتوغرافية) اتخذت شكل إسفينات مخروطية يمكن نقشها بسهولة بواسطة قصبة مشطورة على طفل ميل. وأمكن فك سفرة الرموز الهيروغليفية عام ١٨٦٠، إلا أنه فى حين أن الحننيين استعملوا

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتفيش أكسفورد وكركميش

نلك الرموز فى نصوصهم، ففد اتخذت معظم نقوشهم الطقوسية أشكالاً هيروغليفية لم تكن رموزها قد فكت شفرتها بعد. وكانت أسرار الهيروغليفية المصرية قد كسفت بواسطة حجر رشيد. ونظراً لأن سميث قد علم أن مدينة كركميش كانت تضم مستعمرة من كتبة الهيروغليفية الأجانب، فكان يؤمل أن تكشف الحفريات عن مفتاح ما للحيثيين القدامى.

وكانت كركميش قد أقيمت على تقاطع مجريين مائيين وارتكزت على حص ارتفاعه ١٣٠ قدماً هيمن على المشهد المسطح وكان يطل مباشرة على منطقة ضحلة رئيسية من الفرات. وكانت مياه الفيضان الفجائى فى الربع تقاذف وتنماوج وتزيد بلونها البنى أسفل متاهة من القنوات مكوّنة قناة عرضها ١٠٠٠ ياردة تجرى متماسة مع جزر على شكل أوراق الأشجار سودها اصمرار ألوان زهورها. وعلى الضفة الأخرى كانت تقع قرية سامراء بين الحقول والبساتين ويكون مشهدها الخلقي جبال طوروس التى يكسوها اللون الأخضر صيفا وتتوجهها الثلوج شتاء. كانت كركميش عاصمة للحيثيين فى وقت مبكر حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. إلا أن موقعها على النهر منحها أهمية بالنسبة للجوش الغازية ولذا توالى عليها الأيدى مرات عديدة؛ فاستولى عليها سرجون الأشورى عام ٧١٧ ق. م وبعد هذا بقرن هزم الفرعون المصرى نحاو الآشوريين، ذلك الحادث الذى سجله العهد القديم. وقد كسفت الحفريات المبكرة عن بعض النقوشات الهيروغليفية التى كانت تبشر باكتشافات جديدة. إلا أنه لم يكن قد حدث تقدم فى فك طلاسم هذه النقوش. ثم تسبب الكشف عن حاضرة الحيثيين عند بوعاز كوى بالقرب من أبقرة عام ١٩٠٧ فى إثارة التساؤل حول الهيروغليفيات مرة أخرى. وهكذا وجد هوجارث، ولورانس، وطومسون أنفسهم مرة أخرى فى جرابلس عام ١٩١١.

بدأ العمل خلال يومين من وصولهم بقوة قدرها مائة رجل استأجروهم من جرابلس والقرى المجاورة. وبينما قام طومسون بعمل مسح للموقع، قام لورانس بنشغيل العمال بادئا من حيث انتهى المقبون السابقون. وسرعان ما اكتشفوا درجات سلم ضخمة إلا أنها كانت من العصر الرومانى وكانت جزءا من طبقة متأخرة جدا أقيمت على الطبقات الحثية. وكانت المهمة الكبرى فى الأمام الأولى

هي إزالة رقانق العصر الروماني من أجل الوصول إلى الطبقات الأكثر أهمية التي كانت نفع على عمق حوالى عشرين قدما . وتحت إشراف جريجورى ، وهو ملاحظ عمال قبرصى اسندمه هو جارت خصبصا لهذه المهمة ، اسندم الرجال الحبال والعتلات وأخذوا يزبحون ألواحاً صخمة من الأسمنت الروماني ، كان الجمع يتصايحون وبصرون الأوامر فى نفس واحد . وكان لورانس يستبفظ فى الفجر ليتناول طعام الإفطار من الخبز الذى شبه المطاط والذى كان يصعه طاهيهم الحاج ولبد الذى كان أيضا يعمل ترجمانا ومستخدما يفضى المهمات المختلفة . وكانت شخصية الحاج مميزة ، إذ كان رجلا من أهل المدن مفتول العضلات من حلب ، وصره على أمانته وإخلاصه وتفانسه فى العمل ، إلا أنه كان كثير المكاره ، خاصة بعد احسنانه الخمور القوية وكان كثر ما يفعل هذا . كان موطفا سابقا عمل ترجمانا فى الفنصيلة البريطانية فى حلب ، وكان فى الأربعين من عمره . وقد قيل إنه وبينما كان فى حاله سكر شديدة ، حدث وأن منع دخول فوافل الجمال إلى حلب من بوابة أنطاكية بأن أطلق النيران على الجمالين من سطح منزله . وكان أبضا قد ضرب ضربا مبرحا من خمسة إخوة لامرأة كان على علاقة سرية معها ، وقال إنه أطلق النيران على أربعة منهم فقتلهم ومن ثم النجا إلى جرابلس هربا من النار حيث أصبح طاهيا ويضع مسدسه فى حزامه . ورغم أنه كان طباحا ماهرا بأسلوبه الخاص ، فلم تعد مهاراته صاع الخبز بدون فرن ، حيث كان يمكن للفريق استلاع خبزه فقط بإضافة كميات كبيرة من أحد أنواع المربى النسعة التى كان هو جارت قد أحضرها معه .

وبعد الإفطار ، كان لورانس وطومسون بسيران حتى الموقع حيث يكون الرجال قد بدأوا العمل فى حوالى الخامسة والنصف صباحا . وأخذوا يقبون فى الأسابيع الأولى عند قاعدة درجات السلم حيث لم يقرب المنقبون السامون هذه المنطقة ، وكان الفريق يعتقد أن القصر الملكى يقع هناك . وقد وجد لورانس التنقيب الفعلى «متعة كبرى» . كان الرجال عادة يعملون فى مجموعات كل مجموعة من أربعة وكان كل فريق يتكون من حفار وجارف واثنين من الرجال يجمعون النفايات فى السلال «المقاطف» ويلفون بها فى النهر . وكان الجميع يتقاضون أحورا متساوية إلا أن معظمهم كان يطلب وظفنه الحفر التى كانت أسهل المهام ومعها الاحتمال

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنقيش أكسفورد وكركميش

الأقوى للكشف عن «الأسيتكات». كان هذا الكشف حافزاً كبيراً إذ كان مكتشف «الأسيتكة» يُمنح بقشيشاً حيث تنعكس أهمية الأثر على المبلغ الذى يتقاضاه. ومع اقتراب أعمال التنقيب من النهر أصبحت الاكتشافات أكبر قيمة، لذا كان رجال النفايات يولون اهتمامهم لما قد يكون الحافرون أو الجارفون قد غفلوا عنه. وقد أظهر لورانس تمكناً كبيراً من فهم نفسية الرجال بأن استحدث نظاماً يقضى بأن يطلق ملاحظ العمال الرصاص إعلاناً عن كل اكتشاف، وكان عدد الطلقات يختلف باختلاف أهمية الأشياء المكتشفة؛ فكانت قطعة من العمل المنحوت يعادل طلقة بينما كان العمل الكامل يساوى سبع أو ثماني طلقات. وقد نظر الرجال إلى جوائز الطلقات كشرف أعظم من البقشيش التى كان يصحب الكشف إذ إنه رغم كل شيء، فقد كان البقشيش مجرد نقود، وكان المكتشفون يتحادلون بشدة مع الملاحظين بشأن عدد الطلقات التى يستحقونها حتى كان الأمر يصل أحياناً إلى حد تبادل اللكمات. وكان الدين لا يحصلون على أية طلقات لعدة أيام يفجرون فى البكاء. وسرعان ما برهن لورانس على أن سر قوته كان مقدرته على حفز العمال، وكان كثيراً ما يحول العمل إلى لعبة بأن يشير الحفارين على الجارفين وناقلى النفايات حتى يأخذ كل فريق، بمن فيهم هو، فى الصياح والجرى بحيث يجز عمل يوم كامل خلال ساعات.

وبحلول الساعة الثامنة صباحاً كانت تُشاهد صفوف من النساء والأطفال فى ملابسهم الحمراء والزرقاء الزاهية وهى تخرج من القرى الواقعة على سهول النهر تحمل أواني اللبن الرائب فوق رؤوسها. وكان هذا الوقت من اليوم يستهوى لورانس حيث إن الحرارة الشديدة لم تكن قد بدأت وحيث يكون الرجال نشطاء بدرجة كافية تسمح بتبادل الأحاديث والغناء والعزف على مزامير الرعاة. ورغم الثقافة العربية المهيمنة على هؤلاء الرجال، إلا أنهم كانوا خليطاً من الشعوب، الأكراد، والشراكسة والعرب والتركماني وكانوا أحياناً يتحدثون ثلاث أو أربع لغات وأحياناً يخلطون جملاً من كل تلك اللغات معاً. وكان لورانس الذى تلقى دروساً فى العربية المكتوبة من الأنسة فريدة العقل فى جبيل قبل أن يلتقى بهوجارث يجد لهجتهم العرسة «كريهة» وغير مفهومة تقريباً. وبينما كان الرجال يعملون، كان لورانس وطومسون - الذى كان يتحدث العربية أفضاً - يشغلان نفسيهما بقاس

الأعمق وأخذ البصمات ونفل النقوشات ورسم الاسكتشات والتصوير . وسرعان ما تحققا أنه لا يوجد عمل كاف لكليهما . لذا قررا تقسيم الوقت إلى يوبات بالتبادل مع فترات في المنزل يفحصان فيها ما تم اكتشافه . وكان الرجال بنتهون من عملهم في الخامسة ، ويرجع لورانس إلى المنزل لبيكتب السجل اليومي وقوائم الموجودات ويفحص الفخاريات التي عثروا عليها أثناء اليوم والتي كانت عهدته الشخصية . وقد خدمته ذاكرته الرائعة ، فكان بإمكانه أن يجانس بين الكسارات بشكل شبه فوري حتى ولو كانت قد اكتسفت - على مدى أشهر متفرقة . وكان ذا مقدرة على تذكر التفاصيل المعقدة للطبقة التي تم اكتشاف القطع بها حتى وإن لم يكن هو نفسه الذي اكتشفها وفيما بين السابعة يكون الحاج قد فرغ من تجهيز الطعام الذي كان محدودا حتى طرأت لهو جارت فكرة انبياع الخبز من الأتراك . وحدث أن كان الأسى يتملك من لورانس ورفاقه حينما أفرغ الطاهي وعاء كاملا من بودة الكاري على وجبة الأرز واللحم حتى إن لورانس قال «إله كان مثل تناول لهب مخلوط بالسلطة . إن الاثنين الآخرين ستيكبان من آلام في كبديهما» .

ونعتبر إشارته إلى « الاثنين الآخرين » هامة ، حيث إنه رغم حالة الرضى التي اعترته في كركميش إلا أنه من الواضح أنه قد عاود ارتداء معطف العراية الذي صممه لنفسه . فالتأكيدات المتواصلة في خطباته على تمرده وتميزه وعظم قوة احتماله كانت في الواقع نتاجا لحالة عدم رضاء عميق عن النفس . فعلى حين امننعت أسنان هوجارث عن مصغ الحبز « المطاطي » مثلا ، وكان طومسون يأكل القدر القليل بصعوبة ، كان لورانس في حالة « ازدهار » ، كما أنه كان الوحيد من الثلاثة الذي ينام الليل بعمق لمقدرته الخاصة على النوم في أيه ظروف (هذا على الرغم من أنه كان قد طلب بقاء كوخ له في حديقة المنزل تحت رعم عدم تحمله الضوضاء) . وقد كان هو الذي ثبت الأبواب والنوافذ والأرفف في المنزل لأنه كان الأكثر قدرة على عمل هذه الأشياء ، ومن الواضح أنه هو الذي كان يقوم بحل كل مشاكل الحفر نظرا لما له من مقدرة أفضل على « تركيب الأشياء وتحسينها » . أما هذه الهالة من السمو فكانت بالطبع متبناة - قوقعة لحماية ضعفه الداخلي - إلا أن العص وجد هذا الوجه مقلقا ومن بين هؤلاء إرنست آلونيان الذي زار كركميش تلك السنة . كان والد آلونيان أرميا يدير مستشفى حلب ووالدته أيرلندية ، أما

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنفيس أكسفورد وكركميش

هو فكان طالب طب وذهب في إجازة إلى كركميش حيث التقى بلورانس وشعر أنه شاب «نسج حول نفسه شرنقة، إلا أنه لم يكن لديه ثقة الرجل الناضج التي تمكنه من مغادرة الشريقة في الوقت المناسب». وقد وجد آلتونيان ذلك الشاب الهش الشاحب الصامت «متعالبا ومستحيلاً». «بالوحي الأكسفوردي الخالي من التعبيرات، والأعين المسدلة، والحديث الخافت المتمع؛ كان كيسيًا، لا شخصي، متيرًا للإعجاب، مقلقًا، وغير محبوب». كما اعتقد أنه متكلف وقال إن مقدرته كانت ستكون بناء لو أنه فقط «اعترف بقدرات الآخرين بأسلوب أقل إنكارًا». وكان لورانس يخشى آلتونيان الذي كان يتحدث العربية بطلاقة، وجمع بين خليط من السكان المحليين والأوربيين، وكان مثقفًا، وأمكنه أن يبصر من خلال كل أفنعه الكلونالية. أما لورانس فكان ببساطة غير مستطيع الاعتراف بمقدرة آلتونيان لشعوره في أعماقه أن كل الرجال كانوا أكثر منه «رجولة».

وأبقى لورانس على شعوره بالرهبة إزاء هوجارث معتقداً أنه «رجل رائع» خبرته الشاسعة عن الشرف ومقدرته على التحدث بوضوح بلغات ست ومعلوماته الموسوعية. ومن ثم، حاول باستمرار أن يحوز على إعجابه، وعلى سبيل المثال، فقد أفضه ذات مرة خلال رحلة بالفطار ليشاهد قرية حاروشيث مسرح أنشودة دسورا بالعهد القديم. ولحسن الحظ، فإن هوجارث كان يشاركه الإعجاب بالقصيدة وملاطه البهجة. وكتب لورانس وهو راضٍ إلى أهله قائلاً: «لقد سارت الأمور سيراً حسناً». ومن جهته، اعتقد هوجارث بإمكانيات لورانس كأثاري وظنه أفضل من طومسون في النواحي الأركيولوجية. ورغم أنه كتب فيما بعد عنه «أنه مساعد بحوز الإعجاب». إلا أنه شك في مقدرته على تشييد العمل قديماً. وقد لاحظ لنيارد وولي الذي حل محل هوجارث في كركميش في الموسم التالي أيضاً توجه لورانس الطائش اللامبالي وكتب يقول إن لورانس كان متقلب الأطوار فيما يتعلق بالعمل بشكل مثير للفضول: «كان إذا اسنير اهتمامه ذا مهارة متميزة، أما إذا كره شيئاً أو اعنفد بعدم أهميته تجاهله». وقال وولي إنه كان يجيد الانسجام مع العمال لدرجة أنه كان يعود أحياناً من جزء آخر من الحفريات ليجد لورانس جالسا مع العرب بنافش في موضوع عن التراث الشعبي أو إحدى اللهجات المحلية. وكان لا يمكن مثلاً أن يرتكب شخص مثل كامبل - طومسون الذي كان إنجليزيا منعاباً

ضيق الأفق لدرجة احتفاره للسكان المحليين مثل هذا «الخطأ». ومن ثم كان بإمكانه تسخيرهم دون تردد مما حار إعجاب هوجارث الذي كان يُكنى بن العرب «بملك الموت». وكتب لورانس عن طومسون قائلاً إنه كان «لطيفاً» و«ممنعاً»، كما أعجب بمعرفته اللغات السامية. وقد عملاً معاً، على حد قول هوجارث، باتساق ممتاز. إلا أن هذا كان يرجع إلى مقدرة لورانس على أن يسحر به الآخرين، وكان لورانس بحدم مصالح هوجارث إذ إنه كان له موقف تنافسي إزاء رميله الذي يكبره، وكان يسخر منه وبين نفسه من استعراضه لفتوة العضلية ولجموعه نأدفة ومسدساته وسبوفه وأدواته الخاصة بالمبارزة التي أحضرها معه إلى الموقع.

ورغم أن لورانس كان انزعاجاً نوعاً ما مع زملائه الإنجليز فقد كان يسر بالراحة مع العرب حيث كان ينظر إليهم نظرة أويية طيبة أو توفراطية. ولم تكن صلته بهم قائمة على المساواة. وكان ألبك كبر كبراند هو من علق فيما بعد على أن لورانس كان أكثر استعداداً لحب من هم أصغر منه سناً أو أقل منزلة. كما أن تحدث كبراً فيما بعد عن الإرضاء الذي كان يجده في العيش مع طبقات المجتمع الدنيا. بيد أن استجابته الأولية للعرب كانت استجابة جمالية فقد رأى فيهم الوسامة رغم أن غالبيتهم كانوا شديدي الخافة وكان بعضهم أطول منه. كما سحرته ثقافتهم، ومن ثم كرس نفسه لمهمة تعلم ما يتعلق بعاداتهم ولغتهم. فلم يكن فقط يحفظ أسماء جميع العمال، بل سرعان ما استوعب أسماء فبائلهم وأسرههم وطبيعة علاقاتهم. وقد أدرك لورانس بشكل شبه فطري أن الرجل في العالم العربي أكثر من مجرد فرد: فيما يعرفه هو أسرته وروابط قرانته. وسرعان ما أكسبته هذه المعرفة وضعا خاصاً بين السكان المحليين، وأصبح باستطاعته استعمالها استعمالاً مؤثراً كسلاح نفسي. فكان مثلاً يسخر من المتباطئين بأن يحكى بعض أسرار عائلاتهم. ورغم كون هذا عملاً غير أخلاقى، إلا أنه كان أسلوباً مؤثراً في الإدارة، وأصبح في خلال شهر من وصوله يحكم في المنازعات بشكل عسر رسمي وبحل خلافات التنازعات بين الحمارين والجرافين وناقلى الفيايات، ويفصل بين أعصاء الأسر التي بينها نار. ينصح رجلاً بشأن مهر عروسه، ويدفع الكفالة لأحر لبفرج عنه، ويعوم بطرد ناع دحان أرمنى شك فى أنه برعب فى شراء «الأنبيكة». وكان يزهو بأنه يضمم إصاباتهم وجروحهم التى كانت تحدثها الآلات والحجارة

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنفيس أكسفورد وكركميش

المتساقطة ويداوى لذعات العقارب. ومن ثم، بدا يتصرف كمسئول بريطاني عن إقليم نموذجي في إحدى المستعمرات الإمبراطورية النائية، يدير شئون سكانه المحليين. حتى إنه كتب قائلا: «كان على طومسون وأنا أن نكون أطباء وآباء روحيين ووكلاء للعمرسان بالنسبة للجميع». وقد يكون هذا ترديدا لمقولات المسئولين البريطانيين الكولونياليين المتأدبين الذين «يحملون عبء الرجل الأبيض»، فمثلاً، كتب لوالدته قائلاً عن الشعب العربي «إنه منير للعجب وأفراده جد بسطاء، إلا أنهم يملكون ذخيرة من الصراحة وحسن الفكاهة الطفولي اللطيف». أى أن العرب، طبقاً لهذه النظرة كانوا «المتوحشين النبلاء». وعلى حين أنه في عام ١٩٠٩ امتدح تأثير الإرساليات الأجنبية بعملها على «تمدبن» العرب، إلا أنه أصبح بدورها لتعريفها إياهم بالأفكار الأجنبية الغربية، الأمر الذى يؤدي إلى التأثير «الفج» على الثقافة التقليدية وذلك لأن العربى المتعلم «الفج» العالم بشئون ديناه والمتطلع إلى قوة خارج نطاق تحكمه يمثل تهديداً. ومن ثم، كان العربى التقليدى «السبيل» الذى يعرف مكانته ويتعامل معه باحترام مباشر غير واع ولا ينحذى أبدا حقه فى الهبمنة شخصاً أفضل. وبما أن لورانس كان هو الذى يستأجر الرجال للعمل ويفصلهم، فقد كانت له السلطة الكاملة على مقدراتهم، وقد استمتع دون أدنى شك بتلك السلطة إذ كتب يقول: «إنه لشئ عظيم أن يكون الإنسان مستخدماً للعمالة». وكان يبذل جهداً وعناية فى اختياره للعمال الجدد، ويرفض الكثيرين، ليس على أساس كونهم كسولين أو غير أكفاء، لكنهم لأنهم كانوا يبدون وقورين أو متأدبين أكثر من الحد المطلوب، أى أنهم كانوا يفتقدون بساطة الأطفال المتطلبة فى «المتوحش النبيل». ولسوء الحظ، فلم تجد معاييرهِ الجمالية إذ نشب فى شهر مايو خلاف خطير بين أولئك العمال لم يحسمه سوى فصل حوالى ثلاثين منهم أى ثلث قوة العمل تقريرا. وقد أوضح لينارد وولى أن لورانس لم يكن بحب رجاله فى كركميش - جرابلس رغم ولعه الأنوى بالأعراب ونفاقتهم إذ كان له صديقان فقط وهما الملاحظ المحلى أو حوجة - حمودى، والسقاء سلم أحمد المكى بـ «داهوم».

وكان حمودى، وهو معامر يتفاخر بجدوره البدوية، قد عاش شبانا طانشا وتورط فى عديد من منازعات الدم والنار. وسبق أن أعلنت السلطات التركية أنه

حارج على القانون فاختبأ فى النلال لمدة سنوات ثلاث كان بزور خلالها قربته متخفيا . إلى أن صدر عفو عنه عام ١٩٠٨ وعاش حياة رنبية، حنى أنى هو جارت وافتتح عمليات التفسب فى كركميش، وسرعان ما لفت حماسه انتباه هو جارت فاحناره ملاحظا للعمال . كان طويلا رفيعا، ذا وحه مستطيل نحيل ومظهر مؤثر بمعطفه الاسنراكان ذى الأكمام الطويلة وعمامته الحمراء . وكان لا يذهب إلى العمل أبدا دون أن يتمنطق مسدسه، وكبرا ما كان يردد أنه لو تملك مائة جنيه فقط لاشترى حصانا جيدا وبندقية وهرج الحياة المستقرة «سأقتل رجلا أو اثنين ثم ألتجىء نانية إلى النلال، وبحق الله سأكون أسعد حالا من الحياة كالبقرة داخل الجدران» . وإن كان إعجاب لورانس بحمودى فد أفسده أنه وجد أن «حديثه يبعث على الضجر الشديد» وأنه «لزوج كحيوان رخو» فلم يفسد أمر كهذا أحاسيسه نجاه داهوم الذى يطهر لأول مرة فى بونيه عام ١٩١١ كسائق حمار فى الرابعة عشرة من عمره أحبر على تحرع مسحوف مسهل Seidlitz Powder نحاشيا للضرب أو السخرية، وكجزء من حيلة لعبها على شرطى الدرك التركى، وأيضا على أنه يعلن، مثل فرايداي تابع روينسون كرورو أن الرجل الأبيض ساحر «خطير جدا لأن باستطاعته أن يحول الشخص فجأة إلى فرس أو قرد كبير» . إلا أنه يظهر فى خطاب آخر كتبه بعد ذلك بأيام «كشخصية مثيرة للاهتمام، وباستطاعته القراءة قليلا»، وأنه أكثر ذكاء من «عامية الجند»، وقد أبدى رغبة لإنفاق النقود التى يتكسبها فى كركميش ليلتحق بمدرسة كى يصبح عربيا نصف «فج»، أى النمط الذى كان لورانس يبعضه . وفى الواقع، فقد وجد لورانس نفسه منقسما أيدولوجيا تجاه داهوم، فعلى حين أعلن «بمالغة متكلفة» أن «العرب فى حالتهم الخام أفضل ألف مرة» إلا أنه اعترف أن حياة «العربى الخام» كانت «طاحنة بشكل شبع» . لا تناسب سوى «المستوى المنخفض للعقول الفروية المتدنية» .

وخطابات لورانس، منتقد عصر الهضة و«عصر العقل» بالتساوى، فى تلك الفترة تكشفه فى أكثر حالات تناقضاته مع نفسه . فقد انتقد منلا «الأجانب الذين يأتون ها ليعلموا الناس والأحرى بهم أن يتعلموا منهم»، إلا أنه يعلن بزهو فى نفس الوقت أنه قد علم داهوم أن يستخدم عقله بجانب غرائزه . ورغم أنه قد أخبر والدته مستهجا أنه لا يوجد «بعد تأثير أجيبى» فى الإقليم، إلا أنه تجاهل التأثير

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنفيس أكسفورد وكركميش

الواضح لشخصين إنجليزين. فقد كتب يقول: «إن استطعت فقط أن تشاهدى التدمير الذى أحدثه التأثير الفرنسى بدرجة أقل من التأثير الأمريكى، فلن تتمنى أبداً أن يمتد هذا التأثير». إلا أن الشهوة الكولونيالية «لتحسين الأفراد كسبت الموقف فى حالة داهوم، ففى غضون شهرين، كان لورانس يرأسل الإرسالية الأمريكية فى جبيل لترسل له كتباً لتعليم داهوم. وطلب أن تكون هذه الكتب «عربية» لا «أجنبية» ولم يلاحظ لورانس فى هذا تناقضاً مع «العربى الخام» الذى كان قد دافع عنه بشدة منذ شهر واحد فقط. فالبينة له، كانت «لمسة» الأجانب الآخرين، خاصة الفرنسيين منهم، هى المفسدة إذ كتب يقول: إنه لا يرغب أن بفعل مع داهوم أكثر من إعطائه الفرصة لتحسين نفسه. ويمكن للمرء هنا أن يقول إن هذا ما اعتقدت الإرساليات الأجنبية أنها تفعله تحديداً. إلا أن لورانس استطاع بطريقة سحرية حذف نفسه من المعادلة لاعتقاده أن أثره كان طيباً خالصاً. وهذه النظرة بدأت من فرضية كمال الرجل الإنجليزي. فلا يمكن للعربى أن يطمح أبداً أن يكون إنجليزيا، إلا أن عليه أن يكون «إنساناً جيداً من نوعه». ومن أجل تشجيع هذا، اعتقد لورانس أن على الإنجليزي تعلم لغة العربى واستيعاب عاداته والإعجاب بتقاليده وعبر عن هذا بقوله «الإمساك بخصايص من حوله من الناس: حديثهم، وعادات تفكيرهم؛ وسلوكهم تقريباً». ولدى الانتهاء من إنجاز هذا، يصبح بإمكانه «توجيههم، وإرشادهم وفقاً لإرادته». وكان لورانس يزدري الأساليب الكولونيالية الأخرى، خاصة أسلوب الفرنسيين، لأن الفرنسى، على العكس، وضع نفسه فى موضع النموذج الذى يجب محاكاته: فبدلاً من أن يتعلم هو العربية، كان يشجع العرب على تعلم الفرنسية؛ وبدلاً من تعلم عادات العرب وتقليدهم، شجع العرب على محاكاته. واعتقد أن نتيجة لأسلوب كونياليته الخاص سيكون هناك شعب له نماذجه الثقافية المميزة وفى نفس الوقت يصبح تحت الهيمنة البريطانية بشكل غير معلن. أما الأسلوب الفرنسى فقد أوجد أساساً أصبحوا «مبتدلين»، وشعباً متناقضة ليس باستطاعتهم الوصول إلى المستويات الأوروبية المرتفعة فى الوقت الذى يكونون فيه قد تخلوا عن كل موروثةاتهم. وكان لورانس شديد الحرص على تحاشي مثل هذا الموقف بأى ثمن. ونظراً لأنه اعتقد أن داهوم مادة ممتازة للتحسين، فقد علمه، ضمن أشياء أخرى، التقاط الصور فى

الموقع . بيد أن وولى وجد داهوم شخصا ذا ذكاء محدود بشكل مؤكد لدرجة أن غطى هذا العيب على شدة وسامة ملامحه . فقد كان جماله الجسدى ، لا مفدراته على العقلنة ، هو ما احتفى به لورانس ، حبنا ، وبعد عامين من هذا ، بحث له تمثالا وهو عار ووضعه على سطح منزله . وقد أبدى وولى ملاحظته ، بشكل غير مباشر ، على أنه ، ورغم عدم اعتراف لورانس بأية مشاعر ود تجاه أى شخص فقد كانت ثمة «مشاعر حب عميقة تعتمل داخله تجاه أفراد معينين» . وببساطة ، فقد وجد لورانس فى داهوم ، أو سليم أحمد (س . أ) حب حيانه العظيم .

حينما رحل هوجارث وجرجورى فى ٢٠ أبريل ، اتخذت أطوار لورانس العربيه شكلا مركبا ، فنراه يترك المنزل وينام فى الموقع . إما على نل الركام أو فى خندق ، ولا بد وأن هذا التطور قد أصاب العرب بالدهشة . اعنفد لورانس أن هذا بقربه منهم ، رغم أنهم أنفسهم ما كانوا ليحلموا باليوم سوى فى منازلهم ولم يكن التقب يسير سيرا حسا إذ كان بكلف أربعين جنيها اسر لنبيا فى الأسبوع إلا أنهم حتى تلك اللحظة لم يكن لديهم ما يعلنون عنه من اكتشافات سوى رأس أسد غريب ، ونقش نافر على البازلت ، وأكوام من المخاربات . ولم يتم العثور عن نفوشات حيثية . أو هبروغليفية . وحينما حل شهر مايو ولم يكونوا وعلى مدى أسبوع كامل ، قد عشروا سوى على عملة رومانية ، وجزء من شعر عنق أسد ، وأساس لحائط بيرنطى ، بدأت الفئوس تصطدم بطبقة من الصخر الصلد السفلية ، وكانوا على وشك التخلي عن مواصلة الحفر . وفى ظل ظروف اليأس تلك ، زارتهم جبرترود بل ، وهى مسنعية وأركولوجية متميزة ، وكانت قد وصلت وهى ننوع أن تلتقى بهوجارث وكانت جبرترود بل من نوع السيدات البريطايات المتسلطات اللاتى تمكّن بفضل مكانتهن الراقبة فى المجتمع وتصميمهن من شى طريقهن إلى عالم الرجال . وكانت بل ذات نفوذ مؤثر ومن ثم خشى لورانس إن هى بعثت بتقرير عن الحالة الفعلية للتنقيب فى الموقع أن يغلق تلقائيا . وكان قد بدأ بتلذذ بحياة التراخى والكسل هناك ، ويأمل فى العودة لموسم قادم . لذا كان من المفهوم أن يتخذ موقفا دفاعيا عن الأنسة بل . كان لورانس يرى أنها لطيفة بشكل ما لكنها غير جميلة «إلا إذا أحف وحدها وراء حجاب» ، كما أنه وجدها فى السداه جد مربة لصعوبة إرضائها . وحينما انتقدت الأسلوب الذى يسر به

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتنفيس أكسفورد وكركميش

التنقيب حاول هو وطومسون «هرسها»، باستعراضهما لعملهما الغزير، والتسارع فى الحديث عبر متاهات من المواضيع مثل المعمار البيزنطى، والتراث الشعبى الإغريقى، وأناطول فرانس، والتركيبات اللغوية العربية، وأسعار ركوب الجمال. وقال إنه بعد تسعين دقيقة وجدت الأنسة بل سعادة فى تناول الشاى والعودة إلى خيامها وهى تتمتم «إنها فعلا المعجزات». أما الأنسة بل فقد كتبت فى مذكراتها ببساطة ودون الإحساس بأن هناك خلافاً، إنها قد التقت بطومسون، وشاب آخر يدعى لورانس الذى تنبأت له أن يصبح رحالة، وأضافت قائلة: «لقد قدما لى عرضاً عن حفرياتهما وما عثرا عليه، وقضيت يوماً لطيفاً فى معيتهما».

بيد أن أسوأ مخاوف لورانس تحققت فى شهر يونيو حينما تلقى طومسون برقية من السير فردريك كنيون، مدير المتحف البريطانى، لتخبره بأن مجلس أمن المتحف غير راض عن نتائج التنقيب وبالتالى فلن يكون هناك موسم تنقيب آخر. ولم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى تسوية الحفر. وترميم الأوانى التى بالإمكان ترميمها، وإنهاء العمل بالموقع. وفى شهر يوليو انتقل طومسون إلى تل الأحمر على الفرات لفك شفرة بعض الرموز الحيثية. ومن هناك رحل لورانس سيرا على الأقدام لزيارة أورفه ومشاهدة حران وبيره چك وتل بشار أو المنطقة التى ادعى أنه تعرض فيها للهجوم عام ١٩٠٩. وكانت نهاية تلك الرحلة مخزية كاسبقاتها حيث عاد متثاقلاً بعد أقل من أسابيع ثلاثة إلى جرابلس وقد أنهكته الملايا والدوستاريا، وامتألت يده باللدغات المتقيحة، وتمزقت قدماه مرة أخرى. وخرجت القرية كلها تقريباً للترحيب به. وبعد مجلس استمر ساعة أحضر له حمودى الخبز والبيض المقلّى والزبادى وتركه ليأكل وحده. وفى تلك الليلة نام على السطح مصاباً بصداع واستيقظ ليشاهد شروق الشمس على السهل ما بين النهرين وهو محموم. وترنح يسير بتصميم إلى كركميش معتزماً قياس عمق بعض الخنادق، وحينما تبعه حمودى كى يساعده انتابته نوبة غضب شديدة وبهره بصوت عال ليعود من حيث أتى دون سبب واضح. وحينما وصل إلى تل الركام خر ساقطاً على ظهره ممدداً ورقد هناك مدة سبع ساعات ونصف يبلله العرق البارد ويكاد ينشق رأسه من الألم. وحينما استجمع قوته ليقوم، دهشه أن يجد أن الساعة كانت الثالثة عصراً. ثم ترنح فى اتجاه الخنادق ومعه شريط القياس

إلا أن بعضها كان عميفا ولم يكن لينق بنفسه أن يستطع قباس عمفها دون السقوط أسفلها. وكانت رحلته عائدا إلى قرية جرابلس إحدى أكثر رحلات سيره مشقة على الإطلاق. فقد قطع فيها ثلاثة أرباع ميل في ساعتين. وفي هذا المساء خط بين الخطابات بيد ثقيلة لدرجة أنه كاد لا يقوى على الإمساك بالقلم وأرسل بها عداء إلى بيته حيث ليستدعى له عربة ويطلب مساعدته الحاكم والطبيب المحلي. وعاده أعراب كثيرون من بينهم داهوم إلا أن شدة المرض أعجزته نفريا عن رؤيتهم. ووقد منبطحا في اليوم التالي في منزل حوجة، نزعه بوبات الإسهال التي حتمت عليه أن يندفع إلى الخارج لفضاء حاجته. ووصل به الحال لدرجة أن أغمى عليه في أحد الممرات وجرح خده جرحا عميقا على صخرة حادة الحواف. وفي المساء، أراحته مرة أخرى زيارته من داهوم. ولم يظهر العرب الفادمة من بيرة جك في اليوم الثالث وخشى لورانس أن يكون العداء قد فر بسقوده. ورغم أن حمودى كان يبذل جهده من أجل راحته إلا أنه وجد أنه لا يطق صبرا على هذا «الإنسان المضجر البشع». وكان من نواعت ضيقه بأسلوب حكا تكراره كل جملة خمس أو ست مرات موحيا بضعف لغة لورانس العربية، مؤكدا على كونه أجنبيا. ومن المحتمل أنه نظرا لضعفه فقد كان من الصعب فهم مايقوله بالعربية. أما الحقيقة، فإنه كان مدينا لحمودى بحياته.

وبينما كان لورانس راقدا في شبه عيبوبة، كان حوجة يعود مع الرأي العام. فقد نصحه جيرانه الذى عمل غالبيتهم فى الحفريات بواقعية وحشية أن يلقى به إلى الخارج إذ إنه لو حدث ومات الإنجليزى فلا بد وأن نُهم حمودى، فاطع الطريق سابقا، بأنه دس له السم ومن ثم يلقى القبض عليه ويرج به فى السجن، إلا أن حوجة أرسى قواعده: فلو أنه طرد لورانس لما كان هذا انتهاكا لمبادئ الضيافة الإسلامية، إلا أن هذا سيكون إهانة شديدة لصاحب عمل فد يقدم له وطيفة فى المستقبل. ولابد أن لورانس قد استمع إلى بعض هذه الأحاديث. لأنه أعطى حمودى خطابا موجهها إلى والده يقرر فيه إنه فى حالة وفاته لا نتحمل حوجة أية مسؤولية. وظلت حياته معلقة بخيط رفيع لمدة أيام ثلاثة. ثم تحسنت حالته فلبلا فى الأول من شهر أغسطس. وأجبر لورانس نفسه على التحرك نحو البهر بصعوبة مع فترات توقف للراحة للاغتسال الذى كان يحتاجه بشدة. وصل العداء فى

الفصل السادس: هوجارث يذهب للتفتيش أكسفورد وكركميش

الساعة الرابعة والنصف عصرا من بيهره جك دون عربة وقال إن الطبيب المحلي والحاكم رفضا المساعدة. ومن ثم، وجد لورانس نفسه في مأزق كارثي وكان عليه أن يواجه فترة انتظار قدرها أيام خمسة كي يرسل من يبعث برقية لإحضار عربة من حلب، أو ليركب حصانا إلى ممبج حيث كانت توجد عربات أخرى. بيد أنه كان عليه أن يتظر يومين كي يستجمع قواه. وبينما كان على وشك الرحيل انقلب عليه حمودى ورفض أن يعيره حصاه الذى لم يكن باستطاعته الوصول هناك بدونيه. وتربح لورانس وهو ثائر بسبب انقلاب كرم مضيفه المفاجئ غير تانسير ووصل إلى جزء آخر من جرانلس بمساعدة داهوم وتمكن من استئجار حصان لإبصاله إلى تل الأحمر حيث كان يأمل أن يقدم له أحد ما يركبه إلى ممبج. وكانت هناك مشكلة أخرى وهى عدم وجود نقود معه لدفع إيجار الحصان، إلا أن مالكة كان كريما وانتمنه على الحصان حينما أبلغه لورانس أنه سيفهم بتحويل النقود من البنك فى تل الأحمر ويرسلها إليه والحصان مع داهوم. ومن ثم، سافرا ليلا فى ضوء القمر ووصلا إلى جزء نهر الفرات الذى تقع عليه تل الأحمر ليحدا طريقهما وقد قطعت ميه نهر ساجور الذى فاض بمياهه. وعاص داهوم فى المياه وعبر سابحا وأحضر قارباً لنقل لورانس والحصان إلى الشاطئ الآخر، وهناك، تمكن لورانس من تغيير النقود فى أحد البنوك السورية وأرسل داهوم إلى بلدته سعيداً بعد أن منحه شلنين ونصف ورفقته حصان جاره. ثم رقد عاجزاً فى مزرعة للقنب حتى منتصف الصباح حين تمكن من استجداء ركوبة فى عربة بضائع متجهة إلى ممبج. وهناك، وبعد معاناة المشاحنات مع السائقين تمكن من استئجار عربة إلى حلب حث وصل يوم ٥ أغسطس وألقى بنفسه شاكراً فى فندق البارون.

وتناوت عليه هجمات الحمى رغم أنه تمكن من ابتياع بعض الأشياء من سوق المدينة مع الحاج وحيد، كما استجوب بعض البائعين المحليين بشأن آلة التصوير التى سبق أن سرفت منه، إلا أنه كان يجهد نفسه كثيراً وقد أصيب بشبه غيبوبة. ودات مرة، جلس لتناول الطعام فى الفندق وهو مصاب بالدوار، ثم استعاد إدراكه لفترة كافية أن سبب الحالس على المنضدة المقابلة داعيا إياه «خنزيرا» ومتسببا فى حالة هياح هائل. وكان الرجل يهوديا يونانيا. وأراد أصدقائه أن يجبروا لورانس على الاعتذار فى حين أن بعض مهندسى السكك الحديدية من الألمان البدناء أخذوا

جانب لورانس . وأخذ مدير الفندق يعدو بين الموائد وهو يعتصر كفيه . وبعد أيام ثلاثة استقل لورانس القطار إلى دمشق ، وفي يوم ١٢ أغسطس وعقب ليلة فظيعة أصيب فيها بالحمى أحر من بيروت . وتمكن أن يكتب في مذكراته : « السفينة مليئة بالناس ومن الواضح أن كلهم سوريون » و « غادرت بيروت الساعة ١١ صباحاً . انتهى كل شيء » . وتمكن من أن ينجو من أكثر سنوات حياته إثارة وحسماً بمعجزة . إلا أن كل شيء لم يكن قد انتهى . فقد كان طوال الطريق من جرابلس يحتضن خطانا من هوجارث يخبره فيه أنه ، ورعم كل شيء ، فما زال البحث جارياً بشأن موسم آخر في كركمبش . ومن ثم كتب لورانس الآتي : « إنها أفضل أنباء سمعتها منذ مدة طويلة » .

المجلد الثاني

البارون والنظام الإقطاعي

كركميش ومصر

١٩١١-١٩١٣



عاد لورانس مرة أخرى

إلى جرابلس بعد أن شفى من

مرضه . وكان قد تم إقناع السير

فريدريك كينيون باستئناف عمليات

التنقيب ، ويرجع هذا جزئياً إلى ضغط

الحملات الصحفية التى قاد الكثير

منها هوجارث بماله من نفوذ .

وفى أواخر شهر يوليو نُشر خطاب فى صحيفة «النايمز» بعنوان «التحريب فى أعالي سوريا وما بين الهيرين» كان له أثره مما آثاره عن الشيفونية البريطانية إذ أوحى بأن حجارة كركميش القديمة كانت تستعمل فى بناء خط سكك حديد برلين/ بغداد الذى كان قد أوشك على الوصول إلى الفرات . ورغم أن الخطاب نسب إلى مجهول فقد كان كاتبه هو لورانس فى محاولة منه لاستغلال الرأى العام لصالحه باستخدام إعلام المؤسسة . ولم يوافق كينبون فقط على إعادة فتح الموقع بل إنه أيضا ضم لورانس للفريق المساعد براتب قدره ١٥ شلن يوميا . وعين صديق لورانس القديم ليارد وولى مديرا بدلا من كامبل - طومسون الذى كان قد قرر الزواج .

ولدى عودة لورانس كان أثر شركة السكك الحديد الألمانية واضحا ، إذ إنها كانت تقوم بتشبيد سفائف لاسنعمالها مخازن ومعسكرات للعماله استعدادا لإقامة الجسر الحشبي الذى كانوا على وشك سائه . وكان راف فونسانا الفمصل

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

البريطاني في حلب قد أبلغهم بأسلوب تعوزه الشقة أن موقع كركميش ملكية بريطانية وأن عليهم ألا يلمسوا أى حجر أو يصل عشب هناك. ولم يعلم الألمان لدى موافقتهم على تحريك الكوبرى بقدر طفيف أن ادعاء فونتانا زائف. وكانت مهمة لورانس أثناء شهر نوفمبر أن يكتشف من هو المالك الفعلي للأرض الأمر الذى اقتضى منه العوص فى محفوظات الحكومة فى بيده جك بمساعدة الحاج وحيد و مترجم من القنصلية البريطانية فى حلب. وكان اكتشافهم غير مشجع إذ إن المنحف البريطانى كان قد اشترى فقط أربعين دونم من إجمالى مساحة قدرها ١٦٠ دونما وكانت المساحة الباقية وقدرها ١٢٠ دونماً مملوكة لشخص من الأهالى يدعى حسن أغا. وقد توقع لورانس أن يؤدى هذا الموقف إلى مشاكل فى حينها. بيد أن إقامته كانت قصيرة حيث إنه كان قد قام بترتيبات للعمل تحت إشراف البروفسور فلبندرز بيتري فى مصر من أجل تحسين معلومات عن الأساليب الميدانية للتنقيب. وفى يوم عيد الميلاد من عام ١٩١١ غادر هو والحاج وحيد جرابلس بعربة خيل وسط أمطار شديدة. وبينما كانت العربة تعبر كوبرى للمشاة على نهر ساجور

انزلقت في النهر وغمرت المياه أحد الخبول وثلث حركة الناني بينما أخذ الثالث يضرب الهواء بأرجله بجنون. ولحس الحظ، اندفع لورانس والحاج، اللذان كانا يسيران في المقدمة، إلى الماء لإنقاذ أمتعهما، بينما حاول السائق مهتاجاً أن يرفع رأس الحصان الغارق. وتم إنقاذ الكثير من أمتعة لورانس، وعند مرحلة معينة أوشك الحاج على الغرق حينما انزلت قدمه وسقط رأساً على عقب في دوامة مائية واستغرق إخراج العربته ساعتين وسط هطول الأمطار الصقيعية. وحيث إن وجبة غذائهما تشربت بالمياه فقد اكتفى كل منهما بثمرة جوز وشراباً كمية هائلة من المياه العكرة. وفي هذا الصدد، قال لورانس «لقد كان عيد ميلاد لا تحصى ذكراه».

وفي ١٢ يناير لحق لورانس ببشرى في كفر عمار على بعد خمسين ميلاً جنوب القاهرة، ورغم أن لورانس كان قد حلم بمصر كصبي، إلا أن نظام البروفسور الصارم ومنهجيته لم ترق له مما نسب في كراهيته للعمل الذي كان يكتون بشكل أساسي من استخراج جنت محنطة من مقابرهما. وكان ببشرى، الذي التقى به لورانس لفترة وجيزة في محف الأشموليان، أنرز علماء الآثار في زمانه. وكان، خلافاً لهو جارت الأكسفوردي الأبوى المنرف، قد بدأ مساحاً متواضعاً دون دراسة منهجية، ووظف مواهبه العظيمة لتغيير أساليب علم المصريات. فقد كان المتخصصون في المصريات، قبل ببشرى، لا يتعدون كوبهم لصوص كنوز وفانس محترمين يعملون تحت هاجس اكتشاف المعابد وتهريب أعداد كبيرة من التماثيل لا حصر لها إلى المتاحف في الخارج. وكان ببشرى أول من لفت انتباه لورانس إلى تفاصيل الحفريات مثل النفوش وكسارات الأواني، أو أجزاء النماذج أو بقايا خاتم.. إلخ. وكأب أساليبه للتأريخ تتضمن الأسلوب الذي أصبح سائداً الآن أي «التدهور الأسلوبى Stylistic degeneration». وعن قرب، وجد لورانس في ببشرى قطعة أثرية «مثل الكاتدرائية». وحينما أتى لورانس إلى الموقع برتدى قميصاً واسعاً و«شورت» أحمر البروفسور أن «القوم هنا لا يلعبون الكريكت». ووجد لورانس رد الفعل هذا مبعثاً للنسبية إذ إنه كان برتدى نفس الملابس في كركميش. إلا أنه تحف أن ارتداء «الشورت» كان يعتبر انتهاكاً للوفار في مصر بيد أن الإشارة إلى الكريكت كانت مبعث سخرة لورانس الذي كتب قائلاً: «أعتقد أنه كان يعنى كرة القدم». ورغم أنه كان يعتقد أن سترى دوامتي وعنيد إلا أنه كان يكن له احتراماً كبيراً.

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

وأضمر لورانس عزوفاً شديداً عن المصريين الذين كانوا، خلافاً لعرب جرابلس، لا يمارسون اللعبة الكولونيالية التي يؤكدون فيها للرجل الإنجليزي أن قوته لا تنتقص من قدرهم. وقد وحدهم لورانس قبيح المنظر وقذرين ومتبلدين وعبوسين وتعوزهم حيوية رجال جرابلس. ولم يستطع التحدث إليهم بنفس «الألفة اللذيذة غير المفيدة» لأنهم كانوا إما أفضاظا مكفهريين يذكرونه بمكانته، أو أنهم كانوا «بستبيحون لأنفسهم حريات» ويتجاهلون مكانته. ولم يكن أى من هذين الأسلوبين مقبولا لديه، إذ إنه افترض أن على العربى أن يعامل الإنجليزي بصراحة جافة جاهزة نوحى بوهم المساواة دون تخطى الحدود إلى عدم الاحترام.

وفى مصر، كانت الهوة بين الأقوياء والضعفاء واضحة، أما فى الشام فكانت مستنرة بشكل مريح. إلا أن هذه التحيزات مضافاً إليها الحين إلى عودته لكرميش لم تتبسط عزيمته لدرجة أن أعجب به ينرى وعرض عليه راتباً قدره سبعمائة جنيه استرليني فى العام ليشرف على الحفريات فى البحرين أو فى مناطق أخرى من الخليج. ورغم إعراء هذا العرض إلا أن نداء سوريا برهن على أنه من القوة بحيث عاد لورانس إلى كركميش فى نهاية فبراير.

وكان على وولى أن يمكث بمصر حتى شهر مارس. وتلقى لورانس أوامراً بأن يمضى فى ساء منزل بعثة التنقيب كمقر دائم. ومن ثم استأجر بمجرد وصوله إلى جرابلس اثنين وعشرين رجلاً وبدأوا فى وضع الأساسات. بيد أن العمل توقف بسبب تدخل العريف قائد الحرس التركى الذى كان قد تموضع فى الموقع منذ زيارة لورانس الأخيرة. ومن ثم سأل العريف لورانس بأدب إن كان لديه تصريح ببناء منزل، وهنا أجابه لورانس بأن المسئولين قد حصلوا على تصريح وأن الحاكم المحلى على علم بذلك. وأجابه العريف قائلاً إن هذا قد يكون صحيحاً إلا أن ذلك الحاكم لم يعد موجوداً. ولم يكن هناك بديل من أن يوقف لورانس العمل وأرسل برقية إلى إسطنبول يطلب فيها تصريحاً. وبعض مضى أسبوعين كان لورانس مازال ينتظر النصريح. ثم سافر إلى حلب ليقابل وولى الذى كان قد وصل يوم ١٠ مارس منوقعا أن يجد المنزل معداً وتملكه الغضب حينما علم أن العمل لم يكن قد بدأ ومن ثم أرسل برقية إلى كينيون فى لندن يطلب اتخاذ إجراء. بيد أنه كانت ثمة

أخبار أشد سوءاً. فلدى وصول لورانس وولى إلى الموقع بعد أيام وشروعهم فى استئجار عمال أخبرهم العريف أن العمل محظور وأرسل وولى خطاباً قصيراً قاطعاً إلى الحاكم يطلب منه أن يمنع تدخل العريف، وبطراً لثفته فى تلقى إجابة سريعة شرع فى استئجار ١٢٠ رجلاً وبعد فترة وجيزة وصل العريف بخطاب بنص على أن الحاكم لا يعرف من هو وولى وأن العمل لا يجوز أن يبدأ تحت أية ظروف و«كانت هذه صدمة كربية» هكذا كتب وولى «فلا معنى تأجيل العمل ففط إهدار الوقت، لكن أيضاً سيدمر ثقة الرجال واحترامهم، وهو أمر له أهميته فى بلدة تفتقر إلى المدنية».

واجتمع لورانس وولى وقررا مواجهة الحاكم. وفى ١٧ مارس ذهباً ممتطين صهوة جواديهما إلى بيره چك على مسافة ٢٥ ميلاً إلى الشمال. وعبرا العرات، ونركا مطيبتيهما فى الخان، ثم سارا بنشاط إلى سرايا الحكم النى كانت نطللها قلعة من القرن التاسع عشر. وأرسل وولى ببطافته إلى مكتب الحاكم. ولما لم يتلق رداً، أرسل بطاقة أخرى بعد فترة. ومرت الدقائق دون أن ينلقى رداً. وشعر وولى أن هذه معاملة لرعاية بريطانيين لا يمكن أحمالها فافحز عاضاً واقتحم هو ولورانس مكتب الحاكم وحلس دون استئذان أمامه. ثم نساءل وولى، بقدر من التهذيب، عن سبب حظر العمل فى الموقع. وأجابه الحاكم، وكان شبحاً بديماً ذا الحبة صغيرة ويبدو عليه اللؤم، أن الفزمان الذى يسمح بالحفر فى الموقع قد منح لشخص بدعى السيد د. ج. هوجارث، على حين أن أيا من الرجلين الجالسين فى حضرتة لا بحمل هذا الاسم، ومن ثم، لا يمكن السماح لهما بالعمل. واحتج وولى قائلاً إن لديه خطايا من هوجارث ومن المنحف البريطانى، وبما أن تلك الخطايا كانت باللفظ الإنجليزى، تحالها المحافظ وأخبرهما أنه قد يستطيع السماح لهما بالعمل إن كانا على استعداد لدفع مرتب مفوض غير رسمى. وتأكد وولى ولورانس أن الحاكم سحث عن رشوة كبيرة. ولا نعرف ما تلى هذا على وجه الدقة. فقد ادعى وولى أنه قفز من مقعده وأمسك بمسدسه وصوبه إلى رأس التركى مهدداً إياه بإطلاق النيران عليه فوراً. بيد أن الأكثر احتمالاً هو أنه قد أخبره أن العمل سوف يبدأ سواء أراد ذلك أم لم يرد، ومن ثم أخبره الحاكم أنه سيمنعه بالقوة. وحبذا أن أجابه وولى أنه يأمل فقط أن باتى هو على رأس الجنود إذ إن هذا سيمنحه فرصة إطلاق النيران

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

عليه أولاً . فأجابه التركي «هكذا!!! إذن فأنت تعلن الحرب على الإمبراطورية العثمانية» . وكان رد وولى هو «ليس على الإمبراطورية العثمانية ، بل على حاكم بيره چك فقط» .

ولدى تحقق الحاكم من عدم انطلاء خدعته عليهما تراجع معلناً أنه لا يرى سبباً لئلا يبدأ العمل فى اليوم التالى . وكان لديبلوماسية التهديد بالقوة «سفن المدفعية» هذه أثر كبير على لورانس ، رغم احتقاره «لأوهام الجنس الحاكم» ، إذ إنه بدأ فى محاكاة الأسلوب الحاد لمديره الجديد ، مثل ما حاكى من قبل أسلوب هوجارث الرزمن . فكتب لإدوارد ليدزقائلاً : «إن وولى إنسان ممتاز حقاً . كان عليك أن نستمع إليه وهو يعلن أسفه لحاكم الإقليم عن كونه مضطراً لإطلاق النيران على جميع الجنود الذين يحاولون منع العمل فى كركميش وأسفه على أن الضحية الأولى ستكون العريف الصغير» .

وعاد الانان إلى كركميش منتصرين حيث كان جيش العاملين قد استعد بالمسدسات والبنادق لمواجهة الأتراك . ولدى رؤيتهم الرجلين الإنجليزين وقد عادا ممتطين جواديهما بخفة ودون أن يصابا بأذى ، هتف العرب بحماس صاحبه إطلاق النيران . وأطلق الحاج وحيد ، الذى كان وولى قد أوكل إليه مهمة الإشراف على العمال ، عشر طلقات من خلال سقف خيمته من بندقية لورانس ابتهاجاً بالمناسبة . واجتذبت الضوضاء مجموعة من المهندسين الألمان الذين اندفعوا لمشاهدة ما اعتقدوا أنه معركة لبصطدموا بموكب فرسان يرافق الحاكم نفسه الذى حضر لتقديم اعتذار رسمى وليؤكد للجميع أن بإمكانهم البدء فى العمل ، وغض طرفه عن مشروعية بناء المسكن رغم أن لورانس لم يكن قد تلقى الإذن بذلك من إسطنبول . ومن ثم عمد لورانس ، وقد ألهمته عدم المبالاة ، إلى الإبراق بصلافة إلى العاصمة مرة أخرى مقترحاً أنه قد يكون من المناسب أن يحصل على إذن ببناء المنزل قبل أن بكتمل البناء بالفعل .

وبهذا ، كسب البريطانيون الجولة الأولى . إلا أن الحاكم التركي سرعان ما وجد طريقة لنوجه ضربة إليهم . فقد شرعوا ، لفترة ، فى بناء المنزل ، واستخرج لورانس فسيفساء رومانية وجدها فى موقع على بعد ميل ذات ألوان رائعة ترجع إلى القرن

الخامس، وقام بتركيبها قطعة قطعة كأرضية لغرفة المعيشة. وأصبح منزل البعنة «قاعة من العصور الوسطى» التي طالما حلم بها مع ريتشارد - مبنى منسجاً أشيء حول صحن يحوى ما لا يقل عن إحدى عشرة غرفة منها غرفة مظلمة لتحميم الأفلام. ومارس لورانس الحرف التي كان قد تعلمها في صباه حيث نال من الاستحسان ما لم ينله في منزله. كما قام بصنع حوض استحمام وغطاء للمدفئة من النحاس المطروق، وصمم مفعدبن صغهما في حلب، وأقام أعمدة من البازلت وحليا للأبواب، وفيما بعد، وضع عبات عليا للأبواب على الطراز الحينى. ثم قام باختبار الستائر والسجاجيد وأوانى فخارية من بين الأوعية الحينية التي لا تقدر ثمن وطاسات للشرب ابتاعها بأموال البعثة من قرية محاورة، وإراحة لضييره. قرر لورانس أن يعبد إلى المنحرف أى شىء سبقى بعد انتهاء المهمة. ونصور الأوصاف المتاحة لورانس فى هذه الآونة كخبير منسرس فى السحاجيد والأطعمة العربية والقهوة والنحف الفسية والأشياء الأخرى. «الأشياء الجميلة التى يملأ الفرد بها منزله». وطبقاً لوولى ففد كان مطهر لورانس فى المساء يخلف تماماً عن مظهره فى الصباح كساب ذى شعراًشعت، أما فى المساء، فكان نصف شعره بعناية وبحلس أمام مدفئة الشتاء لبعراً... حتى إنه كان سدو شعره المصفف ومظاهر «الفخفخة» التى تحبط به، لا يمت صلة للورانس الصباح.

وكانت التحفة الفنية التى تنوسط غرفة الجلوس قطعه نسج مطرز من نصميم ويليام موريس أرسلت من أكسفورد وأصحت مصدر تسلية لا ينقطع للورانس. فحيما كان يصل زائرون من أوربا كانوا، دون استثناء، ننحاهلون قطع الأسجة العربية الرائعة التى جمعها، ويقفون محملقن فى قطعه موريس. وحسباً كانوا يتساءلون عن «البازار» الذى ابتاع منه هذا السيج المدهش، كان لورانس بحيب وقد تملكه البهجة «آه، بإمكانكم شراءها من شارع أكسفورد بظير شلبان قليلة للياردة».

وقد أبقى لورانس ووولى المنزل مفوحاً لاسنقبال أى قادم، وكثيراً ما كانا يدعوان المهندسين الألمان بأسلوب منحصر للطعام. ورعم أن مخاوف لورانس من أن تقوم الشركة الألمانية بنقل الحجارة القديمة إلى كركميش لاسنعمالها فى ساء

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

السكك الحديدية كانت هواجسه لا أساس لها، فقد استمرت كراهيته للألمان، وظاهرياً، كان يسوءه مهم أنهم لا يعرفون كيف يعاملون العرب، بيد أن السبب الحقيقي كان تطفلهم على مجاله الخاص وتكوينهم مركز جذب بديل للأهالي. وكانت مهارات لورانس تتركز في كيفية تعامله مع العرب، وهذه مهمة كان يؤديها وففا للتراث البريطاني للكلونيالية الأتوية التي تكون عبر القرون. أما الألمان، فكانوا يفصلون الأساليب التيونونية في الحكم، هذا رغم أن هدفهما كان واحداً في جوهره. ورغم أن لورانس حاول مخلصاً أن يرى الأشياء من خلال منظور عربي ونجح في هذا أكثر من كثيرين غيره، إلا أن أسلوب «التوحد مع العرب» كان أسلوباً للنحكم. فقد اعتقد أن العرب أسمى أخلاقياً من الأوربيين لأنهم «بدائيون» ومن ثم «أبرياء» دون أن يدركوا ذلك. أما حقيقة موضعه المتميز فقد قرره بصرامة حينما كتب «وحقيقة، فإن هذا البلد بالنسبة للأجانب أكثر روعة من أن تعبر عنه الكلمات. فالإنسان هنا سبد في نظام إقطاعي». وقد أخفى إحساسه التنافسي مع الألمان لأنهم كانوا في حالة تكافل: فقد كان المهندسون في حاجة إلى ما يرسفون به الطرف، وكان البريطانيون بحاجة للتخلص من الحجارة التي كوموها في الموسم السابق كي يحفروا تحتها. ومن ثم، تم الاتفاق على أن يحمل الألمان أحجار البريطانيين وبهذا يتخلص البريطانيون من الخلفات دون نفقات. وناسب هذا الترتيب الجميع باستثناء حسن أغا، المالك الجزئي للموقع، الذي شعر أنه قد اعندى عليه ومن ثم، دخل ذات يوم إلى المعسكر الألماني وطالب بضمن الأحجار وأصر الألمان على عدم قدرتهم على الدفع، وأنه إن تمسك بهذا فسيحصلون على الأحجار من جهة أخرى. وهرع حسن أغا إلى بيده چك ليشكو أمره إلى الحاكم الذي رأى في هذا فرصة للانتقام.

وعقب أيام قليلة، وصل رجل يمتطي جواداً ومعه استدعاء يقضى بأن يظهر لورانس أمام المحكمة الشرعية بتهمة سرقة ما قيمته ثلاثون جنيهاً اسرلينياً من الأحجار وبيعها للألمان. وكان الاستدعاء غير قانوني نظراً لأن الأجانب كان يستثنون من المنول أمام المحاكم الشرعية. إلا أن لورانس صمم على حضور المحكمة من باب المجاملة لأن التهمة كانت عبثية. وفي اليوم المحدد، ركب إلى بيده چك وقدم إلى المحكمة، وكانت جزءاً من سراى الحكومة، وثيفتين: موافقة موقعة من

حسن أغا يتنازل فيها عن أى شىء يوجد فى الموقع، وشهادة خطبه موقعة من رئيس المهندسين الألمان يقسم فيها أنه لم يدفع شبنًا فى مقابل الحجارة. كما كان فى حوزة لورانس أيضاً وناثق تخولهم الحق فى العمل فى كركمبش، ومن ثم اعتقد أن هذه الأوراق كافية لرفض الدعوى. بيد أنه لم يضع فى حسبانته ألا عيب الحاكم، لذا، فقد أصيب بصدمة حبيما أسرار الادعاء سنة شهود مسنعين أن بقسموا على أنه قد تم دفع مبالغ نظير اخلفات. وطلب المجلس أن يرى وناثق لورانس التى قاموا بمصادرتها على الفور تاركينه عاربا دون سند بيروقراطى. وفى تلك الليلة، حيما عاد إلى كركمبش، لم يكن سعيدا كما كان حيما غادرها فى الصباح، واستمر العمل كسابق عهده، إلا أن الحاكم أمر العريف بوضع حرس على البوابة. ومع هذا تمكن وولى من تخطى هذا الإجراء بأن استاجر سائقى حمير يعملون مع الألمان لإلقاء الحجارة بالقرب من موقع الألمان.

وفى اليوم المحدد للجلسة، شق وولى ولورانس والحاج وحسد طريفهم إلى بيهر جك ومعهم البنادق والمسدسات وكانهم فى طريفهم إلى غزوة بدوية. ولدهشتهم التقوا بحسن أغا فى طريقه عاندا من المحكمة وأخبرهم أن الجلسة قد تأجلت. إلا أن وولى لم يتقبل هذا، وتصور أن هناك معوقات أكثر، ومن ثم واصلوا سيرهم وطالبوا بمقابلة الحاكم الذى أخبره وولى أنه لا يمكنهم إيقاف العمل من وقت لآخر للحضور إلى بيهر جك وأصر على عقد الجلسة فى ذلك اليوم. وبدا الحاكم ودودا لدرجة أن الشك لم يخامر وولى ولورانس عن دوره فى المؤامرة. وفى قاعة الجلسة كان هناك جمهور غفير أتى لفضاء الوقت بيما كان الكاتب يدون ما يحدث بالتفصيل. ووقف وولى وأعلن أنه مسئول مسئولية تامة عن القضية وأن الادعاء ليس لديه شهود. وهنا، طلب المدعى التأجيل لاستدعاء الشهود، ووافق القاضى فورا على الاقتراح رغم الاحتجاج وولى السدبد. وهنا، نار غضب وولى ورفض الاعتراف بالسلطة القانونية للمحكمة للنظر فى القضية ونادى على الحاكم بصوت مرتفع. لدى ذلك، ضحك الفاضى وأخبره أن الحاكم كان هو من احتجر الأوراق التى تخولهم حق العمل فى الموقع. وهنا ففط، تحقق وولى من خلصة المؤامرة حبث كتب «لقد كنا ضحية خدعة، وطهر الآن دور الحاكم فيها، وطالما كانت الوثائق فى حورته، فأنا نحت رحمته». ورأى وولى أن الأمر يتطلب اللجوء

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

إلى ديبلوماسية البنادق، لذا، فقد أخرج مسدسه وأعلن أن القاضى لن يغادر قاعة المحكمة حيا إلا إذا أعاد الأوراق. وهنا، تجسدت انتسامة القاضى الساحرة على شفتيه وسقط جالسا فى مقعده. وأرسل وولى لورانس إلى مكتب الحاكم ليطلب الأوراق، وقد تذكر لورانس «أن وولى أبقاه جالسا فى مكانه، بينما ذهبت أنا إلى الحاكم وأوضحت له موقف القاضى السبى»، أما وولى فقد قال: «إنه قد غاب لمدة دقائق قليلة فقط ثم عاد ملوفا بالأوراق وهو يقول إن الملعون كان يحتفظ بالأوراق فى مكتبه». وحيما سأل لورانس إن كان قد واجه أية مشاكل أجابه «لم تكن هناك مشاكل باستثناء أن الحاكم أراد فسخ العقد مع حسن أغا».

بيد أن الأمر لم ينته تماما. فحينما وصل هوجارث فى مايو لتقييم الموقف، قام بزيارة الحاكم الذى قدم له اعتذاره الخالص وأخبر إياه بحزاع بأنه «استعمل سلطته لإبطال قضية ما كان بجوز أن ترفع». إلا أنه من الواضح أنه لم يخبر بهذا موكب الجنود الذين وصلوا إلى منزل البعثة الأحد التالى ومعهم ورقة ليطلع عليها وولى وكانت تنص على حكم المحكمة بالإدانة بدفع ثلاثين جنيها والمصاريف، وكانت تصرف وولى حازما، فقد قال فيما بعد «قمت بتمزيق الورقة وعاد الموكب أدراجه محبطا».

كان عزم كيسيون الأسمى هو الاستمرار فى التنقيب لموسم قصير فقط، ولم يكن قد تم اكتشاف سوى عن مخطوطتين. وفى مايو، أعلن هوجارث الأباء المدهشة عن تبرع شخص غبر معروف وهو رجل أعمال ثرى يدعى وولتر موريسون بخمسة آلاف جنيه استرلىنى دعما للتنقيب. أى أنه قد أصبح بالإمكان استمرار العمل دون توقف. ومن ثم، قرر لورانس ألا يعود لإنجلترا ذلك الصيف كما كان قد اعتزم، وأن يبقى فى الموقع لمراقبة الألمان. وكان أحد الأسباب الهامة لتعبيره خطته هو أن داهوم، الذى كان لورانس يرغب فى اصطحابه إلى أكسفورد، قد رفض الدعوة. وقرر لورانس تأجيل عودته لما بعد موسم الشتاء. ثم أوقف العمل فى الموقع فى يونية، وشعر لورانس بالارتياح وهو يودع وولى فى الإسكندرونه، حيث كتب «إننى حر مرة أخرى، وهذا حال يتحدث عن نفسه وعن مزاياه». واسنراح لأيام قليلة فى حلب، ثم عاد إلى جرابلس حيث تمتع بالاستفلال السام. وكان أول فعل له هو أن ينتقل داهوم إلى منزل البعثة بحجة مساعدة والدته الحاج

وحيد التي كانت تعمل بالمطبخ، إلا أن السبب الحقيقي كان رغبة لورانس في تسليية وحدته. ومن ثم، شغل وقته بإعطاء دروس في الحساب والجغرافيا، حيث تغلب دافع تحسين الآخر على إعجابه بالعربي «الحام». ثم اضطر للتوقف عن التدريس لإصابته بالمalaria، وما إن شفى، حتى أصيب داهوم، وانتقلت العدوى إلى زوجة الحاج وحيد ثم طفلها. أما الحاج فقد لزم الفراش فيما بعد لاضطراب أمعائه نتيجة ما تعاطاه من شراب ونولى لورانس الرعاية الطبية للجميع.

إلا أنه في نهاية أغسطس أصيب لورانس بالمalaria مرين متتاليتين فعدل عن قراره بالبقاء في جرابلس طوال الصيف، وانتقل إلى جبل على شاطئ المتوسط ومكث مع الأنسة هولز في مقر الإرسالية الأمريكية. حيث كان قد لقي نرحباً فيما مضى. وفي هذه المرة، اصطحب داهوم كطاه وخدام خاص. وفد أخبر روبرت جريفر فيما بعد أنهما قضيا صيفاً ممتعاً حيث كانا يتخفان كسانمي حمال، ويساعدان الفلاحين في الحصاد، ويسبحان، ويجوبان المنطقة. وقد وصف هذه الفترة في خطباته بأنها أروع صيف قضاه. أما شأن تخفيهما كسانمي حمال فأمر مشكوك فيه لأن لورانس، لم يكن يعرف رأس الجمل من مؤخرته، ولم تكن معرفة داهوم بأفضل منه. إلا أنه من المؤكد أن لورانس كان ينحول في جبل مرنديا الزرى المحلى وأنه ذهب للفرجة على قصر ابن وردان الشهير في وادي الـ Oromes، كما كان يسبح في البحر مع داهوم كل يوم تقريباً. كان في حالة نشوة. فقد كان حراً وحيداً سوى من رفقة الصبي الذي كان يهيم به. كان يأكل وبام جداً وبفراً في مكتبة الإرسالية ويمارس لغته العربية. وكان طوال حياته قد أخفى مشاعره تجاه الآخرين، وكبت أحاسيسه وتباعد عن الأفراد. أما مع داهوم، الذي كان «متوحشاً» لم يشب عن الطوق، تمكن من الافتتاح عليه بشكل لم يستطعه مع أى فرد في منل عمره أو جنسه أو مرتبته. كان لا يشعر بالتهديد معه بل بالتقارب، ولم تكن هناك حاجة في الواقع لأن يمثل دور المهرج أو يمارس «غرائه أظواره». ولم يشعر مع داهوم أنه خارج محاله مثلما كان يشعر مع الرجال التفليدين الأكثر ذكورة. كان يشعر بالارتياع المطلق معه لدرجة أنهما كانا يجلسان صامتين لساعات طويلة منسعين بدفء أحدهما الآخر وفي غير حاجة حتى للحديث. كانت قوته التي مارسها على داهوم عمسفة، ولاند أن الفنى قد بدا له «ساحراً» من أراضي عبدة، أنا روحياً

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

سحريا من النوع الذى يبصره المرء فى الأساطير فقط . ولم تكن العلاقة علاقة ندين ، وكان من غير المستطاع أبدا أن تكون كذلك . فقد كان الفرق الاجتماعى شاسعا . كانا كعبد من العصور الوسطى وسيده تقريبا ، أو على الأقل هذا ما تخيله لورانس الذى كتب فيما بعد عن هذه السنة قائلا : «إلا أننا هنا نعيش نظاماً إقطاعيا يمنح السيد حقوفا كثيرة ؛ ومن ثم فلبس لدى مشاكل معه» . فالصبي الذى كان لورانس قد امتدح قدرته على الكتابة والقراءة منذ عام ، ظل فى طوره «متوحشا» وكانت أكثر صفاته المحبة إليه هى أمانته وقوته وقدرته على المصارعة «بشكل جميل أكثر من كثيرين ممن هم فى مثل عمره وحجمه» . وكان ما نال إعجاب لورانس أكثر من أى شىء آخر ، هو «براءة» داهوم ، وكان يعنى بهذا براءته عن حقائق العالم السياسية ، وعن الهوة الثقافية والقوة الاقتصادية التى كانت تفصلهما . كان لورانس بحنقر العرب الأكثر تعليما لميلهم إلى مساءلة سلطة الأوربي ، الأمر الذى لم يكن بفعله داهوم «لبراءته» وباختصار ، فقد رأى لورانس داهوم صبا جميلا يعتمد كلية على مقتضيات نبلة ، ولم يكن يبدو أن لورانس يمانع فى هذا . وكان داهوم فى هذا هو الموضوع الرومانسى الكامل لأفضل ما يمكن للورانس (وهو الساحر ذو القدرة المطلقة) أن يمنحه ، أى الحرية ، أو «المنزل النبيل ذو الأعمدة السبعة» . كان لورانس يهيم بالفتى الصغير وشعر أن باستطاعته محربك الجبال من أجله ، وأن يلهم فيضانا عظيما من الحركة . ولابد أن قصيدته التى أهداها إلى داهوم (سليم أحمد) التى يقول فيها «أحببتك ... فاستطعت أن أأخذ فيصا من الرجال بين يدي .. وكتبت إرادتى نجوما عبر السماء» . تحتل مكانها كأحد أكثر الفصائد المؤثرة التى صيغت فى حب صبي .

وقد يكون حبه لداهوم هو ما دفعه لتبادل الملابس معه . فكان بارتدائه «الدشداشة» يشعر أنه بطريقة سحرية قد أصبح داهوم .. أصبح لوقت قصير «المتوحش» البريء الجاهل الذى طالما حلم به ، يعيش عالم ما قبل عصر النهضة والعقلانية . وقد قضى لورانس حياته ، مدفوعاً بخوائه الداخلى ، يتقمص خاصيات الآخرين فى بحثه عن ذوات بديلة . وقد اكتشف فى داهوم ذاته البديلة الأكثر فاعلية أى شخصية يمكنه أن يتلبسها أو يتركها حسب هواه . وبدأ هاجس صباه ، أخيرا ، أى الفانتازيا الموريسية العصر أوسطية تلنحم فى هذا السحر والبهجة

الساحقة لكونه «بارون في نظام إقطاعي» و«أورسي في الشرق»، ففد كتب أنه «لا أظن أن أى أحد تذوق السرقة مثله بفادر على التنازل عنه في منتصف الطريق». وقد تسببت سعادته في إغفاله الفضحة الاجتماعية التي كان يثيرها خاصة في ضمير الأنسة هولمز الإنجليزية التي كانت قد رحبت بلورانس كمسبحى ملتزم ينتمى لأسرة إنجليزية وتفاخرت أمامه بحماس عام ١٩٠٩ عن انتصارات بعثتها التبشيرية. فمقد تحول ذلك الطالب الجامعي الخجول الذي قابلته عام ١٩٠٩ أمام ناظريها إلى رجل يشعر بأهميته، ويدين التدخل الأجنبي، وبستعرض رفيقه الجميل ويتجول في البلد مرتديا الزي المحلي. ولم تعجب الأنسة هولمز، التي كانت قد تنازلت عن إجازتها في المناطق الحبلية الأكثر برودة، بسلوكه الجديد، أو بصديقه اللافت للأنظار. وقد ادعى لورانس، فيما بعد، أنها لم تسنطع فهم لهجة جرابلس التي كان يتحدث بها داهوم، والتي كان قد دعاها هو «كربهة»، والتي اكتست فم داهوم الذهبى، إبقاعات الإغريقية القديمة الموسيقية. ومن عبر الخميل أن الأنسة هولمز، التي كانت قد قضت وقتا طويلا في الشرف الأدنى، لم تسنطع التفاهم مع داهوم إن كانت قد رغت في هذا. كما أنه من الواضح أنها لم تجد في داهوم تلك «المادة الممتازة» التي تفاخر بها لورانس أمام زميلتها رايدر. ولم ينزل لورانس في الإرسالية مرة أخرى، كما أنه لم يتلق خطابات أخرى من الأنسة هولمز أبدا. وحينما ذهب إلى بروت في فبراير عام ١٩١٣، لم تكن جبيل ضمن برنامجه.

وقضى لورانس وداهوم ثلاثة أسابيع في جبيل، ربما كانت قد امتدت لولا نلفيه رقية عاجلة من الحاج وحيد يخبره فيها عن مأزق في كركميش. فقد قام الألمان، الذين كانوا قد أخبروا لورانس أنهم سبؤجلون العمل خلال شهر بونيه، ببناء امتداد لخط السكك الحديدية بصل إلى تل الخلفات، وكانوا يستعدون لسرقة الأحجار التي استخرجها وولى ولورانس بعد جهد. وقد احنح الحاج وحيد لدى كونتزن، كبير المهندسين الألمان، الذي كان لورانس قد وصفه بقوله إنه «فسوة سبىء السلوك». وأخير كبير المهندسين الحاج أن لديه تصريحاً من وولى، بيد أن الحاج، الذي كان يعلم قسمة الأحجار، لم ينراجع وأجاب كونتزن أنه لا يستطيع السماح له باستمرار العمل دون أوامر أخرى. وإزاء سخرية كونتزن منه، أرسل

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

الحاج من فوره رجلا إلى يسره چك ببرقية للورانس في جبيل ، ثم تسلق تلك الخلفات في الصباح حاملا مدفعا ومسدسا استعدادا للدفاع عن كركميش . وحينما وصلت قوة العمل المكونة من حوالي مائة رجل إلى الموقع ومعهم الفئوس والخناجر ، هددهم الحاج بإطلاق النار على رأس أول رجل يلمس حوائط التل . ولم تكن لدى العمال شجاعة لخوض المشاكل ، ومن ثم انسحبوا وجلسوا في الظل إلى أن وصل كونتزن وبدأ في الصباح ، وعند ذلك ، هده الحاج بإطلاق السيران عليه أيضا .

كان هذا هو الموقف لدى وصول لورانس إلى حلب حيث أرسل إلى الحاج برقية يخبره فيها أنه في طريق العودة . إلا أن الحاج أخبره أنه قرر قتل كونتزن ، وأنه - استعدادا لذلك - أبعاد زوجته وتجرح قارورة كاملة من اللويسكي وشحن مدفعه بالذخائف . وتملك لورانس الانزعاج فبحث عن رئيس كونتزن في حلب (مدير السكك الحديدية) واندفع إليه أثناء حفل عشاء فائلا إنه إن لم يرسل برقية على الفور إلى كونتزن للامتناع عما اعتزمه ، فسبقت المهندس . ووجد المدير في هذا مادة رائعة للتفكه بيد أنه سرعان ما غير رأيه حينما هده لورانس بأنه سيوقع شهادة أمام القنصل البريطاني يقسم فيها أن المدير لم يفعل شيئا لتهدة الموقف . ومن ثم ، وضع المدير ترولكي كهربائي تحت تصرف لورانس حيث وصل في اليوم التالي إلى كركميش ليجد أن كونتزن كان على وشك هدم حوائط التل المهيبة . ونجح لورانس ، بمساعدة فؤاد بك الوزير الخلى للتعليم العام ، أن يقنع كونتزن بالسراح وإزالة قصبانه . وساء على ذلك تلقى كونتزن تعنيفا علنيا ، على حين امتدح الحاج بحرارة . ولدى عودة وولى في آخر سبتمبر وجد المعسكر وقد عمه السلام .

واسنؤف العمل في الحال تقريبا . وشعروا بارتياح وكأنهم حصلوا على جائزة باكتشافهم إطار باب حيني عليه نقوش في حالة ممنازة . وكان وولى قد طلب عربة سكك حديدية خفيفة من أوربا إلا أن وصولها تأخر ، لذا تطلب العمل قوة قدرها مائتا رجل كان الإبقاء عليهم أمرا مرهقا لأن تركيا كانت نحارب في البلقان وكان الساب العالي يجند كل الذكور اللاتنين جسمابا . واستعمل الإنجليز حصانتهم الديبلوماسية لحماية عمالهم كما وفروا ملاذا للعارين من التجنيد في مقر البعثة .

وحظر وولى دخول الموقع من قبل رجال الشرطة والجنود . وكانت هذه الحطة فاعلة . فعلى حين تهالك معسكر السكك الحديدية لم يفقد فريق كركميش رجلا واحدا ، وأدى هذا إلى زيادة قدر البريطانيين ومنحهم حماية ضد العصيان المحلي ، إذ إن الأفليات من أمثال الأكراد والأرمن كانوا يسعدون لسوية حساباتهم مع الأتراك مسنغلين في هذا ظروف حرب البلقان . وفي خريف عام ١٩١٢ قام وولى ولورانس بزيارة بصراوى أغا زعيم إحدى الطوائف الكردية الذى كان يعتقد أن زعيمهم العظيم قد مات مسموما بواسطة رجال « جماعة الاتحاد والترقى CUP » . وأعلن بصراوى أنه سيتخلص من الحكومة التركية كلبة ، وكان الإنجليز قد ساءهم ما علموه عن اعتزام تلك الطائفة القيام بأعمال نهب فى حلب استقاما لموت قائدهم الأعظم . ومع قدوم الشتاء ، وردت أنباء هزائم الأتراك فى بلغاريا وتقدم الجيش البلغارى باتجاه اسطنبول ، الأمر الذى كان مبعث بهجة الأكراد والعرب . وكانت المفارقة هى أنه طالما بفى السلطان عبد الحميد الثانى فى السلطة كخليفة ، استمر هؤلاء الناس فى ولائهم للباب العالى . إلا أن الولاءات القديمة تهاوت مع مقدم « جماعة الاتحاد والترقى » ومن عبر المحتمل أن يكون قد فات لورانس أن الناس كانوا ينظرون للحسين بن على أمير مكة على أنه الزعيم الدبى . وإن كان الصوت الخافت الأول لبوق دعوة السمرد على الأتراك قد انطلق فى أذن لورانس الداخلية فى تلك اللحظة ، فلا بد وأن مخاوفه على سلامة الحفريات وسلامة مواطنيه فى حلب فد أحمد مثل هذا الصوب . وكان قد سمع أن الأكراد قد أرسلوا عميلا هاك لتحديد أفضل المازل للنهب المحتمل . وقد حامر وولى ولورانس الشك فى أن أحد هذه الأماكن قد يكون القنصلية البريطانية .

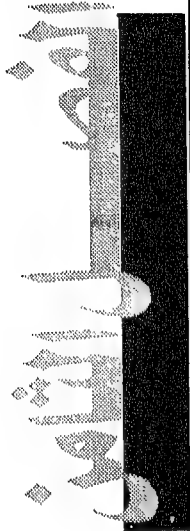
وهكذا احتار لورانس تلك الأوقات المضطربة لسجرب مهارته فى النخفى فى زى محلى . ورغم أنه كان يتكلم العربية بطلاقة حينذاك ، فقد عرف أنه لا يمكن أن يظن أحد أنه عرى نظرا للون بشرته وسوء إلمامه بقواعد اللعبة . غير أن شعوبا غير عربية عدة ذات بشرة فاتحة ودون إلمام بالعربية الصحيحة كانت تقطن شمال سوريا . واعنفد لورانس أنه بالإمكان الظن أنه ينتمى لإحدى هذه الأقليات . فما قدر إجادته للعربية فى تلك الفترة ؟ كان لورانس ، فيما بعد ، بنظائر بالتواضع المضلل بشأن إجادته للغة ، حتى إنه أخبر روبرت جريفز أنه لم يكن يعرف كلمة

الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي كركميش ومصر

واحدة من العربية الفصحى التي تختلف اختلافا كبيرا عن اللهجات المحلية. ولم يكن هذا صحيحا إذ إن لورانس كان قد درس الفصحى مع فريدة عقل في جبيل عام ١٩١١، وكتب، على الأقل، جزءا من خطاب إليها بهذه اللغة. وهناك خطاب واحد مازال موجودا وقعه لورانس وكان موجها لشريف مكة حسين، ورغم أن لغة هذا الخطاب مفهومة فهي خليط من اللهجات والأساليب. وقد تم تحقيق هذا الخطاب من جانب الدكتور باسل حاتم من كلية الترجمة العربية والتفسير بجامعة هاريوت وات بإدنبرة، الذي انتهى إلى أن من كتبه شخص لسانه غير عربى واستبعد أن يكون لورانس قد أملاه على أحد الكتبة. أما عن لغة لورانس العربية فكانت مزيجا من اللهجات أساسها السورية والحجازية إلا أن نطقه كان ضعيفا وقواعده «معامرة» كما اعترف هو بذلك، وكان يتحدث بلكنة إنجليزية واضحة. وقد علق ألبك كبير كباريد الذي تربى في مصر وكانت يتحدث العربية كأهلها، وأصبح فيما بعد زميلا للورانس، فقال إن لكنة لورانس ونطقه فقط كما يفصحانه كأجيبى. بيد أن لورانس قرر خوض المعامرة متخفيا ليرى ما إن كان الناس سظفونه من أهل البلاد. وواته الفرصة قرب نهاية شهر نوفمبر حينما وصل قروى إلى موقع التنقيب ليبلغهم أنه قد تم اكتشاف تمثال لامرأة تتركب أسدين بالقرب من خلفاتى شمال بيره چك. وأعتقد لورانس أن القطعة قد تكون حيشية، ومن ثم ارتدى الزى المحلى ورحل مع داهوم ليلبحث الأمر. ووجدا الريف يغلى بالاضطرابات. فقد كان قد تم تجنيد الآلاف فى الجيش لدرجة أن قرى بأكملها قد أصبحت بلا سكان. وصدرت الأوامر من الرؤساء إلى رجال القبائل الكردية للالتحاق بالجيش الإمبراطورى ثم الفرار منه بمجرد تسلم الأسلحة. وكانت الشائعات قد سرت فى الإقليم بكامله عن عصارات النهب مما أدى إلى أن تنشط الشرطة التركية وتتوتر، وأصبحت فى حالة ترقب دائم. وبمجرد أن دخل لورانس وداهوم إلى خلفاتى تم القبض عليهما بواسطة دورية عسكرية شكت فى كونهما هاربين من التجسبد. ثم قذف بهما بأسلوب غاية فى القسوة أسفل زنانة قدرة. وأصيب لورانس بكدمات بينما التوى كاحل داهوم التواء أليما. وقد قيل فى إحدى الروايات عن هذا الحادث إن لورانس تلقى ضربا مبرحا لدرجة نقل معها إلى المستشفى. وأيا كان الأمر، فقد تمكن الاثنان من الهرب عن طريق الرشوة، وتجاهلا

الاكتشاف ، وسارا مسرعين باتجاه جرابلس وقادهما طريقهما إلى منطقة نزيب حيث وجدا الأكراد في حالة هياج وهم يهرلون بحنا عن أى مسيحى لقنله ولم يفقد لورانس سوى تذكره. ثم اكتشفا أسباب ذلك السلوك الغريب لدى وصولهما إلى قرية نزيب ، إذ إنه قد حدث أن نهبت عصاة من الأكراد المسلحين المكان بقيادة رجل يدعى درعى وأطلقوا السيران على طبيب مسيحى أرمنى ففعلوه حيث كانت جثته مازالت هاك بغطبها الذباب . ومن تم ، اختأ جمع المسيحيين الخلبين فى نزيب وبيره حك .

ورغم كدماته ، ومعرفته أنه قد نجا من الموت بأعجوبة فقد شق لورانس طريقه إلى الموقع وهو ينسر بعض الرصاص . إذ إنه ، أولا ، قد نجح فى التخصى وظنه الناس فلاحا محلبا . وثانيا ، فقد اكتشف بعض المعلومات القسرية عن الأكراد . وثالثا ، فقد حدث ما هو أكثر أهمية له من الساحة القسرية ، إذ إنه حصل من خلال المعاملة النى لقيها فى خلعاتى على عناصر المانتازا التى نرصى مازوكيته . فقد كانت نخالجه منذ صباه أحلام ماروكه عن الجيش ، أحلام قام بتنفيذها وهو فى السابعة عشرة حينما تطوع فى حامية المدفعية الملكية . لذا ، فقد راققت فكرة كونه هاربا من الجيش لخسلته ، إذا كانت تمثل مقاومة لسلطة ساحفه ، بالإضافة إلى أنها أمدته بنبرير للعفوية النى تمنع بها . ولم يكن الضرب الواقعى الذى نلقاه من الأتراك هو مصدر المنعة ، بل كان المصدر هو المشهد الذى عاشه فى مخيلته فيما بعد مضحما إياه مرة تلو الأخرى ، والذى أمدته بمادة تخيلته فى السنوات التالية .



سلام لم تعرفه منطقة

ما بين النهرين منذ أجيال بريطانيا

وسوريا ١٩١٣

8

تم طرد البلغار بالقرب

من بوابات إسطنبول وتبخر الخطر

الذى كان يهدد حلب . إلا أن لورانس

كان قد تنسم أول نفحات للثورة ،

ووجدها مسكرة ، فقال فى أبريل

عام ١٩١٣ «أما عن تركيا . . فليسقط

الأتراك . فاحتفأؤهم يعنى فرصة

للعرب الذين كانوا قادرين على تسيير

الحكم يوما ما» .

ولدى توقف الحفريات مرة أخرى، نجح في إقناع داهوم بمرافقته إلى أكسفورد. وكان الصبي حذراً فما مضى بشأن السفر إلى بلد لا يعرف عنه شيئاً. فقد سمع حكايات عن إنجليز يستدرجون العرب الأثرياء بعيداً عن أوطانهم ليصنعوا منهم لحوماً معلية. وقد كان حمودى رجل العصاة التائب ذو الخبرة الكبيرة يميل إلى تصديق مثل تلك الروايات. وعندما رأى لورانس أن داهوم لن يوافق على الذهاب بمفرده تقدم بنفس العرض إلى حمودى الذى كان قبوله له يعد قفزة إيمانية شجاعة.

وفى أكسفورد أقامت المجموعة فى كوخ بطرف حديقة المنزل رقم ٢ شارع بولستيد. وكان لحسن داهوم وقع كبير بين معارف لورانس، خاصة تشارلز بل الذى كلف الرسام فرانسيس دود برسم لوحة له. واستمتع داهوم بكونه مركز الاهتمام. وحينما قاطع شقيق لورانس وبعض أصدقائه دود أثناء لحظة هامة فى رسم اللوحة نظر الصبي إليهم بضيق. وكان هذا هو تعبير الإنارة الذى كان الفنان يبحث عنه فالتقطه وأبرزه تاركاً لورانس ليعبر عن نشوته بشأن «الإلهام المطلق»

الفصل الثامن: سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال

المتحسد في اللوحة . وعلى حين كان يتم إرسال حمودى أحيانا ليفيم مع وولى ، مكث داهوم مع لورانس ، وكان يساعد أحيانا فى إفراغ الأنتيكات التى وصلت من كركميش التى كان يكن لها صداقة وكان من مصادر راحته أن يعرف ما حدث لها بعد اختفائها .

ووقع داهوم وحمودى فى أسر سحر بريطانيا ، بيد أن آراءهما عنها كانت عفلاية بشكل أحبط لورانس الذى علق على هذا بقوله « لسوء الحظ أنهما على درجة من الذكاء تحول دون إثباتهم بردود أفعال مضحكة » . وجد داهوم بريطانيا بلدة « بدنية » يملؤها أناس بدناء ويسودها الخصب واللون الأخضر والمياه الوفيرة . . جنة ساسعة لا توجد فيها قرى بل مدن صغيرة آمنة ملبنة بالسكان وذات مباني مرصعة . ووجد الطعام دسم ووفير وتجول فى لندن راكبا مترو الأنفاق ، وتمتع بركوب الدراجة فى شارع وود ستوك مرتدبا « دشداشته » ، وحدث ذات مرة أن نسوه بقف فى مرابيض عامة يربت على البلاط الأبيض اللامع ويتمتم قانلا « فوالب طوب جملة . . جمبله » اعتقد أن سوريا ما هى إلا لدغة برغوث مقارنة

بأنجلترا وأن عدد العرب قليل جدا بالنسبة للإنجليز لدرجة لا يمكن لهم معها أن يكون لهم دور في سياسة العالم آنذا . ووافقه لورانس على رأيه هذا ، فقد كان جزءا من دافع لورانس لإحصار هذين الشخصين إلى بريطانيا هو أن بدركا حفيفة قوة بريطانيا ووجودها بالمقارنة مع فساد الأتراك وضعفهم . أما ما هدف له بالنسبة لقومه فكان إحداث الصدمة ، كي يؤكد سمعته كرجل إنجليزي عريب الأطوار . كما أنه دأب على القول بأن داهوم من أصول حبشية رغم عدم صحة هذا على الإطلاق بيد أن هذه المفولة مجحت في أن تُبَطَّر للصبي كقطعة أنربة حية ضمن مجموعة كركميش الأنرية المعروضة بالمتحف . ومن ثم توافد الناس من على بعد أميال كي يلتفتوا الصور لهذين العربيين بزيهما القومي ، وكأنهما وحشان عربيان . وساهم وولى في سريان مؤامرة الفانتازيا الحينية التي تقول بأن وجه داهوم يشبه بعض وجوه التماثيل الحيشية . ولو أُتيح لداهوم فهم هذا الادعاء لوجده نوعا من السخافة . فقد كان فلاحا عربيا بحيا على صفاف الفرات ولا يعنيه الحينيين في شيء . وبالنسبة للورانس وزملائه كان داهوم نموذجاً لـ «المتوحش النبيل» حتى إن إدوارد ليدز كتب يقول : «ما زالت صورة داهوم تراود مخيلتي .. فقد كان على درجة من الأناقة والحسن لا يناسبه معها أى عمل يدوى .. كان ذا مظهر نبيل» .

ولم يستطع أى من ليدز أو لورانس أن يدرك أنهما قد وفعا في فخ فكري بخلطهما «النبيل» وهو صفة أخلاقية «بالحسن» وهو صفة جمالية . وقد عبر ويل شقيق لورانس بشكل لا واعى عن هذه الوضعانية الجمالية الشبيهة بتلك التي تطبق في عالم الحيوان ؛ وكان قد قام بزيارة لنبد في سوريا في وقت متأخر من هذه السنة وكتب عن البدو قائلا : «إن حوجة يكفى كنمط .. غير أننى رأيت نماذج أخرى أفضل» . بيد أنه كان لدى لورانس حساسية من أن توجه إليه تهمة أنه يقوم «بعرض قروء» ، لذا حاول المحافظة على كرامة أصدقائه العرب برفضه منحهم نقودا مقابل التقاط صور لهم . إلا أن حمودى لم يرق له هذا ، فلم يعتفد أن كرامته ستؤذى بالتقاط الصور له ، كما أن عادة تكريم الضيف بتقديم الهدايا له كان أمرا شائعا بالنسبة له . واعتقد ليدز أن العرب «طفوليون» وكان من مصادر تسليته أن سمع أنه حينما سُئل حمودى عما يريد أن يأخذه معه إلى بلده أجاب بأنه يريد

الفصل الثامن: سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال

صنبور ماء معتقدا أنه سسكفل له الإمداد الدائم بالماء، وأبضاً أراد أن يأخذ معه لافتة «انعد عن العشب» التي ظنها تحمل قوة سحرية لمنع الناس من السير فى الأماكن غير المرغوب فيها. بيد أنه كانت ثمة لحظة مفلقة عكرت صفو إقامتهما حينما التفيا بمصرى بدعى عبد الغفار كان صديقاً لويل ويدرس بكلية سانت جون، فقد ادعيا أنه أخبرهما «أنا سنقطع رقاب هؤلاء الكلاب قريباً»، وكان يعنى الإنجليز. وحينذاك اندفع الرجلان عائدين إلى شارع بولستيد وطلبا بندقية لإطلاق النيران عليه. وأقلق هذا الحادث لورانس الذى كان قد أمر بإبعادهما عن أى عربى آخر؛ ففد كان يحنقر المتعلمين من العرب، ويكره المصريين، فمن كان هناك أسوأ من مصرى متعلم؟ بيد أنه كان للقصة رين مرضى بالنسبة له، إذ برهنت ولاء العربى «النبيل» القطرى للأوربى بالتقابل مع العربى الذى أفسده التعليم. كان لورانس بربد الحرية للعرب، بيد أنه بالنسبة للمصريين، فقد كانت الحرية لا تعنى التحرر من تركيا بل من الإنجليز الذين كانوا قد ضموا بلادهم عام ١٨٨٢.

وحينما عاد العربيان فى أغسطس إلى جرابلس مضيا يتفاخران بين العمال الآخرين بتجاربهما بشكل مثير للاشمئزاز، الأمر الذى تسبب فى مضايقة ملاحظ العمال القبرصى وذلك لطبيعته الغيورة. ومن جهته فقد زاد شعور لورانس بالتملك إزاء داهوم عن ذى قبل. وحينما زاره فى وقت متأخر من تلك السنة ضابط جيش شاب يدعى هيوبرت يونج وكان يتحدث العربية وحارب فيما بعد إلى جانب لورانس أثناء الثورة العربية، جلس الاثنان لنحت ميزابين لسطح المنزل على شكل مخلوقات غريبة. فنحت هيوبرت واحداً فى هيئة امرأة بينما صنع لورانس نموذجاً عرباً لداهوم. وحينما رأى وولى التمثال على السطح أصيب بصدمة إذ اعتبره إعلاناً واضحاً عن طبيعة لورانس المثلية وقال إن هذا كان رد فعل العرب الذين اعتبروا الفكرة فاضحة. ورغم أنه كان يسره القول فيما بعد أن ممارسة المثلية أمر عادى مصبول لدى العرب، فهذا بعيد عن الحقيقة وتناج تفكيره ورغبته. وفى الواقع، ففد كان الشرق فى موروث الاستشراق الأوربى مزبلة للنفايات الثقافية للصفات التى يحتقرها الغرب، وكان نمط العرب الشهوانى يكوّن جزءاً من هذا التراث. أما فى واقع الأمر، فلم تكن المثلية الجنسية أبداً موضع تقبل من العرب أو زهوههم، وهى إن مورست فإن ذلك يتم خلف الأبواب المغلقة. ورغم أن الاحتمال

الأقوى هو أن علاقة لورانس بداهوم كانت علاقة أفلاطونية، فإن التمثال العارى كان يعلن عن غير ذلك. ومن ثم فقد لورانس كثيرا من السمعة الطيبة النى اكتسبها بهذا الفعل اللاإرادى المتهور.

كان لورانس يرى أن شمال سوريا هى «البلدة العربية التى يمتلكها». وامتد توجهه التملكى هذا ليشمل جميع «رجال» حتى إنه كتب باستظراف يقول إنه يود أن يصبح شيخ جرابلس. وحينما زاره شقيقه ويل فى أكتوبر عام ١٩١٣ وحد أن أخاه يعامل كما لو كان «لوردا». فقال «إن نيد معروف لدى الجميع وإن حماسهم له أمر يبعث على التعجب». وكان لديه أصدقاء فى حلب من العرب والأكراد والأرمن والشراكسة والبونانيين. وكان النزاهة بما يفرضه «النبيل» يسترعى الانتباه لدرجة اعتقد أنه الطبيب المحلى الذى يعالج كل الإصابات اليومية ويقوم بتمريض أصدقائه، ويرسل القرويين المرضى إلى المستشفيات فى حلب، ويحاول اتخاذ التدابير لتطعيم قرى بأكملها ضد الكوليرا حينما انتشر الوباء فى حلب عام ١٩١٢. كما اعتبر نفسه عمدة محلبا غير رسمى، وشعر بالزهو الشديد حينما التجأ إليه ثمانية عشر من رؤساء الأكراد ليجرى المصالحة بين الفصائل المتناحرة التى كانت الخلافات بينها قد استمرت أربعين عاما فكتب: «... التقوا على أرض محايدة فى منزلنا... وتعلقوا بأعناق أحدهم الآخر مقبلين... ومنذ هذا الوقت ساد السلام شمال ما بين النهرين بشكل لم يحدث منذ أجيال». وكان يتولى الدفاع عن مصالح شعبه حتى إنه هدد أحد المهندسين الألمان بالجلد بعد أن تسبب فى ضرب داهوم. وكان مما قاله أيضا، إنه عند استئناف الحفريات فى كركميش عام ١٩١٢، التحق عمال المعسكر الألمانى بالمعسكر الإنجليزى رغم أن شركة السكك الحديدية كانت تدفع أجورا أعلى وقد اعتبر هذا معاملة خاصة، إلا أنه كان فى الواقع انتصارا للأبوية الخبرة، فقد كان المراقبون الشراكسة الأفظاظ فى المعسكر الألمانى يضربون العمال إن هم أساءوا التصرف، ولم يكن يسمح لهم بالتحدث إلى ملاحظيهم أو الحصول على يقشيش.

ورغم أن السجلات توضح أنه كانت ثمة خلافات بين العمال فمن المحتمل أن الجو فى المعسكر البريطانى كان أكثر بهجة. بيد أن علاقة لورانس بالعرب كانت

الفصل الثامن: سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال

فى جوهرها إحدى الميزات . فقد كان يتمتع بالقوة الناحمة عن كونه أوربياً فى الشرق . كما أتاحت له تحركاته سيرا على الأقدام ، مرتدباً أحياناً الزى العربى ، أن بعلم الكشر عن تطلعات القوم العاديين أو أن «يدرس الجماهير» كما كان يقول . كما منحته حساسيته المفرطة المقدرة على أن يرى العالم من خلال أعينهم أكثر من غالبية الأوربيين . بد أن ولاءه فى النهاية كان للنخبة الحاكمة كما توضح ملاحظته عن «النظام الإقطاعى» . وكان لورانس يدعى أنه يجد صعوبة فى التعامل مع الناس ويحب أن بصور نفسه كمتفف غربب الأطوار تشغل عقله الأفكار والأشياء العربية . وفى الواقع ، فقد اكتسب من عمله فى كركميش مهارة فائقة فى التعامل مع الرجال .

وبظهر التعبير الكامل عن نظرة لورانس الرومانسية لبلاد العرب والعرب فى هذه المرحلة فى المقال الذى كتبه عام ١٩١٢ ونشره فى مجلة إيزيس (التى تصدر فى أكسفورد) تحت عنوان «قصر ابن وردان» وكان قد زاره ذلك الصبف بصحبة داهوم . وكان القصر قد بناه الإمبراطور الرومانى جوستينيان فى القرن السادس . وقد قل إنه كان قد تم عجن عطر الزهور مع الطين المستخدم فى البناء بأسلوب تكنسب به كل غرفة عبقا مختلفاً . وتم اقتياد لورانس بين الأطلال حيث كان داهوم يتنشق الهواء ويقول «هذه رائحة ياسمين ، وهذه بنفسج وتلك ورد» . ثم قاده إلى نافذة مفتوحة وطلب منه استنشاق «أطيب عطر على الإطلاق» . أو ريح الصحراء الخالية المنسابة دون جهد التى لا طعم لها» . وكتب لورانس أن عربه يولون العطور والرفاهية طهورهم ويتخيرون الأشياء التى لا يد للإنسان فيها . أى أن لورانس بوضح هنا أن العرب ينظرون للمدنية المادية كمجرد معوق للهدف الحقيقى للحياة . وكاب هذه نقطة فلسفية وجدت صدى طيباً فى أكسفورد ما قبل الحرب . إلا أنه من عبر المحتمل أن داهوم كانت لديه المقدرة على فهم رومانسية لورانس التى كتبها من برج الرفاهية التى كان يحياها ، أو أنه قد قال فعلاً الكلمات التى اسنظمه بها لورانس ، فلم يعتد فلاحو الفرات الذين كانوا يكافحون من أجل البقاء السعنى بالرياح التى كانت عدوا لهم أكثر منها صديقاً . ومن غير المحتمل أبصا أن بدير داهوم ، الذى كان يرغب شدة فى تعلم القراءة والكتابة كى يحصل على وظيفة أفضل ، ظهره للرفاهيات إن هى تيسرت له . بيد أنها كانت غير

ميسرة، إذ حظر لورانس وولى على رجالهم استعمال المنتجات الغربية، وكانوا يعيدونهم إلى منازلهم إن أتوا إلى العمل مرندين أحذنه. لقد أراد العرب الرفاهيات التي كان الإنجليز يتمتعون بها: أما الإنجليز فكانوا على استعداد لإجبارهم على البقاء على ما هم عليه كي يبقوا على الرؤبة الرومانسية التي كانت محل إعجابهم. وتهدف قصة ابن وردان إلى النعير عن ممول العرب الروحانية، وهذه نظرة عربية استشراقية خاصة مازالت سارية.

ولا يوحى هذا بعدم وجود بعض الأفراد العرب الذين كانوا يكونون الإعجاب الفائق بلورانس؛ فبعد عدة سنوات فال حمودى إن لورانس كان يتفوق على الرجال العرب منذ البداية في الركوب والصيد والسير، وأنه كان يمتلك هدفًا ووضوحًا عقليًا. «فبيما كما نلف وبدور بعدا عما نريده، كان هو يبنسم وبوضح لنا ما نغنيه». ومن الواضح أيضًا أن داهوم أخبر فريدة عقل عام ١٩١٢ أنه لم يكن نمة ما يفعله العرب ويستعصى على لورانس بل إنه كان بتفوق عليهم: «إننا نحترم ونعجب بشجاعته جدا إننا نحبه كما يحبا بل إننا على اسنعداد لفدائه بأرواحنا». كانت سنوات لورانس في كركميش أسعد سنى حياته. وبحلول عام ١٩١٣ كان قد تخلى عن فكرة ممارسة الطباعة مع فيفبان ريتشاردز. وطبقا لريتشاردز كانت كركميش «مثل مكان يتعاطى فيه ما يغيبه عن الوجود كل يوم، أو أنها كانت مثل رياضة عظيمة لها نتائج ملموسة في النهاية». بيد أنه سرعان ما انتهى هذا الوجود الرعوى، حيث اصطدمت موجة تاريخ مهولة بالعالم وعسلت معها البراءة كلها.

أخبار
الأسواق

أجبرني رجال التأمين على

البقاء في مكاني

سيناء وسوريا وبريطانيا ١٩١٤



في نهاية ديسمبر

عام ١٩١٣ تلقى وولى برقية

من السير فريدريك كينيون من

المتحف البريطاني

يطلب منه هو ولورانس أن يلحقا

بمسئول في هيئة المهندسين الملكية

لعمل مسح للنقب شمال سيناء تحت

رعاية « صندوق

فلسطين للتنقيب » .

كان الهدف هو الوصول إلى أنر طريق قدیم للقوافل من فلسطين إلى مصر ، والتعرف على بعض الوقائع المرتبطة بالأربعين عاما التي فضاها سنو إسرائيل متجولين هناك . أما السبب الحقيقي فكان عسكريا ؛ مهمة جاسوسية داخل الأراضي العثمانية . ورغم أن تركيا كانت حليفا لإنجلترا ، إلا أن اللورد كتشنر ، المندوب البريطاني في مصر ، تشكك أن العثمانيين سينصمون إلى ألمانيا في حالة دخولها الحرب مع إنجلترا . وكانت سياء تحمي الشريان التاجي للإمبراطورية البريطانية ، أي قناة السويس ، كما أن فلسطين تقع على حدود سباء . واعتقد كتشنر أن القيام بمسح دقيق للمنطقة أمر حيوي لمستقبل قناة السويس .

التفت المجموعة بقائد السعثة كانتن ستيوارت نيوكومب في بئر سبع . ودهل نيوكومب أن وجدهم على هذه الدرجة من حداثة السن . فقد كان ذكر المتحف البريطاني يستدعى رؤى رجال مسنين ذوى لحى بيضاء عششت فيها العناكب ، يأتون وبرفقتهم الأطنان من الأثاث ومتاع السفر . لكن لم يكن مع وولي ولورانس

الفصل التاسع: أجبرني رجال التامين على البقاء في مكاني

سوى القليل من الأمنة، وبدت أعمارهم تتراوح بين الرابعة والعشرين والثامنة عشر. ونحقق بوكومب أن خطائاته إلى لورانس و وولى كانت تحمل عبارات الاحترام المسالمة، فقرر العدول عن هذا على الفور. ومن ثم، بعث بهم إلى الصحراء بتعليمات أن يلتقوا في القصيمة على الحدود المصرية في غضون أيام. وحسبما لم يظهر هالك في الموعد المحدد انساب بوكومب القلق وأرسل فريقاً من الهجانة المصرية للبحث عنهما وعاد الفريق دون أن يجد أثراً لهما. وتبع هذا مكالمات هاتفية محمومة عبر الحدود، وتم تنسيه دورية حرس حدود في الجانب العسائي. ونارت الشكوك حول أسر البدو لهما ومن ثم تم القبض على أربعين رهس. وبعد يوم وصل وولى ولورانس وداهوم إلى القصيمة وأقدمهم مقروحة، إلا أنهم دهسوا لاكتشافهم أن الهجانة كانت تقتفي أثرهم وأوضح لورانس أن الجنون اصاب الإبل صفزت أثناء الليل. ولدا، فقد ساروا إلى قاديان Qadesh Barea ناربيا. على أمل وحود إبل هالك، إلا أنهم، بدون قصد منهم، اتبعوا طريقاً جليلاً لا نسير فيه الإبل، ولذا لم تعثر عليهم الهجانة. وكتب لورانس رسالة منته عن هذا، «يوضح

هذا كيف يمكن تحدى الحكومة بسهولة فى بلد مهجور كهذا» وكان هذا درسا لن ينساه. ومكثوا أياما قليلة فى قادش باربا التى (كانت عاصمة نى إسرائيل فى سنوات التيه !!!) ثم رحل وولى إلى البحر الميت ولورانس إلى العقبة حيث كان مقررا أن يلتقى بنوكومب. ووصل إلى رأس المنفذ بعد أيام خمسة ورأى خليج العقبة للمرة الأولى.

يفع هذا المسفذ الآن على الحدود الإسرائيلية المصرية. ولكى يصل إليه المرء، عليه تسلق مرتفع وعر من إيلات. وحينما كنت أمر عبر إيلات فى طريق عودتى إلى مصر قررت أن أقضى يوما هناك أتفحص فيه طريق الحجاج القديم الذى أبصره لورانس لأول مرة من وادى الرفث. واستأجرت دراجة جبلية إلا أنه تبين لى أن التسلق هنا كان أكثر صعوبة منه فى صفد بسبب الانحدار الشديد. كان اليوم قائظا ولم أكن قد أحضرت معى مياه لناكدى من وجود أكشاك مشروبات فى الطريق. قادنى الطريق من مناطق إيلات السكنية فحاة إلى صحراء جرانيتية جرداء ورءوس جبلية حادة كالسيوف وسوبفات (جمع مصعر ساف) أشجار منكسرة، وأطراف حيوانات. نم توقفت على منحنى وأنفاسى تنلاحى كى أبصر مشهد خليج العقبة المدهل ووادى عربة العظيم حيث يرتفع الصدع الإفريقى من البحر الأحمر بجدرانته الشاسعة من الحجر الجيرى ذى اللون الأبيض المائل للاصفرار، والصخور الجرانيتية الخضراء، والخليج ذا الشكل الهلالى المكتمل الذى تنمو عليه مجاميع شجيرات النخيل، وحافة مدينة العقبة وكأبها من البورسلين الزجاجى. ثم واصلت قيادة الدراجة وأنا أتصب عرقا، وأخذ القيظ يشتد ويحف فمى أكثر وأكثر. لم يكن هاك أناس أو مساكن أو سيارات. كانت ثمة أشجار قليلة وندرة من البساتين، مجرد حجارة صوان عارية تكاد تشتعل. وأخبرا وصلت إلى لافتة تشير إلى صدع وفد كتب عليها «عين نبتافيم Netanim». ولفظ عين بدل على ماء من نوع ما. ومن ثم، اسحرفت عن الطريق، وفدت الدراجة وهى تتقافز فى مسار حجرى لأتوقف فجأة وأتجنب سقوطى من على منحدر فى واد عمفه ٥٠٠ قدم. وبدا أن العين كانت تقع أسفل نتوء صخرى، وكان على أن أتسلق أسفل صدع صخرة خطر كى أصل إليها. ورغم أن الإرهاق الشديد قد تملكى من قيادة الدراجة، إلا أن العطش كان يحرق حلقى، وأدركت أنه كان على الوصول هاك

الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكانى

بأى ثمن . كانت الصخرة مزلقة وضيقة ، واستعملت بدى للتسلق هابطا . وفى بعض المواضع ، كان الصخر مصقولا كالزجاج من مرور الناس عليه على مر السن . كانت تسد بطن الوادى كسارات الصخر التي تراكمت عبر السنين . ولم يكن البع بتعدى فناء ضحلة مبتلة حيث كانت جنبات الصخر تلامس بطن الوادى . وكان شخصا ما قد قام بعمل حوض صغير تتجمع فيه المياه ملأته الطحالب وشرقات البعوض . وانحيت وحملت الماء إلى فمى فى كفى بيرقاته وطحالبه . ولم تكن أفضل مباءة تذوقتها ، فلم أعرف لها طعما ، إلا أننى كنت عطشان بدرجة لا تصدق . ثم تهالكت فى ظل صخرة وأنا أستمع إلى أغاريد الطيور العالبة وصفيها . ونحقت حينذاك أن نلك كانت المياه الوحيدة فى المنطقة كلها . وشعرت أنه بحق لى أن أضرب نفسى لإغمالى إحضار ماء معى إلى الصحراء وكانت مشقة الحصول عليها درسا أسنقه . ثم تسلقت عائدا وسحبت دراجتى إلى الطريق . كان نمة مسار مغطى بكساره الحجارة على بعد مسافة قليلة ولافتة تقول «نوفف» هذه نقطة الحدود» . وهنا حامرتنى فكرة أننى كنت أسير فى أحد أقدم الطرق فى التاريخ ، فقد سلكه ملوك الهكسوس الرعاة فى عرباتهم الخربية لعرو مصر مند أربعة آلاف عام . وأتى قمبىز الثالث ملك الفرس هنا على رأس جيشه عام ٥٢٥ ق . م ، وأدخل معه الجمال إلى شمال إفريقيا . أما الطريق الحالى فقد حمزه ورصفه السلطان سليم الرهب العثمانى الذى حطم قوة الممالك فى الشرق الأوسط ، كى ينقل مدافعه أثناء غزوه مصر عام ١٥١٧ . وطوال قرون كان الحجاج المسلمون يستخدمون هذا الطريق للوصول إلى مكة والمدينة . وفى عام ١٩١٤ أتى تى . إى . لورانس واستغرق الأمر منه ساعات ثلاث للوصول من الهضبة إلى الساحل .

أما الآن فبوحد ماكدونالدز إيلات بين إشارات المرور فى نفس النقطة تقريبا التى كان نلامس فيها طريق الحجاج مع الشاطئ . بيد أنه لم تكن توجد مدينة ندعى إيلات أو أمه ندعى إسرائيل عام ١٩١٤ . وبدلا من الفنادق الفخمة وأماكن بيع الأيس كريم والملاهى والفتيات المستلقيات على الشاطئ فى لباس البحر ، وجد لورانس سحيرات ورمالا وبعض نخيل الدوم وأكواخ الصيادين المبنية من البوص . واكنس أن نيوكومب كان ينتظر مستاء فى العقبه على بعد ميلين . فقد حظر

لورانس ملك العرب غير المتوج

الحاكم المحلي عمل أياه حرائط . وعلى حين أن لورانس رأى تجاهل أمر الحاكم، فإن بيوكومب ركب لمسافة عشرين ميلا في اليوم التالي لنلقى مكالمة هانفية من كشنر شخصيا حذره فيها ضد التصرف المدفع . وعلى الفور، استوعب لورانس الخطر . فقد كانت العفبة، هي المساء التركي الوحيد على رأس البحر الأحمر وكانت ذات أهمية حيوية لأية عمليات حربية، فد تحدث في الداخل في المستقبل وسرعان ما فكر بأسلوب الهجوم / الدفاع . فبالإمكان الاستيلاء على العفبة من البحر بالطبع، إلا أنه رأى أنه سيكون بإمكان أية قوات هناك النراجع لأميال قليلة فقط إلى الجبال التي تحيط المكان من الحاسين في المياء . ومن ثم، فلاند الجيش الأعداء الذي يحاول التقدم أن يتب في مكانه عبر قادر على الحركة . وكان الطريق الرئيسي للعقبة هو وادي إنم Ithm ، وهو صدع هائل من الجرايب سفنح شرقي الميناء ، وقد كان شديد الضيق ونسده جلاميد الصخور في بعض الأماكن لدرجة عدم تمكس الإبل من المرور إلا في صف مفرد . وفكر لورانس أن من سيطر على وادي إنم يمسك ببده مفتاح الموقف .

ونظرا لأن مسح المكان الخرائطي كان ممنوعا، فقد قضى لورانس وقته ينفحص أطلال قلعة إيلا Ayla القديمة حيث التفط بعض الكسارات الفخارية . ثم حاول استنجار قارب بحمله إلى جزيرة فرعون على بعد عشرة أميال جنوب العقبة حيث توجد قلعة من العصور الوسطى، إلا أن الشرطة ألقت القبض على المراكبي، وحسما حاول لورانس وداهوم أن يبحرا بالقارب استوففتهما الشرطة . بيد أن هذا لم يتبطه، فاستعار من بيوكومب بعض فرب المياء وسار بحماله حول الساطي إلى طابا حيث كانت الجزيرة على بعد أربع مائة ياردة من هاك . ثم قام بفتح الفرب واستعمل لوحا من الخشب كمحدا ف وسحب الفربة التي ركبها داهوم خلفه . إلا أنه وجد أن الأطلال لم تكن نستحق هذا الجهد . ولدى عودته، أجبر على معادرة المكان تحت حراسه عسكرية .

وقرر لورانس السير شمالا إلى وادي عربة، ومنه إلى البتراء مدينة النبطيين القديمة الخفورة في الصخر الأصم، وكان لورانس يريد الوصول إليها مد أول رحله له إلى سوريا عام ١٩٠٩ . ورغم أن التصوير كان ممنوعا وأنه كان تحت الحراسة المشددة، إلا أنه تمكن من التقاط بعض صور خفية بعد أن تظاهر بأنه يعانى من

الفصل التاسع: أجبرنى رجال التأمين على البقاء فى مكانى

الدوسناريا . ثم أرسل جماله الاننى عشر ورجاله الخمسة إلى وادى موسى فى مدحل البتراء ، وسار هو وداهوم خلصة وتمكنا من تضليل الحراس فى متاهات الوديان حول جبل حور ثم اكتشفنا طربفا بين التلال كانت تستعمله جماعات البدو العازية المسجحة إلى سياء . ووجد لورانس فى البتراء نفسها وليمة ممتعة له ولم يكن مسنعدا لأنر المكان الساحق . ولا يعزى شعوره بالرهبة إلى المعابد والمقابر الخفورة فى الصحر ، بل إلى الجمال الطبيعى للمكان بألوانه الرخامية الحمراء والسوداء ، وصخوره المهيبة وقممه الشامخة ، وذلك الممر الضيق «الشق» الذى يبدو أنه كهف كبير تحت سطح البحر تغطيه زهور الدفلى واللبلاب والسرخس . وتشعر لأول مرة بعجره عن الوصف فكتب لإدوارد ليدز قائلاً : «لستأكد أنه لن تخطر فى خيالك ولو ومضة من جمال هذا المكان إلى أن تراه» . ورغم أن آلاف الزوار الذين يتوافدون على المدينة الصخرية اليوم كابوا لم يفسدوها بعد ، فقد كان هناك معسكر للسانحين بدبره توماس كوك ، وكان نمه وفود قليلة تأتى للفرجة . وقد تمكّن لورانس من أن بسنحدى من اللبدي إيفلين كبولد ، وكانت فى زبارة للمكان ، ثمن تذكرة قطار من معان إلى دمشق ، وقرر فى نفس الوقت ، مطلقاً من أسلوبه المترفع ، أن يطلب من والدته أن تبحث عن هى هذه السيدة فى موسوعة الأفراد .

كانت معان على مسافة قصيرة من تلال البلقاء ، وأرسل لورانس بقافلة أمتعته فى المقدمة كالعادة . وصانفه أن الشرطة استوقفت جماله لأنها كانت ترعى فى مرعى عام وقررت عدم الإفراج عنها إلا بعد دفع العرامة . وكان لورانس قد تعلم من وولى رد الفعل المناسب لمنل هذه المشاكل . ومن نم ، السفط بعض من بنادق الشرطة وسار مسرعاً فى اتجاه مكتب الحاكم المحلى وهو يحمل الأسلحة تحت دراعه . وتبعه رجال الشرطة وقد منعهم الخوف من استرداد الأسلحة . ثم واجه الحاكم وطالبه بالغاء العرامة مقابل إعادة الأسلحة . ورغم ثورة الحاكم ففد وافق على عسر إرادته . وحسباً أمر رجاله أن يطلقوا سراح الحمال أجابه لورانس بصلافة «أرجوك لا تنعب بفسك . لقد غادرت الجمال المدبسة منذ ساعة ونصف» . تم انتظر الفطار فى معان يومين ونصف متدمراً من عدم كفاءة مهندسى السكك الحديدية الأتراك . وأخبراً سافر بالدرجة الثالثة إلى دمشق ، ولم يكن له أن يرى معان مرة

أخرى لمدة سنوات ثلاث، وكان ذلك عن بعد حينما كان راكبا في طريق العفبة على رأس الجيش الهاشمي.

سر لورانس بعودته إلى كركميش، وكان قد عاف الصحراء ومن ثم تطلع مشتاقا إلى عمله الروتيني في الحفريات وتمنى لو استمر لسنوات. وأخيرا، وجد هذا الشاب الذي كان يمني نفسه بأن يقضى حياته فنانا هاويا، وجد نفسه وقد أصبح خبيرا محترفا. وكان قد اعترف لقيفيان ربتشاردز في خطاب أرسله إليه الصبف السابق أن فكرة استقراره في موطنه قد تلاشت منذ أن عرف الشرف «... انزلت تدريجيا حتى وجدت نفسي، مند أشهر، وقد أصبحت أركولوجيا عاديا. لقد قاومت بعنف وأنا في أكسفورد حتى لا أنسى لمط محدود، إلا أن رجال التأمين قد أجبروني الآن على البقاء في مكاني». بعد أنه لم يكن للعمل أن يبدأ حتى نهاية مارس لأن كيسيون كان قد غفل عن تجديد التصريح، وفي اليوم الذي وصل فيه وولي ولورانس بالنصرريح كانت هناك معركة في معسكر السكك الحديدية.

بدأت المعركة حينما اكتشف أحد العمال الأكراد ويدعى علي أن أجره عن عمله الشاق طوال شهر كامل كان خمسة قروش فقط. وكان أجر العامل اليومي في الشركة الألمانية ثمانية قروش، إلا أن الصراف كان خصم بمن الحبز الذي كان يصل من الفرات دون مقابل ولا يراه العمال. واحتج علي قائلا إنه يستحق أكثر من خمسة قروش عن عمله إلا أن الصراف لم ينصت لهم ففقد الكردى بالنقود في وجهه. وهنا قام خادم الصراف المركسي بضرب علي وطرحه أرضا، إلا أن عليا نهض حاملا حجرا فحاول الخادم إطلاق النار عليه الأمر الذي دفع الأكراد الآخرين، وكان عددهم مائة وخمسين، إلى أن يثوروا وبلغوا بالحجارة على مكتب المهندسين الألمان فحطموا النوافذ. وحينذاك، التفط الألمان سادفهم وأطلقوا النار على الجميع فأصيب ستة عمال من العرب الأبرياء الذين كانوا مهمكين في أعمالهم على بعد ثلاثين ياردة. وهنا ألقى العرب معدانهم جانباً وأخرجوا مسدساتهم وأطلقوا السيران على العدو المشترك فعمد المهندسون الخاصرون إلى مهاجمة معسكرهم وسرعان ما اندفعت كنيبة مكوبة من ثلاثين جنديا شركسبا

الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكاني

وتركيا وبعض زملائهم من المهندسين عبر القنطرة وبدأوا في إطلاق النيران من مسافة قريبة . وعندما خرج لورانس وولي من منزلهما ليريا ما حدث تعرضا لقذف النيران ولمح لورانس شركسيا يدعى أحمد زكريا يخطو على بعد حوالي ستين ياردة وبصوب إلى وولي . إلا أن الرجل لم يحسن التصويب وارتدت القذيفة حول قدميه . ومن ثم ، اندفع لورانس إلى مكتب المهندسين ليخبر الألمان أنه لا يجوز إطلاق النيران عليه هو وولي . وحينما وصل لورانس إلى التل أدهشه أن يرى أن حوالي ثلاثمائة كردى وعربى قد تسلقوه من الخلف واستعدوا لهجوم انتحاري على الكتيبة . كان من بحوزتهم مسدسات منغولين بتعبئتها ، أما الآخرون فقد أخذوا في النقاط العتلات والعصى . وحاول لورانس الدفع بهم إلى الخلف حتى إنه ألقى ببعضهم أرضا إلا أن أحمد زكريا بدأ في إطلاق النيران مرة أخرى ، ورغم أنه لم يصب لورانس إلا أنه أصاب صبيا كرديا كان يتحدث إليه الأمر الذي فجر ثورة الأكراد الخمومة ولم يتمكن الإنجليز من منعهم من إطلاق النيران إلا بشق الأنفس . ومرت اللحظات الحرجة ، ونجح وولي ولورانس أخيراً في إقناع الرجال أن يحملوا حراحهم إلى منزل البعثة ثم تفرق الجمهور في القرية بعد حوالي ساعة . وكانت النتيجة هي قتل أحد الأكراد وإصابة حوالي عشرين برصاص الألمان .

وفي اليوم التالي ، حينما وصل القنصل البريطاني والألماني برفقة كتيبة مكونة من ٢٥٠ جنديا عثمانيا كان المعسكر يسوده الهدوء . وطلبت شركة السكك الحديدية من وولي ولورانس أن يتفاوضا نيابة عنها للوصول إلى اتفاقية سلام وذلك عن طريق صديقهم الكردى بصراوى أغا . واقترح لورانس دفع ٨٠ جنيها اسنرلبنيا دية عن الرجل المتوفى و ٤٠ جنيها تعويضا لباقي المصابين . كما أوصى أيضا بفصل الشراكسة واستبدال الصراف وأحد المهندسين وتعيين ١٢ كرديا مراقبين بأحر بومى . وقوبلت تلك المقترحات بارتياح من الطرفين وسافر بصراوى أغا في حماية القنصل البريطانى راف فونتانا إلى حلب لنوقيع الاتفاقية هناك . بيد أن وولي ولورانس لم ينسيا أحمد زكريا الشركسى الذى حاول متعمدا إطلاق النيران عليهما ، ومن ثم أصدرت السلطات العثمانية تعليماتها بالقبض عليه غير أنه فر إلى الجبال ولم يعثر عليه أبدا . وبعد أسابيع أوقف العمل بالحفريات . وكان وولي ولورانس قد أعدا جزءا من تقريرهما عن مسح النقب The Wilderness of

Zin. ولما كان الأمر يتطلب بحنا جوهريا عن خلفية أعمال الاستكشاف الذى لم يكن من الممكن إعداده إلا من خلال المكتبات فى بريطانيا، فقد قرر لورانس العودة إلى أكسفورد بدلا من النحوال هذا الصنف. ولم يأت له رؤية داهوم أو كركميتش بعد ذلك أبدا.

ففى ١١ من أغسطس، وببما كان لورانس فى شارع بولستيد بأكسفورد، سمع أن بريطانيا وألمانيا قد أعلنتا الحرب. وتدافع الشباب بمن فيهم إخوة لورانس وزملاؤه السابقون من كل الأنحاء للتطوع فى الجيش. أما لورانس فقد امتنع. ورغم أنه أخبر روبرت جريفز فيما بعد أنه حاول الالتحاق بوحدة لتدريب الضباط إلا أنه رُفض لكثرة المتطوعين، فقد أنكر هذا واعترف لليدل هارت أنه لم يحاول التطوع أبدا. وقد أكد إدوارد ليدز، الذى كثر ما عمل معه لورانس فى المتحف الأشمولى، أن حمى التطوع لم تمسه أبدا «وعلى قدر ما أذكر، فلم تكن لديه أية شكوك حول واجبه... فقد كان يريد أن يسهم وكانت شكواه أنه ليست لديه الفرصة للإسهام المجدى... إلا أنه انتظر». كان لورانس يرى بوضوح أنه يستطيع تأدية واجبه على أكمل وجه فى الشرف الأوسط، غير أن تركيا لم تكن قد لحقت بعد بالجانب الألماني فى الحرب. وتوقع منه لهذا، تقدم بطلب للالتحاق بالأركان العامة البريطانية فى مصر وفى سبتمبر كتب إلى صديق له يقول «إن المصريين بقولون إنهم يريدوننى لكن ليس الآن، وليس بإمكان وزارة الحرب قبولى حتى تبت وزارة الحرب فى مصر فى أمرى». كان لورانس ذا قابلية حاصلة للتوتر، ومن ثم أفلقه الاحتمال المرعب ألا يدخل العثمانيون الحرب، لأنهم إن لم يفعلوا، فستصبح المهارات الخاصة التى اكتسبها على مدى السنوات الخمس الماضية غير ذات جدوى للمجهود الحربى. ولن يكون أمامه بديلا سوى الالتحاق بكتيبة مقاتلة ذاهبة إلى فرنسا. بدت أيام الانتظار القلق دون نهاية وكتب «يجعلنى الملل الرهيب عصبا دون فعل شيء، ودون الحصول على أبناء مرة فى الأسبوع، وقلق من حولى». ولدى انتهائه من تقرير The Wilderness of Zin فى أكتوبر لم يستطع صبرا، وتقدم بطلب إلى مرشده دافيد هوجارث كى يحصل له على وظيفة عسكرية. وكان هوجارث بجهد صعوبة فى الحصول على عمل عسكري لنفسه، إلا أنه تمكن من إلحاق لورانس بوحدة MO4، أى القسم الجغرافى للمخابرات العسكرية وكان

الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكاني

رئيسه، الكولوسل هوت هيدلي رمبلا لهو جارت في مجلس الجمعية الجغرافية الملكية. ومن حسن الحظ، كان هيدلي قد سمع عن قدرات لورانس من ستوارت سو كومب ومن «صادوق التنقيب في فلسطين»، ووافق على صدمه كي يساعد في عمل خريطة موسعة لسبأ والتي كانت موجودة على شكل مسودة في ثمان وستين صفحة. كانت تعليمات هيدلي للورانس جافة إذ أحبره «أذهب فانظر ما أنت فاعل بهذا الشيء الملعون». لم يعن لورانس أنه لم ير سوى جزء صغير من شمال سبأ أثناء مسح النقب، وانتهى في ذات الليلة من خريطة مساحتها ست باردات مربعة كان جزء منها دقيقا والأجزاء الأخرى من احتراة كما اعترف بذلك. ومن الواضح أن هيدلي خُذع فيما اعتقد أنه إحاطة كامله من لورانس بالتفاصيل، إذ إنه حينما استعلم منه هو جارت بعد أيام عما إن كان قد وجد الشاب ذا بفع أجابه «إنه يدير قسمي بأكمله الآن نبابة عني» وكان بإمكانه أن يصف أن لورانس قد أصبح هو القسم لأن جميع موظفي الخرائط الآخرين كانوا قد أرسلوا إلى فرنسا. إلا أن لورانس كان مازال مدنيا، الأمر الذي أثار جدلا حينما أرسل لإبصال بعض الخرائط إلى الجرال رولبنسون، وكان ضابطا من رتبة كبيرة اسابه الفزع حينما رأى ذلك الشخص «التافه» في زبه المدنى فصاح «أريد أن أتحدث إلى صابط». وسرعان ما قام هيدلي بصحيح الوضع بأن أوصى بضم لورانس إلى الخدمة حتى دون كشف طى وتم تعيينه فوراً «ملازما نابيا لأعمال الترجمة بصفة مؤقته». ومن نم ابتاع زبه في السوم التالى من على مشجب في محل بيع ملابس للحيث والسحريه.

وسما كان لورانس وولى يتجولان في النقب في فبراير عام ١٩١٤، وصل الشريف عبد الله، الابن الثانى لحسين أمبر مكة إلى القاهرة في زيارة لسلطان مصر. ولم يكن عبد الله حبيدك نفس الشاب غير ذى الخبرة الذى هبط من السفينة «طيطا» في جده عام ١٩٠٨، بل كان قد قضى سنوات مرافقه في ممارسات تشد عوده، مثل ركوب الخيل مع حنود أبيه من البدو، والخروج مع أحوبه على وفصل لسن عارات محدودة ضد القبائل المتمردة، أو القتال في عسير باسم الأتراك. وكان الكنيرون يعبرون الشريف عبد الله الداهية ذا الشعبية الكبيرة، السلطة الحقيقية في الحجار... وقد كان الآن في طريقه إلى إسطنبول للشكوى من

النظام الإداري الخلى الجديد الذى كان المسئولون العثمانيون قد أعلموه لتوهم . كان الهدف من هذا النظام ، الذى سمي بنظام الولايات ، هو إبعاد القيادات العربية التفليدية من أمثال والده الشريف حسين الذى استمر فى كسب قبائل البدو بشكل مطرد . وكان الباب العالى ، من أجل تأسيس النظام الجديد ، قد قرر مد خط سكك حديد الحجاز من نقطة اسنهانه الحالية فى المدينة إلى مقر الأمير فى مكة . وبالفعل ، قام بإرسال حاكم متشدد يدعى وهيب بك على رأس سبع كتائب مشاة وكتيبة مدفعية للمساعدة فى تنفيذ المهمة . وأدرك عبد الله أنه إن تم مد الخط فسيعنى هذا نهاية سلطة أسرته إلى الأبد .

وكان خط سكك حديد الحجاز قد وصل المدينة عام ١٩٠٨ أى العام الذى عاد فيه الهاشميون إلى مكة ، غير أن الشريف حسين فضل السفر بالباخرة ويرجع هذا جزئيا إلى أن البدو كانوا يحاصرون المدينة . وكان الخط يعتبر انتصارا للنظرة الإمبراطورية العثمانية ، ولدقة الهندسة الألمانية ، فقد كان يعبر ٨٠٠ ميل من الصحراء والتلال القاحلة التى ظلت صامتة لآلاف السنين إلا من خطوط الرجال ودواب الجمال . وكان طريقا سميتريا من الصلب اللامع الغريب ، من تصميم ماسنرر باشا المهندس الألمانى ذى الدافع والعبقرية الفذة . وتم تنفيذه بواسطة قوة من الجيوش الأتراك فوامها ستة آلاف جمدى صبغت دماؤهم كل مبل من الخط تقريبا ، كان الأتراك يحركون مطارقهم بتصميم لا يشنى وهم يتقدمون ببطء ويعانون الحرارة والعطش والجوع والذباب والمرض . كانت هناك مشاكل كبيرة يجابهونها : الوديان الشاسعة التى كان يلزم مد الخطوط فوقها بدعامات بلغ عددها عشرين كوبرى مقوسا ، وتكويبات الحجر الرملى التى كان يلزم سقها أو تفجير ممرات فيها . كان الخط بحاجة إلى صيانة متواصلة ، فمثلا ، كانت مواد الرصف تتآكل تاركة فتحات تحت القصبان ، أو تسد الرمال القنوات التحتية ، أو تحتلئ مياه الفيضانات بالرواسب وتجرف السدود ، أو بخرب البدو المغبرون الطرق . وكان العمال يشتغلون فى مجموعات مكونة من عشرين إلى خمسين شخصا ، وكانوا دائما مسلحين ، بينما كان الحراس يتمركزون فى الأماكن المرتفعة لبنينهم بمقدم جماعات البدو . ولم يكن يسمح لأى بدوى بالاقتراب من المحطة دون تصريح وإلا تعرض لإطلاق النيران . وكانت كل محطة فى الحجاز تقريبا

الفصل التاسع: أجبرنى رجال الثأمين على البقاء فى مكانى

حسبها قلعة ححرية، ولكل منها مخزن مياه جوفى، وفتحات لإطلاق النيران، وأسلاك شائكة تحيطها. فإن حدث ولمح الحراس قدوم جماعات مغيرة، أعطوا الإشارة لجماعات العمل، الذين كانوا يقفزون إلى المركبات ويسدعون نحو المحطة. وكان يحدث أحيانا أن يتعرضوا لهجمات عصابات السلب قبل أن يصلوا لبر الأمان، ويصرعون رجلا رجلا. وكانوا فى أحبان كثيرة يجبرون على الاختفاء لأيام عديدة. فقد كان من غير الممكن التحكم فى البدو إذ إنهم لم يكونوا ليشقوا فى أحد، وكانوا دوما فى حالة حرب مع الحكومة وضد أحدهم الآخر. بيد أنهم كانوا منحدبن فى كراهبتهم للسكك الحديدية التى قللت من حركة نقل البضائع، ومكنت الأنراك من إحكام قبضتهم على الحجاز.

وفى يناير عام ١٩١٤، والحاكم الجديد فى طريقه مع كتائبه النماني، لعب حسين بكارت البدوية سريعا، فجدد شيوخ القبائل وأخبرهم عن وصول وهيب وعن أهدافه: «إن السكك الحديدية ستقصى عليكم تماما، فبمجرد أن يتمكن الأتراك من الدفع بمواتهم إلى أحرار الحجار، لن يكونوا بحاجة إلى دفع الذهب إلى البدو». ورأى البدو أين تقع منفعتهم، وأكدوا دعمهم لأميرهم. ولدى وصول وهيب فابلله حالة من الفوضى. فقد كانت قبائل البدو قد قطعت خطوط الهاتف، وكانت المدن جائعة، وأخذ المعرون ينهبون المحلات فى جدة ويهاجمون القوافل. واحنقى رنيس الشرطة الذى اختطفه البدو فى طريق الحج. وبعث الحاكم برسالة بانسه إلى إسطنبول، وللحطة، بدا الأمر وكأن الأتراك سيرسلون بعثة تأديبية من سوريا حرا. إلا أنهم تراجعوا، وعرضوا على عبد الله ٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى لإقناع والده بإنهاء العصيان، مع وعد بأن يكون له نصف دخل السكك الحديدية بمجرد مد الخط إلى مكة. وأدرك عبد الله بفطنته أنه بمجرد إكمال خط السكك الحديدية سسخرفى هذه الوعود.

ومن عسر المؤكد إن كان عبد الله قد حضر إلى القاهرة بهدف جس نبض البريطاسن تجاه نركبا. وكان قد فكر بالفعل فى احتمال إشعال تمرد بين الوحدات العربية فى الحسنى العثمانى فى سوريا والعراق، ثم يضمن أولا اسنقلال الحجاز بمساعدة البريطاسن، وربما دولة عربية أكبر فيما بعد. وقد يكون لقاء عبد الله

وكينشسر، المعتمد البريطاني في مصر وحاكمها الفعلي، أثناء حفل استقبال رسمي، قد تم مصادفة أم عمدا. وكان كيتشنر يهتم بالحجاز من أجل سلامة الهنود الذين يؤدون الحج. وكان هذا هو الموضوع الذي نافشاه في لفائهما الأول. وفي اليوم التالي زار عبد الله كيتشنر واستعلم بأسلوب غير مباشر عن موقف بريطانيا في حالة تصاعد الصراع بين الهاشميين والأتراك. وكان كينشسر حذرا، فهو شخصا كان يعتبر تركيا عدوا مرتفيا سيهدد قناة السويس الهامة في حالة الحرب. وكان هذا في الواقع سبب لزوم وجوده، وهو الرجل الإنجليزي، كقوة فاعلة في مصر، وهي بلد كانت من الساحة الفنية مازالت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. إلا أن بدبه كانا مغلولتين رسميا. ومن تم، فقد أوضح لعبد الله أن تركيا «بلد صديق حارست بريطانيا في الفرم من أجل حمايتها، ولهذا، فمن غير المحتمل أن تتدخل بريطانيا في صراع بين الحجاز والباب العالي».

ولم تجد احتجاجات عبد الله في إسطنبول لدى جماعة الاتحاد والترقي سوى آذان صماء. وعاد إلى القاهرة وهو يغلى لسوء استقباله. إلا أنه كان قد نفي إلى جواسيس الباب العالي معلومات عن مناوئاته مع البريطانيين وأفنعوا كيتشنر بالعدول عن لقائه. وبدلا من هذا، تحدث عبد الله مع رونالد ستورز السكرتير الشرقي للوكالة البريطانية وطلب منه شحنة مدافع للتصدي للأتراك. وأجاب ستورز، إن اهتمام الإمبراطورية البريطانية الأوحـد بالحجاز ينحصر من حيث «المبدأ» في سلامة حجاجها وكرر عدم استطاعة بريطانيا التدخل. إلا أن ستورز، بينه وبين نفسه، كان متعاطفا، وأوحى، عن طريق الكلمات المختارة أن إجابة بريطانيا ليست نهائية كما تبدو. وأحب الرجلان أحدهما الآخر؛ ستورز، المسنرف البريطاني التقليدي، وكان دمثا، مغرورا، مصقولا، وربما مخننا، محبا للفنون الجميلة والموسيقى؛ وعبد الله، وكان أميرا عربيا حكيما مهذبا مصقولا، ومقاتلا ذا شعبية كبيرة يستشهد دوما بأبـات الشعر العربي، وبحب الصبية. وقد تكون الثورة العربية قد ولدت حينما واجه مثلا الأمتين اللذان يتمتعان بفدر عال من الذكاء أحدهما الآخر في فصر عابدين وتبادلا تلميحات وتوجيهات بإشارات لا تكاد تلمح.

الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكانى

ولم يكن بدا حتى بهابة هذا الخريف أن دخول تركيا الحرب أمر لا مفر منه . واستطاع كينشر أن يخرج إلى دائرة الضوء فأرسل في ٢٤ سبتمبر برفقة من لندن بتعليمات إلى سنورز أن يبعث برسول سرى مونوف فيه إلى «عبد الله في الحجاز ليعرف ما إن كان الهاشميون سؤازرون بريطانيا أم يعادونها في حالة الحرب» . ومن ثم ، كلف ستورز عميلا فارسا سابقا يدعى على أصغر ، والذي عرف فيما بعد باسم «العميل X» بالذهاب إلى مكة مختفيا كأحد الحجاج . وفي ٥ أكتوبر ، غادر على السويس ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام ، واستأجر حمارا نظير جنيهين استرليبيين . وبعد أن اختبأ طوال الليل ، وصل إلى المدينة المقدسة في الصباح التالي . ثم تمكن من الاتصال بعبد الله بعد انتظار عدة أيام . وقبل نهاية الشهر وصل إلى القاهرة ومعه رسالة لم بتوقعها كينشر الذي كان سيسعده مجرد موافقة العرب على عدم دخول الحرب ، وبدلاً من هذا ، وعد عبد الله أن بظل محايدا مؤقتا . لكنه كان على استعداد بدعم ديبلوماسى «أن يقود أتباعه المباشرين في نورة مسلحة» ، الأمر الذى أدهش كينشر وتم إبراق النص إلى لندن في ٢٩ أكتوبر . وبعد يومين ، أعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب رسميا على بريطانيا . وفي أوائل ديسمبر ، تم إرسال لوراس و وولى ونوكومب إلى هيئة الأركان العامة بالقاهرة .

القاهرة.. أشياء لا يُنطق بها

القاهرة وما بين النهرين

١٩١٤-١٩١٦

10

لدى مغادرتي

السيارة الأجرة ذات اللونين الأبيض

والأسود في ميدان الأزيكية

بالقاهرة، وجدت بعض الصعوبة في

العثور على فندق الجراندي كونتيننتال.

وفجأة تحققت أنه ذلك البسيان القبيح

المنهالك المقابل لحدائق الأزيكية والذي

بحفيه جزنيا بعض

المخلات الكنيية.

كنت قد رأيت صورة لما كان عليه المكان عام ١٩١٤ تتوج خطابا كتبه تى . إى . لورانس ، وكان من الصعوبة أن أستوعب أن هذا المبى المنهالك العفن هو نفس ذلك القصر الكلوبالى العظيم الذى أكد لى « كتالوج » إبه وسى بلاك A & C لعام ١٩١٦ أن قائمة نزلائه كانت من صفوة الصفوة . لقد انتهى العالم الفخيم للزمن الجميل فى مصر حين كانت القاهرة مشتى عصريا ينافس نيس ومونت كارلو . . . احتفى مل الفندق نفسه حلف واجهة القاهرة الرنة كمدينة حديثة محمولة . ظهر لى فى الردهه المظلمه رجل يحوم الذباب حوله ذو أسنان صفراء ولحية لم تحلق منذ يومين وحينما سألته عن سعر العرفة قال . إن هذا المكان لم يعد فندقا مد عشر سواب . ونلبس رجل آخر بدعى خالد أنهكه الزمن ، كان يجلس فيهما كان يوما مكب الاسفسال ؛ وأصبح الآن مكانا تسافط طلاؤه ، وبهتت ستانره المخلية ، يلمس طريقه وسط أرنسف الأوراق واستخرج كارت بوستال ملوبا به صورة الفندق كما كان مند عشر سنوات : كان مهملا كما هو الآن . وأخبرنى أنهم فالوا

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

إليه لا يمكن ترميمه، ونظرا لأنهم لا يستطيعون استعماله كفندق فقد حولوه إلى مكانب. نم أحبرى أنه وإن لم تكن نمة فرصة لأرى غرف الأدوار العليا، إلا أنه سيرى الجزء السفلى. وهنا، أحضر حلقة كبيرة بها مفاتيح، وقادنى كسجان عبر الردهة، وفتح شقة كبيرة من الصلب كانت قد سُمّرت على أبواب قاعة الطعام. كانت العرفة متسخة بشكل يبعث على الدهشة، ومفروشة بسجاد مخملى خمرى اللون وأصحى باهتا ومتعفنا ومغطى بروث الفئران وأجزاء من الكسارات المنسافطة من السفف. قال خالد: «لقد كنت خادما بالفندق فى الزمن القديم. كان يؤمه الملوك والأمراء من جميع أنحاء العالم وكان أفضل فندق فى مصر». ثم أشار إلى لوحات حصبه جدارية لآلهة مصرية قديمة ولعراة كانت تزىن الحدران وقال «فام برسمها فنان إيطالى منذ أكثر من مائة عام». وفكرت أنه لابد وأن لوراس كان يعرفها جمعا إذ إن الحراند كونستال كان قاعدته لشهور تسعا، فى عامى ١٩١٤ و ١٩١٥، وكان يناول العداء والعشاء فى هذه العرفة كل يوم تفرسا. كان بالإمكان رؤيه بفانا كسك وكالة سباحية فى الردهة، ولوحه متأكلة

تعلن عن رحلة نيلية وبقايا محل مجوهرات. أرانى خالد أيضا ما كان بارا، رغم أن كل ما تبغى منه كان الأرفف المصنوعة من المرايا المزينة بالفسيفساء حيث كانت تعرض القوارير وقال. «كانوا يشربون الوبسكى هنا». وتخلت القاهرة العظيمة الطيبة عام ١٩١٤ - رونالد ستورز، وبرتى كليتون، وجورج لويد، وأوبرى هربرت، وستيوارت نيكومب وآخرون - يحنسون مشروباتهم، وملبون فى رءوسهم شديدة التمدين أحلامهم بالإمبراطورية وبالثورة العربية.

سرت خارج الردهة إلى ضوء الشمس الأصفر وإلى حركة مرور متخمة حول سور حديقة الأزبكية التى تقع مقابل الفندق. كانت الحديقة قد أغلقت للجمهور منذ أن أغتصبت فناء هناك فى وضح النهار، كما أخبرنى خالد. وبدت الحديقة من خلال السور دابلة مشعنة، إلا أنها كانت درة المدينة فى ١٥ ديسمبر عام ١٩١٤ حينما سكن تى. إيه. لورانس الجرانند أوتل، تلمؤها الشحرات الغربية من اسراليا ومدغشقر وكوبا. ففد وجد لورانس القاهرة مدينة غلؤها الحياة. ولم تسهم الحرب التى كانت قد أعلنت مع تركبا قبل ذلك سنهين فى الإقلال من جاذبية موسمها الشتوى، بل استمرت حفلات الاستقبال المحمومة وحفلات الرقص التنكرية والعشاء، والرحلات، ومباريات سباق الخيل ومباريات التنس فى كامل أوجها. وكان الموسم يبلغ ذروته فى المهرجانات التى كانت تقام فى سراى السلطان حسين كامل بعبادين، وفى مقر المندوب السامى البريطانى بقصر الدوبارة، حيث كان السير هيو ماكماهون فد حل محل اللورد كيتشر مندوبا بريطانيا. وكانت هناك مصادر أخرى للمتعة لمن لديهم الوقت الكافى من أعضاء الطبقة الراقبة. فكان بإمكانهم لعب الجولف والبولو فى نادى الخدوى الرياضى فى جزيرة الزمالك، أو احتساء القهوة نظير قرشين فى جروبى أو الكافيه إجيبيسيان، أو أن يعبوا الجمعة الإنجليزية فى بوفيه السافوى، أو أن يحملقوا فى عروض الغوازى الممنوعة فى إلدرادو، أو أن يركبوا الحمير فى ضوء القمر حتى أهرامات الحسرة، أو أن يذهبوا للصيد فى دلتا النيل فى عطلة نهاية الأسبوع.

وكانت الحرب الوشبكة قد أضفت على الضباط البريطانيين الدين يسكنون الفنادق الأنيقة مثل الكوننتال وشبرد نوعا من الجاذبية، وكان الطلب كبيرا على الصباط غير المتزوجين من رتبة الملازم من الفتيات اللاتى يقضين الشتاء فى القاهرة.

الفصل العاشر، القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

فبعد الظلام، كانت تطفو، كالطواويس في الحديقة أعداد من الشبان متيبسي الظهر، في زيهم العسكري الذي صنع خصيصاً لهم، وإزاراتهم وأحذيتهم اللامعة من ماركة «سام براون» وقبعاتهم الحربية وقد ضبطت بزواية معينة محددة. ولا يبدو أن الملازم ثان لورانس كان ينتمي إلى هذه الطبقات الفاخرة من الرجولة البريطانية. فقد كان، وهو صغير الحجم، الأشعث المظهر، ذو الشعر الطويل أبعد ما يكون عن مظهر العسكرية، لدرجة أنه نادراً ما كان ينظر مباشرة في عين أحد، حيث ادعى أنه لن يمكنه التعرف على والدته إن هي ظهرت أمامه فجأة. وكان قد أتقن فن الحديث لمدة تتجاوز العشرين دقيقة دون أن يُظهر أن لديه أية فكرة عمن يخاطبه. وبالتأكيد فإن لورانس لم يحاك أزياء زملائه التي خيطة خصيصاً لهم. فقد كانت سراويله واسعة غير مكوية، وأزراره غير مجلوة وأزرار جيوبه مفتوحة في الغالب، أما حزامه «السام براون» فكان، في حالة ارتدائه له، فضفاضاً ومتدلياً. وكان دائماً يرتدى شارات لرتب مختلفة على الكتفين. لذا، كان من المحال في أى وقت القول ما إن كان ملازم ثان متواضعاً أو مقدماً ذا مظهر غير متوقع. كان دائماً يرتدى قبعته بميل بحيث يظهر شعره القشبي اللون من تحتها. وامتنع عن تزيين نفسه بالأوسمة كازدراء نهائي للتقاليد العسكرية وتعبير مرئي عن كونه «مدنيا يرتدى الزي العسكري». وكان يرتدى حذاء من الجلد اللامع الذي يستعمل في المساء بدلاً من الحذاء العسكري، ورباط عنق من اللون الأحمر الدموي بدلاً من رباط الجيش الكاكي. وفيما بعد، كتب المقدم بيرس جويس قائده في الحجاز، عن لقائه الأول بلورانس أنه «يتذكر رغبته العارمة أن يخبر لورانس أن عليه أن يقص شعره، وأن أزاريره القذرة وزيه يحتاجان لعناية مراسلته». وكان لغياب الشارة من على قبعته سبباً في مواجهته مصاعب كانت تروق له. فذات مرة، حينما كان يحاول صرف شيك من شركة توماس كوك بالقاهرة سأله المدير عن وحدته فأجابه دون إيضاح «ليس لدى وحدة» حينذاك طلب المدير قائمة العاملين بالجيش فقال له لورانس «لا تزعم نفسك فاسمي ليس على القائمة إلا أننى أود أن أصرف الشيك». وحينما امتنع لورانس عن تقديم أية إثباتات عبر المدير عن أسفه لعدم استطاعته صرف الشيك إلا بعد أن يرسل برقية إلى إنجلترا.

وكان لورانس يميل إلى أن يمشى الهوينى بدلاً من المشية العسكرية، كان أبصاً

تجاهل التحية من الآخرين بنفس الإصرار الذى كان بنجاهل به رؤساءه من الضباط ويحدث الجميع، سواء من رتبة أعلى أو أقل، بنفس اللهجة الأكسفورية العملية المدروسة المتحدلفة الغربية. كان يترك أثرا. قد درسه بعناية، بأنه ذلك الأكسفوردى، شارد الذهب، فى غير موضعه، وقد انتهى به الأمر دون قصد منه إلى ارتدائه الزى العسكرى. وكان يشير إلى قسم المخاطر على أنه «الكليه» ولا يخفى ازدهاره لصباط الجيش النظاميين البيروقراطيين، وللعسكريين الروتبيين، ولعشاق الصيد والمنص وصيد الأسماك من خريجي المدارس البريطانية العامة، هذا، رغم أنه كان يزهو لوالديه زهوا طبقيا من أنه يعمل مع «اللورد إنجلس، واللورد هارتيجنون والأمير الكسندر من ناتنبرج».

وكان مطهره الشاذ يناقض تفكيره الحاد. ومن ثم، أفسم أن ينهى حالة عدم الكفاءة، وقرر، وقد تم تعبينه مسنولا عن جمع الخرائط التى أمدت بها المساحة المصرية القيادة العامة، أن يمارس إنتاج الخرائط كمن بنناول «شربة الملح». فقد كانت المعلومات الطبوغرافية عن كثير من مساح العمليات الحربية نادرة، وكانت أسماء الأماكن تكتب بطرق متنوعة مختلفة اختلافا كبيرا. ورغم أن لورانس كان يعرف أنه لا توجد طريقة محكمة لكتابة العربية بالإنجليزية، فقد كان فيما بعد يزهو زهوا كبيرا لمقدرته على تهجى الأسماء العربية؛ وتحقق أنه لابد وأن تكون هناك خطة متسقة متشابهة مع النطق الفعلى. ولم يدخر وقنا فى أن ينتقد نظام النقل إلى الإنجليزية المتبع فى المساحة لمدير مكتب نسخ الخرائط، و. ه. كروثوب، وكان هو من ابتدع النظام. وكذلك، فقد أهان و. م. لوجان مدير مكتب جمع الخرائط الذى عارض بشدة أن ترأسه ذلك المدعى الصلف للمغرور. وتذكر إرنست دوسون أن أساليب لورانس لم تحل دون تعاون المغرورين وغير الأكفاء ومحبي النظاهر فقط، بل إن صلافته وغيرة أطواره وعادته المستفزة فى الاستهزاء بغيره كانت تثبط رجالا عقلاء ذوى مقدرة. وكانت روح القاهرة تختلف تماما عن كركميش التى وجد لورانس فيها نفسه أوربيا فى مساحة شاسعة كان فيها قسلا غير رسمى، وصاحب عمل محلى، ورجلا ذا أهمية عظمى. وفجأة تنبه إلى أن اللعبة التى كان يمارسها فى القاهرة كانت أكبر كثيرا. ومن ثم سعى من منطلق إحساسه الفطرى بعدم الكفاءة وتقديره الضئيل لنفسه إلى تثبيت نفسه فى مكانه.

الفصل العاشر، القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

فتباعد عن الدوامة الاجتماعية. فلم يكن بالتأكيد أحد الذين يزنون مقاعد حانة الكوننتال. وكان يقول إنه ليس من الممتنعين كلية عن الشراب ولكنه فقط غبر ذى ميول اجتماعية نجعله يستمتع به فى جلسة مسترخية. ولم يكن أبداً بشعر بالآلفة مع المصريين، فبعد عدد من عزواته فى الشوارع، أيقن أن المصريين يفتنون سادتهم البريطانيين. وكتب بعد استقراره فى المدينة «إن بالقاهرة أشياء لا يمكن النطق بها. فقد قمت بإجازة الشهر الماضى لمدة يوم وذهبت لمشاهدتها: لا أرغب فى المزيد، إننى لا أفكر أنه خلافاً لهذه الحماسة فقد كان من المحتمل الآن أن أكون فوق تل عند منحى الفرات فى مكان نظيف حيث يوجد غير بعد عنى أناس محبون. لا أعرف ما إن كنت سأستقر مرة أخرى أبداً أو أنى سأهتم بالأشياء المناسبة.»

وفى فبراير عام ١٩١٥ وصلت دراجة السباق الخاصة بلورانس من إنجلترا، وصار يركبها كل صباح من الكوننتال إلى مقر القيادة العامة فى فندق السافوى الذى كان موجوداً بما يعرف اليوم بميدان طلعت حرب، ويحتل مكانه الآن محل لبيع الملابس. وكان يدير قسم الخبايا الذى عين به صديقه ستوارت بيوكومب ويضم ثلاثة من الضباط الآخرين. لينارد وولى وعضو برلمان عن احادات العمال تم تعيينهما حديثاً وهما جورج لويد وأورى هربرت. ورغم القصص التى شاعت فيما بعد عن «الفرسان الخمسة» فقد كان، ومنذ البداية، هناك قسمان بالمكتب. بيوكومب، ولورانس، وولى الذين كان يعرف أحدهم الآخر عن قرب منذ أيام عملية مسح صحراء النقب، بينما كان هربرت ولويد كلاهما من ويلز وخريجى مدرسة إيتون وكانا قد خدما كملحقين شرفيين فى السفارة البريطانية فى إسطنبول، وكانا هواة استشراف من نوع هوجارث يتحدثان «سته» لغات فبما سنهما، واكتسب هربرت صيت المغامر إذ إنه حارب فى صفوف الأتراك فى البلقان واليمن. كان الابن الأصغر للورد كارنافون، وتم تخليده فيما بعد باسم ساندى آرشيوت فى رواية «المعطف الأخضر Greenmantle» للكاتب جود تشان. «تسمع عنه فى موانئ الصيد الصغيرة المنسية حيث تنعمس جبال البانبا فى الأدرياتيك. وإن ذهبت إلى الحج فى مكة، فقد تلتقى بين الحجاج بعدد من أصدقاء ساندى. وفى أكواخ الرعاة فى القوقاز، سنجد قطعاً من ملابس خلعتها هناك. فقد

كان ذا موهبة في خلع بعض من ملابسه في تحركاته. كان هذا الهاوى الأسنقراطي الوانق من نفسه يلقي القبول والنفور من لورانس الذى اعتقد أنه «عسر مألوف» و«إنه من الطرائف» إلا أنه «لطيف جداً». وبادل هربرت لورانس نفس الخليط من الإعجاب والانتقاص فكان بدعوه «مخلوف خرافى» و«بصف وعد» إلا أنه اعترف أن به مساً من العبقرية. وكان لويد، الذى قسم وقته بين دائرته الانتخابية والشرق وإدارته للبنك، ويلزيا من الطبقة الراقية وقد وجد لورانس «مزعجا للعبة»، لكنه كان يقدر معرفته بالنجارة والسياسة، ومظهره الدال على الثقة، واسمرت صلته بلويد بعد سفره وهربرت إلى غاليلوى، كما أنه سافر معه فيما بعد إلى المعركة. ولم يشعر كل من لويد وهربرت بالارتياح إلى نيوكومب، واعترضا على تلقى الأوامر من هذا «المتسلل Sapper، سىء التنشئة» رغم اعترافهما بشدة ذكائه ومقدرته. أما لورانس فكان له رأى مختلف فى نيوكومب وكتب عنه «إن نيوكومب نعمة كبرى.. فهو يدبر كل الجواسيس، ويسب كل من لا يؤدى واجبه من المرءوسين، ويمتص غضب الجنرالات، ويلين الأشياء. وبدونه، فلا بد وأنى كنت سأصاب بالجنون». وكان رئيس نيوكومب المباشر هو قائد مخابرات الشرق الأوسط المقدم جلبرت «برتى» كليتون، الذى كان صابطا سابقا فى الجيش المصرى، وكان قد حارب الدراويش فى أم درمان إلى جانب اللورد كتشنر. وكان كليتون النموذج الأصلي للشخص «الرمادى» هادئا، ومتواضعا، إلا أنه كان كما اكتشف لورانس «أكبر كثيرا... مما يبدو للوهلة الأولى». وكان قد خدم قبل الحرب كمندوب للسودان فى القاهرة، ومدير مخابرات للسردار أو القائد العام للجيش المصرى السير ريجينالد وينجيت، الذى كان يعمل أيضا حاكما عاما للسودان، ثم أعيد إلى الجيش مرة أخرى فى عام ١٩١٤ بواسطة السير جون ماكسويل القائد العام للقوات البريطانية فى مصر الذى منحه الحرية التامة فى إدارة عمليات المخابرات. وكان مركز كليتون يمنحه السلطة الكاملة، وآلى على نفسه ألا يقتصر على جمع معلومات الاستخبارات فقط، بل أيضا أن يتدخل، إذا تطلب الأمر، فى السياسة بحصافة. وحتى قبل إعلان الحرب مع تركيا فقد استمبل كليتون مقترحات ستورز بإشعال الثورة العربية بحماس، وكان من المؤيدين المبكرين للهاشميين. وفى أوائل عام ١٩١٤ أرسل خطابا إلى كتششر يحنه فيه على

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا تنطق بها القاهرة وما بين النهرين

الاتصال الفوري بحسن وفيما بعد. اعترف لورانس بأعجابه بعد بطر كلينون وسأله في عدم التدخل، إذ إنه يطلق يد مرءوسه في العمل بعد أن وصفه لئامره بأنه كماء، أو رب نافذ، برحمتي في صحت ومباردة وسجل كل شيء هو وصف لا يحمل الإطراء الخالص. أما سنورز، فقد عرفه لورانس عن قرب، ووجد كل منهما الآخر، صحبة محبة، فقد كانا يسير كان في يدوق الأدب، وكان سنورز كسرا ما يعود إلى منزله لسجد لورانس فاعا في المقعد مفرأ اللانسة والإعرابيه. واستعاد سنورز هذه الذكريات فائلا. لقد وجدته محبدا لافن الطور ومنسغزا عن عماد، بحب التعامل مع صغائر الأمور على أنها صغائر ولا سفلها أو برفضها عشوانا. وكان أحبانا تنفجر غاصيا بشكل مفاجئ لدى سماعه قصه نافذه حاصه إن كانت رسميه، أو لطلم ما قد وقع. وقد اعترف لورانس فيما بعد أنه يعتقد أن سنورز كان ألمع البريطانيين الموجودين في الشرق الأوسط، إلا أنه تلى فائلا إنه كان بإمكان لئامره أن يكون أقوى لو أن هدفه كان أكثر تحديدًا. وكان اعتقاد لورانس للباسكب «الاحتماعي صناع سنورز أحبانا. وبذكر أنه حدث وأن رب الأمور ذات مره لحفل عشاء خاص للورانس ودعا إليه صيوبا أربع إلا أن لورانس لم يأت ولم يقدم اعتذارا. «وقد أحيرني فيما بعد أنني استغيت من تصرفه هذا بأن أحيرته بأنني لم أكن لأكره لو أنه أحيرني في الوقت المناسب كي أدعو شخصًا آخر بدلاً منه».

وكان لورانس نصف عمله بأنه يعمل الزجاجات ويؤدي عمل ساعي المكب حيث يرى الأفلام وينطق برس الكسابة في القسم، إلا أنه. ورغم كونه أقل الموجودين في القسم مره، فقد شارك في العمل مساركه كله. كان سبب وجود البريطانيين في مصر هو الدفاع عن قناة السويس. وكان الرأي متفهما بشأن أفضل الوسائل لتحقيق هذا. فقد كان منه عربون يعتقدون أن الحرب الخفية، ذات في الجبهة العربيه هي أوريا. وأن أين سعركه، أحيرني على أنني مسرح أحمر كتاب محرد مسيهد حاسي. وخابوا بصعظون من اجل سياسه دفاعه، حاله في مصر، وهي سياسه. كان لورانس. سله قبل نافه قسم الاستخبارات. عارمونيها عارمه، بسطه فقد تابوا سرهين. يعتقدون أن الهجوم هو أفضل وسيله للدفاع. وخابوا بصعظون من اجل عربو بريطاني للاميرال ربه العساسه. وبالحداد من

أحل إنزال قوات في الإسكندرونه على شاطئ سوريا . وادعى لورانس كذبا فسيما بعد ، أن خطة الإسكندرونه كانت من أفكاره ، إلا أنه كان أحد معصدي هذه الخطة نعضيدا قويا . فقد اعتقد أن السوريين سيثورون ضد الأتراك بمجرد هبوط البريطانيين هناك ، وستقوم العاصم العربية في الحش العنساى بحركه عصبان ومؤسس حكومه غربية هناك مستغلة بذلك الفرنسيين الذين كانت لهم خطتهم بشأن سوريا . فقد انضم لورانس رائحه النوره فى الجو حسما كان فى كركميش فى عام ١٩١٣ ، وكان يعرف جيدا أن السوريين على عبر استعداد للتخلص من سيد أجنبى لفسحوا الطريق أمام أحر أكثر بعدا عنهم . ورغم أن اقترح إنزال قوات فى الإسكندرونه لقى ترحيبا من مجلس الوزراء ، إلا أن الفرنسيين وقفوا ضده ، لأنهم أدركوا ، كما أدرك لورانس ، المخاطر التى تحملها لساستهم الكلوباله . وسرعان ما محت خطة إنزال قوات كسره فى عالىولى هذا الافراح . ووجه لورانس اهتمامه إلى عسبر . المطفه الحبلبه الحصه المساحمه للحجاز جنوبا . كان تخكم الباب العالى فى هذا الركن القصى من الجزيره ضعيفا ، وكان الإدريسى ، حاكم عسبر ، مناونا شهرا للأتراك . وفى فبراير . وقعت الحكومه الإنكليزية / الهدهه اتفاقا مع الإدريسى تدفع له بمصصاه راسا قدره ٧٠٠٠ جنيه اسرلبى سوريا . ولفره . راودت لورانس الآمال الكبيره أن أساع الإدريسى سنورون ضد الأتراك وينشرون الثورة شمالا باسم أمبر مكه . ومن ثم كتب «اعتقد أسى وسوكومب سندهب إلى الفنفلده بعسبر كمستشارس له . وإذا كان الإدريسى بالمستوى المأمول ، فبالإمكان أن نندفع فورا إلى دمشق ونوجه صربه إلى الفرنسيين فى سوريا . إنها لعبة كبيره . وأحرا ، فهده هى اللعبة الخديره بأن يلعبها » . أما الإدريسى فقد برهن على كونه مجرد فقاعة . وأما أمبر مكه نفسه فقد حافظ على صمت منذر خلال النصف الأول من عام ١٩١٥

وفى أواخر عام ١٩١٤ ألغت السلطات البريطانيه المصص على شاب هدى كان يحاول العبور من الحدود الشماليه العربيه لأفغانستان إلى الهند . ووجدت قطع من الكتان مخبطه بملاسه تحيل بمافصل مؤامره عالمه لإنشعال الجهاد الإسلامى ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا والحلف السلاوى . وكان الساب هو رسول بركات الله ، جارج على المايون . وعمل للحكومه البرككه فى كابول . وكان فى

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

طريقه للقاء مصادر في الهند كان منوطا بها العمل على تشجيع الفرق الهندية في الجيش البريطاني على العصيان واغتيال قادتهم الأجانب والهجوم على مقارهم . وكما تبين فيما بعد ، فقد كان الشاب أحد آلاف العملاء والدعاة والعلماء والاتقياء والحواسيس ومثبري الرأي العام الذي تبعث بهم جماعة الاتحاد والترقي لاختراق الهند وإيران ومصر وأفغانستان وبلاد العرب وما بين النهرين وصحراء ليبيا والسودان . وكانت خطة الجهاد تهدف إلى إشعال العالم الإسلامي . وفي يوم ٧ نوفمبر ، بعد أسبوع واحد من اشتعال الحرب ، أصدر شيخ الإسلام فتوى مفادها أن من واجب كل مسلم أن يحمل السلاح ضد الحلفاء . ولما كان أحد أسس الجهاد هو حماية المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، فبدون مباركة راعييهما الشريف حسين ، تصبح الفتوى مجرد قطعة من الورق لا أهمية لها .

وصمم الحسين على رفض منح مباركته . بل إنه كتب وفي نوفمبر ، إلى أنور باشا ، وزير الحرب العثماني ، إنه سيبارك الجهاد من كل قلبه ويدعو الله من أجل نجاحه ، إلا أنه لن يسأله علناً خوفاً من أن يقوم الأسطول البريطاني في البحر الأحمر بفرض حصار فوري . وكان أهالي الحجاز يعتمدون على الحبوب التي يستوردونها من الهند البريطانية ، وفي هذه الحالة ، كانوا سيواجهون مجاعة لدرجة أنهم قد يشعرون على الحكم العثماني ، وبينما ساند الشريف الباب العالي شفاهاً لدرجة أنه كونه قوة من المجاهدين ، إلا أنه في نفس الوقت اتصل بسرية تامة بالرناسات الكبيرة في الجزيرة العربية : ابن سعود في نجد ، وابن رشيد في شمر ، والإمام يحيى في اليمن ، والإدريسي في عسير ، مبيناً أسباب عدم دعمه للجهاد كي يستنبط موقفهم من الأتراك . ومن بين هؤلاء ، قرر ابن سعود الذي كان يتلقى راتباً كبيراً أن يظل محايداً وبتربق النسيجة . أما منافسه ابن رشيد الذي كان يخشاه فقد قرر الإلقاء بحباله مع الأتراك ، وكذلك فعل الإمام يحيى الذي كان يواجه البريطانيين في عدن ، أما الإدريسي ، الذي كان يتلقى حافزاً مالياً من بريطانيا فقد كان شديد العداء للأتراك . وفي هذه الأثناء ، كان جمال باشا حاكم سوريا العسكرية والقائد العام للقوات التركية هناك ، يعد الجيش الرابع العثماني لاجتياح قناة السويس وحدد فبراير عام ١٩١٥ موعداً للاجتياح . وكانت جماعة الاتحاد والترقي تأمل أن يؤدي هذا إلى ثورة المصريين ضد مستعمرهم الكفار

البريطانيين . وقد أدى رفض حسين الاشتراك في تحريك المسلمين ضد البريطانيين إلى غضب العثمانيين ، رغم أنهم كانوا لا يملكون سوى قبول الرفض رسمياً ، إلا أنهم قرروا التخلص من حسين سرياً بالاعتقال أو القبس عليه . ولسوء الحظ ، فقد وهيب باشا ، حاكم الحجاز ، الضالع الأكبر في المؤامرة ، وبشكل غامض ، الحقيقية التي تحوى كل الوثائق المورطة ، وتم تسليمها إلى علي ، الابن الأكبر لحسين . ومن ثم ، أصبح لدى الشريف الآن برهان مباشر على السفاق المكبأقللى الذى كان وراء تأكيدات الباب العالى . وكان خط السكك الحديدية العظيمة الوحيدة التي كانا يتنازعان عليها . وفرر حسين إرسال ابنه الثالث فيصل إلى إسطنبول لمواجهة جماعة الاتحاد والترقي بدليل جرمها . إلا أن علمه أن الهاشميين لم يكونوا بمفردهم في هذا ، كان عزاء له .

وفي يناير حمل صابط عربي شاب بدعى فوزى البكرى ، وكان ينمى إلى قبيلة من التجار المرموقين في دمشق نمنع بعلاقات ودية مع الهاشميين ، رساله شفاهية إلى الشريف من « الفتاة » وهي جمعية عربية قومية سرية في سوريا . وكانت الرسالة التي همس بها فوزى في أذن الشريف وهو جالس بحديق عبر نافذه مقره في مكة ، هي أن القادة القوميين في سوريا والعراق ، بمن فيهم الضباط العرب في الجيش التركي ، يساندون ثورة ضد الأتراك من أجل استقلال العرب ، ودعا حسين لأن يكون قائد هذه الثورة . غير أن الشريف الحذر لم يجيب ، وأحفى امتنانه ، على الفور ، إلا أنه طلب من ابنه فيصل أن يتوقف في دمشق في طريقه إلى إسطنبول ، بهدف الانسماح إلى مفترحات « الفناء » . وصل فيصل إلى دمشق في وقت متأخر من الشهر ، واعتذر بلباقة عن دعوة جمال باشا له للإقامة معه . وبدلاً من هذا ، أقام في منزل عشيرة البكرى الريفي . وهناك ، وتحت أعين سيب البكرى ، سقى فوزى الأكبر ، عرف فيصل أسرار الجماعات القومية السورية . « الفناء » و « العهد » . وكانت النسخة التي حملها فيصل معه إلى الحجاز هي « ررونوكول » دمشق الشهر ، وهي خريطة توضح الحدود الممكنة للدولة العربية المستقلة بعد الحرب ، ونفرض إعلاء كل الامسارات الأجنبية ، إلا أنها تؤيد تحالفا دفاعيا بين بريطانيا والدولة العرسة المستقلة في المسفل وفي منتصف يوليو ، وبعد أن ناقش حسين ررونوكول مع أمثانه ومسئاريه ، سمر أنه على درحة من القوة تمكنه من الفعل . وفي ١٨

الفصل العاشر، القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

أغسطس، وصلت شروطه لتدخل عربى ضد تركيا إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر السير ماكماهون بواسطة مبعوث سرى .

كان عام ١٩١٥ سيئا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية عامة وللورانس بشكل شخصى . ففى يناير حاولت اثنتا عشرة سفينة بريطانية رئيسية وأربع سفن بريطانية بقيادة السفينة جلالة الملكة إليزابيث ، أكبر السفن البحرية التى أبحرت فى مياه المتوسط على الإطلاق ، اقتحام مضائق الدردنيل . وبعد يوم واحد من القتال تراجع الأسطول البريطانى على عقبه أمام ١٧٦ مدفعاً تركياً تم زرعها فى شبه الجزيرة وأصيب فقط أربعة من المدافع . وكانت هذه أغنية البجعة بالنسبة لأسطورة العظيمة البحرية البريطانية : أى أن بريطانيا لم تعد تتحكم فى الأمواج . وفى نهاية أبريل شن البريطانيون هجوماً برياً / بحرياً عارماً على غاليبولى حيث مزقت المدفعية التركية ميدفورس ، أول الكتائب من بين عدد يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ من الحلفاء كان مخططاً لهم أن يرسوا على الشاطئ . وكان من المتوقع أن تصل مدفورس إلى أهدافها بحلول اليوم الثالث ، إلا أنه وبعد ثلاثة أشهر كانت مازالت تقاتل يائسة لنبقى مكانها . وكان فشل إنزالات غاليبولى إدانة بشعة للمخابرات البريطانية ، إذ إن مدفورس ، وكما اعترف لورانس ، « لم تكن مستعدة بدرجة رهيبة ولم تكن تدرى أين هى ذاهبة ، أو ما ستقالبه ، أو ماذا ستفعله » وكانت خرائطها عنيقة غير دقيقة وغير ذات قيمة . وقد سجل لورانس أن الحملة « كانت معها نسختان من خرائط (ربع بوصة) ، لتركيا الأوربية كمصدر وحيد لها » وكان عامل المباغمة مفقوداً تماماً إذ لم تكن هناك أية تأمينات . أما عن تقدير قوات العدو ، فلم يكن أحد يعرف حتى عدد الكتائب التركية المعادية . ولم يعتقد أحد فى النهاية أن هذا بالأمر المهم . فقد عبر لورانس نفسه عن هذا الحس العام بالثقة بالنفس حيث كتب قبل الإنزال مباشرة « إن تركيا ، تلك العجوز المسكبة ، تنماسك بصعوبة . . فكل ما فيها فى غاية المرض » . وهكذا تمت أكبر عملية برية / بحرية عسكرية فى تاريخ الحرب على غير أساس من حسابات التخبرات تقريباً ، وباعتماد مغرور فى « سبادة الرجل الأبيض » . كما كتب أحد الأستراليين قبل الإنزال مباشرة « من سيوقفا ؟ لبس الأتراك الملاعين » . إلا أن أولئك الأتراك الملاعين أوقفوهم فعلاً ، ولم يفلح حتى صد الهجوم الذى قام به جمال باشا على قناة السويس فى التعويض عن

هذه الواقعة سهولة .

وعلى الجبهة الغربية، كانت ثمة حالة من الركود . وتلقى لورانس في مايو أبناء مقتل شقيقه فرانك بقذيفة حينما كان بقود فصيلنه . فكذب خطاب تعزية وتهدئة إلى والديه، أما خطابه إلى شقيقه ويل فقد حافظ فيه على جموده المترفع الذي بناسبه : «إن وفاة فرانك، كانت كما نفول، صدمة، لأنها كانت غير متوقعة بالمرّة . إلا أنني لا أعتقد في الأسف المبالغ فيه على مثل هذه الوفاة، لأنها كانت أسلوبا جيدا لإنهاء الفرد حياته . لقد تسببت ضخامة هذه الحرب في تغيير الإنسان لمظهره لأننا عاجزون عن الإنعام بجميع التفاصيل» . بسد أنه سنبه وبين نفسه كان يعاني من وحزات الضمير . فرما كانت المرة الأولى التي سال فيها نفسه عما إذا كان من الصواب أن يتمتع بوطيفة مكتتبة مربحة بعيدا عن القتال، في الوقت الذي يخاطر فيه أقرانه بحباتهم في الجبهة، فقد حارب بيو كومب وولى في الجبهة الغربية، ولويد وهربرت في غالبولي . كان يعرف قسمة إسهامه في الجهود الحربية، ويدرك أن معرفته المتخصصة ستضع هاء إن هو أصبح محرد سخص بطلق المدافع . وعلى مستوى أعمق، كان يعرف أن ما بعده عن الحبهة هو رعبه من الألم . كان لورانس بطبيعته أئعد ما يكون عن البطولة، ورغم أن الئن أنزلها بنفسه قد أسهمت في تعريفه عن بعد بالمعاناة الحسدة، فقد كان يحسنى الألم أكثر من أى شئ آخر . إذ أمضى حياته يهرب من الامتتال للواقع أكثر من مواجهته، وكان يجد أن الخطر بكاد يشله جسدا وفي هذا قال . «إن أحد الأسباب التي أقنعتنى أنني لست رجل أفعال، هو الإسهال الروتنى الذي بصسى لدى الأزمات» . وبعد الحرب، كتب شقيقه آرسي قائلا إنه «لس بطلا أو شجاعا بطبيعته . وقد وضع نفسه في اختبارات قاسه حال معرفته بهذا، واستطاع أن يتغلب على نفاط ضعفه» . ورأى جورج لويد أنه «ليس ضمن من لا يهاون سنا كهؤلاء الذين يأنون بالأفعال الشجاعة» .

وفي سبتمبر ١٩١٥ بدا الأمر وكأن لبس ثمة ما سرر وجوده . فقد فشل خططه بشأن الإنزال في الإسكندرونة ونورة الإدربسى وكتب «إن السنون العربية فد تدهورت جميعها . فلم أر أبدا مثل هذه الحالة من الركبة الحفبره نال من أمر

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

ما . إن هذا يجعل المرء يزأر غضباً إذ إننا كان لدينا فرصة رائعة هناك . فقد اتجهت كل الجهود إلى النجاح في غالبولي حيث لم يكن بإمكانه أن يكون له دور . إلا أنه استمر يكتب ملخصات جغرافية وتفاصيل إلى القيادة العامة ، ويتابع تحركات القوات التركية ، ويقوم بين الحين والآخر باستجواب الأسرى السوريين وعمل لقاءات معهم . ورغم زهوه بمقدرته على تحديد الأقاليم التي ينتمون إليها من لهجنهم ، فقد ظلت المعلومات الدقيقة عن سوريا وفلسطين ضعيفة . وبين الحين والآخر كان يذهب على دراجة بخارية مستعارة من فندق سافوي إلى بولاق حيث كانت توجد مكاتب المساحة ، ويتحول أيضاً بين البازارات وهو حزين ، حيث كان يبتاع من حين لآخر سجادة لأسرته ، أو خاتم حينئذ لهو جارت الذي كان مازال يحاول الحصول على وظيفة في السلك العسكري . وتناول العشاء مع الليدي إيفلين كوبولد التي كانت قد أقرضته نقوداً في مدينة البتراء . وكان يكتب رقيات بالشفرة وحل شفرة رقيات أخرى ويشرف على طساعة الخرائط وإرسالها . كما وضع خططا أخرى غير صالحة للهجوم على سوريا . وقرأ مجموعة من المنشطات الإغريقية ، وأعمال هريديا ، وويليام موريس . وأرسل وولي إلى بورسعيد ليكون همزة اتصال بالأسطول الفرنسي ، وزاد عدد العاملين في القسم بإخفاق روبرت جريفز المراسل السابق للنايمز . فضلا عن آخرين كانوا يجيئون ويختفون كالأتساح . وذهب لوراس في رحلة قصيرة كي يحسن الاتصالات مع مكتب أنينا ، ولدى عودته أحس بشغل أكثر لما أسماه «الخمبول الرسمي» . وبدأ بتلاعب بفكرة الذهاب إلى غالبولي ، وتساءل حتى عما إن كانت الحياة ستكون أفضل في الحدق . وكانت القاهرة قانطة ، ومتربة ، وقذرة ، ولخص لوراس أحاسيسه حينما أخبر هو جارت «أن كل شيء على وشك النعاس» .

وسط هذا الجو من السبات الذي كاد أن يكون حسيًا ، وقع خطاب الشريف حسين مثل القنبلة . وأدهش ستورز ، الذي قرأ الخطاب سطرا سطرا ، أن الشريف كان يطلب تفريحا كل الممالك العربية للإمبراطورية العثمانية نظير المساعدة العربية ووجد من الصعب تصديق وقاحة حسين وأخذ ينتم أثناء القراءة «إن خطأ الهولنديين في سنون التجارة .. هو أنهم يقدمون أقل القليل ويطلبون أكثر الكثير» . فقد كان البريطانيون ، رغم كل عروض كبتسنر المزهوة بالخلافة ،

ينظرون للشريف حسين على أنه مجرد شيخ قبيلة عربى، غير ذى أهمية، ولا يمثل سوى أسرته «الهاشميين»، وأن عليه، فى نظرهم، أن يرضى باستغلال الحجاز. أما ستورز، فقد وجد الرسالة مصدرا للدهشة والنسبة إذ شعر أن تطلعات حسين «تقترب من الكوميديا السوداء» واعتقد أنها لا تتعدى كونها مناورة استهلاكية وقحة مجنونة لعملية مقايضة كالتى يسمعها المرء فى البازارات «... بالإمكان التأكيد أنه ليس لدى الشريف حسين تفويض من شيوخ آخرين، وأنه بعرف أنه يطلب أكثر بكثير من حقه، ومما يأمله، ومما له من قوة أن يتوقعه، ربما كأساس لبدء المفاوضات». وبالسالى، لم تعبر إجابة مكماهون، التى صاعها سنورز وأرسلها يوم ٣٠ أغسطس، لم تعبر عن أى التزام. فقد اكتفى بنكرار تأكيدات كتشنر السابقة، إلا أنه رفض الدخول فى فضايا الحدود فأنلا إن مافشه هذه المسائل تحت ضغط الحرب مضبعة للوقت. وأجاب حسين، بشكل فوري، معبرا عن دهشته لندرد برطانيا، وقال إن المفاوضات تعتمد أساسا وفقط على ما إذا كانوا يقبلون الحدود المقترحة.

وحينما وصلت الرسالة الثانية إلى القاهرة، كان الموقف قد تغير. ففى هذا الشهر، عبر ضابط عربى شاب يدعى محمد شريف الفاروقى الحدود التركية فى غالبولى متظاهرا بقيادة مسيرة جنائزية وهرب إلى الرطاس. وحبسا أرسل إلى القاهرة، استحو به لورانس بين آخرين وأدهننهم إجاباته. فقد كان عربا من العراف وادعى أنه من نسل ثانى الخلفاء الراشدين، عمر الذى عرف بالفاروق. وطبقاً لما قاله، كان عضوا فى «العهد» أو التنظيم العربى للضباط العرب فى الجيش التركى، والذى صاغ، مع التنظيم التقيق الآخر، «الفناه»، برونوكول دمشق الذى أسس حسين مطالبه عليه.

غير أن مكماهون لم يكن ليسنطيع أن يوافق على كل ما طلبه الشريف لأن فرنسا، التى كانت حكومتها على وشك توقيع اتفاقه معها حول مصير سوريا، كانت بالفعل تعتبر الجزء الغربى من البلاد حما لها. وفى خطابه النالى لحسن، وافق على اقتراحاته مع بعض الصحف التى شملت الأقاليم عرب حلب وحمص ودمشق، التى ادعى، تحت تأثير ما لفنه إياه لورانس بالناكيد، أنها ليست

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

عربية خالصة. وكانت فرنسا تطالب بهذه المناطق الساحلية السورية والمناطق النائية التي تكون جزءاً من سنجق لبنان العثماني وولاية بيروت. وكانت فرنسا حليفة إنجلترا، وقد تم تحديد هذه المناطق كمناطق تهمة الفرنسيين في التقرير الذي كنبه لورانس نفسه في وقت مبكر من هذا العام وأجاب حسين أنه لا يقبل القول بأن هذه المناطق ليست عربية خالصة، ومرة أخرى تعثرت المفاوضات نظراً لمطالب فرنسا. وقد علق لورانس قائلاً إن الفرنسيين، ولبس الأتراك، هم الأعداء الحقيقيون في سوريا.

وفي القاهرة بدأت حرارة اللبالي تخف، إلا أن الصورة العامة للموقف كانت ما تزال قائمة. وفي نفس الوقت، فقد أصبح من الواضح والخيف أن عملية غاليبولي قد فشلت. وكتب لورانس: «لا تروقني الأمور هناك، وأسوأ ما في الموضوع أن الأمر كان في مسهى البساطة إلى أن تخبطنا». ولدى وصول هوجارث الذي كان ما زال يبحث عن عمل، انفشعت عنه الغمامة لبعض الوقت. إلا أن بعد رحيل هوجارث لأثينا أصابت لورانس حمى الملاريا لأول مرة منذ عام. ومرة أخرى ساد «الركود الرسمي». واعترف لورانس أن الموقف «يصيبه بالغثيان» ورغم ازدحام أيامه بالمهام، فقد كانت متماتلة لدرجة الملل. وتم تعيين نيوكومب في غاليبولي وحل محله إن. سي. باركر أحد أبناء أخت كتشنر، الذي كان حاكماً لسيناء ذات يوم. وكان البدو يكتنون له احتراماً شديداً وبنادونه باسمه دون لقب بك أو باشا كدليل على حبهم له. وكان معروفاً عنه أنه يركب الإبل دون كلل، ويسير المسافات دون تعب، فمثلاً، كان يقنفي أتر دجاجة صحراوية في مناطق وعرة يخفه الوعول. واعتقد لورانس، الذي أصابته الغيرة من مكانة ساركس، أنه على دراية واسعة بأمور سيناء وفيما عدا ذلك كان غير ذي فائدة، وهدد أنه سيقطله يوماً ما. وازداد أساه حين تلقى أبناء في آخر شهر أكتوبر، أن طائرة شقيقه ويل، الذي كان مراقباً في سلاح الطيران الملكي، قد أصيبت بقذيفة وأصبح في عداد المفقودين على الجبهة الغربية. وها كتب إلى إدوارد ليدز «أشعر بعض الكآبة، فقد قتل أحد إخوتي أولاً ثم فنل الآخر. كانا أصغر مني، ولا يبدو أنه من الصواب أن أعيش في القاهرة في سلام. بينما يحدث كل هذا... أود الوصول إلى النهاية يوماً». وطوال الشتاء، تعثرت المباحثات مع الشريف حسين بشكل لا نهاية له،

بينما أخذ الموقف في غالبيولي يزداد سوءاً. وفي النهاية، وفي بنابر ١٩١٦، تم إجلاء بقايا مدفوس من الدردنيل. وكانت هذه الخطة خطراً على الإمبراطورية البريطانية. فهي لم يتم فقط إدلالها على يد «الأتراك الملاعين» على مرأى من العالم، بل إن آلاف من القوات العثمانية قد استعادت حبوبتها واستعدت لسن هجوم على مصر. وكان العرب قد بدأوا ينأرجحون وأدى عدم الانتهاء من التفاوضات بين مكماهون والشريف حسين إلى تفاقم الموقف. وكانت الشكوك تملأ كلا من الشريف والقوميين السوريين من انهك أوروبا للشرق، وبدت الأمور وكأن الحلفاء لم يكونوا عسكرياً أداً للأتراك العثمانيين. أما في ليبيا، فقد كانت الجماعة الإسلامية الأصولية، الإخوان السنوسيون، قد بدأت تتجمع في صمت، استظارا للهجوم على مصر من جهة العرب. وعلى الحدود السودانية، كانت هناك فلاق من قبل السلطان على دنبار المؤيد للأتراك. فلو حدث وانضم العرب في سوريا والحجاز إلى الأتراك بدلاً من الثورة عليهم، كان هذا سيعنى نهاية طموحات بريطانيا في الشرق الأوسط.

وفي يوم رأس السنة لعام ١٩١٦، أتى الشريف حسين بإيماءة خطيرة توضح إيمانه بالأصالة البريطانية. فقد أبلغ مكماهون أنه سيؤجل النفاس الكامل حول الحدود إلى ما بعد انتهاء المعارك الحربية. ورغم أن هذا كان أمراً شجاعاً فعلاً، إلا أنه كان انتحارياً من الناحية السياسية، وأدى فيما بعد إلى انهامه بأنه خان الفضية مع الحلفاء. وقد أخبر حسين قرب نهاية حياته المؤرخ جورج انطوبيوس، بأن خبره أثناء شبابه في استقامة البريطانيين في الشؤون الدولية قد جعلتهم يبالغون إعجابه العميق، وأنه «قد طور اعتقاداً راسخاً في معايير تعامل الإنجليز بشرف». وتلقى وعد مكماهون فيما يخص القصصة الرئيسية، أي مدى استقلال العرب، وكان على استعداد أن يدع الاعتبارات التابوة معلفة إلى أن نضح الأمور. مع بقاء ضمنية أن كلمة الحكومة البريطانية كانت عقداً ملزماً. بيد أن ثقته كانت في عر موضعها بشكل مؤسف. فبعد أسابيع قليلة من استكمال مكماهون الاتفاقات مع الهاشميين، وقعت الحكومة البريطانية اتفاقاً سابقاً مع فرنسا وروسيا، الذي قسّم الشرق الأوسط بمقتضاه فيما بينهم في حالة انصار دول الحلف الثلاثي. إلا أنه في هذه الأثناء وقعت الإدارة العسكرية في القاهرة في حالة تنسنت

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

عميق بسبب كارثة أخرى كانت تحدث. فقد قطع الطريق على الفرقة السادسة الهندية بقيادة الماجور السير تاو شند في منطقة ما بين النهرين، في حيز ضيق من نهر دجلة عند قرية كوت، دون إمدادات غذائية. وكانت الإمبراطورية البريطانية تواجه خطر أكبر استسلام ذليل في تاريخها العسكري برمته.

وكان المشهد يشبه أحد المداخل المجيدة في «السلام البريطاني» الذي يصور الجنود ذوى المعاطف الحمراء وبنادقهم معطلة وصفوفهم مبعثرة والدماء تسيل في الصحراء. وبالتأكيد كان تاو شند يتذكر أيامه المجيدة في الدفاع عن شيتال حينما أخرج جنوده «إن واجبنا نحو إمبراطوريتنا، وملبكننا الخبواب، ووطننا، أن نصمد هنا وبحول دون تقدم الأتراك.. سنجعل التاريخ يذكر هذا الدفاع كدفاع مجيد». إلا أنه بمقدم الربيع قلت إمدادات الجند الإمبراطوري. وقد تسببت حماقة تاو شند نفسه وانبن من القادة في وصول الأمور إلى طريق مسدود. ففي الأصل، كانت الأوامر الصادرة إلى كتتيته هي حماية محطة تكرير البترول البريطانية في عبدان ومنع أية مخاطر قد تتعرض لها السفن في الخليج إلا أن ما حدث كان مختلفا. فقد وجد السير تشارلز نفسه، وقد حفزته إنجازات من هم أعلى منه رتبة مثل الجنرال بوسامب داف في الهند، والسير جون نيكسون في البصرة، وجعلته بطارد الفرق النركبة أعلى دجلة وهو في حالة نشوة. واحتفت الوحدات المعادية إلى أن واجه الإله الاسقام عند فطسيفون في هيئة عشرين ألف محارب عثماني، من ذوى العزم مدرين ندرسيا غالبا. وقبل أن تجبر الكتيبة على التراجع كانت قد فقدت أربعة آلاف محاربا. ولو أن تاو شند تراجع تكتيكيا حتى القيادة البريطانية العامة لأنفذ عالبه رحاله. وبدلا من ذلك، قرر أن يقوم بعمل بطولى في الكوت حيث حاصر الأتراك على الفور.

واستمر صمودهم خمسة أشهر في مجابهة عشرين ألف جندى تركى كانوا بفصفون المدينة بومبا ويقنصون أى جندى قد تدفعه حماقته إلى الطهور على الساحة. أو بقذفون الفئابل من مدافع قديمة أسماها الجنود الإنجليز «فاسى». وحاولت فرقة إنفاذ من البريطانيين المتمركزين في البصرة اختراق طريق لها وسط الحصار التركى إلا أن العثمانيين ردوهم بعد أن كبدهم خسائر شعة. وكانت

لورانس ملك العرب غير المتوج

طائرات السلاح الجوى البريطانى تخلق فوق شوارع المدينة يومبا فى محاولة بائسة لإلقاء الإمدادات من الدقيق والسكر النى كان معظمها يسقط فى مياه دجلة أو تقع فى يد الأتراك . وبحلول أبريل كان الجود قد قضوا حتى على القطط والكلاب ، وكانت تصرف لهم أقراص الأفيون حتى ييسوا جوعهم . وبدأ الجنود بفقدون الأمل وقد أنهكهم الحمول والإحباط والجوع .

وبوصول لورانس إلى ما بين النهرين كان أكثر من عشرين ألف جندى قد قتلوا أو أصيبوا فى المحاولات البائسة لإنفاذ الحامية . ولم يكن البريطابيون على استعداد للإلقاء بحنودهم فى الأفران إلى أجل غير مسمى ، فلم يكن ، ببساطة ، لديهم رجال وكانت المشكلة ، هى إنفاذ الكوت دون أن يموت آلاف الرجال . وكانت أية اسنراتيحة سوى الهجوم الساحق على الجبهة غير متقبلة من رئاسة الحرب البريطابة . وكانوا قد فشلوا حتى فى حصار الوحدات التركية النى تطوف المدينة بحيث يتمكنون من فتح خطوط اتصال و امدادات مع المحاصرين . كان حل مسكله الكوت يتطلب تفكيراً عبر الذى يعرفه الجنرالات . . كان ينطلب عفلاً حصفاً عبقرى لا تعوقه تقاليد طبقه المحاربين البريطابين المتوارنة . . أى عقل مثل الذى يتمتع به لورانس .

وكان لورانس رغم انعدام خبرته الحربية ، وانفا من قدرته على حل المشكلة ، ولا بد وأنه كان موضع ثقة رؤسائه أيضاً . فقد كان قد تم إرساله إلى الصرة ب خطاب من المدوب السامى كمهاون يقدمه فيه بقوله إنه كان يعمل وفقاً لأوامر من المكنب العسكرى ليقدم خدماته فيما يخص الشؤون العربيه . « إنه أحد أفضل موطفى مخايرانا هنا وأكثرهم قدرة ولديه معرفة كاملة ودقيقة بالمسألة العربيه من جميع أوجهها » . فإن أمكن تخريب فبائل حاي والفترات على السوره ، فطفا لا اعتقاد لورانس ، يصبح بالإمكان إنفاذ الحامية الموجودة فى الكوت دون مدبحة جماعية مثل ما شهدته القوات مد البداية . وفى حالة الفشل ، كان قد تم بفوبض لورانس ، وأوبرى هربرت الذى أحضر خصيصاً لهذه المهمة ، أن بقدم رسوة قدرها مليون إسنرلىسى (تم رفع المبلغ فيما بعد إلى ٢ مليون) ، لجرال رركى بعينه تم اختياره ليتمكن حامية ناونسند من الذهاب .

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

ونزل لورانس البصرة حيث قابل عدة أصدقاء قدامى منذ أيام كركميش كان من ضمنهم جرتروود بل وكامبل طومسون اللذان كانا يعملان في قسم مخبرات البصرة تحت إشراف السير بيرسى كوكس، وأيضاً هيوبرت يوج، الضابط الذى يتحدث العربية والذى ساعده في عمل التمثالين لسطح منزل العثة عام ١٩١٣. غير أن يوج، الذى كان قد أعجب بلورانس في لقائهما الأول، شعر بالإحباط تجاهه وكتب يقول: «بدا مدللاً إلى أقصى درجة، وقد اتخذ مظهراً مخالفاً للذى أتذكره عنه.. وكان حينذاك أن لاحظت عقدته المضادة للجندية.. واستأت منها إلى أبعد الحدود». وإن كان بالإمكان فهم استياء يوج، فأيضاً بإمكاننا تفهم استياء لورانس؛ فقد أهدر الجنود النظاميون آلاف الأرواح البريئة التى من بينها شقيقاه على الجبهة الغربية، وغاليلوى، والآن فيما بين النهرين. وكان يأمل في لقاء السيد طالب من جماعة الرابطة العربية، إلا أنه كان خارج البلدة. وفي ٧ أبريل، التقى سليمان فيظى أحد الشخصيات المرموقة بالبصرة وزميل سابق للسيد طالب وكان عضواً في البرلمان العثماني. وتذكر فيظى أن لورانس بدأ بقوله إنه يحب العرب ويتمنى نجاحهم وأن بريطانيا تعتزم منحهم الاستقلال إلا أنها لا تستطيع فعل ذلك إلا إذا قاموا بثورة ضد الأتراك. ثم أردف «لقد فوضنى البريطانيون في أن أبدأ هذه الثورة، وأن أقدم ما تحتاجه من أموال وأسلحة.. وقد اخترتك لتشعل شرارة هذه الثورة». وأجابه فيظى أنه لا يستطيع إشعال هذه الثورة لأنه ليس زعيماً قليلاً.. إلا أن لورانس قال له «تستطيع أن تفعل المعجزات بالمال. فبإمكانك إقامة خيام عديدة واستئجار حرس وتابعين، والقيام بواجبات الضيافة لكل من يزورك، ومنح هدايا قيمة للمؤيدين. وبكل هذا، ستصبح قائداً عظيماً وسرعان ما تجد نفسك على رأس جيش عظيم». وأجاب فيظى إنه سيستشير أصدقاءه، بفأيا أعضاء لجنة جماعة الرابطة العربية، بيد أنه عاد وقال إنهم رفضوا العرض. وكان لورانس يأمل في أن يصحب بعضهم إلى الجبهة قبل أن يكشف عن تفاصيل خطته، إلا أنه والأمر كذلك، اضطر للذهاب إلى هناك وحده.

وفي ٩ أبريل غادر البصرة على سفينة ذات بدالات ومعه فصيلة مشاة مبحراً في أعالي دجلة حيث كانت هذه المنطقة قناة بنية اللون لزجة تدخلها تعريجات ذات أشكال باروكية في الأطراف وترسبات رملية عبر قدر هائل من الصوان

لورانس ملك العرب غير المتزوج

الأسود والرمادى الراكد . ورست السفينة فى الليلة الأولى عند القرية ، ملتقى دجلة والفرات والموقع المزعوم لجنة عدن . وبينما كان يحملق فى المياه الطيبة ، تذكر بشوق أصدقاءه فى كركميش وتساءل ما إن كان سيرى داهوم مرة أخرى . ورغم عدم علمه بذلك ، فقد كان من المؤكد أن داهوم قد توفى ، قتلته الجاعة المروعة والأوبئة عام ١٩١٦ ، التى عملت الحرب على تفاقمها . كانت كركميش جنة عدن الخاصة به ، وكتب فيما بعد يقول « إلى أن ابتلعت الحرب كل شىء ، لم أتمن شيئاً أفضل من كركميش ، كانت حياة مكتملة » . وتصلح هذه الكلمات أن تكون قداساً جنائزياً لجيل بأكمله ، للهولوكوست الذى وجد هو وأقرانه بأنفسهم أنه نقطة عقدة فى تاريخ العالم .. نقطة محيت بعدها كل الموروثات والافتراضات التى حكمت الحياة الأوربية لقرون .

وصل لورانس إلى « وادى » حيث يوجد مقر رئاسة قوة دجلة ، بعد ستة أيام كى يتلقى « اعترافاً » من الأعضاء كبار السن فى القيادة . فقد كانت حملة الإعانة تواجه المصاعب إلا أن الجنرالات كانوا عازمين على إرسال موجات أخرى من القوات . وقد أحزن لورانس أن يُقدم مواطنوه أضحيات على مديح طموح القادة ، نفس الحزن الذى أحسه أشهر شعراء الحرب ولفريد أوين :

- هل من أجراس (تقرع) لمن يموتون كالقطيع ؟

- فقط غضب البنادق الوحشى

- فقط شخصيات المدافع المتعلثمة السريعة تستطيع أن تقيم علما صلوات عليهم .

لم يرغب الجنرالات الإنجليز / الهنود أن يدرسوا أفكار لورانس . فقالوا إن الاستراتيجية غير التقليدية لا تتوافق مع مثال « الشرف العسكرى » - ذلك الشرف نفسه الذى تسبب فى ضياع آلاف الأرواح دون أن يكسب لهم بوصة واحدة من الأرض . وكان أى نشاط سرى أو تخريبى بالنسبة لهم يرقى إلى مستوى « الغش » . كانت تحديدا نفس العاطفة التى نسبت فى الأيام الخوالى أن يأمر الضباط البريطانيون جنودهم أن بقاتلوا على مرأى من الناس وألا يخبثنوا وراء الأشجار . بيد أن الأمر تجاوز مفهوم الشرف هذا الذى كان فى غبر موضعه . فقد كانت فكرة

الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

الثورة العربية تُرعب الضباط الكبار الإنجليز / الهنود إذ شعروا أن هذا قد يمد ملايين الرعايا المسلمين في الهند بمثال خطير، الأمر الذى كان يؤرقهم مجرد احتمال. وأراد الجنرالات تنفيذ الهجمات على الجبهة وفى اللحظة الحرجة، أصيب لورانس بالحصى، ولم يستطع فعل أى شئ سوى التقلب المحموم فى سريره.

وفى الضوء المبكر ليوم ٢٢ أبريل أيقظه انهيار صادم لأصوات مدافع البريطانيين. واستمر الدوى لمدة خمس وأربعين دقيقة بضربات مدروسة بطيئة، وفحاة تزايد الإنفاع ليصبح... مقدمة لهجوم.. وكان الأتراك يتحكمون فى خطوط حمسة خنادق فى مكان يسمى السنبات، وهو عنق زجاجة ضيق بين أحراش مألحة غادرة وشاطئ النهر. وكان موقعا يصعب اختراقه، لكن من أجل الوصول إلى الكوت لم يكن لدى قوات دجلة خيار سوى محاولتهم شق طريق لأنفسهم هناك. وكانت فقط رأس الحرية، هى الفرقة التاسعة عشرة وكانوا جوداً من أعالي أسكنلدا، بقايا لفرق البلاك ووتش Black Watch الثانية والتي كانت مازالت ملونة بالدماء، وقوة السيפורث الأولى، وكان قد تم تجميعهم فى كتيبة واحدة لهذه المعركة. وتحركت الكتيبة التاسعة عشرة فى الساعة السابعة صباحاً تماماً، واشتعلت نيران المدافع التركية فى مواجهتهم من مواقع أخفاها ضباب الحرارة المرقط؛ واندفع الاسكتلنديون مباشرة إلى فروهات المدافع المنطلقة. وكان التقدير أن الأمر سيستغرق منهم سبع دقائق لإحداث فجوة فى خط الأتراك إلا أنه استغرق أربعة دقائق فقط، وحينما وصل الرجال إلى مدى مدافع جيشوهم هم، أخذوا بلوحون بشاراتهم الحمراء ليتوقف القذف. وقادوا أنفسهم بجون حلال الخنادق المملوءة بالمياه ليجدوا أن بنادقهم قد سدتها الأوحال وتوقفت عن الانطلاق. وبعد لحظات، اجتاح الجنود الأتراك الموقع من ناحية الأجنحة فى هجوم كاسح مضاد، وغمرت المياه الكتيبة التاسعة عشرة. وبدا الموقف ميئوساً منه. وأخذت الفرق التى فى المقدمة فى الانسحاب واحدة بعد الأخرى، تاركين الأسكتلنديين فقط الذين تجاهلوا أوامر الانسحاب. وكانت محاولتهم مواصلة التقدم وقامهم بشن ثلاث هجمات متفرقة على خطوط الدفاع الثالثة أمراً يصعب تصديقه. ولم يعد رجل واحد من تلك الهجمات الثلاث.

وفي الثامنة والثلاث كان كل شيء قد انتهى . فقد استغرقت الهجمة ساعة وعشرين دقيقة فقدت الفرقة التاسعة عشرة فيها ما يربو على ألف رجل . وكان مدى تقدمهم وتقهقرهم أكثر قليلا من نصف ميل . وفقدت كتيبة الأسكتلنديين أكثر من ستمائة . وعرف الجنرال يوج ، قائد الفرقة ، أن مهمة إغاثة الكوت قد فشلت . ولم يستطع أن يطلب منهم التقدم مرة أخرى .

ومرة أخرى أهدرت شجاعتهم . وبعد أسبوع رفرفت الأعلام البيضاء على الكوت . وسبق ثلاثة عشر ألف حندي من الفرقة السادسة الهديبة إلى الأسر حيث توفي أكثر من نصفهم . أما مهندس الكارثة الأول ، الجنرال تاونسند ، فقد هجر فرقه ، وأمضى حالة «أسر» كريجة في فندق على مضيق البوسفور برفقة كلابه الخبية (الحيوانات الوحيدة التي لم تأكلها الفرقة الجائعة) . وكان سير تشارلز يكن لكتابه حباً عميقاً ، إلا أنه لم يستعلم ، ولو مرة واحدة ، عن حال رجاله . ولم يسخر الأتراك فقط من خطة البريطانيين لرشوتهم ، بل إنهم أبضا استغلوها في الدعاية السياسية . ويوم ٢٩ أبريل ، قابل لورانس وهزرت الجرافات لإجراء حوار ، إلا أنه وجد أنه لن يُنفذ شيء من خططهما سوى مبادلة بعض الأسرى . وكلفت مأساة الكوت البريطانيين ثمانية وثلاثين ألف قتيل دون أن يجنوا منها مثقال ذرة من النفع السياسي . ولم يسبق للإمبراطورية البريطانية أن تصل إلى هذه الدرجة هبوطاً . فكان هناك مذابح على الجهة الغربية ، وهزيمة في غالبولي ، وهجوم تركي على قناة السويس ، وانهيار في الكوت . وعاد لورانس إلى البصرة وقد خاب أمله وتعاضم إحباطه من فشل الاسنراتيجية التي نبناها ، وثار اشمزازه من موقف الجنرالات الإنجليز الهنود ، وكان مازالت لديه القناعة أن الحركة العربية كان من المحتمل لها أن تنقذ الموقف . بيد أن آماله جميعها تحطمت ، وكتب «لم أفعل شيئا مما كان في ذهني وكان بمقدوري فعله» . وفي السفينة في طريق عودته للقاهرة ، كتب تقريراً ينتقدهم بقسوة لدرجة استلزم معها تخفيف لهجته قبل تقديم التقرير إلى السير أرشيبالد مري الذي كان قد حل محل السير جون ماكسويل كقائد عام .

ولدى وصوله إلى القاهرة ، وجد لورانس أن مدفورد قد ضم إلى القوة البريطانية في مصر ، وأن مري كان يخطط فعلا لاستخدام قوات إصافبة للمبادرة بتوجيه

الفصل العاشر، القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

ضربة في سيناء . واعتقد أن هذا، على الأقل، كان تحركاً نحو الأفضل . إلا أن استحسانه لم يدم طويلاً، فقد اتضح أن مري كان ضابطاً تقليدياً آخر ينتمى إلى المدرسة القديمة التي لا تثق بأقسام الخابرات والمقاتلين الشرقيين من أمثال كليتون ومن نم، قسم شعبة الخابرات التي كانت قد كبرت، ونقل ضباط كثيرين إلى قيادة العمليات العامة في الإسماعيلية . وترك سبعة فقط - من بينهم لورانس - ليكونوا مخابرات القاهرة في فندق سافوى . واستهج لورانس برؤية هوجارث الذي وصل إلى القاهرة في مارس مرتدياً زى الرائد البحري في الأسطول البحري الملكي . وكان قد عثر لنفسه أخيراً على وظيفة حربية في القسم الجغرافي للمخابرات البحرية، إلا أنه أرسل إلى القاهرة كي يساعد على إنشاء مكتب عربي جديد يجمعه من بقايا ضباط مخابرات كليتون في فندق سافوى، ويكون المسئول عنه السلطة المدنية متمثلة في المندوب السامي مكماهون، وكان للمكتب أن يدار تحت رعاية وزارة الخارجية ويكون مسئولاً عن التطورات السياسية في الشرق الأوسط .

وفي واقع الأمر، فقد أنشئ المكتب، الذي حمل اسماً كودياً هو Intrusive أى «المقتحم»، ليس فقط لنشر ودعم العصيان بين العرب، بل أيضاً كأداة لنشر بشارة هذا العصيان في أرجاء أرفع الدوائر في السلطة البريطانية . وكتب لورانس «لقد كان هدفنا هو اختراق القاعات التقليدية في السياسة البريطانية الخارجية، وأن نشيء شعباً جديداً في الشرق» . إلا أن لورانس لم يكن أحد أعضاء «عصبة الرجال الجامحين» وفما لتعبيره، بل احتفظ بوظيفته القديمة في مخابرات القاهرة . وأوكلت إليه مهمة تحرير نشرة مكتب المخابرات المعروفة بالنشرة العربية . وجاء هذا العمل وفق هواه لأن مهمته في الكوت أكدت له أنه ليس رجل أفعال . فقد قام بحجة إلى الخطوط الأمامية، والآن، تقبل أن يقضى بقية الحرب في المكتب : «أكثر الأماكن المتاحة متعة إلى أن يستفر الشرق الأدنى» . ولم يكن هناك أمل في الحجاز طبعاً، ورعم المفاوضات المطولة، فلم يكن هناك من يعتقد أن الشريف سيقاقل إن حان الوقت . وقبل صدور النشرة بيوم واحد، حدث تطور مفاجئ . ففي ٥ يونيو عام ١٩١٦، اليوم الذي غرق فيه اللورد كتشنر في بحر الشمال، رفع الشريفان على وفصل رابات الهاشميين القرمزية على أسوار المدينة، وأعلننا باسم كل العرب، انتهاء حكم الأتراك العثمانيين .



تی . ای لورانس (نید) وهو فی الحادية عشرة .



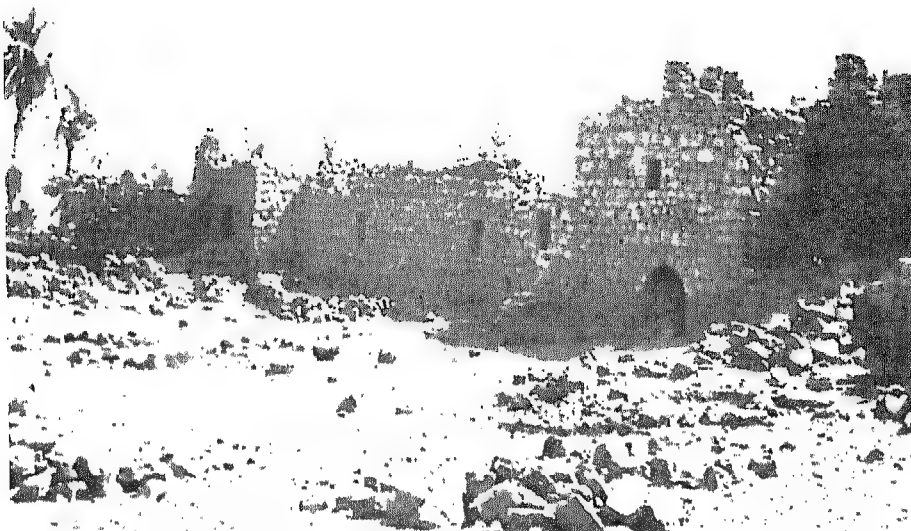
فيصل، التقطت الصورة في مؤتمر الصلح في
باريس عام ١٩١٩



استكش للورانس أثناء مؤتمر الصلح بباريس عام
١٩١٩ بريشة أوغسطس جون



جوتروود بل، والسير هربرت صامويل المندوب السامي في
فلسطين ولورانس والشريف عبد الله في عمان - أبريل ١٩٢١



برج البوابة في قلعة الأزرق من تصوير لورانس، وكان لورانس قد مكث بالقلعة في نوفمبر ١٩١٧
لعدة أيام للراحة. وبعد عام قام بتجميع قوة في الأزرق حاصرت الأتراك وعزلتهم في درعا خلال
الأيام القلائل الأخيرة للحملة.



لورانس وهو يبتسم في مقر قيادة الجيش

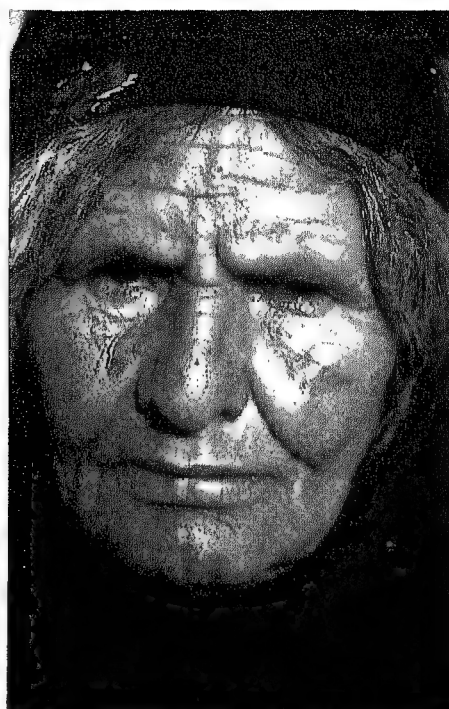
البريطاني بالقاهرة عام ١٩١٨



داهوم، أو سليم أحمد، العامل الصبي الذي عرفه
لورانس في كركميش وأخيه، التقط لورانس
الصورة عام ١٩١١



بقايا منزل قديم فى ينبع بالمملكة العربية
السعودية



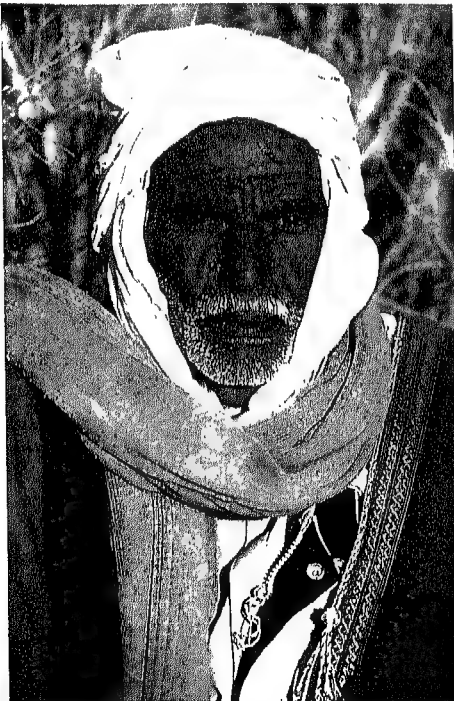
امراة من الحويطات فى وادى رم وهى تعرض
بفخر الوشم الذى رسم على وجهها ليلة زفافها



بدوى من الحويطات يحمل جملة عند بئر المدورة وهى نفس النقطة التى انطلق
منها لورانس وجماعته جنوباً للهجوم على خط حديدى قرب حلة عمار



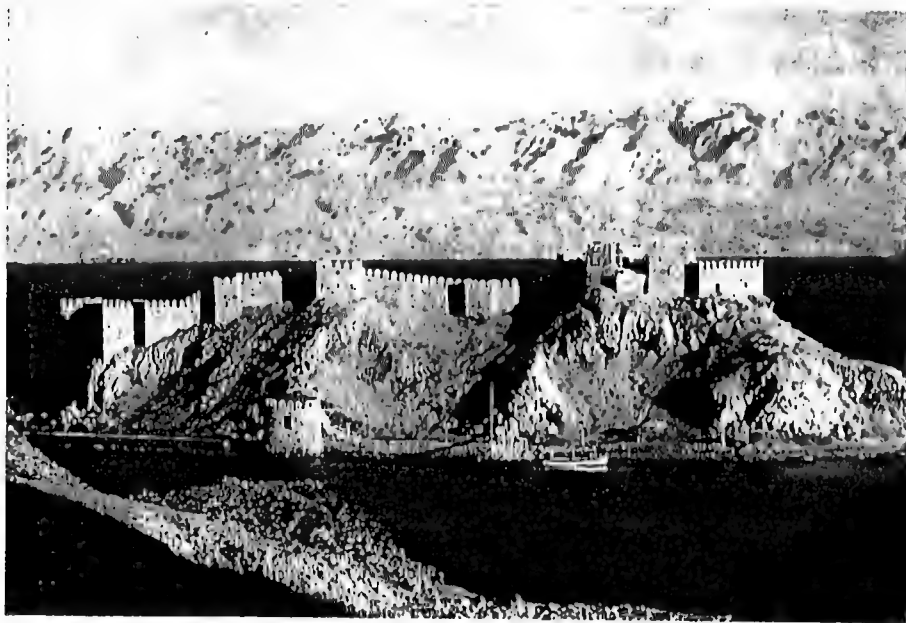
بدوى يملأ قريته وقد قال لورانس إن أساليب البدو صعبة حتى بالنسبة لمن
نشأوا عليها، أما بالنسبة للغريب فهى موت فى الحياة



بدوى من حويطات الأردن التى تعاونت مع الهاشميين فى
الهجوم الأخير للورانس على العقبة فى يوليو ١٩١٧



الكاتب وابنه عند نبع لورانس في الأردن حيث اعتاد لورانس الاستحمام فيه عند توقفه في وادي رم
عام ١٩١٧



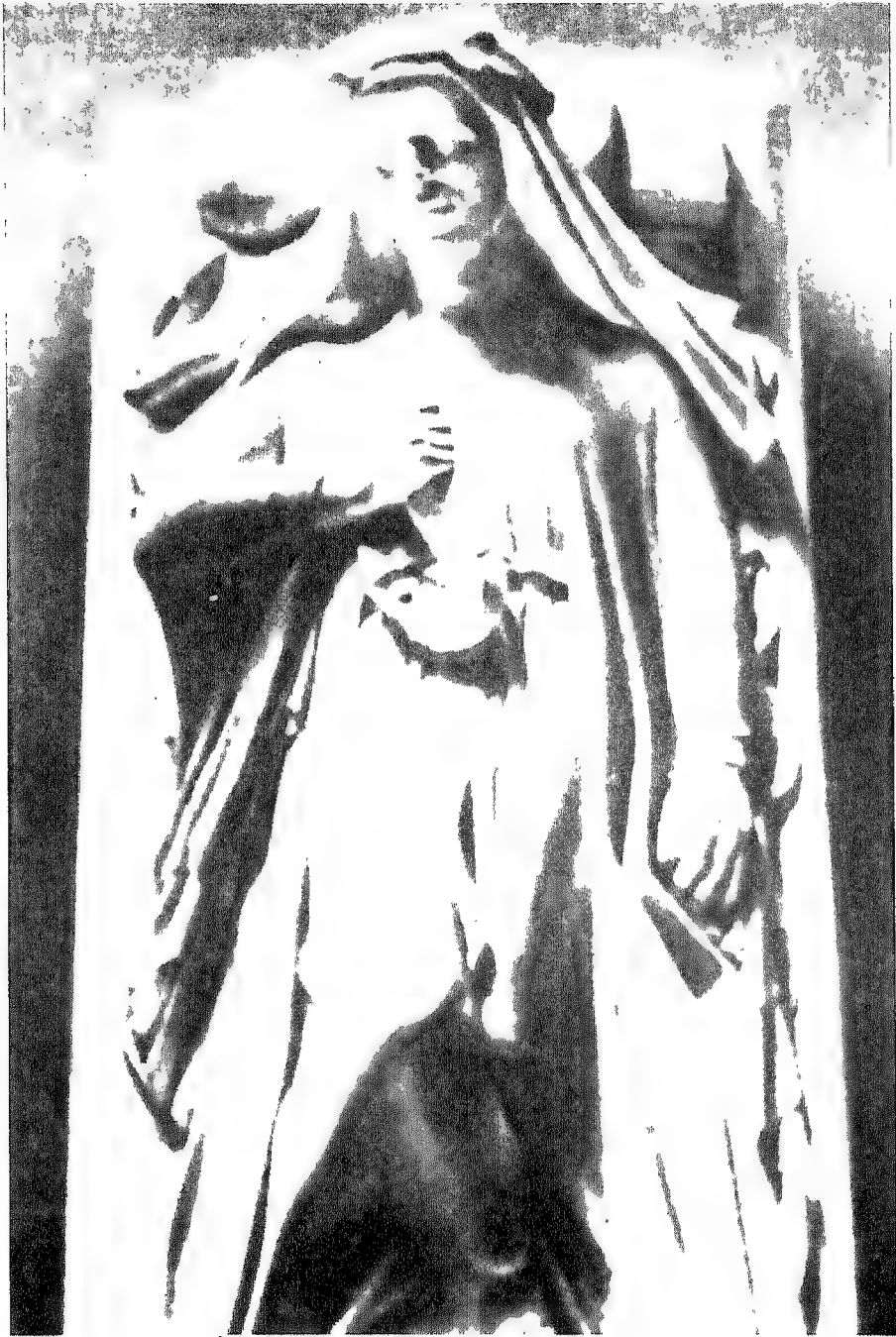
جزيرة فرعونه قرب سيناء، وقد قام لورانس كاركولوجي شاب بالعبور سابحا إليها لفحص بقايا
قلعة صليبية (تم الآن ترميمها)



جسر الحديد الصلب الذى شيدته المهندسون الألمان والعمال الأتراك بين عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٨



قاطرة منقلبة فى محطة حذية بالمملكة العربية السعودية ومازال
عدد من القاطرات الأصلية التى كانت تسير على خط سكك حديد
الحجاز موجودة فى صحارى الحجاز



تمثال لورانس كمحارب صليبي في زي عربي نحتته صديقه إريك كنجتون وهو موجود
بكنيسة سانت مارتن الأنجلو ساكسونية القديمة بمقاطعة دورست في إنجلترا

الباب الثاني

المحارب

أكتوبر ١٩١٦ - أكتوبر ١٩١٨

أعمال
الشيخ
الإمام
الشيخ
الإمام
الشيخ
الإمام

أكبر حدث في الشرق الأدنى

منذ عام ١٥٥٠ اندلاع

الثورة العربية ١٩١٦

11

كانت أرضاً قاسية،

أرضاً عطشى،

أرضاً تحترق تحت سماء من

الكوبالت المصقول الأزرق،

جحيم من الضوء الملتهب.

كان مكاناً للقمم العارية التي تغطيها الندبات، وقد تشققت وتشكلت في أشكال خيالية وكأنما بفعل مطرقة، مكاناً أطلقت فيه شياطين الغبار في وحشة موجعة؛ مكاناً من الأودية العميقة الجافة، والشجيرات الشائكة والنباتات البرية. لفافات من الرمال دون ماء، وحصباء سوداء وصخور بركانية يسميها البدو حراء. والحجاز اسم مشتق من الحاجز، إلا أنه، ولأجيال لا تحصى، كان الطريق للحج والتجارة. وكانت القوافل قبل الإسلام بزم طويل تسير في مجاهله تحمل اللبان (البخور) من ممالك البهارات إلى موانئ الشام. وقد مرت بلبقيس، ملكة سبأ الأسطورية بهذا الطريق في رحلتها إلى بلاط الملك سليمان. ولم تزدهر مدنيتا عظيمة هناك أبداً. بيد أن الواحات تتناثر في ثنايا تلك التلال والسهول الهيكلية اللامعة مثل جزر شاسعة خضراء في الأراضي الجدياء وبها ملايين من أشجار النخيل: المدينة، وينبع، والنخل، وتيماء، وخيبر، وديدان، والطائف.. وفي مكة، التي أسست في واد قحل لدرجة استحالة زراعته، ثمة موضع مقدس، أى الحرم،

الفصل الحادى عشر: أكبر حدث فى الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

حيث لا يجوز اصطياد حيوان أو قطع شجرة أو إهدار دم آدمى . ومنذ الجاهلية ، كان الناس يؤمنونه للتعبد أمام الكعبة والحجر الأسود الذى يقال إنه قد سقط من النجوم .

وفيما بين هذه الواحات كانت البرية والصحراء وسكان التلال ، أى البدو ، وهم أقوام دائمو الحركة والتغيير والتكيف لنزوات الأرض ؛ يستقرون فى مكان ما لمدة تسمح بزراعة الحبوب حيناً ، وحيناً آخر يطون خيامهم ويرحلون بإبلهم إلى أحد المراعى النائية . وكانت التغيرات بطيئة الحدوث من جيل لآخر ، ومن ثم لم يعد البدو ، الذين لم يكن لهم تاريخ يذكر ، يتذكرون وقتاً كانت الأمور فيه مختلفة . واعتقدوا أن أساليبهم خالدة غير متغيرة اكتسبت قداستها من الزمن . أما الرعاء المقدس الذى حفظوا فيه سجلاتهم ، فكان الشعر ، حيث تناقلته الأفواه ، وامتلاً بقصص لا تنتهى عن الحروب والصراعات بين القبائل والغزوات والمناوشات التى لا تحصى . وكانت الأسلحة البيضاء ، أى السيوف والرماح ، هى التى تستعمل فى هذه الحروب ، الأمر الذى كان يعنى أن قاتل من يُقتل بهذه الأسلحة يصبح معروفاً

للجميع، والثأر منه يقيناً. كان القانون المطلق السائد هو القانون التوراتي: العين بالعين والسن بالسن، أما المقولة التي دائماً ما كانت تتكرر في رواياتهم وتؤكد حتمية الثأر البطيئة فهي «وبعد أربعين عاماً، أخذ البدوي بثأره». وطبقاً لموروث البدو، فالثأر يقع على أي من الأقرباء الذكور للقاتل في خمسة أجيال، لأنه لا يمكن لأي فرد تتبع نسبه الحقيقي لأكثر من هذا. ففيما بعد والد جد الجد، يصبح النسب في عداد الأسطورة. أما القبيلة نفسها، فكانت نوعاً من الكيان المجرد، تتكون من عدد من العائلات من خمسة أجيال، وكان أفرادها يشعرون ببساطة أن كلاً منهم ينتمي للآخر، حتى وإن لم تربطهم رابطة دم. وكانت القبيلة هي المأوى والملاذ لكل الأفراد. ورغم استقلال القبائل الصارخ، ورغم حالة الحرب التي كانت قائمة فيما بينها، إلا أن مشاعر الوحدة والتكافل كانت تربط بينها مما يعرف بالعصبية التي تكمن فيها القوة الحقيقية لبلاد العرب. فالولاء لا يكون بين فرد وآخر وإنما الولاء المطلق يكون للقبيلة.

وفي الحجاز، كان البدو يعيشون على حليب نوقهم، وعلى التمر والحبوب من بساتين واحتاتهم فلم تكن ثمة نقلة من الصحراء إلى أماكن الزراعة، وكانت قبائل غرب الجزيرة الكبرى مثل عتيبة وحرب وجهينة وبلي ومضر، وبنى عطية، تتكون من أسر تحيا وفقاً لتتابع أساليب الحياة: من الرّحل إلى شبه الرّحل، إلى القرويين الذين نادراً ما كانوا يغادرون أماكنهم. وبينما كان يميل الذين كانوا ينتقلون إلى السخيرية ممن هم أكثر استقراراً، إلا أنهم كانوا أقرباء، ويعتبرون جميعاً شرفاء، ويستمدون شرفهم من سمعة القبيلة.

فرغم أن الأفراد في كل قبيلة كانوا متساوين، وكان الشيوخ مجرد رؤساء داخليين، إلا أن القبائل نفسها لم تكن متساوية فيما بينها. فقد كانت أنبل القبائل في وقت ما هي أقواها، وكانت تغير أنسابها وفقاً لهذا. وكانت هناك بعض القبائل المنبوذة مثل شرارة والعواصم والخطيم الذين لم يُقبلوا كمحاربين، ولا يقبل أحد الزواج منهم. كما كان هناك قوم آخرون غير منتمين يسمون بالصُليب وكانوا صناعاً غير مهرة وصيادين وعطارين. أما بنو عقيل فلم يكن ينتمون لأي من هذه المجموعات. فقد كانوا في غالبيتهم قرويين مستقرين من واحات القصيم ونجد، ولا يكونون قبيلة، بل جماعة من تجار الإبل ومرشدى القوافل عرفت في أنحاء الجزيرة

الفصل الحادى عشر: أكبر حدث فى الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

بصفتهم سماسرة أمناء، وخبراء إبل من أفضل مستوى، ومحاربين مرتزقة شجعان يحظون بالاحترام ويحافظون على الولاء لمن يتولون حمايتهم. وكانوا يحظون بالاحترام فى جميع أنحاء الجزيرة رغم عدم كونهم بدوًا. ورغم أن حياة البدو كانت شاقة فإن ما ادعاه لورانس من أنها كانت «موتاً فى الحياة» توضح جوانب عن شخصيته هو أكثر ما تصدق على حياة البدو. فقد كانت ثقافتهم فى الواقع متكيفة تماماً مع الصحراء لدرجة شعورهم بالانتماء إليها. كانت آليات بقائهم هى إبلهم وقطعان ماعزهم وأغنامهم. وكانوا يأخذون منها معظم ما يستعملونه ويبتاعون باقى احتياجاتهم فى المدن. لم يكونوا يحيون بالثروة المادية - فهى أمر عابر فى مثل هذا الخواء - لكنهم اعتمدوا على قدسية السمعة. فكان الرجل يكتسب الشرف بإظهار الشجاعة وقوة التحمل وحسن الضيافة والولاء. وعلى حين لم تنج قافلة غريبة أو شخص مسافر أو خيمة منافسة من أعمال السلب. فإن الفرد بمجرد تقاسمه الخبز والملح مع المضيف كان يعامل بميثاق الشرف. كان الغزو من أجل الإبل هو «بهارات» حياة البدوى ووسيلته لاكتساب الشهرة، وكان يهاجم الجميع، إلا إذا رأى عكس ذلك. وكان يقدم خدماته نظير الذهب، بيد أنه لا يبيع روحه قط.

كانت الأوجه الروحانية، لا المادية، هى أكثر أوجه حياة البدوى صعوبة على فهم الغرباء. فقد كان البدو يحيون فى تتابعية زمانية / مكانية تختلف عن تلك التى يحيها الأوروبيون: عالم مسطح؛ أضواء فى السماء؛ عالم لا يقاس بالكيلومترات والأميال. كانوا يسكنون عالماً كل شىء فيه - شجرة أو صخرة أو عين ماء له روحه الخاصة. إلا أنه عالم ينسب كل ما فيه لله. فالبدوى لا يمتلك شهوة التوضيح، أو فكر يبحث من خلاله عن الحلول، أو مفهوم لتحسين حياته وبيئته. فالإجابة على كل سؤال مكانها الإيمان وليس العقل. كانوا يحيون فى عالم دون أمان جسدى حيث يمكن أن ينزل بهم الموت (من الغزاة أو العطش أو الجوع أو الكوارث أو المرض) فى أية لحظة. بيد أنه كان لديهم إيمان وجودى، مثل أى أوربى من العصور الوسطى، كان لديهم المعرفة المطلقة بمن يكونون وإحساس بالهدف، وحس بالمعنى، وشعور بأن الله يحرك الأمور لما هو خير؛ حس بأنهم ينتمون للأرض وللكون؛ ذلك الذى افتقده الأوروبيون المحدثون.

اخترق يوهان لدوفيج بيركهارت وريتشارد بيرتون مكة والمدينة متخفيين كمسلمين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأيضاً قام تشالز داوتى برحلاته في الجزيرة العربية في السبعينيات من القرن التاسع عشر. إلا أن الكثير من الأرض نفسها لم يكن معروفاً للعالم الخارجى. فقد أخبر دافيد هوجارت الجمعية الجغرافية الملكية أنه «حتى عام ١٩١٤، فإن أفضل معرفتنا بشبه الجزيرة العربية، بجميع أنحائها كانت جد ناقصة، ولم تكن معرفتنا بالنسبة لأكثر من نصف هذه المساحة الهائلة تساوى شيئاً يذكر.. وكانت المناطق شبه المجهولة هي التي تقع في المنتصف - خاصة منتصفها الغربى؛ وظل الجزء الأكبر من هذه المنطقة محظوراً. كأرض مقدسة - على الرحالة والمكتشفين الأوروبيين، سوى من كان يخاطر بنفسه منهم، ويتخفى بمهارة، الأمر الذى أعاق، إن لم يكن حال دونهم ودون ملاحظة الحقائق والمعالج ذات الأهمية الجغرافية وتسجيلها». ولم يكن قد تم مسح منطقة تهامة أو ساحل الجزيرة على البحر الأحمر، التي ظلت في هذا الصدد مثلها مثل منطقة القطب الجنوبى. كما لم يكن لدى البريطانيين خريطة للجزء الداخلى يعتد بها. ولم يكن باستطاعتهم معرفة المسافة بين خط سكك حديد الحجاز والساحل أو حتى عدد المخطات جنوب العُلا. كما لم يكن بمقدورهم تحديد خط الطول عند أية نقطة لمسافة مائتى ميل من تلك البقعة وحتى مكة، أو أين، على وجه التحديد، تقع المدينة وكيف تبدو. وكان التخطيط الذى رسمه بيرتون للمدينة هو الخريطة الوحيدة المتاحة. وحينما خطا لورانس على شاطئ جدة فى ١٩ أكتوبر عام ١٩١٦ كان يعرف أنه يدخل أرضاً مجهولة.

كان عمر الثورة حينذاك أربعة أشهر وكانت على شفا مأزق خطير. فقد استعاد الأتراك زمام المبادرة، ورغم أنه لم يكن لحسين خيار آخر، فقد بدا للبريطانيين أنه يتصرف باندفاع. فقد أرسل ابنه فيصل إلى دمشق فى يناير عام ١٩١٦ فى رفقة أربعين حارساً شخصياً من رجال القبائل، كى يثير عصياناً بين الفرق العربية فى الجيش العثمانى فى سوريا والعراق. واكتشف فيصل أنه لم تكن ثمة أية فرق عربية فى سوريا، لأن جمال باشا الداهية (الحاكم العسكرى) قام بإرسالها جميعاً إلى جبهات أخرى وحلت محلها فرق عثمانلية، وقد سبب هذا استياء فيصل. كانت سياسة جمال باشا الجديدة قمعية. فقد حكم على واحد وعشرين قومياً

الفصل الحادي عشر: أكبر حدث في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

عربياً بالإعدام شنقاً في الأماكن العامة في دمشق وبيروت، وكان بينهم قضاة وكتاب ومفكرون. وكان أيضاً على وشك إرسال ٣٥٠٠ جندي مدرب منتقن بقيادة خيرى بك إلى الحجاز، بزعم أنهم في طريقهم إلى اليمن لمرافقة بعثة ميدانية ألمانية بقيادة البارون أوتهايمر فون ستوتزنجن؛ إلا أن الهدف كان إحكام قبضته على الحجاز. وأدرك حسين أن أحكام الإعدام كانت ترمز إلى ثقة الأتراك الجديدة التي ألهمهم إياها نجاحهم في غاليلوى والكوت، وراوده الشك أن الهدف الحقيقي وراء بعثة خيرى بك كان خلعه هو، وعرف أن عليه أن يتصرف قبل وصول القوات الجديدة إلى المدينة. وكان قد أسّر بالأمر إلى بنى حرب وعتيبة وجهينة وآخرين، وكان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على قواته من البدو وأن لديه فرق الهجن الدموية المدربة من مرتزقة بنى عقيل ورجال حرس بيثثة من القبائل - سكان مرتفعات عسير - إلا أنه لم يكن لديه قوات نظامية، وإمدادات حديثة خاصة من الرشاشات والمدافع. بيد أنه كان يثق في قواته البدوية وكان يعوق حركته عامل واحد فقط؛ فقد كان فيصل مايزال في سوريا معرضاً لأن يقبض عليه جمال باشا بمجرد تسرب أى شيء عن أعمال قتالية. وبمهارة، حل فيصل المشكلة سريعاً بأن خدع جمال بإقناعه أنه سيعود للحجاز فقط لإحضار قوة متطوعين للجيش التركى. وغادر دمشق يوم ١٦ مايو وترك رجاله الأربعين تحت إمرة نسيب البكرى من «الفتاة» مع تعليمات لهم أن يهربوا بمجرد تلقيهم كلمة السر. ووصل إلى المدينة في الأسبوع الثالث من مايو وبذلك صار الشريف حراً في توجيه الضربة.

تعالى صوت المؤذن الوحيد من أعلى مئذنة المسجد الحرام في مكة فجر ١٠ يونيو. كان الجو مازال لطيفاً في هذه الساعة، والسماء صافية كالزجاج المشتعل، والهواء الساكن يحمل نذير حرارة ملتهبة. كانت هناك أشباح أشخاص معتمة في الشوارع؛ بدو يلتحفون العباءات وقد غطوا وجوههم بإحكام بأغطية رءوسهم، وكانوا يختلطون برجال المدينة المندفعين لتأدية الصلاة. وفي معسكرات جبرول بطريق جدة حيث كان القائد التركى قد قضى ليلة، كان الأتراك ينامون وهم واثقون أن حرس وبنادق قلعة إحياد ستحميهم. كانت القلعة عبارة عن حصن ضخم ذى أبراج عديدة مقام على بقايا صخرة أعلى مدينة مكة. كانت القوات قليلة العدد - أقل من ١٥٠٠ رجل - إذ إنه في فصل الصيف، كان الحاكم معتاداً

على الانتقال ، مع أغلب الحامية ، إلى مقره في الطائف الأكثر برودة . وكان نائب الحاكم في مبنى الحميدية ، حيث مكاتب الحكومة ، قائماً يتوضأ . وتوقف برهة للاستمتاع بجمال الأذان . وغير بعيد عنه ، في القصر الهاشمي ، كان الشريف حسين يستمع باهتمام إلى نفس الأذان الواضح ، وهو يحملق من النافذة ، ويرقب الأشخاص الذين كانوا يتجمعون ببطء في الشوارع . وفجأة توقف الأذان ، وساد الصمت لبرهة . والتقط الشريف مدفعه ، وبتمهل مدروس ، أطلق من النافذة الطلقة التي بدأت على أثرها الثورة العربية رسمياً .

كانت هذه هي الإشارة التي ينتظرها رجال القبائل . وسرعان ما خلعوا عباءاتهم وأطلقوا وابلأ من القذائف على القلاع التركية ، وعلى المعسكرات ونقاط الحراسة والمكاتب . استيقظت القوات في جرول ليجدوا القذائف تندفع من خلال نوافذهم كالذباب . ونهض القائد من سريره لينظر حوله مرتبكاً . فقد كان يهاجم ولا يعرف ممن . واستمع بانتباه لدوى المدافع والرشاشات التي كانت سترافق الهجوم لو أنه كان هجوماً من الحلفاء ؛ إلا أن ما سمعه كان فقط نيران الأسلحة الصغيرة . وحينما نظر خارج نافذته أبصر علماً قرمزيّاً يرفرف على القصر الهاشمي ، لكنه لم يتبينه كرمز هاشمي إذ كانت الراية العثمانية قرمزية أيضاً . وسرعان ما أدار قرص الهاتف وحادث قائد بطارية قلعة إجياد . وكان قد أعطى أوامره للجنود في نفس اللحظة تقريباً باحتلال مواقعهم . وظهرت زخات الدخان عند فتحات البنادق في القلعة وتبعها زئير الطلقات في الشوارع . وبدأت أصوات المدافع للمهاجمين تبدو كشياطين الرعود . فقد كانوا مسلحين فقط بالبنادق الخفيفة muskets ، ولم يكونوا قد سمعوا من قبل صوت المدافع . وفي معسكرات جرول ، كان الأتراك قد استعادوا جأشهم بعد المفاجأة الأولى ، وأخذوا يردون على النيران بقوة وقد شجعتهم أصوات المدافع . وبعد ذلك هاتف القائد الشريف قائلاً إن البدو يهاجمونهم وسأله عما إذا كان باستطاعته فعل أي شيء إزاء هذا . وأجاب حسين « بكل تأكيد » وأعطى الإشارة بتجديد الهجوم .

وفي التاسعة ، وحينما كان الناس يستشعرون حرارة النهار المشعة في الشوارع ، طلب القائد التفاوض . وسار الموظف المدني المحلى إلى المعسكرات رافعاً راية بيضاء وأخبره « أن هذه البلدة قد أعلنت استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية وأن

الفصل الحادى عشر: أكبر حدث فى الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

الأعمال القتالية ستتوقف فقط حينما تخلى قواتك المعسكر وتسلم أسلحتها كلها إلى القائد العربى». وأمر القائد. وقد أذهله اكتشاف الموقف بطارية إحياد أن تطلق النيران. فقد صمم على المقاومة. واستمر القصف متقطعاً طوال النهار والليل؛ وفى الصباح التالى هجمت جماعة من البدو على مقر الحراسة الرئيسى بجوار الحرم وكان أعضاؤها يطلقون صيحات الحرب ويلوحون بسيفهم ورماحهم التى كانت تبرق بريقاً قاتلاً فى ضوء الشمس. واندفعوا من أبواب المقر وأسروا المدافعين عنه. وفى اليوم التالى هجموا على مبنى الحميدية حيث احتضى نائب الوالى مع مرافقيه. وكان هو ورجاله قد أخذوا فى إطلاق النيران على كل من كان فى مرمى الطلقات، وأصابوا بذلك عدداً من كانوا فى طريقهم للصلاة فى المسجد. وسار البدو خلسة من باب إلى باب إلى أن شنوا هجمة من مدى قريب وقفروا من الظلال متصايحين. وألقى الأتراك بمدافعهم وقد أخافتهم ضراوة المهاجمين ورفعوا أيديهم مذعورين. ثم اقتيدوا إلى القصر الهاشمى حيث أرسل نائب الحاكم خطابات إلى القوات فى جرول وإحياد يأمرها بالاستسلام. بيد أن الوحدات التركية أصرت على عدم الإذعان واستمر أفرادها يطلقون النيران فى المدينة عشوائياً لدرجة أنهم أشعلوا النيران فى كسوة الكعبة ودمروا مقام إبراهيم وأحدثوا شقوقاً فى نقوش كانت تخلد حياة الخليفة عثمان. وكان لكل تلك الأفعال تأثير دعائى مضاد لهم. كما كان آخر عمل فى تلك القائمة نذير شوم لأن اسم عثمان كان مرتبطاً باسم سلف الأتراك العثمانيين. بيد أن الموقف أضحى راكداً. فلم يكن بمقدور العرب الهجوم على إحياد حيث البطاريات الممينة كما لم يكن الأتراك قادرين أو مستعدين لشن هجمة مفاجئة. وظل الموقف متجمداً حتى أول يوليو حينما وصلت بطاريتان من مدافع الجبل بقيادة سعيد باشا على. ورغم أن المدافع كانت عتيقة أرسلها على وجه السرعة السير ريجينالد وينجيت سردار الجيش المصرى من بورسودان، إلا أنها كانت مجدية للقصف عن قرب. وفى الوقت نفسه تقريباً أوقعت بطاريات المدفعية بعض المدافع التركية فى إحياد وأحدثت فتحات فى الجدران مكنت البدو، الذين كانوا قد تمكنوا من تسلق المرتفعات المحيطة، من الإلقاء بأنفسهم داخل القلعة، وأعملوا القتل فى رجال الحامية وأسروا من تبقى منهم، واستولوا على خمس قطع مدفعية، و ٨٠٠٠ بندقية،

ومئات الآلاف من صناديق الذخيرة. وحينذاك، وجهت مدافع الجبل إلى معسكرات جرول، وأشعلت الطلقات النيران في المبنى ناشرة دخاناً مسمماً داخله. واستسلم الأتراك، الذين لم تكن لديهم مياه لإطفاء النيران، يوم ٩ يوليو. وبعد قتال استمر شهراً، كان العرب قد قتلوا وأصابوا ما يقرب من ٣٠٠٠ تركي، وأسروا الباقين. ومن ثم، كانت المناورة الافتتاحية للثورة العربية نجاحاً مذهلاً.

وكان قد تم الاستيلاء على ميناء جدة منذ زمن طويل. وهنا، استعمل حسين الذهب لإثارة جزء من قبيلة حرب - وكانوا جماعات من قطاع الطرق المعروفين - بقيادة محسن بن منصور، وهو شريف شجاع كان يحظى بكثير من الاحترام. وكان بنو حرب متمردين جامحين غير أهل للثقة، إلا أنهم كانوا يقاتلون نظير الذهب. وتجمهروا حول جدة لعدة أيام، وفي صباح ١٠ يونيو امتطى ٣٠٠ رجل من القبيلة إبلهم وخيولهم وتدافعوا في اتجاه أبواب المدينة وقصفوا السهل بالمدافع، فانتشر الدخان بين الإبل المهرولة، ورشقوا الصفوف الأمامية بنيران الرشاشات. ثم استدار بنو حرب فجأة وانسحبوا خارج مدى النيران. وأرسل محسن فرقة من ركاب الإبل إلى الشمال الغربي لقطع إمداد المياه عن الحامية العثمانية التي كانت تتموضع خارج الجدران. وفي اليوم التالي دخلت سفينة البحرية الهندية هاردنج والزورق الحربي فوكس من أسطول الدوريات البريطانية في البحر الأحمر الميناء وأمطر الحامية بالنيران المركزة فقتل ثلاثة من رجال الدرك الأتراك. وتكرر القصف يومياً حتى رست حاملة الطائرات بن - ماي - شري قرب الصخور وانطلقت منها طائرات بحرية حلقت فوق أسوار المدينة وأسقطت فوقها القنابل. وفقدت الحامية التركية عزيمتها، وأصاب أفرادها العطش؛ ولدى علمها بعدم وجود تعزيزات في الطريق إليها استسلم قائدها للشريف محسن. كما تحققت نجاحات مماثلة في موانئ على شواطئ البحر الأحمر مثل ميناء المدينة وينبع، ورابغ التي تم الاستيلاء عليها بنهاية شهر يوليو. كما تم الاستيلاء على ليث والقنفذة في الجنوب في نفس الوقت تقريباً، وهربت القوات التركية عند أم اللج إلى الصحراء حينما أطلقت القذائف من الطراد فوكس على شارع رئيسي في المدينة واختترقت أسوار القلعة. إلا أن مدينة الطائف الواقعة على مرتفعات الحجاز على بعد حوالي خمسة وسبعين ميلاً شرقي مكة فقد برهنت على صلابتها.

الفصل العاشر: أكبر حدث في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

كانت الطائف، التي تقع على سهل رملي وسط بساتين الفاكهة وحدائق الزيتون على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر، مدينة مسورة. وكانت تخدم كسوق لبنى عتيبة، وهم بدو من وسط الجزيرة، وأيضاً لعدد من القبائل شبه الرحل. وكان قد تم إرسال عبد الله إلى هناك، مع سبعين من جماعة العقيل الممتطين في أول يونيو بمجرد سماع عبد الله أخبار تقدم خيرى بك. وعسكر بقواته غرب المدينة، وأخبر الحاكم المحلي أحمد بك، أنه في غزوة ضد البقوم، وهى قبيلة رُحل تعيش في خمسمائة خيمة وتسكن وديان عسير. وكان أحمد بك يساوره الشك، إلا أنه حدس أنه مهما تكن نوايا الشريف فھر ورجاله السبعون من العقيليين سيئو التسليح لا يثقلون خطراً إزاء الأتراك البالغ عددهم ٣٠٠٠ رجل. وكان بحوزتهم عشرة من مدافع الجبل. وأخذ عبد الله يبعث رسله إلى معسكرات العتيبة والقبائل الأخرى يدعوهم للانضمام إليه ويعرض عليهم الأموال والأسلحة. وفي غضون أيام قليلة وصل البدو على إبلهم في مجموعات صغيرة لا تلفت الانتباه وبسرعة فائقة ازدادت قوات عبد الله عدداً وبلغت ٥٠٠٠ فرد، وراقب أحمد بك، الذى كان يزور معسكر عبد الله كل مساء، جمع رجال القبائل والإبل بقلق. وفي خلال أسبوع كان الشريف قد أتم استعدادته لإعطاء الأوامر بالهجوم. إلا أن غالب باشا حاكم الحجاز استدعاه فجأة في الليلة المحددة لبدء الهجوم. ونصحه مستشاروه الرئيسيون بتوخى الحذر. ورغم ذلك، ركب الشريف بشجاعة إلى قصر غالب باشا في رفقة بدويين فقط تركهما في الخارج بعد أن أمرهما بهدوء أنه في حالة محاولة القبض عليه يكون عليهما منع الخطر من الخارج بينما يتولى هو معالجة الأمور مع الوالى. وسار عبد الله إلى الوالى ليجد أنه أراد أن ينصحه بعدم تنفيذ غزوته ضد البقوم وقال له «ثمة شائعات عن قيام ثورة في أية لحظة الآن. هل ترى كيف يغادر سكان الطائف منازلهم مع عائلاتهم؟» فاحتج عبد الله قائلاً «دعنى أنفذ الغزوة كي يستعيد الناس ثقتهم». وفي تلك اللحظة دخل أحمد بك الغرفة وكان يبدو مهتماً واستعد عبد الله للتصرف. وهمس القائد بشكوكه في أذن غالب مقترحاً القبض على عبد الله في الحال. وترقب الشريف متحسباً مسدسه تحت عباءته. إلا أن الحاكم أشار للقائد بعد دقائق أن يتنحى جانباً وغادر عبد الله المكان طليقاً. وبمجرد وصوله إلى المعسكر بعث مجموعة من بنى عقيل ليقطعوا أسلاك البرق إلى مكة، وأمر كشافته بمنع أى مراسلين من مغادرة الطائف أو الدخول إليها حتى لو

أدى هذا إلى إطلاق النيران . وفي ليلة ١٠ يونيه حاصرت قواته الجزء الشمالى من المدينة ، إلا أنه تم صدهم بسهولة حيث كان أحمد بك قد قوى أسوار المدينة بدعامات طينية وحصنها بخنادق . وكتب عبد الله يقول : « لقد نفذنا الهجوم بكثير من العنف . فقد قام رجالنا فى المركز بشن غزوة وعادوا ببعض الأسرى والغنائم . وفى الصباح الباكر بدأت المدفعية التركية تقصف مواقعنا قصفاً شديداً . ومن حسن الحظ أنه لم يحدث هجوم للمشاة » . وفى غضون الأيام التالية حاول العرب غزو مواقع متفرقة بانتظام ، ليجدوا أنفسهم وقد تفرقوا بسبب ضوضاء مدافع الأتراك . ومن ثم ، فقد بنو سعد ، وهم قبيلة من المزارعين ، أعصابهم لدرجة أنهم تخلوا عن الشريف واتجهوا إلى قراهم . وتحين عبد الله فرصته بتأن ، حتى وصلت مدافع الجبل المصرية فى منتصف يوليو ، ثم حملها قطعاً قطعاً إلى أعلى وادى فاطمة من مكة ومعها مدافع هاوتزر التى كان العرب قد استولوا عليها . إلا أن حالة الركود استمرت . وفى هذا الصدد ، قال عبد الله فيما بعد إنه لم يوظف المدفعية بالقدر الذى كان يتوجب عليه من أجل الاستفادة منها ، على حين قال رجال المدفعية المصريون لهيوبرت فيما بعد إن البدو أصابهم الخوف من الهجوم ، وأنهم لم يستغلوا قذائفهم أبداً . إلا أن صبر الشريف آتى أكله فى النهاية إذ استسلمت حامية الطائف فى ٢٢ سبتمبر وأسر الحاكم .

بقليل من المساعدة من البحرية الملكية البريطانية ، وعدد محدود من القوات المدربة والآليات الحديثة سيطر الهاشميون على أهم المدن فى الحجاز . واستولوا على كمية هائلة من المعدات الحربية . أما الأهم من هذا فهو أنهم حققوا نجاحاً دعائياً لامعاً ، وتوارت الأحلام التركية / الألمانية بشأن الجهاد المقدس . وقد اعترف جمال باشا بهذا فى خطبة عامة وصف فيها حسين بأنه شخص خائن وخسيس ، أما المشكلة بالنسبة للعرب فتمثلت فى كون المدينة ، لا مكة ، هى مفتاح الحجاز . ولم يكن قد تم الاستيلاء عليها . فلم تكن المدينة فقط واحة ذات اكتفاء ذاتى ، وأبعد ما تكون عن مدى مدافع البحرية البريطانية ، لكنها كانت متصلة بالعالم الخارجى مباشرة عن طريق خط السكك الحديدية . وبحلول شهر يونيه كانت حاميتها قد وصلت إلى ١٢٠٠٠ جندي بقيادة فخرى باشا « سفاح أورفه » الشهير ، وكان

الفصل الحادى عشر، أكبر حدث فى الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

جندياً موهوباً قوى العزيمة لا يرحم . وتدريبياً ، أدرك حسين وأبناءؤه أنهم لم يقدرّوا قوة السكك الحديدية حق قدرها . فطالما بقيت المدينة فى يد الأتراك استطاعوا نقل أى عدد من الرجال والمعدات إلى الحجاز ، وشن الهجوم المضاد .

بعد أن رفع على وفيصل العلم فى ٥ يونيه ، قاما بتقسيم قوة البدو إلى ثلاث فصائل قامت إحداها بنزع قضبان السكك الحديدية شمال المدينة بأيديهم المجردة ، ولم يحقق هذا شيئاً ، إذ إنه بدون متفجرات كان من غير الممكن إحداث تدمير دائم ، ولم يكن لدى الأتراك نقص فى القضبان الاحتياطية ، كما كانت محطاتهم القلاعية مزودة بفرق الإصلاح وكانت محيط أول محطة على خط السكة الحديدية ، وتبعد ثلاثة عشر ميلاً غرب المدينة ، وكانت مبنى صلداً من البازلت يحرسه حصن ضخّم قوى يقع أسفل غطاء من التلال المنخفضة . وفى صباح ٥ يونيه انهالت النيران داخل المبنى من القناصة فى أماكن مختفية فى التلال الخفية ، بينما قامت فرقة أخرى بمناوشات عبر السهل المفتوح باتجاه الموقع . وكان الأتراك جيدي التحصين وردوا بالتقدم بنيران الرشاشات . ومما جعل الأمر أكثر سوءاً أن قوة كبيرة من المشاة بقيادة فخرى باشا شخصياً اندفعت من المدينة وهاجمتهم من الخلف . وتراجع العرب إلى التلال وأعادوا تجميع صفوفهم وشنوا هجوماً جماعياً على المدينة قوبل بنيران مكثفة من المدافع والرشاشات . وألقت أصوات المدافع الرعب فى قلوب البدو لدرجة أنهم استداروا معها ولاذوا بالفرار . واحتسمى بنو عتيبة وعقيل بالصخور السوداء وركام الحمم ورفضوا أن يتزحزحوا . وأخذ فيصل يخطو بثبات ممتطياً جواده الأشهب ومرتدياً أبهى حلل الشرفاء ، وسط سيل قذائف الأتراك والمفرقات المتفجرة فى محاولة منه لحفزهم . لكن دون جدوى ، فلم يكن للبدو أية خبرة فى هذا النوع من المجازر ؛ وكان فيصل قد وضع ثقته فى بنى على ، وهى قبيلة مزارعين تسكن قرية العوالى خارج أسوار المدينة وتتحكم بهذا فى إمدادات المياه . إلا أن هدير المدافع وفرار قوات البدو غير النظامية كان فوق احتمالهم ، فطلبوا هدنة من الأتراك . وبينما كانت المفاوضات جارية ، أحاطت قوات فخرى بالقرية ، ودخلوها بعد إشارة متفق عليها ومعهم حرابهم الموجهة وقتلوا كل الرجال والنساء والأطفال ، وأحرقوا المنازل ووجهوا الرشاشات إلى الأبواب كى يصيبوا من يحاولون الهرب . ولدى وصول فيصل ومعه حفنة من

البدو لإنقاذهم راعهم ما شاهدوه. فقد كان هذا الذبح العبي للساء والأطفال من البشاعات التى لا تنسى. وكانت تلك هى الضربة القاضية لروحهم المعنوية؛ وأجبر الهاشميون على التراجع، فى البداية إلى بئر ماش جنوب المدينة، ثم إلى وادى عتيق. وطاردهم الأتراك ككلاب صيد وهم يدفعون بهم من مكان إلى آخر حتى تشتتوا. وقاد فيصل قواته إلى ينبع النخل - واحة من النخيل فى تلال المدينة - وذهب على إلى وادى إثم على بعد حوالى ثلاثين ميلاً جنوب غرب المدينة، حيث تمكنوا بصعوبة من الصمود. وقد أوشكت أطعمتهم على النفاد. وبدأ الأتراك فى التقدم دون هوادة، وأخذوا يجمعون الإبل لركوبهم من القبائل المجاورة، ويستولون على الآبار والنقاط القوية ويحصنونها. وظلت القبائل العربية دون إمدادات أو ذخيرة سوى النزر القليل الذى كان يصلها من مكة بدلاً من رأس الجسر الساحلى عند راغب. وفى منتصف يونيو تم دعم قوات على بفصيلة من الجنود العرب النظاميين الذين كانوا أعضاء سابقين فى الفرق العثمانية التى أسرها البريطانيون وأفرجوا عنهم كمتطوعين فى سبيل القضية العربية. وكان هؤلاء تحت قيادة ضابط مدفعية عراقى ذى مقدرة عالية هو نورى السعيد، الذى رأى من فوره أن موقف على كان ميئوساً منه. فلم يكن بحوزته أية معلومات عن تحركات العدو؛ وكان على نورى السعيد أن يحدد مواقع ثلاث كتائب تركية، كانت تقتفى أثره بأن أرسل رجاله كخدعة لاجتذاب الطلقات. وكانت الذخيرة تقترب من النفاد وقد سيطر الأتراك على أقرب مصادر المياه. وشعر نورى السعيد أن قوات البدو غير مستطاعة وقف تقدم الأتراك، ونصحه بالانسحاب إلى الشاطئ فى حماية مدافع البحرية البريطانية. ورأى أنه بالإمكان تكوين نواة للجيش العربى النظامى بقيادة عزيز المصرى، وهو ضابط عربى متميز كان قد هرب من الأتراك، وقاى مع السنوسى فى صحراء ليبيا، ثم قام بعد ذلك بالتخطيط لاستراتيجية مفصلة للثورة العربية. واقتراح المصرى تكوين «طابور طائر» من العرب المتطوعين المتدربين وعددهم ٨٠٠٠ يمكنهم التحرك بمرافقة ثمانية من مدافع الجبل شمالاً من الحجاز إلى سوريا ويحطمون الخط الحديدى دون الالتحام مع الأتراك أبداً. إلا أن حسين منع هذه الخطة التى تبناها لورانس فيما بعد، وكان حسين يشك فى ضباطه السوريين، وشعر أن مثل هذا الطابور الطائر سيكون خارج نطاق تحكمه. وفى الواقع، فقد قام

الفصل الحادى عشر: أكبر حدث فى الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ اندلاع الثورة العربية

الشريف فيما بعد بالاستغناء عن خدمات عزيز المصرى اخطط الاستراتيجى لحرب العصابات ، وكانت هذه خسارة للثورة لم تعوض . أما بالنسبة للموقف فى ذلك الآن ، فقد نصح نورى على بالانسحاب إلى رابغ . وحينما فعل ذلك ، تبين سبب عدم وصول آلاف الرشاشات وأطنان الإمدادات التى أرسلها البريطانيون إليهم .

وفى رابغ سرعان ما اكتشف على الإجابة على سؤاله الأخير . لقد سرق الشيخ حسين بن مبيرق الإمدادات : فقد كان الشيخ حسين بن مبيرق من زبايد حرب وكان مسئولاً عن الميناء . وكان لابن مبيرق ثأر مع الهاشميين ، وكان أيضاً من المتعاطفين مع الأتراك سرّاً . واستدعى على أخاه الأصغر زيدا الذى حضر مع أحمد ابن منصور وقوة من بنى سالم ، واستولوا على قرى ابن مبيرق بالقوة وعلى الخازن ، وتتبعوا الخائن ورجاله حتى فروا إلى الجبال حيث ظلوا هناك كالأرواح الشريرة . وبدلاً من العودة إلى الميدان ، ظل على وزيد هناك فى انتظار انتهاء عزيز المصرى ونورى السعيد من بناء قواتهما ، وتركاً فيصل يواجه الأتراك بمفرده . وأخذ الموقف يتدهور سريعاً . فقد كان لدى فيصل - الذى اتخذ له موقعاً فى درب سلطانى وهو الطريق الرئيسى إلى الساحل - ٤٠٠٠ من القوات النظامية تحت إمرته ، وأيضاً كان بحوزته رشاشات ومدافع مصرية عتيقة بينما كانت مدافع الجبل التركية من ماركة كروب متفوقة عليها بقدر كبير . وكانت قوات فخري فى المدينة قد بلغ مقدارها ثمانى كتائب كان لديها ستة عشر من مدافع الجبل واثنين من معدات الميدان الثقيلة . وكان الفضل يرجع إلى السكك الحديدية التى مكنت الأتراك من نقل قوات جديدة طوال الوقت . ولم يكن باستطاعة قوات فيصل مواجهة قوات الأتراك ومن ثم أرسل الشريف جماعات من الغزاة يمتطون الإبل بقيادة الشريف على بن حسين من قبيلة الحارث ، وكان شاباً معروفاً بضراوته ، من أجل إقلاق راحتهم ليلاً بضربه مواقع الحرس والقوافل والاختفاء فى التلال . وعلى حين خسر العرب الكثير من القتلى ، فلم يكد الأتراك يشعرون «بوخزات الدبابيس» هذه . وبدأ بدو فيصل فى الذوبان آفلين إلى خيامهم وقراهم . ولم يكن بوسع فيصل أن يمنعهم إذ إنه كان قد استأجرهم على أساس يومى ولم يكن لديه من النقود ما يدفع به أجورهم . وعند نقطة معينة ، أجبر على إحضار صندوق ملاء بالحجارة الثقيلة وعين عليه حارساً طوال الليل لإيهاهم بقدرته على الإيفاء بالتزاماته . وشعر فيصل أن

غاية ما في استطاعته هو الصمود لأسابيع ثلاثة أخرى، أما إجباره الأتراك على الانسحاب للمدينة فكان من ضروب المحال. وفي نهاية أغسطس ركب إلى الساحل حيث التقى بالليفتاننت كولونيل سيريل ويلسون الذي كان قد تم تعيينه كممثل بريطاني في جدة. وكان أصلاً حاكم إقليم البحر الأحمر في السودان، وأُرسل إلى جدة متحدثاً باسم السير ريجينالد وينجيت، الضابط المسئول عن إمدادات الهاشميين في ميناء بورسودان المجاور، وكان هذا أول لقاء لفيصل بالضابط البريطاني حيث شكاه باستفاضة عن حاجته إلى الذخيرة والإمدادات التي كانت من المفترض أن تصله من رأس الجسر الساحلي في رابغ. وكان بحاجة إلى رشاشات ومدفعية حديثة وطائرات، بالإضافة إلى وجود قوات بريطانية في رابغ. فقد كان من الواضح أن الأتراك يستعدون للتقدم باتجاه مكة، حيث ستكون رابغ، وهي مصدر المياه الأساسية على درب سلطاني، حجر العبور. وكان الجند النظاميون العرب غير مستطيعين إحكام قبضتهم عليها بعد، ولم يكن ذلك بمقدرة البدو. ورأى فيصل أن إنزال فرق بريطانية مدربة هو الحل الوحيد. ووافق حسين على ضرورة مثل هذا الإنزال لكنه اعتقد بوجوب أن يقتصر عدد القوات على ثلاثمائة رجل فقط. فقد كان يخشى من السماح لجند مسيحيين، أو مسلمين يعملون تحت إمرة المسيحيين، أن يهبطوا في مجموعات كبيرة على الأرض المقدسة لأن الأتراك الذين كانوا قد عينوا الشريف المنافس لحسين، علي حيدر، أميراً لمكة، كانوا قد أعلنوا أن حسين قد خان القضية بتحالفه من البريطانيين الكفرة. وكانوا ينوون فور استيلائهم على مكة شنق حسين علناً بصفته خائناً، وتدشين علي حيدر أميراً. وفي سبتمبر، التقى فيصل بويلسون للمرة الثانية وكان برفقته إليه. سى. باركر الذي كان قد نقل إلى الحجاز كضابط مخابرات. وكرر فيصل الإلحاح في طلب إنزال قوات بريطانية في رابغ. ونظراً لأن ويلسون وباركر اقتنعا بقرب انهيار الثورة العربية فقد أسرعوا إلى القاهرة لحث مري Murray على إرسال قوة بريطانية. ولم تكن القوة قد وصلت حتى نهاية سبتمبر، وبدأ تقدم الأتراك نحو مكة وشيكاً مع اعتدال الجو. فقد كان كل ما في طريق تلك القوة الساحقة هم جماعة بدو فيصل الهزيلة الممزقة المختبئة في التلال.

الفصل الثاني عشر

« انقضت في وسطهم كالحسام »

المهمة الأولى في الحجاز أكتوبر ١٩١٦

12

في عام ١٩١٦، كانت

جدة ميناء ضئيلاً مسوراً تبلغ

مساحته نصف ميل مربع فقط. أما

الآن، فهي مدينة مزدهرة تبلغ

مساحتها عدة مئات أضعاف ما كانت

عليه ويخدمها مطاران دوليان، وتكاد

تغرق تحت سيل مزعج من السيارات.

وطرت إلى هناك وقيظ الصيف

في أوجه.

ولدى وصولي التصقت الرطوبة بجسدى مثل السترة. إلا أنه كان من دواعي سرورى أن أجد أنه قد تم الإبقاء على بعض الأجزاء المتفرقة من الميناء القديم. وكان قد بطل استعمال البحيرة الضحلة المتصلة بالبحر، والتي كانت رائحة الكبريت العفنة ما زالت تتصاعد منها، كمرفأ للسفن. إلا أن ثمة بعض هياكل سفن متشابهة كانت ماتزال هناك على طول أرصفة الميناء. أما بوابة البحر القديمة، والتي كان لورانس قد دخل منها إلى المدينة قد تم ترميمها وبقيت أثراً. وشاهدت، بين المراكز التجارية مكيفة الهواء، والممرات الرخامية، نماذج من بنايات المساكن العالية الباروكية الطراز التى بنيت من الحجارة المرجانية والجيرية، والتي وصفها لورانس فى «أعمدة الحكمة». وكان بعضها ذا مساحات متواضعة ينتظم وسط مباني حارات السوق الضيقة ويبدو مهدداً لأنه متهالك، بينما كانت البنايات الأخرى واسعة، لها سمات القصور، ذات واجهات ممتدة، وأبواب ثقيلة من خشب الساج المنحوت، ونوافذ خشبية مقوسة، ومشربيات مثل فلاتر الضوء الضخمة، وأشكال

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى الحجاز

تحاكى الشرفات و«الدرازين»، وأشكال أخرى خشبية كبيرة لنوافذ وبوابات تحيط بواجهات المباني بأكملها. وتحولت فى مناطق المشاة فى حرارة الصيف القائظة الرطبة وأنا أشعر بالسعادة لابتعادى عن ضوضاء السيارات، وحاولت أن أتخيل أننى رجعت إلى الزمن الماضى. ففى عام ١٩١٦ كانت هذه الحوارى، بالطبع، مظلمة، أو ممرات غير ممهدة تظللها أقمشة الأجولة التى يتسلل منها الضوء على شكل أشعة ذهبية، وتسدها الحمير والإبل المحملة؛ وتزدحم أثناء موسم الحج برجال حليقى الرءوس من كل الأجناس: أتراك، وبلوختانيين وهنود وفارسيين، وآخرين من الملايو وجاوة، وأفارقة من زنجبار والسودان. إلا أن لورانس وجد جدة مدينة مهجورة فى أكتوبر عام ١٩١٦ وكتب قائلاً: «كانت خامدة، متوترة، متروقة». . . مدينة شعبية حيث كانت الأبواب تغلق دون صوت لدى اقترابه. وتتبع طريق مسيرته وأنا أتخاشى السيارات وعشرت على المنزل الذى كان مقراً للبعثة البريطانية، وكان مبنى شبه مربع ذا نوافذ شبكية محفورة جيداً، وكان مطليا بألوان زاعقة، إلا أنه لم يكن مثل منازل السوق التى لا تخضع لنسق، الأمر

الذى كان مصدر جاذبيتها . كان قد تم ترميم المبنى بقدر كبير من الحماس وأصبح متحفاً للبلدية ، وكان يقع على جزيرة مثلثة فى طريق الميناء الدائرى فى مواجهة السوق التجارى الكبير ذى الواجهة الزجاجية ، وبدا قزماً بجوار جانب من برج البنك الأهلى التجارى المصنوع من الأسمنت والزجاج .

وكان لورانس وستورز قد وصلا إلى مبنى البعثة البريطانية فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩١٦ ليحدا سيريل ويلسون جالساً فى غرفة مظلمة خلف نافذة شبكية مفتوحة . وكان ويلسون ، فى جوهره ، رجلاً صادقاً شريفاً مستقيماً ، اعتقد أن ستورز كان عاجزاً ومراوفاً ، وأن لورانس ، الذى كان قد التقى به مرة فى القاهرة ، شخص يتظاهر بمعرفة كل شىء و«جحش صغير شديد الغرور» . وكان يعلم أنهما لا يشاركانه رأيه بضرورة إنزال قوة بريطانية فى رابغ . وكان يشعر بالخرج من عدم إيفائه بوعده لفیصل . كما أنه رتب لقاء مع عبد الله الذى كان قد عاد منتصراً من الطائف ونصب خيامه عند مقبرة حواء على بعد أربعة أميال من المدينة . وركب ويلسون وستورز إلى خارج المدينة فى ذلك الصباح لمقابلة الشريف الذى جاءهم فمتطياً جواداً أشهب ودخل من بوابة جدة فى رفقة عدد من العبيد . وكان يرتدى ثياباً أنيقة مكونة من غطاء رأس من الحرير الأصفر وعباءة من وبر الجمل وثوب من الحرير الأبيض وحذاء من الجلد اللامع ذى رقبة تصل إلى الركبتين . وترجل عند مبنى البعثة البريطانية ، وحضر اجتماع مع ستورز ولورانس وويلسون وعزيز المصرى رئيس الأركان الهاشمية الذى كان قد سافر إلى هناك مع ستورز ، والسيد على باشا ، الجنرال المصرى الذى قاد المدفعية فى التلال مع فیصل . وبعد أن وصف الأحوال فى الحجاز ، كشف عبد الله عن قلقه بشأن الخطر الذى يتهدد رابغ . فلو حدث تقدم تركى لضاعت كل الانتصارات التى اجتهد العرب فى تحقيقها ؛ فلم يكن سكان المدن جميعهم من مناصرى الهاشميين . كما كانت هناك مجموعات من البدو أنفسهم من جماعات حرب والبيلى وبعض الجهينيين الذين لم يكونوا موضع ثقة وقد يلحقون بصفوف الأعداء بسهولة . واستعلم بقلق عن إمكانية إنزال قوة بريطانية كان قد وعد بها مراراً فى رابغ . وكانت تلك هى اللحظة التى كان ستورز يخشاها سراً . فقد كان السير آرشيولد مرى ، القائد العام البريطانى فى مصر ، هو من استنكر بعنف فكرة إرسال جنود بريطانيين فى اجتماع

الفصل الثامن عشر: «انقضت في وسطهم كالحسام» المهمة الأولى في الحجاز

له مع ويسلون في الإسماعيلية يوم ١٢ سبتمبر، بحجة أنه كان بحاجة إلى قواته من أجل مهمة خطيرة هي حماية قناة السويس، وكان يخشى تصاعد عمليات جانبية لا يمكنه السيطرة عليها، كما حدث في غاليبولي، تبتلع الأسلحة التي قد يحتنجونها في أماكن أخرى. وكان مري يرى أن الهاشميين قد أفسدوا «الثورة» وأرسل برقية إلى الجنرال روبرتسون رئيس الأركان الإمبراطوري في لندن يقول فيها: «لقد أفسد الشريف الأمور، كما هو متوقع. ومن المحتمل أن يتمكن الأتراك من قمع الانتفاضة رغم الأعداد الكبيرة التي حشدت نجابتهم. ولا أعتقد أنه يجوز لنا إرسال قوات إليهم.. فلن نتوقف الطلبات إن بدأنا نحن إرسال قوة مشاة، فستليها المدفعية، ثم المهندسون، ثم جميع مؤن الحملات». وكان ويلسون وباركر يضغطان لإنزال قوة بريطانية، وكان مري يبغض مثل هؤلاء الخبراء بغضاً تلقائياً تقليدياً، فكتب يقول «لا أثق في أحكام أى مسئول عن الأمور العسكرية قضى الجزء الأول من حياته العملية في هذه البلدة (مصر)، رجال مثل ويلسون وباركر اللذين يعملان الآن مع الشريف. فمثل هؤلاء مستعربون جيدون يعلمون عادات وتقاليدهم البلد، إلا أن توصياتهم العسكرية عديمة الجدوى ولا يمكن تنفيذها». وكان مري قد رفض توصياتهما رفضاً قاطعاً، ودعم روبرتسون قراره في لندن. وكانت مهمة ستورز المحرجة هي أن يبين لعبد الله أن الأمر لن يقتصر فقط على عدم إرسال القوات، بل إنه قد تم تعليق إرسال مبلغ العشرة آلاف جنيه استرليني التي كان قد صدر قرار منحها له، كما تم سحب سرب الطائرات الذي كان قد أرسل إلى رابع. وكان ستورز يعلم أن عبد الله سيعتبر هذا مرادفاً للخيانة. إلا أن ستورز سجل في مذكراته أن عبد الله تقبل هذا «كجنتلمان من الطراز الأول. فلم تكن اللحظة التي أبلغناه فيها بالنكوص عن وعدنا بإمداده بالقوات، بل وسحب الطائرات أيضاً، لحظة محببة، ولا أود أن أظهر حكومة جلاله الملكة لعربي في هذا الضوء مرة أخرى». أما الواقع، فقد كان عبد الله مندهشاً وغاضباً، وذهب من فوره، بعد اللقاء، إلى الكولونيل برموند، الذي كان قد وصل لتوه ليكون مسئولاً عن البعثة العسكرية الفرنسية. وألح عبد الله له أن الهاشميين قد يضطرون إلى السعي للصلح مع الأتراك نظراً لرفض البريطانيين مساعدتهم. وشعر برموند أنه إذا انسحب العرب من الصراع، فقد يطالب البريطانيون بأراضي الشرق الأدنى لهم

وحدهم في حالة تحقيق النصر . فلم يكن باستطاعة الفرنسيين سحب أعداد كبيرة من الجنود من الجبهة الغربية للقتال ، أما الفرقة الفرنسية الصغيرة في جدة ، فقد انحصرت أهميتها في أنها هي التي ستضمن لهم مكاناً في مؤتمر الصلح فيما بعد . فإن تحتم انسحاب تلك البعثة العسكرية فستتحطم آمال الفرنسيين حول سوريا . وأسرع برمود فيما بعد ، وهو يحمل الأخبار ، إلى ويلسون . وبعد تبادل محمول للبرقيات ، وافق البريطانيون على إعادة النظر في المشكلة .

إلا أن هذا كله حدث فيما بعد . فقد جلس عبد الله خلال الاجتماع إلى النهاية صابراً . أما لورانس ، والذي لم يتكلم سوى قليل ، فقد بدأ بغضه له على الفور . وكما اعترف فيما بعد فقد كان الشريف «على قدر فائق من المهارة . كما كان يعلم أن عبد الله هو ساعد والده الأيمن ، وأن له شعبية كبيرة بين العرب . وكان مُحركاً أولاً للثورة منذ البداية وفي الواقع ، فإن بالإمكان القول إن الثورة العربية كانت من خلق عبد الله . وكان ، وهو المرح المتفتح ، والمثقف المتحضر ، لا يتوافق مع مفهوم لورانس عن «المتوحش النبيل» . ولم يكن ثمة تشابه بينه وبين داهوم «البريء» . فقد كان قوى الشخصية ، شديد الذكاء ، متمرساً في شئون الدنيا ، مجرباً ، خاض المعارك الدموية ، كما كان لاعب شطرنج من الطراز الأول . أى أن لورانس لم يكن يستطيع منابله والتلاعب به . وأدرك لورانس أنه إن أراد البريطانيون التأثير في الموقف لصالحهم ، فعليهم أن يجدوا رئيساً سورياً ، ويرسخوا أقدامه أو أن يجدوا قائداً يمكنهم تشكيله وفقاً لخططهم . فقد كان يرقب الأمور في الحجاز عن كذب من شهر يونيو ، ويعلم أن الموقف حرج . وقال إن «الثورة كانت متوقفة ، الأمر الذي كان يندب بكارثة في حالة الحرب اللانظامية» . وكان ، بينه وبين نفسه ، ضد فكرة إرسال قوات بريطانية ، إلا أن أسبابه كانت تختلف عن أسباب مري . فأولاً ، وكدعائى كبير ، فقد كان يعلم أن حرب العصابات تجري على أساس أيديولوجى ، وأن وجود قوات من «الكفرة» على أرض الحجاز سيتسبب في أن يبدو حسين كمرتد ، على استعداد لتسليم المدن المقدسة إلى الكفرة . وثانياً ، وكان هذا أكثر أهمية بالنسبة له ، فلو حارب البريطانيون معركة العرب نيابة عنهم ، فلن يستطيع العرب المطالبة بدولة مستقلة بعد انتهاء الحرب . فلا بد أن يشاهدوا وهم يقومون بثورتهم . فقد كان لورانس يؤمن إيماناً شديداً بقضية العرب ، إلا أنه رغم رغبته في أن يراهم متحررين

الفصل الثانى عشر، «انقضت فى وسطهم كالحسام» المهمة الأولى فى الحجاز

من الأتراك العثمانيين، فمن غير المحتمل أنه قد اعتقد أبداً أنه يجب أن يكونوا مستقلين تماماً. ولم يكن، منذ البداية، يتصور دولة عربية واحدة، بل تكتلات صغيرة تمثل دولاً ضئيلة الشأن ذات استقلال صورى، تملأ بشكل طبيعى الفراغ الذى سيتسبب فيه سقوط الإمبراطورية العثمانية فى الشرق الأدنى. فلا بد أولاً أن يتحقق النصر فى الحرب ثم تلتقى مصالح البريطانيين والعرب عند هذه النقطة وتتفرع من هناك، حيث إن الاثنين يريدان الانتصار على الأتراك. وبذلك، يتمكن لورانس من خدمة أهداف البريطانيين، وأيضاً من تحقيق استقلال العرب وهو يشعر أنه ليس ثمة تعارض بين هذه المصالح لبعض الوقت. وإن نشأ مثل هذا التعارض، فهو، دون شك، يعرف أولويات ولأته. فقد قال لكليتون فيما بعد «أنا مع بريطانيا، وأيضاً مع العرب. وتحتل فرنسا المركز الثالث لدى. إلا أننى أعلم أنه قد يكون علينا أن نبيع أصدقاءنا الصغار كى نخدم أصدقاءنا الكبار، أو أن نبيع أمننا المستقبلى فى الشرق الأدنى، كى ندفع ثمن انتصارنا الحالى فى الفلاندرز». ورغم أنه قد يكون قد أدرك بينه وبين نفسه أن مشكلة الهاشميين كانت مشكلة سوء قيادة، إلا أنه قرر سراً أنه سيمدهم بالإرشاد الذى يحتاجونه، فقد كان ضابط مخابرات ملتزماً. ولم ير نفسه أبداً وهو «يقود فى المقدمة» وكان يؤمن بقوة أن مكانه خلف المكتب. وكان قد ألجز تصميمات ممتازة خلال الأشهر الماضية وقام بطبع عدد من طوابع بريد الحجاز كان هدفها أن ترسى، فى أعين العالم، حقيقة أن الحجاز كانت مستقلة بالفعل.

وكانت مهمة لورانس فى الحجاز قد أتته بشكل غير مباشر. فقد كان الجنرال مرى قد أدخل تغييرات فى نظامه الخبرائى، حُرم بمقتضاه كليتون من سلطته المطلقة وأوكل إليه شئون المكتب العربى فقط الذى كان يرأسه حينذاك الماجور كينهان كورنواليس. وتضمن هذا التغيير إعادة توحيد قسم المخابرات فى القاهرة، الذى كان لورانس أحد أعضائه، ومثيله فى الإسماعيلية الذى كان يرأسه الماجور جى. فى. دبليو. هولديتش. وكان على المكتب العربى وقسم الاستخبارات أن يظلا هيتين متمايزتين عن بعضهما تماماً. ولم يرغب لورانس فى الانفصال عن كليتون، ومن ثم حاول «جس نبض» إمكانية نقله إلى المكتب. وحينما حال

هولديتش دون إتمام النقل، التجأ لورانس إلى تكتيكات حرب العصابات. فكان يتسبب في إزعاج كبار المسئولين بأن يصحح أخطاءهم اللغوية الواردة في التقارير، ويسخر من ضالة معلوماتهم عن جغرافية وعادات الشرق الأدنى. وحدث أن هاتفه أحد المسئولين في الإدارة ذات صباح وسأله عن موقع إحدى فرق الجيش التركي آنذاك، أمده لورانس بوصف دقيق وكفاء عن مكونات الفرق ومواقعها لدرجة أنه حدد أسماء القرى التي كانت تتمركز فيها. وسأله الضابط المسئول «هل ذكرت هذه المعلومات في الملفات الخاصة» فأجابه لورانس «لا، من الأفضل أن أحفظ بها في رأسي حتى أستوثق منها» فرد الضابط «لكنك لا تستطيع إرسال رأسك إلى الإسماعيلية في كل مرة» فقال لورانس «أود لو أمكنني هذا» وأنهى المكالمات.

وكانت مثل هذه الحيل نوعاً من العصيان، ولم تكن تحب فيه رؤساءه. وأخيراً ذهب بشكواه إلى كليتون الذي وعده أن يطلب من المسئولين في لندن نقله كي يتخطى هولديتش. وفي تلك الأثناء، تمكن كليتون من إزاحة لورانس من طريقهم بأن طلب أن «يستعيروه» من القيادة العليا. وكانت مشكلة كليتون الكبرى في الحجاز هي أنه، مع عدم وجود ضباط مخبرات في الخطوط الأمامية، لم تكن لديه سوى فكرة ضئيلة عما كان يحدث بالفعل أو عن عدد الفرق الحربية المتورطة. وكان ضابط مخبرات الحجاز، باركر، محدداً بمدينة رابع. وأثناء لقائه هو وويلسون مع فيصل، شعر أن الشريف كان يميل إلى المبالغة، بأن يدعى، مثلاً، بأن الأتراك قد حشدوا قوات تقدر بخمسة وعشرين ألف جندي نجابته. ومن الواضح أن هذا كان هراء. وفكر كليتون في أمر المبالغات الأخرى التي قد يكون قد تم تقريرها على أنها حقائق. وبالإضافة إلى هذا فلم يكن يثق في أحكام وويلسون أيضاً، وكان يشك في أنه يقوم بالتلاعب في التقارير المخبرانية لتتفق مع تقديراته هو، وكان يشك أيضاً في أن ويلسون كان أحياناً يؤلف التقارير بشكل كلي. فلم يكن يعلم مدى التهديدات الواقعية من المدينة المنورة. وكان باركر يضغط على كليتون منذ فترة ليرسل ضابطاً إلى داخل الأراضي كي يحصل على معلومات كان هو في أشد الحاجة إليها، وكان من الواضح أنه كان يأمل أن يذهب بنفسه. إلا أن كليتون كتب إلى وينجت في ٩ أكتوبر أنه سيتم إرسال ستورز مرة أخرى لمقابلة عبد الله، وحسين إن أمكن. وأضاف «واقترح إرسال لورانس معه إن سمحت له

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى الحجاز

القيادة العامة بالذهاب . فلا شك أنهما سيفيداننا ، وسيحضران ، فيما بينهما ، تقديرأ جيداً للموقف » . وكانا قد غادرا السويس على السفينة «لمعة» يوم ١٤ أكتوبر . وفيما بعد ، سيزعم لورانس أنه قد ذهب إلى الحجاز بدافع من نفسه كى يعثر «على الروح الخركة» للثورة . وكتب أنه قد طلب إجازة مدتها أسبوعان . ومن ناحية أخرى ، ادعى ستورز أنه هو الذى طلب لورانس للمهمة ، لأنه ببساطة كان يستمتع بصحبته ، ومن ثم ، فإنه هو الذى خلق «لورانس العرب» بالإضافة إلى الثورة العربية . وكانت الإجازة حقيقية ، أى أنها كانت تقنية قصد بها الالتفاف حول أية معارضة قد يبديها هولديتش إلا أن ادعاء ستورز أنه هو الذى تقدم بالطلب نيابة عنه ، وأيضاً ادعاء لورانس أنه قد ذهب بدافع من نفسه ، فزائفان . فقد كان المكتب العربى هو الذى أرسله إلى الحجاز فى مهمة حيوية ومحددة .

وكان لورانس يعلم أنه لكى يأتى بتقرير صحيح ، فقد كان عليه زيارة فيصل فى درب سلطانى ، ولم ترق له الفكرة إذ كان يعلم أن الحجاز تعج بالخبرين الأتراك والمتعاطفين معهم ، وإنه إن قبض عليه ، فستطلق عليه النيران كجاسوس . وإضافة إلى هذا ، فلم يكن قد سُمح أبداً لأى ضابط مسيحي ، بمن فيهم ويلسون وباركر ، بزيارة الخطوط الأمامية . إلا أنه استعمل كل قوة تأثيره مع عبد الله ، وتظاهر بمساندته لوجهة نظر الشريف بضرورة إنزال قوات بريطانية ، وأوحى بشكل غير مباشر أن القرار بعدم إرسالها لم يكن نهائياً . وتجادل قائلاً إنه إذا سمح له بالحديث مع فيصل ورؤية الموقف بنفسه فقد يتمكن من مساندة قضية عبد الله بشكل أكثر إقناعاً ، وكان عبد الله يشك فى أمره . ومن ثم ، هاتف حسين فى مكة ليسأله رأيه ، وتلقى الشريف الاقتراح بعدم ثقة . وكانت هذه هى أكثر اللحظات حسماً فى حياة لورانس كلها : ولو أن عبد الله أنهى المكاملة فوراً لانتهد القصه عند هذا الحد . ولعاد لورانس إلى مكتبه بالقاهرة غير آسف ، ولم يكن للكولونيل لورانس أو «لورانس العرب» أن يولد أبداً ، إلا أن عبد الله ، لسبب ما ، لم ينه المكاملة . وجادل والده فى هذا الأمر ، ثم أعطى السماعه لستورز الذى دعم الفكرة بكل ما يملكه من وسائل إقناع . ووافق الشريف بتراخ ، وضد جميع مبادئه ، أن يذهب لورانس إلى وادى صفراء ليزور فيصل . ولم يكن ثمة مجال للتراجع : فقد حُسم الأمر ، ووجدت الأسطورة التى كانت فى سبيلها إلى التكوين ، طريقها .

فى عام ٦٢٤م اشتبك جيش محمد (ﷺ) مع قوة للأعداء فى بدر حيث يلتقى وادى صفراء مع السهل الساحلى. وكان عدد المسلمين حينذاك قليلاً، ولو أنهم خسروا المعركة فى بدر لكان ذلك أمراً جليلاً فى تاريخ مسيرة الإسلام. وبعد ألف عام من الواقعة، وجد أحفاد الرسول أنفسهم فى موقف مماثل. ففى عام ١٩١٦ كان الشريف فيصل وقواته من البدو ينسحبون ببطء فى وادى صفراء تطاردهم قوة تركية. ولو أن الأتراك قاموا بهجوم شامل مضاد فى تلك اللحظة، لكان من المحتمل أن يخرقوا السهل الساحلى ويستولوا على رابغ ثم مكة، ولانتهت بذلك الثورة العربية.

وكانت بدر فى زمن الرسول محطة هامة للتزود بالمياه فى الطريق إلى مكة. إلا أنها قد تحولت اليوم إلى مجرد موقف للشاحنات فى طريق السيارات ليس به مكان للإقامة. وصلت إلى هناك قادماً من جدة فى حافلة فى وقت متأخر من ليلة قائظة رطبة، ووقفت إلى جانب الطريق لمدة ساعة وأنا أحاول يائساً أن أشير إلى أى سيارة عابرة لتتوقف. وفى النهاية، ابتعت زجاجتى مياه، وسرت على الأسفلت لمسافة ميل حتى عثرت على بقعة رملية جافة حيث قمت بافتراش كيس النوم بعد أن تجنبت حية وعقرباً. إلا أن القىظ لم يمكننى من النوم، فرقدت أرقب النجوم حتى الصباح. ولدى انبلاج الضوء، وجدت أننى فى واد به رقع من أشجار الشوك والطرفاء، وكانت ترتفع فيه قواعد تلأل جرانيتية شديدة الانحدار تلمع واجهاتها المنحوتة بزوايا حادة متوهجة فى ضوء الشمس المبكر وكأنها جواهر مقطوعة. وكانت المنحدرات المنخفضة مغطاة بأعشاب رعى الماعز ذات اللون الأصفر الخردلى، والذى بدا عن بعد وكأنه بقع من آثار مرض جلدى تشوه الصخور. وأوضحت لى هذه الأعشاب المائلة للصفرة لغز اسم وادى الصفراء. ثم سرت عائداً إلى موقف الشاحنات. وبعد نصف ساعة من الانتظار وافق بدوى شاب من بنى حرب على أن يوصلنى إلى حمراء والمدينة بعربته نصف النقل نظير مائة ريال. وانفتح درب سلطانى، وهو الطريق الذى يزحف بامتداد وادى صفراء، أمامى كممر متعرج يتجه بشبث إلى أعلى إلى أن يصل «بانوراما» متسعة شاهداها أمامنا، مشهد فضى ورمادى، كأموج متعاقبة من السحب تمتد فى المدى البعيد حتى بدت وكأنها تندمج مع السماء نفسها، ومررنا بقرية تلو الأخرى

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى الحجاز

منازلها من الطين المعالج بالحرارة، وهى الآن تقف دون أسقف على جانبى الوادى الصخرى وسط غابات من أشجار نخيل البلح: قرية الجديدة والحسينية والواسطة والخرمة. وكانت هذه القرى فى أيام لورانس فى قلب منطقة بنى سالم، وكانت تنتج تقريباً كل ما تحتاجه القبيلة من غلال وتمور. وكان البدو يقيمون فى القرى لمدة خمسة أشهر فى العام ويقضون بقية الأيام متجولين مع قطعان ماشيتهم ويتركون القرى فى رعاية عبيدهم الذين كانوا فى غالبيتهم من أصل إفريقى ولم تكن لهم مكانة قانونية وكان عددهم، وقت زيارة لورانس، ما يقرب من العشرة آلاف فرد.

وسألنى السائق البدوى عن مهمتى، وحينما ذكرت «لورانس العرب» تساءل «من؟» وأجبت «رجل إنجليزى ساعد فى قيادة الجيوش العربية أثناء الثورة العربية العظمى». فتساءل ثانية «ماذا؟» وأجبت «لدى وجود الهاشميين هنا» فرد قائلاً «آه، الهاشميون. لقد كان هذا منذ زمن طويل، إن هذا البلد الآن هو بلد السعوديين».

وتساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كان هذا الرجل يتظاهر بالبلاهة أم أن الذاكرة القبلية قد أصبحت بالفعل قصيرة المدى. فقد كان بنو سالم، الذين كان ينتمى إليهم، إحدى العشائر الرئيسية فى قبيلة بنى حرب وهى قبيلة لها مكانتها فى الحجاز. وقد حارب أجداد هذا الشاب، وإخوان أجداده بالفعل مع فيصل، على حين ساندت جماعة أخرى من بنى حرب الأتراك. وكانت هذه الجماعة منافسة لعشيرته بقيادة «الخائن» الشيخ ابن مبيرق. وتذكرت فيما بعد أن بنى سالم كانوا هم من هربوا من خدمة الأتراك فى اللحظة المناسبة. وربما رأت القبيلة أنه من الأفضل تناسى هذه الذكريات.

وأدهشتنى حمراء. فلقد كنت قد تخيلتها قرية ضئيلة تقع فى شق على جانب الوادى. إلا أن مساحة المكان كانت هائلة، حيث كانت هناك آلاف من أشجار النخيل التى كانت رعوسها تتحرك مع اتجاه الرياح مثل أعشاب البحر. وكان اتساع الوادى حوالى نصف ميل ويقع بين جدارين صخريين شديدي الانحدار. وكانت المنازل المهدامة تقع على حافة صخرية أسفل الرعن (أنف الجبل) الشمالى

وعلى تلال ترابية ترتفع من بطن الوادى بانحدار شديد . وكان لورانس قد ذكر أن عدد تلك المنازل هو مائة وخمسون ، إلا أنه من الواضح أنه يوجد منها مئات كثيرة ، كما كان هناك بقايا حصن تركى ، جدعة طينية لا شكل لها تقع على جزيرة فى بحر النخيل . ولأجيال عديدة ، كانت هذه القرية محطة على طريق الحجاج من ينبع البحر إلى المدينة . وحينما توقف ريتشارد بيرتون هناك وهو مُتخف كطبيب فارسي عام ١٨٥٢ ، كان يحرس الحصن فرقة من الجنود الألمان . وتسلفت الصخرة ، وسرت متعشراً فى منطقة مكتظة بالحوايط الطينية المتكسرة المائلة والنتى تأكلت بفعل الأمطار واتخذت أشكالاً سوريلية . وحاولت تصور ما كانت عليه هذه القرية فى أكتوبر عام ١٩١٦ حينما كان الوادى يعج بقوات فيصل المهزومة ، وثلاثة من راكبي الإبل ، أحدهم شخص إنجليزى كان قد ظهر فجأة على أطراف القرية .

فقد غادر لورانس ورفيقاه رابع فى ٢١ أكتوبر تحت ستار الظلام . وكان الناظر عن بعد قد يظنهم بدواً حيث كان لورانس يرتدى غطاء رأس عربى ويخفى زيه العسكرى بعباءة . . إلا أنه كان من الممكن التعرف عليه عن قرب كشخص إنجليزى . فلم يكن فقط حليقاً ذا وجه تشوبه الحمرة ، لكنه كان أيضاً لا يعلم شيئاً عن ركوب الإبل . وكان قد فضل السير على قدميه حينما وجد أن عليه أن يسافر ممتطياً جملاً فى النقب قبل ذلك بعامين . وكان الشريف على قد أمدته على مضض بأفضل نوقه ومرافقين من بنى سالم وهما الشيخ عبيد وابنه عبد الله لاصطحابه إلى معسكر فيصل . ورغم أنه كان من المفترض أن يتخفى لورانس كشخص سورى إلا أن عبيد أمره ألا يتحدث إلى أحد . فقد كانت الصحراء والتلال مليئة بالجواسيس الأتراك ، وكان ابن مبيرق «الخائن» ، الذى كانوا قد مروا من منطقة عشيرته ، سيسعده قتل لورانس أو بيعه للأتراك . وعبر المسافرون مناطق نخيل رابع ، ثم ساروا فى سهل تهامة الساحلى الممتد بلا نهاية . ولم يكن ثمة قمر ، وكان الليل يتشاب لا متناهيأ أمامهم ولا يقطع صمته سوى إيقاع أظلاف الإبل على سطح الرمال . وحينما احتوتهم الظلمة ، شعر لورانس فجأة بالترقب . فقد ولج بعداً معادياً مجهولاً لم يلجحه سوى أوربيين قلائل ولم يغادره أحياء سوى عدد أقل . ولم يكن متأكدًا أنه يثق فى رفيقيه . وكان ، بالطبع ، يعلم أن دور الرفيق كان

الفصل الثانی عشر: «انقضت فی وسطهم كالحسام» المهمة الأولى فی الحجاز

دوراً وقوراً بالنسبة للبدو. فقد كان على كل مسافر يريد عبور تخوم قبيلة ما أن يكون معه رفيق من القبيلة المحلية أو القبائل المتحالفة معها كي يسهل له المرور. لو هجم الرفيق على من قبل تولى مسئوليته لاعتبر هذا إهانة شائنة لميثاق الشرف البدوى. وكان إذا ثبت أن بدوياً قد ارتكب جريمة «البوق» تم نبذه مدى الحياة ولا يقبل للزواج من نساء جماعته. وفي مجتمع قبلي، كان وجود الفرد دون قبيلة يعنى حكماً بالموت، لأن أى قاطع طريق يمكنه أن يقتله دون خشية بدء نزاع تأري. وقد كان هذا هو العرف الاجتماعي الوحيد في الجزيرة العربية الذي حال دون سفك الدماء على نطاق واسع، إلا أن لورانس ذكر نفسه أن القواعد التي اتبعها البدو، مثلها مثل ميثاق شرف «الجنّلمان» في إنجلترا، كانت مثلاً فقط. فمثلاً، كان قد تم اغتيال الرحالة الألماني تشارلز هوبر الذي سلك نفس الطريق على يد رفاق من جماعة حرب حينما اكتشفوا أنه لم يكن مسلماً.

وناموا لساعات طويلة هذه الليلة وهم يلتحفون عباءاتهم. واستيقظوا في برودة الفجر ووصلوا إلى بئر مستورة مع إشراق ضوء الصباح الباكر. وكان بعض من أفراد جماعة حرب المعادية يربضون تحت ظلال من سعف النخيل. وتبعت أنظارهم جماعة لورانس بريية وهم يمرون. ثم نزل لورانس ورفيقاه عن مطياتهم وجلس هو في الظل. واصطحب عبید وولده النوق لسقيها من بئر حجرية عمقها عشرون قدماً كانت قد أقيمت مواطئ للأقدام على جانبيها في عمقها. وجمع عبد الله أطراف دشداشته في حزام الطلقات، ثم علق قربة الماء المصنوعة من جلد الماعز على كتفيه ونزل البئر وهو يستشعر مواطئ الأقدام على جانبي البئر بمهارة. ثم ملأ القربة وتسلق صاعداً بثقة السحالي وصب المياه في حوض صخري. وحينما ارتوت الحيوانات، حمل عبید طاسة مليئة بالماء إلى لورانس. وبعد ذلك شرب الرفيقان وجلسا مع لورانس في الظل يراقبون رجال القبيلة المنافسة وهم يروون قافلة من النوق الهزيلة ثم لف عبد الله سيجارة لنفسه.

وفي تلك اللحظة دهمت لورانس رؤية معينة. فبينما كانوا يرقبون ما يحدث، كما كتب لاحقاً، أتى شابان على جملين أصيلين عليهما أسراج فاخرة، وأناخهما بجوار البئر. وألقى أحدهما، الذي كان يرتدى عباءة من الكشمير الفاخر، بالقيود

إلى الآخر وأمره أن يسقيهما. وسار النبيل الشاب بكبرياء إلى حيث كان يجلس لورانس ورفيقاه وارتقى على عَجُزِه بجانبهم. كان الرجل نحيلًا، أقرب إلى أن يكون صبيًا، يظهر عليه ميل للمشاكسة وله ملامح الحب للاستطلاع، وشعر طويل مجذول بالأسلوب البدوي. وكان يبدو قويًا وعلى قدر هائل من الثقة بالنفس. ثم قدم للورانس سيجارة كان قد لفها ولصقها لتوه، واستعلم عما إن كان سورياً. وترك لورانس السؤال معلقاً في الهواء وسأل الشاب إن كان من مكة. وفي تلك الأثناء، كان رفيقه يجد صعوبة في سقيا الإبل. وكانت قطعان جماعة حرب المعادية تندفع بشراهة حول الخوض الجبرى، ولم يعط رعاة إبلهم الفرصة للشباب ليسقى جملته كما كان يقتضى ميثاق شرف المسافرين. وهنا صاح السيد متسائلاً «ما الخطب يا مصطفى؟ اروهما فوراً». فاقترب مصطفى منه وهو محرج وأخذ يشرح له كيف أن الرعاة الآخرين لم يسمحوا له بالسقيا. وعندئذ قفز الآخر واقفاً وتلفظ بقسم وقام بضربه ثلاث أو أربع ضربات بعصا على كتفيه. وبدا مصطفى متأسياً. إلا أنه ظل صامتاً. ورأى رجال جماعة حرب المعادية حول البئر أن عدم لياقتهم قد تسببت في إذلال الصبي، لذا أسرعوا بإفساح مكان له عند البئر وأطعموا جملته بعض العشب. وبعد أن أكل الجمالان وارتويا، تسلق «السيد» الصغير على جملته من غير أن ينخيه، بل إنه جذب رأسه إلى أسفل بلطف ثم صعد على رقبته وقال لرجال حرب «جزاكم الله خيراً» وسار هو ورفيقه باتجاه الجنوب.

وبمجرد أن ذهباً بدا عبيد يضحك ضحكاً خافتاً. وبعد أن امتطى لورانس ورفيقاه جمالهم وساروا باتجاه الشمال بين له عبيد أن «السيد» هو الشريف على ابن حسين الحارثي، وأن مصطفى هو ابن عمه الشريف محسن. وكان الشريف على نائب فيصل الموثوق به، ورغم حداثة سنه، فقد اكتسب صيتاً غير عادى لشجاعته. وكان أحد حراس فيصل الشخصيين المختارين في رحلته إلى دمشق، وحارب إلى جانبه، أوائل شهر يونيو في السهول الدموية خارج المدينة. ثم قام فيما بعد، بشن الغزوات ضد التقدم التركي عند بير درويش. وكان بين أفراد جماعة الحارث وجماعة حرب المنافسة عداوات ثأرية. ولو أن الرعاة قد شكوا في أمر هويتهما الحقيقيتين عند البئر لقاموا بطردهما. وقال عبيد إنهما اخترعا

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالحسام» المهمة الأولى فى الحجاز

تمثيلية السيد والتابع لخداع الآخرين . وأثر الشريف على فى لورانس تأثير السحر . واستمرت صورة المحارب الصبى «النيل» التى لحها عند مستورة فى رحلته الأولى فى الصحراء تأسره طوال الوقت الذى قضاه فى بلاد العرب .

ومثل الأحداث الأخرى المشكوك فى أمرها فى رواية لورانس ، لا تظهر قصة اللقاء مع الشريف على فى التقارير الرسمية رغم أن لورانس كان يقوم بتسجيل تفاصيل أقل أهمية بكثير . وتأتى هذه الرؤية فى «أعمدة الحكمة» لتعد المشهد لعالم من الخداع والصراع والقسوة وجد لورانس نفسه فيه آنذاك : عالم شباب حسنى المظهر يلتجئون باستمرار إلى استعمال العصا ؛ عالم قبائل ، بينها عداوات ثأرية ودموية ، قبائل لا يمكن توحيدها إلا بتأثير هائل . إلا أنه من غير المحتمل أن يكون عبيد قد تعرف على هوية الشريفين من بنى حارث ولم يعرفهما أعداؤهما حول البئر . فقد كان البدو على قدر كبير من قوة الملاحظة ، لا تفوتهم أية تفاصيل ، رجال باستطاعتهم تذكر أثر كل جمل رأوه ، والتعرف على العائلات والعشائر من مجرد الفروق فى الطرق التى يشبتون بها غطاءات رؤوسهم . فلا يحتمل إذا أن يكون قد خدعهم عرض هاويين . وكان لابد أن يتبينوا أنهما ليسا مجرد سيد وخادم من مظهر مصطفى ومشيته وثيابه وسرج ناقته وعديد من التفاصيل الصغيرة الأخرى . ثانياً ، فإن للقصة هذه صدى شائعاً معتاداً فى عديد من قصص «أعمدة الحكمة» الأخرى . فالألاعيب الصبانية للشريفين الشابين هى مقدمة «لشقاوة» خادمى لورانس «فرج وداعود» كما أنه يمكننا تبين العنصر المازوكى - «الخنوع» و«الإذلال» وضرب أحد الصبيين - بوضوح . ويلعب الجلد والإذلال العلنيين دوراً كبيراً فى قصة «فرج وداعود» . ونخرج من قصة على الحارثى فى «أعمدة الحكمة» بصورة للشريف كعربى الصحراء الأنيق الجذاب ؛ أى البدوى الأرستقراطى المقابل لداهوم الذى عشقه لورانس قبل الحرب . إلا أنه يبدو من المحتمل على الأقل ، أن هذه الرؤية للجمال الذكورى التى ادعى لورانس أنه خبرها عند مستورة ، لم تكن أكثر من رؤية داخلية ؛ إذ إن الظهور الأول للشريف على فى مفكرة لورانس الميدانية كان يوم ٨ مارس عام ١٩١٧ ، أى بعد تلك الواقعة بخمسة أشهر . ويصف لورانس الشريف فى هذا المدخل من المفكرة الذى كتبه بخط يده ، كما لو أنه قد رآه للمرة الأولى .

وبمغادرتهم مستورة، خرجت المجموعة من نطاق فرع قبيلة حرب الأعداء إلى تخوم بنى سالم حيث كان رفيقا لورانس ينتميان. وأشار عبيد إلى الصخرة التي كانت تمثل الحدود، مبيناً للورانس بداية تخوم قبيلته. أما ما سبب دهشة لورانس، فهو أنه رغم أن الأوروبيين كانوا ينظرون إلى الصحراء على أنها برية قاحلة، إلا أنها كانت موطناً للبدو حيث كان لكل شجرة أو صخرة، أو تل، أو عين ماء ملك. ورغم أن عادات البدو كانت تسمح للمسافرين أن يقطعوا الحطب أو يسحبوا مياهها للارتواء، فقد كان الويل كل الويل من نصيب أى فرد غريب يحاول استغلال ذلك. وبدأ لورانس يشعر بإجهاد الرحلة عند الظهيرة. فأله ظهره وسيفانه من نخعات الجمل. وتفرح جلده من حرارة الشمس. وآلتته عيناه من التحديق في حجارة الصوان المتأججة طوال الصباح. فقد كان قد قضى عامين في مدينة القاهرة متنقلاً بين الفندق والمكتب. وتحقق أنه قد ألقى به في الصحراء فجأة دون أدنى إعداد. وعند مغيب الشمس، وصلوا إلى قرية مكونة من منازل مقامة من الأعشاب تدعى بير الشيخ، وتنتمي لقبيلة بنى سالم. وأناخ البدو الإبل إلى جانب أحد الأكواخ واستقبلتهم امرأة قادتهم إلى مكان يجلسون فيه وأوقدت نارا خارج المكان. ثم ذهب عبيد واستعار بعض الدقيق وخلطه بالماء في وعاء ثم عجنه في شكل بيضاوى مسطح وقام بدفنه بحذر في الرمال أسفل جذوات النار. وبعد عشرين دقيقة أزاح الرمال، وأخرج الرغيف الساخن الخبوز ومسحه بيده ليزيل آثار الرمال وقسمه بين ثلاثتهم. ولم يكن صحيحاً ما ادعاه لورانس فيما بعد أن البدو يعتقدون أنه من غير الرجولة أن يأخذ المرء إمدادات لرحلته قدرها أقل من مائة ميل. فالحقيقة أن البدوى لا يهتم بأن يأخذ معه طعاماً وهو مسافر في تخوم قبيلته لأنه يثق تماماً أنه سيحصل على إمدادات من أفراد القبيلة أثناء رحلته. وكانت «اللبة»، أو الخبز غير المختمر، هو طعام البدو المعتاد وسيصبح فيما بعد مألوفاً للورانس. أما حينذاك، فقد أكل قليلاً وحافظ قدر إمكانه على حسن اللياقة في تصرفه. وفيما بعد، دعاه عبيد لينظر إلى بعض الآبار القريبة، إلا أنه اعتذر نظراً لأن عضلاته كانت متعبسة من ركوب الجمل.

وكان مازال عليهم أن يقطعوا مسافة أخرى تلك الليلة. وفي الفجر، وصلوا إلى بير ابن حسانى، وهى قرية أحمد المنصور من كبار شيوخ بنى حرب. وبينما

الفصل الثانی عشر: «انقضت فی وسطهم كالبحار» المهمة الأولى فی الحجاز

كانوا فی طریقهم أتى إليهم راكب جمل كان خارجاً من القرية وسار بمحاذاتهم، وأخذ يوجه إليهم سلسلة من الأسئلة أجابه عليها عبيد وابنه باقتضاب وعلى غير رغبة منهم. وأصر الإعرابي، وكان يدعى خلف، على تناولهم الطعام معه، وأجبرهم على إناخة إليهم. وأتى بوعاء حديدى من خرجه ملىء بالخبز المغطى بالزبد والسكر، وقدمه لهم. وبعد أن انتهوا من طعامهم أخبر الإعرابي لورانس أن فيصل قد أجبر على التراجع، فى اليوم السابق، من بير عباس إلى حمراء على مسافة غير بعيدة منهم، وأخذ يذكر أسماء المصابين من القبائل. وحاول أن يجذب لورانس للتحدث معه بأن سأله عما إن كان يعرف أياً من الأشخاص الإنجليز فى مصر. وأجابه لورانس بلهجة حليية، وأخذ خلف يسأله عن سورين كان يعرفهم. ثم تحول إلى الحديث فى السياسة وسأله عن رأيه فى خطط فيصل. وهنا، تدخل عبيد بشكل فجائى وغير الموضوع. وسرعان ما تركهم الرجل. واكتشفوا فيما بعد أنه كان جاسوساً يعمل لحساب الأتراك.

ووصلوا عند الظهيرة إلى الواسطة، وهى قرية ضخمة من قرى بنى سالم تتكون من ألف بيت طينى قائمة على أكوام ترابية وحواف صخرية طويلة عبر بطن الوادى وفوق أيكات النخيل السميكة. وعلم لورانس أن كثيراً من هذه البيوت كانت خاوية إذ كان فيضان ذلك العام يشبه موجة من مد البحر حيث تخللت المياه السدود ودمرت كثيراً من أشجار النخيل وجرفت طبقات التربة العليا التى كانت يُحتفظ بها بكثير من الحرص. ولإكمال المأساة، هاجمت الجماعة أسراب الجراد التى قلصت محصول، مما دفع كثيراً من السكان إلى مغادرة المكان. واستراح لورانس ورفاقه فى الواسطة حتى وقت مبكر من عصر ذلك اليوم ثم أكملوا مسيرتهم عبر الوادى. إلا أنهم سرعان ما مروا بجمهرة من قوات البدو كانوا يجلسون حول نيران الطهو، أو تحت الأشجار يدخلون السجائر. وكانت ثمة قوافل محملة بالإمدادات تتحرك. وكان هؤلاء رجال فيصل وكان الكثير منهم من بنى سالم الذين أخذوا يتبادلون التحية مع مجموعة عبيد ولورانس. وبعد فترة وجيزة شاهدوا قرية «حمراء» أمامهم. ثم عبروا مجرى مائياً واقتيدوا إلى ممر مسور وأناخوا جمالهم أمام أحد المنازل. وقاد عبدٌ يحمل سيفاً معقوفاً لورانس إلى داخل غرفة مليئة بالدخان حيث كان فيصل فى اجتماع مع مساعديه

العسكريين وهم ضابط عراقي من سلاح الفرسان يدعى مولود الخلص، وشيوخ قبائل بدو عديدون بمن فيهم بنو فقير والبيلي والروالة التي كانت قبيلة مركزها سوريا. وطبقاً لما رواه لورانس فإن فيصل كان يقف بالباب بالفعل لدى اقترابه وهو «ينتظره متوتراً». بيد أن هذا مخالف للأسلوب العربي. والأمر الأكثر احتمالاً هو أنه حينما دخل لورانس وقف الشريف وصحبه طبقاً للأسلوب المعتاد حيث صافحهم لورانس كل في دوره. فقد كان هذا هو أسلوب تحية الرجال من الملوك أو من الأفراد من رجال القبائل العاديين دون تمييز بينهم. ونال مظهر الشريف «النبيل» إعجاب لورانس وذكره بتمثال ريتشارد قلب الأسد، بطل صباه، الذي كان قد رآه في أحد المتاحف الفرنسية. ووجد فيصل ذا مظهر ملكي وأقوى تأثيراً من أشقائه. وكان هذا أمراً مهماً بالنسبة له: فقد كان رد فعل لورانس الأول بالنسبة للعرب ينطلق من حسه الجمالي، كما أن الدعائي داخله أدرك أنه يتحتم على الثورة العربية، كي تجتذب البريطانيين، أن يكون لها قائد يماثل مظهره فكرة الأوربيين عن «العربي النبيل». فعلى حين كان عبد الله «مستديراً ومرحاً»، كان على يبدو واهناً ومريضاً. إلا أن مظهر فيصل كان متوافقاً مع «الوصفة» تماماً وبدأ للورانس أن الشريف رغم مظهره النبيل، كان يبدو شديد الإعياء وأكبر كثيراً من أعوامه الواحد والثلاثين. وكانت عيناه حمراوين ووجنتاه غائرتين وبشرته وقد تجعدت بخطوط من الألم. وكان يدخل دون توقف. وادعى لورانس في «أعمدة الحكمة» أنه عرف في التو أن «هذا هو الرجل الذي سيأتي بالجد الكامل للثورة العربية»، إلا أنه أخبر ليدل هارت أنه، في واقع الأمر، قد اعتقد ببساطة أنه من الممكن «صنع بطل للثورة من فيصل بسهولة، أكثر من إخوانه الأكبر سناً». وطبقاً لما رواه لورانس، فقد جلسا معاً وسط البدو، ثم سأله فيصل «ما رأيك في مكاننا هذا في وادي صفراء؟» فأجابه لورانس «حسناً! إنه بعيد جداً عن دمشق».

وكتب لورانس أن «هذه الكلمة انقضت كالحسام في وسطهم. كانت ثمة ارتعادة خفيفة. ثم تيبس كل الموجودين حيث جلسوا، وحبسوا أنفاسهم لمدة دقيقة من الصمت». وكان فيصل هو من أزال التوتر. فقد رفع الشريف عينيه وابتسم باتجاه لورانس وقال: الحمد لله.. فهناك أتراك أشد قرباً منا بكثير من هذا».

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالحسام» المهمة الأولى فى الحجاز

وجلس لورانس وفیصل فى الليلة الأولى فى الغرفة التى كان یملؤها الدخان، وتجادلا لساعات وسط طقطقة النيران التى كادت تخبو، وصوت رنين مدقات السبق؛ وكانت القهوة والشاى یرران علیهما مرة تلو الأخرى، وفیصل یقوم بإطفاء السیجارة تلو الأخرى. ووجد لورانس كلام الشریف على قدر كبير من عدم المنطق، فقد كان شديد الغضب لأنه لم یصله سوى القليل فقط من الأسلحة التى طلبها من ویلسون، خاصة من المدفعية، وأصبح لورانس هدفاً لغضبه. وزعم فیصل أن مشكلة العرب الرئيسية هى عدم وجود مدفعية إذ إنه كان یمكن الاستيلاء على المدينة بمدفعین من مدافع الميدان. وكان البدو یرتعدون من صوت القذائف، وكان أى تلمیح عن وابل من القصف یدفع بهم للتقافز بحثاً عن الحماية مثل الفئران. ولم یکن هذا یرجع لجنهم كما أوضح الشریف، إذ إنه بإمكان البدو مجابهة الطلقات وضربات السیوف بشجاعة. إلا أنهم لا یحملون فكرة تفجیرهم أشلاء. وتحدث فیصل عن المدفعية باستفاضة. وأدرك لورانس أن قوة البنادق فى معركة المدينة والمذابح التى حدثت قد تركت علیه أثراً یصعب تصدیقه وأن صلابته قد تحطمت نتيجة لما شاهده فى ذلك الیوم. وأخبر لیدل هارت قائلاً «لقد استجمع (فیصل) شجاعته لدى الهجوم الأصلی على المدينة كى یبدو مقداما. وقد هزه هذا الجهد لدرجة أنه لم یندفع وراء المخاطر فى المعركة مرة أخرى أبدا. ورغم أنه استعاد ثقته بعد وصول البطارية المصرية، إلا أنه انكسر مرة أخرى حینما رأى أن مدافع الجبل كانت غیر ذات جدوى فى مجابهة مدفعية الميدان الثقيلة التركیة التى أصابت إحدى قذائفها خیمته الخاصة. وقد رأى لورانس بینه وبين نفسه أن تقدير فیصل للموقف ساذج، وأنه لم یکن باستطاعته أبداً، بمدفعية أو بدون مدفعية، أن یقترب من الاستيلاء على المدينة. وشعر أيضاً أن الشریف لم یکن یتقن استعمال مدافع الجبل المصریة التى كانت میزتها الأولى هى سهولة نقلها وتحريكها. وحاول إقناع فیصل أنه لا یجوز للجنود غیر النظامیین أن یخوضوا معارك نظامیة یتحتم فیها الجیشان، بل إن علیهم الهجوم بمجموعات صغيرة متحركة ومكتفية ذاتیا. فقد كان الأتراك محاربین دفاعیین مدریین كما أوضحت هزيمة البریطانیین فى غالیبولی التى كلفتهم خسائر مريرة. وكان لورانس یعتقد أن مجموعة واحدة من الجنود الأتراك المحصنین جیداً یمکنها هزيمة

الجيش الهاشمي بأكمله. إلا أن قوة الأتراك كانت تقوم على تركيزهم على أعداد كبيرة من الجنود؛ في حين أن قوة العرب كانت تعتمد على القدرة على الانتشار؛ فقد كان البدو دائماً يتبعون هذا الأسلوب في حروبهم القبلية وغزواتهم. إلا أن فيصل لم يوافقهم. فقد ظل البدو يقومون لمدة أسابيع بهجمات برقية على المواقع التركية في محاولة لإبطاء تقدمهم ولم تفلح «لدغات البراغيث» هذه في وقف تقدم الأتراك. فما كان يحتاجه العرب هو المدفعية. وكان الشريف قد خطط لهجوم موسع ضد محطتين من محطات سكك حديد الحجاز هي البواط والحفيرة شمال المدينة، بقوة قوامها ثلاث آلاف رجل من جهينة كانوا يتمركزون عند خايف حسين. وكان الأتراك قد تمركزوا عند بير درويش بقوة لا تقل عن خمس فصائل من المشاة، وبمجموعتين من راكبي البغال، وبطارية مدفعية محملة على الإبل، وبطاريات مدافع ميدان وثلاث طائرات، وفرقة هجانة من العقيليين، واعتقد فيصل أنه لو حدث تحويل لاهتمامهم نحو الشمال فقد يتسبب هذا في انسحابهم. إلا أن لورانس لم ترقه الخطة. فقد اعتقد أنه حتى في حالة دعم من عبد الله في الشرق حيث تحل قوة زيد محل قواته في الوادي، فإن القوة التركية ستسحب فقط بمقدار الثلث، وقد تستغل القوات الباقية الفرصة للتقدم عبر وادي صفراء إلى رابغ.

وتم إسكان لورانس مع رجال المدفعية المصرية حيث أمر قائدهم زكي بك، بنصب خيمة له. وعند انبلاج الفجر، حضر فيصل ومولود مخلص للقاءه ثانية، وأخذوا يتجادلون جديلاً متواصلًا، لمدة خمس ساعات ونصف. وكان لورانس قد نام جيداً واستراح عقب رحلته، وكان متمكناً من كامل قوته على الإقناع. وشعر في هذا اليوم أن حواراته كانت مؤثرة. واعتقد، بينه وبين نفسه، أنه رغم ذكاء فيصل الكبير، إلا أنه كان حذراً بطبعه، وكان ذا شخصية أضعف من شخصية شقيقه عبد الله الذي عرف عنه أنه كان يغار منه. وأخبر هو لورانس فيما بعد أنه حينما أشار على والده بتأجيل إعلان الثورة دعاه عبد الله جباناً. وكان يشير إلى أخيه الأكبر بلفظ «المفسد» كما أن فيصل كان عرضة للتأثر بالمشورة على عكس عبد الله. وقد أخبر لورانس ليدل هارت أن ضعف عبد الله كان ينحصر في أنه نصت إلى أي نصيحة وقتية رغم عدم اقتناعه». وكانت هذه الصورة جد مختلفة

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى العجاز

بالطبع عن الصورة التى رسمها له فى رسائله الرسمية، حيث أكد على أن رجال فيصل كانوا يعتبرونه بطلاً، وأنه خاطر بحياته فى المدينة لرفع معنويات قواته. وذكر أيضاً أنه عجل ومتسرع، سهل الاستشارة ومتكبر «ملئ بالأحلام وبالمقدرة على تحقيقها». وقال أيضاً إن حقيقة الأمر لا تقتصر على أن فيصل فقد شجاعته نتيجة لاختراق إحدى القذائف خيمته مما دفعه إلى أن يأمر قواته بالانسحاب من بير عباس، لكن السبب يرجع إلى أنه «قد سئم عجزه الواضح». وكان هذا تعليقاً له نكهة قاعات أكسفورد العامة أكثر من كونه نتاج حرارة المعركة. وكان لورانس فى الحقيقة يعتقد أن فيصل تعوزه الشجاعة ويهرب الأخطار، وقد رد هذه الرؤية الخاصة آخرون ممن عرفوا فيصل من أمثال بيرس جويس الذى كتب قائلاً إن فيصل «لم يكن ذا شخصية قوية وكان يتغير طبقاً للظروف المحيطة به». واعتقد لورانس أن ولع فيصل بحرية العرب أجبره على مجابهة مخاطر يكرهها، ونظراً لأن طبيعة لورانس المازوكية قد دفعته هو لأن يفعل نفس الشيء، فقد تمكن من التوحد العاطفى مع الشريف. إلا أنه كان يتحتم أن يبدو قائد الثورة العربية. ذا شخصية بطولية فى أعين المؤسسة البريطانية، ومن ثم قرر لورانس أن «يصنع منه ما يظهره فى صورة متقبلة حتى ولو كان هذا يعنى تصوير شخصية مزيفة له فى رسائله». ولم يكن التلاعب بالحقائق أمراً جديداً بالنسبة له من أجل تحقيق هدفه. وكان يكن للشورة العربية ما يكنه فيصل لها من العواطف. وكتب قائلاً: «لقد كنت محركاً لها منذ البداية، وكل آمالى معقودة عليها». ولم يكن هذا محض عاطفة إثارية. فمنذ كركميش، كان لورانس قد ارتبط بالعرب بشكل رومانسى. وكان يرى فيصل والثورة العربية تعبيراً عن تفرده هو، فقد كانت عواطفه هى نفس العواطف التى دفعته أن يصطحب داهوم وحمودى إلى أكسفورد، أى الروح التنافسية، أو «الوحش داخله» الذى كان يتطلب اهتمام الآخرين ويتوق أن يتعرف عليه الآخرون كشخص متميز ومختلف. فقد كان موقفه من الهاشميين امتداداً لموقفه من داهوم. وكان قد كتب قائلاً: إنه يود أن «يساعد الصبي على أن يساعد نفسه» فقد أخبر جريفز فيما بعد أن هدفه مع العرب هو أن «يساعدهم على الوقوف على أقدامهم». فقد شعر لورانس أنه يعرف ما هو الأفضل بالنسبة لداهوم، وشعر الآن أنه يعرف ما هو الأفضل للهاشميين. وكان قد انتهى إلى أن

مشكلة الثورة العربية هي عدم وجود قيادة لها؛ لذا فقد قرر أن يمدّها بهذه القيادة عن طريق شخص يعمل بديلاً عنه، أى فيصل ذى الشخصية المطوعة. أما فيصل، فقد أثرت فيه بلاغة لورانس، وشجعه اعتقاده أن المسؤولين فى القيادة العامة كانوا مهتمين بشئونه إلى درجة كبيرة. واعتقد أن لورانس كان مفوضاً بأن يمنحه وعوداً محددة. وفوق كل شىء، فقد بدأ غموض لورانس وغرابة أطواره تجتذب الشريف. وبنهاية جلسة نقاشهما الثانية افترقا، متحابين، لتناول الطعام.

وفى عصر ذلك اليوم، عمد لورانس إلى التجول فى أنحاء الوادى ليتبادل الأحاديث مع جنود فيصل. وشعر أن روحهم المعنوية كانت مرتفعة بالنسبة لقوات مهزومة. وكان البدو، الذين عسكروا بين أيكات النخيل، ينتمون فى غالبيتهم إلى قبيلة جهينة الكبيرة التى كان مقرها وادى ينبع فى الشمال، وكان بين القوات أيضاً عدد كبير من جماعة حرب، أعداء جهينة الألداء. ووجد لورانس أن فيصل قد أجز مهمة جيدة للتوفيق بين الأعداء التقليديين وجعلهم يحاربون فى نفس الصفوف بمهارة فائقة. إلا أنه كان واهماً: فقد كانت أموال الهاشميين، التى كانت تأتيتهم من خزائن البريطانيين هى التى ابتاعت ولاء البدو الذين كانوا على استعداد للحاق بصفوف الأعداء إن ساءت الأمور. فقد كان إدراك البريطانيين للجيش القبلى وفهمهم لها على أنها جيش إقطاعى بقيادة شريف من النبلاء خاطئاً. فقد كان عبيد الأرض Serfs فى أوربا الإقطاعية ملكية منقولة لأسيادهم الإقطاعيين، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية حينما يطلب منهم ذلك. ولم يكن البدو مثل هؤلاء. فلم يدينوا لأى أحد أو لأى شىء سوى قبائلهم؛ ولهذا السبب، لم يكن ينظر لتغيير ولائهم على أنه «بوقة» أو خيانة طالما وافقت القبيلة على هذا التغيير. فقد كان الهاشميون والأتراك الذين يعملون معهم أجنبى بالنسبة لهم. وكان لدى الأتراك بالفعل بدو غير نظاميين يعملون فى صفوفهم. وأما جماعة البيلى، وهى قبيلة قوية من الشمال تخشى الأجنبى وتكرههم، فكانت مازالت مترددة. وأعلن أحد شيوخها، وهو سليمان رفادة، تحالفه مع الأتراك. وفكر لورانس أنه إن انضمت قبيلة البيلى بكاملها إلى الأتراك، فقد تنلوا جهينة. إلا أن الأتراك كانوا ينفقون سبعين ألف جنيه استرلىنى شهرياً لشراء القبائل وكانوا يتلقون وعوداً خاوية فى غالبيتها. واعتقد لورانس أن

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى الحجاز

للهاشميين، فى النهاية، تأثيراً عاطفياً على البدو لا يمكن للأتراك إحداث ما يماثله.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقترب فيها لورانس من البدو . واستشاره مظهرهم، كما كان لخشونتهم وقع الرهبة عليه . ولم يكونوا كلهم رحلاً؛ فقد كانت غالبيتهم مزارعين وأشباه رحل . وكان الكثيرون منهم عبيداً مسلحين وتابعين يقومون على خدمة أهل الصحراء . وتراوحت أعمارهم بين الثانية عشرة والستين . وكان البدو رجالاً صغيرى الحجم ذوى بشرة سمراء، يشبهون الطيور، وكانوا ذوى أناقة خاصة بهم . فكانوا يرتدون فقط الدشدشات والسراويل المتسعة وأغطية الرأس ويتمنطقون بأحزمة الطلقات، ويحملون البنادق التى يطلقونها لأوهى الأسباب . وكانوا ذوى لياقة عالية، بإمكانهم السير والجرى فى حرارة الشمس لساعات عديدة، وهم حفاة الأقدام، على الصخور والرمال الملتهبة . وكانوا يتحركون بتوتر سريع مما كان يعطى الانطباع أنهم يودون أن يحرقوا طاقات لا محدودة . واعتقد لورانس أنهم سيكونون رجال حرب عصابات ممتازين إذا تم تدريبهم تدريباً سليماً، وقناصين مهرة أيضاً . فقد كانوا على مقدرة على الجرى والتسلق لمسافات طويلة كى يعثروا لأنفسهم على ركن مناسب يصوبون منه طلقاتهم، رغم أنهم كانوا حينذاك معتادين على بنادقهم القديمة البطيئة لا على البنادق الحديثة، ومن ثم، على الاشتباك مع الأعداء من مسافة قصيرة . وكانوا على دراية حميمة بالصحراء؛ كما أن مهاراتهم فى اقتفاء الأثر بدت خارقة للطبيعة . إلا أن لورانس شعر أنهم عديمو الجدوى كقوات تقليدية . فمن ناحية، كانت القوات الفعلية دائمة التغير لأن الرجال كانوا يعودون لزيارة زوجاتهم ويوكلون أسلحتهم إلى أشقاء أو أبناء عمومة لهم ليحلوا محلهم . وفى بعض الأحيان، كان السأم يصيب عشيرة ما بكاملها، فترحل . ولم يكونوا يتلقون الأوامر من أحد باستثناء شيخ القبيلة، ولا يعملون مع قبيلة معادية سوى تحت قيادة شخص من الأشراف الذين كانوا يعتقدون أن منزلتهم أعلى من السياسات القبلية . وكانوا أفراد شجعان لا يبالون بالأخطار، إلا أن عقيدة «السمعة» التى كانوا يحيون بها جعلتهم لا يحسنون العمل كفريق، فقد كان كل فرد سيد نفسه، ولم يكن يطيع الأوامر بسهولة أو يحارب فى الصفوف أو يساعد غرباء

تصادف وجودهم في نفس الجيش. فقد كانت العشائرية هاجس البدو المسيطر وكان شعارهم الذي يحيون به «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب». وكانت الغزوة تقليدية تتم وفقاً لقواعد محددة. وكانت النساء والأطفال والرعاة العزل محرمين. كما أنهم بعد غزواتهم كانوا يتركون ناقة واحدة على الأقل وراءهم حتى يتمكن ضحايا الغزوة من البقاء. وكان القتال أيضاً من أجل الممتلكات، خاصة الإبل، لا من أجل الحياة. ولم يكن أسلوب قتالهم يسمح بضحايا كثيرين، وقد حدد هذا الأسلوب منذ أجيال العدوات الشارية. وكان قتالهم يعتمد على المحارب الفرد، فلم يكونوا يعرفون أسلوب الحروب الجديدة حيث تتقاتل الجيوش التي لا ملامح لها والأسلحة عن بعد ودون تفرقة. فقد كان لكل قبلي، بالنسبة للبدو، قدره كفرد وليس كمجرد جندي، وكان هذا هو سبب هروبهم حينما يواجهون بمعارضة راسخة أو بأعداد كبيرة. وقد وصف بيركهارت، عام ١٨٣٠، الحروب العربية بأنها تعتمد على مفاجأة العدو بهجمة غير متوقعة ثم نهب معسكره، وكتب يقول: «بإمكانى أن أورد أمثلة عديدة لقوافل من المسافرين أو فلاحين أجبروا مهاجميهم من الذين البدو الذين يزدون على ضعفى أو ثلاثة أضعاف عددهم على الهرب». ومن ثم... يعد هؤلاء جنءاً بؤساء ويستشهد على جبنهم بمعاركهم مع هؤلاء الفلاحين». وأسمى س. إس. جارفيز البدو «محاربين جيدين لمدة عشر دقائق فقط» وأضاف أنه «لا يوجد أشد ضراوة وإثارة للرعب من فارس عربى يتعامل مع عدو محبط، ولا يوجد أمر أكثر سهولة من نفس الأعراب حينما تواجههم قوة حقيقية». وكتب بيرس جويس فيما بعد أن البدو كانوا «خدعة أكثر من كونهم خطراً حقيقياً». وشعر أنه من المحال، بالنسبة لهم، الالتزام ببرنامج محدد. وأيضاً قال أليك كير كبرايد لاحقاً «بالإمكان قيامهم بهجمة رائعة. فإن نجحت، كان هذا رائعاً. وإن فشلت لاذوا بالفرار. وكان هذا الشيء الوحيد المعقول الذى يمكن عمله». واعتقد لورانس أنهم يصلحون لتدمير خط السكة الحديدية بالديناميت، ونهب قوافل الأتراك أو سرقة إبلهم. كما أنه ذكر في تقريره، «أنه بالرغم من أن المرء قد يسخر من طبيعتهم الارتزاقية، إلا أنهم لا يساعدون الأتراك رغم الرشاوى العديدة التى يتلقونها منهم؛ كما أن قوافل الإمدادات الهاشمية مازالت تجوب التلال دون أن يتعرض

الفصل الثانى عشر: «انقضت فى وسطهم كالجسام» المهمة الأولى فى الحجاز

أحد لها».

وفى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم التقى لورانس بفصيل مرة أخرى، وسارت محادثتهما هذه المرة بشكل أفضل كثيراً. فقد اعتقد لورانس أنه لو فشلت خطة فيصل لتشتيت الأتراك، فقد يكون تحركهم التالى باتجاه مكة عن طريق رابغ. وفى هذه الحالة، سيكون أفضل توظيف لقوات البدو هو احتلال تلال صبح حول وادى صفراء التى تكوّن خطأً دفاعياً طبيعياً. ولن يكون لدى الجيش التركى خيار سوى التقدم عبر الوديان التى ستكون انحناءاتها وتعرجاتها هدية السماء لقوات حرب العصابات. ولن ينفع الأتراك حتى مدفعيتهم المنصوبة على التلال. واعتقد أنه يجب تزويد العرب ببندق لويس الآلية وبعض مدفعية الميدان الحديثة من أجل رفع معنوياتهم، كما رأى أنهم فى حاجة إلى مستشارين فنيين ونظام اتصالات أفضل مع مسئولى القيادة العامة البريطانية، وحتى إلى أجهزة لاسلكى. واعتقد أنه رغم أن قوات البدو لن يكون بإمكانها أبداً شن هجوم، فإنها ستوفر حاجزاً دفاعياً قوياً. كما أنهم يمكنهم تكوين قوة نظامية من عبيد مجندين ورجال من المدن، ومن المزارعين. وشعر لورانس أنه لو استطاع فيصل الصمود على هذه التلال لمدة شهرين، فسيستطيع عزيز المصرى فى هذه الآونة أن يدرب طابوره من النظاميين العرب فى رابغ. كما اعتقد لورانس أن إنزال قوات بريطانية فى رابغ لن يعادله شئ لتدمير قضية الهاشميين. وذكر أيضاً فى تقريره أن فيصل ومساعديه غير متعاطفين مع القوميين العرب الذين شنقوا فى دمشق وبيروت لأنهم كانوا قد تحالفوا مع الفرنسيين، ملمحاً بهذا إلى رؤسائه أنه ليس فى نية العرب تسليم بلادهم إلى سيد أجنبى آخر، وأنهم سيتشككون بقوة فى أى إنزال مكثف للقوات البريطانية. وكان حدسه صحيحاً، إلا أن ما ذكره من وقائع كان مزيفاً بالتأكيد؛ إذ إنه، فى حالة فيصل على الأقل، ثمة تقارير بشهود عيان تشير إلى أنه قابل شق القوميين باستياء شديد عند سماعه الأنباء فى دمشق. كما أن لورانس قدم تصويراً مغلوطاً للبدو فى تقاريره على أنهم شديدو الإيمان بالقومية العربية. وكان البدو فى الواقع على درجة كبيرة من الشوفينية، يكرهون الأجانب ويعادون المسيحية. وكان من شأن إنزال قوات بريطانية تحطيم مكانة الهاشميين والإلقاء بالبدو فى أحضان الأتراك. وغادر لورانس المكان فى عصر يوم ٢٤ أكتوبر

برفقة أربعة عشر من رجال قبيلة جهينة متجهاً إلى ينبع دون أن يتوقع أن يلتقى بالشريف مرة أخرى. وكان مبعث رضاه أنه وجد في فيصل بطلاً يمكن للبريطانيين التأثير عليه والتلاعب به، أو كما عبر هو بغموضه المعتاد، قائلاً «له من الأسباب ما يجعله ينفذ خططنا». كما أنه أيضاً كان واثقاً أنه قد أوجد حلاً لمشكلة رابغ، فكتب يقول «لقد أخبرت رؤسائي أن الدفاع عن مكة لا يتم عن طريق عقبة رابغ، لكن بتهديد فيصل للجناح العثماني في تلال صبح».

الفصل الثالث عشر

ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك

للاقتضاء على الوجه

ينبع والوجه

ديسمبر ١٩١٦ - يناير ١٩١٧

13

كان تفكيراً يُعبر

عن رغبة. فالبدو لم يكونوا أبداً

مقاتلين دفاعيين. فحينما خرج فخرى

باشا من المدينة في شهر ديسمبر على

رأس ثلاثة ألوية كاملة، حاصر بنى

سالم وسيطر

على وادى الصفراء.

ورجع البدو مشتتين إلى قراهم دون اشتباك . وخلافاً لتأكيدات لورانس ، فلم يتلق بنو سالم أبداً أية بنادق آلية أو مدافع . وتمكن الأتراك خلال أربع وعشرين ساعة من اختراق السهل الساحلى . وقد أتى لورانس فيما بعد بتسمية «رفيعة المستوى» لما حدث ، إذ أطلق عليه «النظرية الثانية للحرب غير النظامية - The Second Theorem» التى ذهب فيها إلى أن القول بأن «القوات غير النظامية غير قادرة على الدفاع عن خط أو نقطة ما كعدم قدرتها على شن هجوم عليها» .

وقد ظل الجنود المحترفون ومنذ البداية يرددون هذا دون أن يلجأوا إلى أية نظريات معقدة كنظرية لورانس . وقد دعا هذا إلى الاعتقاد بأن على القوات البريطانية الدفاع عن رابغ . إلا أن الوقت كان قد فات . وكان لورانس قد عاد من الجبل ، مثل عودة موسى ، وهو يحمل معه حل مشكلة رابغ منقوشاً على حجر . ثم قال بعد ذلك ، إن رسو قوة بريطانية فى الحجاز ، كان سيتسبب فى امتناع أى عربى

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

عن مساندة الشريف . وكما كان لورانس يعلم جيداً ، فقد كان هذا ما أراد الجنرال مري سماعه تحديداً . ومن ثم بدا للقيادة أن ما طلبه لورانس من إمدادات البنادق الآلية والمدافع والمستشارين العسكريين ثمناً بسيطاً يدفع لقاء الحفاظ على لواء أو اثنين . ومن ثم ، أخذ نجم لورانس في الصعود في القيادة العامة ، وعُرف أنه في مركز قوى متفرد . فلم يحدث من قبل أن ذهب أحد إلى الجبهة ، ولم يحدث أن تبعه أحد ؛ فقد كان الضابط البريطاني الوحيد الذي شهد الأحوال هناك بنفسه . ثم أصبح اللاعب الرئيسي في الثورة العربية بعد أن تقدم بالشواهد التي شذبت بها بعناية كي تتفق مع أهدافه . وهيات له معلوماته أيضاً قنوات اتصال مع لاعبين آخرين . ففي طريق عودته للقاهرة ، لم يلتق فقط بالأدميرال وميس قائد الأسطول البحري والذي كان معارضا للتدخل مثل مري ، بل إنه توقف أيضاً في الخرطوم ليجيب على أسئلة وينبجث الذي كان يؤيد التدخل بشدة . وكان تمكنه من إقناع الطرفين أن كليهما مصيب تأكيداً لمقدرته على التلؤن . وبعد الاستجواب ، كتب وينبجث - الذي نقل إلى القاهرة بعد ذلك بفترة وجيزة ليحل محل مكماهون كمندوب

سامى - «لقد فهمت منه أنه يوافق على أن العرب سيرحبون - فى حالة الطوارئ - [بلواء بريطانى] . . . وأنه يتمسك بأمله فى النجاح ، ويفضل هذا على التورط فى هزيمة محققة نتيجة للفشل فى الاحتفاظ برباغ» . ولم يكن لورانس قد وافق على كل شيء من هذا . وفيما بعد ثار وينجت ثورة عارمة لدى قراءته مذكرته عن الموضوع . إلا أن الأمر كان قد نفذ حينذاك ، وتمكن كليتون من إقناع السردار أن مرى هو الذى أجبر لورانس على كتابة تلك المذكرة .

واستمر لورانس يعمل من مكتب القاهرة ويساعد فى توجيه الثورة من مسافة آمنة . فلم تساعد رحلته إلى وادى الصفراء على إقناعه بصلاحيته كضابط ميدان . وكان قد تم نقله إلى «المكتب العربى» تحت رئاسة كليتون الذى أوكل إليه منصب مسئول الدعاية الذى كان مهيباً له جيداً . بيد أنه كان لوينجت أفكار أخرى . فقد شعر السردار أن إلمام لورانس غير العادى بالعرب سيُهدر فى القاهرة ومن ثم طلب من كليتون أن يرسله مرة أخرى إلى الحجاز ليعمل ضابطاً للاتصال مع فيصل . إلا أن كليتون كان كارهاً لإرساله . وعارض لورانس بشدة حينما علم بأمر نقله يوم ١٩ نوفمبر قائلاً إنه ليس مؤهلاً كرجل أفعال وإنه لا خبرة له فى القيادة . إلا أن هذا الجدل لم يكن حقيقياً كلية لأن السنوات الأربع فى كركميش كانت قد أكسبته مهارات هائلة فى الإدارة . وادعى أيضاً أن فيصل رجل عنيد ولا ينتصح وهو ادعاء قد كشف لورانس بنفسه زيفه فيما بعد . واستمات لورانس كي يظل بعيداً عن القتال ، واستعمل كل مهاراته البلاغية فى سبيل هذا . إلا أن هذا لم يجد نفعاً . فقد أصدر السردار أمره ولم يكن هناك مفر من أن يكون له ما أراد . ووافق وينجت بشرط أن يحل ستيوارت نيوكومب - الذى كان قد رقى إلى رتبة الليفاننت كولونيل - محله فى ينبع - قاعدة فيصل الحالية - بمجرد عودته على أن يتفرغ لورانس «للمكتب العربى» مرة أخرى . وأدرك لورانس أن وقت العمل قد حان . فقد كُتب عليه الذهاب إلى الميدان ولا سبيل لتحاشى هذا . وبمجرد تقبله الأمر ، استدعى قوة إرادته التى كان قد نماها فى شبابه وأعد نفسه للعمل . وفى مواجهة خوفه من عدم تحمل أعصابه مجابهة الخطر ، استعان بسنوات عقاب ذاته الطويلة ، ومعرفته الحميمة بالألم والحُرمان اللذين فرضهما على نفسه ، وودّ لو يكون هذا كافياً . وفى يوم ٢٥ نوفمبر ، أبحر إلى الحجاز مرة أخرى .

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

وصل لورانس إلى الحجاز في خضم أخطر الأزمات التي كانت الثورة قد مرت بها حتى ذلك الحين. ففي أول ديسمبر عثرت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على طريق بدون حراسة يؤدي إلى وادي الصفراء، واندفعت القوات مسرعة في أعقاب وحدات بنى سالم التي كانت تتولى حراسة الوادي. وعمد رجال القبائل إلى الفرار من الأتراك رغم قلقهم على قراهم. أما زيد، شقيق فيصل الأصغر، وكان على رأس قوة من الجنود المصريين النظاميين أعاره إياها وبنجت، فقد سلك طريقه إلى الحمراء، إلا أن وابل نيران البنادق الآلية الذي قوبل به أعاقه. وكان زيد نفسه قد تمكن من الفرار من الأسر بصعوبة، وأخذ يتراجع باتجاه ينبع على الشاطئ. أما الأتراك الذين احتلوا وادي الصفراء، فقد أصبحوا في موقع يمكنهم من تهديد كل من ينبع ورابغ. وكان فيصل، حينما حدث الاختراق التركي، يجند قوة من جهينة للسير شمالاً بحذاء الشاطئ ومهاجمة ميناء الوجه الذي ظل في أيدي الأتراك. ولم يؤد سقوط الصفراء إلى عزله فقط عن مكة ورابغ، بل منع عنه أيضاً دعم بنى سالم. ولم يتبق له سوى بنى جهينة وكان يشك في استمرار ولائهم إذا سقطت ينبع ورابغ. وانفرط أيضاً عقد نظام جواسيسه وأخذت تصله تقارير شديدة التناقض. وفي ٢ ديسمبر، سارع ومعه ٤٠٠٠ مقاتل من رجال القبائل إلى «نخل مبارك» وهي واحة نخيل شاسعة، استعداداً لصد أي تهديد تركي لميناء ينبع الذي أصبح ملاذه الأخير.

وقبيل منتصف الليل، وصل لورانس إلى نخل مبارك مع عبد الكريم البضاوي شريف جهينة ليجد مشهداً غاية في التشوش. كان الوادي ممتلئاً بدخان الخطب تتردد فيه أصدااء ثغاء وهدير آلاف النوق، وكان رجال القبائل شبه العراة يهرولون في المكان وهم حفاة يثرثرون ويتبادلون الشتائم ويطلقون أعيرتهم النارية. ومن قبيل الحذر، أخفت جماعة لورانس جمالها في فناء مهجور، وذهب عبد الكريم لاستطلاع الأمور. ثم رجع بأنباء تقول إن الشريف قد عاد لتوه؛ وسرعان ما وجدوا الشريف يجلس على سجادة، هادئاً وسط الصخب، يُملي الخطابات على ضوء مصباح. كان برفقته معاونه مولود المخلص، ونائبه الشريف شريف حاكم الطائف الهاشمي، واستراح فيصل لرؤيته لورانس. فقد كان المعسكر بأكمله على وشك أن تنتابه حالة من الذعر، وكان المراسلون آتين، غادين، يُربضون نوقهم

وينهضونها حول جزيرة الشريف المتمثلة في سجادته. وكانت دوريات الحراسة من البدو تقفز داخل المعسكر، أو تنتشر خارجة منه في الظلمة محدثة ضوضاء. كان الرجال أيضاً ينزلون المشاع من على ظهور الدواب، وكانت الخيول والبغال تقاوم وتجفل. وبينما كانوا يتحدثون اندفعت إحدى النوق الحرونة هاربة، وألقت بحملها، وأمطرتهم بوابل من التبن، وكان فيصل ينصت بصبر إلى كل مراسل، وذى حاجة، وصاحب شكوى، ويتحدث إلى رجاله بثبات وكبرياء. وتحقق لورانس أن فيصل كان يحارب معركة داخلية يائسة. فقد صدمه تراجع شقيقه المفاجئ، وكان يعاني داخلياً من جراء ذلك. إلا أنه احتفظ بجلال مظهره أمام الناس. وراقبه لورانس أثناء حديثه إلى شيوخ كتيبة من البدو كان على وشك إرسالها لتطويق الأتراك وكتب انطباعه قائلاً: «كان قليل الكلمات، ولم تكن ثمة ضوضاء لا معنى لها، بل معانى صحيحة محددة. ثم اندفع الناس لتقبيل غطاء رأسه عندما انتهى». ومرة أخرى ألقى فيصل بمسئولية نجاح الأتراك على عدم وجود مدافع، وأبدى خشيته من أن ارتداد بنى سالم سيكون له أثر تتخفى وراءه أعذار بقية القبائل. وكتب لورانس إلى كليتون يقول «سيتم، من الآن فصاعداً، الاستغناء عن بنى حرب. وقد أخطأ الرجال الذين هربوا من الأتراك؛ وسيحاول بقية بنى سعد أن يقبضوا أنفسهم بتجنب المعارك، ويسعون إلى الصلح مع من يحتلون بساكني نخيلهم». وغفا فيصل ولورانس قليلاً، واستيقظا بعد ساعة في برودة الفجر على رنين مدق القهوة. ثم تعرف لورانس على المعسكر وتحدث إلى البدو، خاصة من بنى جهينة، الذين اعتقد أنهم قد تملكهم القلق. وفي وقت متأخر من النهار غادرت قوة فيصل الوادي خشية الأمطار وعسكروا شمالاً. وركب الجنود كلهم معاً، وكونوا صفّاً واحداً بحيث يركب فيصل بينهم على جواده، ويتبعه مساعدوه والأشراف، وحامل لوائه، وحراسه الذين بلغ عددهم ثمانمائة، ورجال بنى عقيل وبيشه المسلحين، ممتطين إبلهم. ورغم قتامة الموقف انتابت لورانس النشوة لمشهد الجيش العربي القبلي وهو يتحرك.

وكما يدعى لورانس، فقد كان حينذاك أن دعا فيصل لورانس لارتداء الزي العربي، وأهداه دشداشة مطرزة كانت عمته قد أرسلتها له من مكة. وفسر لورانس دافع فيصل لفعل هذا بشعور البدو بعدم الارتياح للزي العسكري الكاكي الذي لم

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

يكونوا قد رأوا من يرتديه سوى الأتراك، إلا أن ما نقله لورانس عن فيصل أمر مشكوك في صحته لأن رجال المدفعية المصرية والضباط العرب النظاميين من أمثال مولود الخالص ونورى السعيد وعزيز المصرى كانوا يرتدون الزى الكاكي. والأمير الأكثر احتمالاً هو أن لورانس كان من فكر في هذا. فقد كان قد اعتاد ارتداء الزى الخلى في سوريا. والآن، نشط حسه التقمصى ووجهه نحو فيصل خاصة، وطلب أن يرتدى نفس ملابسه. ولم يكن هذا إرضاء للعرب فقط، بل ميزة لنفسه أيضاً، إذ إن ارتدائه ملابس شريف مكة الفخمة منحه مكانة مرموقة بين الجنود. وكان ارتدائه الزى الخلى في سوريا من قبل قد مكّنه من تحاشي لفت النظر إليه وسط الأجناس العديدة هناك. إلا أن أحداً، بمن في ذلك لورانس نفسه، لم يعتقد إمكانية إخفاء وجهه الإنجليزى المتورد الحليق على أنه وجه عربى. وكان لهذا شقه العملى. فقد كانت الملابس العربية مريحة لدى امتطاء الإبل فى الصحراء أكثر من أى شيء صممه الأوروبيون. فكان الثوب الواسع يسمح بتسرب الهواء البارد لأنحاء الجسد. أما غطاء الرأس السميك فكان يثبت حول الرأس، أو على الوجه فى العواصف الرملية، ويستخدم كمنشفة، وغطاء عند النوم، وحبل، ومصفاه للمياه، وضماذ للجروح. كما كان الثوب الطويل أيضاً يستخدم كحجاب لدى قضاء الحاجة. وباختصار، كان ارتدائه للملابس العربية فكرة ممتازة من الناحية العملية والأيدىولوجية.

قضى لورانس مع فيصل وقتاً كافياً لتخطيط مدرج طائرات بدائى قرب معسكره تستعمله القوات الجوية الملكية التى كانت ستعمل قريباً فى ينبع؛ فقد كان الأتراك فى الطريق؛ وكان لورانس مقتنعاً أن جيش فيصل غير المتناسك لن يقوى على القتال. ولم يكن ثم بديل سوى الالتجاء إلى ميناء ينبع حيث كان الماجور هربرت جارلاند، من المهندسين الملكيين، مشغولاً بتدريب البدو على الهجوم على السكك الحديدية. كان الميناء ضعيف التحصين، وأدرك لورانس أن التحكم فيه لن يكون ممكناً سوى بمساعدة البحرية الملكية. ومن ثم امتطى ناقته عائداً إلى ينبع حيث وصلها مرهقاً فى الثالثة والنصف صباحاً بعد أن ظل ما يقرب من ثلاث ليال دون نوم. وأبرق فى الحال إلى الكابتن بويل فى سرية خفر البحر الأحمر، وإلى كليتون فى القاهرة. وقد عزا لهجته المتشائمة إلى إرهاقه؛ إلا أنه

أضاف «ورغم كل شيء، فالأمور سيئة».

وكان جارلاندا، الذى أمل لورانس أن يجده فى ينبع، نائماً على سطح سفينته فى الميناء. إلا أن لورانس عثر على منزله، وألقى بنفسه على مقعد خشبى حيث استغرق فى النوم. واستيقظ فى وقت أتاح له رؤية جنود زيد المهزومين فى وادى الصفراء وهم يدخلون المدينة. وتملكته الدهشة حين لم يظهر عليهم أى خجل لتعريضهم مستقبل الثورة للخطر. كما لاحظ أن زيد نفسه كان «غير مبال وفى حالة مزاجية حسنة». وخلال أربع وعشرين ساعة دخلت خمس سفن من مجموعة دوريات حراسة البحر الأحمر إلى الميناء وكان من بينها السفينة الحربية دافرين وإم ٣١، وهو قارب هجوم برمائي مصمم خصيصاً للقصف من الشاطئ. ولدى الوصول فى موعده فى يوم ٩، اندفعت قوات فيصل من قبائل عقيل وبيشه وهضيل داخل المدينة بعد انسحابهم من نخل مبارك. وذهب لورانس لالتقاط صور للشريف وهو يدخل المدينة مهزوماً. ولاحظ عدم وجود جنود جهينة غير النظاميين معه. وأسرع ليقابل فيصل لظنه أنهم قد لحقوا بالأتراك، إلا أن فيصل أخبره أن العدو وصل فجأة فى اليوم السابق مع ثلاثة ألوية من المشاة وفرق تغطى البغال، وجموع من البدو على ظهور الإبل ومرشد يدعى دخيل الله بن بديوى من أشراف جهينة. ثم تولوا قصف نخل مبارك بسبعة من مدافع الميدان، عجزت أمامها بطارية فيصل الضئيلة المكونة من مدفعين ألمانين عتيقين بدون معينات مدى والتي لا تتعدى طلقاتها خمسة عشر رطلاً. إلا أنها عملت على تشجيع رجال القبائل بضوضائهم. وكان رئيس مدفعيه السورى، راسم ساردست، قد انغمس فى قصف مسرف متكرر بالمدفعية، وعملت الضوضاء وحدها على تقديم البدو. وادعى فيصل أن الأمور كانت تبدو حسنة إلى أن استدار الجهنيون على حين غفلة من موقعه على جناحه الأيسر وانسحبوا إلى ما وراء قواته الخاصة لسبب غير معروف. وحين اشتم الخيانة، أمر فيصل راسم أن يوفر طلقاته وانسحب مع قواته - من بنى عقيل، وبيشة وآخرين - حتى شاطئ البحر. وكتب لورانس عن وصول شيخ إلى منزل فيصل ينبع فى اليوم التالى ليلبغه أن الجهنيين كانوا قد انسحبوا فقط «ليعدوا القهوة لأنفسهم» ثم واصلوا القتال لمدة أربع وعشرين ساعة بعد مغادرة فيصل. وأضاف لورانس أنه وفيصل انفجرا ضاحكين لدى سماعهما تلك

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

القصة، رغم أنه لا يقرر ما إن كان مبعث الضحك هو مفارقة الهزيمة أم العذر الواهي.. وبالتأكيد، فهذه قصة من النوع الأرستقراطي الذي يروق له، لقد هرب البدو من الميدان، لا لأنهم جفلوا من مواجهة الأتراك، لكن فقط لأنهم سمحوا لأنفسهم بفسحة لشرب القهوة. لقد كانت قصة إنجليزية حقاً. لكن هل كانت هذه هي الحقيقة؟

روى الضباط المصريون الذين شهدوا معركة نخل مبارك قصة مختلفة. فقالوا إن القوات التركية لم تشتبك في المعركة، وأن الأتراك قاموا بالقصف مستعملين ثلاثة مدافع جبلية وبطارية من البنادق الآلية. ولم يحارب البدو أبداً، وفر كثير من الجهنين إلى قراهم في وادي ينبع دون إطلاق قذيفة واحدة. فبعد أن دفع فيصل لكل منهم شلناً، تبخروا لدى أول إشارة عن المعركة كما فعل بنو سالم من قبل في وادي صفراء. ولا بد أن هذه القصة شاعت في ذلك الوقت لأنه حين التقى رونالد ستورز بفيصل بعد أيام، رد على شكواه عن عدم وجود مدفعية قائلاً: «إن رجال القبائل بحاجة إلى إثبات شجاعتهم في أعين العالم؛ فحتى لو أنهم كانوا غير مستعدين وقتذاك للقاء أعدائهم في ميدان قتال مفتوح، فقد كانت معرفتهم الوثيقة بطبيعة بلادهم الجبلية كفيلة بأن تجعل منهم أعداء يُهابون في حرب العصابات». إلا أن ستورز كان ينظر للموقف كما لو كانت جهينة وحرب فرقاً بريطانية تتبع سلسلة من القيادات صعبة المراس. فقد كانوا في الواقع يقاتلون بشجاعة بطولية ضارية إن هم شعروا بخطر يهدد شرف القبيلة. أما في الثورة العربية، فكانوا يقاتلون كمأجورين، وكان هدفهم أن يكونوا في الجانب الرابع. ولم يبد هذا، في نظر رجل إنجليزي مثل ستورز، موقفاً شريفاً تماماً. أما بالنسبة للبدوي، الذي كانت قبيلته هي كل عالمه، فقد كان هذا جد شريف. فما كان يهم الجهنى هو بقاء جهينة لا الهاشميين الذين كانوا مجرد قبيلة أخرى. وكان فيصل يظن أن ستورز يعتقد أن الهاشميين يتحكمون في القبائل الأخرى، ولم يكن هذا واقع الأمر، إذ إن البدو كانوا دائماً يفعلون ما يحلو لهم. وأصبح فيصل حينذاك دون دعم قبلي تقريباً وفقد الأمل في مستقبل الثورة الذي اعتقد أنها ستتلاشى نهائياً خلال أسابيع ثلاثة. ومن ثم، كتب مذكرة مريرة إلى الجنرال مري قائلاً إن كثيراً من القوات البريطانية التي حاربت معه كانت قد سُحبت من جبهة منطقة

العمليات البريطانية في سيناء، وقال: «إن هذا لابد وأن يكون مصدر راحة كبيرة لك، إلا أن الضغط علينا أعظم مما نَحْتَمِلُه. آمل أن يسمح الموقف لك أن تتقدم فجأة نحو بئر سبع، أو أن تتظاهر بإنزال قوات في سوريا، أيهما أفضل، إذ إنني أعتقد أن الأتراك يأملون أن يسحقونا سريعاً ثم يعودون للقتال ضدكم». ولدى إرسال لورانس للرسالة، ألحقها بالجملة التالية «أعتقد أن الشريف قد أوديت مشاعره».

إلا أنه لم يكن ثمة وقت لتبادل الاتهامات. فقد كان الموقف في ينبع خطيراً، وكان وصول الأتراك متوقعاً في أية لحظة. ولم يكن العدد الكلى للقوات العربية في المدينة يزيد على ألف وخمسمائة محارب. وأرسل فيصل ما تبقى من قبيلة جهينة مرة أخرى إلى الجبال لمشاكسة الأتراك. وحينما عاد جارانلد تولى مهمة الدفاع الطبيعي عن المدينة، فأصلح الخنادق القديمة وقوى أسوار المدينة المرجانية التي كانت ترجع إلى ثلاثمائة عام، وكرّ الأسلاك الشائكة، وموضع فرق بنادق آلية. وأرسل بويل إشارة إلى حاملة الطائرات ريفين التي كانت ترسو في شرم ينبع إن تطلق حملتها من طائرات البحر لمهاجمة المواقع التركية، ثم توجه إلى الشاطئ لعمل مسح للأرض. وكانت ينبع تقوم على شبه جزيرة يحوطها البحر من جهات ثلاث، وكان الجانب الرابع عبارة عن سهل مسطح ترابي دون غطاء. وكان على الأتراك كي يشنوا هجوماً أن يفعلوا هذا في ظلمة الليل؛ وحينذاك سيكون الأسطول في انتظارهم. وفي مغرب يوم ١١ ديسمبر ساد السكون الميناء. ولم ينم أحد. وفي حوالي الساعة العاشرة اشتبكت القوات الطلائعية للأتراك التي تسلمت بإرشاد أحد الجهنين مع الحراس العرب على مسافة ستة أميال من أسوار المدينة. وأُذِرَ منادو المدينة الحامية. وأرسل رجال استطلاع البحرية البريطانية إشارة من أعلى مئذنة المسجد إلى السفن الماربطة في الميناء، حيث بدأ طاقمها فوراً في عبور السهل وهم يحملون مشاعل إضاءة قوية لترشد بنادقهم. ووقفت القوات في سكون تام في وضع استعداد، وانتظروا، متوترين، هجوم الأتراك. إلا أن هذا لم يحدث أبداً، إذ إن الأتراك فقدوا جأشهم لدى رؤية الأضواء الكاشفة الخفية تتلاعب عبر السهل مثل أعين غيلان نارية مختبئة في الظلام. واستداروا جنوباً باتجاه رابع تاركين ينبع دون أن يمسوها. وكان هذا قراراً كلفهم خسارة الحرب، كما

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

كتب لورانس .

وانتهجت الأنظار جميعها نحو رابغ التي كانت قطعة الشطرنج الأساسية في اللعبة . وسرعان ما كانت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على بعد ثلاثين ميلاً من الميناء الذى كانت تحميه قوات البدو الهزيلة من النظاميين نصف المدربين بقيادة عزيز المصرى مع طلعة من الطائرات بقيادة المايجور روس . وقرر الشريف على ، الذى كان يقود حامية رابغ السير بشجاعة للاشتباك مع الأتراك كى يخف الضغط على فيصل فى ينبع ، وأيضاً لكى يتخذ موضعاً نهائياً . وحينما أخلى الأتراك نخل مبارك عاد إليها فيصل بجهد جهيد من البلاغة لإقناع الجهنين بالقتال معه مرة أخرى . وفى اليوم التالى تعقبت قوته بكاملها الأتراك على أمل الإيقاع بهم فى شرك التلال بين جيشه وجيش على . إلا أن هذا لم يحدث . فقد هربت من على بشجاعته حينما غابت عن عينيه مدافع البحرية البريطانية ، وتراجع لدى سماعه شائعة زائفة تقول إن جماعة حرب الخلية قد لحقت بالأتراك ، الأمر الذى سبب استياء وزير حربه عزيز المصرى . وتراجع فيصل مع رجال جهينة إلى نخل مبارك وهم يشعرون بنفس الاستياء ومكث كل من زيد وعلى فى رابغ على حين واجه هو الأتراك بمفرده فى درب سلطاني وفى نفس الوقت تملك الخوف من حسين فى مكة . وبالرغم من كل هواجسه السابقة ، طلب من البريطانيين أن تدافع إحدى حامياتهم عن رابغ . وكان حسين قد كسب هدفاً محلياً فى نوفمبر بإعلان نفسه ملكاً على الحجاز . وكان هذا اللقب غريباً على الموروث العربى ، لأنه على حين أن لمتراذفات الألقاب العربية ، مثل سلطان وأمير ، دلالات على السلطة ، فدلالات لفظ ملك هى « التملك » . وقد أعلن حسين تغيير مكانته دون إنذار سابق ودون استشارة حلفائه . ولم يكن لهذه الخطوة ميزة سياسية حقيقية بل أدت إلى إثارة غضب الحكام العرب الآخرين مثل ابن سعود فى نجد . وفى لقاء له مع ويلسون فى جدة فى ١٢ ديسمبر ، اتهم حسين البريطانيين بنقض وعدهم بأن يقطعوا خط سكك حديد الحجاز ، وهو وعد لم يتم فى الواقع . وكان هذا تهديداً قصده به إيجاد العذر لأخطاء الهاشميين . فلو أن رابغ قد سقطت ، لسقطت مكة ، ولحكم على حسين وأولاده بالموت . وبدا أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مكة هى إنزال قوات بريطانية فى رابغ ، لكن كان هناك خطر فقدان حسين دعم المسلمين جميعاً فى حالة حدوث ذلك .

وبعد تفكير متأن أخبر وينجت الشريف أنه سيتم إرسال لوائين فقط موجودين على قائمة الانتظار في السويس إلى رابغ شريطة تلقي طلب مكتوب منه وراوغ حسين. ولم يصل اللوائان البريطانيان أبداً. فقد فقد زيد وادى صفراء وظل عبد الله في الحناكية قرب المدينة دون أن يفعل شيئاً. وكانت تنقصه المؤن من الطعام والماء والذخيرة. أما على، فكان قد سار خارجاً من رابغ إلا أنه عاد إليها على الفور. وبدأت القضية خاسرة.

وأصبح من الواضح للهاشميين والمستشاريهم البريطانيين أنه من الضروري اتخاذ خطوة حاسمة. ودفع ويلسون علياً إلى إعادة تنشيط خطته للسير إلى مدينة الوجه على بعد مائتي ميل شمال الساحل، وكانت هي الميناء الأخير الذي ظل في أيدي الأتراك في الحجاز. وبسقوط الوجه، يصبح فيصل في موقع يسمح له بتهديد خط السكك الحديدية شمال المدينة وصرف انتباه فخرى باشا عن رابغ. وبرهن فيصل حينذاك على صحة ثقة لورانس في مقدراته الديبلوماسية، إذ إنه تمكن من استعادة جميع الجهنبيين عن طريق خليط من الخطابة البليغة والذهب البريطاني، وجمع قوة من راكبي الهجن من رجال عتيبة وحرب وبيلي في وادي ينبع. ورغم أن عدم فاعلية غير النظاميين في الميدان كانت قد ثبتت، إلا أن لورانس استمر يؤمن بأهميتهم. فقد كان يعرف أن تردد فخرى باشا كل هذه المدة كان سببه التهديد المحتمل لخط السكك الحديدية. فإذا هدد العرب خط السكك الحديدية فسينتشر الجناح التركي حتى دمشق على بعد ثمانمائة ميل، وسيجبر الأتراك على تفريق قواتهم بطول المسافة كلها. وأتى فيصل ولورانس فيما بينهما بخطة مزدوجة طويلة المدى. وهى، أولاً أن يتحرك الشريف عبد الله وقواته البدوية المكونة من خمسة آلاف رجل من الحناكية إلى وادي عيس حيث يمكنهم الهجوم على السكة الحديدية بسهولة، بينما يظلون في نفس الوقت قرب ينبع. وثانياً، السير إلى الوجه مع كامل قوة فيصل من رجال قبائل وترك قوة هيكلية فقط للدفاع عن الميناء.

واعتقد لورانس أن هذين التحركين سيضعان الأتراك في موضع دفاعي. إلا أن فيصل لم يتحرك خوفاً من سقوط رابغ. فقد كان مستعداً للموت دفاعاً عن أسرته،

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

وغير مستعد للانفصال عنهم حين يحين القضاء. ووصل ويلسون إلى ينبع في ٢٧ ديسمبر. وأعطى فيصل ضماناته الشخصية بأن البحرية البريطانية تستطيع الاحتفاظ برايع حين عودة قواته من الوجه. وبعد أسبوع سارت قوافل فيصل من البدو من نخل مبارك رافعين ألويتهم. وكان مشهداً بربرياً رائعاً لم تشهد الحجاز مثيلاً له في ذاكرة الأحياء. فلم تكن هذه غزوة قبلية، بل مسيرة جمهرة من القبائل. كان الجيش مقسماً إلى تسعة أقسام؛ وركب الشريف فيصل في مقدمة حرسه الخاص من جماعة عقيل، بينما ركب لورانس خلفه على بعد قليل منه، وتبعه ثلاثة من رافعي الرايات يحملون الألوية من الحرير القرمزي، وثلاثة من قارعي الطبول وهم يدقون على طبولهم الضخمة على إيقاع خطوات الإبل. وانتشر رجال العقيل المائتان وألف بشكل مروحي يميناً ويساراً، وأخذوا يرددون أهزوجة من أهزيج الإبل ارتجلوها ومعهم مغنى القبيلة. وكانت ضفائرهم التي طاولت أكتفاهم وذهنت بالزيوت وبول النياق تتأرجح أسفل أغطية رؤوسهم، على حين انتفخت أثوابهم ذات الألوان الفاقعة بالهواء، وأخذت شرابات أخراج الدواب تتراقص بجلال، بينما انطلق الرجال يرددون أهزيج القبائل بأصوات عميقة، فانتصبت آذان النياق، وخفضت رؤوسها ومدت رقابها وأوسعت خطاها. ومع مرور أيام أخذت أعدادهم في التزايد حيث تدفق البدو من المناطق المجاورة ومن كل القبائل تقريباً لينضموا تحت لواء الهاشميين إلى أن وصل عدد القوة ثمانية ألف رجل. وفجأة أخذت صورة الهزيمة القائمة تتراجع حتى أن سقوط دمشق بدا ممكناً. وأدرك لورانس وفيصل أن تلك كانت البداية الصحيحة للثورة، إذ إنه بعد هذا التجمع لن تعود الحجاز أبداً إلى ما كانت عليه. وقد أسمى لورانس ما حدث «أكبر إنجاز معنوي لحكومة الحجاز الجديدة»، وقال إنها المرة الأولى في الذاكرة التي تحتاز قبيلة كاملة تخوم قبيلة أخرى دون أن تفكر في النهب أو الشار. كانت القبيلة كاملة بوسائل النقل والإمدادات، متحدة على هدف عسكري واحد ضد عدو مشترك. وكان عوده بن حمد، شيخ رفاعه، هو من قال لفيصل «ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه».

وفي فجر ٢٣ يناير تقدم أسطول صغير من السفن البريطانية يتضمن فوكس وهاردينج خلصة وسط غطاء ضباب بحري إلى شاطئ البحر الأحمر مقترباً من

الوجه . وحينما تفحص الأدميرال وميس الشاطئ بمنظاره المعظم ، تبين شكل برج دائري يقع على صخرة إلا أنه لم يجد أثراً لفیصل أو لورانس أو صفوف البدو . واستنتج وميس أن فیصل لم يستطع الوفاء بالموعد وانتابته الحيرة . كان ثمة ستمائة متطوع عربي على سطح السفينة هاردنج وكان معظمهم من عبيد جهينة السابقين وحرس فیصل القبلي من بيشة وقد تم إركابهم السفينة من أم اللج . وكان من المفترض أنهم سيحاربون تحت قيادة شيوخهم عمرو وصالح مع إرشاد اسمي من الماجور تشارلز فيكري والكابتن إن . إن . إي . برای ، وكانا ضابطین متمرسین يتحدثان العربية ألحقهما وينجت بفريق مهمته العسكرية . وواجه وميس أحد خيارين : إما أن ينتظر ظهور فیصل أو أن يبدأ هجمته بدونه . فلم يكن بإمكانه الاحتفاظ بالعرب على ظهر هاردنج لمدة أطول كثيراً حيث كان يعوزهم الطعام والترتيبات الصحية . لكن ، هل كان باستطاعتهم الاستيلاء على المدينة ؟ فقد كان يسكن الوجه غالبية من المهاجرين المصريين من واحة القصير التي تقع مباشرة في مواجهة المدينة عبر البحر الأحمر ، وكانوا معارضين للهاشميين ، وكان عدد الحامية التركية فيها ٨٠٠ رجل بالإضافة إلى ما يقرب من ٥٠٠ جندي غير نظامي من فرق الجمال من عقيل . وقرر وميس أن باستطاعة العرب الاستيلاء على الوجه بواسطة ٥٠ بندقية بحرية وفريق إنزال مكون من مائتين من الأفراد من جنود الأسطول لدعمهم ، دون دعم قوات فیصل المتفوقة عددياً . وانسابت هاردنج وسط الضباب ورست على بعد ميلين من المدينة . وتسلق العرب إلى الصنادل البحرية التي كانت راسية في خليج تحميها صخرة مرجانية . وكانوا حفاة يرتدون عباءات شعر الإبل لتحميهم من البرد وتنبعث منهم رائحة الأغنام . وأخذ الضباب في الانقشاع وبدأت البنادق البحرية ترعد ضوضاء عميقة عالية حتى بدا الأمر للعرب وكأن الأرض نفسها تهتز . وتشبث نصف رجال القبائل بأماكنهم ورفضوا أن يتحركوا ، أما الباقون ، الذين كانوا قد استعدوا لأعمال النهب فقد قسموا أنفسهم إلى ثلاثة أقسام ذهبت مباشرة إلى شن هجوم ، وهم يصيحون بضراوة ، في اتجاه المدينة . وتوقع الأتراك هجوماً شاملاً من الجنوب وكانت تنظيماتهم ضعيفة . ونظر الحراس المتمركزون في المنازل الواقعة على الحدود الشمالية من النوافذ ليروا حشود رجال القبائل وهم يتصايحون ويندفعون تجاههم مباشرة . وسمعت بعض الطلقات التي

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

أصابت أعرابيين أو ثلاثة سقطوا مثل «الصرر» القائمة وسط الصخور. وكان هذا هو الدفاع الوحيد الذى استطاعه الأتراك إذ وصل العرب إلى أول المنازل واقتحموا الأبواب وأطلقوا الرصاص على ثلاثة مصريين مدنيين وأخذوا فى تمزيق الحواشى وتحطيم الأثاث فى بحث مجنون عن الغنائم. وبعد ذلك، أخذوا ينتقلون من منزل إلى آخر ويدخلون فى اشتباكات ويقتلون وينهبون. وفى هذه الأثناء، كانت المجموعتان الثانية والثالثة قد اشتبكت مع الجنود الأتراك فى الخنادق، حيث أمطرهم فريق منهم بنيران البنادق بينما تقدم الفريق الآخر، بقيادة الشيخ صالح، ببطء تجاههم. وسار رجال القبائل على الحجارة الباردة غير مسرعين يتحسسون طريقهم بمهارة وقد زموا دشدشاتهم فى أحزمة ذخائرهم وحملوا بنادقهم على أكتافهم وفوهاتهما مسددة للأمام بالأسلوب البدوى. كانوا على بعد ألف ياردة من الموقع التركى حينما فتح العدو عليهم النيران، وفجأة، انتقلوا إلى الخطوة البطيئة وتوجهوا إلى قمة تلة احتما خلفها وأخذوا يطلقون النيران فأصابوا عشرة أو أحد عشر تركيا.

وأرسل فيكرى، الذى كان قد تقدم معهم، إشارة إلى السفينة مستعملاً مرآة، وأخذت السفينة الحربية فوراً فى قصف تحصينات الأتراك إلى أن هرب الأتراك وتوقف القصف مدة تسمح للعرب بالتقدم. وتقدموا بثبات، وكادوا يصطدمون بمجموعة من مائتين من رجال الأسطول البريطانى كان قد تم إنزالها. وفى هذه الليلة، ناموا فى مواقعهم، وانتقلوا فى الصباح إلى أحياء من المدينة لم يكن قد تم الاستيلاء عليها ليكتشفوا أن معظم الحامية التركية بمن فيهم قائدهم، قد هربوا أثناء الليل واختبأت القوات القليلة التى تبقت فى المسجد. وبمجرد أن أحدث الطراد فوكس فتحة كبيرة فى حائطه، ترنح أفرادها خارجه عزلاً من السلاح وسقطت مدينة الوجه.

وصل جنود فيصل وبرفقتهم لورانس، وستيوارت نيوكومب الذى لحق بهم فى أم اللج، فى اليوم التالى ليجدوا المدينة فى أيد عربية. وفى هذا الصدد، كتب كابتن براى قائلاً: «كانت رؤية جنوده فى أنحاء متفرقة من السهل المتموج باتجاه الجنوب الشرقى مشهداً مبهجاً.. وقاد فيصل نفسه طليعة الجيش، وكانت علامة حضوره

بينهم الراية الحمراء العملاقة التي رفعها حامل لوائه، وكانت بقعة اللون الوحيدة في جيشه». وهرول البدو إلى المدينة ممتطين خيولهم ونوقهم وهم يغنون ويمزحون وينفذون هجمات صورية. ولفت نظر برائ أن مرحهم كان شديداً: «الأمر الذي يشير الدهشة، فقد خذلونا دون عذر، ولم تكن هناك أية محاولة لكسب الثقة رغم تفسيرات لورانس وفيصل اللاحقة. وينعكس هذا على قيادة فيصل، وبدرجة أكبر على مستشاريه البريطانيين». وكانت هذه بالفعل نهاية حزينة لمسيرة لورانس المذهلة لمسافة مائتي ميل. ورغم أنه شعر بالخزي لهذا الفشل بينه وبين نفسه، إلا أنه في العلن، ألقى مسئولية التأخر على نقص المياه وضعف إبل فيصل التي نفق منها الكثير، وعدم كفاءة مرشديه الجهنيين. وفي سبيل الدفاع عن نفسه، هاجم تهور فيكري، ملمحاً أن الهجمة حدثت قبل أوانها، وأن عدد الإصابات كان غير مقبول بالنسبة لجيش غير نظامي. وأوضح، عن حق، أن إصابات العرب ليست إحصائية بل مآسى شخصية وأسمى الهجمة حماقة عسكرية، واستنكر النهب وتحطيم المدينة التي كانوا يحتاجون إليها كقاعدة عربية. وكان فيكري يعتقد أن زهو لورانس بإمكان دخول العرب إلى دمشق قرب نهاية العام ما هو إلا تبجح. وكان لورانس، من جانبه، ينتقد باستمرار الجنود المخترفين. ومن ثم، فقد أدان هذا المدفعي الذي مارس عمله في السودان لمدة عشر سنوات، ووصفه بأنه شخص عديم الإحساس لأنه يشرب الويسكي في حضرة فيصل الذي كان مسلماً ورعاً. وكان ينظر إلى فيكري على أنه ضابط كلونيالي، وأنه رغم إتقانه العربية، يتعامل مع العرب من منطلق التنازل ولا يفرق بين العرب العاديين والعرب النبلاء من أمثال الهاشميين. أما أسلوب لورانس فكان جد مختلف. فقد حاول أن «يدخل تحت جلد العرب» ويحاكي أساليبهم ويرى أفضل خصالهم، وإن بدا سلوكهم غير مقبول للثقافة الأوروبية. بيد أن السبب الحقيقي لسخطه على فيكري كان مصدره لا شعوره وأحاسيسه المكبوتة رغم القناع الذي كان يتخفى وراءه. فقد كان هو وفيكري متشابهين في الجوهر ويختلفان في الأسلوب فقط. ورغم أن شرب فيكري الويسكي في حضور فيصل قد يكون دليلاً على عدم الحساسية، إلا أن فيكري كان صريحاً (كان فيصل، الذي امتاز بسعة الأفق، قد تقبل فعله هذا ضاحكاً)، على حين كان تلبس لورانس للشخصية العربية عملاً تنكرياً، وانتقاده

الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه

لفيكرى غير منصف في غالبيته . فأولاً ، كان وميس لا فيكرى هو من قرر عدم انتظار قوة فيصل . ثانياً : لم يكن بمقدرة فيكرى التحكم في العرب . ثالثاً : فقد روع نهب المدينة وتخطيطها فيكرى وبراى بنفس القدر . أما لورانس ، فلم يلق على نفسه أية تبعة لتأخر فيصل عن الموعد ، وكانت الأعداء التي قدمها واهية . فكان قد تفاخر في أماكن أخرى بمقدرة البدو على السير مسافات طويلة بأقل كمية من الطعام والماء ؛ بالإضافة إلى أنه كان بمقدرته أن يرسل بسهولة فرقة متقدمة من رجاله الشمانية آلاف ليشتبكوا في الهجوم على الوجه . إلا أنه على الجانب الآخر ، فقد قدر حس لورانس الدّعائى أن المسيرة قد نجحت لجرد تحققها . فكما أدرك كان من شأن قدرة فيصل على تجميع مثل هذه القوة الهائلة من رجال القبائل وتحريكهم لمسافة ٢٠٠ ميل عبر الصحراء ، وتهديدهم الآن لخط السكك الحديدية ، أن يكون له أثره الساحق على معنويات الأتراك .

وكان الشريف عبد الله ، أيضاً ، قد وجه ضربة شديدة لمعنويات الأتراك حينما كان يسير إلى وادى عيس في ١٣ يناير ومعه خمسة آلاف من البدو ، والتقوا بقوة تركية بقيادة أشرف بك ، السفاح السابق ، قرب واحة خيبر . وكان عبد الله ، طبقاً لما قاله فيصل ، على مقدرة أن يتخذ قرارات وينفذها في سرعة البرق عند الضرورة . ومن ثم ، فقد دفع بفكره سريعا ، لدرجة أن رجال المدفعية التركية لم يستطيعوا تصويب سوى ستين طلقة قبل أن يتم الإيقاع بهم . وتم أسر جميع صفوفهم بمن فيهم أشرف ، كما أستولى عبد الله على ٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبي ، وعدد من السجاجيد والملابس والبنادق الآلية والمدافع وصناديق مليئة بالمسدسات . وبعد ذلك ، عبر عبد الله البحر إلى وادى حمض وترك لفخرى باشا رسالة بين قضبان السكك الحديدية يخبره فيها أن أشرف بك في أيدي العرب ويوجه فيها إليه تهديدات كارثية . ثم أرسل عبد الله رسولا إلى فيصل ومعه خنجر أشرف بك المرصع كهدية بينما ظل هو يعسكر مع لورانس في حارات غالب على الشاطئ . وأقيمت ولائم واحتفالات ضخمة . وكتب لورانس قائلاً «إن مغنى القبيلة نظم أهزوجة تمجد الانتصار في ست عشرة دقيقة» . ومكث العرب يوماً إضافياً في أبو زرايبات في وادى حمض للاحتفال ؛ وكان هذا هو سبب التأخير وليس نقص المياه .

وقد أنهى أسر أشرف في ١٣ يناير ، وأنباء خطط مسيرة الوجه ، خطط فخرى

باشا بالنسبة لرابع . واستمر رجال جماعة حرب يناوشون جنوده فى وادى صفراء لحسابهم لا لحساب الهاشميين . فقد كانت خطوط إمداداته تمتد بشكل خطير فى مناطق معادية . وكان للبريطانيين تفوق جوى فى رابع ؛ وكانت طائرات روس قد حلقت فوق المدينة نفسها مرات عدة ، أما الأتراك ، فقد أضعفهم عدو أشد فتكاً وهو ميكروب الكوليرا الذى كان يقضى على ٢٥ جندياً يومياً . وفى ١٨ يناير ، أى بعد أسر أشرف بخمسة أيام ، أمر فخرى باشا جنوده بالانسحاب إلى المدينة وإلى السكك الحديدية . وتبخر التهديد لرابع ؛ ولم يتحرك الأتراك مرة أخرى خارج المدينة طوال الحرب .

الفصل الرابع عشر

لا أعتقد أن رجالاً إنجليزياً قد

احتل هذه المكانة من قبل

وادي عيس ووادي حمض

مارس وأبريل ١٩١٧

14

قبيل غروب الشمس

بساعة أبصرنا محطة أبي

النعام. كانت الأكمات وشجيرات

النخيل تلقى بظلالها، كعلامات

تعجب، عبر الألواح الخشبية الصلبة

على أرض الوادي. ومن بعد، إذا لها

الإنسان من بين صفوف الأشجار

الشائكة، كانت أبنية المحطة تبدو

كمجموعة هندسية متناسقة داكنة،

وسط أشكال

طبيعية متجزئة

كانت ضئيلة في مواجهة جوانب الجبل الجرانيتية الوامضة التي كانت تشمخ خلفها. كان هذا هو وادي حمض، حدود بلدة جهينة وبيلي. وكان سائقى مفلح ينظر إليها كأرض غريبة. حاولت أن أجد جملأً أحج به إلى الأماكن التي بدأ منها لورانس هجومه على خط سكك حديد الحجاز بأسلوبه البطيء المتروى الذي ناسبها. إلا أنه لا يوجد إبل تُمتطى في المملكة العربية السعودية اليوم واضطرت آسفاً أن أستأجر سيارة من نوع Land Cruiser في المدينة المنورة. وقضينا طوال فترة ما بعد الظهر نقف في أثر خط السكة الحديدية. فقد تم إزالة القضبان والعوارض منذ زمن بعيد، وكان بالإمكان التعرف عليها بمشقة في بعض الأماكن عن طريق الجسور، التي هي عبارة عن أرفف منخفضة تمر خلالها الرمال والصخور الصلصالية. وقد أقيمت الخطات على مسافة ثلاثة عشر ميلاً بين كل منها. وفي عام ١٩١٧، كان من عادة الأتراك أن تمر دورياتهم يومياً، بشكل آلى لا يتغير مما مكن مجموعات لورانس الاستطلاعية من التنبؤ بتحركاتها. فقد كانت الدورية

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

تقطع نصف المسافة تحديداً من إحدى المحطات إلى المحطة التالية. وهناك يلتقى أفرادها بجيرانهم ويتحدثون ويتبادلون السجائر ثم تعود كل دورية متبعة الخط الحديدي. كان هناك ست محطات بين المدينة المنورة و«أبو النعام»، استدعت كلها صوراً من قصة «المحيط» حيث أجبر على وفيصل على التراجع، وهاجمهما فخرى باشا من الخلف في يونيو عام ١٩١٦، في حفيرة وبواط اللتين خطط فيصل للهجوم عليهما بقوة من رجاله؛ البوير حيث مازالت تترقد في فناء المحطة نصف قاطرة كاملة وقد علاها الصدا وغطيت بالكتابة المحفورة؛ واسطبل عنتر حيث عبر عبد الله الخط وهو في طريقه إلى وادي عيس.

وكانت اسطبل عنتر تقع تحت جبل ذي قمم مزدوجة، اعتقد العرب في موروثة أنهم أن البطل شبه الأسطوري عنتر بن شداد قد ربط حصانه الضخم بها. بيد أن «أبو النعام» كانت أكثر المناطق التي استحوذت على اهتمامي لأنها كانت المكان الذي اشتبك فيه لورانس لأول مرة مع الأتراك، وتلمس بأصابعه قضبان السكك الحديدية المثيرة. وكان مدخل وادي عيس ظاهراً للعيان من جهة الغرب،

وكذلك أول قمتين لجبل الظلة حيث ثبت الشريف شاكِر مدفعيته لقصف الخطة من على بعد ألفى ياردة. وتوحي حمض وسور وادى بحس كغابات إفريقية - كان هناك، فى زمن لورانس الفهود والضباع والوعول، ويدل اسم النعام على وجود تلك الطيور هناك فى الماضى. أما مفلح، فكان يعتقد بأنه مازالت هناك ضباع ووعول، وربما فهود أيضاً، رغم أنه لا يعرف أن أحداً شاهدها فى السنوات الأخيرة. وحتى كبار السن الذين تحدثت معهم لم يشهد أى منهم نعاماً. وسرنا ببقعة نمت فيها ثمار الحنظل الصغيرة المستديرة ذات اللون الأخضر المائل للصفرة. وترقف مفلح ليجمع بعضها قائلًا إنهم يستخلصون منها ترياق لمرض السكر. وهذه الثمار سامة لمن يأكلها من البشر، إلا أن الحمير تطعم بها بعد سلقها. وكان البدو يستخرجون القطران من بذورها ليطلوها به قرب الماء. وهذه الثمار، مثلها مثل بدو الصحراء، متكيفة تماماً مع البيئة القاحلة. فحينما تجففها الشمس إلى أن تصبح مجرد قشور تذروها الرياح فى الصحراء نائرة حبوبها فى كافة الأنحاء.

كانت «أبو النعام» منشأة على نموذج المخطات الأخرى التى شاهدها. فكانت تتكون من مباني ثلاثة رئيسية: حصن صلد، والمخطة نفسها، وبرج مياه بيشاوى الشكل، وليس دائرياً كما وصفه لورانس. وإلى الناحية الغربية كان هناك مسجد صغير ومبنى للبريد. كانت المباني مشيدة من قوالب البازلت الأسود، وكان من الواضح أن الدور العلوى للحصن وجزء من برج المياه قد أعيد بناؤه بعد القصف العربى. وتفحصت أنا ومفلح الحصن الذى كان صلب التشييد، وكانت غرفه تفتح عن حوش مركزي مدفون تحت طبقات من فضلات الطيور. وكان ثمة سلم من الصلب يؤدي إلى خزان مياه تحت الأرض، ودرجات سلم تقود إلى الأدوار العليا التى كان بها ممرات وجدران ذات فتحات لإطلاق النيران. ونظرت بالمنظار المعظم على امتداد الوادى باتجاه بروزات الصخور المتكسرة التى كانت تحرس مدخل وادى عيس. كان الوادى مليئاً بالسعدى (rimth) التى تنمو فى مجموعات ذهبية كالجُزُر، وكانت هناك مجموعة من الإبل ترعى على أوراق الشجيرات فى سلام. وتعجبت: ماذا رأى قائد الحصن، وكيف كان شعوره لدى سماعه أصوات بنادق الشريف شاكِر المرعبة صباح يوم ٣٠ مارس عام ١٩١٧ قبل أن يدك المبنى عليه؟ كان هناك وقتذاك مالا يقل عن ٤٠٠٠ رجل يدافعون عن المخطة، وكانوا يبيتون فى

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجالاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

خيام نصبت حولها . وكان المكان محاطاً بالأسلاك الشائكة . كان الأتراك يعلمون بوجود دوريات عربية في المنطقة ويتوقعون هجوماً وذلك لأن رجال لورانس كانوا قد أطلقوا القذائف على الحصن ليتأكدوا أن القوات ستبقى بالداخل . وأراني مفلح ، فيما بعد ، الهيكل الحديدي المتلوى لأحد عربات القطار في مواجهة الباب ، مع عربات النقل ذات الارتفاع المنخفض التي كانت نصف مدفونة في الرمال . كان المعدن ساخناً لدرجة لا يمكن معها لمسه . ومن المحتمل أن كان هذا من بقايا هجمة لورانس لأن إحدى قذائف شاكرا كانت قد أصابت العربة الأولى من ست عربات ملحقمة بالقاطرة التي كانت متوقفة على ألواح الجدران الخارجية وفجرت حمولتها الشديدة الاشتعال محدثة توهجات نارية . أما القاطرة ، فقد سارت مباشرة جنوباً إلى المكان الذي زرع فيه لورانس لغمه الأول .

وكانت الوجه قد اتخذت قاعدة يمكن للعرب منها قطع خط سكك حديد الحجاز ، إذ إن هدف فيصل النهائي كان الخنق البطئ للمدينة المنورة ثم الاستيلاء عليها . وبمعنى ما ، فقد كانت مسيرته للانقضاض على الوجه لمجاًحاً ساحقاً . فقد جندت قبائل البدو في مناطق شمال الحجاز وما بعدها وأتى بهم مسرعين تحت ألوية الهاشميين ، واستقبل فيصل ، في شهر فبراير فقط وفوداً من آل شرارة والحويطات وبنوعطية وقبائل رواله من سوريا وأحراشها ، ومن قبائل أولاد على وبيلي من الحجاز . كان هدف فيصل هو صهر القبائل وتشكيلها في أمة عربية ، وكانت مهمته الأولى هي إنهاء النزاعات الشارية التي مزقتهم لأجيال . وكان ينصت بصبر وروية إلى كل ذي مطلب ويفحص تاريخ ادعاء كل مظلمة ، ويوازن المطالب المتنافسة للدية حينما تكون موضع قبول ، وحين لا يتم قبولها ، كان يستدعي مبدأ التضامن العربي باسم والده حسين ملك الحجاز . كان مؤيدو الوحدة يقسمون على القرآن الكريم في حضور فيصل شخصياً أن ينتظروا طالما انتظر ، ويسيروا حين يسير ، وألا يطيعوا تركياً ، وأن يعاملوا من تحدث بالعربية برفق وأن يضعوا الاستقلال فوق الحياة والأسرة والمتاع . وكان البدو يقسمون ، إلا أن اعتقادهم أنهم أمة واحدة يظل موضع شك . فقد كانوا يكرهون الأتراك ويودون لو غادروا تخومهم ، وكانوا على استعداد لاتباع الهاشميين من أجل تحقيق هذا الهدف . بيد أنهم كانوا يعتبرون استقلالهم أكثر قيمة من الذهب ، وحين كانت

أفكارهم تشرد خارج مناطقهم، فإنهم كانوا يفعلون هذا من أجل الكسب أو الغزو؛ فقد ظلت أمتهم دوماً هي القبيلة والقبيلة والقبيلة.

ولاحظ لورانس أن الجهنيين كانوا قد بدأوا في العودة إلى منازلهم في وادي ينبع بعد أن شعروا بأنهم أغراب في منطقة البيلي. ومن المفارقات أن رجال العقيل، الذين لم يكونوا قبليين أو بدوا رحلاً، هم فقط من كانوا على استعداد للسفر لمسافات أبعد كثيراً من تخومهم. وكان للعقيليين مشاكلهم الخاصة. فقد قاموا بأعمال عصيان ضد قائدهم عبد الله بن دخيل يوم ١٢ فبراير، ونهبوا خيمته وقاموا بجلد حراسه، ثم اندفعوا إلى معسكر العتيبيين الذين كان لهم معهم ثأر. إلا أن فيصل نفسه أثناهم عما اعتزموه، وفي هذه الأثناء، كان يخطو بينهم وهو حافي القدمين ويضرب بسطح سيفه. إلا أن السلام لم يعد إلا بعد أن قتل رجلان وجرح ثلاثون. وكانت مهمة لورانس مع فيصل قد انتهت بعد وصول نيو كومب إلى الميدان ليحل محله. إلا أن فيصل ولورانس كانا قد تعلق أحدهما بالآخر ولم يكن أحدهما يود أن يفارقه الآخر في خضم المعركة. ورأى فيصل أن مكانه هو المستشار الرسمي والحرك غير الرسمي للثورة العربية. وفي اليوم الذي رحل فيه إلى الوجه كانت قد وصلت كليتون برقية من جدة تحوى طلب فيصل الشخصي بأن يستمر لورانس معه لأنه «ذو نفع كبير». ولم يكن أمام كليتون سوى القبول. وفي أول مارس، كتب إلى هيوبيرسون - الذي كان قد حل محل ويلسون بشكل مؤقت في جدة - «إن وجود لورانس مع فيصل له قيمة لا تقدر، ولو وجد شخص مماثل ليحتل مكاناً إلى جانب على، فإن هذا سيزيد بشكل عظيم احتمال التعاون بين الجنسين». وكان من الحتمي، ولدى لورانس ما لديه من مقدرة على التماهي مع الآخرين، أن يتوحد مع العرب في الثورة العربية. فقد شعر أن لجام القوة كان بين يديه. ونسى تحفظاته المبكرة على مكانه في الميدان. وانهمك في عمله لدرجة أنه استبعد كل ما عداه. والآن، وهو يرتدى الزي العربي ويتحدث العربية باستمرار، فقد تلبس الشخصية العربية ونسى كونه كاتباً في الجيش البريطاني واعتبر نفسه فرداً في عائلة فيصل. فقد انتقى فيصل كزعيم رمزي للثورة، وكان هو وحده من سيقوده. كان يعلم أن فيصل شخص يسهل التأثير عليه، ومن ثم، اعتزم أن يكون مستشاره طالما استطاع ذلك. وكتب إلى عائلته يقول «إن موقعي شاذ. ولا أعتقد

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

أنه قد كان لأى رجل إنجليزى قبلى مثل هذا المكان». وكان فيصل يعتمد على لورانس لعلمه أن لهذا الرجل الإنجليزى خاصية لا غنى عنها للقائد الحق إنه كان يوحى بالثقة. ولم يكن باستطاعة لورانس أن يحدث أثراً عظيماً بسحر شخصيته فقط، بل كان أيضاً بوسعه بعث الطمأنينة فى الآخرين بأن كل شيء سيسير نحو الأفضل. وكما قال السير هربرت بيكر فيما بعد «كان يبدو وكأنه يشع أثراً مغناطيسياً». هذا، رغم أن سلوكه الواثق كان فى حقيقة الأمر ستاراً لعدم ثقته الداخلى، وشكوكه التى تسببت له فى اضطراب عظيم. فقد كان مثل والدته سارا، يبدى للعالم وجهاً مختلف. إلا أنه كان يمارس تأثيره بحصافة. فلم يحاول إملاء أية استراتيجيات على فيصل، ولم يكشف فى المجالس العربية عن آرائه. ولم يكن يأمر باتخاذ طريق ما، بل كان يوحى به. وعلق لينارد وولى على هذا قائلاً: «... كان يأتى باقتراحات ذكية، إلا أنه كان نادراً ما يجادل لدعمها. فقد كان يقيمها على أسس سليمة بدرجة كافية وكان يتوقع أن يدرك المرء هذا بنفسه. فإذا لم تحظ بالموافقة يركن إلى الصمت وهو يبتسم». وكشف لورانس عن أسلوبه مع فيصل فى المواد السبع والعشرين التى كتبها للضباط كى يتبعوها مع الهاشميين: فقد كان يحاول أن يتأكد أن الشريف قد وضع خططه السرية أمامه؛ وكان دائماً يقبلها ويمتدحها ثم يقوم بعد ذلك بتعديلها بأن يستخلص المقترحات من فيصل نفسه بحيث تتوافق مع آرائه. وبعد أن يتفقا، كان يلتزم بها بحزم، ويدفعه إلى أن يلتزم هو بها بلباقة بحيث لا يشعر الشريف بهذا. وكان يظهر احترامه للشريف أمام الآخرين ويقوى من مكانة فيصل على حساب مكانته هو. وحينما يكون فى معسكر الشريف، كان لا يقوم بزيارته بصفته الرسمية، بل يظل فى معيته باستمرار، يأكل معه، ويحضر جميع المقابلات، ويقترح الأفكار فى الحديث العابر بشكل يبدو عشوائياً. إلا أنه كان يختفى حينما يحضر مشايخ القبائل لمبايعة الهاشميين لعلمه أن الأثر المبدئى لوجود أجناب ثقة مطلعين على أسرار فيصل سيكون ضاراً بالقضية. استحضر لورانس قدراته الهائلة على التركيز ليؤثر بها على شئون الشريف؛ وغمر نفسه كلية فى الثقافة العربية: فكان يراقب وينصت ويقلّب الأمور ويفكر ملياً فى التفاصيل وينقب عن الدوافع والمكائد المتخفية تحت السطح ويحلل الشخصيات التى عليه التعامل معها. كان دائماً يتوخى الحذر ولا

يقول ما لا يلزم قوله أبداً، ويراقب نفسه وأفعاله باستمرار. وقد تذكر بيرس جويس، الذى كثيراً ما شاهده فى اجتماعات مع العرب، أنه نادراً ما كان يتحدث: «فقد اقتصر على دراسة الرجال من حوله، وكان يعرف مسبقاً أنه سيتم قبول خطته، وكان يرى أنه من الأفضل أن تترك مهمة إشعال حماس رجال القبائل للقادة العرب.. ولا يعود نجاحه دائماً لقيادته الفردية لجموع البدو.. لكن إلى الاختيار الحكيم للقادة.. وإلى إمداد الطاحونة بمواد الطحين الأساسية على هيئة جوائز ذهبية للإنجازات الحسنة».

وكان لورانس يدرك أن المسيرة إلى الوجه كانت نصراً معنوياً عظيماً لقضية الهاشميين؛ أما بالنسبة للضباط البريطانيين المحترفين الذين لم يعرفوا القدر الكافى عن الحرب الدعائية، فاعتقدوا أن المسيرة دليلاً على عدم كفاءة العرب، وأن البحرية الملكية هى التى ألمحزت النجاحات الكبيرة. وأدرك لورانس حاجته إلى تحقيق نصر مستقل كى يثبت جدارة الحركة فى أعين القادة البريطانيين، وجدارته شخصياً أيضاً، إذ كان يعلم رأى الضباط من أمثال براى وفيكري فى فشل فيصل فى الوفاء باللقاء فى مدينة الوجه، وفى دوره هو فى هذا الفشل.

وكان العرب بحاجة إلى الإتيان بشيء مذهل لكسب احترام البريطانيين. وبدا الأمر وكأن الفرصة تقدم نفسها. ففي ١٠ مارس رست السفينة «نور البحر» فى الوجه ومعها الأنباء التى هزتهم هزاً بصدور الأوامر لفخري بك بالجلء بقواته عن المدينة المنورة. وكان الانسحاب من هناك فى هذا الوقت نصراً كبيراً للعرب وكارثة للبريطانيين. فقد كانت قوات مرى قد عبرت سيناء، وكان حينذاك يعد لهجمة ضخمة ضد الدفاعات التركية فى فلسطين، تبدأ من غزة على الشاطئ وحتى بئر سبع فى الداخل. ومن ثم، كان الوصول المفاجئ لحامية المدينة التركية المنسحبة المؤلفة من ١٢٠٠٠ جندي ومعهم مدفعيتهم الكاملة إلى جناحه الأيمن أمراً غير مرغوب فيه على الإطلاق. وفى خطاب منه إلى لورانس أكد كليتون على وجوب الهجوم على قوات فخري باشا وتدميرها قبل أن تصل إلى فلسطين، وأنه لا يجوز، تحت أية ظروف، أن يُسمح لها بالوصول إلى هناك. وكان نيكومب وجارلانند مازالاً يشنان غاراتهما التدميرية فى شمال البلاد. ولم يجد لورانس من خيار له،

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

بصفته الضباط الأعلى رتبة في الوجه، سوى تحمل مسئولية الموقف. وكانت مهمته الأولى تتطلب كل ديبلوماسيته وتستدعي كل صلات الثقة التي أسسها مع فيصل. فبين لفيصل وجوب التضحية بالأولويات العربية من أجل الأولويات البريطانية. وكان فيصل، وقد كشف لورانس له مؤخراً شروط اتفاقية سايكس/بيكو، يتطلع للتقدم نحو سوريا كي يقوى من مركز العرب هناك قبل أن يطالب بها الفرنسيون. وكان إقناعه فيصل بالقبول بالمتطلبات البريطانية في مدة لا تربو على ساعات قليلة شاهداً عظيماً على قوة الإقناع التي كان لورانس يتمتع بها. وبمجرد أن انتهى من هذا، جلس الاثنان يحددان كيفية توزيع قواتهما. ثم بعث، على وجه السرعة، بمراسلين إلى أخويه عليّ وعبد الله ليخبرهما بالموقف الجديد. فكان عليّ أخيه على التحرك إلى الشمال الشرقي مع الجهنيين وبنى سالم، وأيضاً كان يجب إرسال الديناميت إلى عبد الله مع تعليمات بتفجير خط السكك الحديدية في كل النقاط مهما كانت الظروف. وكان عليّ مولود المخلص وراسم ساردست التوجه إلى فقير مع فرقة المشاة على بغالهم، وبرفقتهم مدفع جبلي. ويتوجه الشريف علي بن حسين من قبيلة بني حارث، أو «اللورد الصغير» الذي كان لورانس قد التقى به في الحمراء في أكتوبر السابق، إلى جباله لمشاكسة القوات التركية هناك. وأيضاً، كان عليّ فرق من آل بيلي وأولاد محمد أن يصطحبوا البنادق الآلية ويهددوا محطة العلا. وكان هدف هذه الخطة التي ارتُجلت عفو اللحظة هو احتواء الأتراك جنوب هذا الخط لأنهم تمكنوا من تخطي خط العلا وأصبحوا في حماية الحامية العثمانية في تبوك. وكانت محطة الحديد هي إحدى المحطات الهامة في طريق انسحابهم، إذ إنها المصدر المائي الوحيد لمسافة مائتي ميل. ومن ثم، عيّنها لورانس هدفاً شخصياً له. وكان قد تحدث عن إمكانية زيارته لعبد الله في وادي عيس حتى قبل أن يصل إلى الوجه. والآن، اتخذ قراره بالسفر إلى معسكر عبد الله ليشرح له الاستراتيجية الجديدة، ويلقي نظرة على الخط الحديدى، ويزرع الديناميت في أحد القطارات، وإن أمكن، يستولى على إحدى المحطات. وفي نفس الليلة، رحل إلى الوادي في معية مرافق.

كانت هذه أولى عمليات لورانس الكبيرة في الميدان. وكما كان يصر، فلم يكن ضابط ميدان مدرباً بل مسؤولاً سياسياً مكانه المناسب إلى جانب فيصل.

وكان كل من جارانلاند ونيوكومب، زارعا الألغام المدريان، قد سبقاه إلى شن هجمات على الطريق الحديدي. إلا أن هذه كانت حالة طارئة وشعر لورانس أن قوة عبد الله الجالسة في وادي عيس لم تفعل سوى القليل طوال الأشهر الماضية لتبرر وجودها هناك. فكان عليه أن يدفع عبد الله إلى فعل شيء كما نجح مع فيصل، وسيتولى هو تحطيم النقطة الرئيسية على خط السكة الحديد بنفسه. ولا بد أنه بدا للورانس، وهو في طريقه مع مرافقيه، أن عبء حملة الشرق الأوسط برمته كان ملقى على كتفيه. إلا أن ذعره القديم من الإصابة الجسدية انتابه بمجرد أن سار في طريقه. فقد ترك المرض علامته مع كل لحظات الضغوط العميقة في حياته: فرحلاته في سوريا انتهت بالمalaria والدوسنتاريا، وفي اللحظة الحاسمة أثناء مهمته في الكوت عام ١٩١٦، أرقدته الحمى. وكانت malaria حقيقية، إلا أنها كانت تعاوده على فترات لدى انهيار دفاعاته النفسية. فقد كان خروجه إلى وادي عيس مسئولية رهيبية. وظهرت عليه الأعراض الجسمانية لمسئوليته عن ضرورة الأداء الصحيح تجاه العرب وتجاه رؤسائه البريطانيين، وللحتمالات التي قد ترافق وجوده على أرض يربض عليها الذئب التركي. وفي الليلة الثانية من رحلته، عندما عسكر وفريقه عند عين «أبو الزريبات»، حيث كان فيصل قد تباطأ أثناء مسيرته إلى الوجه، أصيب لورانس بالحمى والدوسنتاريا والطفح الجلدي. وفي اليوم التالي الموافق ١٢ مارس رحل الفريق مبكراً، وقضى رفاق لورانس، وهم مراكشي يدعى حامد، وطاه سوري، وبعض العقيليين والرفاعيين، ومراوى وعتيبي، وهم يقضون يومهم في جبال مستمر. وكانت الرحلة صعبة ولورانس يتألم. وبعد استراحة قصيرة في منتصف الصباح، تسلقوا مجرى مياه ضيق باتجاه الصخور، وكانت كتلاً شاسعة محززة من الصخور البركانية المتشققة، حيث أجبروا على التمرجل وسحب جمالهم على درجات صخرية وحواف جبلية حادة كأنصال السكاكين. ثم هبطوا إلى واد مفتوح ومنه إلى آخر وآخر حتى ضلوا طريقهم في منطقة جلاميد البازلت الأسود التي تعرف بالحراء، حيث تعثرت الجمال وزلقت أرجلها. ثم سطعت الشمس حارقة وأصيب لورانس بالإغماء مرتين أثناء النهار، ولم يكن أمامه سوى أن يظل على سرج الجمل. وفي وقت العصر، كان عليهم الهبوط مرتين على منحدرات حادة مما زاد من إعيائه. وأخيراً، توقفوا في الساعة الرابعة وخمس

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

وأربعين دقيقة لقضاء ليلتهم في مجرى مائى يدعى وادى خيطان حيث قام لورانس بفك حزام خرجه وألقى بنفسه في ظل بعض الصخور وكان منهكاً ومصاباً بصداح وحمى. أما ما حدث بعد هذا فيمثل إحدى الفجوات الغامضة التى هى من ملامح حياة لورانس حيث يبدو الأمر وكأننا ننتقل من عالم الوقائع الصلدة أى الأزمنة والمسافات والأرقام والتواريخ التى تملأ مفكرته، إلى عالم تحت أرضى من الكوابيس والأشباح.

فطبقاً لما رواه لورانس فى «أعمدة الحكمة السبعة»، فقد قطع عليه أحلامه صوت إطلاق الرصاص عن قرب، إلا أن هذا لم يقلقه لأنه تخيل أن أحد البدو كان يصطاد أرنباً برياً للعشاء. إلا أن الأمر لم يكن هكذا. فسرعان ما أيقظه سليمان العتيبي وقاده إلى أخدود آخر ليريه جثة عقيلي يدعى «سالم» قتل بعبار أحدث جرحاً مفتوحاً فى جبهته. ورأى لورانس بوضوح أن الجلد كان محترقاً فى الأطراف مما يوحي بإطلاق النار عن قرب. وعلى الفور، شك فى سليمان متذكراً الثأر بين آل عتيبة وآل عقيل، إلا أن على، وهو عقيلي كبير السن، أكد له أن القاتل هو خادم لورانس نفسه، أى حامد المراكشى. وأرسل لورانس رجاله ليبحثوا عن حامد ثم زحف تحت أغطيته حيث سرعان ما سمع حفيفاً. وفتح عينيه ليرى المراكشى يرفع أحزمة خرج جمل قريب، وكان من الواضح أنه ينوى تحميل ناقته ليزحل. إلا أن لورانس سحب مسدسه وأوقفه وتدافع العرب الباقون وعقدوا مجلس قضاء على الفور، واعترف حامد أنه وسالم تجادلا وأنه فقد أعصابه فقتله من مدى قريب. وطلب على والعقيليون تطبيق مبدأ العين بالعين، وكان لورانس يعرف أن هذا هو قانون الصحراء القديم، كما أنه كان على أية حال مضطرباً لدرجة أنه لم يستطع التدخل طلباً للرأفة. فوافق على أن اغتيال سالم كان جريمة لا تغتفر. وكان من الواضح أن حامد لا بد وأن يقتل. ولكن من سينفذ حكم الإعدام؟ فإن قتله على يد أحد من العقيلين سيبدأ دورة ثأر بينهم وبين المغاربة، وكان يوجد الكثيرون منهم فى جيش فيصل. وكان لورانس فقط هو من فى موقع قاضى العدل الذى كان بإمكانه تنفيذ الحكم فى الشخص المدان دون إحداث ضرر. ومن ثم، أمر بالحكم عليه بالدخول فى أخدود كان قد ضاق حتى أصبح شقاً عرضه بضع بوصات. وترك له مهلة قصيرة لمراجعة نفسه. وتكرر حامد باكيا على الأرض فأمره لورانس

بالوقوف وأطلق عليه الرصاص بيد مرتعشة. وارتمى المغربى أرضاً وهو يسعل دماً فأطلق عليه لورانس الرصاص مرة أخرى إلا أنه أصابه فى رسغه فقط وأحدث به جرحاً بسيطاً. ورقد حامداً على الرمال وهو يصرخ، فاقترب منه لورانس ووضع فوهة مسدسه عند فكه وأطلق عليه الرصاص مرة أخرى فارتعش جسده ارتعاشة خفيفة. ونادى لورانس على العقيلي ليتولى دفنه وترنح هو إلى حيث كان متاعه وتهوى على مرقده. أما ما سجله فى مذكراته يوم ١٢ مارس فيتكون من خريطة تخطيطية لوادى خيطان وعليها سهم يشير إلى موضع أطلق عليه «شق الموت» وكتب بخط عنكبوتى «نمت هنا؛ ليلة رهيبة، أطلقت النار».

والآن، لأن يقتل الفرد فى خضم المعركة، فهذا أمر، أما أن يطلق الإنسان النار من مسافة قريبة إرادياً على رجل ميت عاجز، فلا بد وأن يكون هذا محنة لا يحتملها سوى القلائل، خاصة إن كان من أطلق الرصاص فرداً يرتعد من الحمى. ولم يكن لورانس جندياً خشناً؛ بل لم يكن فى الواقع قد قاتل فى أية معركة. وبعد ذلك بعامين وفى نهاية الحرب، كتب إليك كبير كبرايد بعد أن شاهد ما شاهده لورانس من أعمال القتل أنه «بدا مصدوماً بحق لما رآه من استعمالى غير المحدود لمسدسى. فقد كنت أحياناً، حينما يصبح الشخص كريهاً، أصوب إليه المسدس وأقتله فيصيح لورانس قائلاً «أوقف هذا المزاج الدموى بحق السماء». ولا يبدو أن مثل هذا الشخص يشبه من وجد أنه من السهل عليه وضع فوهة المسدس تحت ذقن الرجل وأن يطلق الرصاص عليه متعمداً.

والمدخل الذى تحتويه مذكراته عن هذه الفترة يوحى أنه قد تم إطلاق الرصاص على شخص ما فى تلك الليلة. إلا أن المدخل شبه مشفر بطريقة لافتة. كما أنه لا توجد أيضاً أية إشارة عن الحادث فى تقارير لورانس. وأيضاً فهو لا يشير إليها لاحقاً أبداً. رغم أن الإنسان يتصور أن حادثاً كهذا كان لابد وأن يترك أثره الذى لا يمحو. ويدعى لورانس فى رسالة كتبها فيما بعد أنه غادر الوجه ومعه «أربعة من آل عقيل وأربعة من رفاعه»: وإذا افترضنا أنه قد أهمل ذكر خادمه السورى، والمراكشى، يظل سليمان العتيبي غامضاً لا يأتى ذكره فى أية مذكرات أو رسائل، ولا يظهر إلا فى «أعمدة الحكمة السبعة». ونقرأ أيضاً فى مدخل مذكراته الميدانية عن يوم ١٣ مارس الآتى: «معنا ١٢ جملًا ورجلاً، سورى، وزلفى، ورصى،

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

وعنيزى، ومراوى، ورفاعى». وكان هناك اسم آخر تم تسويده بشدة. ورغم أن مجموع هؤلاء ليس اثني عشر، فإن لورانس يكتب بتحديد أكثر في رسالته اللاهقة المطبوعة على الآلة. فلا يوجد ذكر للرجال الإثني عشر. وفي مدخل يوم ١٣ مارس، أى اليوم التالي لما ادعاه من إطلاق النار، كتب «معى سورى، ومغربى، ومراوى، ورفاعى وثلاثة رجال من عنيزة والرص والزلفى (عقيل) بالترتيب».

والتناقض الوحيد هنا إذن أن المراكشى - أو حامد كما يفترض - والذي تطلب شطب اسمه من القائمة، ومن اليوميات المكتوبة بخط اليد من قبل، يظهر لاحقاً في الوثيقة الرسمية المطبوعة على الآلة. فهل من المحتمل أن يشطب الفرد بشدة على الاسم في مذكراته الخاصة - نتيجة للندم كما يفترض - ثم يضمه التقرير الرسمى؟ والتفسير الواضح أن الاسم قد تم شطبه بعد نشر الرسالة الرسمية - مما يوحي أن حامد كان حياً يرزق فى ١٣ مارس، أى بعد يوم من إطلاق لورانس الرصاص عليه، كما أننا إذا قرأنا الوصف الذى جاء فى «أعمدة الحكمة السبعة» قراءة متأنية نكتشف أن الأمر لا يبدو حقيقياً. فإن لورانس يصف العقيلي لدى وصوله لبرى الجثة بأنه كان «يجرى على غير هدى كاجنون»، ثم يضيف أنه أرسل الرجال فيما بعد للبحث عن حامد. وكان العقيلي والرفاعى قد قضيا حياتهما فى الصحراء، يقتفیان أثر الغزاة الأعداء والجمال الضالة. ورد فعلهما الطبيعى فى هذه الأحوال هو اقتفاء أثر القاتل بطريقة منهجية وفى رواية «أعمدة الحكمة السبعة» يقرر لورانس أنهم توقفوا فى وادى خيطان بعد غروب الشمس، الأمر الذى يشير إلى أن المغامرة كلها حدثت فى الظلام. ولا يبين، والأمر كذلك، كيف تأتى له أن يتبين بوضوح كاف الجلد المحترق من أثر الطلقات. إلا أنه يذكر فى التقرير تحديداً أن مجموعته قد توقفت فى الساعة الرابعة والنصف، أى قبل غروب الشمس بساعتين، مما يوضح حدوث القتل أثناء النهار الأمر الذى تكون معه آثار القاتل واضحة. وقد يقال إن طبيعة وادى خيطان الصخرية هى من أسباب عدم وضوح الأثر. إلا أن المعسكر لا بد وأنه أقيم حيث توجد رقع رملية، إذ كيف يتأنى لبدوى يحترم نفسه أن يربط إبله على الصخور حيث تكون عرضة لجرح أركابها؟ هذا بالإضافة إلى أن لورانس يذكر الأخدود الرملى الذى أطلق فيه الرصاص على الرجل. وأخيراً، فثمة نموذج مألوف لهذه القصة، فهى تتشابه بشكل يشير حب

الاستطلاع مع رواية محاولة قتله في تل بشار بسوريا عام ١٩٠٩. ففي كلتا الحالتين. تفشل أحلام لورانس الهرقلية بسبب مرضه وضعفه الجسدي؛ وهو يقدم في كلتا الحالتين حالة حرجة (الإصابة) لتبرير فشله. فهل لرد فعل لورانس المبدئي لحادثة القتل، أى قوله «شعوري بأن هذا ما كان له أن يحدث اليوم من دون الأيام جميعها وأنا أعانى الألم» أهمية خاصة؟ وهل أطلق لورانس الرصاص فعلاً على حامد المراكشي؟ هل قام أحد غيره بإطلاق الرصاص؟ أم هل كان حامد مازال حياً يوم ١٣ مارس؟ ربما كان حامد قد قتل ليلة ١٢ مارس. بيد أننا إذا أخذنا في الاعتبار شخصية لورانس، وأيضاً حقيقة أنه لم يشير إلى الحادث المزعوم بعد ذلك أبداً، فإنه من غير المحتمل أن يكون هو شخصياً قد أطلق الرصاص على الرجل بنفسه.

وفى الثالثة صباحاً انطلق الجميع. وكان لورانس مريضاً لدرجة حتمت على الرجال رفعه إلى ظهر ناقته. وبعد يومين أو أكثر من الخوض في متاهات الحشالة والخرات التي كانت تحيط بوادي عيس، أناخ لورانس ورجاله إبلهم عند عين ماء أبو مرخاء، حيث كان عبد الله على وشك إقامة معسكره وسط تشوش زعيق رجال القبائل وصهيل دواب النقل. ووجد لورانس في نفسه القوة الكافية لأن يحيى عبد الله ويسلمه تعليمات فيصل. ثم أفل راجعاً وانتظر أن تنصب خيمته وألقى بنفسه على الفراش. ولم يبرح الخيمة لمدة ثمانية أيام.

نحن الآن في الخامس عشر من شهر مارس. وكان فيصل ولورانس قد خططا لوجود القوات العربية في مواقعها خلال عشرة أيام انقضت منها خمسة. وكانت الملايا قد شلت حركة لورانس، بالإضافة إلى إصابته بالدوسنتاريا. وسواء كان هذا يرجع إلى الطبيعة، أو إلى الخوف، أو إلى عبء ألم الضمير الناجم عن قتله رجلاً، فقد وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة القتال وشعر أنه لو نجح فخرى باشا في الوصول إلى تبوك ومنها إلى فلسطين لانقلب ميزان الحرب كله، ولعاد عليه جزء رئيسي من أسباب الفشل. وبينما كان يرقد ساعة بعد ساعة يحملق في سقف خيمته، بدأت كتلة رؤى مشوشة تدور في مخيلته كالدوامة. فكر في طفولته وهو يتوق إلى الشرق، والشعور الذي تملكه وهو في المدرسة أن يحرر العرب، وسلسلة الأحداث المتزامنة التي أتت به إلى سوريا، والنقب، وأخيراً إلى بلاد العرب. فقد كانت كل

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

أحداث حياته تقوده إلى هذه النقطة . فلم يكن أبداً رجل أفعال . إلا أن فكرة واحدة ترسبت في عقله بوضوح بارد مثل قطرة الماء وهي تسقط على سطح عين من الماء ؛ إن هو ، لورانس ، قد أصبح يتحكم في الحملة بالقدر الذي أراه . فقد كان البريطانيون ينظرون إلى الثورة من خلال عينيهِ ، كما تعنى علاقته الوثيقة بفصيل أن العرب أيضاً يرون البريطانيين ، إلى درجة كبيرة ، من منظوره هو . فقد كان هو الخور : إنه هو ، لورانس ملك العرب غير المتزوج . فإنه يتحكم في سريان المعلومات بين العرب والبريطانيين ، وباستطاعته تطويع الأحداث بالطريقة التي يريد لها . وتسارعت هذياناته مخترقة حواجز وعيه بأسلوب لم يخبره من قبل ؛ فتهاوت التحصينات ، وتدافعت قبائله الداخلية مفتحة . وخبر إحساساً عميقاً بالصلة ؛ حساً عميقاً بالمعنى ؛ تحرير الأمة العربية وكسب الحرب للبريطانيين . لقد أوكل إليه تحقيق هذين الهدفين . إن الحاجة اللحظية تسببت في رد فعله الأول تجاه الثورة العربية . بيد أنه قد تم إغفال أشياء كثيرة . فحتى الآن ، كان الجميع ، بمن فيهم هو ، أسرى هاجس الاستيلاء على المدينة . ولكن ما قيمة هذا ؟ وتحركت منظومة من الأفكار تركزت كل منها في موقعها مثل السُّقَطَات ، وجعلته يبتسم وقد شعر بنفاذ بصيرة مثير فجائي . لقد تم كسب الحجاز فعلاً . تم كسبه في يوم مسيرة جيش فيصل إلى الوجه . فمنذ اللحظة التي هدد فيها العرب خط السكك الحديدية لم يكن لدى الأتراك من خيار سوى تبديد قوتهم دفاعاً عنها . فالحامية التركية الآن منغرزة في المدينة تاكل لحوم دواب النقل الخاصة بها وقد شلت مقدراتها على الحركة . فلم يكن العرب بحاجة للاستيلاء على المدينة . كما أن قطع السكك الحديدية كلية سيمنح العدو العذر للسير خارج المدينة . وطالما بقوا في المدينة فهم لا يمثلون تهديداً للعرب أو للجناح البريطاني . وسرعان ما بدأ تفكيره يجرى الحسابات تلقائياً . ما مساحة الجزيرة العربية ؟ ربما ١٤٠,٠٠٠ ميل مربع . كيف يتأتى للأتراك الدفاع عن هذه المساحة الشاسعة ضد سكانها ؟ وطبقاً لحساباته ، كان يلزمهم موقعاً محصناً كل أربعة أميال مربعة تحرسه قوة من ٢٠ رجلاً على الأقل . أى أنه يلزمهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل لكل مساحة الجزيرة . واتضح له أن الدفاع عن جزيرة العرب يفوق مقدرة الأتراك . نعم ، بإمكانهم الدفاع عنها بواسطة خط محصن ومخندق كما هو الحال في دفاعاتهم ضد البريطانيين في فلسطين . إلا أن

هذا يتم فقط لو سار عدوهم في تشكيلات ترفرف الرايات فوق قواته . أما إذا افترضنا أن العرب اقتصروا على كونهم مجرد تأثير ؛ فكرة ، شئ ما غير ملموس لا يمكن المساس به ؛ ليس له واجهة أو ظهر ؛ يتدفق مثل الغاز من مكان إلى آخر . فإنه ليس عليهم الاشتباك المباشر مع الأتراك . فلا يجوز تطبيق فلسفة كلوزفيتز العسكرية القائلة بأن هدف الحرب هو تركيز أكبر قوة عند أقوى نقطة للعدو وتخطيطه بضربات ساحقة . فإن قتل الأتراك رفاهية . إن العرب يستطيعون بواسطة تكوينات صغيرة متحركة ضرب العدو في أضعف نقاطه ، ثم يعمدون إلى الاختفاء في ملاذهم ، أى البرية ، حيث لا يمكن للأتراك اقتفاء أثرهم . وكانت الميزات التى يتمتع بها العرب هى السرعة والمدى والزمن ، لا الأسلحة النارية . فلم يكونوا بحاجة للدخول فى معركة ثابتة ، أو أن يكونوا هدفاً للعدو . فهم ، بعكس الجيوش النظامية ، لا يتحملون إصابات كثيرة إلا أن شن حرب بواسطة أشباح خابية ضد المعدات والتجهيزات التقنية والقضبان والمخاطات والكبارى كفيلة بتحقيق أهدافهم دون أن يتعرضوا لخاطر جسيمة . فقد كانت الصحراء محيطاً يتحرك فيه العرب غير مرئيين ، وأيضاً حاضرين فى كل مكان ، لا يعتمدون فيه على قواعد أو اتصالات أو نقاط ثابتة . فهم ، باستغلالهم الصحراء ، قادرين على إنهاء العدو وتحاشى المعارك الحاسمة وقطع خطوط الاتصالات ، وتوجيه الضربات القوية ثم الانسحاب السريع . وتبين لورانس برؤية واضحة أن الصحراء هى حليفه الأعظم ؛ لقد اكتشف قوة الصحراء .

وبعد ثمانية أيام من الحمى ، بدأ الضباب ينقشع ، وتذكر أنه تم إرساله للحيلولة دون تسيير حامية المدينة المنورة إلى سوريا . وكان قد مر ما يقرب من الأسبوعين على مغادرته الوجه ، إلا أنه لم يكن ثمة تحرك من قبل فخري باشا . وكان فخري باشا قد رفض بشدة ، رغم عدم علم لورانس بذلك ، مغادرة المدينة المنورة التى لم يتم الجلاء عنها إلا بعد انتهاء الحرب . وأراد لورانس أن يستعيد خطته للهجوم على خط السكك الحديدية ، وليس لقطعه كلية ، للحيلولة فقط دون مغادرة الأتراك المدينة . وفى يوم ٢٠ مارس سحب نفسه من فراشه لفترة كافية للحديث مع عبد الله الذى وجدته متراخياً وفى حالة رضاء عن نفسه . وقفزت الكراهية التلقائية للشريف إلى المقدمة . فكتب لورانس إلى ويلسون فيما بعد قائلاً إن الأحوال فى

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

المعسكر غير مرضية، إذ كانت قوة عبد الله البالغ عددها ٣٠٠٠ رجل من قبيلة عتيبة أقل مستوى، كمقاتلين، من الجهنيين وآل حرب. ووجد أن شيوخهم جهلاء ويفتقدون الحماس للحرب. كما استعمل بلاغته ليعلى من شأن «فيصله». ولم يترك وسيلة لم يستعملها لتشويه سمعة عبد الله. فرسم له صورة رجل بدين منغمس في الملذات، يأكل جيداً، ويقرأ الصحف، ويتحدث عن الأسر الملكية الأوروبية، ويدبر «المقالب» القاسية لمضحك بلاطه، ويعتكف معظم وقته داخل خيمته. كما قال إنه لم يكن يمارس أية رقابة على رجاله، فنادرًا ما كان يزور مشايخ القبائل، ولم يكن يسمح، سوى للمقربين، بدخول خيمته. ولم يكن لعبد الله اهتمام بسوريا - التي كانت هاجس لورانس - إلا أنه كان يخطط لضم عسير وإخضاع اليمن. وكان لورانس يقدر حصافته السياسية لدرجة جعلته يعتقد في جدية هذا الاحتمال. بيد أن ملاحظاته عنه، بشكل عام، كانت مريرة وقاسية لدرجة الإيحاء باحتمال شعوره بمنافسة له من عبد الله، الذي كان لا ينحني لإرادته. وفي الواقع، فإن حاجة لورانس لأن يوضح لويلسون أنه «ليس ثمة شيء بينهما» كانت عذرا غير متطلب، أي نفى، غير مطلوب، يبرهن على حقيقة ما. أما عبد الله نفسه، فلم يسعده وصول لورانس. فلم يكن يرغب في وجود أي ضباط أجانب في وادي عيس وذلك لما قد يحدثه حضور مسيحي من أثر سلبي على قبائله. وقد كتب في مذكراته أن أحد مشايخ القبائل قد سأله قائلاً «من هذا القادم الأحمر؟ وماذا يريد؟». على حين أن متعصباً من الوهابيين كان أيضاً قد هاجمه لصداقته مع المسيحيين. وكتب قائلاً إن لورانس كان له «تأثير سلبي على القبائل المتعصبة». وكان الشعور العام ببغض حضوره واضحاً بين القبائل. كما أن الشريف كان يولي الاستيلاء على المدينة اهتماماً خاصاً، واعتقد أن قيام الجيوش العربية الثلاثة: قوات على في رابغ، وفيصل في الوجه، وقواته هو في وادي عيس، بحركة «كماشة» كانت كفيلة بإسقاط المدينة. ولم يوافق على تشتيت القوة العربية بمهاجمة نقاط عديدة على خط القتال. وكان لوجه نظره هذه بعض الصواب؛ فلو أسقط العرب المدينة لكان هذا انتصاراً معنوياً ضخماً، يترك الحرية للجيوش العربية الثلاثة للتحرك داخل سوريا. إلا أن لورانس قد بات مقتنعاً أن العرب لن يستطيعوا إسقاط المدينة، وأن هزيمتهم هناك، من شأنها تدمير القضية العربية إضافة لما سيتكبده من

إصابات وضحايا كثيرين . وقد تعامل عبد الله مع لورانس برفق ، إلا أن موقفه النهائي كان أن الاستراتيجية الهاشمية ليست شأنًا من شئون رجل الإنجليزى ، وأنه لا يجوز له التدخل .

بيد أن لورانس كان أكثر توفيقاً مع نائب عبد الله ، الشريف شاكر ، وكان شخصاً نحيل الجسد ذا ملامح صبيانية يبلغ من العمر السابعة والعشرين . وكان في طفولته رفيقاً للأمرء الهاشميين ونشطت حاسة لورانس الجمالية في رفقة شاكر ، إذ إنه على حين كان يرى أن عبد الله تعوزه الهيبة ، بدا له شاكر «أرستوقراطياً بالمولد» . ومع ذلك ، كان شاكر متوحداً مع البدو ، يدعو نفسه عتيبياً ، ويجمع شعره في ضفائر ، ويزرع القمل في رأسه إرادياً ، لدرجة أنه كان يتمنطق بإزار من الشوك كان يفترض أنه يحد من نمو المعدة . وكان في نظر لورانس «عربياً ، نبيلاً» آخر في قائمته التي تضمنت فيصل وعلى بن حسين الحارثي ، والتي استبعد منها عبد الله لجلالته . رغم أنه كان موهوباً عقلياً ويتمتع باستقلال لدرجة العنف - وقال لورانس إن العتيبيين كانوا يقدسون شاكرًا وكانوا يفضلون تلقى الأوامر منه على تلقيها من رئيسه . إلا أنه كان يقدر فيصل بشكل خاص لجرد أنه كان قابلاً «للإرشاد الملائم» الذي كان باستطاعة لورانس إمداده به ، أما عبد الله العنيد فكان محصناً ضده . وكان لورانس دائماً يتخذ موقفاً أبوياً إزاء العرب كباراً وصغاراً . فقد كان يعلم ما هو الأفضل بالنسبة لهم . وأحب لورانس شاكرًا ، على وجه التحديد ، لأنه وافقه على خطة للهجوم على السكك الحديدية فوراً . كما قدر أيضاً معونة القاضي دخيل الله ، قاضى جهينة . والذي كان قصير القامة قوى البنية في الخامسة والأربعين من العمر سفعته أجواء الصحراء . وكان له مظهر وسلوك «الضفدع الطينى» . وكان دخيل الله قد خدم مع الأتراك في وادى ينبع ، وفي الواقع فقد كان هو من أرشدهم في ليلة ١١ من ديسمبر عام ١٩١٦ حينما أخافتهم التشكيلات غير الأرضية التي صنعتها أضواء البحرية الكاشفة . وكان هو ، وكتعويض عن فعلته هذه ، الذي فجر الكوبرى القريب من محطة أبو النعام قبل ثلاثة أسابيع وكان الفعل الوحيد ، كما ذكر لورانس لرؤسائه ، الذي قامت به قوات عبد الله منذ أن تحركت إلى وادى عيس . وكان لدخيل الله أسبابه الخاصة للحديث مع لورانس : فقد أراد الصلح مع فيصل بعد أن ساعد الأتراك . وقد أفاد لورانس من

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

هذا الموقف إلا أنه بدون دخيل الله ما كان له أن ينظم أى شىء .

ورغم رغبته فى البدء فوراً، فقد أحس أن بدنه مازال واهناً . فقد عاودته الحمى والطفح الجلدى والأورام وألزمته الفراش لليومين التاليين . وفى يوم ٢٢ تمكن من بعث رسالة إلى بيرس جويس، الذى تولى القيادة فى الوجه، يقول فيها إنه يأمل فى أن يتمكن من تشكيل قوته الخاصة سريعاً، وأنه يعتزم الذهاب إلى خط السكك الحديدية اليوم التالى للاستطلاع . وقال إنه سيمكث فى وادى عيس لبعض الوقت كى يتأكد من أن شيئاً ما قد أنجز . وطلب من جويس أن يرجو فيصل ألا يظل فى الوجه، لأن مجرد العلم بأنه يتحرك لمهاجمة خط السكك الحديدية كفيل بإشغال حماس العرب وذعر الأتراك . وكانت لهجة الإصرار فى خطاب لورانس تدل على قدر السطوة التى حققها على حساب القائد العربى : فقد أخبر جويس عن أمله الكبير أن يرى فيصل فى جياة أو عين الشفاء سريعاً . ورغم أنه قرر أن يرحل يوم الأحد ٢٥ مارس، إلا أنه كتب فى مفكرته فى اليوم التالى «مازلت مريضاً جداً» . وأخيراً، فقد رحل بعد هذا بيومين عازماً على مهاجمة محطة أبو نعام، التى كانت تقع فى مكان مناسب فى مواجهة وادى عيس وتحجبها عن الأنظار مجموعة من القمم - أى الظلة . وجمع لورانس ما يقرب من ثلاثين من عتية وحفنة من الأشراف، وكانت المجموعة ستعمل فرقة كشافة لمجموعة أكبر كثيراً يقودها الشريف شاكر ومزودة بالمدافع والبنادق الآلية . وغادروا المعسكر مع ضوء النهار، وكانت أظلاف جمالهم تحدث صوتاً كالطحين على أحجار الصوان الصلبة فى أرض الوادى، وألقى لورانس بمخاوفه خلفه بجهد جهيد من إرادته . وبعد أن ركبوا المدة يومين، وصلت المجموعة إلى الظلة حيث عسكروا فى ملاذ من البروزات الصخرية بين أشجار الطرفاء الضخمة . وترك لورانس المعسكر وتسلق قمة ارتفاعها ٦٠٠ قدم ليتجسس على الخطة، ووجد نفسه مرهقاً إثر الحمى التى يعانى منها، وكان يلهث ويتوقف باستمرار لالتقاط أنفاسه . ومن أعلى القمة، فاز بجائزته، إذ إنه أطل على مشهد واضح للمحطة التى كانت تقع على بعد ٦٠٠ ياردة : وكانت عبارة عن أبنية ثلاثة ضخمة وكوبرى على عشرين قوساً، وكان دخيل الله قد فجره من قبل ثم جرى إصلاحه . وكانت الخطة الأصلية هى إرسال قوة من القبائل لاحتلال التل الواقع خلف الخطة، أى جبل أنسيل Unsayl وشن الهجوم

من الخلف. إلا أنه حينما وصل الشريف شاكر عصر اليوم التالي ومعه القوة الرئيسية اكتشف لورانس أنه قد أحضر معه ٣٠٠ رجلاً فقط - أى ثلث العدد الذى كان قد وعد به. وقدر أن هذه القوة لا تكفى لهجوم مشاة. وقرر الشريف قصف الخطة بدلاً من ذلك، وزرع الألغام على جانبي الخطوط الحديدية. وأرسلت مجموعة فى الفجر شمالاً لزرع الألغام ولقطع خط البرق، بينما قاد لورانس مجموعة أخرى من عتيبة لزرع الألغام على طول الخط الممتد من أبو نعام إلى اسطبل عنتر أى الخطة التالية جنوباً. ولم يتبادلوا أى حديث، وتبخترت الإبل فى سكون حتى وصلوا فى الساعة الحادية عشرة والربع إلى امتداد مهجور للخط.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها لورانس قضبان السكك الحديدية ووجد ملمسها مثيراً. وزرع عشرين رطلاً من ألغام جارلاند - مارتيني - Garland Martin (كان هربرت جارلاند قد صممها بنفسه) تحت القضبان، وضبط مفتاح الضغط الذى سيعطى إشارة وقت ضغط ثقل القطار على المعدن. وبعد ذلك، وضع مدفع آلى وطاقمه فى مجرى مائى على بعد ٥٠٠ ياردة خلف بعض الشجيرات السميكة. ثم ركب رجاله من العتبيين مطاياهم واتجهوا جنوباً ليقطعوا خطوط البرق. ونظراً لأن العرب كانوا غير قادرين على تسلق عمود البرق، كان على لورانس أن يفعل هذا بنفسه. وبعد أن قام بقطع الأسلاك تراخت قبضته وسقط من ارتفاع ١٦ قدماً لينقذه مرشده القاضى محمد. وفى النهاية، أصبح كل شيء معداً؛ وكانت الخطة أن تنطلق القذائف من مدفع شاكر على الخطة مع أول ضوء للنهار التالي. ومن ثم، سيكون على الأتراك أن يبرقوا فوراً لإرسال دعم لهم؛ إلا أنهم حينما يجدوا خطوط البرق وقد قطعت، يصبحوا مجبرين على إرسال قطار فى اتجاه المدينة يسير من فوره فوق ألغام لورانس فيعطل أو يدمر. وحينما يهبط الطاقم لإنقاذه، تصيدهم قذائف البنادق الآلية.

ووصلت مجموعة لورانس إلى معسكرها قبيل الفجر ليجدوا «شاكر» فى موقعه مع بنادقه. وفى السادسة والنصف تماماً انطلقت النيران والأدخنة من البطارية عبر الوادى وارتدت ضوضاء الانفجارات وأصوات انطلاق القذائف على جدران الصخور. وانهارت الأدوار العليا لأبنية الخطة والقلعة من جراء الانفجارات الثلاثة الأولى للقذائف، واخترقت ثلاث أو أربع قذائف خزان المياه محدثة ثقباً به

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

ومحطمة هيكله فاندفعت المياه منهمرة على جدران البرج. أما القذائف الأخرى التالية، فقد أشعلت النيران في معسكر الأتراك، ودمرت أكوام الحطب المشتعلة وقوداً للمحركات، وأصابت عربات القطار. وانفصلت القاطرة، وقعقت باتجاه المدينة، وراقبها لورانس حابساً أنفاسه وهي تقترب من الألغام التي زرعها. وفجأة سمع انفجاراً مدوياً، وظهرت سحابة من الغبار، وتوقفت القاطرة. إلا أن المؤشر كان قد تحرك متأخراً، كما علم لورانس، فتعطلت العجلات الأمامية فقط. وقفز طاقم من سبعة رجال وبدءوا في إعادة تثبيت العجلات فوراً. وانتظر لورانس صوت انطلاق البنادق الآلية، إلا أنه لم يأت أبداً. فقد كان الرجال قد تعبوا من الانتظار وحملوا أمتعتهم وانتقلوا عائدين إلى المعسكر. وجن جنون لورانس إذ إنه أجبر، عاجزاً، على أن يرقب الفريق التركي وهو يعيد القاطرة إلى الخط مرة أخرى حيث بدأت تتحرك ببطء باتجاه الجنوب. إلا أن المعركة من أجل المحطة قد حمى وطيسها. فقد كان العتبييون يناوشون الأتراك قرب المباني تحت غطاء كتل الدخان المتماوجة، ويتحفظون وهم حفاة من شجيرة إلى أخرى وهم يطلقون النيران. وهاجموا موقعين للأتراك، وكانوا يقومون بقتل رجل من بين كل اثنين ويأسرون الآخر، ثم قاموا بالهجوم على الجزء الشمالي للمحطة وأسروا واحداً وعشرين رجلاً، كلهم من السوريين الذين قام لورانس باستجوابهم فيما بعد. كما أتيحت للورانس أيضاً فرصة لأن يتفحص عربة القطار الموجودة بها الفرامل، والتي كان الأتراك قد خلفوها وراءهم، واكتشف أنها كانت مبطنة بالأسمت، إلا أن الأتراك الذين كانوا في القلعة كانوا قريبين بدرجة لا تسمح لهم بالتلكؤ، كما أن كثافة الدخان حالت دون إطلاق النيران. وتوقف العرب عن الهجمات، وانسحبوا بعد أن قتلوا وأصابوا سبعة وعشرين تركياً. وخلال يومين، كانوا قد عادوا إلى معسكر عبد الله.

واعتبر لورانس نجاح أول محاولة لزرع الألغام في الخطوط الحديدية محدوداً. فقد نجت القاطرة بعد كل شيء. وفي تقريره، انتقد العتبيين الذين لم يكن قد طلب منهم فعل الكثير، ولم يكن متوقعاً منهم أداء ما قد يطلب منهم. إلا أنه كان مصمماً على أن يجرب مفتاح ضغط الديناميت، وقرر أن يحاول إصابة القطار بين محطتي حدية ومدحرج التاليتين لأبو نعام. وفي ٢ أبريل انطلق مع مجموعة

تتضمن قاضى جهينة وعشرين من قبيلتهم واثنين من الأشراف وفريق بنادق آلية وقسماً من رجال المشاة السوريين. ومرة أخرى، ساروا من وادى عيس إلى وادى حمض، حيث ناموا على منبطح رملى وأقلقهم فى الليل هطول الأمطار الغزيرة. وارتفعت درجة الحرارة فى اليوم التالى وانعكست أشعة الشمس على التربة حتى بلغت حرارتها درجة لم يستطع معها لورانس السير حافى القدمين كما يفعل البدو، وكان عليه ارتداء صندله. ورعدت الدنيا فوق التلال طوال الصباح، وتلفحت الدنيا حولهم بسحابات متقطعة لونها أصفر فسפורى وأزرق. وفجأة أدرك لورانس أن السحابات كانت أعمدة من الغبار بلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم تدور فى دوامة مزدوجة متجهة بشبات نحوهم. وبعد ثلاث دقائق فقط اصطدمت بهم الرياح كالصفعات وفتحت عبااتهم، وملأت أعينهم بحبات الرمال اللاذعة، وأخذت تدور حول الإبل مما جعلها تصطدم ببعضها البعض. واستمرت الدوامة الهوائية ثمانى عشرة دقيقة فقط أعقبها هطول الأمطار المتجمدة، فالتصقت عباات الأعراب بظهورهم وأخذوا يرتعدون على السروج. وبعد الظهيرة، تسلقوا جرفاً شديداً الانحدار ليلقوا النظر على الخط الحديدى إلا أن دوامات الضباب حجبت الرؤية؛ وفى طريقهم إلى أسفل، انزلقت قدم شخص عتيبى على الصخر المبتل وسقط من ارتفاع أربعين قدماً فتحطمت جمجمته على الأحجار. وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى قتل أثناء تأدية المهمة.

وبعد الظلام، عبر لورانس، والقاضيان، وشيخ من عتيبة يدعى سلطان السهلى إلى خط السكة الحديدية. وكانت مدحرج، وهى محطة صغيرة بها برج ماء، تقع على جرف شديد الانحدار، حيث ينحرف الخط انحرافاً حاداً باتجاه الشرق. وسرعان بعد أن غادروا، ما سمعوا نداء البوق من الخطة معلناً عن العشاء. واستاءوا لهذا، إذ إنه كان عليهم قضاء الليل على مسافة قريبة من الأتراك بحيث لا يستطيعون إيقاد النار. ثم عثروا على خط السكة الحديدية حوالى الساعة العاشرة وركبوا بمحاذاة وهم يبحثون عن موضع مناسب للبنادق الآلية. وكانت الرؤية من السوء بدرجة لم يستطيعوا معها تمييز المواقع، لذا اختار لورانس موضعاً لزراعة الألغام بطريقة عشوائية عند الكيلو ١٢١، ثم أناخت المجموعة إبلها فى سكون. وكان زرع الألغام هذه المرة معقداً نسبياً، ووضع لورانس الزناد الشعري

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

بحيث كان متقلباً، كما اعترف هو بذلك. وتم له زرع شحنتين لتدمير الخطوط على بعد ثلاثين ياردة من إحداها الأخرى، ثم أوصلها بمفتاح الضغط الذى ثبته فى منتصف المسافة بينهما، وكان هذا يعنى أن أياً كان اتجاه القطار فستنفجر شحنة على الأقل تحت جسده. واستغرق شحن الألغام ساعتين. وبينما كان يعمل تساقط مطر خفيف أدى إلى أن تتخذ الرمال شكل كتلة طبعت عليها آثار أقدامهم. وكان لورانس يعلم أنه حين يحين موعد القطار، فستتفحص دورية تركية الخط بوصفها بوصف بحثاً عن علامات مريبة، وأن آثار الأقدام التى خلفوها ستكشف أمرهم. فقد كانت عميقة بدرجة لا يمكن معها إخفاؤها. ومن ثم، أحضر لورانس ومجموعته جمالاً لتخطو على الرمال لمسافة مائة ياردة على جانبى الخط، ثم أخذت طريقها إلى الصحراء الممتدة، بحيث بدا الأمر وكأن قوة كبيرة قد عبرت خط السكة الحديد ليلاً. ثم امتطوا إبلهم لمسافة مأمونة، وأخفوا أنفسهم خلف قمة صخرية انتظاراً لشروق الشمس. وفى هذه الأثناء كانت تنتابهم الرعشة، ويلهثون من خلال أسنانهم التى أخذت تصطك من البرد القارس. ثم نشر الفجر خيوطاً حمراء عبر التلال ذات النتوءات. كما لو أنه يباركها، وصهرت الحرارة السحب، ونشرت النيران فى جسد لورانس. وتمنى لو لم تبدأ أى أعمال قتالية حتى يدفأ جسده تماماً. ومع ضوء النهار، وصلت فرق البنادق الآلية. وزحف القاضى دخیل الله لينظر ما كان يحدث. وفى الساعة السابعة والنصف سلكت دورية مسلحة من الأتراك طريقها على طول خط السكة الحديد وتوقفت عند الكيلو ١١٢١. ورغم أن الألغام كان مخبأة بعناية. إلا أن لورانس راقب الموقف وقلبه فى حلقه من الخوف. بيد أن الدورية واصلت سيرها جنوباً والتقت بدورية من الحدية، أى المخطئة التالية مما جعل لورانس يتنفس الصعداء. وبعد ساعة، سمع لورانس صوت عجلات القطار، ورأى القاطرة وتسع عربات أخرى تقترب من الجنوب ولدهشته، فقد مرت القاطرة على الألغام، دون أن يحدث شىء، وكانت العربات مليئة بالنساء والأطفال، لذا شعر لورانس بالارتياح لعدم انفجارها. إلا أنه كفنان متفجرات، شعر بالإحباط لأنه رغم ضبطه لمفتاح الضغط بعناية فإنه لم يعمل. وقرر أنه يحتاج إلى تعيير. إلا أنه فى هذه اللحظة رأى أن الحرس التركى المتمركز أعلى المرتفعات المحيطة بالمدرج قد اكتشف تجمعات العدو فى منطقته وفتح نيرانه عليهم من

مسافة ٥٠٠ ياردة، ورغم أن هذه المسافة كان يستبعد معها حدوث أضرار، إلا أن لورانس كان يعلم أن عدد الأتراك في المدحرج والحديدي يربو على الألف، وأن دورياتهم ستبدأ فوراً في البحث عنهم. لذا قرر أن يحفظوا كرامتهم ويتراجعوا، فقادوا إبلهم ببطء، كي لا يرهقوا البغال التي كانت تحمل المدافع الثقيلة والتي كانوا يسحبونها خلفهم. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، قادوا إبلهم مرة أخرى برباطة جأش وعادوا إلى الموقع تحت طلقات نارية متفرقة كي يغيروا المقداح المعطل. وكان الأتراك قد اعتادوا إطلاق النيران على أية جماعة من البدو تقترب من خط السكك الحديدية، ولم يكن لهم أن يعرفوا عن بعد أن جماعة لورانس كانت وحدة حرب عصابات. واقترح دخيل الله خطة ألمعية لإبعاد شوكهم، فاقترح أن ينيخ الجميع إبلهم بحذاء الخط الحديدي ثم يؤدون صلاة المغرب ويؤمنهم هو. ولم يكن الجهينيون يراعون الشعائر الدينية، وكان لورانس يعتقد أنهم ربما لم يؤدوا أية صلوات منذ عام مضى؛ أما هو فلم يكن يعلم كيف يؤدي الشعائر، إلا أنه تتبع حركات المصلين وهم يركعون ويسجدون، ولاحظ أن الحيلة قد انطلت على المراقبين الأتراك. وكتب فيما بعد «كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي صليت فيها كمسلم في جزيرة العرب».

وحل الغروب، وكان على لورانس أن يؤدي مهمة البحث عن آلية القذح المدفونة في الظلام الدامس. ولم يكن هذا أمراً محبباً إلى نفسه. فلو حدث وانطلقت فجأة، فستدمر العبوتان الخط لمسافة ٧٠ ياردة، وسيُسف أي شخص في هذا المدى ويُقطع جسده إرباً. ومما زاد الأمر سوءاً إصرار كل مجموعة الجهينيين على مرافقته كي يؤازروه. وبينما كان يتحسس الطريق إلى آلة الإشعال بأصابع مرتعشة، دهشته رؤية رهيبه عن انفجار العبوتين فيه وفي مرافقيه. واستغرق العثور عليها ساعة، وهنا أدرك فوراً سبب عدم اشتعالها إذ إنها غارت في التربة بمقدار جزء من البوصة بسبب ليونة الأرض فضلاً عن طريقة تشبيتها. ومن ثم، أعاد ضبطها سريعاً، ثم هرول ومجموعته إلى إبلهم وامتطوها متجهين شمالاً نحو الأجراف التي تخبئ خلفها مدحرج وهم يزرعون الألغام في طريقهم. وكان جارلاندا قد درب كل الجهينيين من فريق لورانس. وكانوا ينطلقون في الظلام كالنمل يشبتون العبوات في الفتحات الأرضية ذات الأقواس وعلى القضبان. أما

الفصل الرابع عشر: لا اعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

لورانس، فقد تسلق عمود البرق وقطع الأسلاك. وبعد لحظات، تمزقت أوصال الظلام بعنف حينما انفجرت كل العبوات في نفس الوقت تقريباً، فحطمت عشرات القضببان واجتزت رأس الكوبرى. وحالما انتهت المهمة أسرع العرب إلى إبلهم وامتطوها عائدين سريعاً إلى المعسكر. وكانوا في حالة جموح شديد لدرجة أن قاذفى المدافع من مجموعتهم أخطأوهم وظنوهم الأعداء، ومن ثم أطلقوا بعض النيران في الظلام. ولم يصب أحد لحسن الحظ. وقام لورانس وهو في حالة رضى ليستيقظ في الساعة والنصف على صوت ألغامه وهى تنفجر على بعد. ثم أخبره اثنان من كشافته الذين كان قد تركهم للمراقبة، أن قطاراً يحمل ٣٠٠ شخصاً من قوات الإصلاح مع أكوام من القضببان البديلة فجر الألغام مدمراً معه عجلاته. ورغم أن حجم التدمير لم يكن بالقدر الذى تمناه فقد سره انفجار الألغام، كما أن مجموعته قد أحدثت من الدمار ما يكفى لوقف الخط. وكان يعرف صعوبة اكتشاف ألغام جارانلند مما أدى إلى توتر الحاميات التركية على الخطوط الحديدية. وأثناء التجربة وصل إلى استنتاجاته الشخصية عن البدو. فاستخلص أنهم قوم غريبو الأطوار، وكتب قائلاً: «إن السفر معهم غير مرض للشخص الإنجليزى إلا إذا كان يتمتع بصبر فى عمق وعرض البحر». ودعاهم عبيداً لشهواتهم مجردين من الصلابة العقلية، مدمنين للقهوة والخليب والماء ومستهلكين جشعين للحم الضأن. وقال إنهم كانوا يحلمون دوماً بالجنس. ويدغدغون أحاسيس بعضهم البعض بالحكايات الداعرة. وأضاف إلى أن عفتهم ترجع فقط إلى طبيعة حياتهم الشاقة، فلو أتاحت لهم ظروف أكثر ازدهاراً لأصبحوا شهبانيين داعرين خالصين. وكانوا أيضاً يقاومون من يشكون فى أنه يحاول قيادتهم ويهربون منه. إلا أنه إذا تملك المرء صبرا ليبين لهم الأمور من وجهة نظرهم، فإنهم يأسرونه بفعل ما يسر خاطره. وكتب قائلاً: «إن الطريقة التى يعملون بها واضحة، فعقولهم تعمل كعقولنا، ولا يوجد فيهم ما هو غير مفهوم أو مختلف جذرياً عنا، وسيصبحون تابعين إن تحملناهم ولعبنا لعبتهم». وبعد عملياته الكبرى الأولى تحت نيران العدو، كتب له ولمن معه البقاء. فقد خاطر بحياته متحسباً مكان المقداح الشعرى، ووجده غير صالح للاستعمال. والآن، منحته إثارة المعركة وزخم مهمة حفظ التوازن على حافة الهاوية فى كل لحظة تقريباً، إحساساً بالاتصال والهدف لم

يخبره من قبل . وفجأة ، أدرك لورانس أن هذا هو ما خلق له : فقد كانت كل سنوات التجوال تعده لهذا .

وسارت القافلة عائدة إلى وادي حمض والرجال يغنون . ووصلوا إلى معسكر عبد الله في «أبو مرخاء» بعد يومين حيث وجد لورانس خطاباً من فيصل كان برهاناً على التقدير الذي يتمتع به في معسكر الشريف : «صديقي العزيز المحب . . أود كثيراً أن أراك ، فلدى الكثير مما أرغب إخبارك به . إن تدمير خط السكة الحديدية أمر يسير . فقد وصل الماجور جارلاند وباستطاعتنا إرساله لهذا الهدف . بيد أن هناك حاجة شديدة إليك هنا . فأنا أواجه تعقيدات شديدة لم أتوقعها أبداً . . .» . وكما قال لورانس فيما بعد ، فواقع الأمر هو أن الشريف كان قد تملكه الضيق بسبب مكوثه بعيداً عنه لوقت طويل ، وكان يعاني حالة من التوتر والإرهاق . وبعد أن تلقى تأكيدات عبد الله بشأن جماعته هجمات على خط السكك الحديدية كل ليلة ، رحل مع القاضي محمد ، وثلاثة من العقيليين ، ووصل إلى الوجه يوم ١٤ أبريل ليلتقى برجل سيرتبط به مصيره ارتباطاً وثيقاً : كان هذا المحارب شبه الأسطوري ، رئيس قبيلة الحويطات ، عودة أبو طيبي .

أفضل الخافض عيش

لا أحد يعرف حاليا

مكان الكابتن لورانس

15

كان عودة أبو طيبي

أكثر من يهابه الناس من محاربي

الجزيرة العربية. كان طويلاً، نحيلًا، ذا

أنف معقوف كمنقار نسر، تبدو عيناه

كشقيين من طول تحديقته في الشمس.

كان حضوره يرافقه هالة من الخطر،

وكان يبدو وكأن شيطاناً يملكه، وهو

ما نصفه الآن بالسيكوباتية

أو الاضطراب العصبي.

فقد كان كثيراً ما يمتلكه الغضب الأعمى الذى لا يهدأ إلا بممارسة العنف . ولم يكن يستطيع التحكم فى قوله ، فكان يكيل الإهانات علناً للأفراد بأن يروى أكاذيب فاضحة عنهم ويتحداهم أن يعارضوه . وادعى أنه قد قتل خمسة وسبعين شخصاً فى المعارك ، وكثيرون منهم من مدى قريب . وعرف عنه أيضاً أنه كان ينزع قلوب أعدائه ويأكلها . وحدث فى عام ١٩٠٩ أن فتح النيران على مجموعة من شرطة الدرك الأتراك الذين هبطوا إلى خيامه طلباً للضرائب وقتل اثنين منهم بينما فر الآخرون . وظل هارباً من الأتراك الذين أعلنوه خارجاً على القانون وأصدروا حكماً بالقبض عليه .

ولم يكن عودة مؤهلاً بحكم المولد لتولى مشيخة قبيلته التى كانت تنحصر تقليدياً فى فرع جازى من قبيلة الحويطات . وطبقاً لعادات البدو ، فحينما لا تعترف القبيلة بالسلطة الوراثية لشيخها ترفعها عنه تلقائياً ، ومن ثم تخلى قوم الشيخ عرعر بن جازى عنه لمصلحة حرب أبو طيى أولاً ، ثم لعودة ، الذى أبقى على

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن ثورانس

السلطة ارتكناً على صيت شجاعته ونشاطه وقسوته وكرمه . لم يكن عودة ثريا ، إذ إنه لم يكن لبدوى محترم أن يصبح ثرياً إذ كان البدو يقدرّون الجود لا الثروة ويرهبون الرجل الذى يحصد الكثير وينفق معظم ما يحصل عليه . وكان جود عودة ، حتى فى هذه الأرض التى كان أهلها يزهون بالكرم ، أسطورياً . ففى غضون جيل واحد ، تحول فرع الطريحة من الحويطات ، تحت قيادة عودة وإرشاده لابن عمه محمد الضحيلان ، من عشيرة مزارعين رحل ، إلى أكثر قوات الغزاة كفاءة فى كل شبه الجزيرة ؛ وعرف عنهم أن هجماتهم وصلت شمالاً حتى حلب وجنوباً إلى وادى الدواسر على حدود الربع الخالى . وألهمتهم ضراوة عودة حماساً وحيوية وقسوة ومثابرة مما أدى إلى خوضهم مواجهات عديدة حتى تقلص عددهم خلال عقود قليلة من ألف محارب إلى خمسمائة . كان يميزهم الجموح والفوضى ، وكان لهم من غرابة الأطوار ما يفسر قصر تاريخهم كغزاة ورحل يقومون بتربية الإبل . فقد كان يعوزهم النظام فى مسيراتهم ، ويتجادلون دون توقف حول أماكن معسكراتهم . كانوا يمتلكون الأراضي ، ويحملون معهم فى غزواتهم مظلات

الوقاية من الشمس وزجاجات المياه المعدنية . وعرف عنهم الخيانة وتجاهلهم لصلة الرحم والاستهزاء بأعراف البدو . وقد وصف لورانس فيما بعد الحويطات بأنهم البدو الحقيقيون . أما في الواقع ، فقد كانوا موضع احتقار كمحدثي نعمة من قبل قبائل الصحراء الكبيرة مثل الروالة وشمز ، إلا أنه لم يكن بإمكان أحد أن يتجاهل ضراوتهم بما في ذلك المشايخ الأقوياء من أمثال نوري الشعلان أمير رواله الذي تظاهر بصداقته لعودة بن طيبي .

أما أعدى أعداء عودة فكان حميد بن جازي سليل عرعر إذ كان قد نشب بينهما نزاع حول مسألة تتعلق بالشرف . فقد كان سليل ابن جازي قد استحوذ على ناقه من رجل من شرارة والذي كان في حماية عائلة عودة ؛ ووصل عودة وبعض أقربائه إلى خيمة ابن جازي لطلب التعويض فتعرضوا لإطلاق النيران ؛ ومن ثم أطلق عودة النار على ابن لهم واستولى على الناقة . واستمر العداء بين ابن جازي وابن طيبي منذ تلك اللحظة ، ونتج عن النزاع مقتل عناد بن عودة الذي هجم عليه خمسة يمتطون إبلاً من أتباع ملتقى بن جازي عند بعير في أرض الصوان . وكان الابن الذي تبقى لعودة ، والذي لم يكن يفارقه أبداً ، صبيّاً في الحادية عشرة . وفي عام ١٩١٤ عقدت أفرع قبائل الحويطات هدنة متقلقلة ورحلوا إلى شرق السكك الحديدية في سهل جفر في وادي سرحان ، حيث دأبوا على نهب القوافل التركية والإغارة على بني صخر ؛ إحدى القبائل البدوية القوية في الشمال ، وكانوا أيضاً في حالة حرب مع آل شرارة - وهي عشيرة محتقرة كانت تقوم بتربية الإبل - في الجنوب . ثم ظهر عودة فجأة في أوائل شهر أبريل من عام ١٩١٧ في معسكر فيصل بالوجه ومعه ولده حامياً وحيداً له ، وأعلن مبايعته للهاشميين . وكان هذا نصراً عظيماً لفيصل إذ إن وجود شخص مثل عودة معه ، يضيف إلى هيئته ، ويمنحه أيضاً مفتاح منطقة معن ، وهي المنطقة الخلفية للعقبة ، الميناء الكبير على البحر الأحمر المتبقى في قبضة الأتراك . وبالإضافة إلى هذا ، فقد اعتاد الحويطيون مهاجمة خط السكك الحديدية ، وفي عام ١٩٠٩ هددوا بهدم كل الجسور في إقليم معن إن لم يدفع الحاكم نقود حماية . ورغم أنه تم دفع المبلغ المبتز ، إلا أن الحويطيين استمروا في الهجوم من آن لآخر على المحطات ونهبها . وفي منتصف أبريل من عام ١٩١٧ ، حينما عاد لورانس إلى الوجه يملؤه الاقتناع بمبدئه الجديد عن حرب

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

العصابات ، وبوجوب تجاهل المدينة المنورة ، وجد في عودة الحليف الذي كان يبحث عنه .

لم يكن لورانس من اقترح فكرة الاستيلاء على العقبة : فقد كانت قد نوقشت منذ اندلاع الحرب . وفي أغسطس عام ١٩١٦ ، أى قبل وصول لورانس إلى بلاد العرب ، فاتح الجنرال مري الجنرال روبرتسون رئيس القسم الإمبريالى العام فى لندن بشأن الفكرة ، وأبرق روبرتسون إليه قائلاً «أما عن العقبة ، فما يجب فعله هو أن ترسم خطتك ، وتخبرنا بما تعنى ، ونقرر بعد ذلك ما إن كان سيتم تنفيذها أم لا» . إلا أن كل الخطط التى بحثت احتلال الميناء كانت تتصور هجوماً من البحر . وكان لورانس قد رأى أن هذا التوجه غير عملى ، ربما منذ عام ١٩١٤ . ومن المؤكد أنه عارضه فى التقرير الذى كتبه عام ١٩١٥ . وفى أول مارس من عام ١٩١٧ أرسل تشارلز فيكرى برقية إلى كليتون ليتحسس موقفه بالنسبة للاستيلاء على العقبة بقوات من جيش فيصل ؛ فكتب فيكرى : «يتشوق الشريف فيصل إلى احتلال المدينة ، ويعتقد ... أنه سيكون لاحتلالها أثر سياسى ممتاز على السوريين» . إلا أن فيصل كان يفكر فى إنزال بحرى بمساعدة القوات البريطانية والمدفعية البحرية . أما رد كليتون ، الذى وصل بعد أسبوع ، فقد أكد التحفظات السياسية لا العسكرية «إنه من المشكوك فيه أن وجود قوات عربية فى العقبة أمر مرغوب فيه ، حيث ستعمل على إقلاق قبائل من الأفضل أن تظل هادئة إلى أن يحين الوقت» . بيد أنه أفصح عن الطبيعة الحقيقية لتحفظاته فى تقريره إلى مكماهون فى شهر مايو : «إن احتلال العقبة بواسطة قوات عربية قد يؤدى إلى مطالبة العرب بالمدينة ، وهو أمر غير وارد إطلاقاً بعد الحرب ، إذ إنه قد تكون للعقبة أهمية فى خطة الدفاع المستقبلية عن مصر . ومن ثم ، فإنه لأمر جوهري أن تظل العقبة فى أيد بريطانيا بعد الحرب» . ووجد لورانس ، لدى عودته إلى الوجه ، فيصل مكتئباً ومحبطاً . فعلى حين أن الشريف ، فى البداية ، كان مصمماً على الاستيلاء على المدينة المنورة ، إلا أنه نغى إليه فى آخر شهر مارس أن ستين ألفاً من القوات الفرنسية قد تم إنزالهم فعلاً فى سوريا ، أو أنهم على وشك ذلك ، وقد سبب له هذا القلق وحضره على التخطيط للتقدم نحو سوريا على وجه السرعة . وكان يرى أن سقوط سوريا فى أيدي الفرنسيين سيكون كارثة ، إذ إنه لا يمكن أن يكون ثمة وجود للحجاز الفاحلة

بدون سوريا الخصبة. ووافق لورانس على هذا، وذهب للقاء قائد الوجه البريطاني، بيرس جويس على الشاطئ لإقناعه بالعدول عن الهجمة على العلا بهدف عزل حامية المدينة التركية، وكانت هذه فى الأصل هى الخطة التى رسمها نيو كومب واعتقد لورانس أنها حمقاء؛ إذ إن الاستيلاء على نقطة وسط على خط السكك الحديدية يعنى تعريضها لهجمة كماشة من قوة المدينة والحامية القوية بتبوك. وشرح لورانس لجويس الرؤيا التى دهمته بشكل فجائى فى وادى عيس وتبين إزاءها أن من مصلحة العرب أن يظل الأتراك فى المدينة. وعبر مرة أخرى عن مخاوفه أن يفقد البدو عزمهم لو حدثت بينهم إصابات كبيرة. وعبر عن اعتقاده أن الاستراتيجية الأفضل هى الإبقاء على خط السكك الحديدية مشلولاً جزئياً وإجبار الأتراك على المقاومة السلبية. وكانت خطط الهجوم على العلا فى سبيلها إلى التنفيذ: كان جارلاند ونيو كومب قد اتخذوا وضع الهجوم؛ ولو تم الاستيلاء على المدينة سيتمكن فيصل من التحرك شمالاً بسرعة كبيرة (ولم يكن هذا أمراً مطلوباً).

وعندما رأى أنه من الصعب إقناع جويس، تحول لورانس إلى عودة. وكان الإنزال البحرى فى العقبة أمراً ميثوساً منه، ومن ثم شرع، منذ وقت طويل يفكر فى أسلوب بديل. فقد كانت دفاعات العقبة عند فوهة وادى إنم تواجه البحر وكان هذا هو الاتجاه الذى يُتوقع هجوم العدو منه. وبالتأكيد، فإن التسلسل العميق، بواسطة قوة صغيرة منتقاه يظهر أفرادها فجأة فى المواقع التركية الخلفية من الصحراء، سيفاجئ الأتراك. وكانت هذه خطة جريئة مبتكرة، أصبحت فيما بعد نموذجاً لكل غزوات الاختراق العميق عن طريق قوات خاصة التى نفذت طوال القرن. وكانت الخطة تحمل من المخاطر الكثير. فكان الوصول إلى العقبة عن طريق وادى إنم يتطلب قطع طريق دائرى قوامه ٦٠٠ ميل عبر أسوأ المناطق الصحراوية فى الجزيرة، بما فى ذلك امتداد يسمى الهول لا تتمكن فيه بعوضة أو ذبابة من الحياة. كما أنه لن تكون هناك إمدادات حربية متقدمة؛ مدفعية أو بنادق آلية، أو قوافل إمدادات أو نظاميين مدرين. وكانت الغارة هذه تحتاج إلى رجال صحراء أشداء يستطيعون العيش على ما يستخلصونه من أرض الصحراء. ومن المفارقات أنه كان عليه استبعاد البدو لأنهم لا يقاتلون خارج نطاق تخومهم القبلية. ومن ثم، لم

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

يتبقى أمامه سوى العقيليين من أتباع فيصل بصفتهم مرتزقة أشداء تم تجنيدهم من واحات نجد. ولن يقوى على البقاء حياً في تلك الجاهل التي تنعدم فيها المياه سوى فئة صغيرة لا يزيد عددها عن قدر سرب من الجند؛ هذا إن تم حل مشكلة الإمدادات. إلا أنه، ونظراً لقدر الأسلحة النارية المحدود، سيكون على دوريات قصف المدى الطويل تحاشي الاصطدام مع العدو، لأن مجرد وجودهم خلف خطوط الأعداء سيضعهم تحت رحمة أية قوة أكبر مع عدم وجود خط واضح للهروب. وسيكون عليهم، وهم على مسافة تمكنهم من الهجوم على هدفهم، أن يجندوا متطوعين محليين، إذ إن قوة صغيرة مثلهم لن يمكنها الاستيلاء على العقبة بمفردها. لذا، ستطلب المهمة مقدرة على الإقناع والتبشير إضافة إلى تحمل الصعوبات الهائلة والمخاطر. وقرروا أن يقوموا بتحريك غير مباشر كثير الانعطافات عبر وادي سرحان، وهو طريق هام للاتصال بين جزيرة العرب وسوريا كانت الحويطات ترعى فيه إبلها. وفي حالة لو تمكن جواسيس الأتراك من اكتشاف الحملة، فلن يحدسوا هدفها بدقة، حيث سيوحى اتجاهها باحتمال هجمة على معان ودرعا، أو حتى على دمشق وليس على العقبة. أما لورانس، فكان عليه أن يشن هجمات برقية على السكك الحديدية تصل شمالاً حتى وادي اليرموك كي يؤكد هذه الشكوك. ثم تنعطف هذه القوة في اللحظة الأخيرة انعطافاً حاداً نحو الجنوب الغربي وتندفع عبر الصحراء الغربية إلى مدخل وادي إثم. وحس لورانس أن المعركة الرئيسية ستندلع هناك.

وبدون عودة الطي كان سيحكم على الخطة بالفشل. فقد كانت حويطات عودة تتحكم في منطقة العقبة، وكان الأمر سيحتاج ليس فقط للنوايا الحسنة بل أيضاً لمتطوعين من القبيلة إذا حدثت الهجمة. ووجد لورانس، لحسن الحظ، قبولاً من عودة الذي قام معه بصياغة تفاصيل الغارة. أما مع زملائه البريطانيين، فقد ظل لورانس غير واضح بشأن طبيعة العملية الحقيقية، إذ إنه كان قد قرأ رد كليتون على فيكرى، وكان على دراية تامة بعزم البريطانيين الاحتفاظ بالعقبة في مجال نفوذهم. إلا أنه فكر في أن استيلاء العرب على العقبة سيرضى جميع الأطراف حينما يصبح واقعاً. فسيضع البريطانيون آخر موانئ البحر الأحمر العثمانية في أيدي الحلفاء ويؤمنون بهذا جناح مرى الأيمن أثناء تحركه إلى داخل فلسطين، كما

ستوفر للعرب قاعدة إمدادات لعملياتهم في سوريا . أما بالنسبة للورانس فستكون هذه ضربة «معلم» تثبت للعرب جدارته ، وتثبت لرؤسائه قيمة عمله بين العرب . ولم يكن على استعداد أن ينتظر أوامر مباشرة يطلب إليه فيها الامتناع ، ومن ثم لم يحدد خطته في أى تقرير له إلى القيادة العامة . ومن الواضح أن ويلسون اعتقد أن معان كانت الهدف فقد أرسل إلى القاهرة البرقية التالية في أول مايو «فى غضون عشرة أيام سيتوجه الشيخ عودة أبو طيى من الحويطات الشرقية إلى بلدته شرق معان ، وسيرافقه الكابتن لورانس الذى سيبدأ فوراً أعمال تدمير للخطوط الحديدية . وسيكون هدفه الأول الاستيلاء على معان وبالتالي إخلاء الموقع من هناك حتى العقبة» .

وأضحى لورانس الآن وحده . فلم تتم الموافقة الرسمية على خطته ولم يُعرف حتى هدفها الحقيقى . وكانت المخاطرة هائلة إلا أن لورانس أَرْضَى ضميره بأن عملية العلاء لن ينقص منها سواه هو ومجموعة قليلة من رجاله . وقضى أيامه القلائل الأخيرة فى الوجه يتنقل بالطائرة والسيارات المصفحة بحثاً عن طائرة كانت قد تحطمت فى الصحراء . وفى ٨ مايو ، تولى هو والشريف ناصر مسؤولية توفير ٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى كانوا يحتاجون توفيرها لتجنيد عناصر من البدو فى الناحية الأخرى . وكان على ناصر ، الذى اعتقد لورانس أنه أكفأ جنود العصابات من بين كل الهاشميين ، يتولى قيادة المهمة برفقة سورين هما نسيب البكرى وزكى الدوربى الذى كان عليهما المساعدة على تجنيد الفلاحين السوريين فى صفوف الهاشميين . أما رجال الحويطات فكان بينهم عودة ، وابن عمه محمد الضحيلان المخطط الاستراتيجى الكفاء ، وابن أخيه الذى عرف عنه مقدراته على الغزو ، ويدعى زعل أبو طيى إلى جانب سبعة عشر من المقاتلين العقيليين بقيادة رئيسهم ابن الدغيشر . وفى اليوم الأول سلم لورانس ناصر وعودة ومحمد الضحيلان بعض المسدسات ، وأحضر كل منهم فى اليوم التالى نصف جوال دقيق وملئوا قربهم بالماء ، وخشوا أحزمتهم بالذخيرة ، وأيقظوا إبلهم التى كانت تئن وترسل رذاذها كى يبدءوا إحدى أكثر الغارات جرأة فى تاريخ الحروب .

كان الصيف فى عنفوانه ، وحرارة النهار خانقة . وفى الصباح الثانى أعمى

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حاليًا مكان الكابتن لورانس

أبصارهم توهج انعكاس الشمس على الصخور، ثم توقفوا في الساعة الحادية عشرة، رغم رغبة عودة في مواصلة السير، وحطوا رحالهم أسفل بعض شجيرات السنط، وعلقوا أغطيتههم على الأشواك التماساً لمساحة أقدام قليلة من الظل. وكان لورانس في مفترق حاسم في حياته، وكان ضعفه الجسماني يفسد خطته دوماً. وأصبح التقدم مروعا، وأجبر لورانس ورجاله على الترحل في الأودية الضيقة وعلى سحب إبلهم من حبال الرءوس، ثم على السير ترادفياً حيث يسحب شخص الناقة من الأمام ويحفزها الآخر من الخلف. وكانت الشمس تمطرهم بضربات كالصلب القاسي، وترنح لورانس وهو يكاد يفقد وعيه نتيجة الحرارة والجهد والحمى. وبعد هذا الطريق كان عليهم السير وسط سلسلة من الصخور المعلقة وكانت من الخطورة بدرجة انزلقت معها ناقتان وتحطمت سيقانهما في الشُعب. وكانت الناقتان قد أضعفهما الحرب. وسرعان ما نزل إليهما الحويطيون وذبحوهما بخناجرهم الحادة، وقطعوا لحومهما بمهارة وقسموها بين الرجال. ثم أجبروا على إنزال حمولات الإبل وتحميلها بطريقة أفضل كي يتحاشوا مزيداً من الإصابات. ثم واصلوا، بعد أيام قليلة من السير إلى عين أبو راعة، وبدأت مخاوف لورانس الرهيبة من احتمال الخطر، والتي كانت كامنة طالما ظل في الوجه، تطارده فكتب في مفكرته في ١٣ مايو: «اليوم، ألم وكرب». كما أن بقاء المسيرة أحبطه بعد أن تعود على الهرولة في الصحراء على إبل خفيفة الحمولة، ومن ثم ضايقته هذه الرحلة الصحراوية البطيئة الشاقة. وكانت الإبل قد أضعفها الحرب، وكان عودة يعلم أن عليهم الاستغناء عنها كي يصلوا إلى نهاية رحلتهم. وكانت الأولوية بالنسبة للبدو هي الإبل، إذ كان فقدانها يعني موتاً أكيداً. وأجبر لورانس لدى مواجهته أكثر الخبرات الخفيفة التي تعرض لها في حياته على الهرب قدماً إلى الخوف. وكان التأخر المستمر قد أعياه فكتب في ١٤ مايو قائلاً: «لو أننا نستطيع فقط التقدم».

إلا أن مزاجه اعتدل مؤقتاً لدى توقفهم عند نبع ماء. وهناك، التقى بصبيين من العقيليين يدعيان على وعثمان كانا معرضين للعقاب لإشعالهما النار في المعسكر. ورغم أن لورانس ذكر في «أعمدة الحكمة السبعة» أن الصبيين قد ترجياه أن يأخذهما معه، وأنه أجابهما قائلاً إنه رجل بسيط لا يصطحب خدماً، فإنه كتب في

مثل حشد من الذباب. ثم سمع قعقعة البنادق وصوت الطلقات الخفيفة تنز في الهواء وتقفز بالأحجار المتناثرة حولهم، وانطبع بعض العقيليين أيضاً من فورهم وأخذوا في إطلاق النيران بينما اندفع آخرون مخاطرين بحياتهم، نحو العدو وهم يطلقون صيحات التحدى. ولم يتوقع المغيرون هذا الحشد الكبير أو هذا الدفاع العدواني، ومن ثم، أجموا إبلهم سريعاً وقفلوا عائدين. وتعرف عليهم عودة من قطع ملابسهم وقال إنهم من الشمريين الذين كان أميرهم ابن رشيد يساند الأتراك.

وفى يوم ١٩ مايو، أى بعد رحيلهم من الوجه بعشرة أيام، ملئوا قريهم من أعين المياه فى درعا، ثم عبروا الخطوط الحديدية فى المساء إلى الديزاد، وكان هناك حصن تركى بدا مهجوراً، وشرع اللغامون المدربون من العقيليين فى زرع الألغام على القضبان، وأعدوا طبقات من القطن المتفجر وعبوات الجلاتين التى فجروها تتابعياً، الأمر الذى أرسل فى الوادى أصوات الانفجارات تصم الآذان، وسحابات من الدخان. وانفجر عودة، الذى لم يكن قد رأى المتفجرات من قبل، فى ضحك بهيج وارتجّل أبياتاً من الشعر بهذه المناسبة. واندفع العقيليون نحو إبلهم، وأثناء امتطائهم لها، قام لورانس بقطع ثلاثة من أسلاك البرق وسحب أعمدتها أرضاً بواسطة ست من الدواب. ثم هروا فى الظلام إلى أن أصبح السير فائق الصعوبة، فأقاموا معسكرهم على إحدى القمم. وفى الظلام، رقد لورانس ينصت إلى صيحات الجنود فى المخطات والمواقع الأمامية على الخط، وإلى بعض الطلقات النارية التى كانوا يواجهونها وسط الظلام إلى من يتخيلون أنهم مغيرون. ولم يجرؤوا على إشعال نار أو إرسال إشارات نارية للاتصال بحاملى الأمتعة الذين كانوا قد انفصلوا عن الباقين فى الظلمة. وفيما بعد عاد كشافان وقادا لورانس ورجاله إلى المجموعة الرئيسية التى كانت تعسكر آمنة خلف كتيب رملى، وتمكنوا من اختطاف سويقات قليلة من النوم وحينما امشطوا إبلهم كان الظلام مازال دامساً، وتولى عودة قيادتهم عبر التلال والكثبان، وعند الفجر، وجدوا أنفسهم على حافة سهل شاسع وامض يمتد بلا نهاية باتجاه الشرق، ويهبط بشبات حتى يندمج مع سديم السماء الشرقية. كان هذا هو الهول، سندان الرمال والأحجار الشاسع الخالى حتى من شجرة أو شجيرة أو نصل عشب.

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

وساروا عبر البرية لخمسة أيام فى برائن عاصفة رملية ملتھية امتصت الرطوبة من أجسادهم. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم سوى شرب بضع رشقات فى اليوم لأن مياههم كانت محدودة ولم تكن ثمة مصادر مائية سوى فى وادى السرحان. ومع مرور النهار، كان لورانس يبصر توهجات تبدل فجأة من الفراغ، وأعمدة من البخار تتصاعد كالدخان النارى. فلم تكن الحياة فقط معدومة هناك، بل لم تكن هناك ثمة علامة على وجود حياة. وبينما كانت جماعته تسير بتراخ إلى الأمام فى الفراغ، محملة باتساع السماء الرھيب، حاول لورانس، دون جدوى، البحث عن آثار للسحالى أو الفئران أو الحشرات أو الطيور. وحولتهم ضخامة هذا السهل الساكن الصامت إلى مجرد نقط سوداء على حمرة. وبدأ للورانس أنهم لا يحرزون أى تقدم، لأن الأفق ظل على نفس البعد أمامهم وخلفهم وعن هذا كتب: «لقد شعرنا بالضالة فيه. كنا نتقدم عبر سكونه وثباته بجهد غير ذى جدوى» كان الصوت الوحيد هو رجرجة المياه فى القرب المصنوعة من جلد الماعز، وصليل الأخرج المسمرى ووقع أظلاف الإبل على الحجارة الجافة. وبحلول ظهر اليوم الأول اندفعت من الأفق رياح محملة بمذاق توابل صحراء النفود التى تقع فيما وراء الرياح. وأحكم العقيليون أعطية رءوسهم حول أفواههم. أما لورانس فقد قرر مواجهة العاصفة حتى النهاية من منطلق العناد المازوكى، وكنتيجة لهذا، تشققت شفثاه بشدة وانبح حلقة من الغبار لدرجة أنه وجد صعوبة فى الأكل لمدة الأيام الثلاثة التالية. وواصلوا المسيرة من الفجر حتى الغروب، وشعر عودة بنفسه بأنه غير مستريح فى هذا الخواء وقرر عدم مقدرته على السفر أثناء الليل لمخاطر احتمال أن يضلوا الطريق ويظلوا يتقلبون فى صحراء مجهولة إلى أن يموتوا من العطش. وسرعان ما اندمجت أرض أحجار الصوان مع منبسطات الملح (القيعان) التى كانت ترسل وميضاً أبيض يغشى البصر فى أشعة الشمس، ويتولد عنه إحساس بالألم لدرجة أن لورانس كاد يفقد الرعى عدة مرات. وأخيراً، وفى ٢٤ مايو، أبصر أول حياة حيوانية ذات أهمية منذ أن ولج السهول نعماتان تشبختران مسرعتان عبر الأفق. ولدى إحضار أحد العقيليين بيض النعام، توقف هو وعودة وناصر ونسيب البكرى ليفطروا به. ثم لحق لورانس بالمجموعة الرئيسية بعد ساعات ليجد خادمه جاسم مفقوداً. كانت ناقته هناك، كاملة، عليها عدل الخرج

المفترضة به من الصحراء. إلا أنه بعد ثلاثة أسابيع من الحادث، يأتي اسم رجل آخر يدعى «جاسم الشامت» في قصة يرويها عن محاولة تخاكة ساخرة لأسلوب عودة البلاغى الملحمى. وأحداث هذه القصة في الواقع تتخذ من الوجه مسرحاً لها قبل رحلة العقبة. غير أن السؤال الهام هو عما إذا كان «جاسم الشامت» وجاسم الذى يرد في قصة الإنقاذ هما رجل واحد. وأولاً، فإن «الشامت» ليس اسماً لعائلة، بل كنية، والكنية هنا تنطبق على جاسم كما قدمه لورانس. كما يتصادف وجود إشارتين في «أعمدة الحكمة» إلى عربى يدعوه لورانس «الشامت» وذلك فقط، بعد حادثة الهول - الإشارة الأولى ترد بعد معسكر أبو لسان بحوالى شهر حين يسأل لورانس الشامت وهو يبحث عن عودة في ميدان المعركة «أين ذهب الفرسان؟». أما الإشارة الثانية فغير مباشرة، فيذكر لورانس في وصفه لغارة المدورة التى حدثت في سبتمبر التالى أن «الصبى الشامت - شديد الاندفاع» قد قتل فى الهجوم. فإن كان الشامت وصبى لورانس جاسم هما نفس الشخص فإنه يبدو محتملاً أن لورانس أعاد جاسم فعلاً من الصحراء وأنقذ حياته. وفضلاً عن هذا، لا يعنى تعبير «أهدرت ساعتين ونصف فى البحث عن جاسم» لا يعنى فى الاصطلاحات اللغوية الإنجليزية بالضرورة أن المحاولة قد أجهضت، فهو يدل فقط على ضيق لورانس لأن جاسم قد أهدر وقتاً وطاقة نتيجة عدم كفاءته. وكثيراً ما تعبر مذكراته طوال المسيرة إلى العقبة عن تلهفه على مواصلة السير. وأخيراً، فإن لورانس كتب أيضاً فى مذكراته تعبير «لا يساوى ثمن ناقة» الذى ذكر لاحقاً أنه أتى على لسان عودة والذى كان رده عليه «لا يساوى نصف كراون». وتحمل معها هذه التعليقات الإيحاء بتوجيه اللوم المتعمد لشخص ارتكب عملاً أحمق - كأن يذهب للنوم فى الصحراء بينما كانت القافلة تتحرك؛ ومن غير المحتمل أن توجه هذه التعليقات إلى نداء، مهما كانت درجة سوء طبعه، كان قد فقد لتوه. ويبدو لى أن توازنات الشواهد توحي بأن لورانس قد رجع فعلاً إلى الهول وحده وأنقذ حياة جاسم. وهذا فعل مرموق شجاع من رجل كان يرتعد خوفاً من الألم.

كانت الليلة رهيبة. فلم يكن لدى الجماعة ماء، ولم يكن باستطاعتهم النوم أو صنع الخبز. وبدلاً من ذلك، رقدوا على أرض الصحراء يتقلبون ويتضورون جوعاً وعطشاً. وكتب لورانس فى مذكراته «الليلة أسوأ ما خبرت». وحينما شقشق

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

الفجر التالى وجدوا أنفسهم فى وادى السرحان العظيم وعلّموا أنهم قد عبروا الهول: أى أنهم خلفوا وراءهم رعب العطش. وأن اخنة انتهت. وأقاموا المعسكر مع انبلاج الضوء الأول للشمس، وبحلول الساعات الثانية كانوا قد وصلوا إلى بئر أرفاجة، وهو مجرى ضيق عمقه ١٨ قدماً يحوى مياهاً طينية لونها مثل القشدة الصفراء، عفنة الرائحة، كريهة المذاق. ثم ألقوا بمتاعهم، ورووا إبلهم وقادوها إلى المراعى، وجلسوا ليستمتعوا بفترة راحة كانوا جديرين بها بعد جهد عبورهم «سندان الشيطان». ولم تمض ساعات قليلة على الراحة حتى روعتهم صيحة «غزاة.. غزاة». ورأى لورانس طابوراً من البدو يخبى باتجاه الآبار على إبل سريعة، والبنادق فى أيديهم. وفى الحال، قام هو وناصر بحشد أفراد القبيلتين الذين كانوا قد انبطحوا على بطونهم وبنادقهم مصوبة خلف أمتعتهم استعداداً للدفاع عن المعسكر. واندفع زعل أبوطبى نحو ناقته وامتطأها بشجاعة باتجاه الدخلاء الذين استداروا وتراجعوا فى الصحراء لدى مواجهتهم بالمقاومة المنظمة. إلا أنهم لم يذهبوا بعيداً. فبينما كان لورانس ورجاله يجلسون فى المساء حول النار حيث كان عقيلى يدعى عساف يقوم بتقديم القهوة لهم بالدور، انطلق وابل من الرصاص فى الظلام أصاب عساف الذى كان واقفاً بجرح قاتل توفى بعده بدقائق. وأخمد رجال لورانس النيران على الفور، وتدحرجوا إلى الكشبان حيث عينوا موقع العدو من ومضات طلقات بنادقهم، وصوبوا نيرانهم المركزة، فأقلع الغزاة، واختفوا فى الظلام. وكتب لورانس فى مذكراته «أطلقت النيران علينا الليلة، وقتل عقيلى بعد تقديمه القهوة إلى الرجال مباشرة».

ولم تفسد أية حادثة أخرى دخولهم الخبب إلى وادى السرحان. وفى غضون يومين، كانوا قد عشروا على معسكر على أبو فتنة، وهو أحد مشايخ الحويطات، حيث مكثوا أياماً عدة يستمتعون بتناول لحم ضأن الحويطات بأسلوب ملكى. وتركهم عودة هناك ورحل شمالاً ليقابل نورى الشعلان الشيخ الأكبر لقبيلة رواله القوية، والذى كانوا بحاجة إلى معونته الخفية أو المعلنة لو أريد للعملية أن تنجح. وتقدم لورانس وناصر وجماعتهم ببطء فى الوادى الذى بدا مقبضاً للورانس، فقد استشعر فيه بشر نشط، بشعابينه ومياه آباره المالحة الكريهة ومستنقعاته الملحية ونخيله المتقرم وشجيراته التى لا تثمر. وكان هذا مشهداً انعكاسياً لحالته

حديث لورانس الازدواجي. فقد كان نسيب تحديداً من نوع العرب الذين يفترض أنهم «متقلبين قصيري النظر» وكانوا محل كراهية لورانس والبريطانيين؛ فقد كان لورانس والبريطانيون يتماهون مع أكثر العناصر المحافظة في المجتمع العربي، وقد تطرق لورانس في «أعمدة الحكمة» إلى هذا الرأي الاستشراقي التقليدي عن التوافق الجوهرى بين «الجنّلمان» الإنجليزي «الشريف» والبدوى وهذا مصنف حُشد فيه أعضاء العائلة الهاشمية الذين نالوا رضاه رغم أنهم نشأوا في إسطنبول. ومن ثم، أشار إلى عدم إبداء نسيب رضاه عن إنقاذه البطولى لجاسم، على حين تفهم عودة والشريف ناصر - اثنان من جنّلمان الطبيعة - الموقف تماماً. وحينما زادت الولائم في وادي سرحان على قدرة الأفراد على التحمل، انسحب نسيب ومساعدته زكى الدروبي، على حين كان لورانس وناصر من اللباقة والرقى لدرجة إبدائهما الإجلال لمضيفيهما بأن تحملوا الوليمة حتى النهاية. ويُعرف نبل المرء في كتابات لورانس بسلوكه على المائدة وعاداته في المأكل. وقد حاول بمثل هذه الأساليب البلاغية البرهان على وجود صفات مشتركة بين الإنجليز والعرب الأقحاح - أى البدو - أكثر من عرب المدينة «المنحطين» و«الحقراء» و«الخونة» الذين لا يوثق بهم، رغم أن هؤلاء المدينيين كانوا الغالبية العظمى في العالم العربي، ومن ثم، وطبقاً لتعريف آخر، يمكن اعتبار هذه الشريحة العرب «الأقحاح». وبالطبع، فلم يكن العرب «الأقحاح» موجودين، فإن الفكرة كانت ببساطة مفهوماً أيديولوجياً كان ذا نفع عظيم للكلونياليين، إلا أن المفهوم كان ضبابياً؛ فالإشارة للبدو على أنهم العرب «الأقحاح» هو في الواقع أمر ليس أكثر قبولاً من القول إن العائلة الملكية البريطانية هم «البريطانيون الحق»، ومع إغفال ملايين السكان الآخرين الباقين. وعلى أية حال، فلم يحسم لورانس الموقف مع بكرى بأسلوب شريف. فذهب أولاً للقاء عوده، وبيّن له أنهم إذا هجموا شمالاً عن طريق تخوم رواله، فستلقى رواله، لا الحويطات، معظم ثقة البريطانيين ومديحهم وذهبهم. ثم تحدث سراً مع ناصر، وأشعل الغيرة التلقائية بين الهاشميين - الأحفاد المباشرين للرسول - وبين عائلة البكرى الذى يدعون النسب المباشر (الزائف كما ألمح لورانس) خليفة الرسول أبى بكر الصديق. وانتهى بأن كسب الاثنان معاً، واتفق على أنه بعد أن يتم التجنيد، يركب نسيب إلى جبل الدروز ليمهد الطريق

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

للمسيرة القادمة إلى دمشق. وحاول لورانس أن يتأكد أن نسيب لا يملك المال الذى يكفى لإشعال ثورة مناسبة بأن أقنع عودة وناصر أن يطالب بالسبعة آلاف جنيه استرلينى التى أعطاهما إياه فيصل لينفقها فى سوريا. وأصبح الآن التوتر الناشئ عن هذا الرياء، ومثابرتة على الإبقاء على الخط الذى رسمه لنفسه، والكذب على المتطوعين الجدد يوماً بعد يوم، وتمثيله دور البدوى، يفوق قوة احتماله. وكان رعب لورانس الساحق منذ خروجهم من الوجه قد أزعجه دافعاً إياه إلى التحرك باتجاه الأمور الأكثر إثارة لخافه. وكان بطء الحركة فى وادى سرحان مصدر عذاب لشخص فى مثل طبيعته المازوكية. وأخيراً تحرك شىء داخله فجأة فكتب فى مذكراته فى ٥ يونيه «لا أستطيع تحمل هذا يوماً آخر... سأجته شمالاً وأتخلص من الأمر».

ويوحى لفظ «أتخلص» أنه كان يفكر فى مهمة انتحارية. ويتوافق رد الفعل هذا مع توجهه إلى «الهروب للأمام» الذى أظهره فى شبابه، فقد كان السير وحده، أو فى معية آخرين قليلين متوغلاً داخل أراضى تحت السلطة التركية هو المعادل النفسى لغوص لورانس فى الجليد فى نهر «تشيرويل» المتجمد. وكتب «إن جرحاً جسدياً سيكون بمثابة منقذ محبب لتعقيداته الداخلية». إلا أنه كتب قبل أن يرحل مذكرة مثيرة (ميلودرامية) إلى كيتون ضمن مذكرات كان سيخلفها وراءه، موحياً أن دافعه كان ببساطة هو إحباطه إزاء ما كان يتوقع منه من تجنيد البدو على أساس من الخديعة. وكتب «كليتون.. لقد قررت أن أنطلق وحدى إلى دمشق آملاً أن أقتل وأنا فى طريقى؛ فبحق كل الآلهة، حاول أن تنهى هذا العرض قبل أن يتطور. إننا نناديهم أن يحاربوا من أجلنا على أساس من الكذب، ولا أستطيع أنا تحمله هذا». لا بد وأن لورانس اعتقد أن هذه المذكرة قد تكون مقولة نبيلة مناسبة لتكريمه فى حالة وفاته. إلا أن ما هو أكثر احتمالاً هو أن المصدر الحقيقى لهذا الدافع «للهرب للأمام» كان تكوينه النفسى. فلم تكن «تعقيداته الداخلية» هى الاستشهاد الناجم عن «الكذب من أجل القضية» بقدر كونها ضغط الخوف الساحق المستمر الذى أفسد أيامه.

وبالتأكيد، فقد كان ثمة نهج فى تهوور لورانس أيضاً. فقد حدث أن نسيب

كان عليه أن يكون في الجانب المنتصر. إلا أن دعمه سيكون غير معلن مؤقتاً؛ وكتب لورانس في مذكراته «إنه مستعد لأن يورط نفسه الآن لأية درجة عدا العداء السافر انتظاراً لحصوله على امداداته من الطعام لهذا العام».

وصل لورانس إلى النيك في ١٧ يونيو بعد أن قطع ٥٦٠ ميلاً في مناطق يحتلها الأعداء. كان قد قام بتفجير جسر ودفع الأتراك إلى تحريك ست كتائب من الجبهة والتقى بكثير من القادة الرئيسيين في المنطقة وعين ميادين القتال المحتملة. وكان هذا إنجازاً هائلاً، بل أحد أعظم مهام جمع المعلومات خلال الحرب. واستحق عليه أرقى الأوسمة. إلا أن هذه الرحلة إلى الشمال مازال يغلفها عدم اليقين، ويتحمل لورانس كثيراً من اللوم على هذا وذلك لعاداته الراسخة في إحاطة نفسه بالغموض. فقد أشار إلى المهمة في «أعمدة الحكمة» بشكل عارض إذ قال: «كانت النتائج غير مناسبة مع المخاطر، وكان الفعل غير مبرر فنياً، مثله مثل الدافع إليه». واقتراح فيثيان ريتشاردز هدفاً أدبياً خالصاً لعفوية الإشارة إلى رحلته هذه؛ فلو أنه فصل وصفها لقلل من شأن حبكة مهمة العقبة ولأوجد هبوطاً مفاجئاً في السرد. وقد انتهى عديد من كُتاب سيرته إلى أن القصة كانت ملفقة؛ كما أخبر نسيب البكري، الذي تحدث بعد ذلك بأربعين عاماً، سليمان موسى أنه متأكد أن لورانس لم يغادر وادي السرحان أبداً ولا لمدة يوم واتهمه «بالنفاق وتشويه السمعة ونشر الفرقة وعدم الوفاق». إلا أن لهجة نفى البكري توحى بشدة أن ذاكرته كان يشربها الغضب لما ذكره لورانس عنه في «أعمدة الحكمة»؛ وأضاف نسيب أنه على حين طالبه عودة وناصر بالسبعة آلاف جنيه التي كان فيصل قد أعطها إياه بدعوى نفاد نقوده، إلا أنه رفض إعادتها. وقال إن ناصر قد ألمح إلى أن لورانس كان وراء طلب النقود، وأنه وعودة تظاهراً أن نسيب قد أعادها، على حين أنه لم يرجع جنياً واحداً. وفي مواجهة إصرار نسيب على أن لورانس لم يغادر المعسكر، فإن أمامنا مذكراته حيث تبدو الكتابة فيها أحياناً كثيرة غير مقرءة والمداخل غير مفهومة، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك المعقول في أنه قام فعلاً بزيارة رأس بعلبك والأماكن الأخرى المذكورة في التقرير. غير أنه يبقى التساؤل عن سبب قول لورانس لروبرت جريفز فيما بعد «لقد أعطيت وصفاً مختصراً عن رحلاتي في نيك في تقريرى إلى كليتون. وكان هذا جزءاً من الحقيقة. فقد حدثت أشياء أثناء

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

ذلك . ولا أريد أن يتمكن أحد من تتبع أثر القصة كلها...» فإذا كانت القصة حقيقية فلماذا لم يرغب لورانس أن يتتبعها أحد؟ وماذا كان يعنى بمقولته التي وردت في وقت سابق أن «الدافع كان غير مبرر». ثمة إجابتان محتملتان، أو على الأقل إجابتان تكمل إحداهما الأخرى وتمثلان مستويين من نفس لورانس. والإجابة الأولى على مستوى الوعي تتعلق بهدف إشعال فتيلة ثورة عامة بين القبائل تنزامن مع أي غزو بريطاني لفلسطين. وقد أمدت المعلومات التي جمعها لورانس، وخطر من أجلها بحياته، القيادة العامة بتقرير مفصل بين المجموعات المختلفة من القوميين السوريين العرب المستعدين لتوجيه الضربة. وإلى حد ما، خصصت فيما بعد أموال وثروات طائلة للعرب على أساس هذا التقرير. إلا أن الثورة السورية لم تتبلور كلياً أو حتى جزئياً حتى الأيام الأخيرة من الحملة. فقد انحرفت الخطة الرئيسية التي فكر فيها لورانس أثناء مسيرته شمالاً، إذ إنه فقد أعصابه حينما حان الوقت، وفشل في دعوته إلى ثورة عامة في سوريا. وقد يكون ما دفعه إلى حذف تفاصيل رحلته شمالاً هو شعوره بالذنب لهذا الفشل والذي عبر عنه في طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة». أما السبب الآخر فقد يكون قد ظل كامناً في الجزء المعتم من عقله. فلا بد وأن الرحلة قد ألهمتها بالفعل مازوكيته، وحاجته إلى تسكين قلقه بالهروب إلى الأمام وهذا واضح من الملاحظة التي أوردتها في مذكراته والتي تقول إنه سيذهب شمالاً ليلقى بها جانباً، ولم يستطع فيما بعد أن ينسى أن الخوف كان دافعه أكثر من الشجاعة الشوفينية التي توقعها الآخرون. وقد تمت مكافأته فيما بعد بوسام الفارس Companionship of the Bath على أساس تقريره، وكاد أيضاً أن يحصل على وسام فيكتوريا Victoria Cross (V.E) لولا وجود ضابط آخر. وكانت فكرة مكافأته على ما اعتقد هو أنه جبن مصدر تسليية مريرة له، فكتب «قليل من التعويض ما هو إلا جبن بالنسبة لهؤلاء الذين يستحقون وسام فيكتوريا، والذي يضعني صيتي بينهم. وبالطبع، فأنا أعرف في نفسي أنني لست شخصاً شجاعاً، وأنا غير آسف. فمعظم الشجعان أشخاص تعوزهم الجاذبية». وخطرت له، فيما بعد، فكرة أن الجبن والشجاعة وجهان لنفس العملة، حين أعلن أن الرجل الذي باستطاعته الهرب هو الحاصل على وسام فيكتوريا. ويلخص خطاب له إلى تشارلوت شو موقفه من الشجاعة: «حينما يمر أحد

جائمين فى ظل الشجيرات المتناثرة، بينما كانت إبلهم وخيولهم مسرجة فى حالة تأهب. وفى المساء دخل المعسكر ببطء راكب منهك: لقد استولوا على فويلة وقتلوا الحامية التركية إلى آخر رجل. فقد فتح الحويطيون النيران، بقيادة شيخهم جاسم أبو دميل بمجرد تلقيهم الإشارة هذا الصباح. إلا أن الأتراك تمكنوا من صدهم فى البداية. ولأنهم اعتقدوا أن هذه هى مجرد هجمة قبلية، أرسلت الحامية التركية مجموعة لتتبع المهاجمين، ووجدوا فى طريقهم معسكراً أعزل للحويطات فقاموا بذبح ست نساء وسبعة أطفال وطعن شيخ كبير فقتلوه. وثار غضب الحويطات فاندفعوا من مواقعهم على قمم التلال، وحالوا دون انسحاب الأتراك وقاموا بذبحهم جميعاً. وبعد ذلك اتجهوا، وقد تملكهم غضب مجنون، إلى الحصن، واستولوا عليه إثر هجمة شرسة، وأطلقوا الرصاص على كل تركى وجدوه رغم أن قليلاً منهم تمكنوا من الفرار والانسحاب إلى معان. وكانت هذه هى الأخبار التى انتظرها لورانس ورجاله. وفى غضون عشر دقائق كانوا قد امتطوا دوابهم وساروا عبر سهل جفر باتجاه محطة غدير الحج على خط حديد الحجاز فى الطريق إلى رأس الممر عند أبو اللسان.

وسار طابور رجال حرب العصابات فى وسط الغبار إلى أن ظهر أمامهم خط السكة الحديدية وأعمدة البرق التى بدت كأنها طواطم غريبة وسط الخواء. وحينما رأت القوات التركية جماعة من الغزاة قادمين فجأة فى سكون من وسط السراب، تجمدوا من الهلع وانسحبوا إلى المعقل. وهروا عقيليو لورانس من جسر إلى جسر يزرعون المتفجرات وهم يعلمون أن أصواتها ستصل معان وترسل قوة إغاثة تركية إليهم. لكنهم سيكونون، قد اختفوا فى هذه الأثناء، فى الصحراء كالسحابة. وفجر العقيليون عشرة جسور ودمروا عشرات القضبان، وتوغلوا وقت الغسق لمسافة خمسة أميال داخل هضبة شيرة وهم يعتزمون قضاء الليلة هناك. إلا أنهم بمجرد أن أوقدوا نيران الطهو وصل ثلاثة فرسان إلى المعسكر بأنباء مؤداها أن فرقة تركية من القوة المائة وثمانية وسبعين قد سارت من معان وأعادت الاستيلاء على فويلة من الحويطات. وكانت هذه أنباء سيئة، لأنه إن لم يتمكن العرب من شق طريق يصلون منه إلى وادى إثم فلن يتمكنوا من الوصول إلى العقبة.

الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف حالياً مكان الكابتن لورانس

وأعطى ناصر الأوامر بالسير فوراً؛ وألقى الأعراب بالأخرج فوق ظهور نياقهم وأخذوا في السير وخبزهم الطازج مازال في أيديهم. وسارت نياقهم على البازلت، وعلى هضبة شيرة المكسوة بنبات الأفسنتين. ولدى انبلاج الفجر، ترجل لورانس ليتمتع بمشهد سهل جويرة الذي يقع آلاف الأقدام أسفل موقعهم وقد اكتسب لوناً أحمر ذهبياً مع بزوغ الشمس، وكانت تتخلله تشعبات قنوات جرف ويحده الجزء الرئيسي من مرتفعات وادي إثم ووادي روم، تلك المرتفعات التي أعادت تشكيلها عوامل التعرية. وكان جاسم أبو دميك ورجاله من الحويطات مازلوا ملوثين بالدم. من أثر معركتهم مع الفصيلة التركية، وكانوا بانتظارهم قرب أبو لسان بأنباء مؤداها أن الحامية التركية العسكرية في المنخفض الطبيعي حول العين مازالت نائمة. ويحذر، وباستعمالهم المنحنيات وكفاف الأرض، قام القناصون العرب بمحاصرتهم. وبمجرد تموقعهم فتحوا نيرانهم فجأة، مما جعل الحراس الأتراك يتخذون وضع الاستنفار الكامل. وهروا زعل أبو طيى وفرقة من فرسانه لقطع خطوط البرق إلى معان. وهرع الأتراك وهم يحسون أثر النوم من أعينهم وصوبوا وابلاً من طلقات الأسلحة الصغيرة في التلال. وسرعان ما انطلقت الأدخنة من مدفعهم الجبلى، وانطلقت القذائف من التجويف، وانفجرت على مدى أبعد كثيراً من صفوف العرب. وهروا القناصون العرب، وقد جرحوا، وأطلقوا النيران وهم يتحركون بسرعة أكبر من مقدرة الأتراك، الذي أغشى ضوء الشمس أبصارهم، وشوشت الأشباح تفكيرهم، على اللحاق بهم، وأصبحوا عاجزين عن تقدير المدى. ولم يكن بجعبة رجال المدفعية التركية سوى عشرين طلقة سرعان ما نفذت. وكان لهيب الشمس شيطانياً في هذا اليوم. وشعر العرب أعلى الهضبة وكأن جلودهم تُشوى ببطء بين الصخور التي نزعّت أسطحها شرائط من هذه الجلود. ولم تكن ثمة مياه ليرووا ظمأهم المتأجج وبلغت الحرارة بعد الظهر مبلغاً زحف لورانس على إثره إلى شق عثر فيه على قطرات من المياه القذرة امتص بعضها من كم قميصه بعد أن بلله. وسرعان ما لحق به ناصر وهو يلهث من بشفتين متشققتين. وسخر منهما عودة، الذي دخل عليهما وهما راقدان وقال «حسناً كيف الحال مع الحويطات؟ لغو فقط دون فعل». وأمن لورانس على قوله وقال إن الحويطات يكثرون من الطلقات لكنهم لا يصيبون. وشحب وجه عودة من

لحق المنشات من قبائل الحويطات والحيوات بقوة الهاشميين الذين ارتفع بذلك عددهم إلى ما يربو على الألف . واستسلمت خضراء فى الصباح دون قتال . وكان قارب مدفعية بريطانى ، عرف فيما بعد أنه «سليقوى» ، قد رابط فى الخليج فى الفجر وأرسل بعض الطلقات فى التلال . وركب ناصر ولورانس مسرعين خارج إثم عبر وادى عربة العظيم حيث غوا البحر من خلال ضباب كثيف ، إلا أن «سليقوى» كان قد رحل . وكان عليهم أن يحملوا أخبار الانتصار بنفسهم إلى القاهرة على الإبل . ووجدوا مدينة العقبة مدمرة مهجورة وقد حطمها منذ أسبوع قصف قوارب المدفعية البريطانية إلى قطع صغيرة . واستولت الفرقة الهاشمية التى كانت قد سارت ستمائة ميل فى الصحراء الملتهبة لتصل إلى هناك ، على غنيمتها دون طلقة واحدة .

وقد أصر أفراد الحويطات الذين قابلتهم في وادي رم على استحالة هذا الإنجاز، لذا اصطحبت واحداً منهم، صباح بن عبيد إلى سيناء لإنجاز هذا العبور معي كي أبرهن لهم أنه لم يكن محالاً. وكان جد صباح قد خرج مع لورانس في عديد من غاراته، لكنني اعتقدت أن بدو الأردن قد اعتادوا على السفر في العربات ٤ × ٤، لذا فهم لا يعرفون ما يتأتى للرجال والإبل إنجازه. وخلافاً لهم، كان بدو سيناء مازالوا يركبون إبلهم، وابتعت منهم أربعة من أفضل المطايا التي استطعت الحصول عليها من طرابين بنويع. ورغم أن خريطة لورانس الخاصة كانت بحوذتي بعد أن قمت بتصويرها من سجلات الجمعية الجغرافية الملكية إلا أن تكرار السفر على نفس خط الرحلة قد برهن على أنه أكثر صعوبة بكثير مما توقعت. فأولاً، كان يفصل العقبة عن سيناء قطاع ضيق من إسرائيل وكانت الحدود بين مصر وإسرائيل عند رأس النقب (أو نقب العقبة في أيام لورانس) مغلقة آنذاك. وكان على أن أجد طريقاً بديلاً أعلى الجرف يقارب الطريق الذي سار فيه لورانس ويؤدي بنا إلى رأس

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

النقب . وأراني أحد سائقى الإبل ، وهو شيخ يدعى فريخ ، من طرابين ، وادى توية - وهو طريق كثير الالتواءات يمر بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيري محاذ للطريق الذى سار فيه لورانس إلا أنه كان يبدو فى طابا على الجانب المصرى من الحدود . وكان فريخ سيرافقنا كمرشد فى الجزء الأول من الرحلة حيث سينتظرنا رفيق آخر من الخويات عند ثممد وكانت زوجتى ماريا أنطوانيتا رابعتنا ، وهى راكبة إبل متمرسه وتحدث العربية بطلاقة .

وحيثما اقترب اليوم المعهود ، بدأت أدرك أن المهمة التى ألقيناها على كاهلنا مهمة رهيبة . وكنظرة أولية ، بدت رحلة فى الصحراء على ظهور الإبل تستغرق تسعاً وأربعين ساعة مجرد لدغة بعوضة مقارنة بالرحلة التى استغرقت ٢٧١ يوماً عبرت فيها وزوجتى ٤٥٠٠ ميل من الصحراء على ظهور الإبل . إلا أن المكوث على السرج أعلى الناقة ليلتين كاملتين دون راحة بدا فجأة جهداً يتطلب الكثير رغم قصر زمن الرحلة . وكان دافع لورانس عظيماً بالطبع ، فلم يكن فقط قد حقق نصراً مذهلاً ، لكنه أيضاً كان قد ترك القوات الهاشمية ولديهم نقص فى المؤن أدى

التفسير الوحيد الذى توصلت إليه هو أن جماعته كانت تدفع الإبل للهرولة إذ إنه بالهرولة السريعة يمكن قطع هذه المسافة فى هذا الوقت بالضبط . إلا أن لورانس قال تحديداً إنهم ساروا بالنياق ولم يهرولوا إذ كتب : « لو أننا دفعناها للسير بسرعة لانهارت من الإنهاك . . لذا اتفقنا على أن ندعها تسير مهما بلغت درجة إغراء الأرض » .

وبدا الليل بغير نهاية . وهبت الرياح بقوة أشد برودة ، وكاد فريج ، الذى كان فى السبعين ، أن يتجمد على ظهر الناقة . ولم يكن يملك ، خلافاً لنا نحن الأصغر سناً ، رفاهية فرصة النزول إلى رمل الصحراء ليطرده البرد بالسير . وكاد يدهمنا ، ونحن ركوب على السرج ، شعور داخلى مرعب بفقدان الصلة بالواقع والانجراف فى بُعد كابوسى ، أو كابوس النوم العميق والسقوط من أعلى ظهور الإبل على الصخور الحادة . أما حينما كنت أسير ، فكان يطاردنى خوف آخر كنت أتجاهله أثناء النهار : الخوف من السير خطأ فوق لغم . فقد كان فى سيناء ألغام حية ، بقايا حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، ورغم أن البدو أعلنوا أنهم يعلمون أماكن الألغام ، فلم يكن أحد متأكداً بصفة كلية . وكنت أيضاً أشعر بالثقة وأنا على السرج ، أى فى مكان يعلو على سطح الصحراء ؛ إلا أننى حينما كنت أخطو على قدمى ، كانت تنتابنى رؤى مخيفة عن انفجارات غير متوقعة وزخات دخان ، وأحدنا راقد فى برودة الصحراء وساقه أو ساقها قد دمرت . ومرت الساعات ببطء مؤلم ونحن فى طريقنا . وكانت ثمند ، التى ادعى لورانس أنه وصلها فى منتصف الليل ، مازالت نائية : وفى مخيلتى كانت نائية كالقطب الشمالى ثم انبعثت ، فى مكان ما من رأسى المنهكة ، وفى ساعات الصباح الأولى ، احتمالات غير مؤكدة بأن لورانس لم يخبرنا بالحقيقة .

وقبل الفجر بساعة توقفنا وأشعلنا النار لندفئ فريج الذى بدا فى ضوء مشعلى شاحباً كالموت ، وأخذ الآن يرتعد من البرد بشكل واضح لدرجة خشيت معها أن يموت . وبشهامة عظيمة ، ألقى صباح عباءته المبطنة بجلد الغنم حول كتفى الشيخ الناتئين . إلا أنه استمر يرتعد ، وكان علينا أن نرفعه فوق ناقته . ولم تنقذه سوى الشمس التى انبلجت وهى ترسل موجات نابضة من الضوء الذهبى . تكشففت

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء. غارة المدورة

ضخامة هذه البرية المقفرة . وكنا قد وصلنا لنهاية النفق ، إذ إن الليل كان قد حبسنا في حيز قدرته ياردات قليلة مربعة : والآن ، أصبحنا فجأة أشبه بالنمل في لا متناهية من الصخر في حمرة الخوخ ، تعترض امتدادها نقط قمم حادة كأنياب نائمة منعزلة ، وتنحدر مخفية في منخفض في وادي ثمد . وأدخلت علينا أشعة الشمس الدفء بلطف ، ونحن نتبع مجارى المياه التي جفت ، حيث كان ثمة أعشاب لترعاها إبلنا . واختفى شحوب فريج وبدأ تنفسه ينتظم مرة أخرى . وسرعان ما وصلنا إلى الطريق الذى كان يلتف هابطاً في منطقة جافة تهب عليها العواصف الترابية ثم يختفى .

وكانت بئر ثمد حيث ارتوت إبل لورانس ، مازالت هناك تقع إلى جوار بناء وحيد في ظل شجرة شوكية . وعلى كتف الوادى ، رأيت معسكرات شرطة سيناء التي كانت قد هجرت يوم وصول لورانس عام ١٩١٧ . وأنخنا إبلنا وانزلقنا من فوقها . والتف الشيخ فريج في بطانيته ونام في ظل شجيرة . ثم جلسنا فى الظل لنعد الشاي . وكانت ساق صباح قد أصيبت بكدمة شديدة من السرج ، كما ثقب كعبي حذاء ماريانا أنطوانيتا . كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وكان هذا يعنى أن لورانس قد وصل قبل ذلك بعشر ساعات . وأضاف هذا ساعات عشر ، على الأقل ، لرحلتنا : فبدلاً من أن نظل متيقظين مدة ٤٩ ساعة - وهى مهمة شاقة فى حد ذاتها - واجهنا احتمال أن نظل مستيقظين تسعاً وخمسين ساعة ، وربما أكثر من هذا كثيراً ، حيث سيتباطأ خطونا حين يملكنا التعب . ورأيت استحالة هذا ، ومن ثم ، قررت وأنا محبط إحباطاً مريعاً ، أن علينا التوقف عن الاستمرار فى الرحلة عند هذه النقطة .

وطرت عائداً إلى لندن ؛ وشعرت أن هذه كانت هزيمة خطيرة . فلمدة عشرين عاماً كنت قد اعتدت الرحيل فى الصحراء ، وقطعت ١٦,٠٠٠ ميل بالناقة . وفى الواقع ، فقد كنت أكثر خبرة عما كانه لورانس حينما عبر الصحراء عام ١٩١٧ . وكان حينذاك فى التاسعة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد قام برحلة على ظهر ناقة إلا قبل ذلك بتسعة أشهر . فقد كنت على استعداد تقبل أن يكون لورانس قد أسرع عنا بدقائق ، غير أنى ، وبعد عقدين من ركوب النياق ، رفضت تقبل احتمال

أن يصل الفرق إلى عشر ساعات. فحتى لو كان لورانس ورجاله أشداء عنا، وهذه نقطة كنت على استعداد تام للتسليم بها، فكيف تأتى لإبل منهكة السفر بسرعة تفوق سرعة إبلنا إلى هذه الدرجة، وتظل باستطاعتها مواصلة السير؟ فما أثر فى كان هو عظم الفرق. فقد كنت أعلم أننا بذلنا وسعنا، ولم نتباطأ، بل تقدمنا بصلابة طوال ما بعد الظهيرة، ثم ليلية كاملة ومعظم الصباح التالى، وقطعنا ستين ميلاً، أى بمعدل ثلاثة إلى أربعة أميال فى الساعة وهو معدل جيد بجميع المقاييس. وقد جعلنى الفشل فى تحقيق المعدل الذى حققه لورانس، أشك فى خبرة حياتى برمتها.

وبعد أيام، وبينما كنت أعمل فى قاعة المخطوطات بالمتحف البريطانى، قام أحد المساعدين فى المكتبة بوضع صندوق أزرق على مكتبى. وكدت أن أقف لأعترض على الفعل باعتباره خطأ. فقد اعتقدت أننى قد طلبت مذكرات لورانس وقت الحرب وكانت مكتوبة فى «نوتة» إشارات عسكرية، ومن الواضح أن هذا الصندوق الذى لا يزيد عرضه على عرض الكف كان لا يحويها. وفحصت المحتويات ووجدت مذكرتى جيب من ماركة «ليتس» حجمهما صغير جداً لم أكن قد رأيتهما من قبل. وفى الواقع كانت هذه «الخطوط العريضة» لمذكرات لورانس والتى كان يحملها معه ويسجل فيها المكان الذى قضى فيه كل ليلة أثناء الحملة. وأدركت أنها كانت، عن حق، أكثر المصادر معاصرة بين جميع المصادر الأخرى. وأخذت أقلب الصفحات بتراخ حتى وصلت إلى صفحة ٦ يوليو وهو اليوم الذى دخل فيه لورانس العقبة. وأدهشنى ما قرأت:

الجمعة ٦ يوليو:

دخلت العقبة العاشرة صباحاً، قرأت خطاباً من نيوكومب. غادرت بعد الظهيرة. نمت عند رأس نقب العقبة.

السبت ٧ يوليو:

ارتوينا عند ثمد. الغروب (بئر) محمد

الأحد ٨ يوليو:

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

مررت بنخل (كلمة مطموسة) مديفة (صدر حيتان)

الاثنين:

نمت جيداً بالسويس.

إذاً فلم يقطع لورانس المسافة في تسع وأربعين ساعة. وقد نام في الواقع، عند رأس ممر «نقب العقبة»، لكنه، وكأبعد عن أن يكون قد وصل ثمند في منتصف الليل، كما ادعى، فقد وصل البئر قبيل غروب اليوم التالي، لأن بئر محمد، الذي يظهر على الخريطة، يبعد أميالاً قليلة فقط عن ثمند. ويعني أننا قد وصلنا ثمند أسرع منه؛ وأنه قضى هذه الساعات نائماً على قمة الممر. وقضينا نحن، بحماقة، في السير الحثيث أثناء الليل في محاولة للحاق بسرعه. فقد أوضح مدخل المذكرات أنه وصل السويس في اليوم الثاني، لا الثالث، بعد خروجه من العقبة. وكانت الساعات التسع وأربعين في «أعمدة الحكمة» مجرد «كذبة». ولم أستطع أن أثبت سبب كذب لورانس في «أعمدة الحكمة»، لأنه لم يكذب على رؤسائه. وحينما أعدت قراءة التقرير الذي كتبه لكليتون في ١٠ يوليو، أي يوم رجوعه إلى القاهرة لاحظت أنه قال «وصلنا العقبة يوم ٦ يوليو.. وركبت في نفس اليوم متوجهاً إلى السويس مع ٨ رجال، ووصلت «الشط» في التاسع من يوليو». وكان هذا التقرير الذي نشر عام ١٩٣٨ في خطابات جارنيت يحمل في وجهي وفي وجه كل كاتب آخر لسيرة لورانس طوال الوقت. وتطلب ظهور الحقيقة رحلة أليمة على الإبل عبر جزء من سيناء مع شيخ طاعن في السن على وشك الموت. ولا بد أن لورانس قد أدرك أن شخصاً ما سيلحظ هذا التناقض يوماً ما. وقادني هذا الشك في أن يكون هذا التناقض إرادياً؛ جزءاً من لعبة «غربة الأطوار» العظيمة التي ظل يلعبها منذ أن كان طفلاً، فيحير الآخرين بغلالة من الغموض، «آملاً أن يتوق الأفراد لمعرفة من يكون هذا الشخص غريب الأطوار». وفكرت: كم كانت حيلته ناجحة؛ فهذا نحن الآن، وبعد ثمانين عاماً، مازلنا نحاول يائسين أن نستدل عليه.

ولا تقلل مشاكسات لورانس من قدر إنجازه العظيم باستيلائه على العقبة التي كانت الضربة الوحيدة المتفردة العظيمة في حياته رغم أنه لم يكتب له أن يتمتع

بمثل هذا النجاح المذهل مرة أخرى. لقد أسست عملية العقبة وحدها وضعه، فكان عليه أن ينقل الأخبار بنفسه إذ كان من المحتمل عدم تصديقها لو حملها رسول آخر. والأكثر من هذا، أنه أصبح قادراً على إقناع رؤسائه أنه هو وحده القناة التي لا يمكن الاستغناء عنها لمرور الأسلحة والأموال عبرها إلى العرب. بل لقد أدرك الهاشميون أيضاً أنه لا يمكن الاستغناء عنه. ومن خلال العقبة، أصبح هو «الشخص الرئيسي في الثورة العربية» على حد قوله. وفي القاهرة، أولم رؤساؤه اللوائيم احتفاء به، وأرسل كليتون رسالة خاصة إلى مدير المخابرات العامة يقول فيها «لقد وصل الكابتن لورانس من رحلة شبه أسطورية عبر بلد للأعداء.. فقد أفلح من الوجه يوم ٩ مايو ومعه ٣٦ عربياً، وسار عن طريق الجرف ونبق وهو يعبر الخطوط الحديدية ويفجرها في طريقه». وبعث روبرتسون بشائعه الخاص. وسرعان ما وجد لورانس، الملازم ثان احتياطي لأعمال الترجمة نفسه ضابطاً دائماً برتبة ميجور. ومن حسن الحظ أن تلازم وصوله إلى القاهرة مع تعيين الجنرال السير إدموند أللنبى قائداً عاماً. ففي أوائل عام ١٩١٧ كانت قوات مري قد هجمت مرتين على غزة، وتم صد الهجوم الذي راح ضحيته نحو ستة آلاف نسمة. وكان يؤمل أن يكون أللنبى أشد بأساً. ودخل لورانس، الذي سمح له بلقاء هذا الضابط العظيم إلى مكتبه، حافى القدمين يرتدى زياً عربياً متسخاً. ولعب لعبته التمويهية المعتادة. ثم قام بتسليمه تقريراً مفصلاً بشأن رحلته السرية إلى الشمال. وأدعى أن بإمكانه نشر ما لا يقل عن سبع فرق من الجنود العرب من مواقع رئيسية متنوعة، يمكنها، بحلول آخر أغسطس، تهديد خطوط اتصالات الجيش التركي في القدس. وكان هذا يعني ثورة عربية عامة في سوريا، بما في هذا الاستيلاء على دمشق، رغم أن لورانس أكد إمكانية حدوث هذا فقط، إذ استطاعت قوة أللنبى في الحملة المصرية منع القوة التركية من التمرکز على خط غزة-بئر سبع، وبذلك تحول بينها، وبين إرسال فرق جديدة إلى حوران. وكان هذا اقتراحاً طموحاً أقرب إلى الخيال. على أن أللنبى أخذ يرقب لورانس وهو يتعجب وغير واثق من «القدر الحقيقي، والقدر المدعى في شخصيته». أما لورانس، فقد وجد الجنرال شخصاً أبويًا بشكل لافت، يمكن إضافته إلى قائمة الآباء الآخرين الذين قضى حياته يعددهم؛ تلك القائمة التي ضمت هوجارث، وشملت فيما بعد توماس هاردي

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء. غارة المدورة

واللورد ترنشارد. ورغم أنه قد شكّا فيما بعد أن أعمق رغباته كانت هي الرغبة في الخدمة «العبودية الطواعية»، إلا أنه لم يجد أبداً سيداً يمكنه استخدامه كما يجب». لكن أَللنبى كان هو الأقرب إلى مفهوم «السيد الذى يتوق إليه». وفي هذا كتب يقول «كم كان الرجل معبوداً لنا. كان ألعياً ذا خاصية داخلية عظيمة، لا يشوبها شيء، غريزية وعضوية». ولم يكن من السهل تقدير رد فعل أَللنبى على شخصية لورانس. فقد كتب فيما بعد أن أَللنبى اعتقد أن لورانس كان قائداً حربياً ألعياً. ونسب إلى أَللنبى قوله إن العرب كانوا فى الواقع مجرد عامل إلهاء للأتراك، وأنه ثمة ضباط آخرون كان باستطاعتهم إنجاز المهمة بأسلوب أفضل من أسلوب لورانس. وكان هذا بالطبع افتراضاً لاحقاً على وقوع الحدث. إذ إن لورانس آنذاك كان قد استولى لتوه على العقبة، ولو افترضنا أن العرب الذين عملوا معه كانوا مجرد إلهاء للأتراك، فقد كان هذا أفضل مليون مرة من تركهم ينضمون للأعداء. كان أَللنبى واقعياً، وكان يعلم أن أى شيء قد يفعله لورانس فى سوريا كان من شأنه تقييد الأتراك، حتى لو فشل. غير أن غموض الجنرال المصمت كان سبباً فى عدم استطاعة لورانس الحكم على قدر «فهمه» إياه. إلا أن العرض لنجح كالعادة، ووعد أَللنبى أن يفعل ما باستطاعته من أجل حلفائه العرب.

وفى غضون أيام من النصر، كانت سارية العلم فى أسطول البحر الأحمر، بوربالوس، قد رست فى العقبة فى إشارة على الدعم البريطانى. وبحلول يوم ١٣ كانت السفينة دفرين تفرغ السلاح والمؤن. وكان على قوات فيصل أن تنتقل من الحجاز إلى العقبة، بحيث تنتقل قوات الهجانة عن طريق البر، وتنتقل القوات النظامية، بقيادة جعفر باشا، بحراً من الوجه. وكان على فيصل أن يعمل تحت قيادة أَللنبى، وأن تعمل قواته جناحاً أيمن للجيش البريطانى. وسافر لورانس إلى الحجاز حيث قابل فيصل، والتقى بحسين لأول مرة. وفى جدة، تلقى من القاهرة رسالة اعترضت المسار، مفادها أن عودة أبو طيبى كان على وشك الهروب إلى الأتراك. ويسترسل كاتب الرسالة بقوله: «أبلغنا العميل Y أن عودة، الذى كان ذراع لورانس فى العمليات الأخيرة فى منطقة (معان - العقبة) اتصل بالأتراك وقال إن من أسباب عصيانه منح نورى الشعلان زعيم رواله الجوائز، وحرمانه هو منها. وأنه على استعداد للرجوع عن تفكيره بشروطه الخاصة. وأن عودة كتب رسالتين

إلى القائد العام للجيش الثامن يطلب منه هدية. وشعر لورانس بالخطر، ومن ثم عاد إلى العقبة في اليوم الرابع، وهناك ابتاع ناقه شهيرة تدعى غزالة ركبها مسرعاً عبر وادي إثم إلى معسكر عودة في قبويرة. فقد كان ولاء الحويطات مازال ذا أهمية حاسمة في الدفاع عن العقبة لأن الأتراك كانوا قد استعادوا أبو لسان وأخذوا يقصفون وادي إثم. وكان من المتوقع أن يقوموا بهجمة مضادة على العقبة في غضون شهرين، وكان الشريف ناصر قد أقام أربع نقاط دفاع أمامية لحماية ممر شطار الهام. وكان وادي موسى عند مدخل بئرا أحد هذه المواقع، والثاني عند دلفة في جبال البلقاء، والثالث عند بئرا، أو النقطة الأكثر ارتفاعاً أعلى هضبة شيره، والرابع في قبويرة بالسهل المنخفض حيث يقع خزان مياه قديم في ظل جرف صخري منحدر عميق، وكانت هذه المواقع الأمامية حيوية إلى أن يصل الجيش النظامي العربي إلى العقبة، وكان استمرار تلك المواقع يعتمد على الحويطات وعلى عودة بن طيبي، واستقبل لورانس كصديق في مخيم عودة، وحين تناقشا حول حقيقة اتصال عودة بالأتراك أخبره عودة بأنه تظاهر بذلك كي يحصل على الأموال وهي قصة يصعب تصديقها. وحدث لورانس أن عودة كان غاضباً من البريطانيين حيث إنه لم يتلق أية جائزة نظير استيلائه على العقبة، كما أنهم لم يرسلوا له أية بنادق أو قوات. وخمن لورانس أن اتصال عودة بالأتراك كان أكثر جدية مما ادعى. ورغم قوله الرومانسي الغنائي في «أعمدة الحكمة» أن قلب عودة كان «يتوق للعدو المهزوم»، فالحقيقة هي أن الحويطات، شأنها شأن سائر قبائل الحجاز، كانت تعمل من أجل المال، لا الاستقلال، ولم تكن نظرتهم تتعدى حدود التكافل القبلي. وحل لورانس المشكلة بأن وصف لعودة كميات السلاح الهائلة التي كانت ستصل في وقت قريب إلى العقبة، وبين له أن فيصل، الذي كان على وشك الوصول هناك، سيكون «عميق الامتنان» لخدماته. ثم أعطى عودة مقدّم مبلغ كبير كان واثقاً من وصوله إليه لدى قدوم فيصل. وقفل لورانس راجعاً إلى العقبة في نفس الليلة آملاً أن تكون محاولته قد ضمنت ولاء الحويطات، على الأقل، لحين وصول الفرق النظامية واحتلالهم الميناء. وصمم أن يحتفظ بسر خيانة عودة لنفسه: لأن البريطانيين ذوى القيم الإقطاعية في رأيه لن يفهموا طبيعة الولاء عند البدو. واعتقد أنهم يريدون أبطالاً مثل أبطال الروايات، ولذا، عمد إلى تقديم

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء. غارة المدورة

عودة لهم كبدوى غاز شجاع، مثلما قدم فيصل كقائد عربى نبيل، بحيث يتلاعب بصورة العرب لدى البريطانيين لصالح العرب. وقد اعترف أن خدمته لسيدتين كانت من عوامل ضيقه فكيف يقول إنه واحد من ضباط أللبنى، وكان أللبنى يتوقع منه أن يبذل جهده من أجل البريطانيين. لكنه كان أيضاً مستشار فيصل، وكان فيصل يتوقع منه الصدق والأمانة والكفاءة. ولدى مقارنته الدورين أحدهما بالآخر كتب قائلاً «لا أستطيع توضيح كل الموقف العربى لأللبنى، كما أننى لا يمكننى أن أكشف كل الخطة البريطانية لفيصل».

وكان لورانس قد أخبر كليتون بصراحة أنه تم الاستيلاء على العقبة بمبادرته هو، وطلب منه قيادة «عملية القنفذة» أى حملة العرب البريطانية. إلا أن كليتون لم يستطع تلبية طلبه، لأنه رغم أن لورانس كان قد ترقى إلى رتبة ميجور فقد كان أقل منزلة من الضباط الكبار، ولا يمكن وضعه فى موضع أعلى من أشخاص مثل نيو كومب وجويس. وكان جويس سيقود الحملة رسمياً، لكن، بما أن لورانس كان سيظل ضابط اتصال لفيصل، فكان بإمكانه الاستحواذ على كل السلطة التى يرغب فيها.

وفى ١٨ أغسطس وصل جعفر باشا إلى العقبة مع فرقتين من النظاميين العرب تتكونان بشكل أساسى من مدنيين من مكة وضباط سوريين سابقين فى الجيش التركى. وبعد ستة أيام، أنزلت السفينة هاردنج فيصل مع إمدادات وقوات أخرى. وكان النظاميون، الذين وصل عددهم ألفين، مدعومين بالبعثة الفرنسية من الوجهة تحت قيادة الكابتن بيسانى مع بطارية من مدافع الجبل يعمل عليها مدفعيون جزائريون. وكان ناصر قد شغل وقته بتجنيد المحليين الذين اتجهوا بأعداد كبيرة إلى العقبة لمبايعة الهاشميين. وفى نهاية أغسطس، تم إرسال طائرات إلى مطار كونيلا المؤقت فى سيناء، أخذت تقوم بسلسلة من الغارات على معان. ومن أجل بدء الحملة فى سوريا منح الهاشميون مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبى و ٢٠,٠٠٠ مدفع وعشرين بندقية آلية طراز لويس، وثمانية مدافع من طراز ستوكس وخمسين طناً من قطن البنادق للتفجيرات وسرياً من السيارات المصفحة.

وكان وصول جعفر باشا مع قواته إلى العقبة ومعه شحنة البنادق من طراز

هامبر التي ولدت شعوراً بالاطمئنان يعنى أن المدينة أصبحت محصنة ومهيئة لشن غارات الحويطات على خط السكك الحديدية. ولم يتوقع أحد أن تستطيع قوات جعفر صد هجمات الأتراك، إلا أنه كان غير معروف للأعداء، ومن ثم مثلت عاملاً معوقاً. وبنهاية شهر أغسطس، بدأ الهجوم التركي على العقبة أمراً غير محتمل إذ إن الأتراك كانوا يواجهون مشكلة وسائل الانتقال؛ فقد كانت إبلهم قليلة وهزيلة، والمراعى فقيرة. وكشفت أوامر من القيادة العثمانية في دمشق، وقعت في أيديهم، أنه قد صدرت الأوامر للحامية معان وعددها ٦٠٠٠ جندي بقطع الطريق فقط على وحدات فيصل للحيلولة دون وصولها إلى مرتفعات البلقاء الخصيبة التي كانت تمد الجيش التركي في فلسطين بالحبوب وبالأخشاب لاستعمالها وقوداً للقطارات. وأشار كليتون على جويس، الذي أصبح قائداً للعقبة، أن الفعل الهجومى الوحيد، الذي كان بمقدرة الأتراك، هو احتلال وادى موسى قرب بترا بواسطة فرقتى مشاة ووحدة فرسان وبعض المدفعية الذين يمتطون البغال. واقترح كليتون أن تقوم قوات فيصل غير النظامية بالإغارة على السكك الحديدية جنوب معان وتدميرها قدر استطاعتها كي تبقى القوات التركية في تبوك والمدينة منعزلة عن قاعدتها. كما أن تدمير الخط كان من شأنه إعاقة الأتراك عن القيام بهجمة رئيسية وذلك بإذابة قواتهم. وتم التخطيط لعدة عمليات لقطع خط السكك الحديدية في سبتمبر، واختار لورانس «مدورة» هدفاً له، وهى محطة جنوب معان كانت الوحيدة التى بها مياه على امتداد طويل. وكتب رسالة سريعة إلى كليتون قائلاً: «ثمة سبع محطات هنا دون مياه، وإننى أأمل أن نتمكن من فعل شيء بالمدافع الستوكس والبنادق اللويس يعوق الخط إعاقة خطيرة. فإن نحن أحدثنا قطعاً كبيراً سأبذل جهدي للإبقاء عليه، إذ إن الحاجة إلى إغلاق الوجه كلبية أصبحت ملحة». وفى ٧ سبتمبر خرج من العقبة مع اثنين من مدربي البنادق وهما السرجنت يلز والعريف بروكس وشيخين من بنى عطية، وهى قبيلة بدوية تسكن منطقة المدورة. وكانت خطته تجنيد ٣٠٠ من بدو الحويطات فى قويرة، ثم التوجه إلى المدورة والاستيلاء على الخطة. وكان للحويطات أجور شهرين متأخرين، وكانوا فى شجار دائم ولم يقوم عودة، الذى كان يحاول فرض سلطته على القبيلة كلها، بفعل شيء يذكر لتهدئة الموقف. وبدلاً من هذا، سار لورانس خمسة أميال

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

باتجاه الجنوب الشرقى عبر سهل القويرة إلى وادى رُم حيث كتب أن هناك ثمة ينابيع جيدة، وبعض المراعى، وبعض مناظر الصخور الرملية الجميلة.

كان وادى رُم فى الواقع من أجمل المشاهد البديعة فى كل الجزيرة العربية. فقد كان متناه من الأحجار الرملية التى بدت سيرورة تطورها كلها واضحة للعيان. كانت ثمة طرق عريضة تكتنفها الأشجار وتتنوع من الصخر الأحمر بدت وكأنها جزء من كيان حى. ولم يتوقف أبداً شعور لورانس فى كل مرة زار فيها ذلك الوادى بالنشوة إزاء تلك الحصون الصخرية وقد أخذت شكل الأسياخ واللفافات وتشققت وتجمعت بفعل الأملاح والرياح والرمال فأصبحت تكوينات لا يقوى أى عقل يهذى بالانفعال على إبداعها هذيان مُروّع مجسد فى الصخر والحجارة. إنه المشهد الطبيعى للعقل اللاواعى. وأصبح وادى رُم، بالنسبة للورانس، ممراً إلى الكون - قد يسبح فيه يوماً إلى فضاء النوم الأبدى المغرى الذى تضئسه الشمس إذ كتب يقول: «كان عقلى دوماً ينحرف عن الطريق المباشر كى أتحرر وأجلو حواسى ليلاً فى رُم وأتجول على مطيتى فى واديه الذى يضئسه الفجر قاصداً السهول الوضاء، أو أسير فى جنوبه عند غروب الشمس إلى هذا المربع المتألق الذى تحول توقعاتى بينى وبين الوصول إليه. كنت أتساءل هل أوصل السير ممتطياً هذه المرة إلى ما وراء خزيل، وأعرف كل شىء؟»

بيد أنه كانت فى الوقت الراهن ثمة حرب تم الانتصار فيها، وكان هناك خط حديدى يجب تدميره، وامتطى لورانس دابة من أسوار الوادى المهيبة حتى المدرج الطبيعى العظيم فى الصخور أسفل جبل رُم. كان هذا مخبأ مثالياً وقاعدة لعمليات العصابات فقد كانت تحميه صخور ناصعة من جهات ثلاث، ولم يكن بإمكان من يصعد الرادى رؤيته إلى أن يصل إليه فعلاً. كان هناك نبع طبيعى يدعى شلالة على جانب التل على ارتفاع يتطلب خمس عشرة دقيقة من التسلق، وهو يعرف اليوم باسم «نبع لورانس». وكانت الحويطات تنصب خيامها فى مأوى من الجدران الصخرية غرب بقايا معبد نبطى. وعسكرت جماعة لورانس هناك بعد هبوط الظلام، واستقبلوا زواراً من مختلف عشائر الحويطات، وكانوا جميعاً مستاءين لما رأوا من محاولة إعلاء الهاشميين من شأن أبى طيى. ولم يكن بين البدو من يغار

على سلامة صيته مثل بدو الحويطات . وقد ذكر لورانس أن من بين كل أربعة أو خمسة كان هناك واحد يعتبر نفسه شيخاً . وأظهرت عشيرة الدمانية ، بقيادة الشيخ «جاسم أبو دميك» (الحارب الهمام الذى قاد معركة فويلة) تمردها العلنى وعرف لورانس أنه ليس بمستطيع استمالة جاسم ، ومن ثم ، أعلن غاضباً أنه سيجند أفراداً من أية عشيرة أخرى باستثناء الدمانية لشن غارة مدوية . واندفع جاسم إلى الخارج هادراً وأعلن أنه سيلحق بصفوف الأتراك .

وحينما شعر لورانس أنه يفقد سلطة التعامل مع هذا العصيان بنفسه ، عاد إلى العقبة واستشار فيصل ، وركب عائداً إلى رُم ومعه الشريف عبد الله بن حمزة كى يهدئ المشاكل . وتمكن عبد الله من كسب بعض الدمنيين ، إلا أن جاسم نفسه ظل متحدياً لأسباب ليس أقلها أن «زعل أبو طيى» ، الذى كان لورانس يعتبره «أفضل المغيرين على الإطلاق» كان من المقرر أن يرافق جماعة الإغارة مع خمسة وعشرين من طويحة . ولم تكن أية عشيرة من عشائر الحويطات لتقبل بسلطة زعل ، كما أن كل قبيلة على حدة رفضت الحديث إلى الأخرى . وبما أن عبد الله كان قد رجع إلى العقبة ، وكان الشريف الآخر مع المجموعة ، وناصر الحارثى الذى فقد بصره فى اليوم الأول لخروجهم ، فكان لورانس هو الشخص الوحيد الذى يملك الحياد الكافى ليتولى قيادة الغارة ، وكان عليه ، أن يتخلى لأول مرة عن عادته فى العمل من خلال شريف ، وأن يتولى القيادة بنفسه .

وعلى هذا غادر لورانس رُم فجر ١٦ سبتمبر ومعه مائة وستة عشر بدوياً ، واثنان من العسكريين البريطانيين يحمى كلاً منهما اثنان من العبيد من حراس فيصل الشخصيين الذين كانوا على استعداد للموت دفاعاً عنهما . وقد قام برعاية هذين الجنديين البريطانيين بعناية بالغة ، أولاً للحاجة الماسة إلى مهارتيهما ، وثانياً ، للأثر السلبي لفقدانهما على العرب ، وثالثاً ، لأنه كان من طبيعة لورانس رعاية الآخرين . وقد قال بروكس عنه «كان دائماً شديد الاهتمام بنا ويحرص على التأكد من قدرتنا على تحمل الحرارة الفائقة» . وسافرت المجموعة بطول «القاعة» وهى رقعة شاسعة من السبخة تفصل بين رُم وهضبة شيرة ، وقد جعل منها قاعها الطينى المستطح طريقاً طبيعياً . كانت كتل الحجر الرملى كثيرة العقد وبلغت أقصى ارتفاع

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

لها فى جبل رُم ثم تهبط تدريجياً حتى يقل ارتفاع الكتل الخارجية ليصل إلى ما يقارب طول الرجل العادى . وتراجع الحجر الرملى ليفسح الطريق لمنحدرات صخور جيرية بللورية . وسارت القافلة باتجاه هضبة مدبة القمة منحدره الجنبات حيث كانت الحافة تتدلى على شكل خرج بين مسندى كُتب وتشير إلى مدخل سبخة طينية أخرى أمضوا فيها ليلتهم . وفى اليوم التالى عبروا منطقة أكثر وحشة : مرتفعات صخور جيرية تُلطف من حدتها عُقد من الطرفاء (أشجار نحيلة الأعضاء) . . وفى المساء وصلوا إلى بئر مدورة التى تقع فى وادى بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيرى يقع على مسافة أكثر من ثلاثة أميال عن المخططة حيث يوجد اليوم قليل من أشجار النخيل التى توقف نموها مشيرة إلى وجود مياه ، إلا أن البئر نفسها تحولت إلى حفرة رمال جافة تماماً ، وفى عام ١٩١٧ كانت هناك مياه وفيرة إلا أن الأتراك لوثوها عن قصد بإلقاء جثث إبل ميتة فيها . وكان لحمها المنتفخ واضحاً ومقززاً للورانس وجماعته ، إلا أنهم رغم ذلك قاموا بملاء قربهم لأنها كانت المياه الوحيدة المتاحة وأصيب يلز وبروكس عقب هذا بنوبة إسهال حادة .

وعند مغيب الشمس ، تسلل لورانس وزعل والعسكريان البريطانيان على الأقدام إلى حافة الصخرة الأخيرة التى تطل على المخططة حيث كان الأتراك قد أقاموا متاريس حراسة حجرية من الصخر الرمادى الرقيق . ولا تزال تلك المتاريس قائمة . ولدى وصولي فى أحد الليالى زحفت صاعداً إلى القمة ذاتها لأطل على نفس أبنية المخططة التى تقع على الخط الحديدى الشبحتى التى نزلت منها القضببان وعربات النوم وجمعت فى أكوام . إلا أن الخط كان قد ظل مثبتاً فى ١٧ سبتمبر عام ١٩١٧ ، ونظر لورانس من أعلى القمة على سلسلة من المعاقل على طول رصيف المخططة ورأى نوافذها مضاءة بنيران الطهو ، وعلى مجموعة من الخيام يسكنها حوالى مائتين من الأتراك . وكتب لورانس لاحقاً أن المخططة كانت تبعد عن القمة بحوالى ٣٠٠ ياردة ، أى أنها أبعد من مدى مدافع من طراز ستوكس . وقرر أن يزحفوا إلى مسافة أقرب كى يجدوا موقعا أفضل ، حتى وصلوا إلى مكان قريب من العدو لدرجة أنه كان باستطاعتهم سماعهم يتحدثون ورأوا بوضوح وجه أحد الضباط الأصغر سناً الذى ترك المعسكر ليقضى حاجته ثم أشعل سيجارة يعود من

الثقاب. ثم انسحبوا إلى معقلهم في الجبل، وبحثوا هامسين أمر الهجوم: فقد كان عدد أفراد الحامية مائتين مقارنة برجالهم المائة وستة عشر، وشعر لورانس أن أبنية الخطة كانت أقوى من طلقات مدافع المورتار. وقرر ألا يجازف بقصف الخطة بل يعتمد إلى تلغيم الخط بدلاً من هذا.

إذاً نظرنا إلى القرار بعد ثمانين عاماً، لوجدنا أن دوافع لورانس لإفشال الهجوم غير مبررة. ففي صباح اليوم التالي لوصولي، قمت بقياس المسافة بين قمة التل وأبنية الخطة ووجدتها أقل من الياردات الثلاثمائة التي ادعاها، وعلى أية حال فقد كان من المحتمل أن تكون مدافع ستوكس فاعلة من هذا البعد. أما كون أبنية الخطة شديدة الصلابة، فقد فحصتها عن قرب ووجدت أنها كانت قد شيدت من نفس كتل البازلت التي بنيت بها كل الخطات الأخرى، ولا بد وأن لورانس كان على علم بهذه الحقيقة. بيد أن العقبة الرئيسية كانت فرقة العرب وانقسامهم. ورغم أن لورانس ألح فقط إلى هذا في طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» حيث قال «لم نكن أسرة سعيدة» فقد كان أكثر تحديداً في نص طبعة أكسفورد حيث بين أن فكرة الشار والحد كانت قد تملكت من الحويطات لدرجة أن كل بدوي كان يخشى أن يشي به الآخر أو أن يطلق عليه الرصاص من الخلف. وقد كانت عدم ثقته بالحويطات هي التي جعلته يعدل عن الهجوم. فلم يكن تلغيم القطار أكثر سهولة فقط من ناحية التحكم فيه، لكنه أيضاً كان عملاً محبباً إلى العرب حيث كانت أعمال النهب ميسرة. وقد سجل لورانس فيما بعد أن العرب كانوا يتحمسون لنسف القاطرات أكثر من حماسهم لأي شيء آخر.

وقرب المدورة ناموا جيداً، وفي الصباح، تحركوا عبر سهل كان قاحلاً حينذاك، أما الآن فقد اخضوضر بمشروعات زراعية. ووصلوا إلى حزام من التلال المنخفضة حيث كان خط السكة الحديد ينحني شرقاً كي يتخطى مشطاً مدرجاً لصخرة منحدره. واعتقد لورانس أن هذا موقع مثالي للتلغيم. فقد كان على القطار أن يبطئ كي يدور حول المنحني. كما أن التدريجات توفر مواقع رائعة لمدافع ستوكس إلا أنها كانت أكثر ارتفاعاً من أن تصيبها البنادق الآلية من طراز لويس، لكن بما أنها كانت تواجه الشمال تحديداً، فقد كانت تطل مباشرة على القضبان

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

وكان يمكن لها أن تكون قاعدة رائعة لقصف صف الجنود . ثم قاموا بإخفاء بنادقهم بين الصخور في أعلى الوادى ، وحملوا أسلحتهم ومعداتهم إلى القمة الصخرية . وعلى بعد ثلاثمائة ياردة كانت المعادن (القضبان) تعبر أسلاك أرضية ذات قوسين ، واختارها لورانس موقعاً لمفرقاته . وكان فى المرات السابقة قد استعمل مفاتيح ضغط للإشعال ، أما هذه المرة فقد جرب استعمال شحنة كهربائية تلحق بكابل وكابس ويتم إطلاقها باليد . وبدلاً من دفنها تحت الأقواس (القناطر) وضع أوطاله الخمسين من الجيلاتين المتفجر فى الرمل على السطح حتى يحطم الانفجار باتجاه أسفل الجسر وبعض العربات أياً كان ما سيحدث للقطار . أما الكابل ، فقد برهن على كونه مشكلة : فقد كان بمجرد دفن جزء منه يقفز جزء آخر من تحت الرمل . وأخيراً كان على لورانس أن يجذبه إلى أسفل بجلاميد صخر ثقيلة ، ثم قام بتسوية الرمال بعناية لإخفاء الآثار . لكن لسوء الحظ لم يكن بالإمكان رؤية الحفرة السفلية (القناة) من موقع إطلاق النيران ، لذا قرر لورانس أن عليه الوقوف فى منتصف المسافة بين مسار السكك الحديدية والمفجر (مفتاح التفجير) كى يعطى الإشارات لسالم - أحد عبيد فيصل - الذى تطوع بالقيام بمهمة ضغط الكابس . وكان هذا يعنى أن لورانس سيكون على مرأى من الجنود فى القطار .

وبمجرد أن تمت التجهيزات للكمين بدأت الأمور فجأة تسير سيراً خاطئاً . فقد تسلق البدو المكلفون بحراسة الإبل أعلى التل «ليستنشقوا النسيم» وكان بالإمكان رؤيتهم بوضوح من كل من محطة المدورة على بعد تسعة أميال إلى الشمال ، ومحطة حلة عمرو على بعد أربعة أميال إلى الجنوب . وصاح فيهم لورانس ليهبطوا ، إلا أن الأتراك كانوا قد شاهدوهم وفتح موقع أمامى النيران عليهم من مسافة ميلين ونصف . غير أن مغيب الشمس أنقذ العرب ونامت جماعة لورانس وهم واثقون أن الأتراك لن يحضروا للبحث عنهم فى الظلام . إلا أنه بعد فجر اليوم التالى بقليل شوهدت فرقة من أربعين تركياً تتقدم على الخط من حلة عمار . وأرسل لورانس ثلاثين من الحويطات للاشتباك معهم وإبعادهم ، إلا أنه مع حلول الظهيرة ، غادرت محطة مدورة قوة أكبر كثيراً قوامها حوالى مائة جندى تقدمت نحو الجنوب على خط السكك الحديدية . وقرر لورانس أن ينسحب ويترك الألغام إلى أن تحين فرصة أخرى . وفى هذه اللحظة صاح حارس من أعلى التل أن

هناك قطاراً يقف في محطة حلة عمار. واندفع لورانس إلى أعلى للمشاهدة،
وحيثما وصل هناك بدأت القاطرة في التحرك ببطء باتجاههم. وصاح هو وزعل في
البدو أن يحتلوا مواقعهم، وهرول القبليون والبريطانيون من مكان معسكرهم إلى
«المصطبة» التالية. واتخذ يلز وبروكس موقعيهما على «الرّف» بينما تفرق البدو
من حاملي البنادق بأسلوب مروحى في التصدعات والكوات على طول مسار
القطار وأثناء تقدم القطار رأى لورانس أنه يتألف من قاطرتين، لا قاطرة واحدة،
وحوالي اثنتي عشرة عربة مغلقة مكدسة بالقوات التركية، التي كانت تتوقع
هجوماً، لذا أخذ رجالها في إطلاق النيران عشوائياً في الصحراء من فتحات ضيقة
و«صناجر» على ظهر القطار. ودهش لورانس لرؤيته قاطرتين، وقرر بشكل فجائي
أن يفجر اللغم تحت القاطرة الثانية كي لا تقوى على جر العربات إن تعطلت
القاطرة الأولى. وفي اللحظة التي عبرت فيها القاطرة الأولى القناة السفلية رفع
لورانس يده، وأعمل الكابس. فصدر صوت رعدى واندفع دخان أرجواني داكن
وأبخرة لمسافة مائة قدم إلى أعلى من خلال كتل من الحديد المخطمة التي كانت تتجه
نحوهم، بما في ذلك عجلة قطار كاملة مرت من جانب رأس لورانس محدثة أزيزا
واندفعت في الصحراء يصاحبها رنين. وفجرت القناة الأرضية، وتعطلت القاطرة
الأولى وتحطمت الثانية إلى أشلاء صغيرة. وعلى الفور فتح السرجنت يلز وطاقمه
العربي نيران بنادقهم في قصف ممت توغل إلى أسطح العربات فأصاب الأتراك
وصرعتهم مثل القناني الخشبية وحطمت الألواح الخشبية وحولتها إلى وابل من
القطع الصغيرة. وطبقاً للعريف بروكس فقد تمشى لورانس بهدوء عائداً إلى موقع
البنادق على التل «متجاهلاً القصف الناري تجاهلاً تاماً بحيث جعلنا نشعر أن الأمر
كله لا يعدو أن يكون نزهة». ومن على «المصطبة» رأى لورانس والبريطانيون البدو
وقد تجردوا من كل ملابسهم عدا سراويلهم الواسعة وهم يقفزون من حفرهم
ويندفعون نحو القطار. وكانت هذه حركة غير مخطط لها، إلا أن أوان إيقافها كان
قد فات. وكان الأتراك يتدافعون خارج الأبواب من الجانب الشرقي ليحتموا
بالجسور ويسدوا النيران إلى البدو. ولما كانوا محتشدين جنباً إلى جنب أصبحوا
هدفاً سهلاً لمدافع المورتار وقذائفهم العريف بروكس بقنبلتين قتلت الثانية حوالي
عشرة. وتملك الرعب الأحياء منهم فأخذوا في الهرب عبر الصحراء معرضين

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء. غارة المدورة

أنفسهم مرة أخرى لرصاص بنادق اللويس التي أطلقت على جموع المنسحبين حتى سالت دماؤهم على الرمال وتناثرت أشلاؤهم على الأرض، وانقشع الدخان والغبار وسكنت المدافع التركية معلنة انتهاء المعركة. وحينما نظر لورانس إلى ساعته ذهل لأن هذا الاشتباك استغرق عشر دقائق فقط.

وهروا إلى الخط الحديدي ليفحص حجم الدمار ووجد البدو وقد تملكهم جنون الاستحواذ، فاندفعوا يشقون أبواب العربات ويحطمون البضائع ويتصايحون ويطلقون النار بدون تعقل ويندفعون داخل القطار ثم يخرجون محملين بالبالات والسجاجيد. وكانوا في حالة فقدوا فيها التحكم لدرجة أنهم تظاهروا بأنهم لا يعرفون لورانس وحاولوا ثلاث مرات انتزاع غطاء رأسه وخنجره إلا أنهم أجبروا على الابتعاد بالقوة. وجد لورانس القاطرة الأولى وقد مالت على جانبها ففجر أسطوانتها بشحنة من المتفجرات كي لا تستعمل بعد ذلك أبداً ومع هذا كتب إلى القيادة يقول: «إنني مازلت أخشى أنها قد تكون قابلة للإصلاح. فلم تكن الظروف تساعد على الأداء الجيد نظراً لمسئوليتي عن عديد من الأسرى والنساء» ولحق لورانس بالنهابين واختار لنفسه سجادة صلاة جميلة من بلوخستان. وكان البدو، الذين أصبح من الخيال السيطرة عليهم، يمسون بأية ناقة متجاهلين مالكة، ويحملونها بالغنائم ويرحلون. ولما اقتربت الحاميات التركية من المخطئين فر البدو إلى الصحراء. وفجأة وجد لورانس ويلز وبروكس، اللذين كانا قد عادا إلى التل لاسترجاع البنادق والكابل، أنفسهم بمفردهم. ومن ثم، كانوا على وشك أن يتركوا البنادق، حينما اندفع زعل بن طيبي وابن عمه حويل عائدين على نياقهما وساعدهم في تحميلها. وأشعل يلز وزعل ناراً مستخدمين طواحين الأسلحة الآلية والذخيرة الزائدة، ووضعوا عليها عشرين قذيفة مورتار مفكوكة وهربوا. وبينما كان الأتراك يتقدمون نحو القطار قابلهم وابل من النيران من القنابل المتفجرة والخرطيش.

وتجمع البدو في منطقة أكثر أمناً. وكما جاء في كتابات لورانس، فقد كانوا على وشك الانسحاب حينما اكتشف أن عبداً يدعى سالم، الذي قام بتفجير العبوة، كان مفقوداً. وطلب متطوعين ليعمدوا للبحث عنه وعن باقى الأدوات

المفقودة . ووافق زعل وعشرة من رجال الطويحة على القيام بالمهمة . وعادوا على إبلهم إلى الخط الحديدي ليجدوا أتراكاً كثيرين وسط الدمار . وحين تحققوا أن سالم لا بد وأن يكون قد مات حيث إن الأتراك لم يأخذوا أى أسرى من العرب ، توجهوا إلى موقع معسكرهم وأجبروا ، تحت وابل من النار ، أن يتركوا الأدوات . ورجعوا فوق القمم تحت غطاء من طلقات بندقية لويس الذى كان السيرجنت يلز يتولاها . ثم انسحبوا إلى بئر المدورة حيث ارتبوا وركبوا إبلهم واتجهوا مباشرة إلى وادى رُم ووصلوا هناك مساء اليوم التالى . وكانت خسائرهم قتيلاً واحداً ، وجريحين ، وخسائر الأتراك سبعين قتيلاً وستين جريحاً وتسعين أسيراً .

وكانت غارة المدورة أحد أنجح هجمات لورانس على الخطوط الحديدية وأكثرها إثارة . وكتب كليتون رسالة إلى أَللبنى يقول فيها « أرجو لفت انتباهكم إلى ما أظهره الميجور لورانس من بسالة ، وإلى الأسلوب الناجح الذى تحكم به فى قوته الصغيرة . وأود أيضاً أن ألفت انتباهكم إلى الأداء الجيد والمثابرة التى أبداهما السيرجنت يلز من القوات الجوية الملكية والعريف بروكس من قوات العمل الملكية اللذان كانا حديثي العهد نسبياً بالعمل . . . إن نجاح هذه العملية لا بد وأن يكون له آثار . . خارج نطاق أهمية العملية ذاتها ، إذ إنها سترفع من معنويات العرب وسيتم تناقلها بالطبع ، الأمر الذى سيزيد من قدرتها » . ويقع اليوم التل الذى ثبت لورانس عليه مدافعه وبنادقه من طرازى الستوكس واللويس على الحدود بين الأردن والسعودية ، وباستطاعة الفرد تسلقه مع مخاطرة استشارة عداء حرس الحدود ، ويمكن أن يرقد على الرف الحجري فى « صنجر » حجرى ، والذى قد يكون من بقايا المعركة ، ويطل على نفس مشهد مسار القطارات الذى شاهده السيرجنت يلز من منظاره يوم ١٩ سبتمبر ١٩١٧ . وسيرى أيضاً على بعد ٥٠٠ ياردة ، حطام عربة قطار ملقاة على جانبها ، تلك التى فجرها لورانس ، وسيتحقق أنها عربة مفتوحة ، رغم أن لورانس حدد فى جميع تقاريره أن القاطرة كانت تجر عشرين عربات مغلقة ، وسيبحث الفرد ، دون جدوى ، عن الجسر الذى وضع عليه لورانس عبوته . إذ لم يعد موجوداً ، ولكن إذا كان يتمتع بالصبر لقطع المسافة من التل حتى السد ، فسيجده مدفوناً فى الرمال ، وسيجد كسارات قناة ذات قوسين ، قد تكون القناة التى فجرها لورانس فى هذا اليوم من شهر سبتمبر منذ ثمانين عاماً فى

الفصل السادس عشر: عرض هواة من الطراز الأول. عبور سيناء، غارة المدورة

غضون عشر دقائق حيث قتل هو ورجاله سبعين من الأتراك . ومن الصعوبة تقدير رد فعل لورانس على هذا القتل . فقد كتب خطاباً في ٢٥ سبتمبر إلى الميجور فرانك ستيرلنج ، وكان زميلاً في القاهرة على وشك أن يعين في الجبهة العربية ، يصف فيه البهجة بلغة صبي مغامر من الكشافة ، تلك اللغة التي لا بد أنه رآها مناسبة لضابط محترف : «آمل أن تجد هذا مسلياً ، كما هو بالفعل . إنه عرض هواة لاه من الطراز الأول . إنك ستجد التجربة فردوساً ، حيث لا يوجد أى عائد ، أو أوامر ، أو رؤساء ، أو أطباء ، أو وجبات ، أو شراب » . فقد كان لورانس دائماً خبيراً في الصخب المتبجح والاستعراض ، لكن كانت ثمة روح حساسة تحت السطح . فإن صورة مختلفة تماماً تظهر في خطاب كتبه قبل هذا بيوم واحد إلى إدوارد ليدز : آمل حينما ينتهي هذا الكابوس أن أستيقظ وأحيا مرة أخرى . . فلن أتحمل العيش حتى نهاية هذه اللعبة . فإنني (أشعر) أني في سبيلي إلى فقد أعصابي ، كما أن مزاجي يتهلهل . إن هذا قتل . . . وقتل الأتراك هذا مرعب . فحينما تشن الهجمة ، لتجدهم في النهاية أشلاء متناثرة ، والبعض منهم أحياء . . وتعلم أنك قد فعلت الشيء نفسه بمئات آخرين ، وعليك أن تفعله بمئات أخرى إن استطعت » . ولا يمكن الإجابة على السؤال الذي يطرح نفسه ، عما إذا كان اعتبار أحد هذين الخطابين ، أو كليهما موضعاً لشخصية لورانس «الحقيقي» ، أو أن الاثنين ببساطة انعكاس لشخصيتي متلقيها المتناقضتين .

أفضل الأعمال
من
الأساطير
عشر

أحمد بن باقر: شركسي من القنيطرة

عملية اليرموك وحادث درعا

أكتوبر ١٩١٧ إلى يناير ١٩١٨

17

امتطيت جملاً يدعى

شايلان صباح أول أبريل - وكان

جمل سباق شهيراً من الحويطات -

أسفل سلسلة باغودات [هيكل متعدد

الأدوار] أم صلاب راعية رُم ، وعبر

السبخة التي تسمى بالقاعة باتجاه

صدع وادى حفيرة . كنت أحمل

«أعمدة الحكمة» في الخرج ، ولو صدق

لورانس ، فلا بد وأن أجد في نهاية

الوادى طريقاً شديداً الانحدار يصل بى

على ارتفاع ألفى قدم إلى قمة هضبة

شيراى .

وشعرت بحرارة الجو قبل بزوغ الشمس بوقت طويل ، وقبيل الفجر كانت السنة من الظلال الليمونية والبرتقالية تلحق عبر اللون البنى للتلال ، وتتخيرها مثل تخير المرء كعكاً محلى بالسكر ، وتلمع أشعتها على مرآة ملاحات القاعة . وكان الضباب الذى تبخر من مراعى نباتات الرمث والرطام السميكة يغلف وادى حفيرة نفسه . وصلت أسفل الممر عند الظهيرة ، وتسقلت بطن واد كان ينحنى بلطف باتجاه قمة صغيرة فى بياض الثلج على ارتفاع آلاف الأقدام . وأخذ الوادى يضيق وتنحنى جوانبه أكثر حتى أنى كنت أسحب الجمل من لجام رأسه فى صدع من الصخور يتسع فقط لمرورنا . وترنحت محاولاً شق طريقى ، وفجأة ضاقت الجدران لدرجة أن احتك أحد «جراكن المياه» على ظهر «شايلان» وثقب وبدأت المياه تقطر منه مما أثار غضبى المجنون . وكانت الشكوك قد ساورتنى منذ ولجت الوادى . فلا يمكن ، بالتأكيد ، أن يكون هذا هو الطريق الذى نسلكه لورانس فى صحبة جيش كامل من العرب ، وكتيبة مدافع آلية هندية ومئات من الإبل لأنهم

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

كانوا، ببساطة، لن يتمكنوا من المرور. خشيت أن يضيق الصدع بحيث لا أستطيع أن أدير الجمل لنعود أدراجنا. إلا أنني، ولسبب ما، تابرت ببطء في القيط الشديد الذى كان يتردد بين جنبات الصدع الذى وجدته ينتهى فجأة أسفل صخرة شديدة الارتفاع. فلم يكن هذا بالتأكيد، الطريق الذى سلكه لورانس. ولعنت نفسى وأنا أدير الجمل وأفلت راجعاً. بيد أن قصفاً رعدياً وحشياً فاجأنى، وللحظة تجمدت فى مكانى، فقد كان ثمة هواء بارد يتدفق، ثم هطلت أمطار أخذت تشقب رمال الوادى. وتملكنى الرعب. فلو أن الأمطار كانت غزيرة على الهضبة فستنهمر مياهها فى الوادى وتحبسنى هنا بين الجدران.. ونظرت حولى. وفكرت فى ترك الجمل والتسلق إلى أقصى ارتفاع ممكن. ثم توقفت الأمطار بعد ثوان، فحمدت الله، واندفعت مهرولاً إلى أسفل الطريق على قدمى، وأنا أسحب شايلان الحرون خلفى.

وأدركت أن لورانس لابد وأن اتبع كتف الوادى. إلا أن المسير هناك لم يكن أكثر يسراً. فلم يكن ثمة ممر واضح. وكنت كثيراً ما أتعثر فى الكتل الصخرية، ثم

سقطت وجرحت قدماي. كنت أسير متذبذباً، نصف منزلق على حصي مفكك، وأحفظ توازني على نتوءات لا يتعدى عرض كل منها اثنتى عشرة بوصة، ووجدت طريقاً إلى ممر مائي غريب مهديم من الحجارة الأرجوانية والفلسبار (سليكات الألومنيوم) البيضاء. وحدث أن اقتربت من حافلة هاوية لدرجة أن شايلان، الذي كان يشب ويجفل، كاد يدفعني إلى أعماقها. وشككت مرة أخرى في أن يكون جيش لورانس قد سلك هذا الطريق. ورغم أنه قد كتب في تقريره أنه فقد جملين سقطا على جانب التل، ذات مرة أثناء تسلقه فقد ذكر أيضاً أنه سار، في مناسبة أخرى، في الممر دون أن ينزل عن ناقته إلا في موقع أو موقعين عسيرين. وارتعدت من مجرد فكرة امتطاء الناقة على هذه الكتل الصخرية الحادة والممرات الشديدة الانحدار. إلا أنه كان من الواضح لي أن هذا الطريق هو نفس الطريق المهديم المتعرج لأنني، حينما حملت خلفي، أسفل مئات الأقدام، استطعت رؤية شارع حفيرة الذي تغطيه الأعشاب، والذي ينتهي بتل مخروطي، وبدا وأنه بقع في مركز الوادي وتطلله كلة «رم» الشفافة كما وصفها لورانس تحديداً. وكان تسلق التل صعوداً وأنا أسحب الجمل خلفي أحد أكثر التجارب التي خبرتها إرهاقاً. وحينما وصلت إلى القمة، كانت الشمس على وشك الغروب. واستغرق مني الصعود ست ساعات. ولم يكن بمقدوري أن أصدق أن لورانس قد تمكن أبداً من امتطاء ناقته صعوداً وهبوطاً على جانب هذا التل شديد الانحدار دون أن ينزل عن السرج، إلا أنني فكرت أنه، رغم سنوات خبرتي، فقد كان لورانس يفضلني في السفر بالإبل.

وقد رأى لورانس في حفيرة معبراً من بلاد العرب إلى سوريا، بين الحرارة والبرودة، بين أشجار الطرفاء والأسفنتين. وفي الواقع، كانت الهضبة عالماً مختلفاً تماماً عن رُقع «رم» الرملية، كانت منطقة مستنقعات صفراء متموجة دون شكل مميز تصل إلى المدى البعيد. وفي صدع، يقع بعد الموجة الأولى، التقيت بمجموعة من خيام البدو، وبينما كنت أسير إلى جانبها، عوت الكلاب في وجهي، وخرج إلى بدوي في دشداشة سوداء، ودعاني إلى قضاء الليلة هناك. ثم أراني كيف أنبج جملتي، بينما ساعدني خمسة أو ستة من البدو، يرتدون الشياب الملهله، على إنزال حمولة الجمل. ثم رحبوا بي داخل الخيمة حيث كانوا قد أشعلوا نارا من

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

أخشاب الرمث فى مربع فى الوسط . وأفسحوا لى مكاناً بينهم . ثم قاموا بدبح شاة بعد الظلام، وجلسنا إلى جوار النار لساعات نحتسى الشاي والقهوة، ونتحدث حتى جاءوا باللحوم على صينية قطرها ياردة، وكان عليها عُجز الشاه وضلوعها، ووضع الرأس فى وسط الصينية وقد بدا فكاه وكأنا نأجمدت عليهما ابتسامة شيطانية. وذكرتنى هذه بصينية الأكل الكبيرة التى وصفها لورانس وكأنها حوض استحمام غير عميق، وقال إن عرضها كان خمسة أقدام وتستند إلى رجل واحدة. وكانت تلك هى صينية عودة بن طيى . وكان مضيفى من الحويطات، وسألته عن صينية عودة العملاقة. فأخبرونى أنه لدى احتلال الجيش الأردنى جفر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، تم نهب كثير من ممتلكات عودة وربما يكونون استولوا على الصينية من بين أشياء أخرى. وأخبرنى مضيفى محمد بن سالم، الذى كان قد عمل فى شرطة الهجانة فى الصحراء، أنه قد رأى وهو صبي، صينية محفورة، فى جفر، إلا «أن عرضها لم يكن خمسة أقدام، بل كانت فى الحجم المعتاد». وشككت فى أن تكون القصة هى إحدى «مبالغات» لورانس. فقد كتب فى مدخل مذكراته الأصلية «كان عرض الآنية ثلاثة أقدام»، ثم شطبها وكتب «خمسة أقدام. وبعد ذلك قرأت فى تقرير ألوا موسيل الذى كان قد تناول الطعام مع عودة عام ١٩١٠ ووصف الآنية، وأعتقد أنها كانت هى ذاتها، بأنها كانت من الحجم المعتاد، أى حوالى ثلاثة أقدام عرضاً. فلو أن لورانس قد بالغ فى شأن تافه كهذا، فهل بالغ فى وصفه لمر الحفيرة؟ وسألت الحويطات عن رأيهم، فضحك الرجل الأكبر سناً، وأخبرنى محمد قائلاً، كانت حفيرة مختلفة فى زمن لورانس. لم تكن ثمة طرق أو سيارات، وكان المر يقع على الطريق الرئيسى من الحجاز إلى معان، وكانت تمر فيه مئات الإبل كل يوم. واعتاد الحويطيون الحليون الحفاظ عليه وتنظيفه وإزالة الأحجار التى تسقطها الأمطار على التلال. أما الآن، فكل فرد يملك سيارة. وهناك طرق تؤدى إلى نقب الشطار. ولا يستعمل المر الآن سوى الرعاة، ولا أحد يهتم بنظافته. لهذا وجدت صعوبة فى السير فيه. أما فى الماضى، فقد كان مثل طرق السيارات، وكان بإمكانك ركوب ناقتك ذهاباً وإياباً».

وفى هذه الليلة، خلدت إلى النوم فى الخيمة وأنا أشعر بالرضا إذ إن الحويطات قد قاموا بتبرير تجربة لورانس وتجريتي.

وكان مضيفي من عشيرة الدمانية من الحويطات - وهم قوم الشيخ جاسم أبو دميك ، الذى هدد قبل «المدورة» بأنه سيلحق بالأترك ، لكنه لم ينفذ وعيده ؛ ولدى عودة لورانس إلى رُم عمل على إرضاء جاسم واقتصر على استئجار رجال من الدمنيين فقط للغارة التالية على الخط الحديدى عند الكيلو ٥٨٩ جنوب معان . وكان قد سلك ممر الحفيرة لأول مرة أول أكتوبر عام ١٩١٧ أثناء مسيرته للقيام بهذه الهجمة . واستغرقت العملية ستة أيام . وأخيراً ، وبعد انتظار عدة أيام ، كان لورانس قد لغم قطاراً وحطمه عند إمشاش الحسمة ، وادعى أنه أصيب فى فخذه برصاص ضابط تركى . وفى الأشهر التالية ، حطم لغاموه المدربون سبع عشرة قاطرة ، وأعاقوا الخط إعاقه خطيرة ، بالضبط كما كان قد حدد . إلا أنه طار فى منتصف أكتوبر إلى الإسماعيلية لمقابلة ألنبي مرة ثانية .

وكان ألنبي يخطط لهجوم كبير على خط غزة - بئر سبع فى نوفمبر . وكان لورانس قد وعده فى شهر يوليو بإشعال ثورة عارمة فى سوريا كى يؤمن الجناح البريطانى ، إلا أنه ، وبعد ثلاثة أشهر ، كان يبغض القيام بمثل هذه الخطوة التى لا رجعة فيها ؛ فقد أصبح التقرير الفصل الذى كان قد قدم إلى كليتون بعد الاستيلاء على العقبة مجرد «تاريخ قديم» حيث إنه رغم إنجاز هده المباشر ، أى الدعم البريطانى الكبير للثورة العربية ، إلا أنه سرعان ما أدرك عدم استطاعته التنفيذ ، حيث إنه فى حالة فشل هجوم ألنبي ، أو الفشل فى الوصول إلى يافا والقدس ، سيصبح المتمردون العرب معزولين وسيقتلهم الأترك . فلم يكن عرب سوريا بدوا رحلاً ، بل فلاحين مزارعين ، يحيون فى قرى مأهولة ، وليس باستطاعتهم الاختفاء فى الصحراء مثل رعاة الإبل ، أى أنهم كانوا سلاحاً يستعمل مرة واحدة ، ويهدر تماماً إن انطلق قبل الوقت المناسب . وقد رأى ألنبي أنه بالإمكان التضحية بالعرب ، إلا أن هذا لم يكن رأى لورانس الذى رغب بشدة أن تنجح الثورة العربية . ومن ثم ، قرر أن يكرس جهده لتنفيذ اقتراح كان فى الأصل جزءاً صغيراً من خطته الرئيسية - أى الهجوم على الجسر الواقع فى أقصى الغرب فى وادى اليرموك ، عند جسر الحمى ، وكان عبارة عن بنية معقدة من الصلب تمتد أعلى وهدي مظمور يحرسه حوالى ستة رجال . وقد رأى أن تدمير هذا الجسر سيعطل الخط الحديدى لمدة أسبوعين . فإن تمكن العرب من تفجير الجسر فى تزامن تام لخطة مطاردة ألنبي

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

للأتراك ، فسيقطع بذلك كلية الخط الرئيسى الذى سيستخدمونه فى تراجعهم إلى دمشق ، ويجبرون على الانسحاب سيراً على الأقدام ، وقد تكون تلك هى اللحظة المناسبة كى يشور الفلاحون على الأتراك ويعوقون تراجعهم . ووافق ألبنى على الخطة ، وطلب من لورانس قطع الخط يوم ٥ نوفمبر ، أو فى أى يوم من الأيام الثلاثة التالية .

كانت خطة لورانس هى أن يتبع فى عملية اليرموك الحركة التدريجية المفلتة التى اتبعها فى العقبة بنجاح عظيم . فقرر أن يسير مع خمسين رجلاً يفضل أن يكونوا من حويطات عودة ، أى البدو الوحيدين الذين كان يعتقد أنهم يملكون الشراسة الكافية للاستيلاء على الكوبرى بهجمة أمامية . كما اعتزم السير فى طريق مواز للصحراء من الرم إلى الأزرق ، أو الواحة التى تقع فى الصحراء السورية والتى كان قد التقى فيها بنورى الشعلان ؛ وبعد أن يستأجر مجموعة بدو من قبائل بنى صخر وبنى حسن وبدو ورجال السرحان ، يندفع مسرعاً فى الأراضى السورية المزروعة ويهاجم الكوبرى . أى أنه خطط للعملية لتكون صورة من عملية العقبة بالقدر الذى تتيحه الظروف ، كما أن هناك دعماً للبدو هذه المرة من فرقة من المدفعيين الهنود بقيادة حسن شاه ، مدربين على ركوب الإبل بعد أن قضوا شهوراً عدة يلغمون سكك حديد الحجاز ، كان سيرافق لورانس فى هذه المهمة الملازم وود من سلاح المهندسين الملكى ، الذى أوكل إليه زرع اللغم فى حالة إصابة لورانس ؛ كما كان مقرراً أن يرافقه فى جزء من الرحلة رجل البنوك الويلزى السابق لويد جورج الذى أدمن لورانس حديثه . ويقود الفريق الشريف على بن حسين الحارثى أو «اللورد الشاب» ذو الشجاعة وحسن المظهر ، بدلاً من ناصر ذى الشخصية الكاريزمية الذى كان ينفذ مهمة أخرى .

ولا يكاد يوجد ثمة شك فى أن الشريف كان موضع جاذبية للورانس الذى كتب عنه «لا أحد يستطيع أن يراه دون أن يرغب فى رؤيته مرة أخرى ، خاصة حينما يتسم بشفتيه وعينه معاً ، وهو أمر كان نادراً . لقد كان جماله سلاحاً أدرك هو أهميته» . ويعتقد البعض أن S.A الذى أهدى إليه لورانس الكتاب كان الشريف على وليس سالم أحمد . وكان مثل داهوم «ذا جمال جسد رائع» ،

وعلى حين كان الصبى السورى «مصارعاً رائعاً» كان على ، على حد قول لورانس ، قوياً كالثور ، باستطاعته أن يجثو على ركبتيه ثم يقف على قدميه وهو يحمل رجلاً فى كل من يديه . وقد ادعى لورانس أن علياً لم يكن «بإمكانه فقط اللحاق بناقة تجرى على بعد نصف ميل منه ، بل والقفز أيضاً على سرجها» ، ولم يكن يصطحب أحداً فى عملياته لا يستطيع حمل بندقيته بيد واحدة . كما كتب أيضاً عنه «ليس بالإمكان سبر أغوار الشريف ، وهو أيضاً شخص عنيد مغرور ، لا يبالى بالقول أو الفعل ؛ ويحوز الإعجاب (إن هو أراد) فى المناسبات العامة ؛ كما أنه على قدر جيد من التعليم . أما طموحه المحلى ، فكان التفوق على بدو الصحراء فى الحرب والرياضة» . وباختصار ، فإن الشريف نسخة من عودة أبو طيبى ، لكن أكثر إثارة للغيرة ، وأصغر سناً . وكان لورانس يدعو الشريف بمودة «علياً الصغير» . وقال عنه إنه كان لديه على الأقل ، عشيق واحد من الصبية ؛ من بنى صخر فى السابعة عشرة من عمره يدعى تركى .. كان الحيوان فى داخل كل منهما ينادى الآخر وهما يتجولان معاً متمتعين بالتلامس والصمت» .

غادر لورانس العقبة يوم ٢٤ أكتوبر مع لويد ، ووود ، وجندى من الفرسان يدعى ثورن ، وفرقة من جنود البنادق الآلية من الهنود ؛ وقضوا ليلتهم فى رُم حيث لحق بهم الشريف على ، وأمير جزائرى يدعى عبد القادر ، كان فيصل يعرفه ، وكان يمتلك عدة قرى للمنفين الجزائريين على شاطئ اليرموك . واعتقد لورانس أن فلاحى عبد القادر قد يكونون عظيمى النفع كما أنهم قد يستطيعون شن الهجوم على الأتراك دون أن يتسببوا فى ثورة عامة ، الأمر الذى كان يحرص على تحاشيه ، نظراً لكونهم أجناب ومحل بغض من العرب . وكان لورانس قد تلقى برقية من الكولونيل برمود ، من البعثة الفرنسية ، يحذره فيها من عبد القادر كجاسوس للأتراك . ولم ير لورانس داعياً للشك فيه ، وعزا الأمر إلى عدم ثقة متبادلة حيث كان جد عبد القادر قد قاد المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين - وكان هذا لا يقلل من قدره إطلاقاً فى نظر لورانس . وفى صباح ٢٦ أكتوبر تسلقت قوة الإغارة ممر حفيرة وعبر الرجال الخط الحديدي يوم ٢٧ دون حادث يذكر ، ووصلوا جعفر فى اليوم التالى .

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

ومن هذه النقطة أصبح حسن الحظ الذى رافق لورانس فى العقبة أشد وضوحاً لغيابه هنا. فأولاً، لم يستطع إقناع حويطات طويحة الذين التقى بهم فى جفر بالاشتراك فى عملية الإغارة؛ فحتى رجل الغزوات الشهير على أبو طيى عاش مستسلماً بعد هجمة المدورة. فاضطر لورانس لاستئجار خمسة عشر من بني صخر، وثلاثين من السرحيين فى الأزرق، ولم يكن أحد منهم يبدى حماساً حقيقياً للهجمة. بل أجبره السرحيون على الاعتقاد بأن هدفه، أى مهاجمة الكوبرى الواقع فى الحمى، لا يمكن تحقيقه نظراً لازدحام جبال إبرد القريبة بالخطابين الذين كانوا يعملون مع الأتراك. ومن ثم، اضطر إلى تغيير خطته، ووافق بغير حماس، على مهاجمة تل الشهاب، أى أقرب كوبرى جغرافياً، من الأزرق. وكان هذا هدفاً محفوفاً بالخطاطر إذ إنه كان عليه المرور فى أرض مزروعة أهلة بالسكان يصعب على الإبل السير فيها لأنها أرض رطبة، قد تحول أيضاً دون التراجع السريع. وفى يوم ٤ نوفمبر، اختفى عبد القادر ورجاله من الأزرق. ودهش لورانس لهذا وساوره القلق، ورغم أنه كتب فيما بعد أنه شك فى أن يكون الجزائري قد ذهب إلى درعا ليحذر الأتراك من الهجمة المرتقبة، إلا أنه أرجع انسحابه فى حينه إلى مجرد الخبن حيث كتب لجويس فيما بعد «قول دون فعل. . فلم أفعل أنا أو على ما يسيغه».

كانت نقطة بداية الهجمة نبعاً عند أبو صوانة، حيث وصل الفريق فور رحيل مجموعة من الفرسان الشراكسة كان الأتراك قد أرسلوهم لاستطلاع المنطقة. ثم رحلوا يوم ٧ وانتظروا فى السهل شرق السكك الحديدية ساعتين؛ وبعد الظلام، عبروا الخط وساروا بإبلهم غرباً ونزلوا منخفضاً ضحلاً فى غدير الأبياد حيث اختطفوا سويغات من النوم بين إبلهم المحملة، قبل شروق الشمس. ولم يكونوا ليستطيعوا التحرك قبل الغسق حتى لا يكتشفهم أحد. وكان عليهم بعد ذلك التسلل لمسافة أربعين ميلاً إلى الكوبرى ويفجرونه، ثم العودة متسللين عبر الخط الحديدى مع فجر اليوم التالى. وكان الليل يستمر ١٣ ساعة، أى أنهم كان لديهم ثلاث عشرة ساعة من الظلام يكملون فيها العملية. وشعر لورانس أن فرقة البنادق الآلية الهندية لن تتمكن من قطع الأميال الثمانية فى غضون هذه المدة. لذا، انتقى من بينهم ستة من أفضل ممتطى الإبل بقيادة حسن شاه لمرافقته ومعهم بندقية آلية واحدة من طراز فيكرز. فقد اعتقد أن بإمكان عشرين رجلاً فقط

السيطرة على الكوبرى، وكان من الممكن أن يفعل الهنود هذا لولا قلة عددهم. ورغم شكوكه فى السرحيين، كان بنو صخر موضع ثقته تحت قيادة شيخهم فهد، ومن ثم عينهم كفرقة العاصفة فى العملية. ومن أجل تيسير عملية التدمير، أعاد وود تعبئة الجيلاتين المتفجر فى حمولات زنة كل منها ثلاثون رطلاً ليسهل التعامل معها فى الظلمة على سفح التل شديد الانحدار.

وامتنطى الجميع إبلهم عند الغروب وساروا يلفهم الصمت من المنطقة التى رقدوا بها إلى تل الأشهب متبعين طريق الحج القديم. ولم يكونوا فى حالة مزاجية حسنة بل إن لورانس نفسه تملكه إحساس سيئ إزاء الغارة، وكان قد أتعسه فرار عبد القادر، وكان يائساً من نجاح الثورة العربية، أما طريق الذهاب فكان زلماً بالنسبة للإبل؛ وتطلب الأمر صعوداً وهبوطاً على مرتفعات صخرية مليئة بالكسارات، والسير فى حقول زراعية محروثة، أو مروج مليئة بمصائد الأرانب. وساد التوتر بين الرجال. ثم التقوا بأحد التجار وأسرته ومعهم حميرهم، الذين أجبروا على احتجازهم تحت حراسة حتى الفجر. وبعد ذلك، أطلق عليهم أحد المزارعين بندقيته مرة تلو الأخرى لاعتقاده أنهم مغترون يقصدون مزرعته وظل يصرخ فى الظلام. وبمجرد تمكنهم من الفرار فاجأهم جمل ضال وكلب ينبج. وفجأة بدأ الرذاذ يسقط وأصبحت الأرض زلقة من الخطر السير عليها لدرجة أن الإبل أخذت فى الانزلاق وسقط منها اثنان أو ثلاثة على الأرض. ثم توقفت الأمطار ومروا أسفل خط للبرق حيث سمعوا صوت المياه المتساقطة على تل الشهاب. ثم أناخوا إبلهم فى صمت، وساعد وود فى تجميع البندقية الآلية، على حين نقل لورانس ومجموعته الجيلاتين أسفل منحدر موحل باتجاه الكوبرى. ثم سمعت فجأة قرقعة قطار يمر، ورقد لورانس منبطحاً على بطنه، ولمح، لبرهة، جنوداً فى أزيائهم الرسمية قبل أن يعاود زحفه مع فريقه نحو الكوبرى. وزحفوا كالأفاعى فى الوحل حتى قاربوا الأجزاء المعدنية وأبصروا حارساً واحداً بدا واضحاً فى ضوء نار مشتعلة فى الناحية المقابلة على بعد ستين ياردة. وزحف لورانس وفهد آفلين كى يقودا الرجال من حملة المفرقات، إلا أنه وقبل وصولهم إليهم أسقط واحد من السرحيين بندقيته فأحدثت دويماً ورنيناً اخترق الظلام تماماً كأنه طلقة نارية. وتجمد لورانس. وصاح الحارس التركى متحدياً وسار مع دورية باتجاه الضوضاء وهو يصيح على باقى

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

الحراس الذين اندفعوا خارج خيمتهم وأخذوا فى إطلاق النار فى الظلام. ورد بنو صخر الطلقات إلا أن رجال البنادق الآلية كانوا مازالو مشغولين بتجميع البندقية ولم يلحقوا بالآخرين، أثناء إطلاق النيران. وخشى السرحيون الذين كانوا يحملون الجيلاتين من انفجاره إذا أصابته طلقة فألقوا به فى الوهد. وتملك المجموعة الخوف، فاندفع السرحيون باتجاه إبلهم، وتبعهم لورانس والهنود وبنو صخر مسرعين. وكان إطلاق النيران قد نبه القرية، وبدأت الأنوار تشتعل لتضىء الريف المظلم. وحينما قابل السرحيون مجموعة من الفلاحين سرقوهم مما زاد الشعور بالخطر. ولمسافة أميال عديدة، صعد القرويون إلى أسطح منازلهم وأخذوا فى إطلاق الرصاص على مجموعة لورانس، بينما هاجمهم مجموعة من راكبي الخيول من الجانب. وكانت الأرض زلقة تتأرجح عليها الإبل وهى تحاول تخلص أطلافها، ومن ثم، احتل لورانس وعلى مكانيهما خلفها وهما يحاولان دفعها إلى الأمام. ثم تحرك أعضاء المجموعة مسرعين وقد تملكهم شيطان الخوف. وسرعان ما أصبحت الطلقات خلفهم. ومع انبلاج الضوء، كانوا قد وصلوا إلى الخط الحديدى جوعى ومنهكين. وسمع لورانس أصوات مدافع أللبنى الثقيلة تتراعى فى الفضاء من ناحية فلسطين واعتبر الصوت بمثابة لوم على فشله. فلو نجحت هجمة أللبنى سيكون لدى الأتراك خطأ خالصاً للأنحساب بطول الخط الحديدى. ولو أنه نجح فى قطع الخط الحديدى ما وجد سبيل لهروب رجل أو بندقية أو عربة، ولفتح السبيل لثورة عربية عامة فى سوريا. ورغم أنه نجح فى تلغيم قطار جمال باشا قرب منيفر. وفى اليوم التالى، عرف أنه قد فقد كل الفرص العظيمة التى كان يأمل فيها. فقفل عائداً إلى قلعة الأزرق يائسا، ووصلها يوم ١٢ نوفمبر.

أما قلعة الأزرق فقد كانت قائمة منذ أيام الرومان على شاطئ بحيرة متسعة ضحلة تتجمع فيها مياه وادى سرحان العظيم بعد سقوط المطر. وحتى ستينيات القرن العشرين على الأقل، كانت القلعة تقع فى واحة فريدة فى الصحراء السورية. وكانت منطقة غابات ومستنقعات تسكنها جميع أنواع الطيور المائية والفهود والضباع والخنائير البرية وحتى الجاموس. وكانت ذات يوم تجذب الصيادين من جميع أنحاء البلاد العربية. ولا بد أن القلعة البازلتية السوداء، فى زمن لورانس،

كانت تبعد أميالاً عبر الرمال والحقول البركانية المترامية. أما اليوم، فقد تبددت تقريباً في شوارع فقيرة بها مباني سكنية من الطوب الأسمنتى الخفيف، ومحطات وقود، وأسلاك شائكة. واختفى منها السحر الذي يصفه لورانس ومعه مياه البحيرة التي سحبت إلى عمان. وصلت الأزرق في سيارة أجرة صفراء مع صديق لي من القوات الأردنية الخاصة سابقاً، ويدعى محمد الحبابة ثم سرنا معاً إلى القلعة ووجدناها في حالة جيدة من الداخل بشكل أدهشنا. وكان راعيها، شيخ درزي بدا لنا معتوهاً، وكان مولعاً بإقحام كلمات إنجليزية بذيئة في حديثه. ثم أَرانا صورة لوالده الذي كان ضابطاً درزياً ادعى أنه عمل مع لورانس، رغم أن الدروز عامة لم يلتحقوا بصفوف الثورة إلا بعد سقوط دمشق. وتجول معنا ونحن نسير من جدار إلى جدار متتبعين وصف لورانس في نسخته من «أعمدة الحكمة» التي كانت قد سقط عنها غلافها، وكانت أكثر الخاصيات تميزاً للقلعة هي أبوابها الحجرية.. وهي ألواح عملاقة من البازلت سمك كل منها قدم وتزن أطنانا وقد ثبتت بمهارة على مفصلات «مشحمة» بحيث يمكن لرجل واحد فتحها وإغلاقها بسهولة. وكتب لورانس أن الباب الرئيسي كان مسدوداً أثناء إقامته، وكان هناك حارس متمركز عند البوابة الخلفية مهمته إغلاقها بعد غروب الشمس وكان صوت الإغلاق يتردد في أنحاء القلعة. وشاهدنا المسجد الذي كان يستعمل حظيرة للأغنام حتى قام حسن شاه، قائد فرقة المدفعية الهندية، بتنظيفه وتطهيره. وفحصنا البرج الجانبي الذي اختاره الشريف على جناحاً له لدرجة أننا تعرفنا على الشق الجداري (الذي تم إصلاحه، وكان لورانس قد أحدثه لإدخال الإبل في الليل). وأعلى غرفة الحراسة، كانت الغرفة التي احتلها لورانس وهي علوية متسعة ذات نوافذ منخفضة تنفذ منها أشعة الضوء تتخللها ذرات الغبار. ووجدت الجزء الذي يصف فيه لورانس تجمع رجاله في الليالي الباردة حيث كانوا يوقدون النار ويجتمعون متشجين بعباءاتهم يتلون الشعر والقصص، بينما تدور عليهم أقذار القهوة. وفي تلك الليالي، وبينما كانت الرياح تصطدم بجدران القلعة، كانت تُسمع أصوات نحيب وتنهدات شبيهة من الشرفات المفرجة، وكان البدو يُعزونها إلى كلاب بني هلال (الأشخاص الأسطوريين الذين شيّدوا القلعة) - التي كانت تجوب الأبراج الستة سعياً وراء أثر لأسياهم الذين فقدوهم.

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

وإدعى لورانس، لدى وصوله عائداً إلى قلعة الأزرق يوم ١٢ نوفمبر، أنه أصيب بما لا يقل عن خمسة جروح من طلقات في هجمته على منيفر، كما كسرت أصبع قدمه وتم تجبيرها بشريحة سقطت من غلاية القطار المتفجر. وكانت هذه هي الحركة الأولى من كونشرتو عقابه لذاته علنياً لفشله في اليرموك. ومثلت الفترة ما بين ١٤ نوفمبر وبين عودته العلنية إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر إحدى هبوطاته السرية إلى العالم السفلي حيث لا يوجد شيء يقينى بشأنها. وطبقاً للورانس نفسه، فقد عانى أثناء هذا الأسبوع أكثر خبراته مهانة وانسحاقاً أى: القبض عليه وتعذيبه واغتصاب الجنود الأتراك له في درعا. وفي نص عام ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» تتميز تلك النقلة الفجائية من الشعور إلى اللاشعور، ومن المحدد إلى العام، بانقطاع التتابعية الزمنية. فيحدد لورانس حتى يوم ١٤ نوفمبر تاريخ الأحداث على كل صفحة، أما في الصفحات الأربع التالية، فنجد أنه يخبر القارئ أن الشهر هو نوفمبر عام ١٩١٧. وتستمر الفجوة حتى عشرين نوفمبر حين يظهر ثانية في درعا بعد أن أسقط ستة أيام في هذه الأثناء. فأين كان لورانس خلال هذه الأيام الستة؟ تقول قصته إنه ظل في الأزرق لبعض الوقت وكان وقتاً كافياً ليشرف على إصلاح القلعة ويستقبل وفود الزوار والمؤيدين. كان أحد هؤلاء الزوار هو طلال الحرايضي من طفس، وكان قوياً بين الفلاحين، وخارجاً على القانون رُصد مبلغ من المال لمن يأتي برأسه. وأبلغ لورانس طلال برغبته في رؤية حوران لاستكشاف إمكانية ثورة في المستقبل. وركبا معاً مع حرس تم تعيينهم خصيصاً لهم مكون من شيخ كبير يدعى فارس وصبي يدعى حليم. وسافرت المجموعة بالخيول وزاروا أم الجمال، وأم طيبي، وغزالة، والشيخ مسكين والشيخ سعد، وطفس، وتل أراز، ومزرب، وعثمان ودرعا، ولسبب ما عادوا إلى الأزرق وهي مسافة تقدر بـ ١٧٠ ميلاً.

وكانت درعا، عاصمة حوران، نقطة مركزية على الخط الحديدي، لأن الخطوط من الحجاز إلى دمشق ومن حيفا في فلسطين إلى دمشق تتقاطع هناك. وكان على من يريد إنجاز أى تقدم إلى دمشق أن يأخذ درعا في حسبانها. وقرر لورانس التسلل إلى المدينة متخفياً كي يقدّر نقاط قوتها وضعفها من أجل هجوم مستقبلي. ولم يستطع طلال مرافقته لأن وجهه كان معروفاً للأتراك، لذا ترك لورانس الخيل مع

حليم وارتدى زى الصبى الريفى وسار مع فارس وهو «فلاح غير ذى أهمية». وقرب المطار، نادى عليهما رقيب تركى وأمسك بذراع لورانس بقسوة وأخبره قائلاً: «البك يريدك» بينما تجاهل فارس. ثم سار بلورانس إلى ضابط وقدم له «تقريراً طويلاً». وحينما سأله الضابط عن اسمه أخبره لورانس «أحمد بن باقر»: شركسى من القنيطرة. واتهم الضابط لورانس بأنه هارب من الخدمة العسكرية، فأجابه بأن الشركسيين لا يخضعون لقوانين التجنيد. وكان هذا غير صحيح، فرد عليه الضابط بأنه كاذب وأصدر تعليماته إلى الرقيب بتسجيله فى القسم الذى ينتمى إليه «حتى يستدعيه البك». وتم إرسال لورانس إلى الثكنات، وبعد حلول الظلام سار به ثلاثة حراس عبر الخط الحديدى إلى منزل الحاكم المؤلف من طابقين. وكان ناهى بك، وهو شخص ضخم الجسم، أجعد الشعر، يجلس على سريره حينما أدخل عليه لورانس، فتفحص جسده وأحاطه بذراعيه وحاول سحبه إلى سريره. وحينما قاومه لورانس استدعى حرسه الذين قيدوه وجردوه من ملابسه. ثم حملق مشدوهاً فى الجراح التى كانت قد أصبته مؤخراً من جراء الطلقات. وعندها حاول التركى لمس أعضائه قام لورانس برفسه فى حنية فخذه مما جعله يترنح إلى الخلف وهو يئن من الألم. ومن ثم، أمر الحراس بتقييده وأخذ يصفعه على وجهه «بالشيشب». بعد ذلك عض رقبتة حتى سالت الدماء، ثم قبله، وسحب حربة من أحد حراسه حيث قام بنزع شريحة من لحم ضلعه، وعمد إلى غرس الحربة فى لحمه بأن أخذ يلويها ثم بلل أصابعه بالدم الذى سال على بطن لورانس. ثم نطق لورانس يائساً بشيء ما فأجابه «ناهى» إجابة غامضة: «عليك أن تعرف أننى أعلم، ومن الأيسر لك أن تفعل ما أريده». ورفع لورانس ذقنه فى إشارة على الرفض، فأمر البك الرقيب أن يسحبه إلى الخارج و«يعلمه كل شيء».

وأرقده الحراس على مقعد خشبى، ثم أحضر أحدهم «كرباجاً شركسياً». وهو «سوط من الجلد الأسود اللون، مستدير ودقيق الطرف بحيث يصل إلى سمك الإصبع عند القبض (المغللفة بالفضة)، أما نهايته الصلبة فهى فى سمك القلم الرصاص». وقام العريف بجلده بوحشية. وكان للألم وقع الصدمة على لورانس الذى قرر أن يعد الضربات إلى أن فقد القدرة على العد بعد الضربة العشرين وأخذ يتلوى، بيد أن قبضة الأتراك عليه كانت قوية، وكان راكعاً على الأرض وقد

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

أمسكوا برسغيه. وحينما أصاب الرقيب التعب، توالى الآخرون على جلده، وكانوا يقومون باغتصابه فيما بين نوبات الجلد، وكثيراً ما كانوا يديرون رأسه كي ينظر إلى جروحه وفي هذا قال: «ومع كل جلدة كانت تقفز إلى سطح جلدى حافة بيضاء مثل خط السكك الحديدية، ثم يقتم لونها ببطء إلى أن تصبح قرمزية». وأخيراً أخذ لورانس يزعق بالعربية. وحينما أنهك تماماً توقفوا. ووجد نفسه يرقد على ظهره على الأرض. ثم لكزه الرقيب بحذائه العسكرى ذى النعل المزود بالمسامير فتهشمتم أضلعه، وأمره بالوقوف، بيد أن لورانس تبسم بخمول «فقد تخللت كياني حرارة شهيّة، ربما كانت جنسية». وجلده الرقيب جلدتين بالكرباج على خصيتيه، فأغمى عليه، وحينما استرد وعيه وجد أحد الحراس يغتصبه، بينما كان الآخرون يباعدون ما بين ساقيه. ثم نادى عليهم البك فحملوا لورانس إليه. إلا أنه حينما رآه يبكي ويطلب الرأفة عافه لما رأى من دمائه السائلة وجراحه الكثيرة. ثم حمله الحراس إلى كوخ ذى سطح منحدر خلف مبنى الحكومة حيث غسلوا جراحه وضمموا. وهمس إليه أحد الحراس بلهجة درزية أن باب الغرفة التالية ليس موصداً. وفي الصباح، اكتشف لورانس أن الغرفة كانت مستوصفاً. ووجد طاقماً من الملابس الرديئة معلقاً على الباب، فارتداها وتسلق من النافذة وترنح إلى الشارع، وتمكن من الوصول إلى نزيب فى الموعد الذى حدده لحليم حيث امتطيا الخيل وقفلاً عائدين إلى الأزرق. ولم يتعرضا فى طريق عودتهما إلى ما هو غير متوقع سوى هجوم من قبيلة أولاد على الذين لم يكونوا قد انضموا بعد إلى صفوف الهاشميين، إلا أنهم سمحوا لهما بمواصلة الرحلة دون أذى. وكتب لورانس أن التقدير الذى لقيه من هؤلاء المهاجمين الذين عاملوه كشخص يستحق التكريم أتاح له الفرصة، مؤقتاً، أن يتحمل العبء الذى أكده مرور الأيام، أى «كيف أننى فقدت فى تلك الليلة فى درعا حصن سلامة شخصيتى إلى الأبد». ووصل لورانس إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر، أى عقب يومين من محنته، وفى اليوم التالى، ودع الشريف على وداعاً حاراً، وقبل أحدهما الآخر، وتبادلا الملابس، تماماً مثلما فعل مع داهوم، ثم ركب متجهاً إلى العقبة ووصلها يوم ٢٥ نوفمبر بعد أن قطع ٣٠٠ ميل على ظهر الناقة فى ثلاثة أيام فقط.

وقد سجل لورانس الأحداث هذه فى النص الأخير من «أعمدة الحكمة». وما لا

شك فيه، أنه لو كان قد تم القبض عليه، وتعذيبه، ثم السماح له بالهرب، فلا بد وأنه كان سيبعث تقريراً بهذا إلى الاستخبارات العسكرية، خاصة إذا كان الأتراك قد تعرفوا عليه، كما ادعى لاحقاً. إلا أن هذا الحدث، مثله مثل الأحداث الغامضة الأخرى في حياته كإطلاقه النار على حامد المراكشى مثلاً، ليس له ذكر في التقارير الرسمية. كما أنه ليس ثمة شهود، أو مداخل لها علاقة بالحدث في مذكراته، أو أى تقارير توثقه من أى نوع. كما أن الجنود الذين كانوا متوقعين فى درعا، وكان معظمهم عرباً فى خدمة العثمانيين، لم يسمعوأ أية إشاعة عن الحادث. أى أنه لو أن لورانس لم يذكرها بنفسه لظلت غير معروفة كلية. ولم تظهر مسرحية درعا حتى عام ١٩١٩ أثناء كتابته «أعمدة الحكمة». واستعمل لورانس القصة فى خطاب له إلى فرانس ستييرلنج، وهو زميل سابق له فى عملية «القنفذة» وكان يعمل حينذاك كبير المسئولين السياسيين فى القاهرة، للإساءة إلى محمد سعيد الأمير الجزائرى، وذلك بإلقائه الشبهات على شقيقه عبد القادر الذى ادعى أنه لحق بصفوف الأتراك، وأحبط عملية كوبرى اليرموك، وتسبب فى القبض على لورانس فى درعا بأن أعطى أوصافه للبك الذى كان اسمه الحقيقى «حاجم» وليس «ناهى» كما هو مذكور فى «أعمدة الحكمة». وأخبر لورانس ستييرلنج فى خطابه، أن حاجم، الذى كان لوطياً، اشتهاه وأنه حينما صد محاولاته، وضعه حرس البك فى «المستشفى». وقال إنه هرب قبل الفجر حيث لم تكن إصاباته بالقدر الذى تخيله. وادعى لورانس أيضاً أن البك منع تسرب أنباء القبض عليه لأنه «وحلها». وأنه قد عاد إلى الأزرق وهو «شديد الغضب من عبد القادر الذى علم خيانتة من البك وحراسه». وقد أضيف هذا السطر فى الخطاب الأسمى كلاحقة فى منتصف الجملة؛ كما لو أن لورانس قد تذكر فجأة أن ستييرلنج قد يتساءل عن كيفية معرفته على وجه اليقين أن الوصف الذى أعطاه عبد القادر هو ما أدى إلى اكتشافه. إلا أنه لا يشير إلى كيفية معرفته أن حاجم قد «منع تسرب أنباء» الحادث. علاوة على هذا، فإن هذه القصة تختلف عن روايته لها فى «أعمدة الحكمة» حيث لم يذكر أنه قد تم التعرف بوضوح على لورانس؛ رغم غموض ما يوحى به قول البك «يجب أن تفهم أننى أعلم». وينتهى لورانس إلى أنه كان «من الواضح أنها رمية دون قصد». وهكذا يفصل أى رابطة بهذا القول مع أى وصف قد يكون عبد القادر

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

قد أمدّه به أو لا يكون . ويتأكد هذا من قول لورانس إن رفيقه حلیم الذى دخل درعا تلك الليلة بحثاً عنه عرف أن شخصية لورانس لم تكتشف نتيجة لغياب الشائعات . وليس لدينا سوى ما قاله لورانس إن عبد القادر هو من «وشى به» للأتراك . كما أن قصة الخيانة ظهرت متأخرة جداً عن وقوع الحادث . فقد كتب لورانس إلى جويس فى ١٣ نوفمبر أن الجزائرى قد هرب «بدافع من الخوف» ، ولم يذهب إلى الأتراك ، بل إنه مازال يقيم فى صلخد بين الدروز وهم مجموعة صديقة . فإن كان الأمر كذلك ، فمن غير المحتمل أن يكون عبد القادر هو من أفسد غارة اليرموك التى كانت قد حدثت بالفعل ، كما لا يوجد أى دليل قائم بذاته على أنه حدث وأن انضم عبد القادر لصفوف الأتراك أبداً . فقد كان بالتأكيد ضد الفرنسيين والمسيحيين (الغربيين) ، إلا أنه كان قومياً عربياً متعصباً ؛ وقد يكون الأتراك قد حاولوا اجتذابه إلى صفوفهم ، إلا أن تأكيد لورانس بشأن انضمامه إليهم فعلاً أمر غير يقينى . وقد أعلن عبد القادر وشقيقه محمد سعيد ، فى نهاية العمليات ، قيام حكومة باسم الهاشميين وحينما اعترض لورانس حاولاً قتله فى مبنى بلدية دمشق . وأمر لورانس بالقبض عليهما وكان يعتزم إعدامهما رمياً بالرصاص ، إلا أن فيصل أصدر عفواً عنهما عقب وصوله . أما عبد القادر ، فقد قتله حراس فيصل فى نوفمبر عام ١٩١٧ ، واستمر شقيقه محمد سعيد ، الذى كان يدعو لوحدة العالم الإسلامى ، يسبب المشاكل للهاشميين . وكان الخطاب الذى أرسله لورانس إلى ستيرلنج قد أرسل فى محاولة لتقديم دليل يبرر إلقاء القبض على سعيد . وكتب لورانس «إننى شديد الندم على منح محمد سعيد كل هذا القدر من حرية التصرف . فقد طلب فيصل اعتقاله مراراً . إنه هو الداعى الحق الوحيد إلى الوحدة الإسلامية فى دمشق . ونظراً لجنونه ، فإن باستطاعته ارتكاب أية جريمة ضدنا» . ومن ثم ، يمكن القول إن كشف لورانس الأول لقصة تعذيبه فى درعا كان ذا هدف سياسى واضح .

على كل حال سافرت إلى درعا من عمان فى سيارة عادية مع اثنين من السوريين وصديقى ستيفن هوايت . واكتشفنا أن محطة درعا مازالت قائمة ، وهى مبنى كبير ناتئ من الصوان مثل جبل الثلج من طابقيين وسط سوق يعج بالجماهير المتزاحمة . وكان كل فناء السكة الحديدية فى الواقع من بقايا الحرب العالمية الأولى . كانت

ثمة قاطرة يعلوها الصدا واقفة، وهي تتحلل بشكل كاد أن يُرى، على قضيب إلى جانب سقيفة المعدات. وتسقلت داخل القاطرة لأجد لوحة محفوراً عليها: A. Bor- sig. Berlin - Tegel 1914. ومن الواضح أنها كانت إحدى القاطرات التي تم شحنها بحراً من أوروبا عند بداية الحرب. كانت هناك قاطرات أخرى من نماذج مختلفة على نفس درجة التردى، وجدران أقيمت وملئت ببقايا ماثلة؛ عربات مقفولة، وخزانات مياه، وعربات حراسة، حتى عربات مسافرين جميلة التأسيس أصبحت تستعمل كمراحيض. وقدّمنا أنفسنا لمدير المحطة الذي كان منهمكاً في لعب الورق مع مجموعة من العاملين. قال إنه يعلم عن «لورانس العرب» إلا أنه ليست لديه أية فكرة عن المكان الذي تم تعذيبه فيه أو حتى عما إذا كانت القصة حقيقية. وقال إن الخط الحديدي مازال يعمل فقد كان هناك قطاران يعملان أسبوعياً ما بين عمان ودمشق.

كان بحوزتنا «أعمدة الحكمة»، وحاولنا أن نعيد تشكيل تحركات لورانس في درعا يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٧ أى قبل ثمانين عاماً. كان مبنى الحكومة عام ١٩١٧ مقاماً جنوب خط السكك الحديدية في مدينة درعا حيث ألقى القبض على لورانس. وللهولة الأولى يبدو منطقياً أن محنته حدثت هنا. فرغم أنه لا يقول هذا تحديداً، فقد نقل لورانس بعد ضربه إلى كوخ منحدر السطح خلف مبنى الحكم كى تغسل جراحه وتضمّد. كما يذكر أنه اصطحب عبر شريط السكة الحديدية كى يصل إلى منزل البك الذى لابد وأن يعنى أنه يقع على الجانب الشمالى من خط السكك الحديدية ومن ثم لا يمكن أن يكون مبنى الحكم الرسمى. وعبرنا الخط بجوار سقيفة القاطرات التى كان من الواضح نقطة عبور للمحليين. وقمنا بإحصاء ستة قضبان كما وصفها لورانس تحديداً. ثم استدرنا شمالاً من فتحة مريحة فى الجدار إلى شارع به نخيل بدا منهكاً، ثم يميناً إلى ميدان حيث كان ثمة مبنى مكون من طابقين، وبدا أن المبنى، الذى كان كبيراً ومنعزلاً، ينتمى إلى تلك الفترة. ولاحظت أن بعضاً من مساحة الدور السفلى تحتلها منازل ومحلات لها أبوابها الخاصة. ويتسق هذا مع وصف لورانس فى طبعة أكسفورد حيث يذكر أن منزل البك كان يتكون من طابقين مع وجود محل أسفله. فهل اكتشفنا المكان الذى مر

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

به لورانس بأكثر خبرات حياته أثراً ساحقاً؟ وحتى مع مرور ثمانين عاماً، فقد بدت التفاصيل دقيقة بشكل ملفت. إلا أنه من الممكن أن يكون لورانس قد ألم بشكل المدينة الجغرافى فى سبتمبر عام ١٩١٨، لا فى نوفمبر ١٩١٧، إذ إنه مكث هناك بعد سقوطها فى أيدي القوات البريطانية والعربية. بيد أن فحص الوصف الذى أعطانا إياه للمكان يثير بعض التساؤلات المخرجة.

أولاً: يكتب لورانس فى رواية عام ١٩٣٥ أنه دخل المدينة مع رجل يدعى «مارس» كان قد تم اختياره تحديداً للتعرف على منطقة حوران. بيد أنه يذكر فى طبعة أكسفورد أن اسم رفيقه كان مجبل - وهو من بياشر Biashr كان قد استأجره منذ أشهر سابقة. فلماذا إذن وجد من الضروري تغيير اسم الرجل وإخفاء هذه الحقيقة؟ ولماذا غير اسم البك من حاجم إلى ناهى؟ ويذكر لنا لورانس أسباباً متنوعة لتغييره الأسماء فى «أعمدة الحكمة»، إلا أن أكثرها إقناعاً هو السبب الذى ذكره لهيوبرت يونج لتغييره اسمه عند نقطة معينة فى النص إلى «سابين». وحينما أبدى يونج معارضته قائلاً: «قد يقال إنك وضعتى تحت اسم مستعار لعلمك أنك تكذب بشأنى» أجابه لورانس «لكن هذا بالضبط هو ما جعلنى أستخدم اسماً مزيفاً». وثانياً: إن كثيراً من تفاصيل الجدل لا يمكن تصديقها. فلا يمكن أن نصدق أن يكون للكرباج طرفاً أشد دقة من القلم الرصاص. وإن كان لم يتم التعرف على لورانس فكيف تأتى للجندى أن يعرف أن البك يريد؟ وماذا كانت فحوى «التقرير الطويل» الذى أبلغه الجندى لرئيسه باللغة التركية عن رجل التقطه من الشارع ولم يكن يعرف اسمه أو شيئاً عنه؟ وقد يكون أيضاً من المحتمل أن يُظن أن لورانس وهو يرتدى الزى الخلى كان يبدو شركسياً خاصة إذا شوهد عن بعد؟ لكن ما احتمال الاعتقاد بأنه شركسى بعد تجريده من ملابسه؟

قد تكون اعتراضاتى اعتراضات متحذقة لا تقدم البرهان على أن لورانس قد اخترع حادث درعا، مع أنها توحي فى مجموعها بوجود تيار معين من عدم الصدق على الأقل، فى قصته.

وفى قسم المخطوطات فى المتحف البريطانى أوليت اهتمامى لمذكرات الجيب التى ألفت بعض الضوء على رحلة سيناء آملاً أن تحل هذه جزءاً من لغز درعا. وأثناء

بحسبى عن مدخل يوم ٢٠ نوفمبر أدهشنى أن اكتشفت أن الصفحة قد نزلت . وكان هذا لافتاً للنظر لأنها كانت الصفحة الوحيدة غير الموجودة فى كل من مجموعتى مذكرات عام ١٩١٧ و ١٩١٨ . وفى أسفل الصفحة السابقة ليوم ١٤ نوفمبر كان مدخل لورانس كالاتى : « قصر الأزرق » ، ثم أضاف بقلم رصاص مختلف « إلى حوران » . ويوحى هذا أنه كان فى الأزرق ليلة الرابع عشر ثم رحل إلى حوران . ومن المستحيل معرفة متى حدث هذا بسبب الصفحة المفقودة - ثم لاحظت أن الصفحات قد رقت بخط لورانس ، إلا أن هذا قد تم بعد نزاع الصفحة لأن الأرقام كانت متتابعة . ويوحى هذا بشدة ، إضافة إلى « حوران » التى كتبت فى آخر الصفحة السابقة ، أن لورانس نفسه هو الذى انتزع الصفحة . فما دافعه الممكن لنزع هذه الصفحة من المذكرات بهذا الأسلوب ؟ وخطرت لى فورا إجابتان :

الأولى أن لورانس شعر بالاشمئزاز والحزى مما حدث فى درعا لدرجة لم يحتمل معها قراءة افتتاحيات مذكراته . والثانية ، هى أنه قد تعمد مداراة شىء ما . وفى الحالة الأولى - هكذا فكرت - إذا كان لورانس قد شعر بالاشمئزاز والحزى من المعاملة التى لقيها على أيدى الأتراك ، فلم يكن بحاجة لأن يذكرها فى مداخل مذكراته على الإطلاق . وبما أنه كان معتاداً على أن يدخل اسم المكان الذى قضى فيه ليلته ، فمن المنطقى إذاً أن الصفحة المفقودة كانت تحوى أسماء الأماكن التى زارها مع طلال ، والأمر هكذا ، فكان من المتوقع أن يكتب ببساطة « درعا » : ليلة ٢٠ نوفمبر ، ولم يكن يوجد فى هذه الحالة ما يثير اشمئزازه فيما بُعد . وساءلت نفسى أيضاً ، لماذا ألقى لورانس الضوء على ما حدث إن كان قد رغب حتماً فى نسيان الحادث ؟ فلو أنه صمت بشأنه لم يكن لأحد أن يعرف أبداً . والنهاية الأكثر منطقية هى أنه لم يكن فى الأماكن التى ادعى وجوده فيها فيما بين ١٤ و ٢٢ نوفمبر ، وأنه قد نزع الصفحة ليخفى الحقيقة . وكان من المفترض أن بالصفحة المفقودة مداخل لستة أيام ، إذ إن اليوم التالى هو ٢٢ نوفمبر حين عاد لورانس إلى الأزرق مرة أخرى . والسؤال الآن : هل غادر الأزرق أصلاً ؟

وكانت الرحلة إلى درعا ذهاباً وإياباً ستستغرق خمسة أيام على الأقل ، أو خمسة أيام ونصف ، مع الأخذ فى الاعتبار وقتاً للضيافة لدى عائلة طلال ، ويوماً

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

كاملاً فى درعا . وكان هذا يعنى أن لورانس لابد وأنه غادر الأزرق يوم ١٧ نوفمبر على أقل تقدير . وبما أنه عاد فعلاً إلى الأزرق من مهمة اليرموك / منيفر يوم ١٢ نوفمبر ، فإن هذا يعنى أن إقامته استمرت خمس ليال . إلا أنه بالرجوع إلى وصفه لوقته فى الأزرق فى «أعمدة الحكمة» وجدت إشارات قوية إلى وجوده هناك مدة أطول . فقد «رتب إقامته» فى برج البوابة الجنوبي ، كما كتب ، ومكث كى يستريح «لأيام قلائل» حين يبدأ الزوار فى التوافد . وحينما مرت هذه «الأيام القلائل» بدأ الزوار يتوافدون «طوال اليوم وكل يوم» : «جلسنا نستمتع ببقايا الخريف .. فى أيامه المشمسة والمطرة التى يستدير العالم فيها كلية للأمطار» . وكان الزوار يتحولون «ببطء شديد» لتأييد قضية الهاشميين . «وكنّا فى هذه الليالى البطيئة فى مأمن من العالم» . وتوضح هذه الإشارات ، إذ تأملناها معاً ، أن لورانس أمضى فى الأزرق أسبوعاً على الأقل - وقد يكون قد أمضى وقتاً أطول . كما أنه جاء فى خطاب له أرسله إلى والديه يوم ١٤ ديسمبر مايلى : «كتبت إليكما آخر مرة من [الأزرق] فى حوالى الوقت الذى قمنا فيه بتفجير قطار جمال باشا (أى فى الرابع عشر من نوفمبر) ، وتركناه يتسلل هرباً منا . ثم مكثت بعد هذا حوالى عشرة أيام ، بعدها ذهبت إلى العقبة فى ثلاثة أيام ؛ سرعة جيدة . أخبر آرنى أنه لا يوجد بين خيوله العجوزة حصان يمكنه السير بسرعة جملى العجوز» . فإذا كان بالفعل قد ظل فى العقبة من الثانى عشر حتى الثانى والعشرين من نوفمبر ، فإن مجموع الأيام تصبح أحد عشر يوماً بالتمام والكمال . واعتقدت أن استطلاع لورانس لحوارن لابد وأنه كان ذا أهمية كبرى إذ إن حوارن كانت ستكون مسرح المعركة الأخيرة . فمن المستغرب إذاً ألا يعرف أحد من رؤسائه شيئاً عن هذا . وعلاوة على هذا ، يورد تقريراً جغرافياً كتبه لورانس نفسه فى ١٥ ديسمبر ليخدم عمليات السيارات المصفحة فى المستقبل ، جميع المواقع التى شاهدها أثناء عملية اليرموك / منيفر ، لكنه لا يورد أيّاً من تلك الأماكن التى يفترض أنه زارها مع طلال باستثناء إشارة مقتضبة إلى وادى ميدان التى قد يكون حصل عليها عن طريق أى شخص . بيد أن الفصل الأخير من الدراما ، أى مسيرته على الناقة لمسافة ٣٠٠ متر إلى العقبة ، هو الذى يلقى باعتم ظلال الشك على حادثة درعا . فطبقاً لشهادته ، يكون لورانس قد وصل إلى الأزرق يوم ١٢ نوفمبر مصاباً بجروح من أثر خمس طلقات وإصبع قدم

مكسورة، وجلد بقسوة فى درعا بعد هذا بأسبوع واحد . وتحوى سجلات المنشآت العقابية تقارير عديدة عن رجال تهاووا بسكتات قلبية بعد الجلدة الثلاثين أو الأربعين . ولا بد وأن لورانس، الذى فقد القدرة على العد بعد الجلدة العشرين، قد تلقى مثل هذا العدد من الجلدات . كما أنه قد ضرب على وجهه «بالشيشب»، وقام البك بعضه، ونخس جسده بحربة، ورُفِس رفسة أصابت ضلعه، واغتصب مرارا، وتلقى جلدات شريرة على حنية فخذه الأعلى مما كان كفيلاً، بلا شك، أن يتسبب فى تضخم خصيته بدرجة لا تمكنه من امتطاء الناقة . فكيف يتأتى لرجل ضرب بهذه القسوة أن ينجز خلال ثلاثة أيام أبرز رحلات حياته على ظهر الجمل ليقطع ستة وثمانين ميلاً فى اليوم؟ من الواضح أن هذا ليس ممكناً . فإما أن لورانس قد بالغ بشأن رحلته على الجمل، أو أنه بالغ بخصوص المعاملة التى لقيها على أيدي الأتراك، أو أن حادثة درعا لم تحدث على الإطلاق .

وقد أخبر الكاتب ل . هـ . جيلمان، الذى اشترك فى مهمة «القنفذة» جون ماك، مؤرخ لورانس، أن لورانس لم يذكر له أو لأى ضابط آخر عمل فى بلاد العرب كلمة واحدة عن الحادث؛ إلا أنه لا يساوره الشك حول وقوع الحادث وفى هذا قال: «لقد كان لورانس على قدر من الشهامة والشرف يمنع من اختراع مثل هذه التجربة، فلا يوجد ما يبررها سوى أنها حدثت بالفعل». وردد جيرمي ويلسون، مؤرخ لورانس الرسمى كلمات جيلمان وذكر «إن من يشككون فى وقوع الحادث فى هذا الوقت يتهمون لورانس بكذبة مبالغ فيها وغير ذات جدوى» بيد أنه من سوء الحظ، فإن الواقع الموثق يؤكد أن لورانس كان يبالغ، وأحياناً يروى أكاذيب لا جدوى منها . فقد ذكر قبل الحرب «أجراس الجمال» بدلاً من «أجراس البغال» دون أن يكون لهذا جدوى (ولا يعقل احتمال نسيان الأمر أو اختلاطه عند شخص له ذاكرة لورانس الفوتوغرافية) . كما كان ادعاؤه عبور سيناء فى تسع وأربعين ساعة كذباً بالتأكيد . أما جدوى هذا من عدمه فأمر خاضع لنقاش . وتوضح قصة سيرويهما فيما بعد لجون بروس يبين فيها حاجته لأن يعجل، (وهى قصة ظل يرددها ثلاثة عشر عاماً) قدرته على اختراع بنية معقدة والإبقاء عليها . ولم يفكر كل من ويلسون وماك فى مناقشة كذب لورانس على بروس، إلا أنه من المفارقات أن يقرر كلاهما أنهما لم يجدا شاهداً على كذب لورانس؛ وكأن الكذب على شخص من

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

الطبقة العاملة على قدر قليل من التعليم لا يحتسب كذباً. وبالتأكيد، فإنه كثيراً ما كان شهماً وشريفاً، فقد حاول طوال حياته أن يحيا وفقاً للمصورة التي كونتها والدته سارا عنه كفارس «أبيض نقى» إلا أن بعض الأحاسيس أقوى من الرغبات الصادقة. وقد رأى برنارد شو فيه «مثلاً» وذكر أنه «لا يحرص على الحقيقة بدرجة رهيبة». على حين قال رونالد ستورز الذى عرفه معرفة حميمة إن نقائمه كانت معروفة لزملائه (ولنا أن نفترض أنها لم تكن معروفة لجيلمان!!) إلا أنه كان يتغاضى عنها لأن المعية كانت توازنها. ويبدو لى هذا أمراً عادياً جداً. ففى نهاية الأمر، لا يوجد منا من هو «فارس أبيض نقى»، ولا من هو شريف وصادق كلية. فالأن نتوقع هذا من لورانس فإننا نصنع منه «الرجل الخارق»، وهى فكرة كان هو سيسخر منها. فحتى أخيل كان معرضاً للإصابة من كعبه: فلماذا نتوقع أن يكون لورانس أفضل من أخيل؟ وقد يكون دافعه القسرى للمبالغة هو الجانب الظلى للرجل «الشريف» فى نواحي أخرى. فقد اعترف ليدل هارت، الذى اعتبره عبقرية عسكرية، أنه كان ساذجاً حينما بالغ فى تصديقه شهادات لورانس. وقد انتقد لورانس هارت بالفعل لأنه كان يتقبل كل ما كان يقوله دون مساءلة، مثلاً سخر من الآخرين الذين امتدحوا صفاته الحسنة دون أن «يضيفوا إلى مديحهم قليلاً من الملح». وإضافة إلى هذا، يؤكد اعترافه نزوعه إلى المبالغة. فقد اعترف فى مقدمة «أعمدة الحكمة» أنه كثيراً ما أخفى الحقائق فى تقاريره الرسمية، كما أنه اعترف فى مناسبات أخرى أنه ذو موهبة فى الخداع. فالذين ينكرون أنه قد كذب يناقضون كلماته هو نفسه ويدعون له شخصية قد دحضها هو؛ فقد كان ضابط مخبرات موهوباً، أى عضواً فى مهنة تتعامل بطبيعتها فى الكذب والدعاية وأنصاف الحقائق. وقد عبر الكثيرون عن عدم تصديقهم أن تكون «مبالغات» لورانس قد خدعت زملاءه وكان من بينهم أناس على أعلى مستوى عقلى؛ رغم أن لورانس نفسه، وهو موظف مستحدث فى قسم الخرائط، قد تفاخر بغبطة أن مثل هؤلاء الرجال تخدعهم بسهولة المعرفة النخبوية القصرية التى كان يستعرضها بثقة. والعظماء والأقوياء، مثلهم مثل الآخرين، يصدقون ما يريدون تصديقه، ولم يحدث أيضاً أن كانوا أنفسهم نماذج للمصدق دائماً؛ فمثلاً، اكتشف أن ريتشارد ماينرتزهاجن قد زور عمداً مداخل مذكراته الشخصية. وكان ريتشارد ضابطاً

كبيراً محترماً في الإدارة المركزية للمخابرات، ونسب إليه أنه اخترع الحيلة التي أدت إلى أن يعتقد الأتراك أن النبي كان متجهاً إلى غزة بدلاً من بئر سبع، فكذبه الذكي على الأتراك أمر مقبول، أما أن يكذب على قومه فأمر غير مسموح به. ومن الواضح أن لورانس كان على ثقة تامة من أنه سيصدق لدرجة أنه كان مستعداً «للمبالغة» حتى في حالة وجود شهود على العكس. وحينما طلب منه هيوبرت يونج تغيير ما كتبه عنه على أساس أن القصة الحقيقية قد تُعرف يوماً ما، أجابه لورانس ببساطة «لا، لن تظهر».

فإذا كان حادث درعا قد اخترع، على ذلك النحو فإن «الهدف» من اختراعه لا يعزى إلى العقل الواعي بل إلى اللاوعي. فقد كان لورانس مازوكياً ذا طبيعة مثلية، وكان قد حلم منذ طفولته أن يسيطر عليه رجال آخرون، خاصة من بين العسكريين. وكما كتب مراراً، فقد كان انحطاط تلك الحياة يلقي منه قبولا. وأنه كان يصبح «حيواناً» في صفوف الجيش؛ يطعم ويسقى ويكون تحت الطلب دائماً ليستعمله الآخرون. وقد يكون من الأهمية بمكان، أن كانت عناوين صفحات لورانس لحادث درعا في طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» محاكاة ساخرة لتدريبات المجند في الجيش. فعنوان الصفحة التي يصف فيها إلقاء الأتراك القبض عليه مثلاً هو «مجنّد تركي». كما أن للصفحات التالية التي تصف محنته عناوين مثل «تدريبات مجند» و«دروس أخرى» وأخيراً «الإغماء». وحاول لورانس وهو في سن السابعة عشرة تحقيق هذه الفانتازيا بأن التحق بحامية المدفعية الملكية، وفي عام ١٩١٢ اتسعت الفانتازيا في قصة إلقاء القبض عليه في خلفاتي على أنه هارب من الخدمة واحتمال ضربه من قبل الأتراك. ومن الأهمية أيضاً أن لورانس يذكر حادث خلفاتي ويربطه بتعذيبه واغتصابه المزعوم في درعا، لأن مفتاح درعا قد يكون هناك وقد تكون درعا تضخيماً لما حدث في خلفاتي حيث عاشه لورانس وضخمه في خياله على مر السنين. كما أن لموضعة حادث درعا بعد فشله في اليرموك مباشرة أهمية أيضاً. فقد كان لورانس يرتعد من الفشل طوال حياته، وكان يشعر بالخزي من خذلانه النبي الذي كان ينظر إليه كأب. ومن اللافت للاهتمام أيضاً أنه حين يصف لقاءه مع النبي بعد هذا بأسابيع قليلة يستدعي فانتازيا وقوفه أمام «البك» فيكتب قائلاً: «لقد كان من المستغرب أن أقف أمام

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

البرج مع (ألنبي) أستمع إلى إعلانه وأنا أفكر كيف وقفت قبل هذا بأيام قليلة أمام البك أستمع إلى كلماته. من النادر أن ندفع ثمن مخاوفنا بهذه الحدة وهذه السرعة. فلو أنني لم أنكمش ذعرا في أكتوبر، من الثورة العامة، لكننا قد وصلنا الآن، ليس فقط إلى القدس، بل إلى حيفا وحلب.. إلا أنني بفشلى قد قيدت الإنجليز الذين لا يعلمون، وسببت الخزي للعرب دون أن يعلموا». إن الخزي الذى ألحقه بنفسه باختراعه المأزق المأساوى فى درعا، قد يكون تكفيرا عن الفشل الذى جره على نفسه. ليس فقط فى تفجير الكوبرى بل أيضاً فشله فى إشعال ثورة فى سوريا كما وعد ألنبي فى البداية. ويمكننا تتبع نفس النموذج فى حادثتين، على الأقل، من أحداث حياته؛ هجمة البدوى عليه خلال سيره فى سوريا عام ١٩٠٩، وإطلاقه النار على حامد المراكشى. وقد سارت الحادثنان وفق تتابعية فى الفشل الخاص ثم التكفير العام بواسطة عنف ظاهر. ولهذا النموذج أصله فى طفولة لورانس المبكرة، حين كان يعتقد أن الضرب الذى يتلقاه من والدته تكفيرا عن أفكاره «غير اللائقة». وقد لا تكون مصادفة أن يستعمل نفس التعبيرات بالتحديد لدى إعلانه عن حادث درعا مثل «دائرة اتساقى مع نفسى»... هذه الكلمات استعملها أثناء حديثه عن تهديد والدته النفسى.

لم يقصد لورانس أبداً أن يكون كتابه «أعمدة الحكمة» وثيقة تاريخية خالصة؛ فقد أبلغ، فيما بعد، تشارلوت شو أنه كان «استعراضاً عن نفسى حتى فبراير عام ١٩٢٥.. فسيعرفنى من يقرؤه أكثر مما أعرف نفسى». ووصف نفسه الحقيقية بأنها «حيوان» وأن الكتاب ما هو إلا نفسه (مغلقة) فى جلد أجرب محجف تم حشوه وأصبح واضحاً أمام الناس كى يحملقوا فيه، أى أن الكتاب، بمعنى آخر، هو اعتراف علنى بكل ما كبتته، وبهواجسه المسيطرة، ورغباته التى لم يتمكن من التعبير عنها لأى أحد من قبل. ويوضح وصف واقعة ضربه فى درعا انهيار غير طبيعى بالمعاناة الجسدية^٢: فسرد ه المفصل للون جروحه وقوامها ووصفه الدقيق المحدد لآلة تعذيبه «الكرباج الشركسى» هو أحلام يقظة نمطية مازوكية كما كتب عنها لين كوان «تصبح الآلة، فى الفانتازيا المازوكية، محملة بتفاصيل مميزة تحمل معها مشاعر الانجذاب التى تتصف (بالروحانية، والرهبة المقدسة، والجمال والقبح والخوف) التى تخلق وتحتفظ بالإحساس المناسب فقط...» «فحتى فى فانتازيا

الضرب الأكثر شيوعاً فإننا نستمع إلى ترنيمة «الشمراخ المقدس» وهو يهوى ويمزق ظهر المتوسل». . . فمما لا شك فيه أن لورانس كان يسعى للإذلال العلني إذ إنه كتب فيما بعد «... أريد أن ألوث نفسي من الخارج حتى يعكس مظهرى القذارة التي يخفيها». وفي مقاطع أخرى من الكتاب، تظهر حاجته لعرض معاناته، خاصة حينما يبالغ في عدد الإصابات والجروح نتيجة الطلقات. فقد ادعى أن بجسده أكثر من ستين ندبة من إصابات لحقت به وهو يعمل. إلا أن جبهه ت. لوكمان قد برهن نهائياً على عدم وجود سوى ندبات قليلة على بدنه بعد الحرب؛ وكما يبين لوكمان، فالإصابة بستين جرحاً في عالم ليس به مضادات حيوية يتطلب أن يكون الفرد ذا قوى خارقة وعلى قدر من الحظ لا يصدق. كما أوضح لوكمان أن شهادة ريتشارد ماينرتزهاجن، الذي ادعى أنه رأى الندبات على ظهر لورانس أثناء استحمامه عام ١٩١٩، كانت ملفقة. ولم يقل لورانس، على أية حال إنه ضرب على ظهره. وفي حالة تصديقنا لوصفه للجروح التي أصابته نتبين أنه جُلد فقط على الردفين، ومن المحال أن يرى إنسان ظهره سوى بمساعدة مرآة. وقد أوضح لوكمان أنه رغم إصابة لورانس بندبات في مقدمة ومؤخرة جسده، فيحتمل أن تلك لندبات حدثت في فترة ما بعد الحرب وأنها كانت من فعله هو. ولن نعرف أبداً إن كان الأتراك قد ألقوا القبض على لورانس وعذبوه، إلا أن وزن الشواهد - الصفحة المنزوعة، قطع تنابعية التأريخ، الفترة الطويلة التي يبدو أنه قضاها في الأزرق، غياب الندوب المتعلقة بالحادث - توحى لى، على الأقل، أن حادث درعا كان حقيقياً فقط بمعنى أنه كشف طوعية عن لورانس غير المرئي الذي يتخفى في الظلال. وكان الحادث، كذروة عاطفية «لأعمدة الحكمة» التعبير النهائي لاستعراضيته المقلوبة - فقد أخبر تشارلوت شو وهو يشعر بالخجل «لا يجوز أن أخبرك؛ فإن الرجال المهذبين لا يتحدثون عن مثل هذه المواضيع. وقد أردت أن أتحدث عنها في كتابي. وقضيت أياماً في صراع مع احترامي لذاتي». ربما كان ما كتبه هو إعلانه النهائي للعالم عن قناعته - التي لازمتها منذ الطفولة - أنه كان «لجساً ومنبوذاً» وأخيراً، وبعد سنوات من العزلة والتعالى، وجد تى. إى. لورانس فرصة ليقول للأجيال التالية «هذا هو توماس لورانس... هذا هو أنا».

وكتب لورانس أنه شغل نفسه، لدى عودته إلى العقبة، باستئجار حراس

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

شخصين، موحياً أن هذا كان النتيجة المباشرة لتعذيبه فى درعا. فقد كان هناك ثمن لرأسه وكان يحتاج «أفراد أشداء لامتطاء الدواب، وتحمل العيش» ليقتسموا على الولاء له شخصياً. وكتب قائلاً: إنه كَوْن جيشاً خاصاً كبيراً من تسعين من المرتزقة والقتلة والخارجين على القانون وأفراد العصابات من ثلاثين عشيرة مختلفة فى سوريا وشمال الجزيرة، وكان لكثير منهم عداوات ثأرية مع بعضهم البعض، وأنه لولا قبضة لورانس القوية لوقعت حوادث قتل بينهم كل يوم. ولأن خروجاته على الإبل كانت ضارية وأليمة، فقد انتقى كل رجاله من راكبي الإبل، وكان كل منهم يمتطى ناقته الخاصة المنتقاة. وكانوا يركبون طوال النهار والليل طبقاً لنزوات لورانس، ويقاثلون كالشياطين، وكان يدفع لكل منهم ستة جنيهات فى الشهر، أى الأجر المتعارف عليه للرجل والناقة. إلا أنهم كانوا يكسبون أكثر من الجمالين الآخرين لأنهم لم يحضروا نياقهم التى لم تكن لتحتمل رحلات لورانس الشاقة. وكان لورانس يمدهم بالإبل من مجموعته الخاصة المنتقاة؛ وكانت فرقة حراسته تتكلف ثلاثة أضعاف أية فرقة أخرى فى الجيش، إلا أنها كانت تؤدى ثلاثة أضعاف مهام الوحدات الأخرى. وكان هؤلاء الصبية يرتدون الملابس ذات الألوان الفاقعة عن قصد كى تناقض اللون الأبيض الصافى الذى كان يرتديه لورانس، وكانت تربطهم، كمجموعة، رابطة شرف، كونتها المتاعب والمعاناة المشتركة التى تحملوها نتيجة ولأنهم له. وقال إنهم كانوا يجدون متعة فى الخضوع، ويستمتعون بإذلال أجسادهم ليأكدوا على حرية أرواحهم - وهذه عاطفة تستدعى معها، بشكل يشير الشكوك، رغبة لورانس المازوكية فى إهانة نفسه. وقد لقي ثلثى هذا العدد حتفهم فى خدمته بشهامة. وكان من رجاله خمسون من العقيليين.

ولا توجد صورة أكثر جاذبية فى «أعمدة الحكمة» من صورة لورانس وهو فى ثيابه الشريفة البيضاء على رأس أتباعه التسعين من القتلة، والذين أقسموا جميعاً أن يخدموه حتى الموت، وقد فعل الكثير منهم هذا. وقد استشهد مؤرخ لورانس الرسمى باستئجاره لحرسه على أنه الدعم المتفرد الأعظم الذى يؤيد حادثة درعا فقال: «أما فيما يتعلق بتوقيت الحادث، فمن الجدير بالذكر، أنه بمجرد عودته إلى العقبة قام باستئجار حرس شخصى». ومرة أخرى، يبرز الشاهد، الذى هو من سجلات لورانس، هذه. فإنه فى الواقع قد استأجر حرساً شخصياً فى وقت مبكر

يعود إلى مايو عام ١٩١٧، إذ إنه كان قد أخبر «فرج وداعود» أنه لا يحتاج إلى خدم، بل إلى محاربين. وفي أكتوبر، قبل هجمة اليرموك، قال إنه قد قرر أن يمنح بعضاً من «حرسه القديم» راحة، وقام باستئجار ستة أشخاص جدد. وكتب في طبعة أكسفورد «كان الاختيار الحذر لحرسى الخاص من بين استعداداتى». أما حراسه الجدد فكانوا: محمود ومصطفى وعزيز وشواق، وسالم وعبد الرحمن. وقام بفصل اثنين من الحرس القديم هما محمد وعلى، اللذان كانا بصحبته منذ الوجه، إلا أنه أبقى على الآخرين بمن فيهم فرج وداعود (أى على وعثمان) وأحمد وكريم ورحيل ومطر خضر ومجبل، وعددهم جميعاً أربعة عشر. ثم انتقى عواد وضاهر ليصبح المجموع ستة عشر. والآن، فقد حدث أن عدّد لورانس أسماء حرسه في مفكرته كى يتابع أجورهم ابتداء من مارس عام ١٩١٨. ورغم أن الأسماء والأرقام تختلف اختلافاً طفيفاً من مارس إلى سبتمبر، فلا يوجد أبداً أكثر من سبعة عشر اسماً على القائمة دفعة واحدة، ويصل المتوسط طوال المدة إلى أربعة عشر - تماماً نفس العدد الذى سجله على أنه يشكل حرسه فى أكتوبر عام ١٩١٧ قبل حادث درعا المزعوم. ويحتمل أنه قام بتغيير العاملين، لا العدد، إلا أن كثيراً من الأسماء تتكرر مرة بعد مرة، ويمكن تتبع عدد منهم إلى حرسه الممكن مثل أحمد، ورحيل، ومصطفى، ومحمود، وعبد الرحمن، وخضر، ومجبل، وسالم، وعواد، وضاهر، ومطر. وتظهر جميع هذه الأسماء فى قوائم مارس وسبتمبر. واختفى على وعثمان من القوائم، وهما النموذجان المفترضان لفرج وداعود واللذان لم يكونا فى خدمة لورانس عام ١٩١٨ على الإطلاق. ومن الصحيح أيضاً أن بعض هذه الأسماء شائعة بين العرب، لكن حتى إن اختلف الأشخاص، فهذا لا يغير حقيقة أن قوة حرس لورانس الشخصى ظلت دون تغيير جوهرى فيما بين أكتوبر ١٩١٧ وسبتمبر ١٩١٨، أى قبل وبعد تعذيبه المفترض فى درعا. وبين هذا، بما لا يدع مجالاً للشك، أنهم لم يؤجروا كنتيجة مباشرة لأى حادث فى نوفمبر ١٩١٧. وبالتأكيد، فإنهم لم يؤجروا لأول مرة فى يناير عام ١٩١٧. ولم يضم الحرس أبداً تسعين رجلاً، حتى فى حالة احتساب كل الأسماء، لكن كان متوسط العدد حوالى ١٤ شخصاً بشكل ثابت. وعلى سبيل المصادفة، تُبين صورة فوتوغرافية، التقطت للورانس وحرسه فى صيف عام ١٩١٨. خمسة عشر رجلاً فقط. وقد ذكر

الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر، شركسى من القنيطرة عملية اليرموك وحادث درعا

هيوبرت يونج، الضابط الذى كان يتحدث العربية والذى عمل مع لورانس عام ١٩١٨، أن حرسه كان يتكون من حوالى ٢٠ شخصاً. على أن أصل هؤلاء الأفراد، لا يدل على أنهم كانوا حشداً من قطاع الطرق من جميع قبائل سوريا وبلاد العرب. فقد كان محمود «صبياً فظاً من فلاحى اليرموك»، وكان مطر «صبياً طفيلياً» من بنى حسن، وكان مجبل «فلاحاً لا أهمية له، شيخاً فى مثل عمر والد لورانس، وسالم راعى إبل من قبيلة الشرارات المقترة، وكان عبد الرحمن عبداً تم إعتاقه، وعزير «فلاحاً له فم مثل الأرنب» من طفس، ومصطفى صبياً أصم، وزيد، شخصاً غير كفء وفصله لورانس لأنه عجز عن تسريح الجمل بطريقة صحيحة، وكان رحيل فلاحاً من حوران انفجر باكياً حينما اشتدت وطأة الأمور. ويمكن أن تنطبق تلك الأوصاف التى وصف بها رجاله على قائد حرسه فقط عبد الله النهاسى أو (عبد الله الحرامى) الذى كان خارجاً على القانون. ولم يكن منهم من ينتمى إلى قبائل العرب الرئيسية (وقد أخبر لورانس الشعلانين أنه كان من التواضع بحيث لا يمكن أن يقتنى حرساً من الروالة)، كما كان معه قليل من العقيلين. أما معظمهم فكانوا فلاحين سوريين لم يكن بوسعهم الحصول على عمل آخر نظراً لكبر سنهم أو ضعفهم أو عدم كفاءتهم. وليس من بينهم اسم يظهر فى مارس ١٩١٨ ولا يظهر فى قائمة سبتمبر. ويحتمل أن يكون واحداً أو اثنين منهم قد قتلوا بيد أن عدد من قتل لا يمكن أن يصل إلى ستين، حيث لم يتعد المجموع الكلى للحرس السبعة عشر، وقد عاش معظمهم إن لم يكن جميعهم بعد ذلك.

وقد ظهرت بعض الادعاءات العنيدة التى تؤيد ما قيل عن آثار المعاملة التى لقيها لورانس فى درعا. فقد كتب جيرمى ويلسون يقول إنه «بعد الاغتصاب الشاذ له، أصبح إتمام أى زواج بغياً كلية على نفسه. فقد ترك الحادث فى نفسه بغضاً شديداً للاتصال الجسدى، الأمر الذى لاحظته كثير من أصدقائه». كما قيل أيضاً إن التجربة البشعة أدت إلى انحراف شخصيته، فسيطر عليه هاجس النظافة والاستحمام، وربما تكون قد حولته إلى المازوكى الكامل الذى أصبح فيما بعد. بيد أن هذه الخصائص جميعها كانت واضحة لديه منذ طفولته. وقد ذكر هو نفسه فى كتاباته أن نفوره من التلامس الجسدى كان نتيجة الصراع الذى عاناه فى صباه المبكر ومع أمه غالباً. وقد أظهر فى سن مبكرة سلوكاً مازوكياً فى الحرمان الذى

كان يفرضه على نفسه، فكثيراً ما كان يبدى فى خطاباتهِ إلى أهله اهتماماً مبالغاً فيه بالنظافة والاستحمام. ودائماً ما كان يفضل الرجال على النساء. وتبين القراءة العابرة «لأعمدة الحكمة» قبولاً لا يمكن إخطاؤه لفكرة الجنس المثلى، ورفضاً ونفوراً من الجنس الغيرى. فحتى فى الصفحة الثانية من النص، امتدح لورانس الشباب الذين يرفضون «لحم النساء اللزج الأحمر» ليطفئوا احتياجات بعضهم بعضاً عن طريق أجسادهم النظيفة، وهذه وسيلة باردة ميسرة تبدو بالمقارنة وسيلة لا جنسية، بل حتى نقية» والأيدىولوجية هنا واضحة. ومن الصعب جداً أن نفهم كيف، وبأى منطق أعوج، تؤدى خبرة الاغتصاب الشاذ إلى عزوف عن الجنسية الغيرية وتقبل واضح «لنقاء» الجنسية المثلية، إلا إذا كان لدى لورانس استعداد مسبق لها. أما عن كون أن التجربة قد «أدت إلى انحراف شخصيته إلى الأبد»، فإن آرنى، شقيق لورانس الأصغر كتب عنه «إنه كان دائماً شخصاً ذا قدرة غير عادية على التحكم وتقمص الأوضاع المختلفة.. وقد استمر كل هذا بعد الحرب، هذا بالإضافة أنه نما لديه حماس هائل لأى شىء فكاهى. ومن الواضح أنه قد مر بصعوبات هائلة وتحكم فيها بأن رأى الجانب الفكاهى منها». فإن كان هذا لا ينطبق على رجل قد حطمت روحه خبرات الحرب البشعة، فإن لورانس حينما لحق باللبنى فى ديسمبر عام ١٩١٧ عند بوابة يافا فى القدس لدى دخوله المنتصر إلى المدينة، أى بعد شهر من التعذيب المفترض فى درعا، لم يبد كرجل تحطمت روحه من جراء التجارب. إذ إن إيه. ب. وافل، الذى سار إلى جواره فى الموكب كتب يقول: «كان مرحاً فى هذا اليوم، وكان يسخر من زيه المستعار، وأيضاً من المنصب المستعار الذى أوكل إليه بمناسبة الاحتفال وكان هذا ضابط أركان بيرتى كليتون. وكالعادة، لم يقل الكثير عن نفسه، وكاد لا يشير حتى إلى هذه الرحلة العظيمة إلى جسر وادى اليرموك وفشله المؤسف، وكان قد عاد منها لتوه».

الغزل الثامن عشر

أسوأ مادة تصلح للتشكيل

طفيلة وتل الشهم

يناير - أبريل ١٩١٨

18

وصل لورانس إلى

القيادة العامة وهو يتوقع لوماً على

فشله في عملية جسر اليرموك ليوجد

أن النبي قد تحرك قدماً. فقد كان قد تم

قطع خط غزة - بئر سبع وسقطت

القدس، وكانت أفكار السير إدموند

تدور حول البحر الميت بالفعل وحينما

استجمعت الجيوش المصرية الإنجليزية

قوتها ووسائل تنقلاتها وإمداداتها في

مطلع فبراير عام ١٩١٨ كان قد خطط

لإطلاق القوات على أريحا.

لقد كانت قاعدة الهاشميين فى العقبة ، آنذاك ، خلف صفوفه . ففى حالة تمكن العرب من الاستيلاء على طفيلة فى مرتفعات البلقاء حيث يزرع القمح على الشاطئ الشرقى للبحر الميت ، يصبح بإمكانهم اللحاق ثانية بالجنح البريطانى الأيمن . واعتقد لورانس أنه سيكون بإمكانهم التحرك حتى أبعد من هذا ، أى إلى أقصى شمال البحر الميت ، طالما كان بوسع ألنبي دفع الإمدادات إليهم عن طريق أريحا بعد سقوطها . وعندئذ ، تتحرك القاعدة العربية من العقبة إلى أريحا التى يدافع عنها الجيش العربى فى الشمال بقيادة جعفر باشا وكان قد أصبح قوامه ٣٠٠٠ جندى . وقد أدهشت فرق جعفر باشا ، وكان ينظر إليهم على أنهم يعوزهم التنظيم والكفاءة ، الجميع بمثابرتهم حينما قام الأتراك بشن هجومهم القوى على الموقع الأمامى للهاشميين فى أكتوبر عام ١٩١٧ بوادى موسى بالقرب من البتراء بقوة قوامها لواء كامل . وكان عدد الفرق النظامية حينذاك ٣٥٠ فرداً ؛ فرقتان من الهجانة ، وفرقتان من المشاة من راكبى البغال بقيادة مولود الخلص ذى الكفاءة

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

الوحشية . بيد أنهم برهنوا بما لا يدع مجالاً للشك على إمكان القوات العربية الاحتفاظ بالموقع في مواجهة أعداد أكبر . فقد دحروا العدو بحسم لدرجة أن الأتراك لم يهاجموا قوة محصنة من النظاميين العرب مرة أخرى .

ولم يكن الاستيلاء على طفيلة بالأمر الصعب . فقد تم الاستيلاء عليها بعد أن ظهر الشريف ناصر وعودة أبو طيى على أعقابها في فجر ١٦ يناير عام ١٩١٨ بعد رحلة دامت طوال الليل مع بعض الفرسان من الطويحيين وبنى صخر ، وأخذوها دون أية مقاومة . ولم تكن المقاومة الوحيدة التي واجهوها من الحامية التركية بل من الفلاحين المحاسيين المحليين الذين كان شيخهم من معارضى الهاشميين . إلا أنه حينما سار أبو طيى وصاح «أيها الكلاب ، ألا تعرفون عودة أبو طيى» ، استسلم الفلاحون على الفور . وفي المساء ازداد عدد العرب بانضمام عدد من منافسى عودة . وهم عشيرة ابن جازى من الحويطات الذين كانوا قد نبذوا الأتراك من أجل الهاشميين . ثم وصل لورانس بعد أربعة أيام مع الشريف زيد وجعفر باشا وعائلة زيد والعقيليين ، وبيشة وعتيبة ، وقوة صغيرة من النظاميين

ومعهم مدفعا جبل . وكانوا قد تركوا قوتهم الرئيسية فى الشوبك لأن مئونتها كانت قد نفذت . ثم بعث عودة وعشيرته إلى جفر كى يمنعوا المنازعات بين القوة وجماعة ابن جازى الذين كانوا قد ظلوا هناك تحت قيادة رئيسيهما الشابين متعب وعناد . وكتب لورانس فى تقرير له بتاريخ ٢٢ يناير أنه كان لدى الهاشميين حوالى ٥٠٠ رجل فى المدينة إلا أن الفلاحين المحليين كانوا منقسمين بشدة وكانوا يخشون بعضهم بعضاً ويخشون الهاشميين . ويستدل على أن الاستيلاء على طفيلة كان يعتبر خطوة فى الطريق إلى مؤاب مما كتبه بأن «الأمر لن تستقيم فى الطفيلة إلا بعد الاستيلاء على الكرك ، ولن تستقيم فى الكرك إلا بعد الاستيلاء على مأدبا» . ثم سار زيد إلى شرطة المدينة وقام بتعيين حاكم لها وبعد ذلك أرسل فرقة فرسان استطلاعية إلى الشمال فى طريق الكرك لاستطلاع مدى قوة الأتراك . إذ إنه كان يفكر فى هجمة سريعة على مؤاب . ثم حدث فى ٢٣ يناير أن وقعت مجموعة طوارئ من جنوده فى قبضة مجموعة استطلاع تركية فى صدع سيل الحايصة - ذلك الوادى العظيم الذى يفصل بين إيدوم ومؤاب - وكانت المجموعة التركية تسبق ثلاثة فرق من الفرسان ، ومعها مدفعان هوتزر . واعتقد لورانس ، ضد كل تفكير منطقي ، أن الأتراك كانوا فى طريقهم إلى العودة .

وقال لورانس إنه شعر بالإحباط لعودة الأتراك المفاجئة ، مما جعله يقرر كسر قاعدته ويحارب معركة ضارية يلتحم فيها مع الأتراك لأول مرة . وطبقا لوضعه ، كان سير الاشتباك محاكاة ساخرة للمعارك النظامية الكلاسيكية فى كتب كلوزفيتز وفوش . فبدأت المعركة بوحدة خيالة صغيرة من الفلاحين والبدو ومعهم بندقيتان آليتان ، وقاموا بمطاردة وحدة الاستطلاع التركية إلى الهضبة الواقعة شمال طفيلة ، ومن ثم إلى سيل الحايصة حيث التقوا مباشرة بالقطاع الرئيسى من أفراد القوات التركية الذين كانوا قد أقاموا لتوهم معسكراتهم ، ففتحوا عليهم النيران من الهوتزر والبنادق الآلية . وفقد العرب بنادقهم ، وتراجعوا إلى الهضبة واحتموا بصخرة ارتفاعها أربعة أقدام لكى يتفادوا سيل الطلقات الموجهة من خمس عشرة بندقية على الأقل صوبت إليهم من الخطوط التركية . وعند هذه النقطة ظهر لورانس الذى كان يسير حافياً وبدون سلاح عبر الهضبة وسط رصاص الأتراك الذى لم يكن المدفعيون الأتراك قد تمكنوا من تصويبه بدقة بعد . وكان قد

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

فحص في طريقه بهدوء السطح الخارجى لطلقات لم تنفجر ليعرف نوع المدافع التى يستخدمونها . ولما وجد الموقع ميثوسا منه ، أمر المدفعيين العرب بالانسحاب إلى صخرة على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الخلف ، وكان قد زودها بعشرين رجلاً من حرس الشريف زيد . ثم استعار بعض خيالة ابن جازى ليقفوا فى وضع انتظار لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة كى يغطوا عملية الانسحاب . ثم هروا عائداً بخطى حثيثة حيث لحق به الفرسان المنسحبون والتقطه قائدهم متعب . وكانت قوة زيد قد عبرت الوهدة ؛ أما القوات العربية المساعدة بأكملها فتركزت على «تل الاحتياطى» التابع له حيث سيطرت على المنطقة ، وكان بحوزتهم مدافع الجبل والبنادق الآلية ، لدرجة أنه أجبر الأتراك على وقف تقدمهم . وفى هذا كتب لورانس يقول إن ميدان المعركة كان إسفينى الشكل بحيث شكل «تل الاحتياطى» جانبه المفلطح ، وكانت التلال الشرقية والغربية تتجمع عند حافة جرف حايصة على بعد ثلاثة أميال إلى الأمام . أما القيادة العامة التركية والاحتياطى فكانت تقع فيما وراء رأس الإسفين حيث نشرت قوات المشاة والبنادق والمدافع الآلية بطول القوائم المركزية للتلال يميناً ويساراً . ورأى العرب أن الحل الوحيد هو الانزلاق على الجنبات تحت غطاء التلال والإمساك بالأتراك عن طريق حركة كماشة . وبناء على هذا ، تم إرسال راسم ساردست ، ضابط المدفعية ، حول ظهر التل الشرقى ومعه ثمانون من الخيالة ، بينما أرسل لورانس دعماً من المستأجرين الجدد (فلاحون من قرية مجاورة تدعى عيمة) كى يزحفوا غرباً حول التل . وقبل الساعة الرابعة عصراً فاجأ رجال عيمة القوات على التل من الخلف وأجبروا الجنود على الاندفاع من ارتفاع ٢٠٠ قدم والهرب واستولوا على البنادق الآلية . وفى نفس الوقت تقريباً هجم راسم وفرسانه على الجناح الأيسر للعدو بينما اندفع جميع العرب الذين كانوا على «تل الاحتياطى» أماماً . وهرع الأتراك مغادرين ميدان القتال وتركوا وراءهم بنادقهم الآلية ومدافع الهوتزر . واعتلى القائد العثمانى حامد فخرى جواده كى يعيد تنظيم قواته إلا أن العرب أصابوه بطلقة مميتة . كان أحدهم قد سمعه يقول إنه لم يشاهد طوال الأربعين عاماً التى قضاها فى الجندية قوات غير نظامية تقاتل بهذا الشكل . وكانت تلك آخر قشة بالنسبة للأتراك الذين فقدوا معنوياتهم ، إذ انسحبوا مذعورين إلى سيل الحايصة والعرب يطاردونهم . وطبقا

لتقرير لاحق تمكن خمسون منهم فقط من الوصول إلى الكرك، وكان هذا نصراً ساحقاً؛ فمن بين الجنود الأتراك الستمائة الذين خرجوا من الكرك قبل يومين من المعركة، قتل مائتان بمن فيهم القائد، وأسر مائتان وخمسون. واستولى العرب على مدفعي جبل قذافين من نوع سكودا، وعشرين بندقية آلية ومائتي حصان وبغل وقد سمى هذا «نصراً حربياً رائعاً» في التقرير الرسمي عن الحرب الذي اعتمد على قصة لورانس نفسه للسجلات الحربية، مثله مثل كل تقرير أوربي آخر. بيد أن لورانس كتب فيما بعد أن تقريره كان محاكاة ساخرة إرادية قصد بها السخرية من اعتقاد رؤسائه في المبادئ الجامدة للمفكرين العسكريين من أمثال كلوزفيتز وفوش. وكتب أيضاً أن «النكتة» الكبرى هي أنهم بدلاً من التعرف على السخرية في تقريره، ابتلعوها بوقار ومنحوه وساماً. وسخر قائلاً: «لأو أتيح لكل رجل كتابة تقريره دون وجود شاهد على ما يحدث، فلا بد وأن يكون لدينا في (سجلات) الجيش اعترافات كلها بهجة». وفي «أعمدة الحكمة»، قال إنه هو، وهو وحده، من كان قد قرر خوض معركة المواجهة في طفيلة. إلا أنه سخر أيضاً من تقريره عن الاشتباك. ووجدت نفسي أتعجب بشأن دوره الحقيقي في هذا النجاح الأسطوري.

سافرت إلى طفيلة مع صديقي محمد الحبابه الذي كان يعمل سابقاً في القوات الخاصة، لأشاهد بنفسى ميدان المعركة. ووجدت المدينة أجمل كثيراً مما تخيلت. كان الجزء القديم منها هو حى الخايسين، وهو حى سكنى شديد الازدحام تتجمع منازل الحجرية حول قلعة صغيرة مربعة تقع على نتوء على شكل يد مقلاة يطل على سيل أزارقة العميق. وعبر الصدع إلى الجنوب كانت قرية بصيرة، وإلى الشمال كانت الهضبة العظيمة أو موقع المعركة نفسها. وكان بالإمكان رؤية وادى البحر الميت المتألق إلى الغرب مباشرة بالنظر بطول شق سيل.

ذهبنا أولاً إلى مكتب السياحة، وكان الموظف لطيفاً وطلب لنا الشاي. إلا أنه لم يتمكن من إخبارنا عن مكان وقوع معركة طفيلة. ثم قال: «وعلى أية حال، فلم يكن للورانس علاقة بالمعركة، لأنه كان مجرد جاسوس إنجليزي». وشكرونا وذهبنا بالسيارة إلى أقدم مبنى في المدينة، وهو الحصن العثماني، وقررنا أن هذا هو المكان الذى علينا أن نبدأ منه لأنه كان موضعاً بخريطة المعركة التى صورتها من سجل

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

الحرب الرسمي. ومن هناك، تعرفت بسهولة على موقع «تل الاحتياطي» الخاص بلورانس. وقاد محمد السيارة حول الممر الضيق إلى سفح الجرف الجبى المنحدر حيث تركنا سيارتنا وتسلقنا أعلى المرتفعات. كانت ثمة أشجار صنوبر حلى وأشجار أرز قد زرعت حديثاً على السطح. وقرب القمة شاهدت قوالب بناء بين الأحجار التى وصفها لورانس بأنها بيزنطية. وكان الاسم المحلى «تل الاحتياطي» هو «خربة نوخة». وعلى طول محور التل كانت ثمة حفرة، ربما كانت مواضع بنادق المعركة نفسها. كان المشهد أيضاً عبارة عن أرض بور متموجة مغطاة بعشب ماعز أصفر وتجمعات حجارة سوداء وكتل صخرية، ولم تكن هناك شجرة واحدة. وكان بإمكانى رؤية التل الغربى بوضوح أسفل موقعى إلى اليسار، حيث كان موضع البنادق الآلية التركية، والذى استولى عليه رجال العائمة من الخلف. إلا أن بقية ميدان المعركة لم يكن كما توقعت. فقد كنت قد تخيلت، من الخريطة، ومن وصف لورانس، سهلاً مثلاً تحده الجبال من الجانبين. وبدلاً من ذلك شاهدت منحدرًا تلياً متموجاً عليه حقول وجذامة تملئ يميناً نحو قاعدة كتف جبل كبير على شكل هضبة حادة القمة منحدره الجنبات يوجد عند قاعدتها طريق الكرك - طفيلة. وكانت الحافة القصية للهضبة، موقع القيادة العامة التركية، تظهر على الخريطة كما لو كانت فى مجال الرؤية. إلا أنها كانت تحجبها فى الواقع أرض مرتفعة تقع أمامى مباشرة. إذًا، فقد تمت الهجمة الأخيرة من «تل الاحتياطي» بالهبوط على منحدر إلى أرض لا تصلها الطلقات ثم الصعود أعلى تل آخر قبل الهجوم على الأتراك. وهذا يختلف عن قول لورانس بأن الهجوم تم بالاندفاع أسفل التل. وفحص محمد الخريطة بعناية ثم دقق النظر إلى الأرض، ولفت نظرى إلى ملحوظة تقول إن الخريطة صممت على أساس «صورة جوية من زاوية مائلة». ومن المحتمل أن تكون هذه هى نفس الصورة التى وردت فى التقرير والتى التقطت عام ١٩٢٩ والتى تم فيها رؤية ميدان المعركة من منظور المدينة. وفى الواقع، فقد كُتب التقرير الرسمي فى نفس العام، إذ إننى رجعت فيما بعد إلى خطابين من لورانس إلى كاتب التقرير الميجور آرشيبيولد بيك مؤرخين عام ١٩٢٩ جاء فيهما «تريدنى أن أراجع هذا الأمر الآن على أساس صورة هوائية للمكان ومن خلال ذكريات عمرها الآن اثنا عشر عاماً! ألا يعتبر هذا مبالغة لأمر كان فى مقصده... نكتة؟»

إن الأمر برمته عبثي». ورغم أن لورانس كتب فيما بعد أن «خريطة بيك تتطابق مع ذكرياته» إلا أنه كان من الواضح ثمة فروق جوهرية بين الخريطة والأرض. وبدأنا السير أسفل سفح التل ونحن نخطو باتجاه الجزء الغربي حيث قابل لورانس الخايسين وابن جازي وأمرهم بالانسحاب. وبينما كنت أسير، كنت أكاد أسمع أزيز الطلقات. إلى جانبي وكذا رعد وجلبة القذائف المتساقطة ورنين متفجرات الكورديت وقعقة البنادق الآلية. وبينما كنت مستغرقاً في حلمي سمعت من يقول «السلام عليكم». ورأيت راعياً شيخاً، رجلاً أسمر البشرة، له وجه كجلد «الرقعة» المعالج، يرتدى عباءة متسخة من جلد الغنم، وغطاء رأس مهلهلاً، ويجرجر قدميه فوق مرعى حجري وأمامه قطيع من حوالى تسعين من الأغنام البنية والبيضاء. وسأله محمد إن كان يعرف أى شيء عن معركة لورانس في طفيلة فرد الرجل «لا. بيد أنه كانت ثمة حرب هنا لأننا لمجد قذائف ورصاصات أحياناً». واستغرق وصولنا إلى الطرف الغربي لسلسلة التلال، حيث تموضعت البنادق التركية، ساعتين وكان هذا يتوافق مع قول لورانس إن المسافة كانت حوالى ميلين تقريباً. وتسلقنا إلى القمة على التربة المحروثة اللينة، ورأينا من هناك صدعاً عميقاً فى الأرض حفرته المياه فى الزمن القديم كان يتغلغل داخل الوهد، وفكرت أن هذا لا بد وأن يكون الممر السرى الذى تسلك منه رجال العايمة من خلف الأتراك وحسموا بهذا مصير المعركة بالكامل. وكان لورانس قد كتب إلى الميجور بيك «إن المجهود التركي الرئيسى كان بطول سلسلة التلال، وقد أزاله فيما بعد، رجال العايمة».

فمن الواضح إذاً أن هجمة رجال العايمة كانت هى التى حسمت المعركة. أما إن كان لورانس هو من دفع بهم للهجوم أم لا، فأمر مازال محل نقاش. وقد قال صبحى العمارى، وهو ضابط عربى نظامى اشترك فى المعركة وكان قائداً لفرقة البنادق الآلية، فيما تذكره عن المعركة أن فلاحى العايمة تجمعوا على تل يدعى خربة السباعية على بعد كيلو متر يمين الجناح التركى. وطبقاً لصبحى، كان الموقع التركى خارج مدى قذائف «تل الاحتياطى». وهذا صحيح فيما يبدو. لأنه رغم أن لورانس أخبر بيك أنه قد ضبط مهداف مدافع الفيكروز ليصل مدى الطلقات إلى ٣٠٠٠ ياردة كى تحصد المنسحبين، إلى أن مدى الفيكروز هو ٢٩٠٠ ياردة فقط

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

وهو الحد الأقصى لهذا السلاح . وكما أوضح ريتشارد ألدنجنجتون ، فلم يكن أحد في ذلك الزمن يفكر في التبارز بالبندق الآلية من مسافة قدرها ٣٠٠٠ ياردة . وخطرت لصبحى فجأة فكرة تحريك بندقيتين آليتين إلى التل الغربى كى تصبحا فى المدى المطلوب . فهورول هو ورجاله عبر الأرض التى لا تصلها رصاصات بندق الحصن وزحفوا إلى قاع السلسلة التلية حيث لحق بهم تلقائياً فلاحو العائمة . وتسلىق رجال المدفعية الآلية المنحدر وفتحوا النيران على الأتراك من مدى قريب جداً ، وسرعان ما لحقت بهم مجموعة مندفعة من رجال العائمة . وأصيبت الوحدة التركية الأكثر قرباً من العرب بإصابات بالغة ، وأمر القائد التركى رجاله أن يستديروا ويواجهوا الفلاحين . وهنا حدث أمر غير متوقع . فلدى وقوف الأتراك للاستدراة اعتقد رجال العائمة أنهم على وشك التفهقهرو قاموا بهجمة عفوية وهم يصيحون ويتضاحكون . وترك الأتراك ، الذين أصابهم الذهول ، بنادقهم ، ولاذوا بالفرار ، وانتشر هلعهم إلى باقى الوحدات التى تبعت الآخرين . وعرف صبحى ، فيما بعد ، من أحد الأسرى ، أن معظم الضباط الأتراك ، فى تلك اللحظة تحديداً ، كانوا قد انسحبوا من الصفوف لحضور مجموعة الأوامر مع القائد ، وهكذا لم يكن ثمة أحد ليجمع شمل الجنود وهم يتفهقرون . ولهذا ، فحينما عمت الفوضى أمر حامد فخرى ضباطه أن يلتقط كل منهم بندقية ويعود إلى الصف ، كما سجل ذلك لورانس ، إلا أن الوقت كان قد فات .

وأخبرنى المؤرخ العربى سليمان موسى أنه كان قد تحدث مع عدد ممن اشتركوا فى المعركة وتذكر معظمهم أنهم شاهدوا لورانس فى ميدان القتال . . إلا أنهم أجمعوا أن الاشتباك كان مصادفة عفوية ، كما يوحى تقرير صبحى . وقد ألح لورانس نفسه إلى هذا حينما أخبر ليدل هارت أن «رجال العائمة أتوا من الغرب» (تقع قريتهم على بعد بعض أميال من ميدان المعركة) «وقد تكون للجغرافيا دور هام فى تقرير شكل المعركة لا يقل عن دور الاستراتيجية» . وماذا عن ادعاءات لورانس الأخرى ؟ فقد قال إنه قرر أن يحارب معركة يلتحم فيها الجيشان لغضبه من غباء الأتراك الذين عادوا مرة أخرى ، ومن ثم ، أرسل البنادق الآلية إلى الأمام لمساعدة الفلاحين وتخير «تل الاحتياطى» كخط دفاع أخير ، وأمر القوة الأمامية بالعودة إلى التل ، وحث زيد على أن يحرك مجموعته الرئيسية إلى هناك . إلا أن

الشواهد تدل على أنه من قرر مواجهة الأتراك على الهضبة لم يكن لورانس أو زيد، بل فلاحى المحايسين من طفيلة الذين كرهوا أن يعود الأتراك إلى قريتهم. وقد اضطر لورانس أمام فعل عشرات قليلة من الرجال أن يتخذ موقفاً، ولا يوجد من الأسباب ما يدل على أنه لم يكن هو من أرسل البنادق الآلية لدعمهم بمبادرة شخصية منه، أو على أنه لم يختار «تل الاحتياطي». بيد أنه لم يكن هو من نصح زيد بالتحرك أو من أمر القوة الأمامية بالانسحاب. ولكن الواضح أنه لعب دوراً هاماً فى المعركة. فلماذا إذاً السخرية من الذات واستعماله «بهارات» الأمثال والأقوال المأثورة من كتب السجلات العسكرية فى تقريره؟ فما هى «النكتة»؟ والإجابة هى أن لورانس تحقق من استحالة إضفاء شكل منطقي على سلسلة من الأحداث اعتمدت على الصدفة، التى تحسم معظم الاشتباكات الحربية، والتعبير عنها فى شكل تقرير قصير. فكتب إلى الميجور بيك عام ١٩٢٩ قائلاً: استشهدت فى التقرير بتعبيرات معادة سخيصة من فوش وغيره من المخارين الدمويين. وكنت أعمد فى وصف كل حركة إلى محاكاة ساخرة لما كانوا يوصون به، إلا أننى بالغت لدرجة تجعل التقرير عبثياً. وقد كتبت التقرير عن المعركة بنفس اللهجة، أى أنه كان محاكاة ساخرة لرسالة عسكرية حقة. إلا أن هيئة الأركان فى فلسطين أخذته مأخذ الجدل. أمل ألا تقع فى خطئهم.»!

وعقب المعركة بأيام قليلة ذهب لورانس إلى البحر الميت عن طريق الجرف كى يبحث قوة من البدو بقيادة الشريف عبد الله الفاعر على تدمير المراكب التركية الراسية فى الميناء عند المزرعة، والتى كانت تنقل الإمدادات إلى الأتراك فى أريحا. وتم الهجوم يوم ٢٨ يناير، وأحرقت سقائف المؤن، وأغرقت سبعة قوارب بعد أن خربت، وبذلك تعطل الإبحار فى البحر الميت. وأثار احتمال توالد قصص عن هذا الحادث لورانس، فأعلن لروبرت جريفز بز هو «أنها كانت واحدة من مناسبتين فى التاريخ الحربى الذى هاجم فيها رجال على مطاياهم أسطولاً فى البحر وأغرقوه. وقد زكيت نفسى بعدها بز هو باعتبارى ضابطاً بحرياً». وفى هذه الأثناء، كانت الخطة الهاشمية مازالت هى التقدم شمالاً إلى الكرك ومأدبا. وفى أوائل شهر فبراير ذهب لورانس إلى قويره ليحصل على ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى كانوا سيحتاجونها لاستئجار جنود غير نظاميين لعملية التقدم. ولدى عودته منهكاً إلى

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

طفيلة فى ١١ فبراير، بعد أن تسلق مسرعاً التلال الثلجية، ساءه أن يجد زيد لم يفعل أى شىء للإعداد للسير إلى مؤاب، وأن الفرصة التى أتاحتها لهم معركة طفيلة قد أهدرت. وفى رسالة إلى كليتون فى اليوم التالى كتب لورانس «مهمم زيد وتلشم وألقى بفرسته جانباً دون أن ينتفع منها. فقد كانت البلاد بدءاً من مأدبا تحت أقدامه. إن العرب أسوأ مادة تصلح للتشكيل.» وفى الواقع، فرغم أن لورانس كان قد حاول دوماً أن يظل فى الخلفية، فقد وجد، بشكل متزايد، أن عليه إملاء الاستراتيجية وكتب إلى كليتون «سيحددون جميعاً يوماً ما للحط من قدرى. فمن المبال أن يتحكم أجنبى فى إدارة شعب آخر وفقاً لإرادتهم الحرة إلى مالا نهاية. وقد كان دورى طويلاً بما فيه الكفاية». وتحقق أن الشريف قد فقد تصميمه على التقدم وحده، ومن ثم، قرر الذهاب شمالاً لث مجموععات متنوعة غير نظامية على العمل. فقد كان مقررراً أن يصل الذهب إلى طفيلة فى غضون أيام، وشعر لورانس أن المبلغ سيكون كافياً للإنفاق على حاجته وحاجة الشريف الملحة وعلى دعم الهجوم. وانطلق للقيام باستطلاع فى سيل الحايصة مع الملازم كيركبرايد الذى كان يتحدث العربية بطلاقة وكان قد أرسل من بئر سبع من قبل القيادة العامة كى يكتب تقريراً عن إمكانيات الاستخبارات. وبعد عودة كيركبرايد إلى فلسطين واصل طريقه مع شيخ من السكان المحليين حتى الكرك ومأدبا. وكان الاستطلاع مرضياً جداً، وعاد لورانس إلى طفيلة كى يخبر الشريف زيد أن الطريق أصبح مفتوحاً أمامه. وتجادل زيد قائلاً إن هذه العملية ستحتاج إلى قدر كبير من المال، وحينما ذكر مبلغ الـ ٣٠,٠٠٠ جنيه التى كان قد تلقاها لتوه دهش لورانس أن قال له إنه أنفقها جميعاً فى دفع أجور رجال الحايسين ورجال العائمة وابن جازى وبنى صخر ومجموعات أخرى. وأسقط فى يد لورانس؛ فقد كان معظم هؤلاء فلاحين متمركزين فى طفيلة ولا يصلحون للتقدم. وكان على النظام الهاشمى استئجار رجال أثناء تحرك القوات قدماً. بيد أن كشف الأجور كان وهمياً، إذ إنه لم يكن بوسعهم سوى دفع أجور عدد قليل من الرجال الموجودة أسمائهم فى دفاترهم، وهم لا يفعلون هذا سوى فى وجود حالات طوارئ فى أماكن ما. وعرف لورانس أن زيد يعلم هذا، وتحقق فجأة من أن الشريف كان يكذب عليه؛ فقد كانت دفعة الذهب قد وصلت فى اليوم السابق، ولم يكن ثمة موظفون يكفى عددهم

لورانس ملك العرب غير المتوج

إحصاءها وتوزعيها في غضون أربع وعشرين ساعة. وتحقيق حدسه من أن الأشراف سينقلبون عليه ذات يوم. إلا أنه لم يتخيل حدوث هذا بهذه السرعة. وأصر زيد على كذبه وفقد لورانس هدوءه المعتاد وقال «أنا لست تابعاً لك، أو مسئولاً أمامك، بل العكس هو الصحيح. وإنني أتوقع أن تُحترم رغباتي وتكون محلاً للاعتبار في الأمور كلها، لا أن تناقض هذه الرغبات دون تفسير مسبق. فحينما يقوم البريطانيون من خلالى بتحويل جميع نفقات العملية، فلا بد أن تُتبع تعليماتي بكل دقة ممكنة». بيد أن زيد لم يتزحزح، وتيقن لورانس أن حملة البحر الميت قد انتهت. وفشل في أن يفى بوعده للنبى مرة أخرى. وفي الصباح، أرسل إلى زيد مذكرة يطالبه فيها بإرجاع النقود. وحينما أرسل إليه الشريف تقريراً منمقاً خادعاً بأوجه إنفاقها، قرر لورانس الذهاب إلى بئر سبع ليبين للنبى أنه خذله للمرة الثانية نتيجة خطأ في التقدير، ويتخلى نهائياً عن الثورة العربية.

غير أنه في نفس يوم وصوله إلى القيادة العامة للقاء النبى، كان الأتراك قد أخذوا أريحا، ودخلت الحملة إلى فلسطين مرحلة جديدة. وكان مكتب الحرب في لندن يمارس ضغوطاً من أجل توجيه ضربة قاضية للأتراك. وكان النبى يعد العدة للهجوم على دمشق وحلب. ووسط تلك السعادة الغامرة، نسيت مشكلة لورانس التافهة مع زيد بشأن الثلاثين ألف جنيه. وكان النبى يريد تأمين جناحه الأيمن وقطع خط السكك الحديدية لأن الأمر لم يكن يحتمل أن تتدخل حامية المدينة المنورة في هذه المرحلة الحاسمة. وكان مستعداً لإرسال هجائته من المصريين والخيالة الأسترالية عبر نهر الأردن للاستيلاء على السلط غرب عمان ويضمن بهذا سلامة هجوم عربى على عمان التى برهنت حاميتها على كونها الشوكة المستديمة في جسد الهاشميين. واعتقد لورانس أنه في حالة وجود وسائل نقل مناسبة سيكون بإمكان نظامى جعفر باشا البالغ عددهم أربعة آلاف عربى أن يدفعوا للتقدم بوثبات متجاوزة (وثبة الضفدع) إلى نقطة ما عند خط السكك الحديدية شمال معان والجلوس على الخط إلى أن يخرج الأتراك إليهم كى يزيحهم. وكان قد وصل إلى القناعة بأن النظاميين العرب كانوا أكثر من صنو للأتراك في المعارك المفتوحة، إلا أنه شك في قدرتهم على الاستيلاء على معان عن طريق هجمة أمامية. وأخبر النبى بحاجته إلى إبل ونقود وبنادق. ومنحه الجنرال فى التو ٧٠٠ من إبل

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

الحملُ ومعهم جماليهم المصريين، و٣٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى ووعدته بمدفعية وبنادق آلية. وانتقل لورانس إلى القاهرة حيث خطط مع بيرس جويس والمقدم آلن داوونى، وكان تكتيكياً موهوباً أوكلت إليه رئاسة «القنفذة»، التقدم إلى معان. وخططوا لأن تكون آخر العمليات فى هذه الدراما هى الهجوم على امتداد السكك الحديدية فى المدورة وعزل حامية المدينة نهائياً.

إلا أن الخطط اتخذت مساراً خاطئاً. فقد استولى البريطانيون على السلط إلا أنهم لم ينجحوا فى الاستيلاء على عمان وتم صدهم بواسطة هجمة كبيرة مضادة من الأتراك، فتركوا المدينة يوم ٢ أبريل أى فى نفس اليوم الذى كان لورانس، والذى لم يكن يعلم شيئاً عن الهزيمة، يركب عائداً إلى أبو لسان مع حرسه. وفى هذه الأثناء، حشه رجاله على الهجوم على دورية تركية قوامها ثمانية رجال عند جسر السكة الحديدية قرب فريفرة. وكانت الهجمة غير منظمة. فقد سار خادم لورانس عثمان (فرج) متهوراً فى مقدمة الآخرين وأصيب بطلقة فور توقف ناقته عند الجسر. وبدا للورانس وكأنه توقف إرادياً أمام العدو ليطلقوا عليه النيران. ولدى وصوله، كان فرج قد أصيب بجرح قاتل فى عموده الفقرى، إلا أنه كان سعيداً لأنه «سيموت» حيث إن زميله علياً «داعود» كان قد هلك من البرد منذ أسابيع فى الأزرق: «ولم يتسم أبداً مرة أخرى، وفقد إرادته على الاستمرار دون صديقه». وأجبر لورانس، للمرة الثانية فى حياته، على إطلاق الرصاص إرادياً على رجل: «لم يكن لدى فرج سوى ساعات قليلة وبعدها يموت، بيد أنه لم يكن بوسعنا تركه للأتراك الذين كانوا فى طريقهم مسرعين على تروللى سكك حديدية، فأمسكت بمسدسى وخفضت يدي كى لا يراه الصبى، إلا أن فرج فهم مقصدي وقال: «سيغضب داعود منك» فرد لورانس «احمل إليه سلامى». فرد عليه العقيلي «سيمنحك الله السلام». وأطلق لورانس النار على رأسه.

شعر لورانس بمسئوليته عن موت فرج. وإن كان وصفه للهجمة دقيقاً، وهذا صحيح، إذ تبين تقاريره أن حرسه الخاص كان يتكون فى أبريل عام ١٩١٨ من خمسة عشر رجلاً فقط، إذأ، فقد كان هجومهم على موقع تركى بهذا العدد القليل عملاً تعوزه الحكمة. إلا أنه لا يوجد أى ذكر لهذا الاشتباك فى التقارير الرسمية، ولا يذكر لورانس أى شئ عن موت «داعود» و«فرج» أى على عثمان

في مذكراته ، هذا بالإضافة إلى أنه ، وكما رأينا ، لا يأتي ذكر على وعثمان ضمن حرسه الخاص في أبريل ١٩١٨ . ومن اللافت للنظر ، أن لورانس يستخدم موت داعود كفاتحة لمقال له عن طبيعة المرأة في «البحر المتوسط ، ويبين أنه على حين أن النساء مجرد «آلات للممارسات العضلية ، لا يتوحد الرجال إلا مع أحدهم الآخر» . كما أنه لابد أن شعور لورانس أن عليه تغيير اسميهما حينما بدأ في كتابة «أعمدة الحكمة» على أساس أنهما قد توفيا كان ذا أهمية . وبما أنه قد تكلف المشاق لتوضيح أنهما كانا يرتبطان بعلاقة حب مثلى علنية ، وأنهما لم يشعرنا بالخزي من هذه العلاقة ، فلا يوجد أى سبب منطقي لتغيير اسميهما ، إلا إذا كان لورانس ، كما في حالة هيوبرت يونج ، يؤلف الأكاذيب عنهما . ويتضح قلق لورانس من أن يستعمل روبرت جريفز القصة في مذكرته إليه فيقول له : «يبدو أن نشرك قصة موت فرج أمر لا يحتمل . . وأقترح أن تحذفها كلية . إن السرد منظم ولا يعتمد السياق عليها . . وبإمكانك القول إن فرج قد توفي بعد زيارته عمان بأسبوع حيث أصابه جرح مميت في غارة على دورية خط السكك الحديدية التركي . . وتركها عند ذلك . فهذه أمور خاصة» . ويوضح جريفز بغضب ودهشة أن لورانس كان قد نشر القصة بالفعل في طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة» التي كان يتداولها الآلاف في هذا الوقت . فلماذا كشف للعالم «هذه الأمور الخاصة» إن كان قد شعر بالفعل أن موت فرج أمر غير محتمل ؟ كما أنه لم يجد موانع لمناقشة القيمة الأدبية «لمشهد الموت» مع تشارلوت شو في عام ١٩٢٤ إذ إنه كتب «أجد نفسي متحاملاً على الكاتب الذي يترك القارئ يبني أهم مشهد نيابة عنه كما يحدث في مشهد حريق القرية في «كلاب بانبا» ، وهي رواية لدانييل كوركري . لقد تحاشيت هذا في وصفي لمشهد موت رجلى فرج» . ومن المشير للاهتمام أيضاً أن يقارن لورانس مشهداً حدث بالفعل بحادث من رواية يفترض أن أحداثها كلها مختلقة . . كما لو كان قد نسي أن هناك ما يميز الاثنين .

لقد فشل تقدم البريطانيين عبر الأردن ، كما فشلت الهجمة العربية على معان ، وكان السبب ، إلى حد كبير ، أن الضباط العرب قرروا عدم الأخذ بنصيحة لورانس والقيام بهجمة أمامية بدلاً من حركة يحاصرون بها الأتراك . ورغم هذه النتيجة شعر لورانس الذي كان قد راقب الهجمة ، بالإعجاب بشجاعة النظاميين العرب ،

الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصالح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

ثم سار إلى قويرة في ١٨ أبريل . وفي نفس اليوم ، قام بسرقة عربية فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدي حيث كان داوونى وقوة بمصادرة عربية فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدي حيث كان داوونى وقوة من البريطانيين والمصريين والبدو قد اختبأوا في فجوة استعداداً للهجوم وكان داوونى قد خطط لعملية تل الشهم بالدقة التي تتبع في صياغة كتاب دارسى . إلا أن لورانس اعتقد أنه ، رغم كون داوونى الضابط البريطاني الكبير الوحيد الذي كان باستطاعته التعامل مع تكتيكات الحرب التقليدية وحرب العصابات معاً ، أنه مع وجود هذا التجمع غير المتجانس للقوات تحت قيادته ، فقد لا تنجز الأمور بالشكل المخطط له . ومن ثم تطوع للقيام بهذه المهمة بنفسه ، بصفته الرسمية كمترجم ، لكنه أراد عملياً مراقبة العلاقات بين المجموعات الثلاث .

وكان لهذه العملية أن تكون جد مختلفة عن العملية التي قادها لورانس في المدورة في العام السابق . فإلى جانب أسطول من العربات المدرعة ، كانت هناك عربات حربية من نوع الرولنزرويس ، وبطارية بنادق التلوت من مدفعية الميدان الملكية محملة على عربية فورد بقيادة الملازم صامويل برودى ، وسرب من الطائرات يعمل من قاعدة رم وفرقة من الهجانة المصريين بقيادة فريد بك وأيضاً بدو غير نظاميين بقيادة الشريف هزاع . ومع انبلاج نهار ١٩ أبريل ، زحفت العربات المصفحة من فجواتها وسط صحب موتوراتها ، وجلبة سيرها على أحجار الصوان ، وكانت تخلف وراءها أذياًلاً من الغبار . وجلس لورانس في الرولنزرويس على قمة التل إلى جانب داوونى الذي كان يراجع كل حركة على خريطة فرداها على ركبتيه طبقاً لجدول دقيق الإعداد . وفي الوقت المحدد بالضبط ، سارت العربات المدرعة على التل واقتربت من التحصينات التركية المحيطة بمحطة تل الأشهم . واستسلم الأتراك الذين فوجئوا بظهور العربات المدرعة في الحال . وفي ذات الوقت ، كانت اثنتان من الرولنزرويس بقيادة الملازم هورنبى من سلاح المهندسين الملكيين تتحركان باتجاه إحدى القنوات السفلية وقامتا بتفجيرها بشكل درامى مشير بواسطة مائة رطل من قطن المفتجرات . وكاد التفجير يرفع لورانس وداوونى عن مقعديهما . وفتح الأتراك النيران من خلف « سنقر » حجرى سميك أعلى هضبة صغيرة مستديرة منحدره ، وعلى الفور سمعت طقطقات طلقات من أربع بنادق آلية في أبراج الهجوم على السيارات المدرعة ، وكان صدى أزيز الطلقات يتردد بين

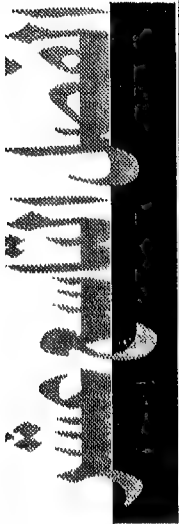
الحجارة ، وفي هذه اللحظة أتى غير النظاميين البدو من خلف تل بقيادة هزاع وهم يطلقون النار عشوائياً ويصوبونها على هضبة الأتراك التي سرعان ما استولوا عليها دون جهد . وسار لورانس بالروزلزرويس باتجاه خط القتال وهو يقذف شحنات القطن المتفجر على القضببان والجسور تحت غطاء بنادق العربات المدرعة الآلية . وهزت الجو سلسلة من الانفجارات ثم ظهرت فجأة سحببات الكسارات على طول الخط مثل شياطين الغبار . واصطدمت كسارات القذائف بالحجارة ودمدمت على أبراج العربات القديمة المصنوعة من الصلب . ودفع البدو برجال الموقع الأمامي للأتراك نحو جنوب المخططة بالإبل المهتاجة التي تتابعت أعلى الهضبة والتحسينات العالية . واقتربت في هذه الأثناء فرقة الهجانة بقيادة فريد بك شمالاً من المخططة وهي تشق طريقها أمامها بحذر من تل إلى تل . وفتحت بطاريات التالوت النيران حيث اصطدمت المتفجرات بمباني المخططة اصطداماً عنيفاً كاد أثره يصم الآذان . ثم هبطت طائرتان فجأة من السماء الصافية غرباً كخطافين ، وقذفت التحسينات بعشرات القنابل . وعلى الفور ، ظهرت أذبال طويلة من الدخان على شكل حرف ٧ حول المخططة ، وتوجهت العربات المصفحة من خلال الغبار والضباب إلى الأمام وهي تطلق وابل نيران بنادقها الآلية . وهنا ألقى رجال هجانة بيك بحذرهم جانباً واندفعوا يعدون بخشونة عبر السهل . وسمع رعيد البدو ، الذين كرهوا أن يسبقهم أحد ، وهم يندفعون من الشرق ، وأحاطوا بالمخططة فرفع الأتراك أذرعهم واستسلموا وهم يلوحون بقوة وأسى بالأعلام البيضاء . وسبقهم لورانس إلى المخططة بالروزلزرويس ، واستولى على الجرس النحاسي كتذكارة ، بينما استبقى داوئي « خرامة » التذاكر ، وأخذ رولز ، سائقه ، الخاتم المطاطي . وخرجوا من المخططة ليجدوا العرب والمصريين وقد تملكهم جنون النهب وأخذوا يحطمون المباني وينقبون عن الغنائم ، ويندفعون بشهوة عمياء للاستيلاء عليها . وكان مخزن المخططة يحوى مئات البنادق وآلاف من الذخائر وطعام وملابس ، وفي جشعهم ، بدأت الجماعات المختلفة تطلق النيران على إحداها الأخرى . وحدث أن خطا جمل على لغم كان قد زرعه الأتراك فانفجر فيه مما أحدث هياجاً وقتياً . وتمكن لورانس ، الذى قال فيما بعد ، إن الضباط البريطانيين كانوا على وشك أن يخنقوا ، من فض الاشتباك بين الأطراف ، ثم سمح للهجانة المصريين أن ينتقوا ما يريدونه أولاً ،

الفصل الثامن عشر، أسوأ مادة تصلح للتشكيل طفيلة وتل الشهم

ولدى صياحه على البدو «تقدموا» ذكر رولز أنهم «اندفعوا مثل كتلة صلدة من نزلء مستشفى الأمراض العقلية» إلى الخازن وضغطوا على الباب حتى فتح وغنموا ما أرضاهم ثم حملوا إبلهم واندفع ثلاثة أرباعهم إلى الصحراء. وكان نجاح الهجوم لا يشوبه شائبة، وقال عنه لورانس إنه كان حرباً من الطراز الأول De Luxe. أما تحفظ داوونى الوحيد فهو أنه كان مخططاً أن يتم الاستيلاء على المحطة فى الساعة الحادية عشرة والنصف تحديداً، لكن الأتراك استسلموا، من منطلق الجهل والعجلة، قبل الميعاد المحدد بعشر دقائق. وكتب لورانس بسخرية غير معلنة «كانت هذه هى الوصمة الوحيدة فى يوم لم تسل فيه الدماء».

غير أن تحطيم السكك الحديدية لم يكن قد انتهى تماماً. فأرسلت عربية مصفحة إلى الرملة، أى المحطة التالية جنوباً، بينما قام لورانس وفرق تفجير أخرى بتدمير جسور وأميال من القضبان بين المحطتين. وفجرت الحفر السفلية بشحنات حشيت فى ثقب البالوعات، على حين قام لورانس، الذى كان قد طور أسلوباً أكثر فاعلية لتخريب المعادن بزرع شحن «زنبقية» أسفل عربات النوم بحيث تلوى أطوال كاملة من القضبان وتتركها معوجة.

وبعد أن اقتنع أن الخط الحديدى بين الشهم والرملة قد أصبح عديم الجدوى، قضى لورانس ليلة قرب الشهم يعد للهجمة على المدورة التى كان من المخطط حدوثها فى اليوم التالى. إلا أن الأتراك كانوا يتوقعون الهجمة، ومن ثم، أجبروا القوة المختلطة على التقهقر بنيران مدفعية مميتة مداها ٧٠٠٠ ياردة. وأرسل لورانس العربات المدرعة فى تشكيل قوسى إلى المكان الذى كان قد لغم فيه قطاره الأول ودمر الحفرة السفلية لمسافة تقرب من ٥٠٠ ياردة ابتداء من التل الذى كان قد موضع عليه مدافع وبنادق الستوكس واللويس عام ١٩١٧. وفيما بعد، أرسل محمد الضحيلان ورجاله الحويطيون لشل الخط الحديدى شمال الشهم. وبحلول ٢٠ أبريل كان العرب والبريطانيون معاً قد نجحوا فى تخريب ثمانين ميلاً من الخطوط الحديدية وعزلوا سبع محطات. وبهذا، تم أخيراً تقييد قوة فخرى باشا فى المدينة والتخلص من تهديدها المحتمل.



أطفئت أحلامى كشموع فى مهب

رياح النجاح القوية

درعا، طفس وسقوط دمشق

شتاء ١٩١٨

19

دخلت سيارتنا العتيقة إلى طفس
عقب الظهر مباشرة. بدت طفس
مدينة حورانية نمطية - مكاناً بلا مركز
رئيسي ومجموعات منتشرة من المنازل
بنيت عشوائياً على طول شبكة طرق
أفقية ورأسية، وسط فدادين من أراضي
القمح، ومروج موحشة حمراء لا تنمو
بها سوى بعض أشجار تفاح سدوم
السامة وبعض نباتات البلوط، وأشجار
الأرز والصنوبر الحلبي.

وبإمكان المرء أن يلمح آثار القرية كما كانت عام ١٩١٨ إذ كان ثمة أكواخ قديمة بين البازلت الأسود متناثرة بين المساكن رخيصة التشييد من القوالب الأسمنتية الخفيفة. وسرنا ذهاباً وإياباً في الطريق الرئيسى لبعض الوقت، ثم أوقفنا رجلاً ذاكن البشرة يرتدى غطاء رأس من اللونين الأبيض والأسود وسألناه إن كان يعلم أين وقعت معركة عام ١٩١٨. فأجاب: «لا أدري، إلا أن هناك شيخاً بالقرية كان هناك، بإمكانى اصطحابكما إليه». ودهشت، وخامرني قليل من الشك فقد أمضيت عدة أشهر وأنا أتتبع شبحاً لا يعرفه أحد سوى بالقبيل والقال. فهل سأقابل أخيراً رجلاً رأى لورانس رأى العين؟ واصطحبنا الرجل معنا في السيارة وأوقفنا عند منزل حديث مقام على ناصية أرض حمراء بين أشجار تفاح سدوم. وفي الداخل، كان ثمة رجل عنكبى يرتدى كوفية حمراء وعباءة سوداء ويجلس على سجادة إلى جوار مدفأة تعمل بالبنزين ويحيطه نصف «دسته» من الأبناء والأحفاد. وكان الرجل يرتدى نظارة سميكة الحواف وله لحية خفيفة بيضاء.

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

وأخبرنى أحد أحفاده، وكان طالب طب فى حلب، أن جده قد تجاوز التسعين وجلسنا على الأرض متربعين، وبعد أن أجبنا على أسئلتهم، وارتشفنا الشاي المقرر، سألته، وأنا أكبت انفعالى إن كان قد التقى بلورانس العرب. وأجابنى الشيخ بصوت متهدج: «لقد رأيته؛ كنت حينذاك مجرد صبي بالطبع. وأتذكر أننى شاهدت الجيش العربى وهو يسير فى القرية. كان يوماً رهيباً، كنت برفقة والدى فى قرية أخرى فى الليلة السابقة، ولدى وصولنا فى الصباح، وجدنا أن الأتراك قد قتلوا الجميع تقريباً. وكانت جثثهم ملقاة فى الطريق. رحمة الله عليهم جميعاً».

«وكيف بدا لورانس؟»

«كان رجلاً طويلاً قوياً ذا لحية طويلة».

واصطحبنا حفيده فيما بعد لنشاهد ميدان المعركة، وكان عبارة عن أحد المروج الحمراء مليئاً بالكتل الصخرية. وكان على مسافة قريبة من القرية. وبدأ لى،

وبشكل غير متوقع، صغيراً على مثل هذا الحدث الدرامي. ولقد ظل ذبح طابور كامل من الجنود الأتراك على أرض طفس يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩١٨، وما تلاه من ذبح الأسرى الأتراك والألمان، من أكثر الأفعال الخلافية في تاريخ لورانس. وقد أقنع هذا ناقيديه أنه كان سادياً متعطشاً للدماء. أو أنه قيل، كبديل لهذا، إن تعذيبه واغتصابه في درعا شوه عواطفه بشكل دائم. وقد أذكى لورانس هذا النوع من الخلاف بتعليقاته الساخرة المعتادة. فقد ادعى أنه أخبر حراسه في هذا اليوم «إن أفضلكم هو من يحضر لي أكبر عدد من الموتى الأتراك». وعقب أيضاً على هذا قائلاً: «لم نأسر أحداً، لأول مرة في تاريخ الحرب، طبقاً للأوامر». وكان ذبح الأتراك المنسحبين للفلاحين، من غير المقاتلين في طفس، قد ولد هذه القسوة. وقد كان هذا المشهد من أكثر مشاهد الحرب بشاعة بالنسبة للورانس. فلم يرقم الأتراك فقط بذبح الأطفال، بل أيضاً بذبح النساء وتشويه جثثهن وترك أجسادهن في أوضاع شائنة. فقد رأى لورانس جثة امرأة حبلى غرست الحربة بين ساقيها. وكتب لورانس قائلاً إن طلال، وهو شيخ من طفس ادعى أنه رافقه في رحلته الاستكشافية المشثومة في حوران في نوفمبر السابق، قد تملكه الغضب من المشهد لدرجة أنه مات ميتة انتحارية بهجمة واحدة على صفوف الأتراك المتجمهرة.

وكانت مذبحه طفس جزءاً من المرحلة النهائية لحلمه التي بدأت في مايو ١٩١٨، حينما طلب لورانس من أَللنبى ٢٠٠٠ ناقة، ذلك الطلب الذي بدا شديد المبالغة نظراً لتسريح فرقة الهجانة الإمبريالية بسيناء. وسأله القائد العام «لماذا تريدونها؟»، فأجابه لورانس: «كى أدخل ألف رجل في درعا في اليوم الذي تريده». وكانت خطته هي السير بقوة من الجنود النظاميين العرب على الإبل شمالاً من وهيدة، المقر العربى الجديد المتقدم بالقرب من معان، إلى الأزرق ثم إلى درعا ومعها طابور إمداد ومدفعية وبنادق آلية وعربات مدرعة. وكان من المقرر أن يحملوا مؤنهم ويصلوا درعا خلال أسبوعين فقط، ويقوموا بقطع الخط الحديدي بمساعدة بدو رواله، ويكون هذا في نفس الموعد الذي سيقوم القائد العام فيه بهجومه على سوريا. وتأمل أَللنبى الطلب. وكانت الجمال نادرة في الشرق الأوسط، كما كان أمين التموين في الجيش بحاجة حثيثة إليها لفصيلة أخرى من الجيش. وأخيراً، أفنعه حماس لورانس. فقام بتسليم الإبل إلى الثورة العربية، وأسرع للقاء فيصل

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموغ فى مهب رياح النجاح القوية

عند أبو لسان فى اليوم التالى وهو واثق أنهم قد حصلوا لتوهم على وسائل النصر الأخير: وتخلص فى الحال من فرقة النقل المصرية التى كانت مشغولة تماماً بنقل المؤن بين العقبة وأبو لسان بأسلوب غير كفء. وأحل محلهم جمالين من مكة كانوا يعرفون كيف يسوسون الحيوانات بشكل أفضل. وأوكل إلى الكابتن هوبرت يونج، الضابط الذى كان لورانس قد التقى به فى كركميش قبل الحرب، أمر تنظيم نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم. وكان لورانس قد تخير يونج ليكون وكيلاً له إن هو قتل أثناء المعركة. إذ إنه كان يتحدث العربية بطلاقة كما كان على مقدرة تنظيمية من الطراز الأول. بيد أنه كان يعيبه سرعة الغضب التى جعلت من الصعب عليه التعايش فى سلام مع أى شخص. وقد ذكر نورى السعيد أن مزاج يونج كان عدوه الأسوأ، واستدعى هذا منه أن يقول لبعض الضباط العرب الذين كان يونج قد أغضبهم «لا عليكم»، فهو يصيح فى الضباط البريطانيين بنفس الأسلوب «كى يهدئهم». ولولا كعب أخيل هذا لأصبح يونج لورانس آخر للعرب. إذ إنه بالإمكان القول إنه كان أكثر الضباط البريطانيين الذين عملوا مع العرب مقدرة، وكان تصوره لمتطلبات عملية ما، حتى ما سيحمله آخر جمل فى القافلة، تفوق بكثير مقدرة لورانس الزئبقى الذى كان يميل إلى السير بالإبل أولاً ثم دراسة الاحتياجات من المؤن فيما بعد. إلا أنه على حين أنه كانت للورانس مقدرة سحر الباب الآخرين، كان ليونج مظهر وسلوك الطالب ذى النوايا الحسنة والذكاء المتقد والمزاج العكس. وفى فبراير من عام ١٩١٨ تلقى أمراً مبهماً فى مقر وظيفته بالهند ليسلم نفسه فى القاهرة، وقد كتب عن هذا قائلاً: «لم أكن على علم بشئ حتى دخلت إلى القيادة العامة فى فندق السافوى لأتسلم عملى وفتح الباب ودخل شخص صغير الحجم... فعرفت». وفى هذا الصدد، قال له لورانس: «طلبوا منى أن أقترح شخصاً يأخذ مكانى فى حالة حدوث شئ لى، وأجبتهم أن لا أحد يستطيع هذا. وحينما ضغطوا على قلت إنه ليس هناك من اقترحه باستثناء جيرترود بل وأنت، ويبدو أنهم اعتقدوا أنك أنت الأفضل للقيام بهذه المهمة». وسرعان ما تحقق آلان داونى، قائد «القنفذة»، أن خطة «البديل الجاهز» لن تكون مجددة أبداً بسبب مزاج يونج الانفعالى، ورغم هذا، فقد عينه مسئولاً عن الإمدادات والتموين.

وبحلول ٢٢ يوليو كان يونج قد أعد خطة مفصلة لإمدادات المهمة ووافق عليها

لورانس ملك العرب غير المتزوج

جويس، قائد الأركان البريطاني في قوات فيصل، وفيصل نفسه. وفي هذه الأثناء، كان لورانس في القاهرة يضع خططه للمهمة مع داوود الذي اقترح الاستعانة بآخر مجموعتين من فرق الهجاء الإمبريالية لإكمال المهمتين اللتين لم يستطع البدو حتى ذلك الحين إنجازهما. أي: تدمير المدورة، وتدمير الجسر الموجود في القصير شمال معان. وعلى غير المتوقع، وافق لورانس على هذا. وتم بعث برقية إلى جويس بالعقبة بها تعليمات بإقامة مستودعات مئونة وذخيرة للقوات غير النظامية في رم وجفر وبيير. إلا أن هذه التعليمات قبلت بالاستياء في العقبة: فلم يتم استشارة جويس في الأمر، ورأى هو ويونج أن كل حمولة تنقل إلى عملية فرق الإبل، ستعني حمولة أقل لطابور الطيران في الأزرق ودرعا. وفي هذا الصدد كتب يونج: «ناقشت وجويس هذه البرقية ونحن نلجج على أسناننا، وقررنا أنه ليس أمامنا سوى استخدام بعض الإبل التي لا تقدر بمال لمستودعات عملية المدورة». وفي ٢٨ يوليو، وصل لورانس إلى العقبة، وقرأ خطة يونج، وأدانها فوراً على أساس أنها غير قابلة للتنفيذ. وكان النبي يعتزم تنفيذ التقدم الأخير إلى دمشق يوم ١٩ سبتمبر، وكان على العرب أن يستهلوا هذا التقدم ويسبقوا القوات بمدة لا تتجاوز أربعة أيام. وكانت مراعاة دقة التوقيت أمراً حاسماً. وكتب لورانس: «إن كلمات النبي لي كانت «أن ثلاثة رجال وصبي بمسدسات أمام درعا في ١٦ سبتمبر... أفضل من آلاف قبل هذا الموعد أو بعده بأسبوع». وكانت خطة يونج تنتهي بأن يصل العرب إلى درعا بعد الموعد المحدد بأسابيع ثلاث. وكشف لورانس عن خطته التي وضعها مع داوود لتنفيذ عملية أكثر تحديداً وتحركاً ضد درعا. وفقد يونج تحكمه في نفسه، فرد لورانس بسخرية إنه قد نفذ عمليات كثيرة مماثلة قائمة على التحرك السريع بنجاح دون مساعدة جندي نظامي من خريجي إيتون المتعجرفين الذين ظهروا على المسرح. وأجابه يونج إجابة طاعنة بأن قال له (أي لورانس) إنه يقترح أن يقوم هذه المرة بتحريك جنود نظاميين بدلاً من البدو لأن النظاميين جد مختلفين. وسأله إن كان يتوقع أن يركب كل اثنين منهم ناقه وأن يعيشوا على لفائف قمر الدين والمياه لمدة أسبوعين؟ وسأله عن تصوره لمصادر الإمدادات. وعن إمداداتهم إن انسحبوا حيث إن خطة لورانس لم تأخذ في الاعتبار الانسحاب إن فشلت العملية. وكتب يونج «لم يعرف لورانس أبداً الكثير عن الجيوش النظامية»... ولم يكن لديه أي

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

تعاطف مع مشكلاتنا الخاصة بالنقل، إذ إنه كان ينظر إلى جميع التنظيمات العسكرية باحتقار شديد، ولم يكن لحرف Q (مصلحة أو قسم) الذى يحترمه النظاميون ويوقرونه عن حق مكان فى أبجدية لورانس». وكان الصراع فى جوهره بين محترف المعى وهاو المعى: وكان جويس قد اشتكى بالفعل لداونى (وكان له مبرره فى هذا) من أن لورانس كان يميل إلى إبطاء القيادة العامة بوابل من الخطط الطموحة الجريئة المندفعة؛ إلا أنه حينما كان يحين موعد تنفيذ تلك الخطط المتهورة، كان يختفى. وانتهت المقابلة دون التوصل إلى اتفاق ولم يتحدثا مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام. واستاء يونج من اعتداد لورانس الزائد بنفسه حيث كتب يقول: «... إن منظر هذا الرجل الصغير وهو يقرأ «موت الملك آرثر» فى ركن من خيمة الطعام وعلى شففيه تلك الابتسامة الشيطانية، لم يكن مطمئناً». وأخيراً، أذعن جويس وقبل خطة لورانس وأيضاً عملية فرق الإبل. وأجبر يونج على الامتثال، واستعمل عبقريته لإيصال الإمدادات إلى نظامى جعفر باشا فى وهيدة وأبو لسان، وقد نجح فى هذا ضد كل التوقعات. واعترف لورانس بهذا بالرغم منه فكتب «إن تسيير قافلة تموين منتظمة ومتناسقة كان محالاً. إلا أن يونج حقق هذا تقريباً، بأسلوبه الغريب الجاحد... ويعزى إليه الفضل فى حل مشكلة إمدادات النظاميين على الهضبة».

وفى ٤ أغسطس، أُرشد لورانس فرق الهجانة بقيادة بكستون إلى وادى رُم. وتركهم ليقوموا بالهجوم على المدورة بدونه، ثم طار إلى جفر ليقابل نورى الشعلان من رواله. وكان من الواضح أنه يخشى هذا اللقاء إذ إنه كان قد أكد للأمير أثناء رحلته إلى نبق عام ١٩١٧ أن باستطاعته الوثوق فى أحدث وعود البريطانيين. أما الآن، فكان نورى على علم بنصوص اتفاقية سايكس-بيكو، وخشى لورانس من مطالبته «بنصف الصفقة غير الشريفة» التى اتفقا عليها فى ذلك اليوم البعيد فى الأزرق. ولم يفصح لورانس أبداً عن فحوى «نصف الصفقة» المبهمة؛ فقد قال إنه أثناء لقاءهما فى جفر لم يطالبه الأمير بها، وأن اللقاء انتهى بتأييد الأمير الكلى لقضية الهاشميين. وعاد لورانس إلى جفر بالسيارة ليلتقى بفرقة الهجانة التى كانت قد نجحت فى الاستيلاء على محطة المدورة وتدمير برج المياه. ثم أكمل مهمة استطلاعية فى الأزرق على حين ذهبت الهجانة إلى جسر

القصير. وتم نبذ المهمة حينما اكتشفت الطائرات الألمانية صفوفهم، وأيضاً، فقد علم باكستون أن قبيلة بدوية معادية كانت قد عسكرت بينهم وبين هدفهم تحسباً لهم.

وفى هذه الأثناء، كانت ثمة أزمة بين النظاميين العرب في أبو لسان. فقد كانوا قد قرأوا تقريراً صحفياً أنكر فيه الملك حسين تعيينه جعفر باشا قائداً للجيش الشمالى. وكانت هذه آخر محاولات حسين لإخضاع ابنه فيصل لتحكمه، إذ كان فيصل قد رقى «جعفر» قائداً عاماً دون الرجوع إليه. وكانت الشكوك تملأ حسين من الضباط العرب النظاميين لخشيته أن «يستولوا» على الثورة. ولهذا السبب كان قد فصل عزيز المصرى، سلف جعفر، الذى كان قد طور استراتيجيات للحملة العربية قبل لورانس بوقت طويل. وكان حسين يعلم أن فيصل ضعيف الشخصية، سهل الخضوع لتحكم مستشاريه فيه، وكان خوفه الأعظم هو اختطاف أطماع الحلفاء الإقليمية للقضية العربية. ورغم أن لورانس أرجع رد فعل حسين إلى «الغيرة» و«شهوة القوة»، فقد كانت الحقيقة هى أن الفرقة بين الهاشميين كانت فى صالح البريطانيين والفرنسيين مثلهم مثل الأتراك. وكان حسين يعتقد أن فيصل يقوم بفتح أبواب سوريا لأطماع الفرنسيين، ورغم ادعاء لورانس، فيما بعد، أن الرجل المسن كان مجنوناً، إلا أن النهاية برهنت على أنه كان محقاً.

وحينما قرأ جعفر باشا إعلان حسين أنه ليس ثمة «ضابط عربى تعلو رتبته على كابتن» استقال وتبعه فى الحال كل أركانهم. كما استقال فيصل تضامناً معهم، ومن ثم، أصبح إيمان البدو بالولاء للهاشميين غير ذى معنى. وباستقالة فيصل تلاشت فرص تجميع قوة كبيرة من رواله، الأمر الذى كان لورانس يرتكن إليه للهجوم على درعا. وبدأت الثورة العربية على وشك الانهيار بانقضاضه واحدة ضاربة، وأسرع لورانس فى ٢٦ أغسطس إلى أبو لسان ليجد علاجاً لهذا الطريق المسدود. فقد كانت هذه لحظة حاسمة فى عملية درعا. وفى اليوم نفسه، وبينما كانت أولى قوافل إمدادات يونج على وشك مغادرة العقبة تعالت صيحات «طيارة، طيارة» إذ سُمع أزيز طيارتين ألمانيتين وظهرتا من بين ضباب الحرارة الذى كان يغلف وادى عربية وألقت بحمولتى قنابل على القوافل. وجن جنون الدواب التى قطعت

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

مقوداتها ونخعت حمولاتها ونشرتها على السهل . وأعاد يوبج ، وسط لعناته الصامتة واهتمامه التام بالتفاصيل ، تنظيم وتجميع سِياس الإبل ، والنقط الأمتعة وأعاد تحميل الإبل وربط القوافل وأرسلها فى سبيلها مرة أخرى . إلا أن الضباط العرب فى أبو لسان رفضوا الذهاب إلى مواقع جديدة دون إشارة استرضاء من حسين . وأبرق لورانس إلى كليتون يوم ٣٠ أغسطس بأن هيئة أركان القنفذة ستتولى قيادة العملية التى ستسير كما كان مخططاً لها . وكان لورانس على علم بأنه رغم مقدرتهم على الاستيلاء على درعا بدون فيصل ، إلا أن الدخول إلى دمشق بدونهم كان يعنى القضاء على كل ما عملوا على تحقيقه طوال عامين . فحينذاك ، سيصبح العرب دون قوة على التفاوض وسيقيم الحلفاء حكومة فى سوريا . ومن ثم ، أخبر كليتون أن بإمكانه إبقاء الأمور تحت السيطرة لمدة أربعة أيام فقط ، فإذا لم يتم التوصل إلى حل حتى هذا الوقت ، سيصبح عليه أن يخلى المواقع الأمامية وأن تفشل عملية درعا التى يتوقف عليها مصير العرب كلية . ومرت الأيام متثاقلة ولم تصل كلمة من حسين . وأخيراً وفى يوم ٤ سبتمبر وصلت رسالة طويلة من الملك تتضمن اعتذاراً أعرج ، وترديداً لنفس الاتهامات بشكل مختلف . وبكل تبجح ، قطع لورانس جزء الرسالة غير المرغوب فيه ، وكتب عليها «عاجل جداً» وأرسلها إلى خيمة فيصل .

وفى ٣ سبتمبر توجهت ، عكس كل التوقعات ، قافلة من النظاميين العرب ومعها خمس بطاريات مدفعية فرنسية / جزائرية بقيادة الكابتن بيسانى ، على بغالها ، إلى الأزرق وبرفقتها طابور مؤن . وقاد فيصل سيارته الفوكسهول لاستعراضهم ، على حين كانت الإبل تخب على أراضى سهل شيراه المنخفض . وكتب يوبج عن هذا : «... بينما كانت كل مجموعة تحبى فيصل ، وصل بى الانفعال إلى أن شعرت بكتلة غريبة فى حلقى الملتحى من عظمة المشهد» . وفى يوم السادس من سبتمبر ، توجه لورانس إلى الأزرق فى عربة رولزرويس حربية مع الشريف ناصر الذى كان مقرراً أن يقود البدو أثناء الهجمة الأخيرة ، واللورد وينترتون الذى كان قد نقل لتوه من فرقة الهجانة ، التى تم تسريحها ، إلى القنفذة . وبدأت قوة الهجوم فى التجمع طوال الأسبوع الذى تلاه . وفى ١٠ سبتمبر ، هبطت طائرتان من السلاح الجوى الملكى ، وحضر جويس وستيرلنج ، اللذان كانا

لورانس ملك العرب غير المتوج

قد عينا مؤخراً في المهمة العربية، في عربات مدرعة يوم ١١ سبتمبر. ثم وصل فيصل يوم ١٢ ومعه المسئول الطبي، وأتى خلفه نوري السعيد و ٤٥٠ من النظاميين العرب، وبيسانى مع فرقة البنادق الجزائرية، وقافلة إبل الأمتعة المكونة من ١٥٠٠ ناقة ومعها يوج وفرة من رجال التفجيرات المدربين من فرقة الهجانة المصرية بقيادة بيك، وفريق من جمالى قُرحة بقيادة سكوت هيجنز، وبدو رواله غير النظاميين بقيادة نوري الشعلان، والحويطات بقيادة عودة ومحمد الضحيلان، وبنو صخر بقيادة فهد، وعشائر السريدية والسرحيين والقرويين السوريين بقيادة طلال الحريفين. وبلغ المجموع حوالى ألف رجل. وكان لديهم من المعدات الحربية طائرتان بريستول، وأربعة مدافع جبلية سريعة الطلقات من نوع نابليون، وأربع وعشرون بندقية آلية، وثلاث عربات مدرعة بمقطوراتها. وكان هذا هو النصل الذى سينحت النصر الذى عمل لورانس من أجله طوال هذه المدة؛ فقد تحققت ذروة تبشيره بالثورة العربية. إلا أنه حينما اكتملت القوة الضاربة، انتاب لورانس الجزع، إذ تحقق أن وقت الحساب قد قرب مع اكتشاف خداع البريطانيين للهاشميين ودوره الرئيسى فى هذه اللعبة بكل ما يحمله من ظلم وإثم. وشعر أنه قد جمع كل هذا «الطوفان من الرجال على وعد زائف، وجعلهم يقدمون مثلاً للوحدة لم يكن هو شخصياً يعتقد فيه». وكان الصراع بين المثال والواقع يعكس الصراع الداخلى الذى كان جزءاً من لورانس منذ الطفولة. أما العرب، فكانوا أكثر واقعية؛ فقد اتصل عودة أبو طيى بالأتراك حينما بدا هذا مواتياً، وتراجع بدو الحجاز عن القتال حينما ناسبهم ذلك، وحتى فيصل، فقد حاول إيجاد خط للتفاوض مع الأتراك. وظل نوري الشعلان محايداً حتى اتضح أن الهاشميين كانوا الجانب الرابع؛ بينما لم تلحق كثير من القبائل، وتقسيمات القبائل فى الحجاز، وحتى فى سوريا، بمسعى الهاشميين أبداً. وكان القوميون السوريون من أمثال نسيب البكرى - الذى صب عليه لورانس هجومه القاسى - يقاتلون بالتأكيد من أجل الحرية. إلا أن قتال الهاشميين كان، أساساً، من أجل إرث الأسرة. وقد برهن كل من هؤلاء على حدة، على كونه متفجرات مبللة؛ فقد أضاع زيد وادى الصفراء، وكاد على يفقد رابع. وفصل حسين أفضل رجاله عزيز المصرى، وأوشك على إحباط العملية الأخيرة بإنكاره أن جعفر باشا كان قائداً عاماً للقوات المسلحة. أما زيد، فقد كذب عليه؛

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامي كشموخ في مهب رياح النجاح القوية

ورفض عبد الله مشورته . وشعر وهو في الأزرق بموجه بغض «لهؤلاء الساميين الحقراء المتجسدين أمامه» ، وكره أيضاً نفسه لتظاهره لمدة عامين أنه صديقهم ، على حين أنه لم يصبح أبداً واحداً منهم . وبدأ الرعب الرهيب من أن يقتل أو يصاب يؤكد نفسه بعنف . وكان قد نجح في درء هذا الرعب لشهور عدة بإجباره نفسه على التظاهر بأعلى درجات الشجاعة الهرقلية والتضحية بالنفس . وكان يعرف أنه على وشك أن يفقد أعصابه وأن عليه ، في خلال أسابيع ، إما أن يستقيل من منصبه أو أن ينهار . ودهمه شعوره القديم بغرابة الأطوار وعدم الكفاءة حينما وجد نفسه وسط الحشود الكبيرة . وكان هذا الشعور قد اختفى أثناء رحلاته مع حرسه أو وجوده مع فيصل . وزاد الأمر سوءاً أنه قد سمع ، ربما بين المجندين السوريين ، أن داهوم ، صديقه في فترة ما قبل الحرب ، قد توفي . وكان الصبي قد ألحق كحارس في موقع كركميش حتى عام ١٩١٦ ، ثم لقيت نصف قوة العمل تقريباً حتفها في موجة رهيبة من المرض والمجاعة . ورغم أن لورانس لم يذكر داهوم بالاسم ، فقد كتب أن أحد دوافعه الأساسية لقيادة العرب هي إهداء الحرية إلى عربى كان قد أحبه . وكتب أيضاً أن هذا الدافع اختفى قبل «بضعة أسابيع من نهاية الحملة» في إشارة منه ، لا إلى احتمال موت داهوم عام ١٩١٦ ، بل إلى اللحظة التي سمع فيها عن وفاة صديقه . وكتب فيما بعد ، وهو يؤلف قصيدته الإهدائية إلى «س . أ» (S.A) ، أثناء طيرانه بين باريس وليون ، «صنعت له الحرية كى أضىء عينيه الحزنتين : إلا أنه توفي وهو ينتظرني . . ألقيت بهديتي بعيداً ، والآن لن أجد الراحة والسلام في أى مكان» . وتحاشى لورانس وهو في الأزرق الصحبة ، وسار وحده بحسرة وغضب وتخوف إلى عين الأسد في نوفمبر عام ١٩١٧ حيث يحتمل أن يكون قد قضى بعض لحظات الاستجمام مع على حسين الحارثي ، وهو صديق آخر ، ربما شعر أنه قد لا يراه ثانية .

وكان وينتترون قلقاً بخصوص الأمن ؛ ففي نفس لحظة وصولهم إلى الأزرق تقريباً . لاحظ طائرة تركية ، رغم استبعادهم احتمال مشاهدتهم أثناء الرحلة . وكان لورانس يعلم أن تجمع قوات الغزو في الأزرق لابد وأن يبلغ الأتراك ، إلا أنه كان واثقاً أن العدو لن يغامر عبر الصحراء ليهاجمهم هناك . كما لم يكن بمقدرة الأتراك التنبؤ بموعد ومكان الهجمة . وكان لورانس من المهارة بحيث إنه أرسل

نقوداً إلى ميثقال من بنى صخر مع تعليمات بالسرية التامة كي يبتاع شعيراً لزوم هجمة على السلط وعمان في سبتمبر. وكان يعلم أن الخبر سيتسرب من عمان حتى درعا. وكان قد تم التخلي عن فكرة الهجوم المباشر على درعا لندرة المجندين من الروالة وحلت محلها استراتيجية التطويق بحيث تتمكن القوة الضاربة من قطع الخط الحديدي المتجه شمالاً وجنوباً وغرباً. وبذا، تختنق حامية درعا وعددها ٥٠٠ جندي في غياب خطها الحديدي. وفي فجر ١٣ سبتمبر، امتطى بيك وسكوت - هينجز ناقتيهما وقادا قواتهما المختلطة من اللغاميين المصريين، والقرخة، في سكون، وسط كتل البازلت، وعبرا أراضي قيان الخونة الزلقة. وكانت مهمتهما تدمير الخطوط والجسور جنوب المفرق، مما قد يؤوله الأتراك على أنه مقدمة للهجوم على عمان. أما القرخاوييون، فكانوا مكلفين بالهجوم على الخطة، بينما يقوم لغامو بيك بقطع الخطوط، ثم تسحب القوة بكاملها مع انبلاج الضوء وتغطي العربات المدرعة انسحابها.

وفي اليوم التالي سارت القوة الرئيسية، وتعدادها حوالي ألف شخص، وسط ركاب البراكين وكانت الإبل تزمجر وهي تتعثر في الحجارة. وامتطى نوري السعيد حصاناً في مقدمة النظاميين العرب، بينما تولى جويس أمر باقي العربات المدرعة ومقطوراتها التي كانت تسير في الخلف على الحرّاء بجلبة. وسار يونج ممتطياً بغلا في صف فرقة بنادق بيساني الذين كانوا يمتطون البغال وكانت بنادقهم من نوع نابليون ترقد غير مغطاة ومثبتة على ظهور مطاياهم العريضة. وكتب يونج «حاولت أن أنسى أننا كنا في الهواء دون وسائل اتصال أو سبل ممكنة للعودة». أما نوري، فكان أكثر استرخاء وتذكر أن خطة لورانس (B) كانت هي الاختباء وسط غابات الركامات البركانية في جبل الدروز طوال الشتاء في حالة فشل المهمة، والعيش على ما تنتجه الأرض. وعلى الجانبين، كان هناك غطاء من فرسان نوري الشعان المختارين، بالإضافة إلى وجود طائرة حربية من طراز بريستول كانت تحلق في سماء الصحراء الزرقاء الصافية متجهة إلى أم الجمل حيث لحقت فيما بعد بطائرة ألمانية وأسقطتها مشتعلة في الصحراء. ثم عسكروا في المساء بين الأوتاد، على القيان، والتقوا في الصباح بفريق بيك المهاجم وهم عائدون مشبطين من المفرق. فقد فشل الهجوم على المفرق إذ إنه لم ينقذ أبداً لأن بيك التقى بجماعة

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

من البدو كان الأتراك قد استأجروهم للدفاع عن الخط الحديدى . وعلى حين كان بمقدرة مسئول سياسى جذب أولئك البدو إلى صفوفهم ، فقد أهمل لورانس إلحاق مثل هذا الضابط بالجموعة . ولما كان بيك وسكوت - هيجنز يخشون قتال العرب ، لذا فقد عادوا على أعقابهم . ولدى وصول لورانس فى الصباح من الأزرق فى عربته الرولرزويس «بلومبيست» التى كان يقودها إس . سى ، رولز ، ثار غضبه لعدم إنجاز المهمة وقرر أن يأخذ إحدى العربات المدرعة وينجزها بنفسه بدلاً من إرسال بيك ليعيد الكرة .

ترك لورانس القوة الرئيسية عند أم تايه يوم ١٥ سبتمبر ، وكانت قرية رومانية مهجورة بها خزان مياه كبير وأصبحت فيما بعد نقطة للانطلاق إلى العملية ، وانطلق مع جويس وونترتون باتجاه السكك الحديدية عند مفرق مع مقطورتين وعربتين مدرعتين . وسارعوا عبر سهل حورانى ، وبعد الظهيرة ، أبصروا هدفهم ، وكان جسراً له أربعة أقواس قرب حصن عند الكيلو ١٤٩ . وترك المقطورتين مع جويس وراء تل صخرى ، وسارت عربة وينترتون بجسارة إلى الحصن وأطلقت سيلاً من رصاصات مدافع فيكرز الثقيلة . وكان ثمة عدد قليل من الرجال يحرسون المكان فى خندق . ولدهشة الطاقم البريطانى ، قفز هؤلاء من خنادقهم وتقدموا على مرأى من الجميع نحو العربة . وعلق رولز على هذا قائلاً : «... ونظراً لعدم معرفتهم إن كان يُتوقع منهم الهروب أم الاستسلام ، فقد خرجوا من خنادقهم للاستعلام عما عليهم أن يفعلوه» . واستنتج لورانس فيما بعد أن «ظهور العربة بتلك السرعة جعل الأتراك يعتقدون أنها لقوات صديقة» . وقامت مدافع وينترتون بحصدهم دون هواده بسيل من القذائف ، على حين اقترب لورانس من الجسر فى العربة الأخرى التى قصفت مدفعيتها حراسه الأربعة بالمتفجرات فقتل اثنان واستسلم الآخرون . واستولى لورانس على بنادقهم وأرسلها إلى جويس على التل . وفى نفس اللحظة تقريباً استسلم الحصن لوينترتون ؛ واستغرقت العملية خمس دقائق .

بيد أن السلام لم يدم . فقد شاهد جويس ورولز من على التل دورية تركية من راكبى الإبل تسرع نحوهم . فقاما بقيادة سيارتهما إلى موقع لورانس ومعهم قطن

المفرقعات وساعده في إشعال المتفجرات وهم يهرولون غادين رائحين بين السيارات والجسر. وقاموا بزرع ست شحنات في ثقب البالوعات بين أقواس الجسر وأشعلوها، ثم انسحبوا مسرعين قبل وصول دورية العدو. وفي ثوان حدث انفجار مهول حطم الأقواس الأربعة تخطيطاً تاماً. واتجهت العربات إلى قاعدتها وأسرعت ومعها الأسرى على ظهورها. إلا أن سيارة لورانس «البلوميست» تعطلت وكسر أحد أجزائها. وكان العدو على وشك الوصول إليهم خلال عشر دقائق. وقفز رولز وهو يتحسر على الرولزرويس وحاول تسييرها. وبدأ إطلاق النار وكان رولز يعمل بهمة وقد أغرقه العرق. وتم تسييرها بشبه معجزة بينما كانت الرصاصات تتساقط على الحجارة من حولهم. وأسرع لورانس وجويس بتنظيف المسار وقفزا في العربة وقاداها بأقصى سرعة لها باتجاه أم التايه. وهناك وجدوا أن نوري السعيد قد توجه مع القوة الرئيسية إلى تل عرار. ومكثوا تلك الليلة في أم التايه لإكمال إصلاح العربة قدر استطاعتهم. وفي يوم ١٧ خرجوا للحاق ببقية قوة الهجوم وهم واثقون أن الخط الحديدي سيتعطل لمدة أسبوع على الأقل.

وفي الساعة الثامنة صباحاً لحقوا بالطابور الرئيسي في الوقت الذي كان فيه نوري السعيد قد بدأ في نشر النظاميين للهجوم على الحاجز الدفاعي في تل عرار على بعد خمسة أميال شمال درعا، وكان يتولى حراسته عشرون من الأتراك. واندفع فريق من خيالة رواله اندفاعاً رائعة أسفل الخط، ثم ترددوا هناك ظناً منهم أنهم استولوا عليه بسهولة. وسار نوري السعيد ويونج في مقطورة فورد، وكانوا على وشك التمتع بجرعة من الويسكي احتفالاً بالمناسبة، حينما قرقت بندقية آلية تركبة من الحصن، واندفع نحوهم ضابط في لباس نومه وهو يزعم ويلوح بسيف أعقف مثل الشبح. ونظر إليه الضابطان مشدوهين، ثم تحققا أن الحامية في القلعة كانت نائمة، فأخرج نوري مسدسه وأطلقه على المهاجم، بينما اندفع يونج، الذي كان أعزل، ليأتي بالمدفعية الفرنسية. وسرعان ما أطلق جنود بيسانى من حملة مدافع نابليون نيرانهم وأسكتوا المدافعين عن الحصن بسيل من المتفجرات. ثم تقدمت خيالة رواله، مع دعم من النظاميين إلى الداخل واستولوا على الحصن. وتسلق نوري ولورانس وجويس قمة التل لإلقاء نظرة على مدينة درعا ومحطة مزريب وغزالة إلى الشمال والغرب منها. وكانت الخطوة التالية هي زرع ٦٠٠

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

شحنة متفجرات على الخط الحديدى والتي قدر لها لورانس أنها ستدمر ٤ أميال من الخطوط تماماً وتعطل المرور خارج المدينة لمدة أسبوع. وبعد الإفطار بدأ اللغامون المصريون ورجال البنادق الجزائريون فى تثبيت الألغام على المسارات. وأثناء انتشارهم، تفحص لورانس مطار درعا بمنظاره المعظم وأقلقه أن رأى تسع طائرات على الأقل تخرجها فرقة ألمانية من حظائرها. ولم يكن لدى رجال لورانس غطاء جوى. وكانت طائرة ميرفى من طراز بريستول قد ثقت أثناء اصطدامها مع الطائرة الألمانية فى أم الجمل وعادت إلى الأزرق لإصلاحها. وراقب لورانس رجال بيك وهم يعملون على الخط وتعجب ما إن كان بإمكانهم زرع عبواتهم الستمائة قبل وصول الطائرات. وفجأة انفجرت أول زنبقة محدثة ضوءاء كالرعد، وذيلاً كئياً من الدخان الأسود. وفى نفس الوقت تقريباً حلقت طائرة استكشاف من طراز فالز فوق التل، فاندفع لورانس ونورى يبحثان عن غطاء ما. وبعد لحظات، خرجت طائرتان قاذفتان من طراز الألباتروس وأربع طائرات استكشافية هابershats من درعا، ثم حامتا وانقضتا وهما تقصفانهم بنيران المدفعية الآلية، وتسقطان حمولات من المتفجرات الأمر الذى أدى إلى تصاعد أعمدة من كسارات الحجارة على شكل حرف V عبر السهل. وحدثت جلبة بين صفوف العرب، وكتب رولز عن هذا «تناثرنا فى كل الأنحاء، وزحفت سريعاً تحت مقطورتى... وتساقطت القنابل مرسلة أعمدة من الدخان والأتربة». وبسرعة يائسة، مَوَّض نورى رجال مدفعيته من طراز الهوتشكيس فى فتحات على سفح الجبل، وسرعان ما ارتسمت أشكال من الذخائر الخطاطة عبر السماء، وأجبرت الطائرات على الارتفاع خارج مدى القصف. ووجه بيسانى بنادقه إلى أعلى وأرسل قذائفه، دون جدوى، باتجاه الطائرات التى والت ارتفاعها. وعلى الخط الحديدى، استمر اللغامون المصريون يزرعون شحناتهم بمنهجية النمل. وفى هذه اللحظة، حلقت المقاتلة بريستول الثانية بقيادة الملازم جونور بتحد وسط الطائرات الألمانية وتركت طائرات الألباتروس والهابرشتات قصفها وهجومها وتعقبت البريستول. ومنح هذا العرب مهلة مؤقتة. وفى الحال، نظم لورانس فرقة لتخرج وتقطع فرع فلسطين من الخط الحديدى عند مزريب لإكمال عزل درعا. وبعد نصف ساعة فقط، وبينما كان هو وحرسه يتأرجحون على الأسرج، عادت طائرة البريستول التى يقودها جونور

متعثرة بينما كانت الطائرات الألمانية تنز حولها مثل سرب النحل . وعرف لورانس ويونج أن وقودها كاد ينفد . وصرخ يونج في الرجال آمراً إياهم بتمهيد شريط من الأرض لهبوطها . وبينما وقف الآخرون يرقبونها عاجزين ، فقدت ارتفاعها سريعاً وارتدت إلى المدرجة المؤقتة واصطدمت بكتلة صخرية واستقرت بعنف على ظهرها . وقفز جونور من كابينة القيادة المخطمة ، واختطف معه بندقيته اللويس ، والفيكرز وبعض الأسلحة الأتوماتيكية ذات الذخيرة الخطاطة ثم هرع إلى العربة التي كان يونج قد أتى بها لالتقاطه . وبعد ثانية حلقت إحدى طائرات الهابرشات على ارتفاع منخفض وأصابته البريستول المخطمة مباشرة بقذيفة فانفجرت مشتعلة .

وعلى الفور ، امتطى لورانس ناقته باتجاه مزرب ومعه نوري السعيد ورجاله ، وخلف وراءه مائة نظامي فقط من القرخة وروالة ، والعربات المدرعة في تل عرار . وكان يأمل أن تبدو قافلته كقوة من البدو ، إلا أن الطائرات الألمانية ظهرت مرة أخرى ، وحلقت ببطء رائع ، وأسقطت أربع قنابل باتجاه الإبل المهرولة . ولم تصب الثلاث الأولى أى هدف ، إلا أن الرابعة انفجرت وسط الإبل تماماً محدثة قرقعة تصم الآذن ، وأسقطت اثنين من حرس لورانس وضربت مطباتهما بعنف . ونهض الاثنان واندفعا إلى أسرج رفاقهما ، وسرعان ما ظهرت طائرة أخرى وأسقطت شحنة من القنابل تسبب انفجارها في أن تدور ناقة لورانس حول نفسها وكادت تقذف به من على السرج . ثم شعر بإحساس حارق في مرفقيه لدرجة أنه بكى من الألم . وللحظة رهبة ساوره الاعتقاد أنه فقد إحدى ذراعيه ، إلا أنه حينما أزاح ثنية عباءته وجد أن قطعة من شظية قد أصابته ولم تتسبب في ضرر حقيقي نظراً لصغر حجمها .

وفي غضون نصف ساعة كان نظاميو نوري وفرقة أسلحتهم الآلية قد استولوا على المخططة الأولى من محطتى مزرب . وتسلىق لورانس ونوري إلى السطح ليقطعا خطوط البرق وكانا يفعلا هذا «ببطء واحتفاء لتتخلص من غضبنا» ، كما كتب لورانس ، ثم ركزا اهتمامهما على الخط الحديدي على حين كان رجال نوري يتولون أمر المخططة الثانية . وبدأ يونج في زرع الزنابق على طول المسارات في اتجاه الشرق ،

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

على حين فجر لورانس نقاط الخطئة نفسها . وكتب يونج « كنت قد زرعت اثنتى عشرة زنبقة حينما دفعنى شىء ما إلى النظر بطول الخط إلى درعا . وتوقف قلبى إذ رأيت قطاراً يزحف ببطء خارج المدينة باتجاه مزريب » وكانت أول فكرة خطرت ليونج هى تحذير لورانس ومن ثم هرول إلى الخطئة وهو يصيح « قطار قادم » فسأله لورانس « طائرة ؟ » . فصاح يونج « ليست طائرة أيها الغبى ، بل قطار » .

وبهدهوء ، أجابه لورانس أن الوقت قد حان لإشعال المتفجرات ، وقفز يونج راجعاً باتجاه القطار القادم ، وبحث عن فتيل دون جدوى . فأشعل سيجارة وألهب بها الصمام الكهربائى (الفبوز) وقفز على ناقته ليهرب وقد نسى أنها مصابة فى أرجلها ، وتعثرت الناقة فى مشيتها ، وكاد يونج يسقط ، ثم قفز من سرجه وهرول بسرعة محمومة . وأرسلت الزنايق دخاناً ، وقرقعت الواحدة بعد الأخرى . وفى الحال ، غير القطار اتجاهه ، وسار فى الطريق العكسى راجعاً إلى درعا . وعند غروب الشمس ، وبعد أن نهب العرب المخطئة بالكامل ، أشعل لورانس ويونج النيران فى قاطرات السكك الحديدية وعرباتها .

ثم استراحوا قليلاً فى مزريب حيث لحق بهم آلاف من فلاحى حوران . وأثناء الليل ، سار لورانس ويونج بضع مئات من الياردات من جسر تل الأشهب ، الذى كان قد فشل فى الاستيلاء عليه مع الشريف على فى وقت مبكر من العام . وبدأ وكأن ثمة تعويذة تحمى الجسر ، حيث إنهم وجدوا أن هناك بطارية مدفعية ألمانية تدافع عنه . ومرة أخرى ، أجبر لورانس على الانسحاب . وكان قد تم تدمير السكك الحديدية جنوب وشرق وشمال درعا ، وعزل الحاميات التركية . ونجحت المهمة ، ولم يتبقى سوى اللحاق بالآخرين .

ولحقوا بمجموعة نورى ، عند رمثة فى الصباح . وبدأوا ينسحبون إلى أم عطية كى يلحقوا بجويس والعربات المدرعة . واتضح أن مسيرة العودة كانت مرهقة للأعصاب ، فقد كان الألمان خلفهم ، وكان ثمة احتمال أن يجدوا دعماً من عمان على الخطوط الحديدية أمامهم . كما أن فلاحى الرمثة أظهروا عداً لهم . هذا ، إلى جانب توقع هجوم جوى فى أية لحظة . وسار لورانس مع حرسه قدماً ليلغم الخط الحديدى على مقربة من نزيب ، والذى كان يقع فى طريق انسحابهم . ووضع نورى

شحنة كاملة من المتفجرات فى المحطة بهدف إشغال الأتراك عن العرب أثناء عبورهم القضبان، وأيضاً من أجل إبعاد الحراس عن الجسر كى تتاح الفرصة للورانس لزرع شحنة مقدارها ٨٠٠ رطل من المتفجرات. وبعد الظلام، زحفت الفرقة بأكملها عبر الخط دون أن يراها أحد. وأشعل لورانس الشحنة تحت غطاء من صخب مدافع بيسانى بعد أن تم نقل المدفعية بأمان. وكتب يونج يصف المشهد «حدث هدير هائل وتوهج أضواء المكان لأميال. وشاهدت على هذا الضوء قوس كتف الجسر يقتلع تماماً ومعه كتلة البناء بأكملها التى انزلت ببطء أسفل الوادى». ثم عسكروا على بعد ميل من مسار القطارات واستيقظوا مع انبلاج الضوء وقد صدمهم صوت قنبلة انفجرت عن قرب. وكان الأتراك قد أحضروا مدفع ميدان محمل على عربة سكك حديدية وضبطوا مداه بواسطة طائراتهم الاستكشافية. ومن ثم، امتطى العرب إبلهم وهولوا مسرعين خارج مدى القصف. ثم التقوا فى وقت متأخر من اليوم مع جويس عند أم تايه، وعاد لورانس بالسيارة يوم ١٩ سبتمبر. ثم طار فى اليوم التالى إلى فلسطين ليتلقى التعليمات ويتابع تقدم ألبنى.

وفى صباح ٢٢ سبتمبر، وبينما كان يونج وكير كبرايد يقلون المقاتل للإفطار فى أم شراب إلى الجنوب من أم تايه، ظهر لورانس ومعه ثلاث طائرات. ثم تبعته فى عصر هذا اليوم قاذفة قنابل من طراز هاندلى بيج التى أنزلت ذخيرة للقوات، ورفعت معنويات العرب عندما شاهدوا ضخامتها. وكانت الأخبار التى وصلت من فلسطين مشيرة؛ فقد سقطت نابلس وحيفا وأفولة وبيسان وشمخ. وتم أسر ٢٢٠٠٠ من القوات التركية، وصدرت الأوامر إلى الجيش التركى الرابع فى عمان بأن يرتد إلى درعا ودمشق. وكان الأتراك يتراجعون هاربين، وكان على قوات لورانس الإغارة لإعاقتهم وقطع خط التراجع عليهم. وكان الأتراك يعدون بعشرات الألوف ومزودين بالمدفعية والبنادق الآلية، وفى حالة يأس. وبالمقارنة، كانت القوة العربية مجرد برغوث. وعن هذه المناسبة كتب وينترتون قائلاً: «لاحظت بفخر، وبدون أى خوف.. أن لورانس كان قد عقد العزم على إقلاق الأتراك المنسحبين مثلما اعتادت كلاب الحراسة من نوع الدرواس إقلاق الدب داخل الحلقة، دون اهتمام بالنتائج المحتملة». وكان الأتراك قد تمكنوا من إصلاح الخط

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

الحديدى بسرعة مذهلة، وكان لورانس يتوقع أن يتعطل لمدة أسبوع. وكان على لورانس أن يواصل الضغط على الخط، وأن يعمل على إثارة فلاحى شمال حوران أخيراً. وكان من الخطط له أن تلحق ببقوته ثلاثة آلاف من قوة إبل نورى الشعلان والرواليين الذين كانوا ينتظرون فى أجراف الأزرق. وفى اليوم التالى توجه نورى السعيد ونظاميوه ومعهم يونج وستيرلنج ووينترتون فى العربات المدرعة، وقافلة نورى الشعلان على رأس الرواليين. وحاربوا الخط الحديدى عند الكيلو ١٤٩ حيث كان لورانس وجويس قد حطموا الجسر من قبل. فقاموا بتدمير ثلثى ميل من القضبان وأحرقوا السقالات التى كانت قد استعملت فى إصلاح الجسر. وكانت هذه هى الضربة الأخيرة لمجهودات الأتراك فى السكك الحديدية، فكفوا بعدها عن المحاولة. وبدأت حامية عمان فى الانسحاب إلى درعا سيراً على الأقدام ومعها كل مدفعيتها ووسائل النقل. إلا أن لورانس لم يكن على علم بهذا التطور. وفى يوم ٢٤ سبتمبر، توجه هو ووينترتون وضابط عربى يدعى جميل فى عربة مدرعة لتدمير جسر آخر جنوب مرفق. وكان وينترتون قد تردد فى اللحاق بالمهمة إذ اعتقد أنها غير ضرورية، وأن لورانس قد أصبح يحارب من أجل الحرب. وأتوا جسراً وحصناً صغيراً، وتقدم لورانس فى سيارة لفحص الهدف حينما بدأت بندقية آلية ومدفع ميدان من زنة ٧ أرطال فى إطلاق النيران عليهم من الحصن. وكان قائد العربة الحربية حريصاً على عدم تحدى المدفعية. وبثقة، اقترح لورانس على وينترتون أن يحمل كل منهما بندقية لويس ويزحفوا إلى الحصن ويمطراه بسيل من القذائف على حين تقوم العربات المدرعة بقصفه من الأمام. واعتقد وينترتون أن لورانس قد جن جنونه وسأله «كيف لنا أن ندخل مدى القصف دون أن نقتل؟.. إنهم سيبصرونا ويحولونا إلى لهيب مشتعل.. هل هناك من سمع أبداً عن الاستيلاء على حصن ببندقية لويس؟» وسأله لورانس إن كان سيادته قد أصبح جباناً؟ فأجابه وينترتون «بالتأكيد لا، لكن كل ما أستطيع قوله هو أنه إذا نجح هذا الاقتراح وقدّر لنا أن نعيش فسنكون جديرين أن نمنح وسام V.C (صليب فيكتوريا)». وأتاح هذا للورانس برهة للتفكير، ورأى أن يعود إلى الخطة الأصلية التى تقضى بأن يتم قصف الحصن من العربات المدرعة بهدف إتاحة وصول عربة إلى أسفل الكوبرى وزرع المتفجرات فى حمايتها. وتدحرجوا إلى الأمام تحت وابل

من النيران الثقيلة، وكانت الطلقات تقع على دروعهم والقنابل تنفجر من حولهم حينما ظهر جندي تركي خلف سيارة لورانس وقذفها بقنبلة يدوية. وكان لورانس يعلم أن العربية غير محصنة ضد القذائف اليدوية وأن اشتعال قطن القنابل الموجود في مؤخرتها سيؤدي إلى تقطيعهم إرباً. وفجأة أخبر سائق وينتوتون سيده أن عربية لورانس كانت تسير في الاتجاه المعاكس خارج نطاق العمليات. وسأله «ما أوامرك أيها السيد؟» وأجابه وينتوتون «ابتعد إلى خارج نطاق القصف بأكثر سرعة ممكنة».

وفيما بعد قال وينتوتون إنه بينما كانوا في طريق عودتهم إلى المعسكر المؤقت حاول مطاردة بعض الغزلان، إلا أن لورانس توقف ليوبخه غاضباً. واستطرد قائلاً «لقد كان انفعاله لدرجة انفجار غضبه، النادر الحدوث، لاصطياد غزالة، أحد تصرفاته النمطية».

ولدى عودته إلى أم شراب وجدوا الشريف ناصر على وشك التحرك إلى أم طبي، وسمعوا للمرة الأولى أن الجيش الرابع التركي كان يتدفق خارجاً من عمان. واقترح لورانس ترك الأتراك الهاربين للبدو المحليين ليقضوا عليهم، وأن يتحركوا هم إلى الشيخ سعد شمال درعا ويحاولوا فرض جلاء فوري عن درعا إلى هناك. وتمت الموافقة على الفكرة، ومن ثم تقرر إرسال الطائرة والعربات المدرعة مرة أخرى إلى الأزرق لانتظار التحرك الأخير للهجوم على دمشق. وتحرك طابور القوات عصر يوم ٢٥ سبتمبر، إلا أنهم ماكادوا يقطعون حوالى أربعة أميال أبصروا سحباً غباراً في الأفق. فقد كان ثمة عشرة آلاف جندي ينسحبون باتجاه درعا في حماية مفرزة طواريء من الفرسان تحيط بهم من الجانبين. وقامت إحدى الطائرات بإسقاط رسالة على القافلة مؤداها أن الخيالة الأتراك كانوا يقتربون منهم. ولم تكن هذه هي اللحظة المناسبة. فقد كانت بنادق بيسانى مفككة على البغال. وقرر لورانس وناصر ونورى أن يجنبوا النظاميين وأن تتقدم خيالة رواله بقيادة نورى الشعلان ليواجهوا نيران الأتراك. وفجأة ظهرت قافلة العربات المدرعة التي كانت قد شاهدت العدو وقطعت السهل عائدة تتبعها سرائر الغبار واستعدت للاشتباك مع الأتراك. إلا أنه اتضح أن هؤلاء الأتراك كانوا مجموعة من الشاردين وكانوا

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

يبحثون عن أحد أقصر الطرق . وهكذا ساروا مباشرة وسط صفوف غير النظاميين من العرب الذين أسروا منهم ما يربو على المائة .

وعسكرت القوات هذا المساء فى نوبة ، وذهب يوجن ، الذى كان منصبه الرسمى هو «المستشار العسكرى» للحملة ، إلى خيمة لورانس فى منتصف الليل وقال إن العرب قد أدوا دورهم وأن عليهم الرجوع الآن إلى بصرة فى جبال الدروز حيث كان الدروز مجتمعين تحت قيادة نسيب البكرى . وأن بإمكانهم الانتظار هناك حتى يستولى البريطانيون على دمشق . ورفض لورانس الإنصات إلى هذا إذ اعتقد أنه من الضرورى أن يرى الناس أن العرب هم من استولوا على دمشق . ومع انبلاج ضوء اليوم التالى عبروا الخط الحديدى قرب غزالة وقام لورانس بزرع لغم فى أقرب جسر ، بينما أسرع عودة ورجاله من الحويطات للاستيلاء على المحطة عند خربة الغزالة ، وهناك قام بأسر مائتى تركى واستولى على بندقيتى جبل . وهجم طلال مع رجاله الحورانيين الضواري على عزرا - التى ادعى لورانس أن الخائن عبد القادر كان يدافع عنها - وطردها حاميتها الصغيرة واستولوا على مستودع حبوبها . وأسرع الروالة على إبلهم فى الطريق الرئيسى باتجاه درعا وهم يبحثون عن الأتراك الشاردين وعادوا بأربعمائة أسير وعدد من البنادق الآلية . وفى فجر ٢٧ سبتمبر كان طابور القوات قد استقر لتوه بين بساتين الزيتون فى منطقة الشيخ سعد حينما أسقطت عليهم طائرة من السلاح الملكى الجوى رسالة تقول إن رأس حربة ألنبي - أى فرقة الفرسان العاشرة التى تسبق كتيبة الجنرال بارو الهندية - كانت بالفعل فى رمثة بعد أربعة عشر ميلاً من مؤخرة الأتراك الهاربين . وكان طابوران كبيران من الأتراك المتراجعين ؛ ٦٠٠٠ من درعا وألفان من مزرب - يقربان المنطقة .

وكانت هذه هى الفرصة المرتقبة . وقرر لورانس وناصر ونورى أن يتحركوا الطابور الأكثر عدداً يمر ليتولى أمره رجال خيالة الروالة ورجال حوران ، على حين يهجم النظاميون على مجموعة مزرب الأقل عدداً ويقضون عليها . وكانت المجموعة التركية فى طريقها إلى طفس . وكان طلال ، وهو شيخ من القرية ، يحاول يائساً أن يستبق العدو إلى هناك ليمنعهم من دخولها . وطبقاً لتقرير عربى ، سارع طلال مع رجاله من الحورانيين وهاجم الأعداء بعنف ، إلا أنه قتل بقنبلة تركية

يدوية . وإذا كان هذا التقرير صحيحاً يكون طلال قد مات قبل وصول الشريف ناصر وعودة اللذين تبعهما سريعاً نوري السعيد والنظاميون ، مع بيسانى وفريق مدفعيته . وكتب قائلاً : إنه لدى وصولهم طفس ، كان العدو هناك بالفعل ، وكانت ثمة طلقات متفرقة من الداخل تنذر بالشؤم ، وحجب من الدخان الأزرق تتصاعد من المنازل . وسرعان ما بدأ الأتراك يسيرون بانتظام ، يتقدمهم ويتبعهم حملة الرماح ، ثم طوابير المشاة وعلى جناحيها فرق البنادق الآلية ، وفي الوسط ، المركبات ، بما فيها سيارة جمال باشا . ولدى ظهور الطابور بين المنازل ، زمجرت بنادق بيسانى ، واندفعت منها الذخائر وفوجئ العدو بهذا . وطبقا لرواية لورانس ، فقد تسلسل هو وطلال مع فرقة البدو ، وقابلهم منظر يبعث على الغثيان ، إذ كان قائد الحرس الخلفى التركى قد أمر بذبح أهل القرية ، فقام رجاله بطعن وإطلاق الرصاص على عشرين طفلاً صغيراً وأربعين امرأة . وأثناء سير لورانس وجماعته رأوا طفلة ضئيلة الحجم (فى حوالى الرابعة) تحاول الهرب . فقفز عبد العزيز ، أحد أفراد حرس لورانس ، عن ناقته واحتضنها . وكانت قد أصيبت فى رقبتها ولوث ثوبها الدماء . فحاولت الفكاك منه وهى تصيح « لا تضربنى يابابا » ، ثم سقطت ولغظت أنفاسها . وسار موكبهم فى أنحاء المكان الذى شوه فيه الأتراك جثث نساء القرية ، ولحقوا بالأتراك الجرحى الذين طلبوا الرحمة . إلا أنهم أطلقوا عليهم النيران من مسافات قريبة . ووقف لورانس ينظر صامتاً بينما كان أحمد الزعاقى ، أحد حراسه يطلق ثلاث رصاصات فى صدر رجل عاجز . وكتب لورانس أنهم حينما اقتربوا من طابور الأتراك ، صاح طلال صيحة رهيبة ولكز جواده ومضى بأقصى سرعة وهو يتأرجح على السرج وسط طابور الأتراك المنسحبين . وتحرك لورانس ليلحق به ، إلا أن عودة منعه ، فقد كان هذا موعد طلال الخاص مع الموت . وطبقاً للورانس ، هجم الرجل مباشرة على فوهة بندقية آلية وهو يصيح صيحة الحرب « طلال ، طلال » إلى أن اخترقت الرصاصات جسده وسقط عن سرجه بين رماح الأتراك . وكان لورانس وعودة يرقبان الحادث المروع عن بعد ، وفى النهاية علق عودة قائلاً « سوف يدفعون الثمن » .

وكان وجود حاجز من المدفعيين قد تسبب فى إحداث صدمة للأتراك جعلهم يتفرقون مذعورين . وتجمع جزء منهم مكون فى غالبيته من رجال المدفعية الآلية

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

الألمان والنمساويين والتصفقوا حول ثلاث سيارات وقتلوا كالشياطين مبرهنيين بذلك على أنهم أقوى من أن يتعامل معهم العرب الذين تركوهم ليذهبوا لحال سبيلهم. إلا أنهم احتجزوا المجموعتين الأخيرتين وقطعوهم إرباً حيث إن لورانس قد أصدر أمره قائلاً «لا أسرى». وأخذ العرب يهاجمونهم المرة تلو الأخرى كشياطين الانتقام وقطعوهم إرباً رجلاً رجلاً. وعن هذا كتب لورانس «وتحت ضغط جنوننا الذى ولده رعب طفس أخذنا نقتل ونقتل، حتى إننا كنا نطلق النار على رءوس من قُتلوا، وحتى على رءوس الحيوانات، كما لو أن موتهم ودمهم السائل كان سيطفىء لوعتنا». وتجمع آلاف من قرويين حوران على جوانب الطابور التركى مثل حيوانات القمامة والتقطوا بنادق العدو أثناء تساقط أفرادهم صرعى ولحقوا بالعرب الآخرين فى عملية القتل. وبحلول المغرب كانت مئات من الجثث المغطاة بالدماء قد تناثرت فى أنحاء طفس. وطبقاً للورانس، كانت ثمة مجموعة من العرب لم تسمح بالأمر الذى أصدره عن عدم أخذ أسرى، فقبضوا على مائتين وخمسين رجلاً بينهم عدد من الألمان والنمساويين. وبينما كان لورانس يركب فى المدينة أراه الآخرون أعرابياً يدعى حسن كان الأتراك قد ثبتوه فى الأرض بحراب ألمانية وهو جريح إلى أن مات. وبما أن لورانس لم يكن يريد أحياء من الأعداء، كان هذا هو العذر الذى يتلمسه. وكما أخبر أخاه أرنى، فقد أمر فريقاً عربياً بإطلاق المدافع على الأسرى وقتلهم جميعاً، وأنه قد شعر أنه بفعله هذا أنه لا ينتقم فقط لأجيال طفس، بل لأجيال لا تحصى من العرب سحقهم طغيان الأتراك البغيض.

وقد روج فيلم دافيد لين «لورانس العرب» لصورة لورانس السادى المتعطش للدماء الذى أطلق التعذيب الذى تعرض له فى درعا قسوته الكامنة، ويصور الفيلم لورانس وهو تتساقط منه الدماء بعد معركة طفس. فما حقيقة هذه الصورة؟ فالقراءة المتأنية «لأعمدة الحكمة» تبين تسلط هاجس القسوة عليه. وقد أخذ البعض هذا على أنه يبين طبيعة لورانس السادية. فقد وصف كيف أسر رجاله صبياً من الرعاة، فى هجومه الأول على السكك الحديدية قرب أبو النعام، وتركوه موثقاً وهددوه بالقتل وأخذوا يذبحون عزاته. هناك أيضاً وصف لمشاهد جلد كان «فرج وداعود» يعانىها باستمرار عقاباً على ألعيبهما وهذرهما، هذا بالإضافة إلى أنهما كانا يجبران على الجلوس على الصخور الملتهبة ويسلسلون بالحديد

لأسابيع. كما ذكر أيضاً في «أعمدة الحكمة» أنه قد تم التهجم على شاب شركسي أعزل وربطه إلى ناقة وسحله عارياً وشق قدميه بعرض الكعبين بالمشط، وكان هذا تهجماً مقززاً لا جدوى منه. كما سجل لورانس حادثاً شاذاً آخر حينما انتزع أشواكاً من شجرة سقط وغرسها في جسد رجل عقاباً على جريمة غير مفهومة. أما العقوبات الأكثر سادية فلم يسجلها الرحالة العرب العظام كما هو معتاد بينهم، وتبدو غريبة على الثقافة العربية. وكتب ويلفرد تسيانجر أن البدو كانوا يحرصون على كرامة الإنسان لدرجة جعلتهم يفضلون قتله على إهانته. وقد تكون بعض هذه التقارير تخيلية، أى أنها كانت تعبيراً عن المازوكية لا عنت فنتازيا سادية. لقد كان اهتمام لورانس الدائم بآلامه الشخصية ومعاناته يوضح أنه لم يكن يتوحد مع مرتكبي هذه العقوبات المتخيلة، بل مع الضحايا. وعلى حين أنه يمكن ملاحظة ميله إلى المازوكية بوضوح طوال حياته فليس ثمة أطوار سادية يمكن ملاحظتها. فقد كان لورانس بطبيعته لطيفاً رقيق الأحاسيس ومتعاطفاً مع الآخرين. وإثباتاً لهذا، كتب صديقه فيثيان ريتشاردز «يقولون إن شكل فمه يوحي بالقسوة... فهل ثمة أثر لهذا في طبيعته؟ إننى لم أجد أى أثر للقسوة إبان السنوات الثلاثين التى عرفته خلالها... إن الحرب التى خاضها توضح فقط حساً شديداً بالعدالة، على حين كان الصبر والرحمة سيؤديان إلى شر أعظم». كما كتب أليك كبير كبرايد الذى كان مع لورانس فى نهاية الحرب السورية «من الهراء التام أن نصفه بأنه كان سادياً أو مغرمًا بالقتل... لقد أخبرنى مرة أن مثاله لشن الحرب كان مستمداً من جماعات المرتزقة فى إيطاليا فى العصور الوسطى، أى الوصول إلى الهدف بأقل الخسائر من الجانبين».

وفيما يخص ما حدث فى طفس، يأتى لورانس بادعائين فى «أعمدة الحكمة» لكل منهما علاقة بالآخر: أولاً أنه أصدر للعرب أمراً بأنه لا يريد أسرى، والثانى هو أن النظاميين العرب قتلوا أعداداً كبيرة بموافقته، إلا أنه لم يذكر تحديداً أنه أصدر الأمر بقتل الأسرى. فقد ظهر هذا الادعاء فقط بعد الحرب فى حديث مع شقيقه آرنى. وخلافاً لغالبية الأحداث فى حياة لورانس، فقد كان هناك شهود على معركة طفس. فقد كتب فريد بيك إلى آرنى لورانس أن أخاه قد حاول بالفعل وقف قتل الأتراك. وكان فريد قد وصل إلى طفس عقب وصول لورانس بوقت قصير

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

ورأى البشاعات بنفسه . وأضاف بيبك أن العرب حينذاك كانوا قد فقدوا المقدرة على التحكم بأنفسهم ، لذا طلب منه لورانس لى وصوله مع فرقة هجانة إعادة النظام . وأنزل بيبك مائة من المقاتلين من على نوقهم وسيرهم فى طفس وحرابهم مسددة . حينذاك ، استسلم العرب وأوقفوا أعمال قتل الجرحى ، وتبعوا الطابور المنسحب على إبلهم وقتلوا من كانوا قد ضلوا الطريق ، إلا أنهم انسحبوا سريعاً حينما رأوا الأتراك عازمين على القتال . ومن المحتمل أن لورانس لا يورد ذكراً لهذا إذ إن أفراداً من حرسه الخاص كانوا ضمن هؤلاء العرب الضواري ، وكان قد ادعى أنه كان يتحكم فى حرسه كما لو كانوا تحت تأثير تنويم مغناطيسى . أما بخصوص تعليماته بعدم أخذ أسرى ، فقد تذكر بيبك أن لورانس قد أمره شخصياً أن يضمن سلامة الأسرى الأتراك وفى هذا دليل على عدم صدور مثل هذا الأمر . بالإضافة إلى هذا فهناك اختلاف فى روايتى لورانس عن المذبحة . فنجد أنه ذكر فى رسالته الرسمية ما يلى «لقد أمرنا ألا يكون هناك أسرى» . وفى «أعمدة الحكمة» يصبح ضمير المتكلم الجمع ضميراً مفرداً . فلدى وصول لورانس إلى طفس كان هناك ضباط عديدون أعلى رتبة منه . فكان هناك الشريف ناصر على رأس النظاميين ، ونورى السعيد ، وكان مسئولاً عن القوات المدربة بالإضافة إلى عودة أبوطي . وطبقاً لقول لورانس نفسه ، فقد تولى هو المرحلة الأخيرة فقط من الهجوم . فهل من المعقول ، مع أخذ هذا فى الاعتبار ، أن يأمر لورانس ، القوة العربية بأكملها ألا تأخذ أسرى ، الذى عرف عنه ادعاؤه أنه كان يعمل من خلال القيادات العربية ولا يظهر فى المقدمة ، وقد اتفق كل من بيبك ، وجون ماك ، مؤرخ لورانس ، أن كلمة «نحن» القيادية ، لاتعبر عن أمر شخصى ، بل عن تولٍ للمسئولية . كما سمع يونج ، الذى لم يكن حاضراً فى طفس ، من ضابط عربى يدعى على جودت ، أن لورانس كان يحاول باستماتة منع قتل الأسرى بعد المعركة لكن دون جدوى . وكتب بيبك «إننى على ثقة من أن لورانس قد فعل ما باستطاعته لوقف المذبحة . لكنه لم يكن باستطاعته فعل أى شئ لأن أية مجموعة غوغائية تفقد السيطرة العاقلة على نفسها ، يصبح التحكم فيها غير ممكن» . إلا أنه طبقاً لنورى السعيد ، فقد ظل كثيراً من الأتراك الذين وقعوا فى أيدي عربية على قيد الحياة . لماذا إذاً يدعى لورانس أنه ارتكب عملاً يعرف أنه ضد التقاليد العسكرية ، إضافة إلى كونه مداناً أخلاقياً ؟

خاصة وقد عرف عنه شدة تعاطفه مع الآخرين . وكان قد أبقي ، قبل أسابيع فقط ، على حياة جندي تركي أعزل وجده على الخط الحديدي . كما أنه كتب إلى إدوارد ليدز يقول إن «قتل وقتل» الأتراك يجعله يشعر بالغثيان . ويستدعي هذا الحادث أصداء قصة قتله المزعوم لحامد المراكشي الذي استهل به وصوله إلى منطقة الحرب في الصحراء . فمن ناحية تصور هذه الأفعال المعلنة لورانس كرجل قوى لا يرحم ، يغضب للحق . ومن الناحية الأخرى يوضح سرد هذه القصص عبثاً من الشعور بالذنب يجد في عرضه على الملاء مصدراً للذة . وقد أوحى آرنى لورانس إلى جون ماك أنه يشك شخصياً في مصداقية ادعاء لورانس ، كما اعتقد أن لورانس كان يتملكه الرعب من إسالة الدماء . وفسر ذكره لهذه الأحداث بقوله : «... ولهذا السبب يميل لورانس للإفاضة عن مشاعر المعاناة في أجزاء من «أعمدة الحكمة» ويصف مشاهد الموت والجراح . . وإنني أتصور أنه كان شخصياً يهوى العذاب» . وفي الواقع ، ثمة نوع من المنطق في القول إن لورانس المازوكي كان يحب أن يستغرق في خطايا الشخصية وأيضاً في معاناة العالم ، مثلاً ؛ نفاق البريطانيين الذي حمل عبئه على كتفيه ؛ بالإضافة إلى تقلب وقسوة وبربرية العرب . فكما رأينا ، تهيمن موتيفة مثل المسيح على قصة لورانس ، خاصة فيما وقع له في درعا من خيانة وتعذيب وإذلال ، وما تلى هذا من «بعث» له . وكان لورانس على وعى تام بهذا الخط المسياني «المخلص» : فكما مات المسيح من أجل خطايا العالم ، فقد يكون ولع لورانس بالتضحية قد فرض عليه أن يتحمل مسؤولية أفعال وحشية لم يكن له يد فيها .

وعند الغروب ، وصل جنود خيالة طراد الشعلة إلى درعا وقاموا بأسر جنود الصفوف الخلفية للأتراك . ووصل لورانس مع انبلاج ضوء النهار . ولم يكن ثمة وقت للتواني ، إذ إن مفرزة الطوارئ من الفرسان البريطانيين كانوا على مرأى من العين ، ونظراً لأنهم لم يكونوا على علم بسقوط المدينة ، فقد بدأوا بإشراك قوات عربية للاستيلاء عليها . فقد كان أَلنبي قد أمر الجنرال بارو قائد «رأس الحربة» من الجنود البريطانيين ، بالاستيلاء على درعا . ومن ثم كان بارو يعتزم شن هجوم شامل . ولم يكن ليحول دون وقوع كارثة سوى الفعل السريع . وهكذا ، توجه لورانس وحرسه على مطاياهم ، مسرعين ليلتقوا ببارو في الصفوف الأمامية .

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامي كشموع في مهب رياح النجاح القوية

وكانت المهمة تحفها المخاطر نظراً لارتدائه زياً عربياً. ولم يكن باستطاعة جنود فريق الفرسان البريطاني التمييز بين البدو الهاشميين، وبين غير النظاميين من العرب الذين يعملون في صفوف الأتراك. وفي حديث له إلى صحيفة تصدر في تورنتو، ادعى جورج ستيلس، الذي كان يقود فرقة من حرس ميدل سكس، أنه كان على وشك إصدار الأوامر بإطلاق الرصاص على لورانس؛ وقال: «... كان يوماً قاتلاً، وكان الانفصال يتملكنا جميعاً، حينما وصل عشرة أعراب على نوقهم من خلف الكشبان الرملية.. وساروا باتجاهنا مباشرة. ولاعتقادنا أنهم أعداء، صوبنا الأسلحة على قائدهم. وحينما كنا على وشك إطلاق النيران، توقف الأعراب، وخرج من بين الثياب العربية صوت ذو لكمة أكسفوردية وقال «أنا لورانس، أين بارو؟» وكان يتصرف وكأنما على العالم أجمع أن يعرف من هو. لقد كان شديد الغرور، وعنيداً بشكل رهيب... ولا أخفى عليكم أنني صدمت حينما علمت أنني كنت على وشك الأمر بإطلاق الرصاص عليه... لقد كان شخصاً نحيلاً صغير الحجم، في مثل حجمي، يبلغ طوله ٥,٥ قدماً...». إلا أن لورانس لم يذكر سوى أن موقعاً لجنود الأسلحة الآلية البريطانيين ألقى القبض عليه، وأنه بينما كان محتجزاً، كان يراقب الطائرات البريطانية وهي تقصف نظامي نوري على طريق درعا، بعد أن ظنوا أنهم أتراك. ومن ثم، صارت مهمته حثيثة. وفي النهاية، تمكن من الحديث مع ضابط بريطاني أرشده إلى الجنرال بارو. ثم وجد أن الجنرال كان على غير استعداد للتفاوض؛ فلم يعطه اللبى أية تعليمات بشأن وضع العرب. ولم يتدخل كليتون لاعتقاده أن ليس للهاشميين حق باستثناء ما يستطيعون الإبقاء عليه. ولبرهة تعلقت كل جهود العرب - ومعاناة لورانس - بخيط رفيع. وعن هذا كتب لورانس: «... وأعملت فكري بأقصى سرعة.. كي أوقف الخطوات الأولى القاضية.. التي قد يخلق بها بريطاني يعوزه الخيال.. موقفاً يستدعي معه سنوات من الاضطراب... (قبل أن يتمكن أحد من) إصلاحه». وأعلن بارو عن عزمه لوضع حرس من أجل التحكم في المدينة. فرد عليه لورانس بأن المدينة كانت بالفعل تحت سيطرة العرب. وقال الجنرال إنه سيكلف لغامين بفحص الآبار. فأجابه لورانس أن من حقهم أن يفعلوا هذا، إلا أن العرب كانوا بالفعل قد أعملوا آلات ضخ المياه. وكان أن أجاب بارو بأن العرب يتصرفون

وكانهم يملكون المكان وأضاف أنه سيتولى أمر محطة السكك الحديدية . إلا أن لورانس أخبره أن العرب قد قاموا بتسييرها وطلب منه ، بتهذيب ، ألا يتدخل الجنود البريطانيون ومرة أخرى أتت بلاغة لورانس لإنقاذ الهاشميين . فقد كان ما قاله مقنعاً لدرجة أن بارو تقبل سيطرة العرب على المدينة لدى دخوله إليها ، بل إنه أيضاً وجه إليهم مجاملة سارة بأن قام بتحية العلم الهاشمي وهو يرفرف على مقر الحكم الذي كان قد دُمر .

ومكث البريطانيون بدرعا ليلة واحدة ، ثم ساروا في التاسع والعشرين إلى دمشق ، وفي معيتهم العرب بقيادة ناصر على جناحهم الأيمن وانتظر لورانس فيصل الذي وصل في سيارته الفوكسهول من الأزرق وكان يتبعه عن قرب فرانك ستيرلنج والعربات المدرعة . إلا أنه لم يتمكن تلك الليلة من النوم . وعند الفجر ، تسلق إلى عربته «البلوميسست» مع فرانك ستيرلنج وتوجهها إلى دمشق وهم يقودانها على مسار الخط الحديدي الفرنسي الذي لم يكن صالحاً للاستعمال . ولحقا ببارو وهو يتولى سقيا خيله من مجرى مائي ، واستعار لورانس ناقه وذهب إليه ، ولم يكن الجنرال يعلم أن لورانس قد قطع معظم المسافة بالسيارة ، لذا أصابته الدهشة حينما أخبره أنه قد غادر درعا في الصباح وسأل لورانس «وأين قضيت ليلتك» فأجابته «في دمشق» ومضى .

وسرعان ما لحق هو وستيرلنج وهما يركبان «البلوميسست» بفرسان الهاشميين بقيادة ناصر ، وبالرواليين بقيادة نوري الشعلان . ولم يكن الرواليون قد أوقفوا غاراتهم المتكررة عن الطابور التركي الأكثر عدداً ، وأدى استنزافهم له إلى تقليصه إلى نصف قوته الأصلية . أما عودة فكان على مسافة بعيدة في الريف يجمع بدواً محليين لعمل كمائن . وطلب منهم لورانس تعطيل الأتراك لمدة ساعة . وتخبر ناصر مزرعة على تل بعيد موضع عليه الرواليين بقيادة نوري لإبطاء حركة العدو ، على حين عاد لورانس وستيرلنج بالسيارة إلى الصفوف البريطانية لدفع فرق حرس ميدل سكس ومدفعية الخيالة للهجوم على صفوف الأتراك الخلفية . ولما وجد الأتراك العرب أمامهم والبريطانيين خلفهم ، تفرقت صفوفهم ، وخلفوا وراءهم بنادقهم ومركباتهم ، وهربوا في مجموعات مشتتة إلى التلال حيث كانت «ضباع»

الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامي كشموع في مهب رياح النجاح القوية

عودة في انتظارهم. وكتب لورانس عن اشتباك عودة ورجاله مع فلول الأتراك «وفي ليلة معركة الشيخ المسن الأخيرة، قتل وقتل، ونهب وأسر، إلى أن أنهى العملية انبلاج ضوء النهار. وهكذا انتهى الجيش الرابع الذي ظل حجر عثرة في طريقنا لمدة عامين».

ونام لورانس وستيرلنج في الرولزرويس على تل يطل على دمشق. كانت الليلة باردة بدون رياح. وعن تلك الليلة قال ستيرلنج إنه رأى توهجات باتجاه التلال حيث كان رجال عودة يقومون بتقطيع أشلاء الأتراك. وكانت دمشق هدفهم الأخير، يلفها الظلام أسفل التل. وأيقظهم صوت سلسلة من الانفجارات من داخل المدينة في ساعات الصباح المبكرة. وصاح لورانس «يا إلهي، إنهم يحرقون المدينة». وفيما بعد اكتشفوا أن القوات الألمانية قد دمرت مخازن الأسلحة قبل انسحابها. وأبلغ ستيرلنج أنه كان قد أرسل بالفعل آلافًا من الخيالة الرواليين لتسبق القوات البريطانية في الدخول إلى المدينة وتبحث عن على رضا الركابي حاكم المدينة الذي كان لورانس قد قابله في رحلته الخطرة إلى دمشق قبل أكثر من عام. وحمل الرواليون معهم تعليمات من الشريف ناصر أن يقوم على رضا أو مساعده شكرى الأيوبي فوراً بتشكيل حكومة باسم الهاشميين. إلا أن العمل كان قد تم؛ فرغم أن على رضا كان قد غادر دمشق، فقد ساند الأخوان عبد القادر ومحمد السعيد، أعداء لورانس القدامى، شكرى الأيوبي، ورفع حرسهما من الجزائريين علم الهاشميين على سراى الحكم قبل مغادرة آخر جندي تركى المدينة.

وفي صباح ٣٠ أكتوبر نجح لورانس وستيرلنج في الهرب من بعض المتطرفين من الرماحين البنغال الذين كانوا قد أمسكوا بهما، ودخلا دمشق في البلوميسست فور شروق الشمس، ليرحب بهما رجل كان يسرع على جواده وقال «أخبار سارة، دمشق تحييكم». وطبقاً لما قاله لورانس، كانت الشوارع على طول نهر بردى مزدحمة برجال ينشدون الأناشيد، وعلى حين كانت النساء يقذفن بالأزهار ويرششن العطور، كان الرجال يقذفون بأغطية رءوسهم في الهواء وهم يصيحون «فيصل، ناصر، شكرى، أرنس» وجاء في وصف ستيرلنج للمشهد «كان الدراويش يرقصون أمام العربية، وتلك جنون الإثارة التي تسببت فيه ضوضاء وصياح أهل المدينة من البدو الضواري فأخذوا يعبرون عن فرحهم الهستيري».

وبينما كنا نقود سيارتنا في شوارع المدينة ذات المساكن النائية، كانت النساء يطلن من النوافذ وهن يصحن ويضحكن ويبكين من الفرح والانعزال. بيد أن لورانس تذكر مشهداً جد مختلف في خطاب لاحق أرسله إلى ستيرلنج «إن ذكرياتي عن دخول دمشق هي هدوء الشوارع وفراغها. كنت أبكى مثل الرضيع مع شعوري بالامتنان وأنا إلى جانبك في العربة. ويبدو لي أن جنون الترحيب قد حدث فيما بعد». وتذكر ستيرلنج أيضاً أن لورانس لم يكن سعيداً: «كان تفكيره معقداً جداً، لدرجة أنه لم يسمح لنفسه بالرضا عن إنجاز تم بنجاح.. كانت تشوب لحظة انتصاره مرارة معرفته أن الحكومة لن تفي بوعودها للعرب». ووصلوا إلى مجلس المدينة الذي كان مزدحماً بالجماهير. وشق لورانس طريقه بينهم بصعوبة ليجد عودة أبو طي يتصارع بشراسة مع سلطان الأطرش قائد الدروز. وتكاتف لورانس وزعل ومحمد الضحيلان على جذبه جانباً ومنعه من قتل الرجل أمام أعينهم. ولم يكن ناصر، الأعلى مرتبة بين الهاشميين، موجوداً، وعلم لورانس بوجوده مع عبد القادر وشقيقه. ومن ثم، استقل سيارته للبحث عنهم، إلا أنه رأى الجنرال شوفيل يدخل المدينة على رأس القوات العربية. وأفهمه لورانس أن العرب قد أمسكوا بزمام المدينة، وحته، دون جدوى، أن يحذو حذو بارو في درعا ويحيى العلم الهاشمي كدليل على حسن النية. ثم عاد لورانس إلى مجلس المدينة واستدعى عبد القادر وأخاه اللذين دخلا عليه مع حرسهما. وكان لورانس قد جمع رجال نوري الشعلان حوله، أما نظاميو نوري السعيد فكانوا قد تجمعوا في الميدان بالخارج. وأخبر الجزائريين أن ممثل فيصل سيلغى الحكومة التي شكلانها في اليوم السابق، وأنه قد عين شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً بالنيابة، ونوري السعيد قائداً للقوات. وقفز عبد القادر من مكانه، وسحب رمحه معتزماً قتل لورانس، ولعن إياه كرجل إنجليزي مسيحي. إلا أن عودة ألقى بشقله عليه في لمح البصر واستخلص الرمح من قبضته. وأعلن نوري الشعلان بهدوء مساندة الروالين للورانس. وأثناء مغادرة الجزائريين المكان وهما في قمة الغضب، اقترح أحدهم أن يُصحباً إلى الخارج وتطلق النيران عليهما، وكان لورانس يميل إلى الموافقة على هذا الرأي، إلا أنه امتنع. وفي اليوم التالي بدأ الاثنان يدبران المكائد ويشيران القلاقل مرة أخرى، واكتسبا بعضاً من الدعم من الدروز الذين لم يحاربوا في صفوف الثورة

الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية

ومن ثم ، رفض لورانس مكافأتهما . وتملكت لورانس الرغبة فى قتلتهما رمياً بالرصاص ، فأرسل فريقاً من النظاميين للقبض عليهما ، حيث أمسكوا بسعيد ، وتم قتله وهرب عبد القادر . وقام لورانس بطرد الدروز ، ونصب نفسه حاكماً فعلياً لحين وصول حاكم المدينة .

وكان هناك الكثير مما يتحتم عمله ؛ فكان عليه تعيين الشرطة ، والاهتمام بإمدادات المياه وإعادة الطاقة الكهربائية وتقرير ما يتخذ من إجراءات صحية عامة وإطعام الجائعين . وفى الواقع ، فقد أرسى لورانس ، خلال أيام قليلة ، نظاماً فاعلاً ظل سارياً مدة العامين التاليين . وطلب منه طبيب استرالى العناية بأمر المعسكرات التركية التى كانت قد تحولت إلى مستشفى مؤقت ليس فيه ممرض واحد . وكانت مكدسة بالموتى ومن هم على وشك الموت . وتحقق لورانس أنه قد نسى أمره وذهب ليتفقد راعه ما شاهده . فقد كانت الأرض مغطاة بعشرات الجثث المتفخخة التى كانت ترقد فى برك من الدماء النتنة والغائط . وكان الكثير منها لأفراد قد ماتوا حديثاً والغالبية قد قرضتها الفئران . ولدى سماعه أنيناً ، رفع لورانس رداءه وسار وسط الجثث ليجد جناحاً مليئاً برجال على شفا الموت طلبوا منه الرحمة . وفى الليل ، استيقظ فجأة من نومه وهو يرتعد ويعرق من مشهد الجثث . وعاد فى اليوم التالى ليجد أن الأمور قد تحسنت قليلاً . فقد تم تنظيف وتطهير غرفة لإيواء الحالات الخطيرة ، كما كان هناك بعض الممرضين . وفجأة ، واجهه ميجور بريطانى من الفريق الطبى وسأله عما إن كان مسئولاً عن المستشفى فأجابه لورانس «نعم ، أعتقد أننى مسئول بشكل ما» فرد عليه الميجور «إن ما نقوله فاضح ومخزٍ ومثير للغضب ، ومن الواجب إطلاق النار عليك» .

ضحك لورانس وسأل الضابط عما كان من الممكن أن يعتقد إن هو كان حاضراً فى مشهد اليوم السابق . وتمتم الميجور «أيها الوغد الدموى» ، وصفع لورانس على وجهه وسار بعيداً . وبدا للورانس أن هذه الكلمات : «الوغد الدموى» ما هى إلا تعبير عن كل مشاعر الخوف والبغض والنفاق التى تحملها لمدة عامين . وكتب : «شعرت فى قرارة نفسى أنه كان على حق . وأن كل من يعمل على إنجاح تردد للضعفاء ضد أسيادهم لابد وأن يلوث فى تقدير الآخرين ، بدرجة لا يستطيع شئ فيما بعد أن يعيده نقياً أو نظيفاً» .

وعاد لورانس إلى فندق فيكتوريا ليجد أن أَلنبي قد وصل . وتبعه فيصل الذى كان قد دخل المدينة وهو يعدو بفرسه وسط ترحيب عاصف . وكان لقاء الشريف والجنرال فى الفندق هو أول لقاء لهما . ووقف لورانس مترجماً لهما ، أى أنه كان يقوم بنفس الدور الذى خلقه لنفسه وتخيله طوال الأشهر الثمانية عشر الماضية . وأوضح أَلنبي لفیصل أنه سيكون له حكم سوريا فيما عدا فلسطين ولبنان ، لكنه فقط سيعمل تحت إرشاد الفرنسيين . وأخبره أن لورانس سيستمر فى عمله كضابط اتصال ، وأنه سيعين له ضابط اتصال فرنسياً عن قرب . واعترض فيصل بأسلوب غير مؤكد ؛ أنه لن يقبل ضابط اتصال فرنسياً ولن يقبل إرشاداً فرنسياً وأنه لا يعترف بسلطة فرنسية على لبنان . وأخبره أيضاً أن ضابط اتصاله ، أى لورانس ، كان قد أبلغه أن العرب سيحصلون على سوريا كاملة باستثناء فلسطين ، واستعلم أَلنبي من لورانس ، وقد أصابته الدهشة ، إن لم يكن قد ذكر للشريف مطالب الفرنسيين فى لبنان . وأبلغه لورانس ، كذباً ، أنه لم يفعل هذا . واختتم أَلنبي قوله بأن فيصل قائد عسكري يعمل تحت إمرته وأن عليه إطاعة أوامره ، على الأقل فى الوقت الحاضر .

ورحل فيصل فجأة كما ظهر ، إلا أنه لم يكن فى حالة مزاجية احتفالية . وحالما ذهب ، أخبر لورانس رئيسه أنه لا يستطيع العمل مع ضابط اتصال فرنسى وطلب إذنًا بالعودة إلى إنجلترا . فقد كانت الحرب قد انتهت وكان باستطاعته العمل لصالح العرب خلف الكواليس فى بلده . وكان شديد الإنهاك ، وكرجال عديدين ، حاربوا وتمنوا نهاية الحرب ، وجد فى هذه النهاية هبوطاً فجائياً anticlimax . فقد نسيت المعاناة التى تحملها لأكثر من عامين ، وأنها كانت قد حفظت كأسطورة مقدسة . وأصبح عقله خاوياً . لقد دخل جيش عربى إلى دمشق وتم الانتقام ، بعد خمسة قرون ، لغزو سليم الرهيب لها (السلطان سليم الأول) . واعتقد لورانس أنه لولا الطموحات الأوربية لتمكن العرب من الاستمرار حتى يستولوا على الأناضول وبغداد واليمن ، ولأنشأوا إمبراطورية عربية جديدة فى الشرق . بيد أن الطمع الأوربى قد أوقف الحركة فى أجمل ساعاتها . وتحطم وهم لورانس ، وكتب «لقد أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية» .

الباب الثالث

الساحر

١٩١٨-١٩٣٥

المجلد
العدد
العدد

ما زال «الكولونيل لورانس» مستمراً

رغم أنى قد تنحيت جانباً

مؤتمر الصلح ومكتب المستعمرات

١٩١٨-١٩٢٢

20

وصل لورانس إلى إنجلترا ضابطاً

برتبة كولونيل ، وقد منح وسامى

D.S.O (ضابط خدم بامتياز) و (C.B) أى

Companion of the Bath كانت معه أيضاً

توصية شخصية من أَلنْبى بمنحه مرتبة

الفروسية . وبعد وصوله بأيام قلائل

فقط دعى إلى قصر باكنجهام

لتقليده الرتبة بشكل شخصى من قبل

الملك جورج الخامس .

إلا أن لورانس أربك كل الحاضرين بأن رفض، بأسلوب مهذب، الرتبة والأوسمة، وأخبر جلالته بأن الحكومة البريطانية توشك أن تثبط همّة العرب باتفاق سايكس-بيكو. وأنه قد وعد فيصل أنه سيدعمه مهما حدث، وأنه قد يضطر إلى محاربة الفرنسيين، حلفاء بريطانيا، في سوريا في سبيل دعم قضية الهاشميين، ومن الغريب، أن الرجل الذي رفض أن يصبح فارساً بريطانياً أبلغ الملك أنه أمير عربي، رغم أنه لم يسجل في أى مكان أنه قد منح هذا اللقب. وعلى حين أن لورانس رفض الأوسمة البريطانية فقد قبل وسام (Croix de Guerr) أو «صليب الحرب» من الفرنسيين الذين كان قد أبلغ جورج الخامس أنه يعتبرهم أعداءه. وتوحي تلك التناقضات بوجود مستوى أكثر قتامة لأفعال لورانس. فبعد كل شيء، لم تكن الفروسية أو الأوسمة الإنجليزية لتساوى شيئاً بين من حاربوا في الحملة العربية (إلا أن الوسام الفرنسي كان أكثر جاذبية وغرابة). كما أخبر لورانس يونج (الذي منح الفروسية فيما بعد) في عام ١٩١٨ إن «بإمكان الفرد الحصول على

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانبا

كثير من المجد والتكريم دون أية صعوبة». ومثله مثل السيدة التي ترتدى ثياباً عادية في الأوبرا على حين ترتدى الأخريات ثياب السهرة، غدا لورانس متميزاً تلقائياً، ليس لأنه قد تم تكريمه، بل برفضه ذلك التكريم علناً. ويلاحظ ليدل هارت، الذى كان معجباً بلورانس «أن انتقاص لورانس من قدر-نفسه برفضه تمييزه مثلاً، كان نوعاً من الغرور فقد كان فطناً لدرجة أنه رأى سخف التهليل لشخص ما، ثم وجد نفسه يهوى هذا التهليل، واحتقر نفسه فيما بعد لأنه أحبه» ذلك أن رفض بطل الحرب الأكثر شهرة للأوسمة والتكريم، الذى كانت الصحافة تدعوه عام ١٩١٩ «أكثر بريطاني على قيد الحياة إثارة للاهتمام، قد قلل بالطبع من قيمة تلك الأوسمة وذلك التكريم. فما لا يدعو للدهشة إذا أن تغضب تلك السخرية العلنية كثيراً من الرجال، الذين حاربوا أربع سنوات شاقة، وخبر معظمهم ظروفاً أبشع من تلك التى خبرها لورانس، ولجوا من مخاطر مروعة، وقد يكون بعضهم قد أتى بانتصارات شخصية شجاعة، وشعروا، عن حق، أنهم جديرون بالاعتراف بهم. إلا

أن التزام لورانس تجاه الهاشميين كان أيضاً حقيقياً جداً. فقد صمم على الدفاع عن الوعود التي قطعها على نفسه لفصل أثناء الحرب، وعلى أن ينقذ حسه الشخصي بالشرف، وفي غضون أيام من عودته أخذ يخطر مكتب الحرب وموظفي الخارجية بآرائه. وفي يوم ٢٩ أكتوبر - اليوم الذي قابل فيه الملك - ذهب لمقابلة اللجنة الشرقية بمجلس وزراء الحرب. وبدأ اللورد كيرزون، وزير الخارجية بالنيابة، هذا الاجتماع بكلمة ثناء على إنجازات لورانس، إلا أن لورانس رد على الكلمة بفظاظة فقال: «دعونا نتناول القضية مباشرة. إنكم أيها القوم لا تفهمون أى مأزق وضعتمونا جميعاً فيه». فانفجر كيرزون، الذي كان سهل الاستشارة، في البكاء. ولم يقبل لورانس مساومة على آرائه التي لم يكن ضمنها إنشاء دولة عربية موحدة. ففي عام ١٩١٦ طلب حسين من مكماهون العراق. ومن ثم، كان يتحتم تقسيم هذه المنطقة قسمين بحيث يحكم الشريف زيد بغداد، ويحكم عبد الله البصرة. وكان يتعين أن يحكم فيصل سوريا بأكملها باستثناء لبنان التي يحكمها الحلفاء. وقال إن العرب سيتقبلون الهجرة اليهودية إلى فلسطين التي نص عليها وعد بلفور عام ١٩١٧ إلا أنهم سيقاومون إنشاء دولة يهودية هناك. كما يتحتم على سلطة بريطانية واحدة مقرها مصر الإشراف على الدول العربية الوليدة، الأمر الذي سيستبعد معه تدخل حكومة الهند البريطانية. وكان لورانس يعلم أن اتفاقية سايكس - بيكو تغل أيدي بريطانيا. فطبقاً لهذه الاتفاقية خصصت الموصل للفرنسيين بينما أوكل حكم فلسطين إلى سلطة دولية. فإن عارضت بريطانيا تطلعات فرنسا في كل من فلسطين والعراق التي كانت تشتهيها مجالاً لنفوذها، فستجد أنه من الصعوبة بمكان أن تعارض مطالب الفرنسيين في سوريا أيضاً.

وفي ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ تم توقيع الهدنة، وعقد مؤتمر الصلح في وزارة الخارجية الفرنسية في باريس في يناير من العام التالي. وهناك، جذب لورانس الانتباه إليه بارتدائه غطاء الرأس العربي اللافت للأنظار، وبطلاقة حديثه بالعربية، وبإخلاصه الواضح لفصل. وقام، بصفته مترجماً لفصل، بعرض مقترحات فيصل على المؤتمر في ٦ فبراير. وكان الفرنسيون، منذ البداية، مصممين على عدم تقديم تنازلات بشأن سوريا، وطالبوا أن تحكم مناطق سوريا الساحلية والداخلية سلطة واحدة. وساندت الصحافة الفرنسية هذه المقترحات. بحملة قوية. وكان

الفصل العشرون، مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانباً

لدى لورانس وفيصل ورقتان قويتان : أولاً، مساندة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون الذى اقترح إجراءات تقرير المصير فى سوريا، وثانياً، اتخاذ المؤتمر قراراً بشأن جيش الجنرال ألبنى الذى كان مايزال منتشرأ فى البلاد بالفعل بعد رفض رئيس الوزراء البريطانى سحبه . إلا أنه لم يتم التوصل إلى مثل هذا القرار أبداً . وتمسك الرئيس ويلسون باعتقاده فى إجراء استقصاء عن إرادة الشعب . وفى شهر يونيو، وصلت لجنة كينج - كرين إلى فلسطين، وسبر أعضاء اللجنة أغوار الموقف وأجروا استطلاعات واسعة . وفى أغسطس وضعوا تقريرهم أمام ويلسون فى واشنطن مساندين نظاماً مؤقتاً للانتداب، واقترحوا الولايات المتحدة سلطة للانتداب فى سوريا، وبريطانيا فى العراق، واستبعدوا الفرنسيين كلية على أساس أن الانتداب الفرنسى فى سوريا سيؤدى إلى حرب مع العرب . واقترح أعضاء اللجنة أيضاً نبذ فكرة إنشاء كومونولث يهودى فى فلسطين الذى اعتقدوا أنه لن يقوم دون الالتجاء إلى القوة . وكان تقرير كينج - كرين وثيقة «تنبئية بشكل ملفت، لكن، وكما كان متوقعأ تجاهلها البريطانيون والفرنسيون» . وحينما تم الإعلان عنها، كان ويلسون مريضاً، وقرر الحلفاء، بعد غياب أى ضغط من ويلسون، أن يصلوا ببساطة إلى تسوية بأنفسهم . وفى سبتمبر أخبر لويد جورج، كليمينسو رئيس الوزراء الفرنسى، أنه سيسحب القوات البريطانية من سوريا ومن جزيرة صقلية فى أول نوفمبر، وسيتم إحلال قوات فرنسية محل الحاميات البريطانية فى صقلية - غرب الخط الذى حددته سايكس - بيكو . أما القوات داخل سوريا فستحل محلها قوات عربية . إلا أن تقرر الإبقاء على القوات البريطانية فى فلسطين والعراق . وفى البداية، اعتبر لورانس هذا نصراً وكتب رسالة شخصية إلى لويد جورج يشكر إياه على القرار «... لقد أبقيت على وعودنا . . وأنى لا أشعر براحة كبيرة إذ أنهى ارتباطى بالمسألة بأيد نظيفة» . وعاد إلى إنجلترا يوم أول سبتمبر، وترك الخدمة العسكرية دون إجراءات رسمية مثلما حدث لدى التحاقه بها .

بيد أن شعور لورانس بالامتنان كان سابقاً لأوانه . فحتى إن كان لم يدرك هو أن انسحاب بريطانيا من سوريا كان سيشتركها مفتوحة أمام العدوان الفرنسى، فإن فيصل أدرك هذا . ومن ثم، وصل الشريف إلى لندن واشتكى بمرارة أن العرب كانوا

حينذاك تحت رحمة الفرنسيين الموجودين في لبنان. إلا أن مجلس الوزراء البريطاني أخبره أنه عليه التفاوض مع الفرنسيين بمفرده، مما كان يعنى التخلص من العرب. وكان لورانس، الذى جعلته محاولاته في مؤتمر الصلح شخصاً غير متقبل من الفرنسيين، أصبح في وضع لا يمكنه معه مساعدة صديقه، لذا فقد شعر باكتئاب شديد. وكان على فيصل أن يواجه العواقب البائسة، وأن يحاول أن يصل إلى تفاهم مشروط مع كليمنصو. إلا أن القوميين اتهموه بالخيانة لدى عودته إلى سوريا في يناير عام ١٩٢٠؛ واضطر إلى التخلي عن الاتفاق. وفي مارس عام ١٩٢٠ نادى به الكونجرس ملكاً على سوريا المستقلة، والتي كانت تشمل نظرياً لبنان وشمال العراق وفلسطين. وأغضب هذا الفرنسيين الذين كانوا بالفعل يسيطرون على لبنان، والبريطانيين الذين كانوا يسعون إلى السيطرة على العراق وفلسطين، وبعد شهر واحد، قرر مؤتمر الحلفاء في سان ريمو أن يكون لبريطانيا حق الانتداب على العراق وفلسطين، بينما تكون فرنسا هي سلطة الانتداب على سوريا الكبرى. ورأى العرب أخيراً أنهم كانوا ضحية الأذى والغش من بريطانيا وفرنسا، ومن تلك اللحظة، فقدوا ثقتهم في القوى الأوروبية. وكانت النتيجة الحتمية أن استخدم الفرنسيون ذريعة الهجوم على شخصيات وأملاك فرنسية، ودخلت قواتهم سوريا في يوليو عام ١٩٢٠، وضربوا قوة عربية قوامها ألفان من النظاميين وغير النظاميين كانوا على استعداد للدفاع عن دمشق، وأرسلوا فيصل إلى المنفى. وأيضاً، تم قمع القوميين بنفس العنف الذى اتبعه الأتراك معهم، وكُتِمت الصحافة. وفرضت اللغة الفرنسية في المحاكم والمدارس بدلاً من اللغة العربية وفي النهاية، تحقق ما كان لورانس وفيصل يخشيانه بشدة أثناء القتال.

ولم يف لورانس أبداً بتهديده لمحاربة الفرنسيين. فبحلول عام ١٩١٩ كانت قد حدثت تطورات في حياته. فأولاً: فقد رغب أن ينشر تجربته في كتاب، وكان قد بدأ في كتابة مسودة «أعمدة الحكمة» أثناء مؤتمر الصلح. وكتب الفصول الأولى معتمداً كلياً على الذاكرة؛ إلا أنه في مايو، طار إلى القاهرة في إحدى قاذفات القنابل من طراز هاندلي بيچ كانت متوجهة إلى هناك لقمع حركات العصيان ضد البريطانيين. وكان هدفه من الزيارة إحضار ملفات المكتب العربى. وحدث أن هبطت الطائرة في طريقها هبوطاً سيئاً في كونشيللو بإيطاليا، وقتل الطيار،

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانباً

وأصيب مساعده إصابات خطيرة؛ أما لورانس، فقد كسرت عظمة ترقوته، إلا أنه أتم رحلته بعد أيام قلائل، وواصل العمل في الكتاب وهو على متن الطائرة. وفي سبتمبر، عاد إلى بريطانيا حيث أدت شهرته المتزايدة كشخصية إعلامية إلى فوزه بزمالة بحثية في كلية أول سولز بأكسفورد، وهي نفس المؤسسة التي لم تقبل ترشيحه للمنحة ذاتها عام ١٩١٠ كطالب دراسات عليا غير معروف. وكانت المنحة قدرها مائتا جنيه استرليني في العام مما ساعد على إتمام الكتاب. إلا أن مسودة الكتاب سُرقت منه في محطة ريدنج أثناء تغييره القطار واضطر للبدء من جديد. ثم انتقل إلى لندن عام ١٩٢٠ وبدأ العمل في النص في شقة في شارع بارتون استعارها من صديقه السير هنري بيكر حيث أنهى كتابه فيما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ كلمة في ثلاثة أشهر خلال جلسات ماراثونية. ولم يكن هذا جهداً فوق بشري كما يبدو، لأن النص الجديد كان منقولاً حرفياً من رسائله أثناء الحرب، ومن تقاريره في «النشرة العربية» التي كانت بحوزته في لندن، وكان يقوم بمراجعتها وفقاً لتواريخ مذكراته. لذا، فلا يمكن إرجاع الاختلافات بين التقارير الرسمية وما جاء في «أعمدة الحكمة» إلى أخطاء الذاكرة. ولأن لورانس، على أية حال، كان يتمتع بذاكرة حادة؛ فقد أخبر كليمر سيدني سميث ذات مرة أن بمقدوره أن يتذكر كل ما قرأه في أى كتاب، كما أنه لم يحدث أن نسى أى تاريخ. وكانت وثائق لورانس مكتوبة كتابة جيدة بشكل غير عادي، إلا أنه أدرك أن مجرد سردها كسلسلة يقوم بربط إحداها بالأخرى لم يكن ليصنع منها كتاباً. على الأقل، فلن ينتج هذا العمل الفني الذي كان يشق إلى إبداعه، إذ إنه في هذه الحالة لن يكون للكتاب شخصية، أو بنية درامية مستقلة، أو ذروة عاطفية ذات طبيعة شخصية. إذ يتحتم أن يكون للقصة بطل مميز يرى وهو يتخطى العوائق الهائلة ويتطور روحانياً نتيجة لتفاعله مع تجاربه. كان لورانس يعتزم أن تكون هذه رائعته: كلمته التي يعرف بها نفسه للعالم. فمن المؤكد أنه قام بأعمال بطولية؛ أنقذ حياة جاسم. واقتحم أراضى يحتلها العدو اقتحاماً مشهوراً وهو يمتطي دابته لمسافة ٥٦ ميل بمفرده. كما أنه ابتدع استراتيجية ألمعية لحرب العصابات، وخاض عشرات المعارك ضد الأتراك. ورغم أن هذه كانت أحداثاً بطولية مشيرة للإعجاب، فلم تكن كافية لتضفي على الكتاب البعد الدرامي الذي يطلبه

لورانس. وحلاً لهذه المشكلة قام باختراع سلسلة من الأحداث الشخصية التي تُحمي وطيس القصة. ولم يكن لأى منها علاقة بالرسائل والمذكرات التي لم تذكرها أصلاً. فمثلاً، كتب أن المكتب العربى لم يرسله إلى بلاد العرب فى مهمة مخبرانية، بل إنه ذهب إلى هناك بدافع ذاتى لأنه حدس أن الثورة العربية تعوزها القيادة التي لن يستطيع أحد القيام بها سواه. وأنه تبنى أساليب الحياة العربية كما لو أنه قد ولد عربياً وكأنه كان يحقق نبوءة مسيانية Messianic. (أى أنه يقوم بدور المخلص وفقاً للرؤية التوراتية). وذكر أنه قد شاهد فى رحلته الأولى لبلاد العرب لعبة تمثيلية أداها شريفان عربيان كانت تجسد القسوة والكرهية المتأصلة بين القبائل: الضغائن التافهة التي يمكن تجاوزها فقط بتبنى الشخص لفكرة رومانسية مجردة. كما قال إنه اضطر أثناء عملياته الرئيسية الأولى أن يقتل رجلاً عن عمد، وأنه قام برحلات على الإبل يستحيل على الأفراد العاديين القيام بها. وأنه، كالمسيح عيسى، قد خانته أصدقاؤه، وتم تعذيبه وإذلاله بشكل بشع، ثم بعث ثانية ليكمل نضاله إلى أن أثمر. ثم فقد آدميته لدرجة أنه أمر بمذبحة لأسرى لا حول لهم ولا قوة. إلى جانب هذه الفروق الدقيقة وغيرها، فقد دفع تضخيم تفاصيل أحداث واقعية بشكل معتنى به، بسرد مادة كانت قد تتبلور وتصبح مجرد مذكرات مكتوبة جيداً، إلى مستوى عوالم مالورى وهوميروس، عوالم مليئة بأحداث أكبر من أحداث العالم البشرى، وشخصيات تفوق شخصيات الواقع الإنسانى فنجده مثلاً: الأمير فيصل النبيل، وعودة المحارب المقدام، وعبد القادر الخائن الحقيقى، والفرسان الأبطال من أمثال الشريف على والشريف شاكرو زعل أبوطبى وطلال الحرايضى، وهناك أيضاً الشريف عبد الله الخامل، ونسيب البكرى الحقيقى، والمهرجان فرج وداعود، وأيضاً يقدم لنا اللنبى رمز الأبوة، والعسكريين البريطانيين البواسل، رغم ما بهم من ضيق أفق وجمود من أمثال يونج وجويس وداونى ونيوكومب وجارلانند (وجه إليهم لورانس الهمز واللمز المستتر تحت غطاء صخب المديح). فضلاً عن «الخلوقات» البدوية المؤذية فى مقابل الغيلان من الأتراك. أما لورانس، فتجمعت فى شخصيته، شخصيات أمير مكة، والساحر مرلين والملك آرثر وتوحدوا جميعاً فى شخص واحد مع «فرسان مائدته المستديرة»، أو التسعين محارباً من البدو العتاة القساة الذين أقسموا أن يحموه حتى الموت.

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانبا

وحول قلم لورانس الطليق الساحر «أعمدة الحكمة» من مجرد سلسلة من الرسائل إلى ملحمة من طراز ملحمة «لورد الخواتم»؛ فكتب إلى جيم إد عام ١٩٢٨ قائلاً: «حاولت جهدى فى كتابى أن أفعل ما لبت مؤهلاً له بطبيعته على الإطلاق؛ أن أنتج عملاً خيالياً إبداعياً».

غير أن النص كان له أيضاً هدف أيديولوجى. فقد كان وقت عمله فى الكتاب، يقوم بحملة صحفية لتأييد الهاشميين. وكان الهدف الثانوى «لأعمدة الحكمة» هو تقديم المديح المتوهج لفصيل وأعرا به بأن يستخدم ألوان بيرن - جونز من المدرسة الماقبل رافيلية لتصوير صراعاتهم البطولية. وقد استاء عرب كثيرون من هذه النظرة. كما كتب المؤرخ العربى جورج أنطونيوس أن المشكلة ليست أن لورانس كان يعوزه الحس أو الذكاء، لكن فكره ببساطة، مثل أى إنسان آخر، كان يخضع لمجموعة من الأسس حددتها ثقافته. فلم يكن بوسع رؤية العرب سوى من خلال منظور الصور الرومانسية التى تعلمها فى صباه؛ فالعرب النبلاء هم البدو الأشراف، وفلاحو الفرات ذوو الاكتفاء الذاتى أما المدينيون والقرويون الجبناء فكان يعوزهم النبل. ومن المفارقات، من وجهة نظر العدديدين، أن كان حاصل مواقف لورانس المؤازرة للبدو والأشراف وبدون قصد منه، هو انتهاج سياسة مضادة للعرب. وأيضاً، فما لم يدركه لورانس، هو أن روح القومية العربية كانت متأججة فى صدور هؤلاء المدينيين والقرويين (الجبناء كما دعاهم). فكتب مؤرخ لورانس الرسمى قائلاً إن «أعمدة الحكمة» كثيراً ما يورد ما هو أقل من الحقيقة كاملة، ويخفى الأمور المدمرة سياسياً؛ كما يقلل لورانس من شأن الإسهام الهائل للشخصيات غير العربية فى الثورة العربية.. ولا يبرر هذا ادعاؤه أنه كان يكتب فقط عن تجربته فى الحرب».

كان لورانس يعلم أن كتابه فريد، فلم يخبر أحد آخر الثورة العربية كما خبرها هو، كما لم يكن ثمة مشاهد أوربى آخر حتى المرحلة «البطولية» الأولى ليناقض ما يقوله. كان لورانس طوال حياته يمارس الحيل والتمويه، وكان يعلم جيداً أن أفضل طريقة لإثارة الاهتمام بعمله هو إخفاء ما وراء أحداثه لأطول فترة ممكنة عن أكبر عدد من الناس. ورغم أنه كان، فى البداية، قد فكر فى الكسب المالى من وراء

الكتاب إذ إنه كان قد أحيا فكرة القصر العصر أوسطى مع فيثيان ريتشاردز، وأيضاً بدء مشروع المطبعة في بول هيل بالقرب من تشينجفورد؛ إلا أن النسخة الكاملة من الكتاب لم تنشر حتى بعد وفاته في عام ١٩٣٥. وكان قد أكمل طبعة محدودة للمشاركين (طبعة أكسفورد) عام ١٩٢٢. إلا أنها لم تنشر حتى عام ١٩٢٦ وكان سعر النسخة منها ٣٠ جنيهًا إسترلينيًا. وكما هو محتمل، فقد يكون لورانس قد أخفى عدد النسخ التي تم طبعتها من الكتاب. وفي نفس العام، ظهرت طبعة مختصرة من الكتاب تحت عنوان «ثورة في الصحراء» حذف منها معظم المادة الشخصية والخلافية ولقيت نجاحاً جماهيرياً هائلاً، بيد أنه سحبها بسرعة لأنه اعتقد أنه قد كسب مالاً كافياً من وراثتها، وجعل من نفسه، طبقاً لما قاله جورج برنارد شو فيما بعد، «حديث المدينة» وأضاف زخماً جديداً للإثارة الجماهيرية.

وكما كتب ونستون تشرشل أن منزلة «أعمدة الحكمة» تعادل منزلة أعظم الكتب الإنجليزية، وسماه ملحمة، وأعجوبة، وحكاية معاناة. وقد لقي الكتاب أيضاً الثناء من شخصيات مرموقة مثل جورج برنارد شو وسيجفرد ساسون وتوماس هاردي وه.ج. ويلز وغيرهم كثيرين. وكتب لورانس إلى فيثيان ريتشاردز في عام ١٩٢٣ قائلاً إنه يدرك أن «الكتاب جيد» وأضاف أنه «ليس بدرجة الجودة التي يجب أن يكون عليها». فهو ليس بجودة «موبى ديك» أو «الحرب والسلام». وكانت طبيعة لورانس التنافسية تدفعه إلى أن يطمح في أن يتساوى عمله مع أعمال تولستوى ومليفيل وآخرين، وكان غمطياً منه أيضاً أن يشعر أنه لم يرق إلى المستوى الذي يريده. وفي الواقع، فمع مرور الزمن أصبح غير راض عن «أعمدة الحكمة» وكان يدعوه «برازي». واقتنع أنه عمل فاشل، وكان يرفض تقبل الثناء عليه، ويتغاضى عن أية استحسانات، على أنها «تملق»، ويفسرها على أنها ثناء على «الأسطورة» التي كان هو قد أصبح إياها. ومن ناحية المقدرة الفنية يعتبر «أعمدة الحكمة» عملاً رائعاً. فهو يمتاز بالبديهة والتحكم غير المألوف في اللغة إلى حد بعيد. إلا أنه يعاني من العيوب؛ فقد قال لورانس نفسه إن الكتاب تعوزه الوحدة الموضوعية وأنه استطرد أكثر مما يجب، ومشئت وغير متناسق: «فقد أقمحت فيه، مثل بناء في فناءه، كل نظريات الأفكار التي اعترتني خلال تلك السنين». وكان لورانس كاتباً وصفيّاً رائعاً، إلا أن طغيان التفاصيل السردية جعل القصة

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنحيت جانبا

مبهمة. وقد علق سانت جون فيلبي بقوله «إن الألوان، على لوحة الرسم، لشديدة الكثافة». ومن ثم يصبح ولع لورانس بالتمويه وغرابة الأطوار مضاداً لهدف الكتابة. فالكتابة تهدف إلى إعلام واضح بالأفكار، على حين نجد أن بعض أفكاره معتممة. بيد أن العيب الأكبر فى كتابه هو غياب التلقائية إذ إن عواطفه تبدو مصطنعة حيث تغيب النشوة والانفعال الحقيقى. فما لجده مجسداً هو ميل ونفور، أما عواطف الحب والكراه الحقيقية فلا وجود لها. وكثيراً ما سُمى لورانس شاعراً، بيد أنه لم ينظم أية قصائد تذكر. ثم أصبح «أديباً» بعد الحرب، إلا أنه لم يكن أبداً كاتباً بالمعنى الذى كانه أصدقائه فورستر وهاردى وساسون وجريفز وشو وآخرون. فلو لم يكن ثمة «لورانس العرب» لظل «أعمدة الحكمة» كتاباً عظيماً، إلا أنه لم يكن أن يصبح له نفس الأثر على العالم. أما كتابه الثانى «دار الصك The Mint» فكان من الأفضل ألا ينشر. وقد راودته هو الشكوك بهذا الشأن، فحينما حاول التقدم بمقالات لصحف ومجالات مختلفة تحت اسم مستعار، كان يقابل بالرفض. فقد كان لورانس رجلاً شهيراً يملك قصة واحدة يرويها، وقد رواها بمهارة وروعة. وأوجد لنفسه ركناً بين عظماء الفنانين وكتاب العصر، إلا أنه لم يكن أبداً على يقين أنه ينتمى إليهم.

وفى الواقع، فإنه يمكن النظر إلى حياة لورانس الوظيفية بعد الحرب العالمية الأولى، وبأكثر من معنى، على أنها مثال عن مقتضيات الشهرة، أى أنها ظاهرة لم تكن معروفة حينذاك بقدر ما هى معروفة اليوم فى عصر التلفزيون. فقد أصبحنا فى نهاية الألفية نعرف شخصيات «شهيرة لأنها شهيرة» كما يذهب المثل، كما أننا ندرك أن الشهرة تطمس الحقيقة، وأنها تسير فى مركبة ذات أبعاد أثرية من الفانتازيا التى تعمل على تخليد الذات. وندرك أيضاً الآن أن علاقة الشهرة بالمروبة أو الإنجاز علاقة ضئيلة، وتكون فى معظم الأحيان نتيجة «لعرض» الشخص. وربما كان لورانس، باستثناء نجوم الشاشة، أول نجم أعظم فى القرن العشرين. وتم خلق «لورانس العرب» بواسطة أول حملة دعائية كبيرة له. فقد بدأت شهرته بمجرد عودته إلى لندن بعد الحرب لدى محاوره مراسلى الصحف له، الذين وجدوه شخصاً متواضعاً غير مدع، وهو البطل الهمام، بدرجة تثير الدهشة. ولم يعرفوا

بالطبع أنه كان قد أتقن بعناية «زراعة» هذا المظهر شديد البراءة منذ الطفولة، وأنه قد ضمن إثارة اهتمامهم بالإيحاء بأن هناك ما يخفيه لأن تواضعه يمنعه الإعلان عنه. واعترف لورانس أن هذا كان هو المقصود بالضبط. وكان مدرسه في المدرسة قد لاحظوا عليه هذه الخاصية، وكان لهذا التوجه أثر في صالحه مع هوجارث وفيصل وألنبي، وهما وينجح أخيراً مع الصحافة. وكما كان متوقعاً، أصبح الناس متعطشين لاستقاء معلومات أكثر وأكثر عن «الكولونيل لورانس» الغريب، ثم رسخت أسطورة لورانس عام ١٩١٩ عندما افتتح الصحفي الأمريكي لويل توماس دار الأوبرا الملكية بكوئنت جاردن بمحاضرة مصورة عنوانها «مع ألنبي في فلسطين ولورانس في بلاد العرب».

ففي عام ١٩١٨ كلفت الحكومة الأمريكية توماس بإنتاج مادة تولد الحماس للحرب بين أفراد الشعب الأمريكي. ولما وجد أن جبهة القتال الغربية لا تصلح لتقديم الصورة المطلوبة إعلامياً نظراً «لقذارتها» و«أمراضها» و«ورطتها وجمود الحركة عليها»، وجه بتشان، رئيس الدعاية البريطانية، توماس إلى الجبهة الشرقية. وهكذا التقى توماس بلورانس في مارس عام ١٩١٨ في القدس، وتعرفت حاسة الدعائي الكبير داخل لورانس فوراً على فاعلية الإعلام، ومن ثم، رتب لتوماس زيارة للعقبة، حيث لم يستعد للتصوير فقط بارتدائه زيهِ العربي، بل إنه نجح أيضاً في الحصول لتوماس على ترخيص لتصوير فيلم عن البدو. وقال توماس فيما بعد: إن لورانس لم يرهب آلة التصوير لكن زملاءه من الضباط البريطانيين كانوا يرهبونها. ورغم أن عودة توماس إلى الولايات المتحدة كانت متأخرة عن أن تحقق مآثره هدفها الأصلي، فإن عرضه لهذه المادة بعد الحرب حقق ظاهرة نجاح غير مسبوق وارتقى بلورانس سريعاً إلى مرتبة النجم الأعظم. فقد شاهدها في بريطانيا وحدها أكثر من مليون شخص بمن فيهم الملك الذي طلب منه عرضاً خاصاً. كما نجح العرض أيضاً بأن ربط بالمادة المعروضة سلسلة من النماذج الأصلية للبطولة والتي وجدت قبولاً عميقاً في الوعي الجمعي لشعب كان بلده قد خرج لتوه من حرب ساحقة. ونجح «الكولونيل لورانس» في «خلاص» أرواح آلاف الشباب البريطانيين الذين بدا موتهم لا هدف له. وزعم توماس أن العرب كانوا يعتبرون لورانس كائناً خارقاً للطبيعة أرسلته إليهم السماء ليخلصهم من ظالمهم. وأعلن أن

الفصل العشرون: مازال «الكونونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانبا

لورانس قد عمل على توحيد العرب أكثر من أى شخص منذ «الخلفاء العظام»، وقال إنه قد حقق هذا بأن «حول نفسه إلى عربى» وتجول فى أنحاء الصحراء هناك يرافقه اثنان فقط، وعمل ببلاغته الخالصة، على إقناع أفراد القبائل أن يلحقوا بالثورة العربية. وأكد أن «الشاب» قد أصبح فعلياً حاكم أرض العرب المقدسة والقائد العام لآلاف البدو. وكانت الصورة شديدة الإقناع، كما أن الطبيعة المسيحية للقصة كانت ما أراد المشاهدون سماعه. وبالإضافة فقد كانت تلك القصة تعبر عن الصور الأسطورية للنموذج الأصلي الذى كان لورانس يهوى ترويجها. ففي أوائل عام ١٩٢٠، كتب إلى السير آرشيبالد مري، رئيسه السابق فى القاهرة، والذى كان قد اعترض على بعض تعليقات توماس عليه فى المحاضرة، «إنه كان يجلس «دون حراك» بينما كان توماس يدعوه «أمير مكة» وأشياء أخرى لا أخلاقية. بيد أن لورانس كان قد أعلن للملك قبل ذلك بعام أنه «أمير بين العرب». كما أنه قد استعمل لقب «أمير مكة» إرادياً فى طبعة عام ١٩٢٢ من موسوعة "Who's Who". والحقيقة هى أن لورانس قد ولع بمحاضرة توماس، وذهب لحضورها مرات ومرات، وكره نفسه لأنه أحبها. ووصف لورانس هذا النوع من الدعاية بأنه «فاسد»، إلا أنه حينما سأله توماس عما سيكون عليه موقفه من الأجزاء غير الصحيحة التى جاءت بالمحاضرة، أجابه بأنه لن يؤكدها أو ينفيها. وقد كتب توماس، الذى كان خلافاً لمؤرخى لورانس الآخرين، قد التقى به فعلاً أثناء الحرب، «إنه كان يجد متعة بالغة فى قيادة الجيوش، وفى أن يكون استراتيجياً وصانعاً للتاريخ»، وكتب يقول «لقد وجد لذة فعلية فى المجد الذى صنعه بنجاحه».

وكانت محاضرة توماس والعرض الذى قدمه ممارسة فى التلاعب بال جماهير ذات أثر مذهل. ففي غضون أسابيع كان هؤلاء الذين عارضوا لورانس أو وجهوا إليه النقد يمتدحونه دون تحفظ، بعد أن أدركوا أنهم كانوا أيضاً عوامل مساعدة فى «قصته البطولية». وبلغت سطوة هذه الصورة الأسطورية درجة أصبح من المحال معها فى السنوات التالية أن يأتى أحد بمقولة متوازنة عن لورانس: فباستثناء محطتى الأيقونات، شعر الجميع أن عليهم امتداح الرواية الرسمية، وأضحت معارضتها تعادل الخيانة تقريباً. وفتحت شهرة لورانس له جميع أبواب الكتاب

المرموقين والفنانين والشعراء. ومن الطبيعي أن يعتقد المرء أن الكثير من هؤلاء لهم المقدرة على تكوين الرؤى الخاصة المستقلة، إلا أنهم ببساطة تقبلوا حكم الغوغاء. (كانت هناك بعض الاستثناءات فلم يلحق كيبلنج أو داوتى بهذا السيرك الشعبي). كان هذا ما حدث نتيجة للسطوة الساحقة للشهرة. وأصبحت الشهرة نفسها كينونة فانتازية لا علاقة لها بالحقيقة، وأخذت تُغرق كل ما يفعله لورانس أو يلمسه في وهج مبهر رخيص. فصيرت لورانس «بطلاً»، ليس مخلوقاً من لحم ودم يعيش في عالم واقعي، بل شخصية مركبة تقطن ما يمكن أن ندعوه اليوم الفضاء السيبرنطيقى - أو الوعي الجماعي، أى بؤرة تخيلية للطموحات والرغبات البشرية. وأصبح يرتبط لدى الكثير من الناس بمفهوم ما يعنيه أن يكون المرء بريطانياً، لدرجة أن أى نقد كان يوجه إلى لورانس كان يُعتبر، فى بعض الجهات، هجوماً على البريطانيين أنفسهم. واستمر الأمر هكذا حتى ستينيات القرن العشرين، أى بعد وفاة لورانس بمدة طويلة، إلى أن وجد الكاتب ريتشارد آلدينجتون الشجاعة لأن يبين عبث عبادة لورانس كقدیس دنیوی، وإن كان كشف آلدينجتون للزيف قد شابهته سخرية النقد اللاذع غير المحسوب مما أدى إلى تقويض قضيته.

ما دور لورانس فى خلق أسطوره؟ مما لا شك فيه أن حساسيته وميله إلى تقديم ما هو واقعي بشكل أسطوري كان له دور رئيسي. فخلق الأسطورة عملية ذات مسارين. فلا بد للبطل الذى يُصنع أن يملك إحساساً بالأسطورة التى يظهر فيها: أى مقدرة على أن يعكس ما يتم إسقاطه عليه بواسطة الآخرين. فهو يمدهم بالمادة الخام التى تُبنى بها الأسطورة. وقد كشف توماس أن لورانس كان يزوره بانتظام فى ريتشموند، وأنهما كانا يتبادلان المشورة. كما كتب توماس أنه كثيراً ما كان يسأل لورانس عن مدى واقعية حكايات بعينها فكان لورانس يقهقه ويقول: «إن التاريخ لا يتكون على أية حال من الحقائق. فلماذا القلق؟». إلا أن طبيعة لورانس المازوكية منعت من أن يتقبل مداهنة الآخرين ببساطة. فلم يكن مغروراً، كما لم تكن ميوله الاستعراضية التى كانت واضحة خلال حياته من النوع الرجسى. فكان يشعر بنفسه أنه «نجس» فى أساسه، وشعر بالحاجة إلى أن يرى العالم هذا. لذا أصبحت حياته جديلاً لا ينتهى بين نشوته بنجاحه وحاجته الغريزية للحط من قدر نفسه.

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنحيت جانباً

وأدرك توماس ولع لورانس بالشهرة، وأيضاً حاجته لأن يهرب منها فى ذات الوقت. فكتب عنه «كان يحتج قائلاً إنه يود لو تركه العالم وحده.. إلا أنه فى قرارة نفسه كان يحب كل هذا». وكان توماس نفسه هو من كتب السطر الشهير عن موهبة لورانس «للانسحاب إلى بريق الضوء» (باعتبار أن الانسحاب يضفى عليه بريقاً أكثر). ودعاه برنارد شو، وكان من أقوى الناس ملاحظة فى عصره «مثلاً بالسليقة» وكتب عنه «حينما كان يقف فى وسط خشبة المسرح، وعشرات الأضواء مسلطة عليه، كان الجميع يشيرون إليه ويقولون «انظروا إنه يختبئ... إنه يخفض الدعاية!». إلا أن لورانس جلب هذه التعليقات لنفسه. حينما اعترف أن لديه «ولعاً بالشهرة، ورعباً من أن يعرف الناس أنه يود أن يصبح معروفاً». وكان مأزقه شديد الشبه بمأزق «كابتن هوك»، وهو من شخصيات الكاتب جيه. إم. بارى، وكان وعداً عجوزاً من خريجى إيتون، يعذب كيانه إدانته لتفكير المرء بأنه يجب أن يبدو طيباً وأن المرء يمكن فقط أن يكون طيباً بشكل حقيقى دون علم منه بذلك. وهذه الخاصية، طبقاً لتعليق لين كوان، تتوافق تماماً مع الطبيعة المازوكية فكتب «إن المازوكى يكشف عن كونه مثلاً مقنعاً، فإنه يتحتم عليه أن يمثل ويعيش ليمثل، ويكره أن يمثل. وتكون عذاباته الداخلية شديدة لدرجة يجد معها أن من الواجب أن يخفيها خلف الستائر. إلا أنها تتفجر وتندفع إلى وسط خشبة المسرح». فقد ساعد لورانس على خلق الأسطورة، ثم حاول إنكارها. فأخبر جوزيف كونراد أن أسطورة «لورانس العرب» غير صحيحة برمتها. وكتب إليه قائلاً: «إننى أعرف درجة زيف الشناء، وقدر ضآلة الحقيقة مقارنة بالأسطورة، وما تحويه من قدر كبير يعود إلى الخط، ودور ضئيل للجدارة». إلا أنه اعترف رغم ذلك أن للأسطورة كياناً مستقلاً حينما أعلن «أن الكولونيل لورانس مازال مستمراً، رغم أننى تنحيت جانباً».

بيد أن لورانس اكتشف، فى نفس اللحظة التى كان «الكولونيل لورانس» يولد فيها أنه لم يكن أبداً تى. إيه. لورانس، ففى أبريل عام ١٩١٩ توفى والده بالأنفلونزا. وعاد إلى أكسفورد من مؤتمر الصلح ليكتشف هويته الحقيقية. فقد ورث توماس عن عمه لقب «البارون» تشابمان عام ١٩١٤، وبالطبع لم يستعمل الأب هذا اللقب أبداً. ولدى عودته اكتشف أيضاً أنه نجل السير توماس تشابمان

الذى كان وارثاً لضياع شاسعة في أيرلندا. ومن الصعب معرفة رد فعله على هذا الاكتشاف. فقد كان يشعر منذ طفولته أن شيئاً غريباً يشوب علاقة والديه. فمثلاً، لا بد وأنه قد لاحظ أنه كان بغير أقرباء على حين كان للأطفال الآخرين أولاد أعمام وعمات، وأجداد، وعمات، وخالات، وأعمام وأخوال. ورغم أنه كان يعرف أنه طفل غير شرعى منذ أن كان في العاشرة. إلا أنه، طبقاً لمذكرات سجلها تشارلز بل، من المتحف الأشمولى، عن دافيد هوجارث، أن لورانس كان يعتقد أن توماس ليس أباه الحقيقي، إلا أنه تزوج أمه - وكانت خادمة في منزل رجل آخر - بعد أن ولدت بعض أبنائها أو كلهم. وقد ادعى لورانس أنه لم يبال أبداً بعدم شرعية مولده: فلم يؤثر هذا في طفولته، ولم يؤثر بالتأكيد في نجاحه. وقال آرني لورانس، الذى انفجر في ضحك أجش، حينما أخبره لورانس بالحقيقة، أن أخاه لم يشعر بمرارة تجاه إرثه «فلم يكن بالإمكان أن يشعر بأى حزن.. لأن المال كان قد انتقل بالفعل إلى والده، ولماذا كان سيحزنه استبعاد بوب من ملكية الأرض (إلا أنه علق ذات مرة أنه لو أصبح بوب السير مونتاجيو لكان هذا أمراً مضحكاً)». وبالإضافة، فيما أن لورانس كثيراً ما كتب إلى معارفه يخبرهم أن اسمه الحقيقي ليس «لورانس»، فمن غير المحتمل أن يكون قد شعر بالخزي الكبير من هذا. وكثيراً ما حاول مؤرخو لورانس تحويل قصته إلى حكاية شعور وجودى بالذنب بسبب ملابسات عائلته، إلا أنه، باستثناء بعض التلاعبات باسمه، والتأكيد على كونه أيرلندياً، (وكان هذا أمراً جديداً) فقد أتى الكشف متأخراً بدرجة لم يسهم معها في تشكيل شخصيته أو التأثير في عمله، فحينما علم بالحقيقة عام ١٩١٩، كان بالفعل على وشك أن يصبح بطلاً قومياً.

لم يقتنع لورانس أن الهاشميين قد لقوا معاملة عادلة من الحلفاء. وكان انتصار الحلفاء على تركيا، الذى كانت احتمالاته المستقبلية قد بدت واردة في أكتوبر عام ١٩١٨، قد تحول سريعاً إلى حالة من الفوضى. فقد تم قمع انتفاضة سعد زغلول باشا وحزب الوفد ضد البريطانيين في مصر باستعمال قدر كبير من العنف عام ١٩١٩ حيث فتحت القوات البريطانية النيران على جماهير المتظاهرين وقصفتهم طائرات السلاح الملكى البريطانى وهاجمت المدنيين وتم القبض على قادة المتظاهرين وتعذيبهم. كما تم القضاء المبكر على حركة قومية في كردستان

الفصل العشرون: مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانباً

بواسطة فرقة بريطانية. وحدثت في العراق ثورة عارمة ضد الانتداب البريطاني واقتضى الأمر استعمال قوات قوامها ٤٠,٠٠٠ جندي لقمعها بتكلفة قدرها ٤ مليون جنيه استرليني، أى ما يعادل ثلاثة أمثال ما أنفق على الثورة العربية. وبلغ عدد الضحايا ١٠,٠٠٠ بينهم ٤٠٠ جندي بريطاني. أما في فلسطين فكان التوتر يتنامى بين العرب واليهود. وفي سوريا فيصل، كان رجال القبائل من أتباع فيصل الذين انتزعوا من مواطنهم، يرقبون الفرنسيين من الأطراف بغل شديد. وباختصار، وطبقاً لتعبير ونستون تشرشل «فإن الشرق الأوسط برمته يبدى صورة شديدة الكآبة والخطورة».

وفي فبراير عام ١٩٢١ تولى تشرشل منصب وزير المستعمرات وقرر إصلاح الموقف. وجمع حوله فريقاً من المختصين بمن فيهم لورانس الذى وافق على هذا دون تردد خلافاً لتوقعات الكثيرين. ورغم أن خلفية تشرشل كانت أكثر تميزاً بكثير من خلفية لورانس، إلا أن الاثنين كانا لهما نفس الطبيعة، فقد تميز كلاهما بصدق الخدس، وكان كل منهما رومانسياً، كما أن كليهما قد عانى أزمات في طفولتهما (فقد عانى تشرشل من إهمال والدته التى كانت ذات علاقات جنسية متعددة مشوشة) ولم يكن أى منهما جذاباً جسمانياً، إلا أن كلاهما تغلب على قصوره الجسدى بشجاعة وقوة إرادة هائلتين. وكان الاثنان متحدثين بليغين، ودعائيين من الدرجة الأولى، وصانعى ألفاظ من طراز فريد. وكان الإعجاب بينهما متبادلاً. واعتزم تشرشل عقد مؤتمر في القاهرة يدعو إليه كل الأطراف المعنية بالسياسة في الشرق الأدنى ليتوصلوا إلى تسوية شاملة. وعقد المؤتمر في مينا هاوس بالقاهرة في ظل الأهرامات في مارس عام ١٩٢١، وشمل تقريباً كل عسكري وإداري له علاقة بقضية الشرق الأوسط. وكانت التوصية التى تم الاتفاق عليها مسبقاً مع فيصل في لندن هى إلغاء الانتداب البريطاني في العراق وتسليم الإدارة إلى حكومة عربية مع التوصية بأن يصبح فيصل ملكاً بعد استفتاء عام. ثم تدخل بريطانيا في تحالف مع فيصل وتسحب القوات البريطانية وتستبدلها بقاذفات قنابل اللورد ترنشارد من السلاح الجوى البريطاني. وفي أبريل، سافر لورانس وتشرشل إلى القدس لمخاطبة الشريف عبد الله الذى كان قد وصل إلى معان في اليوم السابق مع قوة مع البدو استعداداً للهجوم على الفرنسيين في سوريا. واقترح عبد الله أن

يحكم دولة موحدة تتكون من شرق الأردن وفلسطين. لكن هذه المقترحات رفضت بسبب وعد البريطانيين لليهود. وبدلاً من هذا تم تعميم عبد الله حاكماً إقليمياً لشرق الأردن. وظل لورانس في البلاد كممثل لبريطانيا حتى ديسمبر، ثم عاد أدراجه إلى إنجلترا مقتنعاً أنه قد بذل ما في وسعه ليفي بما تعهد به للهاشميين أثناء الحرب. وفي هذا الصدد كتب «لقد حل تشرشل كل العقد، وأوجد حلولاً تفي بكل وعودنا - على ما أعتقد - نصاً وروحاً (بقدر ما هو ممكن للبشر) دون التضحية بأى من مصالحنا أو مصالح الشعوب المعنية. وهكذا انتهينا من مغامرة زمن الحرب الشرقية - بأيد نظيفة. إلا أن هذا جاء متأخراً ثلاث سنوات بحيث لم نكسب الامتنان المتوقع من هذه الشعوب أو حتى هذه الدول».

وعن هذا قال المؤرخ العربى جورج أنطونيوس إن «هذه مقولة لا تستقيم، بشكل ملموس، مع الواقع الذى حدث، بدرجة تلقى شكوكاً جادة حول فهم لورانس للقضايا المتعلقة». وفي الواقع فقد كان مؤتمر القاهرة نذير زمن قلائق فى الشرق الأوسط، لا يفوقه زمن آخر بما فى ذلك زمن الحكم العثمانى. فلم يتح للعراق التمتع بسنة سلام واحدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ومازالت حتى اليوم تعاني من الأزمات الرهيبة. ومن الواضح أن هذا ينطبق أيضاً على فلسطين. أما الفرنسيون فقد جوبهوا فى سوريا بمعارضة شديدة حتى قبلوا بإدارة عربية عام ١٩٣٦. وفقط فى شرق الأردن، وهو بلد فقير نسبياً، أمكن المحافظة على شبه توازن بواسطة الفيلق العربى تحت قيادة الإدارى الموهوب جون باجوت جلرب. أما الملك حسين، ذلك الثعلب الذى تأمر منذ شبابه على خلق حجاز مستقل، فقد قام الملك عبد العزيز آل سعود، المنتصر الحقيقى فى الثورة العربية، بطرده. ومازالت «مغامرة زمن الحرب الشرقية» تحيا معنا، فلم نخرج منها بعد بأيد نظيفة.

على أن لورانس لم يعد إلى بلاد العرب مرة ثانية أبداً. فقد فعل ما بوسعه للعرب، وخرج (من المغامرة) عن حق، أو عن باطل، كأعظم بطل لأكثر حرب ساحقة فى التاريخ، وأجبر على أن يحمل معه «لورانس العرب» الخيالى طوال ما تبقى له من حياة. كان بإمكانه أن يختار أى منصب له، فقد أشاع هو نفسه أن تشرشل عرض عليه منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر بعد كبتشنر ومكماهون وألنبي. إلا أنه لم يكن يميل للمناصب العليا. واختار لنفسه، كجائزة

الفصل العشرون، مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً رغم أنى قد تنجيت جانباً

خدماته أثناء الحرب، أغرب جائزة يتخيلها إنسان؛ فقد اختار أن يلتحق بالقوات المسلحة كجندي (نفر). وهكذا أكمل دائرة الطموح الذي احتضنه منذ أن هرب من منزله وهو في السابعة عشرة من عمره.

أفكار الحادي والعشرين

نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

القوات الجوية الملكية

وسلاح الدبابات الملكي والوفاة

١٩٢٢-١٩٣٥

21

في ٣٠ أغسطس عام ١٩٢٢، كان

ثمة رجل مهلهل المظهر

يدعى جون هيوم روس يحوم وهو

يترنح خارج مكتب تجنيد أفراد القوات

الملكية الجوية في شارع هنرييتا بوسط

لندن. تردد في الدخول لبعض الوقت،

وأخيراً، وبعد أن اندفع إلى مرحاض

عام ليريح أمعاءه التي كادت تتحلل

خوفاً، قرر الدخول.

وواجهه صف ضابط متجههم وهو الرقيب أول ماكجى الذى وجد مظهره مشيراً للشكوك، واستدعى الضابط و. إيه. جونز، الذى كان كاتباً متطلعاً، منح فيما بعد صبية العالم التسلية بسلسلة كتبه المسماة Briggles. وأشار ماكجى إلى جونز ملمحاً أن روس قد يكون مشبوهاً إذ إنه لم يكن يحمل أى إثبات هوية أو خطابات توصية. وأرسل جونز روس لإحضار توصية وشهادة ميلاده، وحينما خرج، اتصل بمكتب قيد المواليد فى سومرست هاوس وتأكد من عدم مولد شخص يدعى جون هيوم روس فى التاريخ الذى ذكره الرجل. وعندما عاد روس بخطابات توصية، التى كان فى الغالب قد زورها، قام ضابط الصف بطرده.

إلا أن جونز أصابته الدهشة لدى عودة الرجل فى غضون ساعة برفقة مراسل رسمى من وزارة الطيران يحمل رسالة وقعها القائد العام للقوات الجوية اللورد ترنشارد ومفادها أن يتم تقييد روس كمجنّد من الدرجة الثانية فى القوات الجوية. بيد أنه كان عليه اجتياز الكشف الطبى. ووجد طبيبا القوات الجوية اللذان قاما

الفصل الحادى العشرون، نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

بفحصه أن به آثار ضرب متعمد بالإضافة إلى أنه كان يعاني من سوء التغذية بشدة . ورفضه الطبيبان على أساس أنه لا يصلح . وأرسل جونز الحالة إلى الضابط المسئول الذى هاتف وزارة الطيران . وحالما وضع السماعه قال «احترسوا... إن هذا الرجل هو «لورانس العرب» ، أدخلوه وإلا عليكم ترك الخدمة» وعاد جونز إلى الطبيبين، إلا أنهما أصرا على رفض التوقيع . ومن ثم، اضطر جونز إلى استدعاء طبيب مدنى ليسمح للورانس بالالتحاق كمجنّد فى سلاح الطيران الملكى .

لا تتاح الفرص لجميع الأفراد كي يحققوا أحلامهم، بيد أن أحلام الكثير من الناس تدور حول الرفعة والثروة والنجاح . أما تكوين لورانس النفسى، الغريب، وميوله الاستعراضية العكسية كانت هى التعبير الاجتماعى عن المازوكية، باتجاه الانحطاط والفقر وإنكار الذات والعبودية . الحالة التى كانت تتيح للورانس أن يخبر مثل هذا الانحطاط على أفضل وجه، باستثناء أن يكون عبداً بالفعل، أو سجيناً، كانت هى التحاقه بصفوف المجندين فى القوات المسلحة . وكان مما كتبه «إن ما أقنعنى أن أفضل مستقبل لى، إن ظلمت على قيد الحياة بعد الحرب، هو أن

أجند في الجيش، كان خروجي في السيارات المدرعة واختلاطي الودي بأفراد القوات الجوية». ومن ثم، كتب إلى ترنشارد رئيس أركان القوات الجوية في يناير عام ١٩٢٢، وبينما كان مازال يعمل في وزارة المستعمرة، أنه يود الالتحاق كمجند بالقوات الجوية. وكان قد التقى بترنشارد في مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١. وأخبر ترنشارد أن سبب طلبه التجنيد هو تجميع مادة لكتاب له عن القوات الجوية من مستوى القاعدة. وعندما أصدر ترنشارد أخيراً الأمر بإلحاق «جون هيوم روس» بالقوات الجوية برتبة جندي فني من الدرجة الثانية رقم ٣٥٢٠٨٧، في ١٦ أغسطس كتب «إنه يتخذ هذه الخطوة ليعرف حقيقة حياة رجال القوات الجوية». وكتب لورانس فيما بعد لأحد معارفه، إنه التحق بالخدمة لأنه وجد نفسه دون عمل حقيقي، وأن الالتحاق بصفوف المجندين هو طريق سريع وسهل للبقاء على قيد الحياة.

غير أن هذه التوضيحات جميعها لم تكن الحقيقة كاملة كما اعترف هو حينما كتب لروبرت جريفز «لا أستطيع بأمانة إخبارك عن سبب التحاقى. فقد كانت خطوة ضرورية دفعنى إليها ميلى إلى المستويات الدنيا، على أمل يائس أن أجد نفسى على أرض مشتركة مع الناس، تحقيقاً لرغبة صغيرة فى أن أصبح أكثر إنسانية...» فإن كان تطوعه مجنداً يبدو أمراً شاذاً، فعلياً أن نتذكر أنه هرب من منزله وهو فى السابعة عشرة ليفعل نفس الشيء. وكان طوال حياته ينجح إلى تخيل نفسه وهو يلتحق بصفوف المجندين، أو أنه هارب من الجندية. فقد كان يتواجد فى عالم مازوكى معكوس القيم يجد لذة فى الألم، وتحرراً فى العبودية، ويجد إنكار الذات بانغماسه فى طقوس اللذات والعربدة الذاتية. وقد أخبر تشارلوت شو فيما بعد أنه «يجب على الإنسان أن يعانى كى يرضى». فلم يكن التحاقه بصفوف المجندين فى القوات الجوية أولاً، ثم فى الجيش مرة أخرى فى وحدة الدبابات، ثم بالقوات الجوية مرة ثانية حيث قضى بها معظم سنوات حياته الباقية، تجربة تكفيرية، بل المكافأة النهائية لنضالاته وإنجازاته. وكان التوضيح «الرسمى» القائل بأن لورانس قد التحق بالقوات الجوية سعياً وراء الأمان غير مقنع. إذ إنه كان بإمكانه الحصول على أمان أكبر كثيراً إن هو التحق كضابط أو كمسئول فى مكتب المستعمرات دون التعرض للمصاعب المستمرة والتهديد

الفصل العاشر: نسرع.. نندفع بأنفسنا خارج أجسادنا

بالعنف الذى خبره فى سنواته الأولى من صفوف المجندين . ومعنى آخر ، فقد مكّنه تجنيده من تحاشى المسؤولية التى ألقتها على كاهله شهرته الدولية وحملته عبء تمثيل دور البطل . إلا أن هذا أيضاً ، فى حد ذاته ، جعله أكثر تميزاً من الأبطال «العاديين» الذين أتوا بما هو فجع ومتوقع كقبولهم رتب الفروسية والجوائز والمناصب الكبرى . وكان لانخراطه فى صفوف المجندين جانبته الإيجابية أيضاً ؛ فقد كان لورانس قد عرف فى نفسه منذ زمن طويل قوة تنافسية هائلة ، ورأى بوضوح ، أثناء احتلال دمشق ، وبينما كان هو الحاكم الفعلى للمدينة ، أن الفرصة لو أتت له فسيتحول التنين داخله إلى طاغية كامل . وقد كان من شأن أى منصب كبير أن يتيح له هذه الفرصة . وشعر لورانس بالحاجة إلى تقييد نفسه وتصغيرها جسدياً من أجل منع الوحش من الخروج . وكانت الخدمة العسكرية تتيح له ممارسة السلطة المعنوية من خلال أصدقائه ذوى السطوة دون الإفساد الحتمى لروحه الذى كان من شأن الشراء المادى والقوة الفزيائية إحداثه . ومن ناحية أخرى ، فلو كان هناك ثمة خطر من نسيان «لورانس العرب» فقد كفل التحاقه بصفوف المجندين عدم حدوث هذا . ومن المفارقة أن كان هذا أكبر إعلان عن الذات . وعلى مستوى آخر ، فبالإمكان النظر إلى سنوات خدمته فى الجيش على أنهاصفة طيبة ذاتية لإيجاد توازن بين ما كان يشعر أنه غير سوى فى روحه كى يجعل نفسه إنساناً صحيحاً . فكتب إلى روبرت جريفز عام ١٩٢٣ «لقد أتيت هنا كى أكل القاذورات حتى اعتدت عليها» وأيضاً «ستكون حالة سبات للعقل ، وسأخرج منها أقل غرابة فى أطوارى مما كنت عليه قبل دخولى ، أو على الأقل ، أقل غرابة فى أعين الآخرين» .

وقد لازمت التحاقه بالجندية السرية والمظهر التأمري . بيد أنه من الواضح لم يبذل الكثير من أجل إخفاء هويته الحقيقية . فقبل أن يترك مكتب التجنيد فى ذلك اليوم كان جونز يعلم من هو وقال «إن لورانس علم أننى عرفت إذ إننى حادثته طويلاً أثناء انتظار للقطار المتوجه إلى أكسبريدج» كما هاتف جونز أيضاً مركز تدريب المجندين فى أكسبريدج لينبه زميله هناك ، الملازم طيار نيلسون ، أن «لورانس العرب» كان فى طريقه إليهم تحت اسم مستعار . وهكذا ، فمِنذ اللحظة الأولى كان الجميع قد عرف سره باستثناء فنى الطائرات العاديين وضباط الصف الذين شاركهم لورانس الحياة . وقضى شهرين فى أكسبريدج حيث وجد الحياة حياة كد

وتعب يتبادل فيها أعمال السخرة بالمطبخ والتدريبات العسكرية والتمرينات الرياضية. وكان قد أمل أن تساعد القوات الجوية على الخروج من حالة الإنهاك وسوء التغذية التي كان عليها وطاقته التي استنزفها في كتابة «أعمدة الحكمة». وكان لورانس أكبر سناً من معظم المجندين إلا أنه كان يعاني الوهن، ومن ثم كان لا يستطيع مجاراتهم في التدريبات الرياضية وكان يرتبك أثناء التدريبات العسكرية. وعمد الضابط المعاون بريس الذي كان يتميز بالجمود إلى إذلاله، وكان من سوء حظ لورانس أنه تبجح وطلب منه غرفة خاصة يواصل فيها العمل في كتابه. ويعتبر هذا مؤشراً واضحاً لعدم توافقه مع وضعه كمجند جوى عادى. وربما كان هذا الطلب محاولة إرادية لغواية السلطة (كى يعاقب). وفيما بعد، كتب بريس أن العقوبة كانت توقع على «روس» باستمرار للقدارة وعدم إطاعة الأوامر والتمرد والتأخر عن العروض. وتذكر بريس أن «روس» كان يدافع عن نفسه بغطرسته الأكسفوردية قائلاً ببساطة إنه «كان يشعر دائماً بحالة من التعب في الصباح الباكر». واعتقد زملاؤه من فني الطائرات أنه كان شخصاً غريباً، وتذكر أحد زملائه في الغرفة أن فني الطائرات كانوا يجدونه نافعاً، إذ كانوا يقترحون منه، وكان يخبرهم بأمور الكتب ويسدى لهم النصائح الفنية. ورغم أنه، على أحد المستويات، كان يسعى لأن يتقبله زملاؤه، إلا أنه أبقى إرادياً على غرابه أطواره. وكتب إلى إدوارد جارنيت قائلاً إنه كان يشعر بالعزلة في الثكنات، وأنه كان مثل «اليعسوب وسط الزنابير» أو أنه كان «زنبوراً وسط اليعاسيب». وسرعان ما أكد ميله إلى التوافق مع زملائه دون الانتماء إليهم.

وكان بإمكان لورانس أن يحقق هدفه في أن يظل مجهولاً لو أنه رغب حقاً في ذلك. فلو قصد أن يترك «الكولونيل لورانس» خلفه وأن يعثر على شكل «الدودة داخل قوقعة اليرقة» وفقاً لتعبيره، لأمكنه هذا. وكما لاحظ برنارد شو بحصافة فقد كان لورانس يسعى للاختفاء دائماً في بؤرة الأضواء الساطعة وسط المسرح. فلم يكن هدفه الحقيقي أن يظل مجهولاً. فقد هدف من الالتحاق بالجيش إلى إذلال نفسه، وإلى أن يراه الناس وهو يحقر ذاته؛ أى أن يعاني ويراه الآخرون وهو يعاني. ومثلما كان لرحلاته الليلية للغطس في الجليد في نهر تشيرويل أيام الكلية هدف «إحداث صدمة بين الثقليديين من الناس»، فقد كان لابد وأن تصل أنباء

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. لندفع بأنفسنا خارج أجسادنا

خدمته «كداية» وسط صفوف المجندين إلى الشخصيات الرفيعة التى كان متاحاً للورانس أن يعيش بينها. إذا، فلابد من الزج بهم للمشاركة فى انحطاطه. فقد التحق بالقوات الجوية كمجنّد. وفى الواقع، حاول معظم معارفه بمن فيهم ونستون تشرشل ولورد ترنشارد، إثناؤه عن هذا. إلا أنه بمجرد اختياره لطريقه شرع يكتب سلسلة من الخطابات إلى عظماء البلاد وذوى النفوذ يحقر فيها ذاته طوعاً. ويمكن الإحساس برغبة لورانس الملموسة فى استعراض ظروف حياته الجديدة المقرزة فى خطابه لبرنارد شو: «إنك تطلب تفاصيل عما أفعله فى القوات الجوية. فى الصباح، قمت بحك وتنظيف أرضية المطبخ.. كما قمت أمس بغسل الأطباق فى مطعم ضباط النظام (لا يراعى هؤلاء الضباط الأصول والنظافة فى الأكل. فأطباقهم كانت ملوثة بالزبدة وصلصة الطماطم، وكانت مياه الغسيل باردة). وعملت زبائلاً، وكاتباً، ومنظفاً لزرية الخنازير. وقمت بشعّون الخادّات، ومساعد الطاهى. إلا أن الأمور ليست شديدة السوء..» وهناك توازن غريب بين حياة لورانس فى الخدمة العسكرية، وبين موقفه من «أعمدة الحكمة» الذى كان يقوم بمراجعته أثناء أسابيعه الأولى فى القوات الجوية. فمرة أخرى، لم يجبره أحد على تأليف هذا الكتاب الذى يكشف فيه عن «أسرار» و«أمور» لم يطلب منه أحد الكشف عنها. إلا أنه بمجرد أن انتهى منه، وعمل على تداوله بحرص، بين المقربين، لم يكف عن النواح والتباكى على قصوره. فكتب إلى برنارد شو الذى كان قد تلقى نسخة أصلية «إن قلت عنه إنه هراء فسأوافقك وأطلق ضحكات سعيدة مردها أن حكى عليه قد تضاعف». وإلى إدوارد جارنيت كتب «أود لو لم يكتب هذا الكتاب الفظيع الغبى» وكأنه ليس له يد فى كتابته. ويعتبر موقف لورانس من نشر «أعمدة الحكمة» نافذة عرض لشخصيته. تلك الشخصية التى وضعها ليدل هارت بأنها شخصية امرأة «ترتدى حجاباً وتكشف ثدييها». فقد أكمل لورانس الكتاب عام ١٩٢٢، وكان بوسعه آنذاك نشره ونسيان كل شيء عنه. إلا أنه بدلاً من هذا شرع يدفعه تحت أنوف الجماهير، مغرباً إياهم به طوال ما تبقى من حياته. فبدأ بالإفراج عن ثمانى نسخ لأصدقائه المقربين. ثم أصدر طبعة محدودة للمشتريين بعد أربعة أعوام، وتبعها بنسخة مختصرة أسقط منها كل المادة الخلافية. واستمر يشتغل على النص لسنوات، ليضمن بهذا اهتمام الناس

بالكتاب، ومن ثم، الاهتمام به شخصياً إذ إنه لم يسمح للكتاب قط أن يتوارى. إن هذا ليس سلوك شخص يسعى بحق إلى أن يظل مجهولاً.

فلو أراد حقاً أن يظل مجهولاً لما صادق جورج برناد شو - أحد أشهر كتاب بريطانيا - أو أى من الشخصيات القوية التى كان يرسلها بمن فيهم تشرشل ولورد ترنشارد وليو آمري - برلمانى الأميرالية - وحتى رئيس الوزراء السابق لويد جورج. فمثلاً كان فى الطائرات المجدد، الذى أنهى لتوه إطعام الخنازير وتنظيف زرائبها، يخبر بطل صباه تشارلس داوتى، بقدر من التعالى، أن «ثمة ثلاثة أو أربعة أفراد فى وزارة الدفاع الحالية زملاء فى كلية أول سولز، ومعظم الآخرين أصدقائى الشخصيين ومن بينهم دوق ديفونشاير واللورد سالسبرى وأمري وود». ولا نعرف رد فعل داوتى على هذا. فقد كان يُقدر محاولات لورانس مساعدته على إعادة نشر كتابه «الصحراء العربية»، والحصول على معاش مدنى له. إلا أن داوتى أعاد إليه «أعمدة الحكمة» دون تعليق، وقد يكون فى هذا تعليق كاف. وأيضاً، شرع لورانس فى مضايقة اللواء جوى السير أوليفر سوان رئيس التدريب وشئون الأفراد فى القوات الجوية الذى أمره ترنشارد أن يتخذ إجراءات تجنيد لورانس إلا أنه عارض هذا بقوة. ولذا، فلا بد وأن لورانس قد وجد سروراً عظيماً أن يخاطب الرجل باسمه، وهو الجندى وضيع المنزل، إذ إنه يعلم أنه كان يسانده أعظم عظماء القوات الجوية. ورغم زعم لورانس أنه قد ترك خلفه «الكولونيل لورانس» إلا أن التناقض بين هويتى «لورانس العرب البطل القومى» و«روس الفنى الجوى من الطبقة الثانية» كان مصدراً للحبور والتسلية بالنسبة له؛ إذ كان هذا محاكاة ساخرة للهرمية الاجتماعية - ذلك الحس الطبقي الذى أفسد حياة والديه - وأصبح الأمر تسلية ومصدر متعة هائلة. وكما استطاع «لورانس العرب» التنقل سريعاً بين كونه «أمير مكة» و«ضابط المخابرات البريطانى»، فقد أصبح فى مقدور «روس» فى غضون اليوم الواحد أن يبحر بين مراتب «حارس زريبة الخنازير» و«الديبلوماسى الدولى». فكتب الجنيد «روس» بعفوية، إلى مساعد قائد السلاح الجوى «سأوالى إرسال مذكرة إليك مع كل تغيير لموقعى». ولم يرق لسوان هذا، وقد يكون قد راوده الإحساس أنه أداة تسلية فى ألعيب لورانس. فكتب عن هذا قائلاً «قد يخطر ببال أحدهم، وفقاً لهذه الخطابات، أننى كنت أتبادل معه الخطابات الحميمة، أو

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

حتى أننى كنت صديقه. بيد أننى فى الواقع كنت كارهاً للأمر برمته، وحاولت إثباط أهمية المكاتبات بيننا... أما ما حدث أخيراً فى فارنبورو من اكتشاف لأمره، فكان نتيجة إهمال وزارة المستعمرات فقط، وولع لورانس، المؤسف بإسدال حجاب من الغموض حوله».

وبدأت النهاية فى نوفمبر حينما نقل لورانس فجأة من أكسبريدج إلى مدرسة القوات الجوية الملكية للتصوير فى فارنبورو. وفى البداية سره هذا، وكتب إلى سوان قائلاً إنه أوشك أن يحرق المعسكر من فرحته لدى علمه بأنباء نقله. إلا أنه سرعان ما تغيرت حالته المزاجية لدى وصوله إلى موقعه الجديد إذ اكتشف أن برنامج التصوير الحالى قد بدأ بالفعل وأن عليه الانتظار حتى يناير قبل أن ينظم فى البرنامج التالى. واشتكى إلى سوان موضحاً أنه إذا لم يبدأ تدريبه على التصوير فوراً فإنه يرغب فى الانتقال إلى موقع آخر. واعترف أنه استراح لنقله من أكسبريدج وذلك لأن الجانب الجسدى من التدريب كان مرهقاً، وأنه رغم أن فارنبورو كانت «منتجعاً بهيجاً» بالمقارنة، إلا أنها لا تمثل القوات الملكية الجوية التى أراد الكتابة عنها، وأنه بدون تدريبه على التصوير، سيصيبه الملل. وشغل هناك مكانا كضابط مناب فى مكتب المعاين إلى أن وصل أمر من القائد العام للقوات الجوية أن يقيد «روس» الجندى من الدرجة الثانية فى برنامج التصوير الجارى. وكان معظم المتدربين فى مدرسة التصوير قد علموا آنذاك عن شخصية «روس» السرية، وعن وجود شخصية دولية مرموقة متخفية بشكل غير كامل كمجنّد متواضع بينهم، مما أقلق الضباط الذين شكوا أنه قد زرع وسطهم كجاسوس لوزارة الطيران. واستمر لورانس فى عرض معاناته المفروضة ذاتياً فى صفوف المجتمع الراقى. فمثلاً، كتب إلى إى. إم. فورستر أنه كان يكره «الحياة القذرة» فى الشكنات، وأنه لا يحتمل التفكير فى حياة الفقر الممتدة أمامه. واعترف أنه كان يخشى زملاءه جسدياً، ويكره ضوضاءهم، وحيويتهم. إلا أنه أصر، وكأنه يستجدى التناقض، على أنه مثلهم تماماً، وأعلن أنه لا يرغب فى ترك القوات الجوية لأية وظيفة أخرى.

وكان أثر هذا مثل أثر رجل يقوم بسجن نفسه فى زنزانة قذرة ثم يصيح من

خلال القبضان ناعياً الظروف المريعة فى الزنزانة ويقول فى نفس الوقت إنه يجد فى المكان مكانه الحقيقى وأنه على استعداد لفعل أى شىء كى لا يغادر المكان . ومن الواضح أن لورانس لم يكن ملتزماً بالبقاء فى صفوف المجندين ، كما ادعى . وفى الواقع ، فإنه غدا مستفزاً بشكل معلن مع الضباط فى فارنبورو (حدث أنه لدى انتقاد أحد الملازمين أدائه أن أجابه لورانس بالعربية والإغريقية القديمة مما جعل الضابط مضحكة الرجال الآخرين) . وعلى حين أنه ادعى أن أحد الضباط قد خانته وكشف سره للصحافة ، فإن الأمر الأكثر احتمالاً هو أنه قد كشف بنفسه عن هويته . وفى الواقع ، فقد كان قد شرع فى إذاعة اسمه المستعار وعنوانه دون حذر . وفى إحدى نوبات تدمير الذات ، كتب إلى ر . د . بلومفيلد ، رئيس تحرير الديلى إكسبريس ، وأعطاه التفاصيل الكاملة لتجنيدته وتوسل إليه ألا يذيعها على الملأ . وكان هذا طلباً يستحيل أن يوفى به صحفى محترف ، وقد يكون بلومفيلد قد أدرك أن لورانس كان يومئذ إليه ، ضمناً ، بضوء أخضر . كما أنه من المحتمل أن بلومفيلد قد ألح لأحد محرريه بتلك التفاصيل ، لأن الإكسبريس نشرت فى صفحتها الأولى من عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ خبراً عنوانه «ملك غير متوج عسكري مجند» ، وكشفت للعالم عن مخبأ لورانس ، وجعلت من الخيال له أن يستمر فى القوات الملكية الجوية . ولأسفه الظاهرى ، أجبر لورانس على مغادرة القوات الجوية فى يناير عام ١٩٢٣ . إلا أن إحباطه كان حقيقياً حينذاك ، لأنه فى تلك الأثناء ، كان قد تعلق بطيار شاب أشقر جذاب المظهر يدعى ر . إن . جاي ، الذى شبه أحد زملائه جماله الوضاء بجمال إله إغريقى . ووصف لورانس نفسه جاي بأنه «ملائكى» ، إلا أنه ، من قبيل الاستعلاء قال إن لكنة برمنجهام الفجة تفسد هذا الجمال ، وكأنما من الطبيعى أن تتحدث الآلهة الإغريقية بلكنة أكسفورد . ومثلما رأى لورانس أن تعلقه بالقضية العربية كان إلى حد ما ، تعبيراً عن علاقته بداهوم «النبيل» ، فقد بدأ إعجابه بالقوات الجوية كتنظيم ينمو مع تقدسه لجاي . واعتقد أن جاي يجسد الأفضل بين صفوفها ، وسرعان ما بدأ حماسه لسمو شباب القوات الملكية الجوية اللانهائى عن غيرهم من رجال القوات المسلحة . ورغم احتمال الطبيعة الأفلاطونية لعلاقته مع جاي ، كما كان الحال مع داهوم ، فإنهما حينما أجبرا على الافتراق ، كانت قد نمت بينهما حميمية عاطفية .

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

وكتب لورانس، فيما بعد، إلى جاي قائلاً «أنا وأنت.. كنا جد مختلفين.. وتطلب الأمر سيرورة بطيئة، وعطوفة، وملحة مثل عملية الإقامة فى الشكنات، كى تصهرنا معاً صهراً مريحاً. فلا يصبح الناس أصدقاء حتى يقول كل منهم ما يستطيع قوله، وحتى يكتنهم الجلوس معاً، أثناء العمل والراحة، دون حديث... ولم نصل إلى هذه المرحلة تحديداً أبداً، لكننا كنا نقترّب منها يومياً. وبما أن س. أ قد توفى.. فلم تكن ثمة مخاطرة من حدوث ذلك».

طلب لورانس من ترنشارد، ومن وزير الطيران سام هور، إعادة تجنيده إلا أن مدة تسجيله كانت قد انتهت. ورغم أن ألبابه الخاصة بمكانته كانت مصدر تسلية له، إلا أنها كانت ضارة بجدية النظام فى القوات الجوية. ورد ترنشارد بأنه سيعيد النظر فى الأمر فقط إذا طلب لورانس تعيينه كضابط... إلا أن هذا كان سيفسد على لورانس التأثير الذى يطلبه. وبحلول شهر فبراير كان قد نجح فى جذب الخيوط فى مكتب الحرب بمساعدة آلان داوْنى الذى كان قائد القنفذة وزميله أيام الحرب، والجنرال فيليب شتوود قائد طابور الصحراء فى فلسطين. ومن ثم، نجح فى أن يعاد تجنيده كجندى فى سلاح الدبابات الملكى. وفى مارس، وقع لورانس بالاستلام لفترة تجنيد قدرها سبع سنوات فى معسكر بوفنجتون فى دورست تحت اسم مستعار آخر وهو تى. إى. شو. إلا أنه لم يلحق بصفوف الجندين بمفرده هذه المرة، لأنه حينما دخل غرفة الحراسة فى بوفنجتون، كان برفقته شاب طويل أسكتلندى صارم المظهر، يدعى جون بروس، وكان قد التحق معه بالجيش كتابع له.

كان لورانس قد التقى ببروس فى لندن عام ١٩٢٢ بينما كان مازال يعمل فى مكتب المستعمرات. وحدث اللقاء فى شقة رجل يدعى إدوارد مرى فى ماى فير، وكان حينذاك يحاول إلحاق الشاب الأسكتلندى الذى كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، بوظيفة ما. وفى لقاءهما الثانى، كشف لورانس لبروس عن شخصيته وقال إنه كان يبحث عن شاب قوى متيقظ يمكنه الوثوق به وكشف أمور على قدر كبير من السرية له. واعتقد بروس أنه شخص لزق وأجابه بأنه غير مؤهل لذلك. بيد أنه كان فى شدة الحاجة للعمل، وعرض عليه لورانس مرتباً سخياً قدرة ثلاثة

جنيهاً شهرياً كخادم له. وفي لقاءاتهما التالية جعل لورانس بروس يقسم على السرية التامة، وبدأ بإخباره بقصة خيالية طويلة ادعى فيها أنه واقع تحت سيطرة قريب له دعاها «الرجل المسن». وكانت فحوى القصة أنه مديون وواقع تحت ضغط من البنك الذي يتعامل معه، ولذا قرر أن يؤلف كتاباً على أمل أن يكسب من النقود ما يمكنه من تسديد ديونه ثم يتقاعد في الريف. وأخبره أنه تقدم إلى بنك تجارى طالباً قرضاً يعيش منه أثناء عمله على تأليف الكتاب إلا أن البنك طلب منه أن تكون له حقوق ملكية الكتاب وأن يوجد من يضمنه. وأضاف أنه حينما توفي والده عام ١٩١٩ ورث «الرجل المسن» نقوده، وطلب منه أن يضمنه. ووافق الرجل في البداية، إلا أنه حينما اكتشف أن لورانس ترك وظيفته في مكتب المستعمرات عدل عن رأيه ودعى لورانس «بابن الحرام» وألقى به قائمة طويلة من الاتهامات والخطايا من بينها إهانة الملك جورج في قصر باكنجهام، وهدم منصب اللورد كيرزون وإدارة ظهره لخالقه، وتلطيف اسم عائلته في الوحل. وقال لورانس إن «الرجل المسن وافق على أن يتولى أموره المالية ويدير شأن ديونه بشرط توليه «كل الأمور الأدبية». وفي حالة عدم موافقته فسيذيع الرجل ظروف مولده. ومن ثم، أوجب عليه الحد من أنشطة حياته، والالتحاق مجدداً بالجيش أو القوات الجوية، وقضاء وقته إما في الكتابة أو في أنشطة الجندية. وأنه لن يسمح أن يكون له أصدقاء من المستوى الرفيع سوى الأشخاص الذين يمارسون الكتابة. وأبلغ لورانس بروس أنه قد أقسم على الإنجيل أن يحترم كل رغبات «الرجل المسن»، وذكر أن الأمر قد يتطلب توقيع عقوبة جسدية عليه. وساورت الشكوك بروس، لا لأنه لم يصدق القصة، بل لأنه كانت تفصله عن لورانس فروق اجتماعية رهيبة، وعجب لسبب اختيار لورانس له لأداء هذه الوظيفة تحديداً، وأوضح له لورانس أنه لا يستطيع الوثوق بمعظم أصدقائه، وأن القليلين من الذين يستطيع الوثوق بهم كانوا على مستوى رفيع جداً، إلا أنهم قد يكونون على استعداد للمساعدة نظير استفادة شخصية وقال لبروس «أنت لا تعرف طبيعة هذه الاستفادة، ولن يثبطك ألا تستفيد شيئاً». ثم بعث به إلى بلده أبردين وأخبره أنه سيستدعيه عندما يحتاجه.

وأثناء وجود لورانس في أكسبريدج وفارنبورو، كان أحياناً يتبادل الرسائل مع

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. نلدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

بروس ويخبره عن مدى بغضه للقوات الجوية، كما أخبره أن «الرجل المسن» كان يعتقد أن هذه الحياة ليست بالقسوة المطلوبة، وأنه ليس من حقه أن يكون هناك إذ إن الرجل قد اتخذ الإجراءات لإحماقه بالجيش. وفى نوفمبر، طلب من بروس الحضور إلى فارنبورو. وحينما التقيا أخبره أنه تلقى عصا من النبولا وأن الرجل المسن يريد أن يضرب بها عدة ضربات على ردفه «كعقوبة لغشه إياه» والتحاقه بالقوات الجوية بدلاً من الجيش. إلا أنه قبل إرساله «العقوبة» كشف أمر تخفيه فى شخصية «روس» للصحافة، ومن ثم، أجبر على ترك الخدمة. وأخبر بروس أن «الرجل المسن» قد دفع مبلغ ثلاثين جنيهاً لضابط فى فارنبورو ليكشف القصة للصحافة. ثم فقد بروس صلاته بلورانس لبعض الوقت، لكنه حضر فى يناير عام ١٩٢٣، إلى لندن ليعمل فتوة فى أحد الملاهى الليلية، وترك رسالة للورانس بهذا المعنى فى شقته التى كان قد استعارها فى شارع بارتون. وبعد أيام قلائل ذهب لورانس للقائه وكان يبدو متسخاً، مهلهلاً، مريضاً، ومنهكاً. وأبلغه أنه كان ينام لعدة ليال فى مكان وعر، وكان فى واقع الأمر ينام فى العربة الجانبية الملحقة بالدراجة البخارية التى كان قد ابتاعها أثناء خدمته فى القوات الجوية. وأخبر لورانس بروس أن «الرجل المسن» كان يضغط عليه لالتحاق بسلاح الدبابات الملكية. وطبقاً لما قاله بروس، فإنه قرر التطوع بالجيش ليكون مع لورانس.

ومن المحتمل أن يكون شخص ما، ذو سلطة فى الجيش، قد علم عن العلاقة بين لورانس وبروس، إذ إن بروس قال إن تجنيده فى أبردين كان قد سبق الترتيب له. وأخبره لورانس أن عرضه لقي قبول «الرجل المسن» وأنه سيكتب إليه مباشرة بمجرد أن يتم تجنيدهما. وفى بوفينجتون أعطيا رقمين مسلسلين متتابعين وسريرين متجاورين فى نفس الكوخ. ولم تكن أزيائهما العسكرية على مقاسيهما، وأوكلا إلى فرقة من عشرين جندياً لتدريب مدته ستة عشر أسبوعاً. وكتب بروس «قمنا بتكوين رأى عن كل فرد فى الفرقة، وكانت مهمتى مراقبة الأشرار منهم، خاصة السكيرين، الذين كانوا كثيراً ما يقربون لورانس من أجل النقود... وحدث أن دخلت الكوخ ذات مرة لأجد أحدهم يهيل الشتائم القذرة على لورانس لأنه رفض منحه جنيهاً فقفزت عليه سريعاً وحدثت مشادة كبيرة». وبعد هذا، استأجر

لورانس كلاودز هيل، وهو منزل صغير مجاور للمعسكر، كملاذ من الحياة في الشكنات التي لا تكاد تحتل. وحدث هناك، عام ١٩٢٣، أن قام بروس بضرب لورانس لأول مرة. وعملت ترتيبات الضرب بدقة الطقوس. فبدأ لورانس بإخبار بروس أن «الرجل المسن» قد قرر أنه يجب أن يُعاقب، وأنه قد حكم عليه باثنتي عشرة ضربة. وهنا سلم إلى بروس خطاباً منسوخاً على الآلة الكاتبة وادعى أنه من «الرجل المسن»، يخبره فيه بأن يتسلم العصا من محطة السكك الحديدية المحلية وأن يقوم بتنفيذ العقوبة، ثم يقوم بكتابة تقرير بتنفيذها، ويصف سلوك لورانس أثناء الضرب. وفي البداية، أعلن بروس أنه لن يكون له شأن بهذا، إلا أن لورانس أصر على التنفيذ. وبما أن لورانس بدا راغباً في هذا، فقد وافق بروس في النهاية وقام بتنفيذ «الحكم» عصر ذاك اليوم، إلا أن «الرجل المسن» لم يرض لأن لورانس تلقى الضربات الاثنتي عشرة على الردفين وهو مرتد سرواله، فكان على بروس أن يعيد الكرة بعد أن تجرد لورانس من ملابسه. وقال بروس «وبعد أن فرغت من ضربه اثنى عشرة مرة قال لى لورانس «اضربنى ضربة أخرى على سبيل الحظ». وكان الأمر مثيراً للغثيان. فقد كانت العصا تخترق الجلد وتمزق الأوعية الدموية حتى سالت دماؤه. وكان هو يرقد مكانه ويجز على أسنانه. ولم يتحرك أبداً. أما السؤال عما إن كان هذا هو الضرب الأول الذى تلقاه لورانس فيظل دون إجابة. ومن الغريب أن بروس أكد أنه «لم ير ندبات أخرى»، رغم ادعاء و. إي. جونز أنه قد رأى «عدداً كبيراً من الندبات حديثة العهد على ظهر لورانس» فى مكتب التجنيد منذ أقل من سنة. وقال روس أيضاً إنه لم يكن الشخص الوحيد الذى قام بضرب لورانس بهذا الأسلوب لأنه اكتشف فيما بعد آثار ضرب بالعصا على ساقى لورانس أثناء عملهما معاً فى صالة للألعاب فى بورنماوث وأن لورانس أخبره أن ثمة «شخصاً آخر يعمل لحساب «الرجل المسن» قد أنزلها به». وقد قام بروس فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٥ بضرب لورانس فى تسع مناسبات فى كلاودز هيل وشارع بارتون وفى منزله بأبردين وأماكن أخرى فى أسكتلندا. وقد حدث هذا، فى مناسبة واحدة على الأقل، فى حضور شاهد. وبالإضافة إلى هذا، كشف فيليب نايتلى وكولين سيمبسون، مراسلا الصنداي تايمز اللذان أخبرهما بروس بالقصة، فى مقال لهما عام ١٩٦٨، أنهما يعرفان رجالاً آخرين استؤجروا لجلد لورانس، رغم

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

أنهما لا يعرفان إن كان هذا قد حدث قبل بروس أو بعده، أو فى تزامن معه. فإذا كان جونز قد رأى «ندبات» حديثة، على ظهر لورانس عام ١٩٢٢، يصبح من المحتمل أن اضطراب الجلد قد بدأ مع لورانس قبل لقائه ببروس فى وقت مبكر من ذاك العام. إلا أنه من المحتمل أيضاً زيف مقولة جونز، إذ كان بروس يضربه على الردفين باستمرار، لا على ظهره، مما يوحي بعنصر جنسى حاول مؤرخوه كبته، رغم أن بروس أكد باعترافه أن لورانس كان يصل لدرجة الذروة الجنسية كنتيجة للضرب. كما أن محاولة مؤرخيه «إضفاء القدسية» على مازوكية لورانس باقتراحهم أنه كان يحاول أن يحاكي ممارسات قديسى العصور الوسطى تصطدم بهذه النقطة، فإن من كانوا يجلدون أنفسهم من قديسى العصور الوسطى كانوا يفعلون هذا على ظهورهم، لا على أردافهم.

وقد زعم البعض أن اضطرابه هذا كان نتيجة لما حدث له فى درعا، إلا أنه على حين أننا لا نملك دليلاً يدعم ادعاء قبض الأتراك على لورانس وضربهم إياه عام ١٩١٧، فإننا نعلم علم اليقين أن سارا كانت تضربه بشدة على ردفه وهو طفل، وأنه كان قد كشف عن ميول مازوكية مميزة كصبي، ومن ثم، فاضطراب الجلد فى الحقيقة كان ذروة حياة سادتها فانتازيا المازوكية وتحقير الذات اجتماعياً وجسدياً، وأصولها لا توجد فى درعا، مهما كان ما حدث أو لم يحدث، بل فى علاقة لورانس بأمه فى سنواته الأولى. فقد كانت درعا، فانتازيا كانت أم حقيقة، مجرد تعبير واحد عن سيرورة يمكن تتبعها مباشرة من شارع بولستيد فى تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى كلاودز هيل فى عام ١٩٢٣. بيد أن ما يثير الاهتمام فى قصة بروس هو الأضواء التى تلقىها على مناحى أخرى فى شخصية لورانس. فإن هذه البنية الضخمة من الفانتازيا التى أخبر بها بروس، هى كذبة محسوبة من أولها إلى آخرها، إلا أنه قدمها بتفاصيل مذهشة مترابطة، فقد اخترع «الرجل المسن» وجعله يرأس بروس ويكتب له عشرات الخطابات التى كان لورانس هو الكاتب الحقيقى لها. وقد أحب بروس لورانس وأعجب به وكان فخوراً أنه تمكن من مساعدته. وحتى بعد وفاته، رفض الرجل الأسكتلندى أن يصدق أنه كذب عليه عن عمد وظل يعتقد لمدة خمسين عاماً فى وجود «الرجل المسن». وربما كان بروس ساذجاً عديم الخبرة، أعجبهت بلاغة لورانس وأبهره عقله وذكاؤه. إلا أنه لم

يكن غيبياً. وكان هذا تعليقاً لا يعلوه تعليق على موهبة لورانس على الاختراع والتلاعب بالآخرين والإقناع. فقد استطاع إقناع إنسان آخر بوجود شخصية كانت من مجرد اختراعه، وأن يبقى على الفانتازيا ثلاثة عشر عاماً دون أن يكتشف أمره. وعن قصة «الرجل المسن» كتب آرني لجون ماك قائلاً: «طبقاً لفهمي الضئيل للحرب النفسية التي امتلك لورانس من أساليبها الكثير، يصبح التمويه المبالغ فيه أكثر معقولية كلما اقترب من الواقع، رغم عدم مقدرة الجمهور على معرفة هذا الواقع، ومن هذا المنطلق (كان لورانس) يعطي الكذب أساساً مختلطاً من الواقع». إلا أنه لم يخطر ببال آرني وماك أن يكون لورانس قد ألف كذباً مؤسساً على واقع مشوه في فترات أخرى من حياته... كوصفه لحادث درعا المزعوم مثلاً. كما لم يخطر ببالهما أن لورانس في هذه الحالة لم يكن يحارب الأتراك، بل كان يخدع شاباً سليم الطوية منحه ثقته واعتقد أنه صادقاً وكرس جزءاً كبيراً من حياته لمساعدته.

ورغم أنه كانت للورانس صداقات طوال حياته مع مشاهير من أمثال توماس هاردى وجورج برنارد شو وإي. إم. فورستر وروبرت جريفز وكثيرين غيرهم، إلا أنه لم يشعر بالأمن الحقيقي سوى مع ذلك الشاب الأسكتلندي غير المتعلم. وظل بروس قريباً من لورانس طوال ما تبقى من حياته. بيد أنه أصبح موضع سخرية من آرني وبوب بعد وفاة لورانس وعومل كما لو أن لورانس كان ضحيته. وحتى تشارلوت شو، قد لحقت بالمؤمراة وحاولت إسكاته. وكتب بروس «كانوا على استعداد لفعل أى شيء يمنعوا سبب صداقتنا من أن تصبح ملكية عامة.. لقد كان لديهم إحساس كبير بأهميتهم لدرجة ظنوا معها أنني بندقية يسهل كسرها.. ولو أنهم نجحوا ما كان لهذه القصة أن تروى أبداً».

وكان بروس تعيساً في الجيش، ومن ثم فقد ترك الخدمة سريعا رغم أن لقاءاته ولورانس استمرت بعد ذلك على فترات. ولم يستطع لورانس نفسه أن يستقر في سلاح الدبابات، وبدأ يتباكى على سلاح الطيران. فكتب خطابات إلى ترنشارد وهور أخذت نغماتها تتعالى حتى وصلت إلى التلميح بالانتحار. وحدث ذات مرة، بينما كان ضيفا في بيت ترنشارد في أثناء خدمته في سلاح الدبابات أن هدد بأن

الفصل الحادي العشرون، نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

«ينهى كل شيء» في التو واللحظة»، وعندها، ابتسم ترنشارد وقال له إنه، إن لم يكن لديه مانع، فليفعلها في الحقيقة لأنه لا يود أن تلوث سجاجيده. وفي مناسبة أخرى أجبر بروس أن يضرب يده بعنف على الحائط لينزع المسدس حينما أعلن أنه سيطلق الرصاص على نفسه وتذكر بروس أن لورانس انفجر في البكاء حينذاك. فلم يكن عدم رضاه عن الجيش، بل عن نفسه، وعن حاجته الدائمة «للبحث عن اللذة بالطرق المنحطة». ومرة أخرى وجه ناظره إلى القوات الجوية. وفي شهر يونيو عام ١٩٢٥ كتب إلى إدوارد جانت قائلاً «لا أصلح للحياة.. وسأهيك مذكراتي عن الحياة في معسكر المجندين في القوات الجوية. وستحبك هذه المذكرات» وانزعج جانت، وكتب خطاباً إلى جورج برنارد شو الذي بعث بالخطاب إلى ستانلي بولدوين رئيس الوزراء ومعه بطاقته. وأوحى أن انتحار لورانس سيتسبب في فضيحة خاصة وأن كتاب لويل توماس «مع لورانس في بلاد العرب» كان قد نشر لتوه ولقى استحساناً جماهيرياً. ودعمه جون بتشان، الذي كان لورانس قد أمسك به في الشارع ذات مرة، وطلب منه العون، وتدخل بولدوين شخصياً. وفي أوائل شهر يونيو بعث ترنشارد إلى لورانس يخبره أنه سيتم نقله مرة أخرى إلى القوات الجوية.

وحينذاك شعر لورانس أنه قد نال كل ما أراد. وأذعن لوضعه كشخص عادي وثابر على هذا بإخلاص على مدى السنوات العشر التالية. ومن ثم، عُيّن في كلية الطلبة العسكريين الجوية في كرانويل بليتكولنشاير وكان هذا أحد أكثر الأماكن راحة واستمر يعمل في كتابيه «أعمدة الحكمة» و«ثورة في الصحراء» ويراجع مذكراته عن حياة المجندين في القوات الجوية التي نشرها فيما بعد بعنوان «دار صك النقود». ثم نقل إلى كراتشي بالهند عام ١٩٢٦ بناء على طلبه كي يتحاشى الضجة الإعلامية التي توقع أن ترافق ظهور «ثورة في الصحراء» وطبعة المشتركين من «أعمدة الحكمة». ورغم أن الكتابين حققاً نجاحاً مادياً فقد قرر لورانس ألا يتكسب من وراء الثورة العربية وتبرع بالنقود للصندوق التذكاري للقوات الجوية. وفي نوفمبر عام ١٩٢٧ عُيّن في موقع على تل صغير في ميرانشاه قرب حدود أفغانستان. ثم حدث تمرد في أفغانستان خلال عامي ١٩٢٧ - ١٩٢٨ وورطته إحدى الصحف البريطانية وتدعى الإمباير نيوز بأن نشرت أنه كان يعمل

كقنصل بريطاني متخف كشخص مقدس هناك . وأعيد طبع المقال في الهند وأدى إلى قلاقل ضُرب فيها شخص مقدس حقيقى على أنه لورانس حتى أوشك على الموت . وأصبح الموقف محرّجاً للحكومة البريطانية . ومن ثم تم نقله جواً في ٩ يناير ١٩٢٩ إلى كراتشى ثم إركابه بعد أيام قليلة السفينة س . س . راجبوتانا المتجهة إلى بلايموث . وعاد لورانس من الهند علناً . وتبعت الصحف من أول دقيقة وصل فيها إلى بريطانيا . وأصبحت خدمة «لورانس العرب» في القوات الجوية حقيقة معلنة . وكان لورانس يدرك أن مزيداً من الإثارة في الصحف قد تؤدي إلى القضاء على وضعه كمجند إلى الأبد . وحاول ألا يظهر علناً لفترة من الوقت . وشأن شخصيات عامة كثيرة في القرن العشرين ، كان لورانس يكره الصحافة فقط حينما لا يستطيع التحكم فيها . وكان ، كدعائى موهوب ، يدرك سطوتها منذ وقت مبكر في حياته . وفي عام ١٩١١ كان قد أسعده توظيف صحيفة التايمز من أجل التلاعب بالرأى العام ولكي يحصل لنفسه على وظيفة جيدة بأسلوب غير مباشر . ثم خاض معارك في الصحف بعد الحرب مباشرة من أجل إيجاد مساندة لآرائه عن قضية الشرق الأوسط . أما بعد كارثة الهند ، فقد بدأ يستوعب طبيعة الصحافة الحقيقية كسلاح ذى حدين .

وكانت سنوات لورانس الست الأخيرة في القوات الجوية أكثر سنوات حياته إرضاء . فقد كان قد وصل إلى أواسط العمر ، وأصبح سميك البنية واختفى الملمح «البناتى» من شخصيته . واستمر تقلب مزاجه بين الابتهاج والاكتئاب ، وتنقله بين غرفته في الشكنات وبين أصدقائه ذوى السطوة والثراء ، واستمر أيضاً فى سعيه وراء التخفى وهو متأكد أن الجميع كانوا يعرفون ذلك . أما فى أوقاته الأكثر اتزاناً ، فكان يشعر بالتوافق مع العالم . وكتب «إننى أقيس نفسى على الأشخاص الذين التقى بهم وأعمل معهم وأجد نفسى شخصاً عادياً ، لكننى نابه وعاقل . وبإمكانى القول أيضاً أننى أمتنع بشعبية» . فقد وجد ، بشكل جزئى على الأقل ، حساً بالاجتماع ؛ حساً بالانتماء «إلى المخلوقات العادية» ولم يعد يشعر بعدم الانتماء وسط الآخرين من الرجال . ومن ثم ، أخبر أحد الأمريكيين الذين كان يتراسل معهم أنه لا يوجد فى العالم أبطال حقيقيون وأنه قد بدأ يرى التماثل بين البشر ، لا التمايز . واعترف ، هذا الرجل الذى كثيراً ما شعر بالخرج من مظهره أن الفرق بين «الرجل

الفصل العاشر: نسرع.. لنلذع بأنفسنا خارج أجسادنا

الكبير جداً» و«الصغير جداً» هو مجرد بضع بوصات، وأن هذا الفرق يبدو ذا أهمية فقط للآدميين.

وفى البداية، تم تعيينه فى القوات الجوية بكاتووتر أون بلايموث ساوند، حيث نمت بينه وبين قائد الجناح سيدنى سميث وزوجته كلير صداقة حقيقية، وفيما بعد، عقب أن شاهد تحطم الزورق الطائر أيريس وقتل أفراد طاقمه الثمانية، شغل نفسه بحماس لتحسين أداء زوارق النجدة السريعة. واكتشف أن لديه موهبة خاصة فى الميكانيكا دعمها ولعه بالسرعة، وقد مارس هذا الولع بكثرة بالإبحار على زورقه الخاص الآلى بيسكيت، أما على البر، فقد أراضى هذا الولع عن طريق دراجته البخارية القوية «بونرجس» من طراز بروسبيرور. وقد بدل لورانس، خلال سنوات، سبع دراجات بخارية من هذا الطراز، والتي كانت، حينذاك، من أقوى الدراجات البخارية. وكانت السرعة إحدى الرفاهيات القليلة التى أشبع ميله إليها إلى درجة الإفراط. وأيضاً، فقد شعر أنه لا يستطيع استعادة الإحساس المكثف بالوجود الذى خبره أثناء الحرب إلا وهو مسرع. فقال لروبرت جريفلز «حينما أَدفع بمركبتى.. بسرعة ٨٠ ميلاً أو شىء من هذا القبيل، أشعر أن الأرض تتشكل تحتى.. وتكاد الحياة تبعث فيها، فتعلو وتنخفض وتتمايل على كل جانب كالبحر. إن هذه مكافأة السرعة.. وبإمكانى أن أكتب لك صفحات وصفحات عن شهوة الحركة السريعة». وكان بإمكانه، بينما هو مسرع، أن يتسامى على الجسد، ذلك الجزء الذى طالما احتقره وحاول كبه وكتب فى إحدى محاولاته القليلة لنظم الشعر: «حينما نسرع، نلقى بأنفسنا خارج أجسادنا.. لا نستطيع أجسادنا أن تتساق إلى السماء سوى فى سحابة بترول... العظام. الدم. اللحم. مضغوطة كلها داخلياً معاً».

واستمر يلتقى ببروس بين حين وآخر، ويدعو زملاءه السابقين فى القوات الجوية وسلاح الدبابات لحضور حفلات موسيقية فى كلاودز هيل فى عطلات نهاية الأسبوع. واستمر أيضاً فى كتابة عشرات الخطابات إلى الفنانين والكتّاب ومؤلفى الموسيقى وزملائه السابقين. وكون صداقات جديدة بين ذوى السلطة الذين كان ضمنهم نائب بلايموث فى البرلمان، نانسى آستور، وعضو البرلمان

العمالي عن شورديتش، إرنست ثيرتل. كما أصبح في وضع الابن البديل لجورج برنارد شو، ودخل في حوارات أدبية تتميز بالحيوية في مئات الخطابات التي تبادلها مع زوجته تشارلوت شو. كما مارس كتابة عروض الكتب وكتابة المقدمات لها، ثم شرع في ترجمة للأوديسة عن الإغريقية القديمة لناشر أمريكي، إلا أنه أصر على أن تنشر في إنجلترا بدون اسمه، ثم كشف للمؤسسة الأدبية أنه يقوم بالعمل، وهدد بالتوقف حينما تسربت الأخبار للصحافة كأمر حتمي. ورغم أنه كانت تراوده أحياناً أفكار لتأليف المزيد من الكتب، إلا أنه لم يكتب شيئاً بعد «دار صك النقود» ذلك الكتاب الذي شعر ترنشارد أنه يدمر سمعة القوات الجوية وطلب منه أن يوقف نشره إلى ما بعد وفاته. وأيضاً، فقد صادق على سيرتين له كتبهما روبرت جريفز وباسيل ليدل هارت بعد أن دقق في كل كلمة تقريرياً، وطلب من كليهما نشر هوامش تعلن أنه لا علاقة له بالكتابين إطلاقاً، ثم شرع يشكو إلى معارفه من أن الكاتبين سمحا لنفسيهما «بتحريفات فنية» أكثر مما يتطلب الأمر. وانتقد هارت، الذي كان يكن له الإعجاب بإخلاص، لأنه وقع أسير السحرة وفشل في اتخاذ موقع موضوعي من المادة، وسخر، من السيرة التي كتبها داعياً إياه «المديح III». وبدأ أيضاً يكتشف أنه رغم اعتقاده بأنه كاتب، فإن الحافز الإبداعي ينقصه. وكان يدرك أنه يملك فقط كل حيل الكتابة. إلا أنه لم يكن لديه شيء آخر يقوله. وأحياناً كان يؤدي هذا الإدراك إلى أن تمتلك منه حالات من القنوط والكتابة، فكتب «لا أعتقد أن الحياة بهيجة، ولا أحب أن أشعر أنني تسببت في أن أتى بشخص إلى هذا العالم ليخبر أوقاتاً مثل التي خبرتها ومازلت أعاني منها... لم أجد بعد مبرراً لمواصلة الحياة، إلا أن المرء ليس بمقدوره الرحيل إنها حالة مؤسفة». وأصبحت محطة القوات الجوية عالمه حينذاك، وأحياناً سجنه، فقد كان يملكه الخوف والتردد خارجها. وأخبر صديقاً جديداً له، وهو الكاتب هنري ويليامسون، بأنه يشعر كساعة حائط توقف زبركها. وعرف أيضاً أنه لا ينتمي وأنه وجد ركناً له فقط في الظروف غير العادية للثورة العربية. فقد كان حينذاك الرجل المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب. وكسب الحرب في الصحراء، واستعاد بعض الحرية للعرب بعد أن فقدوها لمدة خمسمائة عام، وقام بتأليف كتاب رائع عن تلك التجربة، كتاب لن يطويه النسيان. وأصبح أكثر

الفصل الحادى العشرون: نسرع.. نندفع بأنفسنا خارج أجسادنا

الرجال شهرة فى عصره . فقد كان ظاهرة . إلا أنه خلافاً للفنانين والكتّاب والشعراء ، فلن يتكرر إنجازهِ الوحيد أو يتحسن . ومن ثم كتب إلى السير إدوارد إلجار عام ١٩٣٢ بأسى «إن لديك حياة كاملة من الإنجازات ، لكننى مجرد وهج فى مقلاة» .

وفى ٢٢ فبراير عام ١٩٣٥ ترك لورانس الخدمة فى القوات الجوية ، وقاد دراجته البخارية من طراز برو من آخر مكان عين فيه فى برلنجتون بلينكولن شاير إلى كلاودز هيل . وكتب «إن فقدانى سلاح الطيران يفقدنى معه الحس . ومن ثم لم يصبح لدى من الأحاسيس ما يمكننى التفريط فيه ، لبعض الوقت . وفى الواقع ، فكثير ما تعتربنى الرغبة أن تسدل ستائر حياتى ، فالأمر يبدو وكأننى قد انتهيت . . الآن» . إلا أن الصحافة كانت قد علمت بتقاعده واقتفت أثره طوال الشهر التالى وتسببت فى اتعاس حياته إلى أن وصل إلى ترتيبات معينة مع أصحاب الصحف المختلفة أخذ بعدها الصحفيون فى التباعد عنه . وفى أبريل ، كان وحيداً ، وبدأ فى التخطيط لرحلة صيفية حول بريطانيا بالدراجة البخارية . كما فكر فى كتابة سيرة للسير روجر كيسمنت الشخصية الوطنية الأيرلندية . وبدأ فى دعوة أصدقائه إلى كوخه . ثم كتبت إليه نانسى آستور مُلمحة إلى احتمال تعيينه فى وظيفة حكومية ، أو حتى إكمال مهمة إعادة تنظيم قوات الدفاع البريطانية له . فكتب إليها قائلاً إن الخيول البرية لن تستطيع جذبه خارج كلاودز هيل . وأخبرها أنه قد فقد إرادته «فقد حدث كسر ما فى كيائى» .

وفى ١١ مايو عام ١٩٣٥ ، انطلق لورانس بدراجته البخارية «بونرجس» باتجاه قرية بوفينجتون لإرسال طرد كتب ، وإرسال برقية إلى هنرى ويليامسون لدعوته إلى تناول الغداء معه يوم الثلاثاء التالى . وكانت هذه آخر مرة يركب فيها «لورانس العرب» دراجته . ففى حوالى الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة انطلق بالدراجة عائداً إلى الكوخ . وكان الطريق بين بوفينجتون وكلاودز هيل مستقيماً ، وتميزه سلسلة من المنحدرات التى كانت إحداها تخفى صبيين من قائدى الدراجات وهما فرانك فلتشر وبيرتى هارجريفز . اللذان كانا يقودان دراجتيهما فى نفس الاتجاه . وغير لورانس سرعته مرتين مبطناً إياها ليقطع المنحدرات ، وسمع بات

نويلز ، جاره وصديقه الذى كان يعمل فى حديقته فى مواجهة كلاودز هيل صوت ناقل الحركة الواضح. أما ما حدث تحديداً فى اللحظات التالية ، فقد ظل ، مثل أمور كثيرة فى حياة لورانس ، غامضاً. فقد ادعى الصبيان أنهما سمعا بوضوح صوت الدراجة البخارية قادمة وعمداً إلى قيادة دراجتيهما فى صف واحد. أما العريف كاتشوبل من سلاح المعدات الحربية الملكية الذى كان ينزه كلبه فى الأرض الخربة غرب الطريق ، فقد أخبر هيئة التحقيق فيما بعد أن لورانس كان قد تخطى عربة سوداء كانت قادمة من الاتجاه المغاير ، إلا أن الصبيان قالوا إنه لم تكن هناك ثمة عربة ، ولم يمكن اقتفاء أثر لمثل تلك المركبة. ولا يبدو محتملاً أن لورانس كان يقود دراجته بسرعة أكثر من ٤٠ ميلاً لأن نويلز سمع صوت تغيير النقلات بوضوح. وحينما وجدت الدراجة فيما بعد ، كان ناقل الحركة مثبتاً على النقلة الثانية ، مع العلم أن أقصى سرعة للدراجة كانت ٨٠ ميلاً فى الساعة. ولن يعرف يقيناً ما إن كان لورانس قد فقد تركيزه لبرهة ، أم أن الصبيان كانا يقودان دراجتيهما جنباً إلى جنب ، فما يبدو ، أن الذى حدث هو أن لورانس جزّ عجلة بيرتى هارجريفز الخلفية وقذف بالصبي من على دراجته. وحينما انحرف ليتحاشى دماراً أكثر ، قُذف به من فوق مقود دراجته وارتقى على رأسه فى الطريق على بُعد خمس ياردات. ثم انحرفت الدراجة بعنف واستدارت وبعد ذلك سقطت ساكنة. وانتهى كل شيء فى ثوان. ورقد فى الطريق وهو يرتعد ، وكان رأسه كتله من الدماء. وفى الحال ، هروا إليه العريف كاتشوبل وحاول مسح الدم بمنديله. وفى هذه اللحظة ، وصلت شاحنة جيش فأوقفها كاتشوبل ووضع جسد لورانس على نقالة ، ثم نقل إلى مستشفى وول. وكان مخه قد تدمر دماراً شديداً ، ولم يستعد الوعى أبداً. وأخيراً ، دفع الراكب بنفسه بعيداً عن جسده ، خارج نطاق نقطة اللاعودة. وتوفى فى ١٩ مايو بعد ستة أيام من الحادث.

قمت بزيارة مقبرة لورانس فى ركن المدفن وقد مُيزت بحجر حفر عليه نفس النقش الذى زين واجهة مدرسته «امنحنى النور يا إلهى» ورأيت هذا تأكيداً للإله الذى كان قد كف عن الاعتقاد فيه لمدة طويلة.. إلا أن هناك أثراً له أكثر إثارة للإعجاب يقع فى كنيسة سانت مارتن فى ويرهام ، أى فى ذلك القصر الذى ينتمى إلى العصور الوسطى والذى طالما حلم لورانس بأن يمتلكه ، إلا أنه لم ينجح فى

الفصل الحادى العشرون، نسرع.. لنلدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

تحقيق هذا طوال حياته . وسانت مارتن هى إحدى أقدم الكنائس الأنجلوساكسونية فى دورست ، وهى على وجه التحديد البساطة العارية التى أحبها لورانس . حينما زرت الكنيسة ، ذات يوم دافئ، فى نهاية أسفارى جميعها ، كان ضوء الشمس يتدفق شلالاً صغيراً مبرقشاً بخطوط رمادية داكنة من خلال نافذة ضخمة ، يسقط على تمثال لورانس الذى نحت كفارس صليبي فى زى عربى نحتته صديقه إريك كنجتون . وحينما وقفت أحملق فى وجهه الآمن ، الذى نحت من الحجر من أجل الأجيال القادمة ، أدركت إلى حد ما أننى قد أحببت على ذلك السؤال الذى وجهته لنفسى ذاك اليوم عند النبع فى وادى رُم . فقد اكتشفت أن لورانس ، مثلنا جميعاً ، متفرداً . فخليطه الفريد من الخصائص كان مطلوباً تحديداً فى إحدى لحظات التاريخ كى ينقذ الثورة العربية من النسيان ويأتى لها بالنجاح . لم يكن لورانس بطلاً ينتمى إلى منظومة الأبطال من قتلة التنين ، ذا قوة فوق بشرية جسداً وروحاً ، شجاعاً على الدوام ، صادقاً وشريفاً بشكل لا تشوبه شائبة ، أى أنه لم يكن الفارس الأبيض الذى حاولت أمه سارا خلقه . فمثل هذه المخلوقات ، كما كان لورانس يعلم ، تعيش فقط فى الخيال . بل على العكس ، كان رجلاً أدى به ضعفه الجسمانى ، وطبيعته الجنسية الغريبة ، ومظهره غير الجذاب ، وخوفه غير الطبيعى من الألم ، أن يطور قدرة غير عادية على التصميم والشجاعة والتراحم والتعاطف فلم يكن سلطوياً ، بل رجلاً منحته حساسيته القدرة على الترحم مع الرجال والنساء من جميع الطبقات والأجناس والمعتقدات ، رجلاً أتاح له شعوره بفقدان هوية ذاتية قوية أن يصبح أى شئ وأى شخص كان يشعر أن الآخرين يريدونه . فلم يكن لورانس بطلاً متخيلاً ، بل رجلاً حقيقياً به خليط من مواطن القوى والضعف . كان قائد واستراتيجياً ومحرضاً ومفكراً وفاعلاً وخالق أساطير ومضخماً للحقائق ومستغلاً للأسطورة . لقد كتبت ملايين الكلمات فى الشئ عليه ، أما بالنسبة لى فإن الكلمات الأكثر ملاءمة للإبقاء على ذكره هى تلك التى كتبها بنفسه لأحد أصدقائه قبل وفاته بسنوات «أنا بشر . فليست ثمة مخلوقات فوق بشرية كما نحب أن نتصور . فإن كان ثمة مخلوقات كهذه ، فإننى لم ألتق بها بعد» .

المراجع



Archives

- The Bodleian Library, Oxford: Reserve Manuscript Collection (embargoed material on. T.E. Lawrence).
- The National Library of Scotland, Manuscripts Collection: Various files, rare books and manuscripts.
- The Public Record Office, Kew: Foreign Office and War Office Files; Arab Bureau Files; Intelligence Files.
- The British Library Additional Manuscripts Collection: Robertson-McMahon Correspondence; T.E. Lawrence - Letters to Charlotte Shaw; T.E. Lawrence - War Diaries and Pocket Diaries.
- King's College, University of London, Basil Liddell Hart Centre for Military Archives: Joyce Pierce Akaba Papers.
- Imperial War Museum, London: Kingtley and Simpson Papers.

Books and Journals

- Abdallah, King of Jordan, *Memoirs*, ed. Philip Graves, London, 1950.
- Admiralty War Staff - Intelligence Division, *A Handbook of Arabia*, Vol. 1, London, 1916.
- Aldington, Richard, *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry*, London, 1955.
- Andrews, P., and Brunner, E., *The Life of Lord Nuffield*, London, 1955.
- Antonius, George, *The Arab Awakening*, London, 1938.
- Baker, Randall, *King Hussain and the Kingdom of the Hejaz*, Cambridge, 1979.
- Barbor, Patricia, *Desert Treks from Jeddah*, London 1996.
- Barker, A.J., *The Neglected War: Mesopotamia 1915 - 1916*, London, 1967.
- Bedarida, François, *A Social History of England 1851 - 1975*, London, 1979.
- Bell, Lady (ed.), *The Letters of Gertrude Bell*, 2 vols., London, 1927.
- Ben Yusuf, Ofer, and Khazanov, Anatoly, *Pastoralism in the Levant*, 1992.
- Berne, Eric, *Games People Play - The Psychology of Human Relationships*, New York, 1964.
- Betjeman, John, and Vaisey, D., *Victorian and Edwardian Oxford*, Oxford, 1971.

المراجع

- Birdwood, Lord, *Nuri As Said, A Study in Arab Leadership*, London 1959.
- Blackmore, Charles, *In the Footsteps of Lawrence of Arabia*, London, 1986.
- Blunt, Lady Anne, *Bedouin Tribes of the Euphrates*, 2 vols., London, 1879.
- Bray, N. N. E., *Shifting Sands*, London 1934.
- Brill, E. J., *Mecca and the Tribes of Arabia - Some notes on Their Relations in Society and Religion from Jahiliyya to Islam*, ed. M. . Kister, London, 1990.
- Brown, Malcolm, *A Touch of Genius - the Life of T. E. Lawrence*, Oxford, 1988.
- Bullock, David L., *Allenby's War - The Palestinian - Arabian Campaign 1916 - 18*, London, 1987.
- Burbidge, W. F., *The Mysterious AC2 - A Biographical Sketch of Lawrence of Arabia*, London, 1943.
- Burckhardt, J. L., *Notes on the Bedouins and Wahhabys*, 2 vols, London, 1830.
- Candler, E., 'Lawrence in the Hedjaz', *Blackwood's*, 243 (December 1925).
- Charmley, John, *Lord Lloyd and the Decline of the British Empire*, London 1987.
- Clayton, Gilbert, *An Arabian Diary*, London, 1969.
- Cowan, Lyn, *New Ways in Psychoanalysis*, New York, 1966.
- Cowan, Lyn, *Masochism - A Jungian View*, Texas, 1982.
- Djemal, A., *Memories of a Turkish Statesman 1915-1919*, London, 1922.
- Donner, Fred McGraw, *The Early Islamic Conquests*, Princeton, 1981.
- Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, 2 vols, Cambridge, 1888.
- Ellis, Havelock, *Psychology of Sex*, New York, 1933.
- Eph'al, Israel, *The Ancient Arabs - Nomads on the Borders of the Fertile Crescent 9th-5th Centuries BC*, London 1982.
- Facey, William, and Grant, Gillian, *Saudi-Arabia - The First Photographers*, London 1996.
- Falls, Cyril, et al., *Military Operations in Egypt and Palestine*, Vol.

- 1, 1928, Parts 1 and 2 (Official War History).
- Foucault, Michel, *History of Sexuality*, London, 1975.
- Glen, Douglas, *In the Steps of T. E. Lawrence*, London, 1934.
- Glubb, Jhon Bagot, *The Great Arab Conquests*, London, 1963.
- Graves, Robert, *Lawrence and the Arabs*, London, 1927.
- Graves, Robert, *T. E. Lawrence to His Biographer Robert Graves*, London, 1938.
- Gurney, O. R., *The Hittites*, London, 1972.
- Herbert A., *Mons, Anzac and Kut*, London, 1919.
- Hitti, Philip, *A History of the Arabs*, New York, 1937.
- Hogarth, David G., 'War and Discovery in Arabia', *Geographical Journal*, March 1920.
- James, Lawrence, *Imperial Warrior - Life Times of Sir Edmund Allenby*, London, 1993.
- James, Lawrence, *The Golden Warrior - The Life and Legend of Lawrence of Arabia*, revised edn, London, 1995.
- Jarvis, C. S., *Yesterday and Today in Sinai*, London, 1941.
- Kedourie, Elie, *In the Anglo-Arabian Labyrinth - the McMahon - Husayn Correspondence and Its Interpretations 1914 -1939*, Cambridge, 1976.
- Kirkbride, Alec, *A Crackle of Thorns*, London, 1956.
- Kirkbride, Alec, *An Awakening*, London, 1971.
- Kinghtley, Philip, and Simpson, Colin, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia*, London, 1969.
- Knowles, Pat, *A Handful with Quietness*, London, 1992.
- Kressenstein, K. von, 'The Campaign in Palestine from the Enemy Side', *Journal of the Royal Society Institute*, Vol. 67, 1992.
- Lancaster, William, *The Rwala Beduin Today*, Cambridge, 1981.
- Lawrence, A. W. (ed.), *T. E. Lawrence by His Friends*, London, 1938.
- Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, Oxford text (limited edition), London, 1926.
- Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, London 1935.
- Lawrence, T. E., *Crusader Castles*, London, 1936.
- Lawrence, T. E., *The Mint*, London 1936.

المراجع

- Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Edward Garnett, London, 1938.
- Lawrence, T. E., et al., *The Home Letters of T. E. Lawrence and his Brothers*, ed. M. R. Lawrence, Oxford, 1954.
- Lawrence, T. E., *Fifty Letters 1920 -1935*, Texas, 1962.
- Lawrence, T. E., *Letters to E. T. Leeds*, ed. Jeremy Wilson, London, 1988.
- Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Malcolm Brown, Oxford, 1991.
- Lawrence, T. E., *Secret Despatches from Arabia*, ed. Malcolm Brown, London, 1991.
- Lawrence, T. E., and Wooley, L., *The Wilderness of Zinn*, London, 1915.
- Layard, Austin, *Nineveh and Its Remains*, London, 1848 - 9.
- Layard, Austin, *The Ruins of Nineveh and Babylon*, London, 1853.
- Lewis, Norman N., *Nomads and Settlers in Syria and Jordan 1800-1980*, Cambridge, 1987.
- Lewis, R., *Everyday Life in Ottoman Turkey*, London, 1971.
- Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence: in Arabia and After*, London, 1934.
- Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence to His Biographer Liddel Hart*, London, 1938.
- Lockman, J. N., *Scattered Tracks on the Lawrence Trail - 12 Essays on T. E. Lawrence*, Michigan, 1996.
- Lonnroth, Eric, *Lawrence of Arabia, An Historical Appreciation*, London, 1956.
- Lowe, Gordon R., *The Growth of Personality*, London, 1972.
- Mack, John, *A Prince of Our Disorder - The Life of T. E. Lawrence*, London, 1976.
- Marriot, Paul, *The Young Lawrence of Arabia 1888 - 1910*, Oxford, 1977.
- Marriot, Paul, and Argent, Yvonne, *The Last Days of T. E. Lawrence*, London, 1996.
- Mauger, Thierry, *The Bedouins of Arabia*, London, 1988.
- McCarthy, Fiona, *William Morris - A Life for Our Times*, London, 1991.

- Meeker, Michael, *Literature and Violence in North Arabia*, Cambridge, 1979.
- Meinerzhagen, Richard, *Middle East Diary 1917-1956*, London 1959.
- Meyers, Jeffrey, 'T. E. Lawrence and Seven Pillars of Wisdom' in *Homosexuality in Literature 1890-1930*, New York, 1987.
- Meyers, Jeffrey, *The Wounded Spirit - T. E. Lawrence's Seven Pillars of Wisdom*, New York, 1989.
- Meyers, Jeffrey, (ed.), *T. E. Lawrence: Soldier, Writer, Legend*, London, 1989.
- Miller, James, *The Passion of Michel Foucault*, New York, 1993.
- Montgomery-Hyde, H., *Solitary in the Ranks- Lawrence of Arabia as Airman and Private Soldier*, London, 1977.
- Morris, James, *The Hashemite Kings*, London, 1959.
- Morris, James, *Farewell The Trumpets - An Imperial Retreat*, London, 1978.
- Morris, Jan, *Oxford*, London 1965; Oxford, 1978.
- Mousa, Suleiman, *T. E. Lawrence - An Arab View*, Trans. Albert Butros, London, 1966.
- Musil, Alois, *The North of Hegaz - A Preliminary Report of the Expedition of 1910*, P R O F O 882/1-3, 1916.
- Musil, Alois, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York, 1928.
- Neville, R. G., and Sloggett, T., *Oxford as it Was*, Oxford, 1979.
- Nicolle, D., *Lawrence and the Arab Revolts - Warfare and Soldiers of the Middle East, 1914-18*, London, 1989.
- O'Brien, Philip, *T. E. Lawrence: a Bibliography*, London, 1988.
- Ocapmo, Victoria, *338171' T.E'*, ed. D. Garnett, London, 1963.
- Orlans, Harold (ed.), *Lawrence of Arabia, Strange Man of Letters - the Literary Criticism and Correspondence of T. E. Lawrence*, London 1993.
- Park, James, *Sons, Mothers and Other Lovers*, London, 1995.
- Payne, Robert, *Lawrence of Arabia: a Triumph*, London, 1966.
- Pearson, E., *Awakening the Hero Within*, New York, 1991.
- Pratten, Dr John, *Social Stratification in Edwardian England*, 1985.
- Randell, John, *Sexual Variations*, London, 1973.

- Reik, Theodor, *Of Love and Lust: A Study of Human Sexual Emotions*, London, 1954.
- Reynolds, J. J., *Canon Christopher of St. Aldates*, London, 1967.
- Richards, Vyvyan, *Portrait of T. E. Lawrence, The Lawrence of the Seven Pillars of Wisdom*, London, 1936.
- Rolls, S. C., *Steel Chariots in the Desert*, London, 1937.
- Sachar, H., *The Emergence of the Middle East 1914-1924*, New York, 1969.
- Said, Edward, *Orientalism*, London, 1978.
- Schild, Marten, *Lawrence and Arabia and T. E. Lawrence: Essays on the Private Life of an Immaculate Hero and His Imperfect Shadow* (draft MS, unpublished).
- Seymour-Smith, Martin, *Robert Graves*, London, 1982.
- Sherwood, John, *No Golden Journey - A Biography of James Elroy Flecker*, 1973.
- Stewart, Desmond, *T. E. Lawrence*, London, 1977.
- Stirling, W. F., 'Tales of Lawrence of Arabia', *Cornhill Magazine*, 74 (1933).
- Stirling, W. F., *Safety Last*, London, 1953.
- Storr, Anthony, *Sexual Deviations*, London, 1973.
- Storrs, Ronald, *Orientations*, London, 1944.
- Sugarman, Sidney, *A Garland of Legends: Lawrence of Arabia and the Arab Revolt*, Worcester, 1992.
- Sweet, Louise E., 'Camel Raiding of the North Arabian Bedouin: a Mechanism of Ecological Adaptation', *American Anthropologist*, 67 (1965).
- Sydney Smith, Clare, *The Golden Reign - The Story of My Friendship with Lawrence of Arabia*, London, 1940.
- Tabachnick, S. E., and Matheson, R., *Images of Lawrence*, 1988.
- Thesiger, Wilfred, *Arabian Sands*, London, 1959.
- Thomas, Edward, *Oxford*, 1903.
- Thomas, Lowell, *With Lawrence in Arabia*, London, 1924.
- Turner, Adam, *The Making of David Lean's Lawrence of Arabia*, London 1994.
- Weintraub, Stanley, *Private Shaw and Public Shaw - A Dual Portrait of Lawrence of Arabia and GBS*, London, 1963.

- Weintraub, Stanley and Rodelle (eds.), *Evolution of a Revolt: Early Postwar Writings of T. E. Lawrence*, Pennsylvania, 1968.
- Williamson, Henry, *Genius of Friendship 'T. E. Lawrence'*, London, 1936.
- Wilson, Colin, *The Outsider*, London, 1956.
- Wilson, Jeremy, *T. E. Lawrence - Lawrence of Arabia, National Portrait Gallery Catalogue of the T. E. Lawrence Exhibition*, 1988.
- Wilson, Jeremy, *Lawrence of Arabia. The Authorised Biography of T. E. Lawrence*, London, 1989.
- Winstone, H. R. V., *The Illicit Adventure*, 1987.
- Winterton, Lord, *Fifty Tumultuous Years*, London, 1955.
- Winterton, Lord, 'Arabian Nights and Days', *Blackwood's Magazine*, 207 (may 1920).
- Woolley, C. Leonard, *Dead Towns and Living Men, being Pages from an Antiquary's Notebook*, London, 1932.
- Yardley, Michael, *Backing into the Limelight*, London, 1985.
- Young, Hubert, *The Independent Arabs*, London, 1933.

المحتويات



الصفحة

| | |
|-----|--|
| ٤ | مقدمة: لورانس تفكيك الأسطورة بقلم عاصم الدسوقي |
| ١٢ | مقدمة المؤلف: وادي القمر بقلم مايكل آشرف |
| ١٩ | الباب الأول: الجوال ١٨٨٨ - ١٩١٦ |
| ٢٠ | الفصل الأول: الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ |
| ٣٨ | الفصل الثاني: امنحنى النوريا إلهي، سنوات الدراسة |
| ٥٤ | الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة |
| ٧٦ | الفصل الرابع: السلطان يحتسى الشاي كعادته، ثورة تركيا الفتاة |
| ٨٦ | الفصل الخامس: شاب شبه مرموق، أكسفورد وسوريا |
| ١١٢ | الفصل السادس: هوجارث يذهب للتتقيب، أكسفورد وكرميش |
| ١٣٦ | الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي، كرميش ومصر |
| ١٥٦ | الفصل الثامن: سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال |
| ١٦٦ | الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكانى |
| ١٨٢ | الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها |
| ٢٠٨ | صور فوتوغرافية |
| ٢١٧ | الباب الثاني: المحارب أكتوبر ١٩١٦ - أكتوبر ١٩١٨ |
| ٢١٨ | الفصل الحادى عشر: أكبر حدث في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠ |
| ٢٣٦ | الفصل الثاني عشر: انقضت في وسطهم كالحسام: المهمة الأولى في الحجاز |
| ٢٦٤ | الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاء على الوجه |
| ٢٨٤ | الفصل الرابع عشر: لا أعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل |
| ٣١٢ | الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف مكان الكابتن لورانس |
| ٣٤٦ | الفصل السادس عشر: هواة من الطراز الأول - عبور سيناء، غارة المدورة |
| ٤٧٠ | الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر شركسى من القنيطرة، عملية اليرموك |
| | وحادث درعا |

المحتويات

الصفحة

| | |
|-----|--|
| ٤٠٢ | الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل - طفيلة وتل الشهم |
| ٤٢٠ | الفصل التاسع عشر: أطفنت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية |
| ٤٥٣ | الباب الثالث: الساحر ١٩١٨ - ١٩٣٥ |
| ٤٥٤ | الفصل العشرون: مازال الكولونيل لورانس مستمراً رغم أنى تنجيت جانباً |
| ٤٧٤ | الفصل الحادى والعشرون: نسرع لنلدفع أنفسنا خارج أجسادنا |
| ٤٩٩ | المراجع |
| ٥٠٧ | المحتويات |

تهشيم الصورة

اقترن اسم لورانس في كتب التاريخ بثورة الشريف حسين أمير الحجاز ضد الحكم التركي في يوليو ١٩١٦ المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى لقد أصبح يعرف في الأدبيات «بلورانس العرب». وقد خلعت هذه الكتب على لورانس ألواناً من البطولة وصنوفاً من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تخلب لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها. وربما ترجع «أسطرة» هذه الشخصية إلى الغموض الذي اكتنف صاحبها عند الذين التقوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر في رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه، ثم كانت وفاته وهو على ظهر دراجته التي كان يعشق ركوبها وتشعره بأنه يدوس العالم لتجعل منه بطلاً تراجيدياً بالمعنى المسرحي.

ولم ينشغل العرب الذين التقوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأثناء الصراع مع الأتراك بالتعرف على حقيقته، ولماذا يتصل بهم ويعرض خبراته لمساعدتهم في الأعداد للثورة. كما لم يتوقفوا أمام ما لاحظوه عليه من سلوك شاذ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما انضح لهم صدق تصوراتهم في التطبيق العملي، وطالما أنه يساعدهم «فعلاً» لإعلان مملكة عربية مستقلة طبقاً لمراسلات الشريف حسين مع هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر (١٩١٥-١٩١٦). كما لم يدرك العرب آنذاك. ولم يكونوا منفردين في هذا. أن لورانس ينفذ خطة في استراتيجية بريطانية تمت صياغتها سراً منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا في الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها.

.....

وليس من باب المغالاة القول إن المؤلف يثار من لورانس لسبب أو لآخر.. يريد أن ينزله من عرش مزيف توج عليه ملكاً للعرب أو زعيماً لهم، إذ نراه يتعقبه في رحلاته التي كتب عنها في مذكراته ويقارن ما ورد بها بما ورد بمفكرته الصغيرة وبما ورد في رسائله إلى الآخرين، ثم نراه يقيس المسافات بين كل الأماكن التي ذهب إليها لورانس والزمن الذي استغرقه التنقل عبر هذه الأماكن ليقول للقارئ في النهاية كم كان لورانس كذوباً ومخادعاً. ثم نراه يركز تركيزاً شديداً على شذوذه الجنسي ويعتبره مفتاح فهم شخصية لورانس. وليس من شك أن التركيز على هذه المداخل الشخصية يسهم في تهشيم الصورة المثالية التي أراد لها لورانس أن تستقر في مخيلة الناس وخاصة في مخيلة أهل الشرق حيث تحتل الأخلاق مرتبة عليا في تقويم حركة الناس وتصرفاتهم وسياساتهم. وحسناً فعل.

فهل نجح المؤلف في هذا؟ إنني أدعو القارئ العربي ليتعرف على العالم الخفى للورانس «العرب» داخل صفحات الكتاب.

عاصم الدسوقي